البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري

المتوفى بعد سنة ٧١٢ هـ

المجلد الثاني

حققه، وضبط نصه، وعلق عليه

بشار عواد معروف

محمود بشار عواد

دار الغرب الإسلامي

تونس

الطبعة الأولى

١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب. 677 تونس 1035

البيان المغرب

في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب

المجلد الثاني

في أخبار الأندلس

ذكر صِفَة الأَنْدَلُس وأَوَّلِيَّتها

أَمَّا صِفة الأندلس، فإنَّها جزيرةٌ مُرَكَّنةٌ، ذاتُ ثلاثة أركان، قريبةٌ من شكل الـمُثَلَّث: الركنُ الواحدُ منها عند صَنَم قَادِس، والركنُ الثاني في بلاد جلِّيقِيَّة[1]، وهو مُقابِل لجزيرة برطانية[2] حيث الصَّنَم المشبَّه بصَنَم قادِس، والركنُ الثالثُ بناحية الشرق، بين مدينة أَرْبُونة[3] ومدينة بُرْذِيل[4] حيث هو قُرْبُ البحر الـمُحيط الغربيّ من البحر المتوسِّط الشاميّ، وكاد البَحْران هناك أن يجتمعا في ذلك الموضع، فتصير الأندلس في جزيرة لولا يسيرُ ما بقي منها، وهو مَسِيرةُ يوم كامل، وفيه مدخلٌ يقال له: الأبواب[5]، وفيه تتَّصل الأندلسُ بالأرض الكبيرة. فالأندلس كلُّها مُـحْدَقَةٌ بالبحر: البحر الـمُحيط الغربيّ، والبحر المتوسِّط القبليّ، ويَصْعَدُ منه قليلٌ إلى ناحية الشرق، فحدُّ الأندلس في الشرق والغرب وبعض الجوف البحرُ الـمُحيط، وحدُّها في بعض القِبْلة والشرق البحرُ المتوسِّط، لأنه[6] يتوسَّط الأرضَ كلَّها. وقيل: إنَّه في آخر الأقاليم[7] السبعة.

وقيل: إنَّ أَوَّل مَن نزل الأندلسَ بعد الطوفان قومٌ يُعرَفون بالأَنْدَلِش (بشين مُعْجَمة)، فسُمِّيَت بهم الأَنْدَلُس (بالسين غير مُعْجَمة)[8]. وقيل: إنَّهم كانوا مجُوسًا، فأراد اللهُ قَلْعَهم[9] منها، فحبس الـمَطَرَ عنهم حتَّى غاضت مياهُهم وعيونُهم وأنهارُهم،

---

(١) معجم البلدان ٢/ ١٥٧.

(٢) في ر٢: «قرطاجنة»، وينظر الروض المعطار ٨٩.

(٣) معجم البلدان ١/ ١٤٠.

(٤) الروض المعطار ٩٠.

(٥) في ر٢: «باب الأبواب»، وما أثبتناه هو الصواب، وينظر الروض المعطار ٦١٦.

(٦) في أ، م: «إلا أنه».

(٧) في أ: «الإقليم»، ولا يصح.

(٨) الروض المعطار ٣٣، وصبح الأعشى ٥/ ٢٠٥.

(٩) في ر٢: «خلعهم».

وخرجوا منها، وافترقوا في البلاد، وأقامت خاليةً مئةَ سنة[١]، من حدّ إفْرَنْجة إلى البحر، ثمَّ دخلها بعد ذلك قومٌ من الأفارِقة، أجْلاهم صاحبُ إفريقية من الجوع، فلمّا نزلوا الأندلس، وجدوا أنهارها قد جَرَتْ، فملكوها نحو مئة وخمسين سنة. وعَدَدُ ملوكهم أحدَ عشر مَلِكًا، ودارُ مُلكهم مدينة[٢] طالِقَة[٣]. ثمَّ غلبت عليهم الإشْبَانيّة حتَّى أخرجوهم عن الملك، وصار الـمُلك إليهم، وبهم سُمِّيت إشْبيلية، فبنَوْها وسكنوها، وخربت طالِقَة. وهجم عَجَمُ رُومة، فكانوا ملوكًا، حتى دخل البشترلقات[٤] على الرُّومانيِّين، وقد بعث اللهُ المسيحَ، عليه السلام، فبعث الحوَاريِّين إلى البلدان كلِّها. وظهر دِينُ النصرانيَّة وغلب. ثمَّ كان دخول البشترلقات[٥] من رُومة، وكانوا يملكون إفْرَنْجة، ويَبعثون عُـمّالَهم إليها. ودارُ مُلْكهم مَارِدَةُ، فكانت عِدَّة ملوكهم سبعةً وعشرين مَلِكًا[٦].

ثمَّ ظهر بإشبيلية إشْبَان، وكان رجلًا ضعيفًا حرَّاثًا، فوقف به الـخَضِرُ، عليه السلام، وهو يحرثُ، فقال له: إذا غلبتَ على إيلياء، فارْفُقْ بأولاد الأنبياء! فقال له: كيف يكون هذا، وأنا ضعيفٌ، من غير بيتِ مُلْكٍ؟ فقال له: يُقَدِّر ذلك مَنْ قَدَّرَ في عصاك ما قَدَّرَ! فلما نظر إلى عصاه، إذا بها قد أورقت، ففزع لذلك[٧]، وغاب عنه الـخَضِر. ووقع ذلك بنفس إشبان، فلم يزل يصطنع الرجال حتَّى عَلَا[٨] اسمُه وشاع[٩] ذِكْره، وتغلَّب على الأندلس، فخرج في السُّفُن إلى إيلياء، فغنمها وملكها[١٠] وقتل فيها

---

(١) ينظر الخبر في الروض المعطار ٣٣.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) معجم البلدان ٢/ ٨.

(٤) في ر٢: «البوشتولقات»، وفي الكامل لابن الأثير ٤/ ٥٥٨: «البشنوليات».

(٥) في ر٢: «ثم دخل هؤلاء البوشتولقات».

(٦) بعد هذا في أ: «منهم».

(٧) هذه اللفظة من ر٢.

(٨) في ر٢: «غلظ».

(٩) ليست في أ.

(١٠) في أ، م: «وهدمها».

مئةَ ألف من اليهود، وباع منهم مئة ألف ثم هدمها[١]، وانتقل رُخامها إلى الأندلس. وكان مُلْكه نحوَ عشرين سنة، وبعد سَنتَيْن من ملكه، غزا إيلياءَ. ويقال: إنَّ إشبانَ اسمه أصْبَهان؛ لأنَّه وُلِد بأصْبَهان، فسُمِّي بها، والله أعلم. فعِدَّةُ ملوكهم خمسة وخمسون مَلِكًا.

ثمَّ دخل القُوطُ الأندلس، وقطع الله مُلْكَ رُومةَ منها، وعِدَّةُ ملوك القُوطيّين ستَّة عشر مَلِكًا، آخِرُهم رُذْريق[٢]، الذي دخل عليه المسلمون، وجعلوا دارَ مُلْكهم طُلَيْطُلة. ووَجَدتُ في بعض كُتُب العَجَم أنَّ آخر ملوك الأندلس من القوطيين[٣] كان يسمَّى وَخْشَنْدَش، ولم يكن في النصرانيَّة أحكمُ منه ولا أحسن[٤] إصابةً لسُنَّتهم، وعلى سُنَّته أمْضَت[٥] النصرانيَّةُ أحكامها، وهي الأربعة الأَناجيل، التي يَحْلِفون بها وينتهون إلى ما فيها. وقالوا: إنَّ رُذريق[٦] الذي دخلت عليه العربُ والبربر، وثب على وَخْشَنْدَش هذا وقتَله، وغلب على مُلْك الأندلس، ودانت له طُلَيْطُلةُ وغيرها.

وفي كُتُب العَجَم: إنَّ رُذْرِيق هذا لم يكن من بيت المملكة، وإنَّما كان زَنيماً، وكان من عُمَّال الـمُلْك بقُرْطُبة، وقتل وَخْشَنْدَش بعدما ثارَ[٧] عليه، فغيَّر الحُكْم، وأفسد سُنَنَ الـمُلْك، وفتح البيتَ الذي كان فيه التابوت. وكان إذا مات الـمَلِكُ منهم، يُكْتَب اسمُه وكَمْ وَلِيَ، ويُوضَع في ذلك البيت مع تاجه، ولا سبيلَ بَعْدُ عندهم لفَتْحه، فلمَّا فتحه رُذْرِيق، أنكرت النصرانيَّةُ ذلك عليه، وجعلوا له مِثْله ذهباً وفضَّةً، ولا يفتحُه، فلم يقبلْ ذلك منهم، وعزم على فَتْحه، ووجد في البيت تيجانَ الملوك

---

(١) «ثم هدمها» ليس في أ، م.

(٢) ترجمته في الوافي للصفدي ٢٤/ ٤٠٠ وفيه وفي أ: «الذريق»، وفي ر٢: «رذريق»، وسيأتي بهذا اللفظ بعد قليل في النسختين، فظهر منه مراد المؤلف في كتابة الاسم.

(٣) قوله: «من القوطيين» من ر٢.

(٤) في ر٢: «أشد».

(٥) سقطت من أ.

(٦) في أ، م: «لذريق».

(٧) في أ، م: «خالف».

وتابوتًا فيه صُوَر العرب الذين يدخلون الجزيرة[١]، متنكِّبةً[٢] قسيَّها، وفي رؤُوسها عمائمُها، وعليها مكتوبٌ: «إذا فُتِحَ هذا البيت، وأُخرجت هذه الصُّوَر، دخل الأندَلُسَ قومٌ في صُوَرِهم، فغلبوا عليها!»، فلمّا دخلت العربُ والبَرْبَرُ مع طَارِق، والتقَوْا برُذريق[٣] أسلمَتْه النصرانيَّةُ، وانهزمتْ عنه حتى قُتِل. وكان دُخولُ طارِق بعد سنةٍ من ولاية رُذْريق، فقتله طارِق بقَرْطَاجَنَّة من كُوَر الجزيرة، وافتتح البلادَ حتَّى انتهى[٤] إلى طُلَيْطُلة، فوجد بها مائدةَ سُلَيْمان، على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، ووجد فيها صُوَرَ العَرَب والبربر على خيولهم، وهي الصُّوَر التي وُضِعت على القَصْر بقُرْطُبة. وقيل أيضًا: إنَّها طلّسمات، كانت العرب قد نصبَتْها على مساجد الأندلُس، فنقلها عبدُ الرحمن بن مُعاوية إلى القَصْر بقُرْطُبة.

وهذا القَدْر كافٍ هُنا من صِفَة الأندلس وذِكْرِ ملوكها الأوَّلين.

ذكر دخول المسلمين إلى الأنْدَلُس وانتزاعها من أيدي الكُفَّار

أمَّا دخول المسلمين لها، فذُكِرَ فيه أربعة أقوال:

أحَدُها: أنّ الأندَلسَ أوَّلُ من[٥] دخلها عبدُ الله بن نافِع بن عبد القَيْس وعبدُ الله بن الحُصَيْن الفِهْرِيَّانِ، من جهة البحر، في زمن عثمان رضي الله عنه. قال الطَّبريُّ[٦]: أتَوْها من بَرِّها وبحرها[٧]، ففتحها الله تعالى على المسلمين هي وإفْرَنْجة، وازداد في سلطان المسلمين مثل إفريقية[٨]، ولم يزل أمرُ الأندلس لإفريقية، حتَّى كان زمنُ هشامِ بن

(١) قوله: «الذين يدخلون الجزيرة» ليس في أ، م.

(٢) من هنا إلى قوله «مكتوب» ليس في ر٢.

(٣) في أ: «بالجزيرة».

(٤) في أ، م: «انتهى طارق».

(٥) قوله: «أول من» ليس في أ.

(٦) تاريخ الطبري ٤/ ٢٥٥ باختلاف لفظي.

(٧) قوله: «وبحرها» ليس في المطبوع من تاريخ الطبري.

(٨) في ر٢: «كما ازدادت إفريقية في زمن عثمان»، وما أثبتناه من أ وهو الموافق لما في تاريخ الطبري.

عبد الـمَلِك، فمنعَ البربرَ أرضَهم، وبقي مَن في الأندلس على حاله[١]. هذا نَصُّه[٢]. وإنَّ ذلك كان سنة سبع وعشرين من الهجرة الكريمة.

وثانيها: أنَّ موسى بنَ نُصَيْر افتتحها عام أحد وتسعين. وهو قولُ الطَّبَرِيّ أيضاً[٣]. فيظهر منه أنَّه جاز بنَفْسه، وتولَّى هذه الغزوةَ والفتح.

وثالثُها[٤]: أنَّ طَرِيفًا دخلها وفتحها في[٥] عام أحد وتسعين.

ورابعُها[٦]: أنَّ طارقاً أوَّلُ من دخلها، سنة أحد وتسعين، ودخل موسى بعده سنة[٧] اثنتين وتسعين.

فهذا الخِلاف واقعٌ في هؤلاء الأربعة مَوَاضِعَ، قيل: إنَّ أوَّل من دخلها الفِهْرِيَّانِ، ثمَّ ابنُ نُصَيْر، ثمَّ طَرِيف، ثمَّ طارِق، فظهر من هذا أن الفِهْرِيَّيْنِ أثَّرا فيها في زمن عثمان رضي الله عنه، وغَنِما من جهة البحر، وطَرِيفًا دخلها سنة إحدى وتسعين مُغيرًا ومُحربًا، ونُسِب فعلُه إلى موسى بن نُصَيْر، نِسْبَة فِعْلِ المأمورِ إلى الآمِرِ؛ فصدَّق[٨] عليه إضافته لموسى، فيكون قول الطَّبَرِيّ صادقًا، وصدَّق عليه أيضًا قولُ الرازيّ بأُخرى وأُولى، وطارق دخلها دخول الـمُسْتَفْتِح لها، الـمُكافِح، سنة اثنتين وتسعين، وموسى دخلها بعد ذلك مُتَمِّـمًا للفتح[٩].

وقال عَريب: إنَّ العِلْج يُلْيَان، صاحبَ الجزيرة[١٠] الخضراء، دَاخَلَ موسى بنَ نُصَيْر، صاحبَ إفريقية، عام أحد وتسعين، على يد طارِق بن زِيَاد عامِلِ موسى على

---

(١) في أ، م: «حالهم»، وما أثبتناه من ر٢، وهو الذي في تاريخ الطبري.

(٢) يعني: نص الطبري.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٥٤.

(٤) في ر٢: «والفتح الثالث».

(٥) ليس في ر٢.

(٦) في ر٢: «الرابع».

(٧) قوله: «ودخل موسى بعده سنة» سقط من ر٢.

(٨) من هنا إلى قوله «وطارق» سقط كله من ر٢.

(٩) قوله: «وموسى دخلها بعد ذلك متمماً للفتح» من ر٢.

(١٠) ليست في ر٢.

طَنْجَة وما والاها، فراسَلَ يُليَان موسى، يُزَيِّن عنده دخولَ الأندلس، ويُقَرِّب له أمْرَها[1]. وقيل: بل سارَ إليه بنفسه في البَحْر، حتَّى اجتمعَ به في ذلك، فاستشارَ موسى الوليدَ بنَ عبد الملك، إمَّا مراسلةً، وهو الأكثرُ الأظهر، وإمَّا بأنْ[2] نهض بنفسه إليه، فأشار الوليدُ بأنْ يختبرَها بالسرايا، ولا يُغَرِّر بالمسلمين، فبعث موسى بنُ نُصَيْر عند ذلك رجلًا من البربر، يسمَّى طَرِيفًا ويُكْنَى أبا زُرْعة، في مئة فارس وأربع مئة راجل، جاز في أربعة مراكب، حتَّى نزل ساحِلَ البحر بالأندلس فيما يُحاذِي طَنْجة، وهو المعروف اليومَ بجزيرة طَرِيف، سُمِّيَت باسمه؛ لنزوله هنالك، فأغارَ منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة[3] الخضراء، وأصاب سبيًا ومالًا كثيرًا، ورجع سالـمًا. وكانت إجازتُه في شهر[4] رمضان من سنة إحدى وتسعين.

وقد اتَّفق الجميعُ فيما يظهر على أنَّ مُتَوَلِّي كِبْر فَتْح الأندلس وجُلِّه ومُعْظَمِه طارِقُ بن زِيَاد. وقد اخْتُلِف في نَسَبه، فالأكثرون على أنَّه بَرْبَرِيٌّ من نَفْزة، وأنَّه مَوْلًى لموسى بنِ نُصَيْر، من سَبْي البربر. وقال آخرون: إنَّه فارِسيٌّ.

قال صالح بن أبي صالح: هو طارِقُ بن زِيَاد بن عبد الله بن رَفْهُو بن وَرْفَجُوم بن ينزغاسن بن وَلْـهاص بن يَطُّوفَتْ بن نَفْزاو، وكأنَّهم أيضاً اتَّفقوا على أنَّ طارقًا كان عامِلًا لموسى، قبل محاولة الأندلُس، على المغرب الأقصى، وتَرَكَ عنده رهائنَ برَابِر المغرب في سنة ست وثمانين من الهجرة. وقيل أيضاً: إنَّ طارِقًا جاز إلى الأندلس برهائنِ البربر سنة اثنتين وتسعين.

قال ابن القَطَّان: فالأكثرون يقولون: كان مستقَرُّه بطَنْجة، ومنهم من يقول: سِجِلْماسَة، وإنَّ سَلَا وما وراءَها من فاسَ وطَنْجة وسَبْتة كانت للنصارى، وكانت طَنْجةُ[5] ليُلْيَان منهم، فكان طارِقٌ إذًا نائبًا عن موسى بن نُصَيْر. واختلفوا أيضًا هُنا:

---

(١) ينظر صبح الأعشى ٥/ ٢٣٣.

(٢) «وإما بأن» ليست في أ.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) كذلك.

(٥) في ر٢: «سبتة».

هَلْ إنَّما سار إلى الأندلس عن أمر موسى، أو سار إليها لأمْرٍ دَهِـمَه، لم يمكنه إلَّا إنفاذه؟ والقولُ الأوَّل هو المشهورُ المتَّفَقُ عليه.

قال الرَّازيُّ[1] عن الواقِديّ: إنَّ الوليد بن عبد الملك استعمل موسى بنَ نُصَيْر على إفريقية، واستعمل موسى بنُ نُصَيْر طارِقَ بن زياد على طَنْجة. وكان يُلْيانُ مجاوراً له بالجزيرة الـخَضْراء التي تَلِي طَنْجة، فداخَلَه طارِقٌ حتَّى صار معه إلى الرِّضا، ووعده يُلْيانُ بإدخاله الأندلسَ هو وجنوده. وكان اجتمع لطارِق اثنا عشر ألفًا من البربر، فأجمع طارِقٌ على غزو الأندلس، بعد أن أخذ إذْنَ موسى[2] بنِ نُصَيْر مولاه في ذلك، فكان يُلْيانُ يحتمل أصحابَ طارِق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهلُ الأندلس بذلك، ويظنُّون أنَّ المراكب تختلف بالمتاجر[3]. فحمل الناسَ فوجًا بعد فوج إلى الأندلس، فلمّا لم يبقَ إلَّا فوجٌ واحدٌ ركب طارقٌ ومَن معه، حتَّى أجاز البحرَ إلى أصحابه. وتخلَّف يُلْيانُ بالجزيرة الخضراء؛ ليكون أطيبَ لنفسه ونفوسِ أصحابه. فنزل طارِق جبلًا من جبال الأندلس، يومَ الاثنين لخمسٍ خَلَوْن من رجب سنة اثنتين وتسعين، كما تقدَّم ذِكرُ ذلك[4]. فسُمِّيَ ذلك الجبل[5] باسمه إلى اليوم.

وذكر عيسى بنُ محمَّد، من وَلَد أبي الـمُهاجِر[6]، في كتابه السببَ في دخول طارق الأندلس، وهو[7] أنَّ طارقًا كان واليًا لموسى على طَنْجة، وكان يومًا جالسًا، إذ نظر إلى مراكبَ قد طلعتْ في البحر، فلما أرست، خرجوا إليها، فنزعوا أرْجُلها، وأنزلوا أهلها، فقالوا: إليكم جئْنا عامدين! وعظيمُهم معهم يُقال له: يُلْيان. فقال طارق:

(١) كتاب الرازي لم يصل إلينا.

(٢) من ر٢.

(٣) في م: «بالتجار».

(٤) «ذكر ذلك» ليست في ر٢.

(٥) ليست في ر٢.

(٦) قوله: «من ولد أبي المهاجر» ليس في ر٢.

(٧) في ر٢: «وذلك».

ما جاء بك؟ فقال له: إنَّ أبي[١] مات، فوثبَ على مملكتنا بِطْريقٌ يقال له: رذريق[٢]، فأهانني، وأذَلَّني، وبلغني أمرُكم، فجئتُ إليكم أدعوكم إلى الأندلس، وأكون دليلًا لكم. فأجابه طارقٌ إلى ذلك، واستنفر اثني عشر ألفًا من البربر، فحملهم يُلْيانُ في المراكب فوجًا بعد فوج، كما تقدَّم ذكرُه.

وذكر غيرُ هؤلاءِ أنَّ السبب في ذلك: أنَّ طَنْجة وسَبْتة والخضراءَ وتلك النواحي كانت في مملكة صاحب الأندلس، على نحوِ ما كانت السواحل كلُّها بالعُدْوة وما قَرُبَ منها للرُّوم، يسكنونها؛ إذ كان البربرُ يرغبون عن سُكنى المُدُن والقُرَى، وإنَّما بُغيتُهم سُكْنَى الجبال والصحارى؛ إذ كانوا أصحابَ إبِلٍ وسوائم. وكان النصارى في صُلْحهم. وكانت السُّنَّة في الأندلس في ملوك النصارى أن يستخدموا بني بَطَارِقَتهم وكبار رجالهم، فالرجال منهم يخدمون خارجًا، والنساء جَوَارٍ يخدمْنَ داخلًا، وهكذا سُنَّتهم إلى اليوم في الرجال خاصَّةً، يخدمون صبيانًا يتأدَّبون بأدَبِهم، ويتعلَّمون سُنَّتهم، فإذا أدركوا وكبروا، ألحقوهم برجالهم وأهليهم. وكان مَلِك الأندلس من القُوطيِّين يُسمَّى رُذْرِيق، قد مدَّ يده إلى ابنةِ يُلْيان، وكانت عنده، فاغتصبها نَفْسَها، فأرسلتْ إلى أبيها، ودسَّت إليه، فلمّا بلغه ذلك، أحفظه[٣]، وكتمه، وارتصدَ به الأيَّام، ونصب له الغوائلَ، حتى كان من دخول العَرَبِ الـمَغْرِبَ[٤] ما كان[٥]. وأرسل رُذْرِيقُ إلى يُلْيانَ في بُزاة وطيور[٦] من طير عمله[٧] وغيرها[٨]؛ فأرسل إليه: لَأُورِدَنَّ عليك طيرًا لم تَسمع قطُّ بمثلها. وهو ينوي الغَدْر به، فحينئذٍ دعا طارقًا إلى ما كان من جواز البحر.

---

(١) في ر٢: «ملكنا».

(٢) في أ، م: «لذريق».

(٣) العبارة في ر٢ كما يأتي: «فأرسلت إلى أبيها سرًا تعلمه بذلك، فأغضبه».

(٤) في ر٢: «حتى دخل العرب المغربَ».

(٥) ينظر صبح الأعشى ٥/ ٢٣٣.

(٦) في ر٢: «وطير».

(٧) «من طير عمله» زيادة من ر٢.

(٨) ليست في ر٢.

واختلفت الرواياتُ في قتال طارِق أهْلَ الأندلس؛ فقيل: إنَّ رُذْرِيق زحف إلى طارقٍ بجميع أهل[1] القُوَّة من أهل مملكته بنفسه، وهو على سرير مُلْكه على بَغْلَيْن يـحْمِلانِهِ، وعليه تاجُه وجميعُ الحلية التي كانت تلبسها ملوك الأعاجم[2] حتَّى انتهَوْا إلى الجبل الذي فيه طارق، فخرج إليهم طارقٌ بجميع أصحابه رَجَّالةً، ليس فيهم راكبٌ إلَّا القليل، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتَّى ظنُّوا أنَّه الفناء، ثمَّ صرفَ اللهُ وجوهَ أعدائه، فانهزموا، وأُدرِك رُذْرِيق، فقُتل في وادي الطين. ومضى حتَّى دخل قُرْطُبَةَ، وفتح اللهُ الأندلسَ على المسلمين. هكذا ذكر عيسى في كتابه.

وذكر الواقِديُّ أنّهم اقتتلوا من حين طلعت الشمسُ إلى أنْ غربت، فلم تكن قطُّ بالـمَغْرِب[3] مقتلةٌ أعظمَ منها، بقيتْ عِظامُهم في المعركة دهراً طويلًا لم تَذْهب.

وذكر الواقِديُّ أيضًا، عن عبد الحميد بن جعفر[4]، عن أبيه، قال: سَمِعْتُ رجلًا من أهل الأندلس يُحَدِّث سعيد بن الـمُسَيِّب ويذكر له قِصَّتهم، فقال: لم يرفع المسلمون السيفَ عنهم ثلاثةَ أيَّام، حتَّى أوطؤوهُم غلبةً. ثمَّ ارتحل المسلمون إلى قُرْطُبة، وهي مدينةُ الأندلس التي كان بها رُذْرِيق، وبينها وبين الساحل مسيرةُ خمسة أيَّام. وكان سلطانُ رُذْرِيق إلى أرْبُونة ثَغْرِ الأندلس، وهي إذ ذاك أقصى مملكة الأندلس، مـمّا يَلِـي إفْرَنْجة، ومن أرْبُونة إلى قُرْطُبة ألفَ مِيل. وكان الذي أصابه طارقٌ ومَن معه من السَّبي في أوّل فتح لهم عشَرةَ آلاف رأس، وكان سُهْمانُهم من الذَّهَب والفضَّة لكُلّ واحد من الرجال مائتا دينار وخمسون دينارًا.

وذكر الرازيُّ أنَّه، لـمّا بلغ رُذْرِيقَ خَبَرُ طارِق ومن معه، ومكانُهم الذي هم فيه، بَعث إليهم الجيوشَ جيشاً بعد جَيْش، وكان قد قَوَّدَ على أحدهم[5] ابْنَ

---

(١) سقطت من ر٢.

(٢) في أ، م: «الملوك»، وما أثبتناه من ر٢.

(٣) في ر٢: «بالأندلس».

(٤) هو عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله بن الحكم بن رافع الأنصاري المدني المتوفى سنة ١٥٣هـ (تهذيب الكمال ١٦/ ٤١٦-٤٢٠، وتاريخ الإسلام ٤/ ١١٤-١١٥).

(٥) في أ: «عليه».

أُخت[١] له يُسمَّى بَنْج، وكان أكبرَ رجاله، فكانوا عند كلِّ لقاء يُهزَمون ويُقتلون، وقُتل بَنْج، وهُزم عسكره، فقَوِيَ المسلمون، وركب الرجَّالةُ الخيل، وانتشروا بناحيتهم التي جازوا[٢] بها. ثمَّ زحف رُذْرِيقُ إليهم بجميع عساكره ورجاله وأهلِ مملكته وهو على سرير مُلكه كما تقدَّم، فلما انتهى إلى الموضعِ الذي فيه طارِق، خرج إليه، فاقتتلوا على وادي لَكُّه[٣] من كورة شَذُونة يومهم ذلك، وهو يومُ الأحد لليلتين بَقَيتا من رمضان، من حين بزغت الشمسُ إلى أن توارت بالحِجاب، ثمَّ أصبحوا يومَ الاثنين على الحرب، حتَّى إلى المساء، وتمادت أيَّامُهم كذلك إلى يوم الأحد الثاني، فتمَّت ثمانيةُ أيَّام. وقَتل اللهُ رُذْرِيقَ ومَن معه، وفتحَ للمسلمين الأندلسَ، ولم يُعرَف لرُذْرِيق موضعٌ، ولا وُجدت له جُثَّةٌ، وإنَّما وُجد له خُفٌّ مُفَضَّضٌ، فقالوا: إنَّه غَرِقَ، وقالوا: إنَّه قُتل[٤]، والله أعلم.

ثمَّ تحرَّك طارِقٌ إلى مَضِيق الجزيرة، ثمَّ نهض إلى مدينة إسْتِجَة[٥]، فوجد فيها فَلَّ العسكر؛ فقاتلوه قتالًا شديدًا، حتَّى كثر القتلُ والجراح[٦] في المسلمين، ثمَّ نصرَهُم اللهُ، وقَطَعَ دعوةَ العُجْمة، وقذفَ اللهُ الرُّعْب في قلوب الـمُشركين؛ إذ تُقُحِّمَ عليهم البلادُ، فهرب أكثرُهم إلى مدينة طُلَيْطُلة، وتركوا مدائنَ الأندلس وراءَهم قليلةَ الأهل.

وقدم يُلْيَانُ على طارِق من الخضراء مُسْتَقَرِّه، فقال له: قد فَتحتَ الأندلس، فخُذْ من أصحابي أدِلَّاءَ، ففَرِّق معهم جيوشَك وسِرْ أنت إلى مدينة طُلَيْطُلة. ففرَّق جيوشَه[٧] من إسْتِجَة.

---

(١) في ر٢: «أخ».

(٢) في ر٢: «نزلوا».

(٣) في ر٢: «لك»، وانظر عنه الروض المعطار ٦٠٦.

(٤) في ر٢: «وقيل: قتل».

(٥) معجم البلدان ١/ ١٧٤.

(٦) في ر٢: «الجرحى».

(٧) في ر٢: «جنوده».

ذكر ما افتَتح طارِق بن زِياد من بلاد الأندلس
سنة اثنتين وتسعين من الهجرة

أوَّلُ فتوحاته جَبَل الفَتْح المسمَّى بجَبَل طارِق، وذلك لـمّا جاز المسلمون ونزلوا في المرسى، وهم عَرَبٌ وبَرْبَرٌ، حاولوا الطلوع في الجبل المذكور[1]، وهو حجارة حرش، فوَطَّؤوا للدوابّ بالبَرَاذِع وطلعوا عليها، فلمّا حصلوا في الجبل، بنَوْا سوُرًا على أنفسهم يسمَّى سورَ العَرَب. وقيل: إنّهم فتحوا من حينهم حِصْن قَرْطاجَنَّة، وكان في سفح هذا الجبل من نَظَرِ الجزيرة الخضراء، فلمّا بلغ ذلك ملوكَ الأندلس، نفروا إلى رُذْرِيق، وكان جَبّارًا طاغيةً، فاستنفر النصرانيَّة، فقيل: إنَّه بَعَث إلى المسلمين الجيشَ بعثًا بعد بَعْث[2]، فكانوا عند كلّ لقاء يُهزمون ويُقتلون؛ فقَوِي المسلمون، وركب رجالُهم، وانتشروا في البلاد. وبعد هذا زاحَفَهم رُذْرِيقُ بنفسه. وقال آخَرونَ: بل زاحَفَهم لأوَّل مرَّة بنفسه. ثمَّ اختلفوا أيضًا كَمْ أيَّامُ المزاحفة التي أعقبها الفَتْحُ وانهزم آخرَها رُذْرِيق[3]؛ فقيل: يومٌ كاملٌ، وقيل: يومان، وقيل: ثلاثة، وقيل: ثمانية، واختلفوا هَلْ ظُفِرَ برأس رُذْرِيق أم لا؛ فقيل: ظُفِر به، فقيل: مات غَريقًا.

فَتْح قُرْطُبة

بعث طارِقٌ مُغيثًا، مَوْلى عبدِ الملك بن مروان، من إسْتِجَة إلى قُرْطَبَة في سبع مئة فارس، وهي من مُدنهم العظام، ولم يكن معه راجِلٌ؛ إذ كان الرجال قد رُكِّبوا. فلمّا بلغ مُغيثٌ شَقُنْدَةَ[4] وقَرْيَةَ طَرْسَيْل، وهي على ثلاثة أميال من قُرطبة، بعث الأدِلَّاء كَيْ يَلْقَوْا مَنْ عنده خَبَرًا، فألفَوْا راعِيَ غَنَم، فأتَوْا به إلى مُغِيث وهو في الغيضة، فسأله عن قُرْطُبة، فقال له[5]: انتقلَ عنها عظماءُ أهلها، ولم يَبْقَ فيها إلَّا بِطْرِيقُها في

---

(١) من ر٢.

(٢) في ر٢: «الجيوش جيشًا بعد جيشٍ».

(٣) قوله: «وانهزم آخرها رذريق» ليس في ر٢.

(٤) ينظر عنها الروض المعطار ٣٤٩.

(٥) ليست في ر٢.

أربع مئة فارس من حُماتهم مع ضعفاء أهلها. ثمَّ سأله عن حصانة سُورها، فأخبره أنَّه حصينٌ، إلاَّ أنَّ فيه ثُغْرةً فوق باب الصورة، وهو باب القنطرة، ووصفَ لهم الثغرة[١].

فلمّا جنَّ الليل، تحرَّكَ مُغِيثٌ بمن معه، وعبروا النهر، وقابلوا السُّور، وراموُا التعلُّق به، فتعذَّر عليهم، فرجعوا إلى الراعي، وأتَوْا به معهم، فدلَّهم على الثغرة، فرامُوا التعلُّق بها، فصَعُبَ عليهم، حتَّى صَعِدَ رجلٌ من المسلمين في ذِرْوتها، ونزع مُغيثٌ عمامتَه، فناوَلَه طرفَها، وارتقَوْا بها حتَّى كثروا بالسُّور، ثمَّ جاء مُغيثٌ إلى باب القَنْطرة، وهي يومئذ مهدومةٌ، وأمر أصحابَه بالحَوْم على أحراس السور، فكسروا الأقفال، ودخل مُغِيث بمن معه.

فلمّا بلغ الـمَلِكَ الذي بها دخولُهم، خرج في كُماة أصحابه، وهم نحو الأربع مئة، فدخلوا كنيسةً بغربيّ المدينة، فتحصَّنوا بها، فحاصَرَهم مُغِيث، وكتب إلى طارقٍ بالفتح. وتمادى على حصار العُلُوج في الكنيسة المذكورة ثلاثةَ أشْهُر، فبَيْنا هو ذاتَ يوم جالسٌ، إذ قيل له: خرج العِلْجُ[٢] (يعني الـمَلِكَ) هاربًا وَحْدَه، وهو ينوي التحصُّنَ في جبل قُرْطُبة؛ ليلحقَ به أصحابُه. فأتبعه مُغيثٌ وحدَه دون أحد من أصحابه، فلمّا برز له وأبصرَه هاربًا، وتحتَه فرسٌ أصفر، وهو يتبعُه؛ خرج من طريقه، فأتى خندقًا، فوثبَ به الفرس، وسقط في الخندق، واندقَّت عُنُقُهُ، فأقبل مُغِيث والعِلْجُ جالسٌ على تُرْسه مستأْسِرًا، فأسره. ولم يُؤْسَرْ من ملوك الأندلس غيرُه؛ لأنَّ منهم من عَقَد[٣] لنفسه أمانًا، ومنهم مَن هرب إلى أقاصِي البلاد مثل جِلِّيقيَّة وغيرها. ورجع مُغيثٌ إلى بقيَّة العُلُوج، فاستنزلهم أسْرًا، وضُربتْ أعناقهم صَبْرًا، وسمِّيت كنيسةَ الأسَرَى[٤]. وأبقى العِلْجَ[٥] صاحبَ قُرْطُبة؛ ليقدم به على أمير المؤمنين.

---

(١) الخبر في نفح الطيب نقلًا عن الرازي ١/ ٢٦١.

(٢) في الحرب الصليبية على العراق سنة ٢٠٠٣م استسخف بعض الجهلة استعمال وزير الثقافة والإعلام يومئذٍ هذه اللفظة في وصف جنود الاحتلال، مع أنها هي اللفظة الصحيحة المتداولة في التراث العربي الإسلامي في وصف جنود الكفار وقادتهم، كما ترى في هذا الموضع وغيره.

(٣) في ر٢: «أخذ».

(٤) هكذا النص، وفي نفح الطيب نقلًا عن الرازي: «فدعاهم مغيث إلى الإسلام أو الجزية، فأبوا عليه، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى» (١/ ٢٦٣).

(٥) في ر٢: «الملك».

فَتْح مالَقة

بعث إليها طارقٌ من إسْتِجَة جيشًا، وقوَّدَ عليه قائدًا، وجعل معه دليلًا من رجال يُلْيَان، فاستفتحها وجميعَ أعمال رَيُّه. ولجأ عُلوجُها إلى جبال رَيُّه الشامخة المنيعة[١].

فَتْح إغْرَناطة قاعِدة إلْبيرة

بعث إليها طارق الجيش من إسْتِجَة، فحاصرها حتَّى افتتحها.

فَتْح مُرْسِيَة

ثمَّ تقدَّم هذا الجيشُ بعد فتح إغْرَناطة[٢] إلى تُدْمِير، وهي مُرْسِيَة. وإنَّما سُمِّيَتْ تُدْمِيرَ باسم العِلْج صَاحِبها، وكان اسمُها أُورْيُولة، وهي كانت مدينتَها القديمة. فقاتل العِلْجُ تُدْمِيرُ المسلمين قتالًا شديدًا، وكان في قوَّة، ثمَّ انهزم في فَحْص لا يستُرُهم شيءٌ، فوضع المسلمون فيهم السلاحَ حتَّى أفنَوهم، ولجأَ مَن بقي منهم إلى مدينة أُورْيولة.

وكان تُدْمِيرُ بصيرًا بأبواب الحرب، فلمَّا رأى قِلَّة مَن مَعَهُ من أصحابه، أمر النساءَ، فنَشَرْنَ شعورَهُنَّ وأعطاهنَّ القَصَب، ووَقَفْنَ على سُور المدينة، ووقف معهُنَّ بقيَّةُ الرجال، ثمَّ قصد بنفسه إلى جيش المسلمين كهَيْئَة الرسول، واستأْمن، فأُمِّنَ وانعقد له الصُّلحُ ولأهل بلده، فافتُتِحتْ مدينةُ تُدْمِير[٣] صلحًا، فلمَّا انعقد الصلح وتمَّ، أبرز لهم نفْسَه وقال: أنا تُدْمِيرُ صاحبُ المدينة، ثمَّ أدخلهم البلد، فلم يرَوْا فيه أحدًا عنده مَدْفَعٌ، فنَدِمَ المسلمون وأمْضَوْا على ما أعطَوْه من الأمان، وكتبوا بالفتح إلى الأمير طارِق، وأقام بتُدْمِير رجالٌ من أهل العسكر، وصاروا مع أهلها، وتقدَّم مُعظَمُ الجيش إلى طُلَيْطُلة، فلَحِق بطارِق، وهو عليها.

---

(١) ينظر نفح الطيب ١/ ٢٦٤.

(٢) في ر٢: «وبعد فتح غرناطة تقدم الجيش المفتتح لها»، فكأن المؤلف أعاد صياغة الجملة.

(٣) في ر٢: «مرسية»، خطأ.

فَتْح طُلَيْطُلة

وألفى طارِق طُلَيْطُلَة خاليةً، ليس فيها إلَّا اليهود في قوم قلَّة، وفرَّ عِلْجُها مع أصحابه، ولحق بمدينةٍ خَلْفَ الجبل، وتَبِعَهم طارِق[١]، بعد أن ضمَّ اليهود، وخلَّى معهم بعضَ رجاله وأصحابه بطُلَيْطُلة، فسلك إلى وادي الحِجَارة، ثمَّ استقبل الجبلَ، فقطعه من فَجٍّ يُسَمَّى به إلى اليوم[٢]، فبلغ مدينةً خَلْف الجبل، تُسَمَّى مدينةَ المائدة[٣].

ثمَّ فتح مدينةَ المائدة، فوجد فيها مائدةَ سليمانَ بن داوودَ، عليهما السلام، وكانت من زَبَرْجَدَة خضراءَ، حافاتُها وأرجُلُها منها، وأصاب بها مالًا وحَلْيًا كثيرًا، ثمَّ انصرف إلى طُلَيْطُلة[٤]. هكذا آثَرَ الناسُ هذا كلَّه، على أنَّ طارِقًا صنعه. وقال آخَرون: بل أقام طارِق حيث كانت الوقعة، وجاز إليه موسى. وقيل: بل وجده بقُرْطُبة[٥].

وفي سنة ثلاث وتسعين من الهجرة: دخل الأميرُ[٦] موسى بنُ نُصَيْر الأندلسَ في رمضان، بعد دخول طارِق بسنة، ومضى غازيًا فيها، مُفتتِحًا لحصونها بقيّة[٧] هذه السنة وسنةَ أربع وبعضَ سنة خمس، فافتتح جميعَ حصونها، وهزم جميعَ مَن لقيه من أُمرائها، فلم يَلْقَ كَيْداً من أحد، ولا انهزمتْ له رايةٌ، حتَّى انتهى إلى مدينةٍ من مُدُن إفْرَنْجة، يقال لها: لَوْطُون، وقد ملك ما سِوَاها ودونها إلى أقصى بَرْشِلُونة. فلمَّا انتهى إلى مدينة لَوْطُون، ضاق المسلمون، وخافوا أن يُحاطَ بهم، فكلَّموه في ذلك، فقَفَلَ بهم راجعًا.

قال مُؤَلِّف كتاب «بَهْجة النَّفْس»: ورأيتُ في بعض كُتُب العَجَم أنَّ المسلمين انتهَوْا إلى مدينة لَوْطُون قاعدةِ الإفْرَنْج، ولم يَبْقَ لأهل الإسلام شيءٌ لم يتغلَّبوا عليه

(١) في ر٢: «وفر بنفسه مع أصحابه، وتبعهم طارق».
(٢) قوله: «من فج يسمى به إلى اليوم» ليس في ر٢.
(٣) الروض المعطار ٥٣٠.
(٤) نفح الطيب ١/ ٢٦٤-٢٦٥ نقلًا عن ابن حيان.
(٥) في ر٢: «بطليطلة».
(٦) من ر٢.
(٧) كذلك.

مـمَّا وراءَ ذلك، إلَّا جبالَ قَرْقُوشة وجبالَ بَنْبَلُونة[1] وصَخْرة جِلِّيقِيَّـة، فأمّا الصخرة، فلم يَبْقَ فيها مع مَلك جِلِّيقِيَّـة سوى ثلاث مئة رَجل، تَلِفُوا بالموت والجُوع والحصار، فلمَّا لم يَبْقَ منهم إلا ثلاث مئة رجل، ورأى ذلك المرتَّبون معهم على حصارهم، استقلُّوهم، فتركوهم، فلم يزالوا يزدادون حتَّى كانوا سَبَبَ إخراج المسلمين من جِلِّيقِيَّـة، وهي قَشْتِيلة. وأمَّا قَرْقُوشة، فذكر عبدُ الملك بنُ حبيب أنَّها افتُتِحَتْ في زمن هشامِ بن عبد الملك صُلحًا. وكان الافتتاح ـ كما ذكرتُه ـ في بقيَّة سنة اثنتين وتسعين وبعض سنة ثلاث وتسعين من الهجرة.

وكان السببُ في جواز موسى بنِ نُصَيْر إلى الأندلس: أنَّه أغْرِيَ بطارِق عَبْده، وذُكِرَ له ما أفاءَ الله عليه، فكتب له موسى بأقبح السبِّ، وأمَرَه ألَّا يتجاوزَ قُرْطُبة، حتَّى يَقدُم عليه.

قال ابن القطَّان: قيل: إنَّمـا حمله على الجواز للأندلس تَعَدِّي طارِق ما أمره به ألَّا يتعدَّى قُرْطُبة، على قول، أو مَوْضِعَ هزيمة رُذْرِيق، على قول. وقيل أيضًا: إنَّمـا حَمَلَه على ذلك الحسدُ لطارِق على ما أصاب من الفتوح والغنائم. وقيل أيضًا: إنَّمـا جاز باستدعاء طارِق إيّاه، فكان جوازُه في رمضان، كما تقدَّم.

قال الرازيُّ: وحدَّث الواقِديُّ عن موسى بنِ عُلَيِّ بن رَبَاح، عن أبيه، قال: خرجَ موسى بنُ نُصَيْر في عشرة آلاف من إفريقية، مُغضَبًا على طارِق، وتقدَّم يُريد الأندلس، فدخلها، ونزل الجزيرة[2]، فقيل له: اسْلُكْ طريقَ طارِق! فقال: لا والله، أسلك طريقَه[3]! فقال له الأدلَّاء من الأعلاج: نحن نَدُلُّك على طريق هي أشرفُ من طريقه، وعلى مدائنَ هي أعظم خَطَرًا من مدائنه، لم تُفتح، يفتحُها اللهُ على يديك إن شاء الله، فامتلأَ موسى سرورًا، فساروا به إلى مدينة شَذُونَة، فافتتحها عنوةً، وهي أوّل فُتوحاته[4].

---

(١) ينظر الروض المعطار ١٠٤.

(٢) وينظر تاريخ الطبري ٦/ ٤٨١ نقلًا عن الواقدي.

(٣) قوله: «اسلك طريقه» ليس في ر٢.

(٤) ينظر نفح الطيب ١/ ٢٦٩.

فَتْح قَرْمُونَة

ونهض الأميرُ[١] موسى مع أدِلَّائه من شَذُونَة إلى قَرْمُونة، ولم يكن بالأندلس أحصنُ منها ولا أبعدُ من أن تُنال بحصار أو قتال. فسأل موسى عن أمْرها، فقيل له: لا تُؤْخَذ إلا باللُّطف والحِيَل. فقدَّم إليها عُلُوجًا كانوا من أصحاب يُلْيَانَ وغيرهم؛ فأتَوْهم في هَيئَةِ المنهزمين، ومعهم السلاح، فأدخلوهم المدينة، فلمَّا علم موسى بدخولهم، بَعث الخيلَ إليهم ليلًا، ففَتحوا لهم بابَ المدينة، وهو البابُ المعروف بباب قُرْطُبة، فوثبوا على الأحراس، فقَتلوهم، ودخل المسلمون المدينةَ عَنْوةً[٢].

فَتْحُ إشْبِيلِيَة

لـمَّا فتح موسى قَرْمُونة، تقدَّم إلى إشْبِيلِيَة، وهي من أعظم قواعد الأندلس شأْنًا، وأتقنِها بُنيانًا، وأكثرِها آثارًا، وكانت دارَ مُلْك رُوم رُومة قَبْل غلبةِ القُوطيِّين على الأندلس، فلمَّا غلب القُوطيُّونَ عليها، استوطنوا طُلَيْطُلة، وأقرُّوا بها مُلْكَهم، وبقي بمدينة إشبيليَةَ علماءُ أهلِ رُومة وكُتَّابُهم ورؤَساؤُهم. فاحتلَّ بها موسى بنُ نُصَيْر، وحاصَرَها أشهراً، ففَتحها اللهُ عليه، وهَرب منها عُلوجُها إلى مدينة بَاجَة[٣].

فَتْحُ مارِدة

وتقدَّم موسى إلى مدينة مَاردة، وكانت دارَ مُلْكٍ في سالف الأيَّام. وكانت فيها آثار عجيبة[٤]، وقَنْطرة، وقصور، وكنائسُ، تفوقُ وصْفَ الناظرين[٥]، وهي إحدى القواعد الأربعِ بالأندلس التي ابتناها أُكْتَبيان قَيْصَر؛ وهي: قُرْطُبَة، وإشبيلية، وماردة، وطُلَيْطُلة. فخرج أهلها إلى حَرْبه نحو الـمِيل منها، فحاربهم حتَّى صَرَفهم إلى المدينة،

(١) من ر٢.

(٢) ينظر نفح الطيب ١/ ٢٦٩.

(٣) كذلك.

(٤) في ر٢: «قوية».

(٥) في ر٢: «تفوق الناظر».

فلما انجلَت الحرب، وكفَّ عن القتال، طاف موسى بالمدينة، فرأى نَقْبًا كان لمقاطع الصخر، فكمنَ فيه الرجالُ ليلًا، فلمَّا أصبح، زحف إليهم، فخرجوا كخروجهم في اليوم قَبْله، فخرج عليهم الكمينُ وزحف إليهم المسلمون فركبوهم، فقُتلوا أبْرَح قَتْل، ولجأ مَن بقيَ منهم إلى المدينة، فحاصرهم أشهرًا، حتَّى عمل دبَّابةً، فدبَّ المسلمون تحتها إلى بُرْجٍ من أبراجها، فنقبوا صخرةً، فلمَّا نَزَعُوها، أفضَوْا إلى صخرةٍ صمَّاء نَبَتِ المعاوِلُ عنها ويئسوا منها[1]، فبَيْنا هم يَضرِبون عليها، إذ استثار[2] العُلُوجُ عليهم، فاستُشْهِد المسلمون تحت الدبَّابة؛ فسُمِّي ذلك البُرْج بُرْجَ الشُّهَداء، وبه يُعرف[3] إلى اليوم، فحميتْ عند ذلك نفوسُ العُلُوج، وثابت إليهم أنفسهم. ثمَّ خرجت إليهم رُسُلٌ، وتعرَّضت للصُّلح، فساروا إلى موسى، فرأوا رجلًا أبيضَ الرأس واللحية، فكلَّموه بما لم يُوافقهم عليه ولم يَرْضَهُ، فرجعوا عنه، ولم يَعقدوا شيئًا، ثمَّ عاودوه يومًا آخر، فألفَوْه قد حـمَّر رأسَه ولحيته بالحِـنَّاءِ، فعَجِبُوا منه، وراعهم ما رأوْه، ولم يتمَّ لهم أمْرٌ، ثمَّ عاودوا إليه في اليوم الثالث، وذلك يوم عيد الفِطْر، فألفوه قد سوَّد رأْسَه ولحيته، فرجعوا إلى المدينة، وقالوا لمن فيها: وَيْحَكم! إنَّمـا تقاتلون أنبياءَ يتشَبَّبُون بعد الـمَشِيب! قد عاد مَلِكُهم حدَثًا بعد أن كان شيخًا! فقالوا: اذهبوا إليه وأَعْطُوه ما سألكم، فوصلوا إليه، وصالَحوه، وانعقد أمرُهم على أنَّ جميعَ أموال القَتْلَى يومَ الكَمِين وأموالَ الغائبين بجِلِّيقِيَّـة وأموالَ الكنائس، جميع[4] ذلك كلِّه للمسلمين، ثمَّ فتحوا له الباب[5] من يومهم ذلك، وهو مستهلُّ شَوَّالٍ من سنة أربع وتسعين من الهجرة[6].

(١) كانت من الإسمنت (ينظر التعليق على نفح الطيب ١/ ٢٧٠).

(٢) في ر٢: «خرج».

(٣) «وبه يعرف» ليست في ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) في ر٢: «ثم فتحوا لهم باب المدينة».

(٦) نفح الطيب ١/ ٢٧٠-٢٧١.

فَتْح إشْبيلِيَة ثانيةً

وذلك لأنه[1] لـمَّا اشتغل موسى بنُ نُصَيْر[2] بحصار مارِدةَ، ثار عَجَمُ إشبيلية، وارتدُّوا، وقاموا على مَن كان فيها من المسلمين. وتجالب فلُّهم إليهم من مدينتَيْ لَبْلَةَ وبَاجَة، فقَتلوا من المسلمين نحوَ ثمانين رجلًا. وبلغ الخبرُ بذلك إلى الأمير موسى بنِ نُصَيْر، فلمَّا استتمَّ فتحَ مارِدة، بَعث ابنَه عبد العزيز بجيشٍ إلى إشبيلية، فافتتحها، وقَتل أهلَها[3].

فَتْحُ لَبْلة

لـمَّا استتمَّ فَتْح إشبيلية، تقدَّم عبدُ العزيز بن موسى بجيشه إلى لَبْلة، فافتتحها، وانصرفَ إلى إشبيلية، فدخلها أيضًا[4].

ذكر اجتماع الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نُصَيْر مع مَوْلاه طارِق بن زِياد على طُلَيْطُلة[5]

اتَّفق الأكثرون على أنَّ التقاءَهما كان على طُلَيْطُلة. وذكر الطَّبَريُّ أنَّه كان على قُرْطُبة[6]. وذكر الرازيُّ أنّ طارِقًا خرج من طُلَيْطُلة لـمَّا بلغه مسيرُه إليه، فلَقِيَه بمقربة من طَلَبيرة. وكان موسى، لـمّا فرغ من أمْرِ مارِدة، نهض يريدُ طُلَيْطُلة، فخرج إليه طارِق معظِّمًا له، ومُبادرًا لطاعته، فوبَّخه موسى، وغضب عليه. وقيل: إنَّه وضع السوطَ على رأسه، وقيل: إنَّه ضربه أسواطًا كثيرةً، وحلق رأْسَه، ثمَّ سار به إلى طُلَيْطُلة، وقال له: أحضرني[7]

---

(١) من ر٢.

(٢) «ابن نصير» ليست في ر٢.

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٧١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) جاء العنوان في ر٢: «ذكر اجتماع موسى بن نصير مع مولاه طارق».

(٦) ليس في تاريخ الطبري ما يدل على التقائهما في موضع معين، فضلًا عن قرطبة أو طليطلة.

(٧) في ر٢: «ايتني».

بها أَصَبْتَ وبالمائدة. فأتاه بها وقد اقتلع رِجلًا من أَرْجُلها؛ فقال له: أين الرِّجْل؟ فقال له: هكذا وجدتُها. فأمر موسى، فعُمِل لها رِجْلٌ من ذَهَب، وأدخلها في سَفَط.

واختلفت الرواياتُ لِـمَ فعل موسى مع طارِق ما فعل من السخط عليه؟ فقيل: إنَّما فعل ذلك بَغْيًا ونَفاسةً عليه؛ واستدلُّوا على ذلك بادّعائه خِصَالَ طارِق وأَخْذِ المائدة عند الخليفة[1]. ومنهم من عذره وقال[2]: إنَّما فعل ذلك به لتقدُّمِه دون رأيه، وهو مولاه[3]، وعلى توغُّله بالمسلمين، وتغريرِه بهم. واتَّصل بهذا في كتاب الرَّازي أنَّ الوليد بعث إلى موسى رسولًا، فأخذ بعِنان دابّته، وأخرجه من الأندلس، ومعه أُمراؤه[4]: طارِق ومُغِيث، وخلَّف ابنَه عبدَ العزيز[5] على الأندلس، وأبقى معه وزيرًا حبيبَ بن أبي عَبْدة بن عُقْبة بن نافِع.

ولـمَّا التقى موسى بطارِق، وجرى له معه ما جرى، تقدَّم من طُلَيْطُلة إلى سَرَقُسْطة، فافتتحها، وافتتحَ ما حولها من الحصون والـمَعاقِل[6]. وذكروا أنَّ موسى خرج من طُلَيْطُلة غازيًا، يفتحُ المدائن، حتَّى دانت له الأندلسُ. وجاءَه وجوهُ[7] أهل جِلِّيقيَّة يَطلبون الصُّلح، فصالَـحهم. وفتح بلادَ البَشْكُنِش[8]، وأوغل في بلادهم، حتَّى أتى قومًا كالبهائم. وغزا بلادَ الإفْرَنْج، ثمَّ مال حتَّى انتهى إلى سَرَقُسْطة، فأصاب[9] فيها ما لا يُعرف قَدْره. وبين سَرَقُسْطةَ وقُرْطُبة مسيرةُ نحوِ شهر. وافتتح هنالك حصونًا كثيرة. وكانت أساقِفةُ الروم تَجِد صفةَ موسى في كُتُبهم، فإذا رأوه، قالوا: هو، والله! فأعطَوْه الـمَعْقِل. ولم يُهزم له جمعٌ قطُّ.

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٧١.

(٢) في ر٢: «ومنهم من قال».

(٣) «وهو مولاه» ليست في ر٢.

(٤) هذه اللفظة ليست في أ، م.

(٥) من ر٢.

(٦) نفح الطيب ١/ ٢٧٣.

(٧) هذه اللفظة من ر٢.

(٨) هي المعروفة اليوم بالباسك.

(٩) في ر٢: «فوجد».

وقال يوسُف بن هشام: انتهى موسى إلى صَنَم، فوجد في صدره مكتوبًا: يا بني إسماعيل، فإلى هنا مُنْتَهاكُم، وإن سألتم إلى ماذا ترجعون، أخْبَرْناكم: تَرجعون إلى اختلاف ذات بَيْنِكم، حتَّى يَضرب بعضُكم رقابَ بعض، وقد فعلتم[1].

قال اللَّيْث[2]: ولقد جاءَ رجلٌ إلى موسى بن نُصَيْر، فقال له: ابْعَثْ معي أدُلَّك على كنز، فبَعث معه رجالًا، فوقف بهم على موضع، فقال: اكْشِفوا عن هذا! فكشفوا، فإذا حوضٌ مُتْرَعٌ من الياقوت والجوهر والزَّبَرْجَد ما لم تَرَ عَيْنٌ مثلَه قطُّ، فلمّا رأوا ذلك، بُهتوا وأَرسَلوا إلى موسى ليحضُرَ.

ذكر بعض[3] ما أفاءَ الله على فاتِـحي الأنْدَلُس

من ذلك: مائدةُ سليمان عليه السلام، قيل: إنَّها كانت من ذهبٍ وفضَّة خليطَيْن، مطوَّقةً بثلاثة أطواق: طَوْقِ لؤلؤ، وطوقِ ياقوت، وطوقِ زَبَرْجَد، وإنَّها حُملت على بَغْلٍ عظيم لا بَغلَ أقوى منه، فما بلغ بها مرحلةً حتَّى تفتَّحتْ قوائمه. ومنها ياقوتةُ ذي القَرْنَيْن وجدها بمارِدة. ومنها البيتان اللَّتان فتح في طُلَيْطُلة، وُجد في إحداهما أربعةٌ وعشرون تاجًا عددَ ملوكهم، لا يُدرى ما قيمةُ تاجٍ منها، وعلى كلِّ تاج اسمُ صاحبه ومبلغُ سِنِّه، وفيه وُجدت المائدة. وكان السببُ في حصولها بطُليطُلة أنَّ مَلِك الرُّوم، لـمَّا زحف إلى بيت الـمَقْدِس ليقاتِلَ بني إسرائيل، أخذ بلادَهم وسَبى ما فيها، ووجد فيها مكارمَ الأنبياء، عليهم السلام، منها: عصا آدم، والتابوتُ الذي فيه بقيَّةٌ مـمَّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون، وعصا موسى ونَعْلاه، ومائدةُ سليمان، وهي من ذَهَب، قد كُلِّل أعلاها وأسفلُها بالدُّرِّ والياقوت، فحُمل جميعُ ذلك إلى رُومة، فلمَّا مرَّ مَلِكُ الرُّوم بمِصْرَ، رَغِبَ إليه أهلُها أن يجعلَها عندهم يتبرَّكون بها، وقالوا له: رُومةُ تبعُدُ عنَّا! وكانوا قد أمدُّوه، وقاتَلوا معه بني إسرائيل، فطَلبوا منه شيئًا من تلك المكارم، فدَفعَ لهم المائدة، فحملتْها الأساقفةُ إلى الإسكندريَّة. فلمَّا غزا

(١) «وقد فعلتم» ليست في أ.

(٢) هو الليث بن سَعْد الفقيه المشهور.

(٣) من ر٢.

عَمْرو بن العاص بِمصْرَ، هربوا إلى مدينة أطْرابُلُس، فلمَّا نزل عَمْرو بن العاص بَرْقة، هربوا بها إلى مدينة قَرْطاجَنَّة، فلمَّا دخل المسلمون طَنْجة، هَربوا بها إلى مدينة طُلَيْطُلة، ولم يكن لهم أمنعُ منها، ولا وجدوا حيثُ يهربون بها بَعْدَها.

قال أبو شبَّة الصَّدَفيُّ: لقد نظرتُ إلى رجُلَين يحملان طَنْفَسةً منسوجةً بالذهب والفضَّة واللؤلؤ، فلمَّا ثقُلتْ عليهما، أنزلاها، ثمَّ حملا عليها الفأْس، فقطعاها بنصفَيْن، فأخذا نصفًا، وتركا نصفًا، فلقد رأيتُ الناس يمرُّون على نصفها، فلا يلتفتون إليه اشتغالًا بما في أيديهم ممَّا هو أرفعُ منها.

وحدَّث عبدُ الحميد عن أبيه، قال: قدمتِ الأندلسَ امرأةٌ عطَّارةٌ، فخرجتْ منها بخمس مئةِ رأس من السبي، فأمَّا ما خَرَجتْ به من الذهب والفضَّة والجوهر والآنية، فذلك ما لا يُحاط بعِلْمه. قال: وقَدِمَ علينا شيخٌ من المدينة، جيِّدُ التجربة واللسان، فجعل يحدِّثنا عن الأندلس، فقُلْتُ له: كيف علمتَ هذا؟ قال: لأنِّي، والله، كنتُ ممَّن اشترى بها بحبَّات فُلْفُل أقلَّ من القَبْضة ما يُساوي عَدَدًا.

وأقام موسى بالأندلس سَنَتَيْن وشهرًا، ثمَّ رجع إلى إفريقية، وتحته بَغْلٌ أشْهَبُ يسمَّى الكَوْكَبَ. ولـمَّا انصرف عن قُرْطُبة متوجِّهًا نحو إفريقية، حوَّلَ وجهَه إلى قُرْطُبة، فقال: واهًا لَكِ يا قُرْطُبة! ما أطْيَبَ تُرْبَتَكِ، وأشْرَفَ بُقْعَتَكِ، وأعْجَبَ أمْرَكِ، ولَعَنَكِ اللهُ بعد الثلاث مئة سنة! ثمَّ مضى حتَّى وصل الخضراءَ، وأمر بالعَجَل، فحُملت الذهبُ والفضَّة والجوهر والمتاعُ وأصنافُ متاع[1] الأندلس. وكان دخول موسى الأندلسَ سنة ثلاث وتسعين وهو ابنُ ستِّين سنة، وأقام واليًا بإفريقية ستَّ عشرة سنة، وقَفَلَ منها سنة خمس وتسعين.

ومن أخبار الأمير أبي عبد الرحمن موسى بن نُصَيْر رحمه الله تعالى

لـمَّا دخل موسى إفريقيةَ، وجدها قد قَحَطتْ قحطًا شديدًا، فأمر الناسَ بالصِّيام والخروج إلى الـمُصَلَّى، الرِّجال على حِدةٍ، والنساء على حِدةٍ، والصبيان على حِدةٍ،

(١) في ر٢: «ثياب».

وكذلك جميعُ البهائم مع أصنافها، فاجتمعوا في موضعٍ واحد، ودعا اللهَ تعالى، ودعا الناسُ معه، وبكى، وبكَوْا، وبكى الصِّبيانُ والنساء، وصاحت البقر والعِجل والغَنَم والخرفان وأهلُ الذِّمَّة. فأقاموا كذلك حتَّى انتصف النهارُ، ثمَّ خطب الناسَ، فلم يَلْبَثْ أنْ سُقُوا سَقْيًا شافيًا.

وخرج موسى من إفريقية، واستخلف عليها عبدَ الله ابنَه. وحمل موسى معه من إفريقية من وجوه البَرْبَر مئةَ رَجل وعشرين مَلِكًا من ملوك الرُّوم، فخرجوا معه بأصنافِ ما كان في كلّ بلدٍ من طرائفها وذَهَبها وفضَّتها وجوهرها وياقوتها، ما لا يُحصى ولا سُمِع بمِثْله، حتَّى انتهى إلى مِصْر، فلم يَبْقَ بها شريفٌ، ولا فقيهٌ، ولا عظيمٌ، إلاَّ ودَفع إلى سليمانَ بن عبد الملك عشرةَ آلاف دينار. ثمَّ خرج من مِصْرَ، فتوجَّه إلى فِلَسْطين، فتلقَّاه آلُ رَوْح بن زَنْباع الجُذاميّ، فنزل بهم، فنَحَروا له خمسين جَملًا. ثمَّ خرج مِن عندهم، وترك بعضَ أصحابه وصغارَ ولده عندهم، وأفرغ على آل رَوْح بن زَنْباع كثيرًا من الكُسى والوصائف والوَصْفان، وغيرِ ذلك من الأموال.

وكان موسى، قَبْلَ خروجه من الـمَغْرِب، قدم عليه ولدُه مروان من السوس الأقْصَى وهو يجُرُّ الدنيا جَرًّا. ولـمَّا وصل رسولُه إلى أبيه، يُعلمه به وبما يأتي به من السَّبْي، خرج إليه في وجوه الناس يتلقَّاه، فلمَّا التقَيَا، قال مروان بن موسى: مُرُوا لكلِّ مَن يلقاني مع أبي بوصيفةٍ وصيفة. فلمّا أمر بذلك، سمع موسى صياحَ الناس وضجيجَهم، ورأى حركاتِهم، فقال: ما هذا؟ فقالوا: ابنُك مروانُ أمر للناس بوصيفةٍ وصيفة. فقال لهم: مُرُوا لهم أنتم من عندي[1] بوصيفٍ وصيف. فانصرف الناسُ كلُّهم، ومع كلِّ واحد منهم وصيفٌ ووصيفةٌ.

وكان الوليدُ بن عبد الملك مَرِض مَرَضَهُ الذي مات منه، وكتب إلى موسى يأمره بشدِّ السَّيْر إليه؛ ليدركه قبل الموت. وكتب إليه سليمانُ أن يُبطئَ في سَيْره. فعمل موسى بكتاب الوليد، ولم يعمل بكتاب سُليمان، وجدَّ في سيره، فغضب عليه سُليمانُ، وقال: والله، لئن ظَفِرْتُ به، لأُصَلِّبَنَّهُ. وكان سَبَبُ أمر الوليد لموسى بالعجلة

(١) «من عندي» من ر٢.

لِيَحْرِمَ سليمانَ ما جاءَ به، وكان أمْرُ سليمان له بترك الاستعجال لِيَحْرِمَ الوليدَ وولده ما جاءَ به. فقدم موسى قبل موت الوليد وأتاه بالطرائف من الدُّرِّ والياقوت والزَّبَرْجَد، والوُصفاء والوصائف، ومائدةِ سُليمان، والتِّيجان الـمكلَّلة بالدُّرّ والياقوت، فاستغربَ الوليدُ ذلك، وأمر بمائدة سُليمان، فكُسرت، وعمدَ إلى أرفع ما كان فيها من الجوهر وكلِّ ما كان في التيجان وغيرها، فجعله في بيت المال، ثمَّ لم يلبَثْ أن مات، وأفضت الخلافةُ إلى سُليمانَ أخيه، فبعث في موسى، فعنَّفه بلسانه، وقال: والله، لأَفُلَّنَّ غَرْبَك، ولَأُفَرِّقَنَّ جَمْعَك، ولأُصَغِّرَنَّ مِنْ قَدْرِك! فقال موسى: أمَّا قولُك: تَفُلُّ من غَرْبي وتخفض من قَدْري، فإنَّ ذلك بيد الله، وإلى الله لا إليك، وبه أستعينُ عليك. فأمَر به سُليمان، فوُقِّف في يوم صائف شديدِ الـحَرّ، وكان موسى رجلًا ضَخْمًا، بادنًا، ذا نسمة، فوَقَف حتَّى سقط مَغْشِيًّا عليه، فنظر سليمانُ إلى عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقال له: يا أبا حفص، ما أُراني إلاَّ وقد بَرَرْتُ في يميني وخرجتُ عنه. فقال عمرُ: أجَلْ يا أَمير المؤْمنين. فقال سليمانُ: مَنْ يضُمُّه إليه؟ فقام يزيدُ بن الـمُهَلَّب، فقال: أنا يا أمير المؤْمنين أضُمُّه إليَّ. قال: فضُمَّه إليك ولا تضيِّق عليه[1]، فانصرف يزيدُ، وقدَّم إليه دابَّةً، فركبها موسى، وأقام عنده أيَّامًا حتَّى حَسُنَ ما بينه وبين سُليمان. وافتدى منه موسى بمالٍ كثير، قيل: ألف ألف دينار، وقيل غير ذلك. ثمَّ إنَّ يزيدَ بن الـمُهَلَّب سَهِرَ ليلةً عند موسى، فقال له: يا أبا عبد الرحمن في كم كنتَ تعتدُّ من مواليك وأهل بيتك؟ فقال له موسى: في كثير! فقال يزيدُ: يكونون ألفًا؟ فقال له موسى: ألفٌ وألف وألف إلى منقطع النَّفَس! فقال له يزيدُ: كنتَ على ما وصفتَ، وألقيتَ بيدك إلى التهلكة! أفلا أقمتَ في قرار عزِّك وموضع سلطانك، وامتنعتَ بما قَدِمْتَ به؟ فإن أُعْطِيت[2] الرِّضا، وإلاَّ كنتَ على عزِّك وسلطانك! فقال له: والله، لو أردتُ ذلك، لَـمَا نالوا من أطرافي طَرَفًا! ولكني آثرتُ اللهَ ورسوله، ولم أرَ الخروج عن الطاعة والـجماعة.

---

(١) هذه العبارة بدلها في ر٢: «فافعل».

(٢) في م: «أعطَيْتَ».

وذُكر أنَّ سليمانَ قال لموسى: ما الذي كنتَ تفزع إليه عند حروبك ومباشرة عدوّك؟ قال: كنتُ أفزعُ إلى التضرُّعِ والدعاء، والصبر عند اللقاء. قال: فأيُّ الخيل رأيتَها في تلك البلاد أسْبَق؟ قال: الشُّقْر، قال: فأيُّ الأُمَم كانوا أشدَّ قتالًا؟ قال: هُمْ أكثرُ من أن أصِفَهم. قال: أخبرني عن الرُّوم! قال: أُسُدٌ في حصونهم، عِقْبانٌ على خيولهم، نساءٌ في مواكبهم، إن رأوا فرصةً انتهزوها، وإن رأوا غَلبةً، فأوْعالٌ تذهب في الجبال، لا يرَوْن الهزيمةَ عارًا. قال: فأخبرْني عن البَرْبَر. قال: هم أشبه العَجَم بالعَرَب لقاءً ونجدةً وصبرًا وفروسيَّةً، غَيْرَ أنَّهم أغْدَرُ الناس، لا وفاءَ لهم ولا عَهْدَ. قال: فأخبرني عن الأندلس؟ قال: ملوكٌ مُترَفُون، وفرسانٌ لا يَـخِيبون. قال: فأخبرني عن الإفْرَنْج. قال: هناك العَدَدُ والعُدَّة، والجَلَد والشدَّة، والبأس والنجدة. قال: فأخبرْني كيف كانت الحربُ بينك وبينهم: أكانت لك أو عليك؟ فقال: أمَّا هذا، فوالله، ما هُزِمَتْ لي رايةٌ قطُّ، ولا بُدِّد جَـمْعي، ولا نُكِبَ المسلمون معي، منذ اقتحمتُ الأربعين إلى أن بلغتُ الثمانين. فضحك سليمانُ، وعَجِبَ من قوله. ثمَّ دعا سليمانُ بطِسْتٍ من ذهب، فجعل يردّد بصره فيه، فقال له موسى: يا أميرَ المؤمنين، إنَّك لتعْجَب من غير عجب، والله، ما أحْسِبُ أنَّ فيه عشرةَ آلاف دينار! والله، لقد بعثتُ إلى أخيك الوليد بتنُّور من زَبَرْجَد أخضر، كان يُصَبُّ فيه اللَّبنُ فيُخْضَر وتُرَى فيه الشَّعرة البيضاءُ، ولقد قُوِّمَ بمئة ألف مثقال[1]، وإنَّه لَـمنْ أدنى ما بعثتُ به إليه، ولقد أصبتُ كذا وأصبتُ كذا، وجعل يعدِّد ما أصاب من الدُّرِّ والياقوت والزَّبَرْجَد، حتَّى بُهِتَ سليمانُ من قوله.

وخرجَ سُليمان يومًا يتصيَّد ومعه موسى بن نُصَيْر، فمرَّ في مُنْيَةٍ له بذَوْدِ غَنَم يكون فيها نحوُ ألفِ شاةٍ، فالتفتَ إلى موسى، وقال له: هل كان لك مثل هذا؟ فضحك موسى وقال: والله، لقد رأيتُ لأدْنَى مَواليَّ أضعافَ هذا! فقال سليمانُ: لأدْنَى مَواليك؟ فقال: نَعَمْ والله، نعَمْ والله. وردَّدها مرارًا ثمَّ قال[2]: وما هذا فيما أفاءَ اللهُ عليَّ! لقد كانت الألفُ شاة تُباع بعشرة دراهم، كلُّ مئة بدِرْهَم، ولقد كان الناسُ

(١) في ر٢: «دينار» وهو بمعنى.

(٢) «ثم قال» ليست في أ.

يمرُّون بالبقر والغنم، فلا يلتفتون إليها، ولقد رأيتُ الذَّوْدَ من الإبل بدينار! ولقد رأيتُ العِلْج الفارِهَ وامرأتَه وأولادَه يُباعون بخمسين درهمًا. قال: فعَجِبَ سُليمان.

ثمَّ حجَّ سليمانُ، وخرج موسى معه، وكان موسى من أعلم الناس بالنجوم، فلما احتلَّ بالمدينة، قال لبعض إخوانه: لَيَمُوتَنَّ بعد غَدٍ رجلٌ قد ملأَ ذِكْرُه المشرقَ والمغرب. فظنَّ الرجلُ أنه الخليفة[1]، فمات موسى في اليوم الثاني[2]، وصلَّى عليه مَسْلمةُ بن عبد الملك. وكان مولدُ موسى سنة تسع عشرة، في خلافة عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه. قيل: إنَّه من لَخْم، وقيل: من بَكْر بن وائِل.

وقال ابن بَشْكُوَال في «كتاب الصِّلة»[3] له: إنَّه موسى بن نُصَيْر بن عبد الرحمن بن زيد.

وقال غيرُه: كان نُصَيْر والدُ موسى[4] ولَّاه معاويةُ بن أبي سُفيان على خيله، فلم يقاتِلْ معه عليًّا رضي الله عنه، فقال له معاوية[5]: ما منعك من الخروج معي على عليّ ويدي عليك، ولم تُكافئني عليها؟ فقال: لم يُمكنّي أن أشكرَك بكُفْرِ مَنْ هو أولى بشُكْري! فقال: ومن هو؟ فقال: اللهُ، عزَّ وجلَّ. قال: فأطرق معاوية مليًّا، ثمَّ قال: أستغفرُ اللهَ، وعفا عنه[6].

وقال اللَّيْثُ بن سَعْد: لـمّا قدم موسى بن نُصَيْر إفريقيةَ حين الفتح، أخرج ابنًا له يُسمَّى عبدَ الله إلى بعض نواحيها، فأتاه بمئة ألف رأس من السَّبْي، أكثرُهنَّ وجوهٌ كالبدور، ثمَّ وجَّه ابنًا له يسمَّى مروانَ إلى ناحيةٍ أُخرى، فأتاه كذلك، ثمَّ خرج هو بنفسه، فأتى بنحو ذلك. قال اللَّيْث: فبلغ الـخُمُس ستّين ألفًا. قال: فلم يُسمَعْ بمِثْل سَبايا موسى في الإسلام.

---

(١) «فظن الرجل أنه الخليفة» ليست في أ.

(٢) في ر٢: «في ذلك اليوم».

(٣) هكذا قال، وليس في كتاب «الصلة» مثل هذا، فلعله نقله من كتاب آخر من كتبه.

(٤) «والد موسى» ليست في أ، م.

(٥) من ر٢.

(٦) وفيات الأعيان ٥/ ٣١٩.

وفي سنة خمس وتسعين: كان خروجُ موسى من الأندلس إلى الشام، واستخلف ابنَه عبدَ العزيز عليها[١].

ولاية عبد العزيز بن موسى بن نُصَيْر الأندلسَ[٢]

واستخلف موسى على الأندلُس ابنَه عبد العزيز، وترك معه حبيبَ بن أبي عَبْدة بن عُقْبة بن نافِع وزيرًا له، ومُعينًا. وأقام معهما بالأندلُس مَن أراد سُكناها. فلمّا وصل موسى إلى إشبيلية، أقرَّ فيها ولدَه، فارتضاها قاعدةَ مُلْكه، وتزوَّج بعد خروج أبيه أمَّ عاصِم امرأةَ رُذْريق (واسمُها أَيْلُه) وسكن معها بإشبيلية. فلمّا دخل بها، قالت له: إنَّ الملوك، إذا لم يُتَوَّجوا، فلا مُلْكَ لهم! فلو عَمِلْتُ لك ممّا بقي عندي من الجوهر والذهب تاجًا؟ فقال لها: ليس يجوز[٣] ذلك في ديننا. فقالت له: ومن أين يَعرف أهْلُ دينك ما أنْتَ فيه في خَلْوتك؟ فقيل، واللهُ أعلم بصحّته: إنّها[٤] لم تزل به حتَّى فعل، فبينما هو ذات يوم جالسٌ معها، والتاجُ على رأْسه، إذ دخلتْ عليه امرأةٌ كان قد تزوَّجها زِيَاد بن نابِغة التَّميميُّ، من بنات مُلوكهم، فعاينَتْه، والتاجُ على رأْسه، فقالت لزياد: ألا أعمل لك تاجًا؟ فقال لها: ليس في ديننا استحلالُ لباسه. فقالت له: ودينِ المسيح إنَّه على رأْس مَلِككم وإمامكم. فأعلم بذلك زيادٌ حبيبَ بن أبي عَبْدة، ثمَّ تحدَّثا بذلك حتَّى عَلِمَه خيارُ الجند، فلم يكن لهم هَمٌّ إلا كَشْف ذلك، حتَّى رأوه عيانًا، فقالوا: قد تنصَّر. ثمَّ هجموا عليه، فقتلوه. وأكثرُ[٥] الناس على أنَّ هذه الحكايَة لا تصحُّ، وإنَّما قتلوه بأمر سليمانَ لهم بذلك؛ إذ نكب والدَه[٦].

---

(١) في ر٢: «على الأندلس»، وينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٦٦.

(٢) هذه اللفظة من ر٢.

(٣) من ر٢.

(٤) قوله: «فقيل، والله أعلم بصحته: إنها» ليس في أ، م.

(٥) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في أ.

(٦) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٢.

وقال الواقِديُّ: إنّ التي نكح بعد خروج أبيه هي ابنةُ رُذْرِيق، فجاءَتْه من الدنيا بما لا يُوصف، فلما دخلتْ عليه، قالت له: ما لي لا أَرَى أهلَ مملكتك يعظِّمونك، ولا يَسجدون لك، كما كان أهل مملكةِ أبي يفعلون له؟ فأمر بباب، فنُقب في ناحية قَصْره، وجعله قصيرًا فكان يأْذن للناس منه، فيدخل الداخل مُنَكِّسًا رأسه قُبالتَه لِقِصَر الباب، وقد جعل لها مجلسًا تنظرُ منه إلى الناس إذا دخلوا عليه من حيث لا يَرَوْنها، فلمّا رأتهم على ذلك[1]، ظنَّت أنهم يسجدون له، فقالت لعبد العزيز: الآن قَوِيَ مُلْكُك. وبلغ الناسَ ما أراد بذلك الباب، فثار به حبيبُ بن أبي عَبْدة الفِهْريُّ، وزياد بن عُذْرة البَلَويُّ، وزيَاد بن نابِغة التَّميمـيُّ، ومَن معهم من الناس، فقتلوه.

وقيل أيضًا: إنَّما قتلوه لأنَّه خلع طاعةَ سُليمانَ بنِ عبد الملك؛ إذ بَلَغَه قَتْلُ أخيه وما صُنع بأبيه.

قال الرازيُّ: لـمّا قَفَل موسى بن نُصَيْر، استخلف ابنَه عبدَ العزيز على الأندلس، فضبطَ سُلطانَها، وسدَّ ثُغورها، وافتتحَ مدائنَ كثيرة، وكان من خير الوُلاة، إلاَّ أنَّ مدَّته لم تطُلْ؛ لوثوب الـجُنْد عليه وقَتْلِهم له، لأشياءَ نقموها عليه. وكان قتلُه صَدْرَ رَجَب من سنة سبع وتسعين، بمدينة إشبيلية، بمسجد رُفِينة[2]. ولـمّا دخل المحرابَ، قرأ فاتحة الكتاب، ثمَّ قرأ سورة الحاقة[3]، فعلاه من خلفِه زيادُ بن عُذْرة البَلَويُّ بالسيف، فقتله وهو يقول: قد حَقَّتْ عليك يا ابنَ الفاعِلة! فكانت ولايتُه سنةً واحدةً وعشرةَ أشهُر.

وذَكَر أيضًا أنَّ سُليمانَ بعث إلى الجُنْد يأْمرهم بقتله، عند سخطه على أبيه، وأنَّهم، لـمّا قتلوه، حَزُّوا رأْسَه، وقَدِمَ به على سُليمان بن عبد الملك[4]: حبيبُ بن أبي عَبْدة

---

(١) في ر٢: «كذلك».

(٢) في ر٢: «ربينة»، والظاهر أنها باء أعجمية (p) فتُكتب على الوجهين، كما هي عادة العرب عند تعريبها.

(٣) في أ، م: «الواقعة»، وما أثبتناه من ر٢، وهو الذي ذكره ابن الفرضي نقلًا عن الرازي (١/ ٣٦٦).

(٤) من ر٢.

الفِهْريُّ[1]. فقيل: إنَّه عرض الرأْس على والده وهو في محبسه، فتجلَّد لـحَرِّ المصيبة، وقال: هَنِيئًا له الشهادة[2]! قَتَلْتُم والله صَوَّامًا قَوَّامًا[3].

قال الرازيُّ: فكانوا يعُدُّون فِعْلَ سُليمانَ هذا بموسى وابنِه من كبار زلَّاته التي لم تزل تُنقم عليه. ومكث أهلُ الأندلُس بعد عبد العزيز[4] شهورًا لا يجمعُهم والٍ، حتَّى اجتمعوا على أيُّوبَ بن حبيب اللَّخْميّ[5]، ابنِ أُخت موسى بن نُصَيْر.

ذِكْر ولاية أيُّوب بن حبيب الأندلُسَ

ثمَّ اجتمع أهلُ الأندلُس على تقديم أيُّوبَ هذا، يؤُمُّهم لصَلاتهم، وكان رجلًا صالحًا. وأقاموا مدَّةً دون أمير، ونقلوا دارَ السلطان إلى قُرْطُبة. فتقدَّم أيُّوبُ بن حبيب، واحتلَّ بقصر قرطبة، وكان مُغيثٌ قد اختطَّه لنفسه. فذُكِرَ أنَّ موسى بنَ نُصَيْر، حين أقلعه رسولُ الوليد، رجع في قُفوله على طريق طارِق ليختبرَ الأندلُس، فنزل قرطبةَ وقال لِـمُغيث: إنَّ هذا القصرَ لا يصلح لك، وإنَّـما يصلح للعامل الذي يكون بقرطبة، فتنحَّى عنه يومئذٍ، ونَزَله بعد ذلك أيُّوبُ بن حبيب، فكانت ولايته ستَّةَ أشهُر.

ولاية الـحُرِّ بن عبد الرحمن الثَّقَفيّ

لـمَّا ولَّى سُليمانُ بن عبد الملك محمَّدَ[6] بن يزيد، مولى ابنةِ الحكم بن العاص، إفريقيةَ، كانت الأندلُسُ وطَنْجة إلى صاحب إفريقية. فوجَّه محمَّدُ بن يزيد الـحُرَّ بن عبد الرحمن هذا عاملًا على الأندلُس، في أربع مئة رَجلٍ من وجوه إفريقية. فبقي الـحُرُّ واليًا عليها ثلاثَ سنين، فنقَل الـحُرُّ هذا الإمارةَ من إشبيلية إلى قُرْطُبة. وكان قدومُ الـحُرِّ الأندلُسَ سنة تسع وتسعين من الهجرة.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٢٣.

(٢) في ر٢: «الجنة».

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٢.

(٤) «بعد عبد العزيز» من ر٢.

(٥) ينظر نفح الطيب ٣/ ١٤.

(٦) ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر ٥٦/ ٢٧٧، وتاريخ الإسلام للذهبي ٣/ ١٦٤، ووقع في ر٢: «عبد الله» وهو تحريف.

ولاية السَّمْح بن مالِك الخَوْلانيّ

ثمَّ ولَّى أميرُ المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه السَّمْحَ بن مالك على الأندلُس، وأمَرَه أن يحمل الناسَ على طريق الحقِّ، ولا يعدل بهم عن منهجِ الرِّفق، وأن يخمِّس ما غلب عليه من أرضها وعقارها، ويكتب إليه بصِفة الأندلُس وأنهارها. وكان رأيُهُ نَقْلَ المسلمين منها وإخراجَهم عنها؛ لانقطاعهم عن المسلمين واتِّصالهم بأعداء الله الكفَّار، فقيل له: إنَّ الناسَ قد كثُروا بها، وانتشروا في أقطارها، فأضْرَبَ عن ذلك، فقَدِم السَّمْحُ الأندلُسَ، وامتثل ما أمره به عمرُ رضي الله عنه، من القيام بالحقِّ، واتِّباع العدل والصدق؛ فانفرد السَّمْح بولايتها، وعزلها عمرُ عن ولاية إفريقية؛ اعتناءً بأهلها، وتَهمُّمًا بشأْنها[1].

وكان المسلمون، إذ فتحوا قُرْطُبَةَ، وجدوا بها آثارَ قَنْطرةٍ فوق نهرها، على حنايا وثاقِ الأركان من تأْسيس الأُمَم الدائرة، قد هدمها مدودُ النهر على مَرّ الأزمان. فتقدَّم إلى فضيلة النظر فيها عمرُ بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما اتَّصل به خَبَرُها، فأمر السَّمْحَ بابتنائها، فصُنعت على أتمَّ وأعظمَ مـمَّـا بُنِي عليه جِسْرٌ من حجارة سُور المدينة.

وفي سنة إحدى ومئة: ورد كتابُ أمير المؤمنين عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، على السَّمْح بن مالك بالأندلُس، يأْمره ببناءِ القنطرة بصخر السُّور، وبناء السور باللَّبِن، ويأمره بإخراج خُـمُس قُرْطُبة[2]. فخرَّج من الـخُمُس البطحاءَ المعروفة بالرَّبَض. فأمر الخليفة عمرُ أن يتَّخذ بها مقبرةً للمسلمين، فتمَّ ذلك.

وقُتل السَّمْحُ، رحمه الله، بطَرَسُونة[3]، وذلك أنَّه غزا الروم في سنة اثنتين ومئة، فاستُشْهِد، رحمه الله، يومَ عَرَفة؛ فكانت ولايتُه سنتَيْن وأربعة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ثلاث سنين[4].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٨٩.

(٢) نفح الطيب ٣/ ١٥.

(٣) معجم البلدان ٤/ ٢٩.

(٤) ينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٢٦٧.

ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافِقيّ الأندلُسَ[1]

ثمَّ قَدَّم أهلُ الأندلُس على أنفسهم عبدَ الرحمن بن عبد الله الغافِقيَّ هذا، فدخلها في شهر ذي الحِجَّة سنة اثنتين ومئة[2].

ولاية عَنْبَسة بن سُحَيْم الكَلْبيّ[3]

ثمَّ ولَّى يزيدُ بن أبي مُسلم عاملُ إفريقية على الأندلُس عَنْبَسةَ بن سُحَيْم[4] هذا[5]، فدخلها في شهر صَفَر. فلما قُتِلَ يزيدُ بن أبي مُسْلم، كان على إفريقية محمَّدُ بن يزيد، مولى الأنصار، على ما ذكره الطَّبَريُّ[6]، بتقديم أهل إفريقية، وإقرارِ يزيدَ بن عبد الملك إيَّاه[7].

وفي سنة ثلاث ومئة: كان العاملَ على إفريقية من قِبَل يزيدَ بن عبد الملك بِشْرُ بن صَفْوان، أخو حَنْظَلة، فأقَرَّ عَنْبسةَ على الأندلس، فكانت ولاية عَنْبَسةَ كلُّها أربعَ سنين وثمانية أشهر، وقيل غير ذلك[8].

وفي سنة خمس ومئة: خرجَ عَنْبَسةُ غازيًا للرُّوم بالأندلس، وأهلُها يومئذٍ خيَارٌ فضلاء أهلُ نِيَّةٍ في الجهاد وحِسْبةٍ في الثواب، فألَحَّ على الروم في القتال والحصار، حتَّى صالحُوه.

وتُوُفِّي عَنْبَسةُ في شعبانَ سنة سبع ومئة، فكانت ولايته كما ذكرنا[9].

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤٢ والتعليق عليه.

(٢) نفح الطيب ١/ ٢٣٥.

(٣) أخلت ر٢ بالعنوان جملةً، وترجمة عنبسة في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤٤١ وتعليقنا عليه.

(٤) بعد هذا في ر٢: «الكلبي».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) تاريخ الطبري ٦/ ٦١٧.

(٧) في ر٢: «له».

(٨) نفح الطيب ١/ ٢٣٥.

(٩) «فكانت ولايته كما ذكرنا» ليست في ر٢. وينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ١٣٦.

ولاية يَحْيَى بن سَلَمة الكَلْبيّ

وذلك أنّه، لـمّا تُوفِّي عَنْبَسةُ، قدَّم أهلُ الأندلس على أنفسهم رَجلًا من العَرَب، يُقال له: عُذْرة، إلى أن ورد بعد شهرَيْن يحيى بنُ سَلَمة الكَلْبيُّ واليًا من عند أمير المؤمنين هشامِ[(١)] بن عبد الملك، في آخر سنة سبع[(٢)] ومئة؛ فكانت ولايته سنتَيْن وستَّة أشهر[(٣)].

ومات بِشْرُ بن صفْوان بإفريقية، فولَّى هشامُ بن عبد الملك مكانَه عُبَيْدةَ[(٤)] ابن أبي الأعْوَر السُّلَميَّ.

ولاية حُذَيْفة بن الأحْوَص

ثمَّ وَلِيَ الأندلسَ حُذَيْفةُ بن الأحْوَص الأشْجَعيُّ، وقيل: القَيْسيُّ، ولَّاه عليها عُبَيْدةُ بن عبد الرحمن السُّلَميُّ عامِلُ إفريقية من قِبَل هشامِ بن عبد الملك، في سنة عشر ومئة؛ فكانت ولايته ستَّةَ أشهُر[(٥)].

ولاية عثمان بن أبي نِسْعة[(٦)]

ثمَّ ولَّى عُبَيْدةُ بن عبد الرحمن بن أبي الأعْوَر السُّلَميُّ على الأندلس عثمانَ بن أبي نِسْعة الخَثْعَميَّ، فقَدِمَها في شعبان سنة عشر ومئة، وكانت ولايتُه خمسةَ أشهر، وقيل: ستَّة أشهر، ثمَّ عُزِل وانصرف إلى القَيْرَوان، فمات بها[(٧)].

---

(١) في ر٢: «من قبل هشام».

(٢) في أ، م: «تسع»، خطأ.

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٣٥.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤٦ وفيه: «بن أبي الأغر»، ونهاية الأرب للنويري ٢٤/ ٣٠.

(٥) الكامل لابن الأثير ٥/ ١٤٦.

(٦) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٩٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

ولاية الـهَيْثَم بن عُبَيْد الكِنانيّ[1]

ثمَّ وليَ الأندلُسَ الـهَيْثَمُ بن عُبَيْد الكِنانيُّ في صدر سنة إحدى عشرة ومئة، وكانت ولايتُه عشَرةَ أشهر، وقيل غير ذلك، وهو الذي غزا منوسة[2]. وأقام واليًا عشرة أشهر، كما ذكرنا، وقيل: وَلِيَ سنةً وشهرَيْن، ثمَّ تُوفّي[3].

ولاية محمَّد بن عبد الله الأَشْجَعيّ

ثمَّ قدَّم أهلُ الأندلس على أنفسهم محمَّدَ بن عبد الله الأَشْجَعيَّ[4]؛ فكانت ولايته شهرَيْن، وقيل غير ذلك.

ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغَافِقيّ ثانيةً

ثمَّ وليَ الأندلسَ عبدُ الرحمن هذا ثانيةً[5]؛ فكان دخولُه إليها في صفر سنةَ اثنتي عشرة ومئة، فأقام واليًا سنتَيْن وسبعة أشهر، وقيل: وثمانية أشهر. واستُشْهِد في أرض العدوّ في رمضان سنة أربع عشرة ومئة[6].

ولاية عبد الملك بن قَطَن[7]

ثمَّ وليَ عبدُ الملك بن قَطَن[8] بن نُفَيْل بن عبد الله الفِهْريُّ، فدخلها في شهر رمضانَ المذكور الذي تُوفّي فيه عبدُ الرحمن الغافِقيُّ، فألفاهُ قد استُشْهد. وقيل: دخلها في شوَّالٍ من سنة أربع عشرة ومئة. وكانت ولايته سنتَيْن، وقيل غير ذلك[9].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١١٩.

(٢) في ر٢: «سنوسة».

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

(٤) من أول العنوان إلى هنا ليس في ر٢، ولكن جاء فيها: «وولي محمد بن عبد الله الأشجعي، قدّمه أهل الأندلس على أنفسهم».

(٥) من أول العبارة إلى هنا ليس في ر٢.

(٦) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

(٧) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥٨ والتعليق عليه.

(٨) من أول الفقرة إلى هنا ليس في ر٢.

(٩) «وقيل غير ذلك» ليست في ر٢.

ولاية عُقْبة بن الـحَجَّاج السَّلَوليّ[١]

ثمَّ ولي عقْبةُ بن الـحَجَّاج السَّلوليُّ[٢] في شوَّال سنة ست عشرة ومئة[٣].

وقالوا: في ولايته كان عُبَيْدُ الله بن الـحَبْحاب عامِلَ مِصْر وإفريقية، فقَدِمَ عليه عُقْبةُ بن الحجَّاج، وكان مَوْلاه، فأكرمَه، وبرَّه، ورفعَ شأْنَه وقَدْرَه، وأنزله في مكانه، وخيَّره في ولاية ما شاءَ من سُلطانه. وكان الحجَّاجُ أبو عُقْبة قد أعتق الـحَبْحاب أبا عُبَيد الله، فولَّى هشامُ بن عبد الملك عُبَيْدَ الله بن الـحَبْحاب مِصْرَ وإفريقية والأندلس، فكان له من العَرِيش إلى طَنْجة إلى السُّوس الأقصى إلى الأندلُس وما بين ذلك، وكان أحدُ بَنيه بمصر، والثاني بالسُّوس وطَنْجة، والثالثُ بالأندلُس، وكان عبيدُ الله بإفريقية، فلمّا شَرُف عُبيدُ الله، وعلَتْ منزلته، وانتشر ذِكرُه، وَفَدَ عليه مولاه عُقْبة، فأجلسه معه على فراشه، وأدناه من نَفْسِه، وقرَّبه، حتَّى عظمت[٤] منزلتُه في الناس، فكان يقصده الطالبون وذَوُو الحاجات، يتوسَّلون به إلى عُبَيْد الله. فغُصَّ به بنو عُبيد الله، وقالوا لوالدهم: اصرِفْه عنَّا؛ لئلَّا يكسرَ شَرَفَنا. فما زاده ذلك عنده إلَّا تعظيمًا وتكريمًا، وخيَّره في ولاية ما شاءَ من سُلطانه، فاختار الأندلُس، فولَّاه عليها. وكان يجاهدُ المشركين في كلِّ عام، ويَفتتح المدائن، وهو الذي فتح مدينةَ أربونة، وافتتح جِلِّيقيّة وبَنْبلونة، وأسكنها الـمُسلمينَ، وعمَّت فتوحاتُه جِلِّيقِيَّة كلَّها غيرَ الصَّخْرة، فإنَّه لجأ إليها مَلِكُ جِلِّيقِيَّة، وكان بها في ثلاث مئة راجل، فما زال المسلمون يضيِّقون عليهم، حتَّى صاروا ثلاثين رَجلًا، وحتَّى فنيتْ أزْوِدَتُهم، ولم يتقوَّتوا إلَّا بعسلٍ يَجِدُونه في خُروق الصخْرة. وأعيا المسلمين أمْرُهم، فتركوهم. وأقام عُقْبةُ بالأندلُس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم[٥] طريقة وأعدلها، إلى أن غزا أرض إفْرَنْجة، فلقيَتْه

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس (٧٤٠) والتعليق عليها.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٠.

(٤) في ر٢: «علت».

(٥) في ر٢: «وأفضل».

جيوشُ الأعداء، فقُتِل هو ومَن معه ببَلَاط الشُّهَداء. وذُكِرَ عنه أنَّه كان صاحبَ بأسٍ ونَجْدةٍ، ونِكاية في العدوِّ وشدّة. وكان إذا أسَرَ الأسير، لم يَقتلْه حتَّى يعرضَ عليه دِينَ الإسلام، ويقبِّح له عبادةَ الأصنام. فيُذْكَر أنَّه أسلم على يديه بهذا الفِعْل ألف رجل. وكانت ولايتُه خمسةَ أعوام وشهرَيْن.

وقيل: إنَّ أهلَ الأندلس ثاروا على عُقْبَةَ بنِ الحجَّاج وخَلَعوه.

قال ابن القَطَّان: وقيل: إنَّ عُقْبَةَ بن الحجَّاج، لـمّا حانت وفاتُه، استخلف عبدَ الملك بن قَطَن. قال: وأقام عقبةُ على الأندلس واليًا إلى سنة إحدى وعشرين ومئة.

ولاية عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيّ ثانيةً

وفي سنة اثنتين وعشرين ومئة: وليَ عبدُ الملك بن قَطَن ثانيةً، حتَّى كان من أمر البَرْبر وبَلْج[(١)] بن بِشْر، ابن أخي كُلثوم[(٢)] بن عِيَاض عامِل إفريقية، ما أذْكُرُهُ.

قال ابن القَطَّان: وذلك أنَّ هشامَ بن عبد الملك كان قد ندب كُلْثوماً لقتال البَرْبَر، وولَّاه إفريقية، وبعث معه ثلاثين ألفَ فارس: عشرةَ آلاف من صُلْب بني أُميَّة، وعشرين ألفًا من سائر[(٣)] العَرَب، وعَهِدَ إليه في سدِّ إفريقية وضَبْطها؛ إذْ كانوا يَجِدون في الروايات أنَّ مُلْكهم يزول، وأنَّ مُلْكَ بني العبَّاس لا يجاوزُ الزَّاب، فتوهَّمَتْه بنو أُميَّة زَابَ مِصْرَ، وإنَّما كان زَابَ إفريقية. فأمَرَه بالجِدِّ في أمر إفريقية؛ ليلجَأوا إليها إذا ذهب مُلْكُهم بالمشرق[(٤)]، وعَهِدَ، إنْ حَدَثَ بكُلْثوم حَدَثٌ، أن يكون ابنُ أخيه بَلْج مكانَه، فدارت بينه وبين البَرْبَر حروبٌ عظيمةٌ، هَزموا في بعضها كُلْثومًا وقَتلوه، وصار أمرُ العَرَب بإفريقية إلى بَلْج بالعهد المذكور.

ولجأ فلُّهُم إلى سَبْتة، حتَّى ضاق عليهم الأمرُ ضيقًا عظيمًا، فكاتَبَ بَلْج وأصحابُه عبدَ الملك بن قَطَن صاحبَ الأندلس، وسأله إدخالَه وإدخال مَن معه من الجُنْد، وذكروا

---

(١) ينظر عن بلج الجذوة (٣٣٧).

(٢) ترجمة كلثوم في تاريخ الإسلام ٣/ ٤٨٥.

(٣) هذه اللفظة من ر٢.

(٤) كذلك.

له ما صاروا إليه من الجَهْد، وأنَّهم قد أكلوا دوابَّهم. فأبى عبدُ الملك من إدخالهم، ولم يأمْنهم، ومَطَلَهم بالمِيْرة والسُّفُن.

واتَّفق أن تطاولت البَرْبَرُ أيضًا بالأندلُس، وفاضحوا العَرَبَ، وظَهَروا على الساكنين منهم بجِلِّيقِيَّة وغيرِها، فقتلوهم وطردوهم، فلمّا ورد فلُّ العَرَب على عبد الملك بن قَطَن، ورأى عاديةَ البَرْبَر، اضطرَّ لأجل ذلك إلى إدخال بَلْج وأصحابِه، فكاتَبَهم، وشرط عليهم مُقامَ سنةٍ بالأندلُس، ثمَّ يَخرجون عنها، فرضُوْا بذلك. فأخذ منهم رهائنَ أنزلهم بجزيرة أُمِّ حَكِيم، وهي على الخَضْراء. ثمَّ أدخل بَلْجًا وأصحابَه عُراةً، لا يُوَاريهم إلَّا دَوابُّهم، وقد بلغ بهم الجَهْدُ غايتَه. وكانوا نحوَ عشرة آلافٍ من عَرَب الشام. فلما دخلوا، كساهم عَرَبُ الأندلس على قَدْر أقدارهم، فرُبَّ رَجلٍ يكسو مئةَ رجل، وآخَرُ عشرةً، وآخر واحدًا، إلى ما بين ذلك.

فلما حلُّوا بالخضراء، اجتمعَ بهم عبدُ الملك بن قَطَن، وكان بشَذُونة جمعٌ من البَرْبَر، عليهم رجلٌ زَنَاتيٌّ، فبدأ عبدُ الملك بمُقاتلتهم في وادِي الفَتْح من شَذُونة، فلم يكن للعَرَب فيهم إلَّا نهضةٌ، حتَّى أبادوهم، وأصابوا أمْتِعَتهم ودوابَّهم. فاكتسى أصحابُ بَلْج، وانتعشوا، وأصابوا الغنائم. ثمَّ نهضوا مع عبد الملك إلى قُرْطُبة، ثمَّ ساروا بأجمعهم إلى جهة طُلَيْطُلة، وقد اجتمع هنالك مُعْظَمُ البَرْبَر، فكانت هزيمتُهم العُظْمى هنالك بوادي سَلِيط من حَوْز طُلَيْطُلة، بعد أن زحف عبدُ الملك وبَلْجٌ إليهم بعَرَب الأندلس، حاشا عَرَبِ سَرَقُسْطة وثُغورِها. وزحف البَرْبَرُ بأجمعهم، فهزمهم العربُ، وقتلوا منهم في الهزيمة آلافًا.

ذِكْر ولاية بَلْج بن بِشْر القُشَيْريّ الأنْدَلُس

قال مَن له عنايةٌ بالأخبار: دخل بَلْجٌ الأندلسَ سنة ثلاث وعشرين ومئة، في ذي القَعْدة منها، ومَلكها بعد ذلك، وذلك أنَّه، لـمّا أباد ابنُ قَطَن البَرْبَرَ بالأندلس، بمن كان معه من العَرَب، وبأصحاب بَلْج، قال لبَلْجٍ وأصحابه: اخرجوا من الأندلس على ما شُورِطْتُم عليه، فقال بَلْج: احمِلْنا إلى ساحلِ إلْبِيرة أو ساحل تُدْمِير. فقال لهم عبدُ الملك: ليست لنا مراكِبُ إلا بالجزيرة[1]. فقالوا له: إنَّمـا تُريد أن تردَّنا إلى البَرْبَر

(١) في ر٢: «بالخضراء» وكلاهما صواب.

ليَقتُلونا في بلادهم! فلما ألَحَّ عليهم في الخروج، نهضوا إليه، فأخرجوه من قصر قُرْطُبة إلى داره بالمدينة. ودخل بَلْجٌ القصرَ عشيَّة يوم الأربعاء في صدر ذي قعدة من السنة[1].

وكان بَلْج، وقتَ جوازه عن سَبْتة، قد أعطى رهائنَ لابن قَطَن، جَعَلَهم ابنُ قَطَن بجزيرة أُمِّ حَكيم[2]، فضاعُوا مدَّةَ الفتنة بين بَلْجٍ وابنِ قَطَن، والجزيرةُ المذكورة دون ماء، فمات رَجلٌ من غَسَّان عَطَشًا، وكان من الرهائن، من أشراف دِمَشْق.

مقتل عبد الملك بن قَطَن الفِهْريّ

لما ملك بَلْجٌ الأندلُس، واستولى عليها، طلب منه الجُنْدُ أن يعطيَهم ابنَ قَطَن في الغَسَّانيّ المذكور، فتوقَّف بَلْج، فألَحَّ الجُنْدُ، وثارت اليَمَنُ كلُّها على كلمةٍ واحدة. وكان ابن قَطَن شيخًا هَرِمًا، قد بلغ التسعين، وكان قد حضر يوم الحَرَّة، ومنها فرَّ إلى إفريقية، وكان يومئذٍ بداره بقُرْطُبة، فأخرجه الجُنْدُ منها، كأنَّه فَرْخُ نَعَامةٍ من الكِبَر، وهم يُنادُونَه: أفْلَتَّ من سُيوفنا يومَ الحَرَّة، فطلبْتَنا بثأرنا في أكْل الدوابّ والجلود، ثمَّ أردتَ إخراجَنا إلى القتل! ثم قَتلوه، وصَلَبُوه، وصلبوا خِنْزيرًا عن يمينه، وكَلْبًا عن شِماله[3].

ثمَّ إنَّ أُميَّة وقَطَنًا ابنيْ عبدِ الملك بنِ قَطَن حَشَدَا في جهة سَرَقُسْطة، وكانا قد هربا من قُرْطُبَةَ وقتَ إخراج أبيهما منها، وجاءَا إلى بَلْجٍ طالبَيْن بثأْرهما، وهُمَا في نيِّفٍ على مئةِ ألفٍ من العَرَب القُدَماء والحَدَث، فخرج إليهما بَلْج، وهو في أقلّ من خُمُس عددهما، فاقتتَلوا قتالًا شديدًا، ثمَّ انهزم ابنا عبدِ الملك ومَن معهما هزيمةً عظيمةً، وانصرف أصحابُ بَلْجٍ ظافرين وقد امتلأَت أيديهم وأنفُسُهم غُنْمًا ونصرًا وسرورًا، إلَّا أنَّ بَلْجًا أميرَهم وَقِيذٌ من جراحةٍ أصابَتْه في المعركة، ومات بعد أيَّام. وكانت مدَّةُ إمارته اثني عشر شهرًا، على خلافٍ[4] في ذلك.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢) الروض المعطار ٢٢٣.

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٥٢.

(٤) في أ، م: «واختلف»، وذكر ابن الأثير أن ولايته كانت أحد عشر شهرًا (الكامل ٥/ ٢٥٩).

قال أبو عُمر السَّالِمِيُّ: إنَّ تلك المعركةَ انجلَتْ عن أحدَ عشر ألفَ قتيل، وإنَّ عبدَ الرحمن بن عَلْقَمة فوَّق سَهْمًا إلى بَلْج، فأصاب مَقْتله؛ قال هذا في كتاب «دُرَر القَلَائد وغُرَر الفَوَائد»[1]. وقال في كتاب[2] «بَهْجة النَّفْس»: إنَّ عبدَ الرحمن بن عَلْقَمة المذكور قَتَلَه بالسيف، وإنَّ ولايتَه ستَّة أشهر. والأوَّلُ أصَحُّ.

ولاية ثَعْلَبة بن سَلَامة العامِليّ الأَنْدَلُسَ[3]

وفي سنة أربع وعشرين ومئة، في شوَّال: وَلِيَ الأندلسَ ثَعْلَبَةُ بن سَلَامة، ولَّاه أَهْلُ الشام؛ وذلك أنَّ هشامَ بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولَّى أَمْرَ الجيش، إذ جهزَّه من الشام كُلْثومُ بن عِيَاض[4]، فإن أُصِيبَ، فابْنُ أخيه بَلْج، فإنْ أُصيب، فثَعْلَبة. فأقعد أصحابُهُ ثَعْلَبَة بن سَلَامة بما عَهِدَ به هشامٌ إليهم، وبايعوه. وثار مَن بقيَ من البَرْبَر بمَـارِدَة في أيَّامه، فغزاهم، وقَتل منهم خَلْقًا كثيرًا، وأَسَرَ منهم نحو الألف، وانصرفَ إلى قُرْطبة[5]، فسار بأحسن سيرة. وكانت ولايتُه عشَرةَ أشْهُر. هذا مَسَاقُ ابنِ القَطَّان.

ومن «دُرَر القَلَائد»: كان يبيع ذَرَارِيَ أهْل البلد، ويَحْمِلُهم أسْرَى، ويُرْهِقهم من أمْرِهم عُسرًا، فكان ثَعْلَبةُ معهم على هذه الحال، إلى أن ورد أبو الـخَـطَّار.

ذِكْرُ ولاية أبي الـخَطَّار الـحُسَام[6] بن ضِرَار الكَلْبيِّ[7] الأَنْدَلُسَ

وفي سنة خمس وعشرين ومئة: ركبَ أبو الـخَطَّار البَحْرَ من ناحية تُونِسَ في المحرَّم، وحلَّ بقُرْطبة، فألفى ثَعْلَبَةَ بن سَلَامة بالـمُصارَة، ومعه الأَسْرَى والسَّبْيُ

---

(١) قوله: «قال هذا في كتاب درر القلائد وغرر الفوائد» ليس في ر٢.

(٢) في ر٢: «وقال صاحب كتاب».

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٤٩).

(٤) «ابن عياض» من ر٢.

(٥) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٥٩.

(٦) ترجمته في جذوة المقتبس (٤٠٣) والتعليق عليه.

(٧) ليست في ر٢.

من عُرْبِ قُرْطُبة، قد اشتبك في الحبال الوَلدُ بالوالد، فأمر أبو الـخَطَّار بإطلاقهم، وحلِّهم من وَثاقهم، وجمعَ الناسَ بعد افتراقهم، وصَرَفَهم إلى معهود اتِّفاقهم، فدانت لهم جماعتهم، وفرَّق أهْلَ الشام على الكُوَر، ونظر لسواهم أيضًا بأحسن النظر، فأنزل أهْلَ دِمَشْقَ بإلْبيرَة، وأهْلَ الأُرْدُنّ برَيُّه، وأهْلَ فِلَسْطِين بشَذُونَة، وأهْلَ حِـمْص بإشبيلية، وأهْلَ قِنَّسْرِين بجَيَّان، وأهْلَ مِصْر بباجَة، وبعضَهم بتُدْمِير[1]. وكان إنزالُـهم على أموال العَجَم من أرضٍ ونَعَم. ودخل في ذلك الوقتِ الصُّمَيْلُ بن حَاتِم - وسيأْتي ذِكْرُه - وتعصَّب الـمُضَرِيُّون معه، وأَتَوْا إلى قُرطبَةَ، حيثُ أبو الـخَطَّار، فخرج إليهم دون عُدَّة؛ إذ وصلوا إليه من غير عِدَة[2]، فهزمه القومُ، وقبضوا عليه، وأثقلوا بالحديد رِجْلَيْه. ثمَّ إنَّه أفلت من كَبْله، ومدَّ ما انقبض من حَبْله.

ومن كتاب «بَهْجَة النَّفْس»[3]، قال: لـمّا هزم ثَعْلَبَةُ البَرْبَرَ، سَبَى ذَرَاريَهم، ولم يكن قبلُ بَلْجٌ ولا[4] غيرُه يتعرَّض للذُّرِّيَّة بِسِباء، فأقبل إلى قُرْطُبَةَ بعَدَد من السَّبْي كثير، حتَّى نزل طَرَفَ الـمُصَارة من قُرْطُبة، ومعه الأسرى والسَّبْيُ من عُرْب البلد والبَرْبر، وهو يبيعُ السَّبْيَ في النّداء، ويَعْبَث ويُبْطِر، فكان يبيعُ الشيوخَ والأشراف مـمَّن ينقُص، لا مـمَّن يزيد، وكان فيهم عليُّ بن الحُصَيْن، والحارثُ بن أسَد من أهل المدينة، فابتدأ الـمُنادي عليهما بعشرة دنانير، فلم يزل يُنادي: من ينقُص؟ حتى باع أحدَهما بعَتُود[5]، والآخر بكَلْب، فبَيْنا هو على هذه الحال من العَبَث والبغي، وقد أوقف رجالَهم، وأبرزهم للقتل، وذلك يوم جُمعة، إذ قَدِمَ أبو الـخَطَّار، فألفاهم بهذه الحال، فأمَرَ بإطلاقهم، فسُمِّيَ ذلك العَسْكَرُ[6] عَسْكَرَ العافية. وكان أهلُ الأندلس طلبوا من صاحب إفريقية حَنْظَلَةَ بنِ صَفْوان عامِلًا يجمع كلمتَهم، إذ كانت الكَلِمةُ

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٧٣.

(٢) قوله: «إذ وصلوا إليه من غير عِدَة» سقط من أ، م.

(٣) هو لابن حَيّان، ولم يصل إلينا.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «بعود» وهو تحريف، والعتود: من أولاد المعزى، ما قوي وأتى عليه حول.

(٦) قوله: «ذلك العسكر» ليس في ر٢.

مفترقةً، والقتلُ ذريعًا، ولا يأْمنون تغلُّبَ العدوِّ عليهم، فأرسل إليهم أبا الـخَطَّار هذا. واجتمع على أبي الـخَطَّار أهْلُ الشام وعُرْبُ البلد، ودانت له الأندلس. ثمَّ إنّه أمَّن ابنَيْ عبدِ الملك بن قَطَن، وأنزل أهل الشام في الكُوَر، وتعصَّب لليمـانيَّة، واعتزل قَيْسًا، فكان ذلك سببَ توثُّبِ الصُّمَيْلِ بن حاتِم عليه مع مُضَر، بعد أن وليَ سنَتيْن، وقيل: وتسعةَ أشهر، وقيل: ثلاثَ سنين.

ذِكر الصُّمَيْل بن حاتِم وسَبَب الفِتْنة[1]

قال في كتاب «بَهْجة النَّفْس»: كان الصُّمَيْل بن حاتِم هذا جدُّه شَمِر قاتِلُ الـحُسين رضي الله عنه، وهو من أهل الكُوفة، فلمّا قَتَله، تمكَّن منه الـمُختارُ بن أبي عُبَيْد، فقَتله، وهَدَم داره، فارتحل مع وُلدِه من الكوفة، وصاروا بالجزيرة، ثمَّ صاروا في جُنْد قِنَّسْرين، فرأَسَ الصُّمَيْل بالأندلُس، وفاق بالنَّجْدة والسخاءِ[2]. فاغتمَّ أبو الـخَطَّار به، فدخل عليه يومًا وعنده الـجُنْد، فأَحَبَّ كَسْرَه، فأمر عليه، فشُتِمَ، ولُكِزَ، فخرج عنه مُغْضِبًا، وأتى دارَه، ثمَّ بَعثَ إلى خيار قومه، فشكا إليهم ما لقي فقالوا: نحن تَبَعٌ لك. فقال: والله[3] ما أُحِبُّ أن أُعرِّضكم للقُضاعيّة ولا لليَمانيَّة، ولكني سأَتَلَطَّف، وأدعو إلْبَ مَرْج راهِط، وأدعو لَـخْمًا وجُذامًا، ونقدِّمُ رجلًا يكون له الاسمُ ولنا الحظُّ. فكتبوا إلى ثَوَابة[4] بن سَلَامة الـجُذاميّ من أهْل فِلَسْطِين، ثمَّ وفدوا عليه، فأجابهم، وأجابتهم لَخْمُ وجُذَام. فبلغ ذلك أبا الـخَطَّار، فغزاهم، فلقيه ثَوَابة، فهزمه ثَوَابةُ، وأَسَره. وسار ثَوَابةُ حتَّى دخل قَصْرَ قُرْطبة، وأبو الـخَطَّار معه في قيوده. ثمَّ إنَّه أفلت، كما ذكرنا.

ثمَّ وليَ ثَوَابة سنَتَيْن. ولـمّا وليَ ثَوَابةُ سنة ثمان وعشرين ومئة، استجاشَ أبو الـخَطّار اليَمانيَّة، ودعاهم للنُّصْرة على الـمُضَريَّة، فاجتمع له إذ ذاك حفلٌ وعسكرٌ ضخمٌ، وأقبل إلى قُرْطُبة؛ فخرج ثَوَابةُ بن سَلَامة إلى لقائه، فافترق الناسُ عن أبي الـخَطَّار،

---

(١) ينظر الإحاطة ٣/ ٣٤٦ نقلًا من بهجة الأنفس، فكأنه نقل من هذا الكتاب لتطابق العبارة.

(٢) إلى هنا ينتهي نقل ابن الخطيب في الإحاطة.

(٣) ليس في ر٢.

(٤) في ر٢: «ثعلبة»، وينظر نفح الطيب ٣/ ٢٤.

ونفروا عن تِلْقائه(١). وتُوفّي إثْرَ ذلك ثَوَابةُ(٢) في السنة المذكورة، وكانت ولايتُه كما ذكرنا. فلما تُوفّي ثَوَابةُ، عادت الحربُ إلى ما كانت عليه، فأرادت اليَمَنُ أن تُعيدَ أبا الـخَطَّار، فأبَتْ ذلك مُضَرُ مع الصُّمَيْل، وتشاكَسَ الفريقان. وأقامت الأندلسُ أربعةَ أشْهُر من غير والٍ، إلاّ أنَّهم قدَّموا عبدَ الرحمن بن كَثير اللَّخْميَّ للنظر في الأحكام. وصار أمْرُ الشام وملوكِه متغَيِّرَ الحال؛ بقتل الوليد بن يزيد وما صارت إليه أحوالُ بني مَرْوان(٣).

ولاية يُوسُف بن عبد الرَّحمن الفِهْريّ الأنْدَلُس(٤)

لـمّا تَفَاقَم الأمر، وكثُر الاختلاف بين أهل الأندلس، تَراضَوْا واتَّفقوا على تَوْلية يوسفَ بنِ عبد الرحمن الفِهْريّ، وعلى أن يدَعُوا ليحيى بن حُرَيْث كُورةَ رَيُّه، فتُركت له طُعمةً. وقد كانت قُضاعةُ اجتمعتْ قبل ذلك، وقدَّموا على أنفُسِهم عبدَ الرحمن بن نُعَيْم الكَلْبيّ؛ فجَمع مئتي راجل وأربعين فارسًا، فبَيَّتَ القصرَ بقُرطبة، وقاتل الأحراسَ، وهجمَ على السجن، فأخرج أبا الـخَطَّار، وهرب به إلى لَبْلة(٥)، فأقام في كَلْب وقبائلَ من حِمْص؛ فاكتنفوه ومَنعوه، ولم يُحْدِثْ شيئًا حتَّى اجتمعَ الناسُ على يوسفَ. فلمّا استقام له الأمر، غَدَرَ بيحيى بنِ حُرَيْث، وعزله عن كُورة رَيُّه؛ فغضب ابن حُرَيْث، وكاتَبَ أبا الـخَطَّار حينًا. فقال أبو الـخَطَّار: أنا الأميرُ المخلوع! فأنا أقوم بالأمر، وقال ابن حُرَيْث: بل أنا أقوم به؛ لأنَّ قومي أكثر من قومك. فلمّا رأت جُذامُ ما يَدْعو إليه ابنُ حُرَيْث، قدَّموه وأجابوه، فأصفَقَتْ يَمَنُ الأندلس وحِمْيَرُها وكِنْدَتُها على تقديمه والطَّوع له، وانحازت مُضَر ورَبِيعة إلى يوسفَ بقُرْطُبة حضرةِ الـمُلْك. وأقبلا حتَّى نزلا شَقُنْدة(٦).

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٣٩.

(٢) في ر٢: «ثم توفي ثوابة».

(٣) في أ، م: «فقتل يزيد بن الوليد وصارت إليه أحوال بني مروان»، وما هنا من ر٢ وهو أبين.

(٤) تنظر الإحالة ٤/ ٣٣٩.

(٥) في أ: «البلد»، وانظر عن لبلة معجم البلدان ٥/ ١٠.

(٦) ينظر عنها الروض المعطار ٣٤٩.

وكان الصُّمَيْلُ مع يوسفَ الفِهْريّ، وهو الذي سأله الناسُ أن ينظرَ لهم في والٍ يَلِي عليهم، لشُغْلِ أمير المؤْمنين مروانَ بن محمَّد بالمشرق عنهم وبُعْدِهِ عنهم. فاختارَ لهم يوسفَ بن عبد الرحمن بنِ حبيب بن أبي عَبْدة بن عُقْبةَ بن نافِع الفِهْريَّ، وكان يومئذٍ بإلْبيرة، فرضِيَه الناسُ كما ذكرنا. ووقع اختلافٌ بعد ذلك في أمْره بين مُضَرَ واليَمَن، فانضوَت اليَمَن إلى أبي الـخَطَّار، من جميع البلاد والأقطار، وزحف بهم إلى يوسفَ الفهريّ بقرطبة، فكَرِهَ يوسفُ الفتنة، وخاف البغضاءَ والشحناءَ. فنزل الصُّمَيْلُ بن حاتِم بالمحلَّات، وشكَّ السلاحَ والآلات، وأقبل أبو الـخَطَّار بمن معه، ونزل موضعَه، فالتقت بشَقُنْدَة الفِئَتان، وتصادمت الفرقتان، فلا تَسْمَعُ إلاَّ صَهيلًا وصَليلًا، ولا ترى إلَّا قتيلًا، حتَّى تكسَّرت الخَطِّيَّةُ، وتفلَّلت الـمَشْرَفِيَّة، والتفَّت الساقُ بالساق، وانضمَّت الأعناقُ إلى الأعناق، فلم يُعْهَد حربٌ مِثْلَها في المسلمين، بعد حرب الـجَمَل وصِفِّين، إلى أن انهزمت اليَمانيَّةُ مع أبي الـخطَّار بعد حِين. وهرب أبو الـخَطَّار، وركب ظَهْرَ الفِرار، واستتر في رَحىً للصُّمَيْل هنالك، فظُفِر به وقُتل إذ ذلك. فرأَسَ الصُّمَيْل بن حاتِم في الناس، وشُهِر بالنَّجْدة والباس، وصَرف يوسفُ الفِهْريُّ إليه الأُمور، وأوقف عليه الرِّياسةَ والتدبير، فكان ليوسفَ الاسْم، وللصُّمَيْل بن حاتم[1] الرَّسْم[2].

مَقْتَل أبي الـخَطَّار

ولـمّا أُخِذ أبو الـخَطَّار، وأرادوا قَتْلَه، قال: ليس عليَّ فَوْتٌ! ولكن دونَكم ابْنَ السَّوداء! يُريد ابنَ حُرَيْث. فدَلَّ عليه، وقُتلا جميعًا. وكان ابنُ حُرَيْث يقول: لو أنَّ دماءَ أهل الشام سُقيتْ، لشَرِبْتُها في قَدَح! فلمّا استُخْرِج من تحت الرَّحَى ليُقتل، قال له أبو الـخَطَّار: يا ابنَ السَّوْداء! هل بقي في قَدَحك شيءٌ لم تشربْه؟ ثمَّ قُتِلا وأُتِيَ بالأسرى، فقعد لهم الصُّمَيْل، وضرب أعناقَهم جميعًا.

ثمَّ أتْبَع اللهُ الأندلسَ بعد ذلك بالوباء والموت في السنة الثانية، حتَّى كاد الـخَلْقُ أن يَنقرِض منها.

---

(١) ليس في أ، م.

(٢) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٧٥-٣٧٦.

وَوَلِيَ يوسفُ عن رضًا من[1] عامَّة الـجُنْد من مُضَرَ ويَمَن والشام، فصَفَتْ له الأندلُسُ بعد يوم شَقُنْدة، وخلصتْ له القلوبُ والأنفس. وعاد الصُّمَيْلُ بن حاتِم قائدُه الأعلى، وقِدْحُه الـمُعَلَّى، يقرِّب منه ما شاءَه، ويدفعُ عنه ما ساءَه، إلى أن تمكَّن بالدولة، وتملَّك رِقابَ تلك الـجُملة. فشَرِقَ به يوسفُ وقَلِقَ، وخشيَ من جانبه وأرِق، فرأى أن يُبعِدَه من مكانه، ويولِّيه بعضَ سلطانه، فولَّاه سَرَقُسْطة وبلادَها سنة اثنتين وثلاثين ومئة؛ فكان فيها إلى أن قام عليه فيها الـحُبابُ بن رَواحة من بني زُهْرةَ بن كِلاب، فحاصَرَه مُدَّةً من سبعة أشهر. وقعد يوسفُ عن إغاثتِه، واعتذر بشدَّةِ الأندلسِ في ذلك الوقت ومَجاعتِه؛ رغبةً في تلافِه وهلاكِه، وحِرْصًا على الراحة منه لاستحواذه واستملاكِه، إلى أن اجتمع قومُه بإلْبِيرة وجَيَّان، وساروا إلى نُصْرته، وتفريج كُرْبته[2].

وقيل: إنَّ الذي قامَ على يوسفَ بسَرَقُسْطَة تميمُ بن مَعْبَدٍ الزُّهْريُّ وعامِرٌ العَبْدَريُّ. فغزاها يوسفُ في سنة ثمان وثلاثين ومئة؛ فكان عليها، إلى أن دخل عبدُ الرحمن الداخِل إلى الأندلس[3].

وفي سنة ثلاثين ومئة: كانت وقعةُ شَقُنْدة، واجتُمع على يوسف. وكان يومَ ولايته ابنَ خمسٍ وسبعين سنة، ومَلَك تِسْعَ سنين. وكان قبل ولايته مُعْتَزِلًا في بادية، من أهل الدِّيانة والإظهار للخير[4].

وفي سنة إحدى وثلاثين ومئة: أمْحَلت الأندَلُس، وعمَّ المحْلُ، وتمادى إلى سنة ست[5] وثلاثين ومئة. وذلك سنةُ مَحْلٍ وسنةُ غَيْث. واتَّصل المحلُ الشديدُ سنةً أو اثنتين، ثمَّ سُقِيَ الناس سنة ثلاث وثلاثين، وعادت إلى بعض الصَّلاح.

---

(١) «رضًا من» ليست في أ.

(٢) ينظر كامل ابن الأثير ٥/ ٤٦٢.

(٣) ينظر الكامل أيضًا ٥/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٤) في ر٢: «من أهل الديانة والخير».

(٥) في ر٢: «ثلاث»، وما هنا من أ، وهو الذي في كامل ابن الأثير ٥/ ٤٩٢.

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومئة: ثار أهلُ جِلِّيقِيَّة، وتردَّدت الغاراتُ عليها. ثمَّ استحكم الجوعُ والقحط في سنة أربع وثلاثين وسنة خمسٍ وبعضِ سنة ست وثلاثين ومئة، فخَرج أكثرُ الناس إلى طَنْجة وزَويلة وريفِ البحر في العُدْوة، وكانت إجازتُهم من وادي شَذُونة، وهو المعروفُ بوادي بَرْباط، وبه سُمِّيت السنة[1].

تسميةُ من ثار على يوسف بن عبد الرحمن الفِهْريّ بالأنْدَلُس[2]

منهم: عبدُ الرحمن بن عَلْقَمة اللَّخْميُّ، ثار عليه بأرْبُونة، فحارَبَه، ولم يمكث في حربه إلَّا يسيرًا حتَّى أمكنه اللهُ منه. وثار عليه عُرْوةُ بباجة، فوجَّه إليه يوسفُ مَنْ هزمه وقتَلَ أصحابَه. وثار عليه تَـمِيمُ بن مَعْبَد سنة ست وثلاثين ومئة.

وفي سنة سبع وثلاثين ومئة: اجتمع تَـمِيمُ بن مَعْبَد وعامِرُ[3] بن عمرو بن وَهْب بسَرَقُسْطة، فتولَّى محاربتَهما الصُّمَيْلُ بن حاتِم.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئة: خرج يوسفُ بنفسه إلى تَـمِيم بن مَعْبَد وعامِر بن عمروٍ بسَرَقُسْطة، فحاصَرَهما، ثمَّ ظفر بهما وقتَلَهما. وفي هذه السنة: انقَضَتْ أيَّامُ يوسفَ بنِ عبد الرحمن الفهْريّ[4].

جامِعُ أخبار بني أُميَّة بالـمَشْرِق

وذلك أنَّ جميع خُلَفائهم من لَدُن مُعاويةَ إلى آخِرهم أربعةَ عشر رجلًا. وكانت مُدَّةُ دولتهم، منذ خَلُص الأمرُ إلى مُعاويةَ إلى أن قُتِل مروانُ بن محمَّد، إحْدَى وتسعين سنةً وتسعةَ أشهر وخمسةَ أيَّام، منها أيَّامُ ابن الزُّبَيْر تسعُ سنين واثنان وعشرون يومًا. ثمَّ تفرَّقت بنو أُمية في البلاد هربًا بأنفسهم. وهرب عبدُ الرحمن بن مُعاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الأندلس، فبايعه أهلُها، وتجدَّدت لهم بها دولةٌ

---

(١) «وبه سميت السنة» ليست في ر٢.

(٢) جاء العنوان في ر٢ كما يأتي: «تسمية من ثار على الفهري».

(٣) انظر الحلة السيراء ٢/ ٣٤٤.

(٤) الكامل لابن الأثير ٥/ ٣٧٦.

استمرَّت إلى بعد الأربع والعشرين والأربع مئة. والناسُ يَعتقدون أنَّ دولتَهم كانت انقطعت من حينِ قَتْل مروانَ إلى أنْ جدَّدها عبدُ الرحمن الداخل سنة ست وثلاثين أو نحوها، وقيل: إنَّما كانت متَّصلةً، لم تنقطِعْ من زمن عُثْمان رضي الله عنه، إلى زمن الـمُعْتَدِّ بالله بقُرْطُبة آخِرِ خُلَفائهم سنة أربع وعشرين وأربع مئة. وهذا القول يَنْبَني على ما قاله بعضُهم: إنَّ عَهْدَ عبدِ الرحمن بن حبيب صاحبِ إفريقية من قِبَل بني أُميَّة وصل إلى يوسفَ بن عبد الرحمن الفِهْريِّ المتغلِّب على الأندلُس، الذي دخل عبدُ الرحمن بن مُعاوية وهو أميرُها. فتأمَّلْ هذا، فإنَّه، إنْ صَحَّ، نُكْتَةٌ غَريبة[١]، وفائدةٌ عجيبة.

قال أبو محمَّد بن حَزْم: وانقطعت دولةُ بني مروانَ بالمشرق بمروانَ بن محمَّد الجَعْديّ[٢]. وكانت، على علَّاتها، دولةً عربيَّةً، لم يتَّخِذْ ملوكُها قاعدةً لأنفسهم، إنَّـما كان سُكْنى كلِّ أمير[٣] منهم في داره وضَيْعته اللَّتَيْنِ كانَتَا له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجانَ الأموال، ولا بناءَ القصور، ولا طلبوا مُخاطبةَ الناس لهم بالتَّمْويل والعبوديَّة والـمُلْك[٤]، ولا تقبيلَ أرضٍ، ولا يدٍ، ولا رِجْلٍ، إنَّما كان غَرَضُهم الطاعةَ الصحيحة والتوليَة والعَزْل في أقاصي بلاد الدنيا، فكانوا يَعزِلون العُمَّال، ويوَلُّونَ الأُخَر في السِّنْد والهند[٥]، وفي خُراسان، وفي أرمينيَّة، وفي العراق، وفي اليَمن، وفي المغرب الأدنى والأقصى وبلاد السُّوس وبلاد الأندلُس، فملك بنو أُميَّة الأندلسَ، وهم افتتحوها[٦]، وبعثوا إليها الجيوش، وولَّوا عليها مَنِ ارتضَوْا من العُمَّال، وملكوا أكثرَ الدنيا، فلم يملك أحدٌ من ملوك الدنيا[٧] ما مَلَكوه من الأرض، إلى أن تغلَّب عليهم

(١) ليست في أ.

(٢) كذلك.

(٣) في ر٢: «امرئ».

(٤) ليست في أ.

(٥) في ر٢: «والصين».

(٦) قوله: «فملك بنو أمية الأندلس وهم افتتحوها» من ر٢.

(٧) في ر٢: «الإسلام».

بنو العبَّاس بالمشرق، وانقطع بها مُلْكُهم. فسار منهم عبدُ الرحمن بن معاوية إلى الأندلس، ومَلَكها هو وبنوه، وقامت بها دولةُ بني أُميَّة نحو الثلاث مئة سنة. فلم يَكُ في دُوَل الإسلام أنبلُ منها، ولا أكثرُ نصرًا على أهل الشرك، ولا أجمعُ لخلال الخير، وبهَدْمِها انهدمت الأندلُسُ إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بذهابها.

قال أبو محمَّد: وانتقل الأمرُ بالمشرقِ إلى بني العبَّاس، فكانت دولتُهم أعْجَمِيَّةً: سقطتْ فيها دواوينُ العَرَب، وغلب عَجَمُ خُراسان على الأمر، وعاد الأمْرُ مُلْكاً عَضُوضًا كِسْرَوِيًّا، إلَّا أنَّهم لم يُعلنوا بسَبِّ أحد من الصحابة رضي الله عنهم، بخلاف[1] ما كانوا عليه بنو أُميَّة من استعمال ذلك في جانب عليّ رضي الله عنه، وكفاهم ذلك قبحًا وباطلًا، حاشا عمرَ بن عبد العزيز رضي الله عنه، ويزيدَ بن الوليد، فإنَّهما لم يَستجيزا[2] ذلك.

وافترقت في دولة بني العبَّاس كلمةُ المسلمين، فتغلَّبت في البلاد طوائفُ من الخَوارِج وشِيعةٍ ومُعْتَزِلةٍ، ومن ولدِ إدريسَ وسليمان ابنَيْ عبدِ الله بن الحَسن بن الحَسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ ومنهم من بني أُميَّة تغلَّبوا على الأندلس، وكثيرٌ من غيرهم. وفي خلال هذه الأُمور من اختلاف الكلمة، تغلَّب الكفَّارُ على نحوِ نصف الأندلس، وعلى نحو نصف السِّنْد، فأمَّا ما لم يملكه العبَّاسيُّون[3]، فهو ما وراء الزاب من بلاد المغرب وتِـلِمْسان وأنظارها، فوَلِيَها محمَّدُ بن سليمان الحَسَنيُّ، وفاسَ وأنظارها، كان فيها شيعةٌ، ثمَّ آل مُلْكُها إلى إدريس. وأمَّا تامَسْنا، ففيها أولادُ صالحِ بن طَرِيف على ضلالتهم. وأمَّا سِجِلْماسَة، فنزلها رئيسُ الصُّفْرِيَّة. هذه هي البلاد المتَّفق عليها، وأمَّا المختلَف فيها: فإفريقية، قيل: إنَّه كان فيها عبدُ الرحمن بن حبيب ثائرًا، وفي الأندلس يوسفُ بن عبد الرحمن الفِهْريُّ.

---

(١) من هنا إلى قوله: «باطلًا» جاء بدله في ر٢: «كما فعل بنو أمية في علي».

(٢) في أ، م: «يستجيزوا».

(٣) في ر٢: «بنو العباس».

ذِكْر دُخول عبد الرحمن بن مُعاوية بن هشام إلى الأندلس وهرُوبه من الشام[١]

قال الرازيُّ[٢]: وفي سنة ست وثلاثين ومئة: ابتدأ عبدُ الرحمن بن معاوية بمُداخلة مَوَاليه من الأَمَويِّين بالأندلس.

وفي هذه السنة: تفرَّق ولدُ معاوية، وولدُ هشام، وكلُّ مَن فيه بقيَّةٌ من ولد مروانَ وأُميَّة. فخرج عبدُ الرحمن بن معاوية مختفيًا من موضعٍ إلى موضع، وهَمُّهُ الأندلس؛ لِـما كان في نفسه من أمْرِها ومن الأثر الـمرْوِيِّ عنه فيها. فوصل إلى مِصْر، ثمَّ سار منها إلى بَرْقة، فبقيَ فيها مستَتِرًا مدَّةً. ثمَّ رحل عنها، فأوغل في المغْرِب. قال بَدْرٌ مَوْلاه: فأدْرَكْتُه في الطريق، وجَّهَتْني إليه أُمُّ الأَصبغ شقيقتُه بدنانير[٣] وشيء من الجوهر يستعينُ بها على النفقة والوصول، فوصل إلى إفريقية، وصاحبُها عبدُ الرحمن بن حَبيب، ومعه يهوديٌّ قد خدم مَسْلَمَةَ بن عبد الملك، وسمعه يُحَدِّث بخبر القُرَشيّ الذي يكون من بني أُميَّةَ يتغلَّب على الأندلس، اسمه عبدُ الرحمن، ذو ضفيرتَيْن، فنظر إلى عبد الرحمن، فوجده بضفيرتَيْن، فقال لليهوديّ: وَيْحَك! هذا هو المذكور، وأنا قاتِلُه. فقال له اليهوديُّ: إن يَكُ ذلك، لم تَقْتُلْه! ثمَّ صار ابنُ حبيب يقتل الواصلين[٤] إليه من بني أُميَّة، ويأْخُذ أموالهم. فهرب عبدُ الرحمن عن القَيْرَوان، ونجا يريدُ الأندلس، ويُشغل نفْسَه بها؛ لِـما كان عنده من الروايات في علم الحدْثان من قِبَل مَسْلَمةَ بن عبد الملك أخي جدِّه وغيره. فسار حتَّى أتى تَادلَا[٥] من قبائل المغرب، فنالَه عندهم تضييقٌ وأخبارٌ يطول ذكرُها. ثمَّ هرب من عندهم حتَّى أتى نَفْزة، وهُمْ أخوالُه، فإنَّ أُمَّه كانت من سَبْيِهم[٦]. قال بدر: فجُزْتُ إلى الأندلس، واجتمعتُ بعُبَيْد الله بن عثمان

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٨٩، والمعجب ٤٠.

(٢) في أ: «الرواة».

(٣) في أ: «بدينارين».

(٤) في ر٢: «الداخلين».

(٥) في أ: «بلادًا»، وهو تحريف.

(٦) ينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٤.

بساحل إلْبِيرة، في آخر سنة ست وثلاثين ومئة، ثمَّ انصرفتُ في سنة سبعٍ بعدها، وأقمتُ عنده مدَّةً، ثمَّ كررتُ مُنصَرِفًا إلى الأندلس في مَوالي عبد الرحمن.

حدَّث عبدُ الرحمن، قال: دخلتُ الأندلس، وأنا أضبطُ جليةَ مَسْلَمةَ بنِ عبد الملك، فإنَّه أتى جدِّي هشامًا يومًا، فوجدني عنده صبيًّا، فأمر جدِّي بتَنْحِيَتي عنه، فقال له مسْلَمة: دَعْهُ يا أمير المؤمنين، فإنَّه صاحبُ بني أُميَّة ومُحْيي دولتهم بعد زوالها، فلم أزَلْ أعْرِفُ لي مَزِيَّةً من جَدِّي بَعْدُ.

قال الرازيُّ: وفي سنة سبع وثلاثين ومئة: ثار الحَبْحَابُ بن رَوَاحة بجهة سَرَقُسْطة، وتظافر معه على ذلك عامِرُ بن عَمْرو العَبْدَريُّ من بني عبد الدار بن قُصَيّ، وكان قد هرب من قُرْطُبَةَ خوفًا من يوسف، وكان عامرٌ هذا أحدَ رجال مُضَر، وقد فشا بالأندلس نجدةً وشرفًا وعلمًا وأدبًا، وكان يَلي المغازيَ بالصوائف من قِبَل يوسفَ الفِهْريّ، وكان سلطانُ الفِهْريِّ يومئذٍ قد ضعُف لأجل الـمَحْل المتوالي بالأندلس. وكان الصُّمَيْلُ قد لزم الثَّغْر في تلك الأعوام؛ لأنَّه كان أشْبَهَ من غيره في الخِصْب، فلما خاف عامرٌ هذا على نفسه من الفِهْريّ والصُّمَيْل، خرج فارًّا بنفسه، وقصد الحَبْحَابَ بن رَوَاحة، واستجاشا، فأجابهما رجالٌ من اليمانيَّة وناسٌ من البَرْبَر، فحَصَرا الصُّمَيْلَ بسَرَقُسْطةَ حصارًا شديدًا، حتَّى يَئِسَ من الحياة، وهمَّ بالإلقاءِ بيده، وكتب إلى يوسفَ يسألُه الإمداد، فلم يجدْ في الناس مُنْهِضًا.

فلمَّا أبطأ عليه مَدَدُ يوسف، واشتدَّ الحصار، كتب إلى قومه من جُنْد قِنَّسْرين ودِمَشْق، يعظِّم عليهم الخَطْب، ويُناشدهم الرَّحِم، فقام له بذلك عُبَيْدُ بن علي الكِلابيُّ، وأكثرُ كِلابَ وهَوَازِنَ وغَطَفان والأزْدِ تُقَدِّم رِجْلًا وتؤَخِّر أُخرى، ولم يكن لهم رأْسٌ يجمعهم. فلمّا نهض عُبَيْدُ بنِ عليّ ومضى داعيًا في الجُنْدَيْن إلى نَصْر الصُّمَيْل، تحرَّكت جماعةُ كِلابَ ومُحارِب، إلَّا كعْبَ بن عامِر وعُقَيْلَ وقُشَيْر والحَرِيش، فإنَّهم كانوا مُنافسين لبني كِلاب؛ لأنَّ الرِّياسةَ يومئذٍ بالأندلس كانت فيهم؛ وكان بَلْجٌ قُشَيْريًّا، فضَمَّهم الصُّمَيْل.

ولم يجتمع من هذه القبائل إلَّا نحو أربع مئة فارس، فاستقلُّوا أنفسَهم، ثمَّ صَمَّموا، وخفَّ معهم يومئذٍ قومٌ من بني أُميَّة في نحو ثلاثين فارسًا، وخرج معهم

أبو عثمان عُبيدُ الله بن عثمان مولاهم، وخرج أيضًا معهم عبدُ الله بن خالد بن أبان بن أسْلَم، مولى عثمانَ بن عفَّان رضي الله عنه؛ وكان عبدُ الله وعُبيد الله يتوالَيانِ حَمْل لواءِ بني أُميَّة بالأندلس بَعْدُ، ويتعاقَبان في ذلك، وكان لهما ولبني أُميَّة في هذا المجتمع يومئذٍ بلاءٌ معروفٌ مشهورٌ، وإنَّما أرادا أن يُقدِّما بذلك يدًا عند الصُّمَيْل؛ لما كانا بَنَيَا عليه من اطّلاعه على أمرِ عبدِ الرحمن بن معاوية، وكانا واثقَيْن بالصُّمَيْل، وأنَّه، إن لم يُجِبْهما، كَتَمَ عليهما، وكذلك فعل، فإنَّه كتم عليهما كِتْمانًا عجيبًا. فكان هذا مما[1] دعاهم إلى إمداد الصُّمَيْل واستنقاذه لاعتداد اليدِ عليه، فخرجوا، ورأَسُوا على أنفسهم ابنَ شِهاب استئلافًا له، ومشى الجميعُ. فلمّا بلغوا وادي طُلَيْطُلَة، بلغهم أنَّ الحصار اشتدَّ وأضرَّ بالصُّمَيْل، وأنَّهُ على الهلكة، فقدَّموا رسولًا من قِبَلهم، وقالوا له: ادخُلْ في جُملة المحاربين للسُّور، فإذا قربتَ منه، ارمِ بهذه الأحجار، وفي كلِّ واحد منها بَيْتان، وهما [من الوافر]:

أَلَا ابْـشِرْ بالـسَّلامةِ يـا جِـدَارُ   أتاكَ الغَوْثُ وانْقَطَعَ الحِـصارُ
أَتَتْكَ بَنَاتُ أعْوَجَ مُلْحَمَــاتٍ   عليها الأكْرَمُـونَ وهُـمْ نِـزارُ

ففعل الرسولُ ذلك، فلمّا وقعت الحجارة، أُتِيَ بها الصُّمَيْل أو ببعضها، فقرِئَتْ عليه، وكان أُمِّيًا، فلمّا سمع ما فيها، قال: أَبْشِروا يا قوم! فقد جاءَكم الغوث، ورَبِّ الكَعْبة. ومضى القومُ يَستجيشون كلَّ مَن استجاب لهم، ومعهم الأَمويُّون، وفي جملتهم بَدْرٌ رَسولُ ابن مُعاوية. وكان عبدُ الرحمن قد بعث إليهم خاتَـمَه ليكتبوا به عنه إلى كلِّ مَن رجَوْا نَصْرَه، فكتبوا عنه للصُّمَيْل، يذكرون له أياديَ بني أُميَّة عنده، ويَعِدُه، ويمَنِّيه. فلمّا سمع العَبْدريُّ والعُذْريُّ بالـمَدَد الواصل إليه، ارتفعوا عنه، وانكشف وَجْهُ الصُّمَيْل، فخرج، وتلقَّى القوم، ووصَلَهم على أقدارهم، وكساهم، وقَفَلَ معهم بماله وحَشَمه. فلمّا زال الصُّمَيْلُ عن سَرَقسطة، دخلها الحَبْحابُ ومَلَكَها.

ثمَّ أطلع الأَمويُّون الصُّمَيْلَ على قصَّة ابن مُعاوية، وعرضوا عليه بَدْرًا رسولَه، فأحسن إليه وقال لهم: أُرَوِّى في أمْره. وأقبل قافلًا حتَّى دخل قُرْطُبة. وانصرف الأَمويُّون

---

(١) في ر٢: «هو الذي».

إلى منازلهم، وبَدْرٌ معهم. وقد كان الصُّمَيْلُ اتَّفق مع الأَمويِّين على نُصْرة ابن مُعاوية، وأن يزوِّجه من ابنته، ثمَّ رجع في قوله، وقال: تأمَّلْتُ الأمر، فوجدتُه صَعْبَ المرام، فبارَكَ الله لكما في رأْيكما ومَوْلاكما، فإنْ أحبَّ غيرَ السلطان، فله عندي أن يؤَاسِيَهُ يوسفُ، ويزوِّجَه ويَحْبُوَه، انطَلِقا راشدَيْن. فانقطع رجاؤُهم يومئذٍ من رَبيعةَ ومُضَر، ورجعوا إلى اليَمَن. قال بَدْر: فلم نَمُرَّ بيَمَنِيٍّ إلَّا دَعَوْناه، فوجدْنا قومًا قد وغَرَتْ صدورُهم، يتمنَّوْن سبيلًا لطلب ثأرهم، ثمَّ رجعْنا إلى جُنْدنا، فابتعْنا مَركبًا، ووجَّهْنا فيه أحد عَشَر رَجلًا مع بَدْر. قال: ومضى يوسفُ حتَّى أتى طُلَيْطُلة، وأمضى بعثَيْن إلى جِلِّيقِيَّة والبَشْكُنِش، وأراد القفول إلى قُرْطُبة، فلم يبعد حتَّى أدركهُ الرسولُ بهزيمة الجيش وقَتْل عامَّته. فبَيْنا هو ينظرُ في ذلك، إذ أتاه رجلٌ من عند ولده من قُرْطُبة، يُعلمه أنَّ فتًى من قُرَيْش، من وَلَد هشام بن عبد الملك، نزل بساحل الـمُنكَّب، واجتمع إليه موالي القوم والأَمويَّة، فانتشر الخَبر في العسكر، وشَمِت به الناسُ لِـمَا فعل بالقُرَشيّين، فانفضَّ الناسُ من العسكر، وتنادَوْا بمَشاعِرهم، وتقدَّموا إلى كُوَرهم. فأصبح يوسفُ، وليس في عسكره غير قَيْس والصُّمَيْل، فقال للصُّمَيْل: ما الرأي؟ قال: بادِرْهُ الساعةَ، قبل أن يستعجل أمره. فساروا إلى قُرْطُبة، فكلَّما رجَوْا أن يجتمع لهم بمَنْ يخرجون لاستئصال شوكة ابنِ معاوية، لم يَتَّجِه لهم عَمَلٌ.

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئة: دخل عبدُ الرحمن بن معاوية الأندلسَ في غُرَّة ربيع الأوَّل، وهو أبو الملوك. وكان خروجُه من المركب بموضع يُعرف بالـمُنكَّب، ثمَّ نزل بقَرْية طُرُّش[1] من كُورة إلْبيرة. فأقبل إليه جماعةٌ من الأَمويِّين وقد أُعِدَّ للأَمير ما يصلحه من المركَب والمنزِل والملْبَس. فغلُظ أمرُ ابن معاوية[2]، وأقبل الناسُ من كلِّ مكان إليه. فكتب يوسفُ الفِهْريُّ إلى جماعة الأمويِّين، يحذِّرهم ويخوِّفهم، فقالوا له: إنَّما أقبل ابنُ معاوية إلينا وإلى جماعة مَواليه، يُريد المال، ليس فيما يظنُّ الأميرُ، أصلحه الله، ولا فيما رُفع إليه. واعتذروا له بما أمكنهم. وأقبل وجوهُ الناس إلى ابن معاوية، وقالوا له: خفْنا مَكْرَ الصُّمَيْل، ولم نأْمن غائلتَه، فعرَّفنا الفِهْريُّ بكذا وكذا. وكان ابنُ معاوية يَبِيتُ في الجِبال.

---

(١) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٢٩.

(٢) في ر٢: «فغلظ أمره».

ومضى يوسفُ بن بُخْت[1] إلى جُنْد الأُرْدُنّ، فأخذ بيعةَ جميعهم، ومضى عبدُ الله بن خالد إلى جُنْد حِـمْص، ومضى تَـمَّـامُ بن عَلْقَمة[2] إلى أهل[3] فِلَسْطِين، وأقبل الناس من كلِّ مكان. فلمّا ضاقت الأحوالُ بالفِهْريّ، ولم يأْتِهِ من الأجناد إلَّا اليسير، أدار له الصُّمَيْلُ الرأْيَ، وأمَرَه بالمكر بابن معاويةَ والمخادعةِ له، ورجا ذلك منه لحداثة سنِّه، وقال له: هو قريبُ عَهْدٍ بزوال النعمة، فهو يغتنمُ ما تَدْعوه إليه، ثمَّ أنت بعد ذلك متَحَكِّمٌ فيه وفي الذين سَعَوْا له بما تُحِبُّ. فأجمع رأْيه على تأْنيسه بأَن يزوِّجه ابنته، ويسكنه في أيّ الجندَيْن شاءَ، من دِمَشْق أو الأُرْدُنّ، أو يسكن بينهما، ويصير إليه أمْرُ الكورَتَيْن. وبَعَثَ إليه بكسوتَيْن ومَطِيَّتَيْن وخمس مئة دينار، ووجَّه إليه كاتِبَه خالدَ بن يزيد، وقال له: اعرفْ أمْرَه وأيَّ جُنْد عنده، وتأَمَّلْ أخبارَه وأخبار مَن معه. فخرج في الليل مع أصحابه، وأصبحوا على ابنِ معاوية بالمال والكسوتين[4] والمطِيَّتَيْن. ووجَّه أيضًا إلى بَدْر فرسًا ومئة دينار وكسوة. فقبل ابنُ معاوية الهديّة، وكَرِهَ التزويج، فتكلَّم خالدٌ بكلام غليظ لابن معاوية؛ إذ أبى التزويج، فأمر به، فضُمَّ إلى وَثاق، ورُدَّ غيرُه إلى يوسف، ولم يَرُدَّ عليه جوابًا.

وكان يوسفُ قد كتب إلى ابن معاوية كتابًا، وهذه بعضُ فصول منه[5]:

أمَّا بعد، فقد انتهى إلينا نزولُك بساحل الـمُنكَّب، وتأَبُّش مَن تأَبَّش إليك ونزع نحوَك من السُّرَّاق وأهل الـخَتْر والغَدْر ونَقْض الأيمان المؤَكَّدة، التي كذبوا اللهَ فيها وكذبونا، وبه، جلَّ وعلا، نَسْتَعِينُ عليهم، ولقد كانوا معنا في ذَرَى كَنَفٍ ورفاهيَّة عَيش، حتَّى غمصوا ذلك، واستبدلوا بالأمْن خوفًا، وجنحوا إلى النَّقْض، واللهُ من ورائهم محيطٌ. فإن كُنْتَ تريد المالَ وسَعَة الجَناب، فأَنا أَولى لك مـمَّن لجأْتَ إليه، أكْنفُكُ،

---

(١) ليوسف بن بخت هذا ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٨، ونفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٢) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٢٠٣، ونفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٣) في ر٢: «جند».

(٤) في أ، م: «الكسوة».

(٥) في ر٢: «وهذه بعض فصول من الكتاب الذي كتب يوسف الفهري إلى ابن معاوية».

وأَصِلُ رَحِـمَك، وأُنْزلك معي إن أردتَ وبحيثُ تريد، ثمَّ لك عهدُ الله وذِمَّتُه في ألَّا أغْدِر بك، ولا أُمَكِّن منك ابن عَمِّي صاحب إفريقية ولا غيرَه. في كلامٍ كثير.

قال ابنُ عيسى: فحدَّثني تَـمَّـام بن عَلْقَمة أنَّ عبد الرحمن، لـمّا أتاه كتابُ الفِهْريّ بما فيه وبتزويجه ابنتَه، أشار عليه كلُّ مَن أتاه من العَرَب والأمويِّين ألَّا يقبل ذلك منه، إلَّا أن يعتزلَ له عن الـمُلْك ويُبايعَه، وإلَّا حاكَمه إلى الله، وقالوا له: إنَّما يمكر بك، ولا يَفِي لك بشيء؛ لأنَّ وزيرَه ومالِكَ أمره الصُّمَيْلُ، وهو غيرُ مأمونٍ.

قال: فلمّا انكشف أمْرُنا عنده بما أظْهَرْنا من الإبابة وبحَبْسِ كاتِبه خالدِ بن يزيد، رأينا أن نَشْهَر أمْرَنا، فخرَجْنا إلى جِدَار بن عَمْرو وَالي جُنْد الأُرْدُنّ، واجتمَعْنا إليه، فأتيناه في ثلاث مئة فارس من جماعة الأمويِّين، وممَّن أقبل إليه من وجوه العَرَب. ثمَّ كاتَبْنا أهْلَ قِنَّسْرين وفِلَسْطين. فلما أقبلتْ إلينا رُسُلُهم بما أرَدْنا، نَهَضْنا إليهم، وكُنَّا قد وطَّنَّا على الموت، وعَزَمْنا على أن نُقْتَلَ دونه، وعَقَدْنا له لواءً، وأقمنا معه ستَّةَ أشهر، نُبرم له أُموره، ونُكاتب له الناس. وكنَّا خرجْنا إليه في زيٍّ حَسَن عند خروجنا إليه بساحل البحر، ثمَّ انتقل من إلْبيرة إلى كُورة رَيُّه، إلى شَذُونة، إلى مَوْرُور، إلى كُورة إشبيلية، والناسُ يتلقَّونه بالبِشْر والترحيب، ويُعْطُونه من الانقياد والطاعة أوفى نصيب.

قال تَـمَّام: فدخلْنا رَيُّه في ست مئة فارس، وخرجْنا منها في ألفي فارس، وخرجنا من إشبيلية إلى قُرْطبة في ثلاثة آلاف فارس. فلمّا اجتمعتْ لنا الجموع، وبَلَغَنا ما يريد الفِهْريُّ من الخروج إلينا، كتَب الأميرُ عبد الرحمن الكتائب، وعبَّأَ الأجنادَ، وخَرج إليه، ودعا برَجل من الأنصار، فعقد لواءَه، وارتحل في جنوده، حتَّى احتلَّ بقَريةٍ على نهر قُرْطُبة يوم الاثنين لِستٍّ خَلَوْنَ من ذي الحجَّة.

وخرج الفِهْريُّ إلى الـمُصَارَة، وأقاما ثلاثةَ أيَّام متناظرَيْن، والنهرُ حاجزٌ بينهما بحمله، ثمَّ أصبح النهرُ يومَ الخميس، وقد حُسِرَ ماؤُه فعبَّأَ الأميرُ عبدُ الرحمن كتائبَه، وتهيَّأَ للحرب، فقدَّم على قبائل العرب أحدًا من[1] قوّاده، وعلى البَرْبَر كذلك، وهو[2]

(١) قوله: «أحدًا من» ليس في ر٢.

(٢) «كذلك وهو» ليست في ر٢.

إبراهيم[1] بن شَجَرة. وترجَّل حُـمـاةُ بني أُميَّة، فحفُّوا بالأمير، والأميرُ على فرسه متنكِّبًا قَوْسَه، فجاوز النهر، واقترب من الـمُصَارة، فتجاوز العسكران، وتقارب الـمُضْطَرَبان. وأقاما بقيَّةَ يومهما في سكون وهُدوء، والرسلُ تختلفُ من قِبَل يوسف، يرجو عَقْدَ الصُّلح. فلمّا أصبح يوم الجمعة، التقى الجَمْعان، واستحرَّت الحربُ والقتال، فمشى العَلاءُ بن جابر العُقَيْليُّ إلى الصُّمَيْل، فقال له: يا أبا جَوْشَن اتَّقِ الله! فوالله ما أُشَبِّهُ هذا اليوم إلَّا بيوم الـمَرْج، وإنَّ عارَه لباقٍ علينا إلى اليوم، فإنَّ الأُمور يُهْتَدَى لها بالأقران[2] والأمثال: أُمَويٌّ وفِهْرِيٌّ، وقَيْسٌ واليَمَنُ! وهذا يومُ عِيد، ويوم جمعة، ويومُ الـمَرْج أيضًا يومُ جمعة، والأمرُ والله علينـا، لا شكَّ في ذلك، فاتَّقِ الله، واغتنمْ لنا الأمرَ؛ لنكونَ فيه أعِزَّاءَ لا أتباعًا، وكان العَـلاءُ هذا من وجوه قَيْس. ثمَّ انهزم الفِهْرِيُّ وأصحابُه، واستقبل القصر[3]، فاعترض له عبدُ الأعْلَى بن عَوْسَجة، وحال بينه وبين دخوله، وردَّه عنه، فولَّى منهزمًا إلى سفح جَبَل قُرْطُبة. واستولى الأميرُ عبدُ الرحمن يومَه ذلك على الـمُلْك، وتـمَّت له بَيْعةُ العامّة بقُرْطُبة. وتمادى يوسفُ الفِهرِيُّ في الفِرار إلى إلْبيرة[4].

خلافة عبد الرَّحمن بن مُعَاوية بن هشام بن عبد الملك

نَسَبُه: عبدُ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُمَيَّة بن عبد شمس[5].

كُنْيَتُه: أبو الـمُطَرِّف.

أُمُّهُ: بَرْبَرِيَّةٌ من سَبْيِ الـمَغْرب، تُسَمَّى رَاحا أو رَدَاحا. وفي عبد شَمْس بن عبد مَنَاف يلتقي نسبُه بنسب رسول الله ﷺ.

---

(١) تنظر عنه التكملة الأبارية ١/ ٢٣٩.

(٢) في ر٢: «بالأشباه».

(٣) في ر٢: «قصر قرطبة».

(٤) تنظر الحلة السيراء ٢/ ٣٤٨-٣٥٠.

(٥) من ر٢.

مَوْلِدُه: بموضع يُعرف بدَيْر حسينة[1] من دِمَشْقَ سنة ثلاث عشرة ومئة؛ مات أبوه وتركه صغيرَ السِّنِّ. وتُوُفِّي يوم الثلاثاء لستٍّ بَقِينَ من ربيع الآخر، وقيل: لعشرٍ خَلَوْنَ من جُمادى الأولى سنة اثنتين وسبع مئة، ودُفن بقصر قرطُبة وقد بلغ تسعًا وخمسين سنة، وقيل: سِتّين سنة؛ فكانت مدَّةُ[2] خلافته ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعةَ أشهر ونصفًا، ودخل الأندلُسَ وهو ابنُ خمس وعشرين سنة أو نحوها.

بويع له بقُرْطُبَةَ يوم الأضحى من سنة ثمان وثلاثين ومئة.

وُزَراؤُه أربعةٌ: عبدُ الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد، ويوسف بن بُخْت، وحَسَّانُ بن مالك.

حُجَّابُه خمسة: تَمَّامُ بن عَلْقَمة، ويوسف بن بُخْت، وعبدُ الكريم بن مَهْران، وعبدُ الحميد بن مُغِيث، ومنصورٌ فَتاه[3].

قُضاتُه خمسةٌ: يحيى[4] بن يزيد التُّجِيبيُّ، ومعاوية[5] بن صالح، وعبد[6] الرحمن بن طَرِيف، وعمر[7] بن شَراحِيل، والمُصْعَب بن عِمْران[8]. وكان له قاضٍ خامسٌ في صَوائفه يُسمَّى جِدَارَ بن مَسْلَمة بن عَمْرو المَذْحِجيَّ.

نَقْشُ خاتَمه: عبدُ الرحمن بقضاءِ الله راضٍ.

صِفَتُه: طويلُ القَدّ، أصْهَب أعْوَر، خفيفُ العارضَيْن، بوجهه خالٌ، له ضَفِيرتان. وكان يُسَمَّى صَقْرَ بني أُمَيَّة.

وَلَدُه: الذكور أحد عشر، والإناث تسعٌ.

---

(١) في ر٢: «حسنة».

(٢) «فكانت مدة» ليست في ر٢.

(٣) ينظر نفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٤) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ٢٢١.

(٥) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤٣.

(٦) القضاة لوكيع ٣/ ٢١٦.

(٧) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٦٨.

(٨) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٠٦.

وفي سنة تسع وثلاثين ومئة: خرج الأميرُ عبد الرحمن طالبًا للفِهْريّ والصُّمَيْل. فلمّا اتَّصل بالفِهْرِيّ قَصْدُه إليه، لَاذَ عنه، وزال عن أغْرَناطَة، فاقتفى الأميرُ عبد الرحمن أثَرَه، حتَّى إذا أوفى عليه، عاد إلى إغْرَنَاطَة متحصِّنًا بها، ونزل الأمير عبدُ الرحمن عليه وحاصره. فلمّا تمادى به الحصارُ، سألَ الفهريُّ الأمانَ، وأن يُعْطِيَ ابنَيْه رَهْنًا، فأعطاه الأميرُ الأمانَ، وقَبِلَ منه ذلك، وكذلك للصُّمَيْل[1]. وانصرفا في جُمْلته إلى قُرْطُبة، على أن يسكن الفِهْرِيُّ منزلَه بالمدينة، والصُّمَيْلُ دارَه بالرَّبَض. واستوسق الأمرُ للأميرِ عبدِ الرحمن، وأمر بلَعْن الـمُسَوِّدة وقَطْعِ الدعاءِ لأبي جعفر المنصور. ودخل يوسفُ الفِهْريُّ في عسكر الأمير عبد الرحمن كأحد رجاله، فأنزله على ماله، وأطلق له عيَالَه.

وفي هذه السنة: وُلد هشام بن عبد الرحمن الـمُلقَّبُ بالرِّضا؛ وذلك لأربعٍ خلون من شوَّالٍ.

وفي سنة أربعين ومئة: تودَّع[2] الأميرُ عبد الرحمن بقُرْطُبة، فلم تكن له فيها حركةٌ. ودخل رجالٌ من المشرق ومن بني أُميَّة في هذه السنة، فأنزلهم الأميرُ، وأكرمهم، وأحسن جوائزَهم.

وفي سنة إحدى وأربعين ومئة: هربَ الفِهْريُّ من قُرْطُبة، ناكثًا ناقضًا للأيمان بعد توكيدها[3]، فاجتمع إليه الناس، وبلغ جَمْعُه عشرين ألفًا من البَرْبَر وغيرِهم. فلمّا رأى كثرةَ ما اجتمع له، تحرَّك من مَارِدة، يريد الأميرَ عبد الرحمن. فلمّا بلغ الأميرَ خَبرُه، برزَ من القصر، وتقدَّم إلى الـمُدَوَّر[4]. وكان عبدُ الملك بن عمر الـمروانيُّ[5] عاملًا بإشبيلية، وابنُه بكُورة مَوْرُور[6]، فحشدا مَن كان قِبَلَهما من أهل الكورَتَيْن، وتوافى الحَشْدان، فبرز به. واتَّصل بالفِهريّ خروجُ الأمير إلى الـمُدَوَّر وتوافي الحشود

---

(١) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٥.

(٢) في ر٢: «استقر».

(٣) في ر٢ بدلًا من ذلك: «ناكصًا على عقبيه».

(٤) انظر عن المدور معجم البلدان ٥/ ٧٧.

(٥) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢١، ونفح الطيب ١/ ٣٢٩.

(٦) ينظر عنها الروض المعطار ٥٦٤.

على عبدِ الملك، فتوقَّع الفِهْريُّ التشبُّكَ بين العسكرَين، فصرف راياتِه إلى عبد الملك، فالتقيا، ووقعتْ بينهما حربٌ شديدةٌ، فانهزم يوسف، وتفرَّق أصحابُه عنه، وأُتْبِعوا بالقتل. واتَّصل الفتح[1] بعبد الرحمن، وهو بالـمُدَوَّر منتظرًا لتوافي الحشود، فأغناه عاجلُ الفتح، وفرَّ الفِهْريُّ بنَفْسه مختفيًا[2].

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئة: كان هلاكُ يوسفَ الفِهْريّ ومقتلُه بناحية طُلَيْطُلة، وكان قد نهض إليها، وتردَّد بناحيتها شهورًا، فاغتاله بعضُ أصحابه، وقَتَلَه، واحتزَّ رأْسَه، وتقدَّم به إلى الأمير عبد الرحمن، فشكر اللهَ على موته، وأمر بنَصْب رأْسه على جَسْر قُرْطُبة، وأمر بقَتْل ابنِه المرتهن، ونَصْبِ رأْسه مع رأْس أبيه[3].

وتُوفِّي الصُّمَيْلُ في الحَبس، وقيل: إنَّه خُنِقَ، وقيل: إنَّ الذي قتل الفِهْريَّ عبدُ الله بن عَمْرو الأنصاريُّ، لَقِيَه على أميال من طُلَيْطُلة، بقريةٍ من قُراها، فلمّا عرفه، قال لمن معه: هذا الفهريّ! وفي قَتْله الراحةُ له ومنه. فتقدَّم إليه، فقتله، واحتزَّ رأْسَه، وتقدَّم به إلى الأمير عبد الرحمن، فلمّا قَرُب من قُرْطُبة، وأُعلِم الأميرُ بخبره، أمر أن يتوقَّف به دون القَنْطرة، وأمر بقَتْل ابنِه الـمُرْتَهن، وأُخرج رأْسُه إلى رأْس أبيه، ووُضِعا في قَنَاتَيْن[4]، وتُقُدِّمَ بهما إلى باب القصر.

واختُلِف في أمر يوسف الفِهْريّ، فقال بعضهم: إنه لم ينكثْ بَغْيًا، وإنّما خوفًا، فخرج هاربًا، فأخرجَ الأميرُ الخيلَ في طلبه، فأدركته بفَحْص البَلُّوط، ثمَّ أفلت، وحشدَ ولدُه البَرْبَرَ بالشَّرْق كُلِّه، وأقبل في جمعٍ عظيم يريد قُرطبة، فخرجَ إليه الأمير، فالتقَوْا بـمَخَاضة الفَتْح، فكان القتال بينهم حتَّى كاد الأميرُ عبد الرحمن أن ينهزم، وقيل: إنَّه انهزم نَحْوَ الميل، فثبت ابنُه سُليمان في آخر الناس، ثمَّ تراجع الأميرُ حتَّى انهزم يوسف، ومَضَى في طلبه إلى قَلْعة رَبَاح.

---

(١) في ر٢: «الخبر».

(٢) ذكر ابن الأثير هذه الأحداث في سنة ١٤٠هـ (الكامل ٥/ ٤٩٨-٤٩٩).

(٣) الكامل لابن الأثير ٥/ ٤٩٩.

(٤) يعني: رمحين.

وقال بعضُهم: إنَّ يوسف، لـمّا هرب إلى طُلَيْطُلة، قبض الأميرُ عبد الرحمن على أبي الأَسْوَد ابنه، فسَجَنه. وقام على يوسفَ مَوَالٍ له، فقتلوه، وأَتَوْا به إلى الأمير عبد الرحمن، فقال لهم: عرفتم من هو؟ قالوا: نَعم، هو يوسفُ الفِهْريّ، قال: أنتم لم تحفظوا مَوْلاكم، فكيف تحفظونني وتنتظمون في طاعتي؟ فأمر بضرب أعناقهم، وأمر بأبي الأَسْوَد إلى السجن، وكان السجنُ يومئذٍ يَخرج الناسُ[1] منه إلى النهر؛ لِـمَا يكون من الحاجة مع الموكَّلين بهم، فادَّعى وَلَدُ الفِهْريّ العَمَى، وفشا له ذلك، فكان يقول: مَن يقود الأعمى؟ يرحمه الله! وكان يختلفُ إليه مولًى اسمه مُفَرِّج يقضي حوائجه ويلقاه على النهر تحت القَنْطرة. فلما اطْمُئِنَّ إليه، ولم يُسْتَنْكَر خروجه، وشاعَ عليه العَمَى، قال لـمُفَرِّج مولاه: ابْتَعْ لي فَرَسًا أَنْجُ عليه. ففعل وأعدَّهُ له، فهرب عليه، ولحق بطُلَيْطُلة. فغزاه الأميرُ عبد الرحمن ولقِيَه مِرارًا، فكان آخِر هزيمته إيَّاه[2] بقَسْطَلُّونة[3]، ومضى إلى رُكَانة[4]، ولم يزل بها حتَّى مات. فقام القاسمُ بن يوسف، أخو أبي الأسود، فأعقب على زوجته، وتولَّى ما كان أبو الأسود يتولَّاه، فخرج إليه الأمير، فأجابه على أن يردَّ إليه أموالَه، ويستوثقَ منه بالعهود، ففعل الأميرُ ذلك، وانصرف معه إلى قُرْطُبة.

وثار على الأمير عبدِ الرحمن عبدُ الغافِر اليَمـانيُّ بإشبيلية، وتغلَّب على ما جاوَرَ قُرْطُبة، فخرج إليه الأمير، فخالفه عبدُ الغافر ونهض يريد قُرْطُبة؛ رجاءَ أن يَجِدَها خاليةً، والإمام عبدُ الرحمن في الثغر يسدُّ خَلَله، ويحسمُ عِلَله، فقدم مُسرعًا حين وافاه الخَبَر، ولم يَلْوِ على ما تعذَّر، ومَـحلَّةُ عبدِ الغافر على وادي قَيْس[5] قد ملأَت السهلَ والوَعْر. فداخل الإمامُ عبدُ الرحمن البربرَ، وكانوا العددَ الوافر الأكبر، فنزع

---

(١) في ر٢: «يخرجون».

(٢) في ر٢: «له».

(٣) انظر عنها آثار البلاد، مادة: «قسطلونة».

(٤) معجم البلدان ٣/ ٦٣، والضبط منه.

(٥) في ر٢: «يسّر».

الأكثرُ منهم إليه، وصاروا في حزبه ولَدَيْه. والتقيا فوقعت الهزيمةُ على عبد الغافر، وأَخذ مَن معه في الفرار والنفار[1]، فلم يرفع الإمامُ عنهم سيفًا، وقتل منهم ثلاثين ألفًا. وكانت هزيمة هي مدَّ الدهر[2] مذكورة، والحُفْرةُ التي جمعت رؤُوسهم بذلك المكان مشهورة.

ومن كتاب «بَهْجَة النَّفْس» قال: لـمّا كان في الليل، تسرَّع عبدُ الغافر إلى ناحية لَقَنْت[3]، وأسرع الأميرُ القتلَ في جُملته، ولم يذكر عَدَدًا.

وثار على الأمير عبدِ الرحمن حَيْوة بن مُلَامِس، وتغلَّب على إشبيلية وإسْتِجَة وأكثر الغَرْب، وحشد جُموعًا، فخرج إليه الأمير، وقاتَلَه أيَّامًا، حتَّى همَّ الأميرُ بالهزيمة. ثم إنَّ حَيْوة انهزم ومضى إلى ناحية فِرِّيش[4]، وكتب راغبًا في العفو.

وفي سنة ست وأربعين ومئة: ثار العلاءُ بن مُغيث الجُذاميُّ[5] ببَاجَة، ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور، ونشَر الأعلامَ السُّود[6]، فاتَّبعه الأجناد، وتطلَّعه[7] العباد، إلى أن كادت دولةُ الأمير أن تنصرم، وخلافتُه أن تنخرم، فخرج إليه من قُرْطُبة، وصار بقَرْمُونة، فتحصَّن بها مع مواليه وثقاتِ رجاله، فنازَلَه العلاءُ بن مُغِيث مُنازلةً شديدة، وحاصَرَه بها أيَّامًا عديدة، فلمّا طال الحصارُ هنالك، وتخلخل عسكرُ العلاء لذلك، وعَلِمَ عبدُ الرحمن ما هُمْ عليه من الانزعاج، وأنَّهم قد هَـمُّوا بالإلجام والإسراج، أمر بنارٍ، فأُوقِدَتْ، ثمَّ أمر بأغمدةِ سيوف أصحابه، فأُحْرِقَتْ، وقال لهم: اخرُجوا معي لهذه الجموع، خروجَ مَن لا يحدِّث نفسه بالرجوع. وكانوا نحوَ سبع مئة من ذكور

(١) في ر٢: «القاطع للدابر» بدلًا من: «والنفار».

(٢) في ر٢: «وكانت وقعة مدى الدهر».

(٣) انظر عنها معجم البلدان ٥/ ٢١.

(٤) معجم البلدان ٤/ ٢٥٩.

(٥) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ١٩٩، ونفح الطيب ١/ ٣٣٢.

(٦) قوله: «ونشر الأعلام السود» من ر٢.

(٧) في ر٢: «وتطلع إليه».

الرجال، ومشاهير الأبطال، فأخذوا معه سيوفهم بأيديهم، وخرجوا مُفْحصِين إلى أعاديهم، فدارت الحربُ بينهم طويلًا، إلى أن صنع اللهُ جميلًا، وزلزل قَدَم[1] العلاءِ وأصحابه، فولَّوا منهزمين، وصار أمرُهم آيةً للعالَـمين، وقُتل العلاءُ فيمن قُتل من أولئك الأقوام، وطِيفَت برأْسه في ذلك الـمَقام[2].

وقيل: إنَّ أبا جعفرٍ المنصور كان أرسل إلى العلاءِ بن مُغِيث بولاية الأندلس، فنشر الأعلامَ السُّود، وقام بالدعوة العبَّاسيَّة بالأندلس، فانحشرَ إليه الناسُ. ولـمّا ظَفِرَ به الإمامُ على ما تقدَّم، أخذ رأْسَه، وفُرِّغَ وحُشِيَ مِلْحًا وصَبِرًا، وجُعِلَ معه لواءُ أبي جعفر المنصور، وأُدخل في سَفَط، وبعثه مع رجال، وأمَرَهم أن يضعوا السَّفَط بمَكَّة، فوافقوا المنصورَ بها حاجًّا في تلك السنة، فجُعل السَّفَطُ عند باب سُرَادِقِه، فلمّا فَتَحه[3] ونظر إلى ما فيه، قال: إنَّا لله! عَرَّضْنا بهذا المسكين للقتل، الحمدُ لله الذي جعل البحرَ بيننا وبين هذا الشيطان. يعني الأميرَ عبدَ الرحمن. هذا مساقُ السَّالِـميِّ في «دُرَر القلائد».

ومِن «بَهْجة النفس» قال: كانت ثورةُ العلاءِ بموضعٍ يُقال له: لَقَنْت مِن عَمَل باجَة. فأظهر سِجِلَّ المنصور ولواءَه، وجمع إلى نفسه مَن أجابه، ونهض إلى باجة، فأخذها، وتغلَّب منها على جميع الغَرْب، وخرج يريدُ الأميرَ عبد الرحمن، فسارَ حتَّى انتهى إلى الـمُدَوَّر. وكان الأميرُ يومئذٍ قد خرج غازيًا إلى شَرْق الأنْدلس، فرجع إذ بَلَغه أمرُ العلاءِ، فلمّا دنا من قُرْطُبة، أمَرَ مَن كان معه من أهل إشبيلية أن يَقرُّوا في الـمُدَوَّر؛ إذ كان قد اتَّهمهم لـمَيْل أهل إشبيلية إلى العلاءِ ثمَّ نهض، وكتب سرًّا إلى بَدْر مولاه، يأْمُره بقتلهم، كان الظَّفَرُ له أو عليه. ومضى العلاءُ، فالتقى معه. فكانت بينهما حروبٌ وزحوفٌ. ثمَّ قُتل العلاءُ بمقربة من قَرْمُونة، وفُضَّتْ جموعُه. وقُتل مِن أصحابه نحوُ ستَّةِ آلاف. وأمر الأميرُ بحزِّ رأْس العلاءِ ورؤُوس أشرافِ أصحابه، وقُرِّطت فيها صكوكٌ بأسمائهم، وجُعلت في أوعية، ونَدَب الأميرُ بها قومًا توجَّهوا بها إلى القَيْرَوان، فطرحوها

---

(١) في م: «قوم»، وهو تحريف.

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٧٥.

(٣) قوله: «فتحه و» سقط من م.

في الليل في الأسواق، فتَسَمَّع الناسُ أمْرَها، واتَّصلَ الأمرُ بأَبي جعفر، فانكسرت حِدَّتُه. وقيل[1]: إنَّ الذي هزم العلاءَ بَدْرٌ مولى عبدِ الرحمن بن معاوية، والله أعلم.

وفي سنة سبع وأربعين ومئة: وجَّه الأميرُ عبد الرحمن بدرًا مولاه وتـمَّامَ بن عَلْقَمة في جيش كثيف إلى طُلَيْطُلة، وبها هشامُ بن عذرة[2] ثائرٌ، فحاصراه[3] حتَّى سَئِمَ أهلُ طُلَيْطُلة الحصار، فكاتَبُوا بَدْرًا وتـمَّامًا، وسألوهما الأمانَ على أن يُسلموا لهما ابنَ عذرة[4] وعثمان[5] بن حَـمْزة بن عُبيد الله بن عمر بن الخطَّاب، وحَيْوَة[6] بن الوليد؛ وكانوا يدًا واحدةً[7]. فأسلموهم إليهما، وخرج بهم تـمَّامٌ إلى قُرْطُبة، فلقيَه عاصِمُ بن مُسْلِم، فقَبض منه الأسرى، وعَهِدَ إليه عن الأمير أن يَكُرَّ إلى طُلَيْطُلَةَ واليًا عليها، ويُقْبِلَ بَدْرٌ إلى قُرْطُبة. وأقبل عاصمٌ بالأسرى، فلما احتلَّ بقرية حَلْزة، خرج إليه ابنُ الطُّفَيْل، ومعه حجَّامٌ وجِبابُ صوف وسِلَالٌ، فحلق رؤُوسَهم ولِـحاهم، وألبسهم جِبابَ الصُّوف، وأدخلَهم في السِّلَال، وحَمَلهم على الحُمُر، فأُتي بهم على تلك الحال إلى خُشُب قد أُعدَّت لهم، فصُلبوا فيها. وكُتب إلى البلدان بفتح طُلَيْطُلة.

وفي سنة تسع وأربعين ومئة: ثار سعيدٌ اليَحْصُبيُّ المعروف بالـمَطَريّ بكُورة لَبْلَة، واجتمعت الـيَمانيَّة إليه، ولاذوا بحَقْوَيْه. ثمَّ سار إلى إشبيلية، وتغلَّب عليها قَصْرًا ولم يجد أهْلُها في مدافعته نَصْرًا؛ فكثُر عَدَدُه، وتأزَّر عَضُدُه، وعاد عسكرُه مَهُولًا،

---

(١) هذه العبارة كلها ليست في ر٢.

(٢) في أ، م: «عروة» خطأ، وما أثبتناه من ر٢، وكذلك هو في كامل ابن الأثير ٥/ ٥٨٣، ونهاية الأرب ٢٣/ ١٩٩، ونفح الطيب ٣/ ١٨.

(٣) قوله: «ثائر فحاصراه» ليس في أ.

(٤) في أ، م: «عروة»، خطأ.

(٥) في أ، م: «هشام»، وما أثبتناه من ر٢، وهو الذي في كامل ابن الأثير ٥/ ٥٨٣، وقال ابن حزم في الجمهرة (ص١٥٣-١٥٤): «وعثمان بن حمزة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر صلبه عبد الرحمن بن معاوية في الـمَرْج بقرطبة، وكان قد أدرك في الأندلس رياسة».

(٦) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٥/ ٥٨٣.

قد أخذ وُعورًا وسهولًا. فسار إليه الأمير عبدُ الرحمن في جيوشٍ عظيمة المدَد، مجهولة العدَد، حتَّى نزل عليه بقَلْعة زَغوان، وكان الـمَطَريُّ قد تحصَّن بها، ولاذ بجانبها، فحصره فيها حَصْرًا، وأرهقه من أمْره عُسْرًا، حتَّى خرج متعرِّضًا للحرب في جماعة من فرسانه الأكابر، ومَن اختصَّه من أولئك البرابر، فلم تنشب الحربُ بينهم إلَّا قليلًا، وقُتِلَ الـمَطَريُّ ومَن معه تقتيلًا. وجيءَ برأسه إلى الأمير عبدِ الرحمن، فأمر للحِين برَفْعه في طَرَف سِنان[1].

وفيها: قَتل الأميرُ عبد الرحمن أبا الصَّبَّاح بن يحيى اليَحْصُبيَّ، وكان قد ولَّاه إشبيلية، ثم عزلَهُ عنها، فجَمَع إليه أهْلَ الخلاف وثارَ عليه، فوجَّه إليه الأميرُ مَوْلاه تـمَّامًا مُلاطِفًا له، فقَدِم معه قُرْطُبَةَ في أربع مئة رَجل على غير عهد، فأوصله تـمَّامٌ إليه، فعاتَبَه، فأغلظ له أبو الصبَّاح في الجواب، فأمر بقَتْله، ثمَّ أمر بإخراج رأْسه والهَتْفِ عليه.

وفي سنة خمسين ومئة: هاجت فِتْنةُ البَرْبَر بشَنْت بَرِيَّة.

وفيها: غزا بَدْرٌ الثغر[2]، وتقدَّم إلى ألَبَة قاعدة الروم[3]، فحاصرها[4]، فأذعنت له، وأدَّت إليه الجِزْيَة، وأمر بامتحانِ الرجال بتلك الناحية، واختبارِ بصائرهم، فاستقدم منهم مَن اطَّلع له على سُوء سريرةٍ وشُبْهةٍ في الثغر.

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئة: ثار رجلٌ من البَرْبَر، ادَّعى أنَّه من وَلَد الحَسَنِ بن عليّ رضي الله عنهما، وكان أصلُه من مِكْناسة العُدْوة، وكانت أُمُّه تُسمّى فاطِمة، فادَّعى أنَّه فاطِميٌّ، وتجمَّع له الغوغاء[5]، فخرج إليه الأميرُ من قُرْطُبة، وخلَّف بها ابنَه هشامًا، فتقَحَّم الجبالَ أمامه بمن كان معه، وانصرفَ الأميرُ إلى قُرْطُبة. فأقبل

(١) ذكر ابن الأثير هذا الخبر في حوادث سنة ١٤٨ (الكامل ٥/ ٥٨٨).

(٢) في أ، م: «إلى الثغر».

(٣) قوله: «قاعدة الروم» من ر٢.

(٤) في أ، م: «فحاربها»، وما أثبتناه من ر٢.

(٥) «وتجمَّع له الغوغاء» ليس في أ.

الفاطميُّ، وقَتَلَ عامِلَ شَنْت بَرِيَّة، وغلُظ أمرُه، فكان الأميرُ يرسل إلى قتاله بعضَ الفيالِق، فيتعلَّق بالجبال الشواهِق.

وفي سنة ثلاث وخمسين ومئة: خرجَ الأميرُ عبدُ الرحمن لغزوِ الـمُدّعي[1] الفاطِميّ، فهرب وركب الوَعْر، فانصرفَ الأميرُ، فرجع الفاطِميُّ، فغزاه بَدْرٌ بالصائفة، فوجده بجهة شُبَطْرَان[2]، فاتبعه رجاء أن يُدركه، فدخل الـمَفَاوِز، وانقطع أثَرُه. ومضى هذا الفاطميُّ[3] إلى مَدَلِّين[4]، وكان عاملَه أبو زَعْبَل الصَّدْفُوريُّ. فتمادت فتنتُه من سنة خمسين ومئة إلى سنة ستين ومئة، إلى أن اغتاله بعضُ أصحابه، فقتله، وعفَّره هناك وجدَّله.

وفي سنة أربع وخمسين ومئة: تهدَّن الإمامُ عبد الرحمن بقُرْطُبة، ولم يكن له بها حركة.

وفي سنة خمس وخمسين ومئة: خرج الإمامُ عبد الرحمن من قُرْطُبة، فحلَّ بشَنْت بَرِيَّة. وقَدِمَ عليه هِلالٌ من أبناءِ الـمَدْيُونيّ، فكتب له عَهْدًا على قومه، وأقرَّهُ على موضعه، وكان رأسَ البَرْبَر في شَرْق الأندلُس. وقلَّده أمْرَ الفاطِميّ المتقدِّم الذكر، فكان في ذلك الراحةُ منه، وتفرَّقت بفِعْله ذلك كلمةُ البَرْبَر، وانحلَّت عقدةُ الفاطميّ، وانصرف من شَنْت بَرِيَّة إلى الجَوْف.

وفي سنة ست وخمسين ومئة: ثار على الأمير عبدِ الرحمن عبدُ الغَفّار[5] اليَحْصُبيُّ، وخلع طاعتَه. وكان الأميرُ بناحية الشَّرْق، فكتب إليه بَدْرٌ من قُرْطُبة، فطوى المراحلَ إليه، ثمَّ تقدَّم إلى إشبيلية، فوضع السيفَ فيه وفي أصحابه، فقُتِلوا قتلًا ذريعًا. وأفلت عبد الغفار[6]، فركب البحرَ، ونجا إلى الـمَشْرِق[7].

(١) في أ، م: «الداعي»، وما أثبتناه من ر٢.

(٢) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ٣٢١.

(٣) «هذا الفاطمي» ليست في ر٢.

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٥/ ٧٧، وفيه اللام المكسورة مخففة، والضبط من النسخة الخطية.

(٥) في أ، م: «عبد الغافر»، وما أثبتناه من ر٢ وهو الذي في كامل ابن الأثير ٦/ ٩.

(٦) كذلك.

(٧) ينظر الخبر بشكل أوسع في كامل ابن الأثير ٦/ ٩-١٠.

وفي سنة سبع وخمسين ومئة: خرج الأميرُ عبد الرحمن إلى ناحية الغَرْب، واحتلَّ بإشبيلية، وقتل بها خَلْقًا كثيرًا مـمَّن كان بسبيلِ عبد الغفار، وقطع آثارَهم، ووطَّد الطاعة، ثمَّ انصرف مُعْجِلًا؛ لأنَّه إنَّما قصد امتحانَ أهل إشبيلية وتـمحيصَهم. وقيل[1]: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ومئة.

وفي سنة تسع وخمسين ومئة: غزا الإمامُ عبد الرحمن قورية، وقصد في طريقه ذلك البَرْبَرَ الذين غدروا بأبي زَعْبَل ومَكَّنوه من الفاطميّ، فقتلَهُ، فدوَّخَ بلدَ البَرْبَر، وقتلَ منهم خَلْقًا كثيرًا وأذلَّهم، وأخذ[2] أبا مَزْكانة الـمَصْمُوديَّ، وهو عبَّاسُ بن قَلْعُوش.

وفي سنة ستين ومئة: أُخرجت الصائفةُ إلى الفاطمِيِّ؛ وكان في أحوازِ شَنْتَبَرِيَّة، فعُورض بالخيل، وقُطِعَتْ عاديتُه.

وفي سنة إحدى وستين ومئة، وقيل: سنة اثنتين وستين ومئة[3]: دخل إلى[4] الأندلس عبدُ الرحمن بن حَبيب الفِهْريُّ المعروف بالصِّقْلَبيّ[5]، فنزل كُورةَ تُدْمِير، فاستقرَّ بها، ولم تَبْدُ منه في تلك السنة عاديةٌ، وإنَّما لُقِّبَ بالصِّقْلَبيّ؛ لأنَّه كان طويلًا، أشْقَرَ، أزْرَقَ، أمْعَرَ.

وفيها: حمل نهرُ قُرْطُبة حملًا عظيمًا، حتَّى سدَّ حَنَايا القنطرة وهدم بعضَها وزَلْزَلها، وبقي كذلك يومَيْن[6].

وفي سنة ثلاث وستين ومئة: ثار عبدُ الرحمن بن حبيب الفهْريُّ، المتقدِّم الذكر في السنة قبل هذه، في ناحية تُدْمِير[7]، فغزاه الأميرُ عبد الرحمن، فهرب ابنُ حبيب[8]

(١) من هنا إلى آخر العبارة ليس في ر٢.

(٢) سقطت من أ.

(٣) «وقيل: سنة اثنتين وستين ومئة» ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «الصقلي»، خطأ، وسيأتي تفسيره بعد قليل.

(٦) في أ: «يومئذٍ».

(٧) قوله: «في السنة قبل هذه في ناحية تدمير»، بدلها: «بناحية تدمير».

(٨) «ابن حبيب» ليست في ر٢.

وتعلَّق بالوعر، فجال العسكرُ في كُورة[1] تُدْمِير، وتقدَّم إلى كُورة بَلَنْسِيَة، بعد أن أحرق المراكبَ بساحل البحر. ثمَّ إنَّ مِشْكارًا البَرْبَريَّ فَتَكَ بابن حبيب الصِّقْلَبيِّ وقَتَلَه[2].

وفيها: ثار ابنُ شَجَرة بمَوْرُور[3]، فخرج إليه بَدْرٌ يومَ الأضحى، فألفاه على غِرَّة، فقتله، وكتب إلى الإمام بالفتح. وقيل[4]: بل كان ذلك في سنة اثنتين وستين ومئة.

وفي سنة أربع وستين ومئة: غزا الإمامُ عبد الرحمن الرُّمَاحِسَ بن عبد العزيز[5]، وكان على شُرَط مروانَ بنِ محمَّد، فلحق بالأندلس، فولَّاه الإمامُ الجزيرة، فخلع طاعتَه، فخرج إليه واحتلَّ بالجزيرة، فوجد الرُّماحِسَ في الحمَّام، فلم يشعرْ إلَّا وخيل الإمامِ تَجُوس الديار، فأعجل الرُّماحِسُ عن لُبْس ثيابه، وخرج في مِلْحفة مُصْبَغة، فدخل في قارب، ونجا إلى العُدوة، ووجد الأميرُ عبدُ الرحمن في سجنه جماعةً من الأُمويِّين، فأطلقَهم.

وفي سنة خمس وستين ومئة: ثار على الأمير عبدِ الرحمن الحسينُ بن يحيى بن سَعْد بن عُبادة الأنصاريُّ بسَرَقُسْطَة، فسار إليه بالجماهير؛ والعسكر الشهير، فحاصَرَه بسَرَقُسْطة حصارًا، وقدَّم لقتاله أحزابًا وأنصارًا، إلى أن خرج طائعًا إليه، متراميًا عليه، فقَبِلَ إنابتَه، ولم يُجْرِم إجابتَه، فلمّا عفا عنه، وأغضى عمّا كان منه، أبقاه بسَرَقُسْطَة واليًا. وقفل الأميرُ إلى قُرْطُبَةَ ساميَ اللواء، قاهرَ الأعداء.

ثمَّ إنَّ الحسينَ خفر الذِّمَّة، وكفرَ النِّعمةَ، وأعلن بالنِّفاق إعلانًا، وأرسل في الشِّقاق عِنانًا، فسار إليه الإمامُ أيضًا، ونازله نزالًا، وأذاق سَرَقُسْطةَ نَكالًا، إلى أن فتحها بنَقْبِ سُورها فَتْحًا شنيعًا، وقتل الحسينَ وأصحابه قتلًا ذريعًا[6]. وولَّى عليهم عليَّ بن حَمْزة، وقفل إلى قُرْطُبة ظاهِرَ العِزَّة.

---

(١) في ر٢: «ناحية».

(٢) وذلك في سنة ١٦١هـ كما في كامل ابن الأثير ٦/ ٥٤.

(٣) ينظر عنها الروض المعطار ٥٦٤.

(٤) من هنا إلى آخر الفقرة ليس في ر٢، وينظر كامل ابن الأثير ٦/ ٥٨.

(٥) في أ: «عبد الرحمن»، خطأ، وما هنا من ر٢، وهو الذي في جمهرة ابن حزم ١٨٩.

(٦) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٦٧-٦٨.

ومِن كتاب «بَهْجَة النَّفْس» قال: **وفي سنة سبع وستين ومئة**، غزا الإمامُ سَرَقُسْطة إلى حُسَيْن بن يحيى، فحاصَرَه حتَّى أخذ المدينةَ عَنْوةً، وقَتَل حسينًا بالدمغة وجماعةً معه، وأخرج أهلَ المدينة عنها إلى قرية على ثلاثة أميال ليمينٍ لزِمَتْه فيهم، ثمَّ صرفهم إليها بعد أيَّام، وقَفَلَ إلى قُرطبة.

وفي سنة ثمان وستين ومئة: أراد الـمُغِيرةُ بن الوليد بن معاوية القيامَ على الإمام، وكان وطنُه يومئذٍ بالرُّصافة، فانكشف له يومئذٍ[1] أمرُه من قِبَل بعض مَن تعاقد معه، فأحضرهم بين يديه، وأقرُّوا، فأمَرَ بقتلهم، واستبقى الفاضِحَ لهم. وتحوَّل الإمامُ عبد الرحمن يومئذٍ من الرُّصافة إلى قَصْر قُرْطُبة[2].

وفي سنة تسع وستين ومئة: ثار على الأمير[3] عبدِ الرحمن محمَّدُ بن يوسف الفِهْريُّ، الذي كان قد تعامَى وهرب[4]، وكان قد تحرَّك من طُلَيْطُلَة وجِهَةِ الشَّرْق بالحشود. وبلغ الإمامَ خبرُه، فأمر بحشدِ الكُوَر، والتقى معه في مَخَاضة الفَتْح، فكان بينهم زحفٌ وقتالٌ أيَّامًا، ثمَّ انهزم محمَّدٌ[5] المذكور، فقُتل رجالُه، وأُفنيَ عَددُه. وكانت[6] هذه الوقعةُ يومَ الأربعاء مستهلَّ ربيعٍ الأوَّل من السنة.

قال الرازيُّ: قُتِل فيها أربعةُ آلاف رَجل، سوى مَن تردَّى في الوادي، وهلك في الـمَهاوِي. وهرب محمَّدُ بن يوسف هذا[7] إلى قُورية.

وفي سنة سبعين ومئة: خرجَ الأميرُ عبدُ الرحمن إلى محمَّد بن يوسف الفِهْريّ، حتَّى بلغ قُورية وكان بها[8]، ففرَّ أمامَه، وأدركت الخيلُ عيالَه وأصحابًا له، فقُتل مَن

(١) ليست في ر٢.

(٢) تنظر جمهرة ابن حزم ٩٣-٩٤.

(٣) في ر٢: «الإمام».

(٤) قوله: «الذي كان قد تعامى وهرب» ليس في أ.

(٥) ليس في ر٢.

(٦) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر٢.

(٧) ليست في ر٢.

(٨) قوله: «وكان بها» ليس في أ، م.

أُدرك، وأُحرقتْ دُورُه. وانقطع محمَّدُ بن يوسُف[1] وَحْدَه، وانحاش إلى غِيَاضٍ. وأوقع الأميرُ ببربرِ نَفْزة، فأذلَّهم، وأذهب عادِيَتَهم. ثمَّ مات محمَّدُ بن يوسف بقرية رُكَانةَ من عملِ طُلَيْطُلة[2].

وفي سنة إحدى وسبعين ومئة: قام قاسمُ بن عبد الرحمن الفِهْريُّ، عَمُّ محمّدِ بن يوسف أخو يوسفَ الفِهْريّ، وخلع الطاعة، فلما تحرَّك أمرُه، وجَّه إليه الأميرُ عبد الرحمن الجيوش، فأذعن له بالطاعة.

وفي سنة سبعين ومئة المتقدِّمة: أمَرَ الأميرُ عبد الرحمن بتأسيس المسجد الجامع بحضرة قُرْطُبة، وكانت بموضعه[3] كنيسةٌ، فأنفق فيه مئةَ ألفٍ بالوازنة[4].

وفي سنة اثنتين وسبعين ومئة: توفي[5] الإمامُ عبد الرحمن بن معاوية، رحمه الله، وذلك يومَ الثلاثاء لستٍّ بقين من ربيعٍ الآخر من السنة المذكورة[6].

ذِكْر بعض أخباره على الجُمْلة، رحمه الله

كان الإمامُ عبد الرحمن فصيحًا، بليغًا، حسنَ التوقيع، جيِّد الفصول، مطبوع الشِّعر. ومـمَّا أملاه على كاتبه إلى سُليمانَ ابن الأعرابيِّ: أمَّا بعدُ، فدَعْني من مَعاريض الـمَعَاذير، والتَّعَسُّفِ عن جادَّةِ الطريق، لَـتَمُدَّنَّ يدًا إلى الطاعة، والاعتصام بحَبْل الجماعة، أو لأُلقِيَنَّ[7] بنانها[8] على رصفِ المعصية نكالًا بما قدَّمَتْ يداك! وما اللهُ بظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

وكتب عنه أُمَيَّة بن يزيد[9] كتابًا إلى بعض عُمَّاله، يَسْتَقْصره فيما فرَّط من عمله،

---

(١) في ر٢: «الفهري» بدلًا من: «محمد بن يوسف».

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٧٨-٧٩.

(٣) ليست في أ.

(٤) ينظر الكامل لابن الأثير ٦٠/ ١٠٩.

(٥) في أ، م: «مات».

(٦) ذكر ابن الأثير وفاته بخبر طويل (الكامل ٦/ ١١٠-١١١).

(٧) هكذا في النسختين، وفي نفح الطيب نقلًا عن ابن حيان: «لأزوين» (٣/ ٣٩).

(٨) في أ، م: «بنابها»، وما هنا من ر٢ ونفح الطيب.

(٩) في أ، م: «زيد» خطأ، وما أثبتناه من ر٢ وهو الصواب، وينظر نفح الطيب ٣/ ٤٦.

فأكثر وأطال الكتاب[1]، فلمّا لحظَه عبدُ الرحمن بن معاوية[2]، أمر بقَطْعِه، وكتب بخطِّ يده: أمَّا بعدُ، فإن يكن التقصيرُ لك مقدَّمًا، فَعِدِ الاكتفاءَ أن يكون[3] لك مؤَخَّرًا. وقد علمتَ بما تقدَّمتَ[4]، فاعتمِدْ على أيِّهما أحْبَبْتَ.

وثار عليه ثائرٌ، فغزاه وظفر به، فبَيْنا هو في الطريق، إذ نظر إلى الثائر، وهو على بغل في كُبوله، وتحتَ الأمير عبدِ الرحمن فَرَسٌ له، فلمّا لحقه، قنَّع رأسَه بالقناة وقال: يا بغل! ماذا تَحْمل من الشِّقاق والنفاق! فقال الثائرُ: يا فَرَسُ! ماذا تحملُ من العفوِ والإشفاق! فقال: والله، لا ذُقْتَ موتًا على يديَّ! فأطلقه.

ومِن شِعرِه البديع الرائق، ما كَتَبَ به إلى بعض مَن طرأ عليه من قُرَيْش، وكان قد استقلَّ جرايته، واستطالَ بقرابته، وسأله الزيادةَ له والتوسِعَة، فكتب إليه بهذه الأبيات [من مخلّع البسيط]:

سِيَّانِ مَنْ قَام ذَا امْتعاضٍ   بِمُنْتَضَى الشَّفْرَتَيْن نَصْلَا
فجَابَ قَفْرًا وشَقَّ بَحْرًا   مُسَامِيًا[5] لُجَّةً ومَحْلَا
فشَدَّ[6] مُلْكًا وشَادَ عِزًّا   ونَاثِرًا للخِطَاب فَصْلَا
وجَنَّدَ الجُنْدَ حِينَ أوْدَى   ومَصَّرَ المِصْرَ حِينَ أَجْلَا
ثُمَّ دَعَا أهْلَهُ جَمِيعًا   حَيْثُ انْتَؤوا أنْ هَلُمَّ أهْلَا
فجَاءَ هَذا طَرِيدَ جُوعٍ   شَرِيدَ سَيْفٍ أُبِيدَ قَتْلَا
فنَالَ أمْنًا ونَالَ شِبْعًا   ونَالَ مالًا وحَازَ أهْلَا

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) «ابن معاوية» ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «فعند الاكتفاء يكون».

(٤) في ر٢: «قَدّمت».

(٥) في ر٢: «مسامتًا»، وما هنا يعضده ما في نفح الطيب حين أورد هذه الأبيات ٣/ ٣٨، وتنظر الحلة السيراء ١/ ٣٩.

(٦) في م: «فبَزَّ»، وهو تحريف، وفي نفح الطيب: «دبّر»، وفي الحلة السيراء: «فشاد مجدًا وبزّ مُلكًا».

وذُكِرَ أنَّ أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جُلَسائه: أخبِروني: مَنْ صَقْرُ قُرَيْش من الملوك؟ قالوا: ذاك أميرُ المُؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكَّن الزلازِل، وأباد الأعداءَ، وحَسَم الأدواءَ. قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: فمُعَاوِية؟ قال: لا. قالوا: فعبدُ الملك بن مروان؟ قال: ما قلتم شيئًا. قالوا: يا أميرَ المؤْمنين فمن هو؟ قال: صَقْرُ قُرَيْش عبدُ الرحمن بن معاوية، الذي عَبَر البَحْرَ، وقطع القَفْر، ودخل بلدًا أعْجَمِيًّا، مُنفردًا بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوينَ، وأقام مُلْكًا عظيمًا[1] بعد انقطاعه، بحُسْنِ تدبيره، وشدَّة شَكِيْمته. إنَّ مُعاويةَ نهض بمَرْكَب حَمَله عليه عُمَرُ وعُثْمان، وذلَّلا له صَعْبَه، وعبدَ الملك ببيعة أُبْرِم عَقْدُها، وأميرَ المؤْمنين بطَلَب عِتْرَته، واجتماع شِيْعته. وعبدُ الرحمن منفردٌ بنَفْسه، مُؤيَّد برأيه، مُستصحِبٌ لعزمه، وطَّد الخلافةَ بالأندلس، وافتتح الثغور، وقَتَلَ المارقين، وأذلَّ الجبابرةَ الثائرين! فقال الجميعُ: صدقتَ، والله يا أمير المؤمنين[2].

وكان الإمام عبدُ الرحمن من أهل العلم، وعلى سيرة جميلة من العدل. ومن قوله، رحمه الله، يتذكَّر وطَنَه[3] [من الخفيف]:

أيُّها الراكِبُ المُيَمِّم أرْضِي ... اقْرَ[4] بَعْضَ السلامِ عَنّي لبَعْضِي

إنَّ جِسْمِي كما تَرَاهُ بأرْضٍ ... وفُؤَادِي ومَالِكِيهِ بأَرْضِ

قُدِّرَ البَيْنُ بَيْنَنَا فافْتَرَقْنا ... وطَوَى البَيْنُ عن جُفونيَ غُمضي

قد قَضَى اللهُ بالبِعادِ عَلَيْنا ... فعَسَى باجتماعِنا[5] سَوْفَ يَقْضِي

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢ تقديم وتأخير في صياغة العبارة، وما هنا من أ.

(٣) قوله: «رحمه الله يتذكر وطنه» من ر٢. وفي نفح الطيب أنه كتب بهذه الأبيات إلى أخته بالشام (٣/ ٣٨) وهي في أكثر المصادر التي ترجمت لعبد الرحمن.

(٤) في م: «اقرأ»، خطأ.

(٥) في أ، م: «باقترابنا»، وما هنا من ر٢ ونفح الطيب ٣/ ٣٨، ٥٤ وغيره.

وله من الشِّعر كثيرٌ مشهورٌ. وذكر الرازيُّ أنَّ الإمام عبدَ الرحمن، أوَّلَ نزوله بمُنْيَة الرُّصَافَة واتِّخاذِه لها، نظر فيها إلى نَخْلة؛ فهاجَتْ شَجَنَه. وتذكَّر وطَنَه، فقال على البَديهة[1] [من الطويل]:

تَبـدَّتْ لَنَـا وَسْـطَ الرُّصَـافَةِ نَخْلَـةٌ ... تَنَاءَت بأَرْضِ الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ

فقُلْتُ: شَبِيهِي في التَغـرُّبِ والنَّـوَى ... وطُولِ التَّنَائي[2] عن بَنِيَّ وعن أهْـلِي

نـشَأْتِ بـأَرْضٍ أنْـتِ فِيهَـا غَرِيبَـةٌ ... فمِثْلُكِ في الإقْصاءِ والـمُنْتأَى مِـثْلِي

سَقَاكِ غَوَادِي الـمُزْنِ مِنْ صَوْبِها الذي ... يـسُحُّ ويَـسْتَمْرِي الـسِّمَاكَيْنِ بالوَبْـلِ

وكان، رحمه الله، قد عَقَد العهدَ لابنَيْه هشامٍ وسليمان، فوليَ بعده هشام، على ما أذْكُرُه.

خلافة هشام الرِّضا بن عبد الرَّحمن الداخِل[3]

كُنْيَتُهُ: أبو الوَلِيد.

مَوْلِدُه: سنة تسع وثلاثين ومئة.

أُمُّه: تُسَمَّى جَـمَـال.

نَقْشُ خاتَـمه: «بالله يَثِقُ عَبْدُه هشامٌ وبه يَعْتَصِمُ».

صاحبُ شُرْطَته: عبدُ الغافِر بن أبي عَبْدة.

وُزَراؤُه: ثمانية.

كُتَّابُه: اثنان: فُطَيْس بن عيسى، وخَطَّاب بن زَيْد.

قاضِيه: الـمُصْعَب بن عِمْران.

صِفَتُه: أبيضُ مُشْرَبٌ بحُمْرة، بعينَيْه حَوَلٌ.

---

(١) الأبيات في الحلة السيراء ١/ ٣٧، ونفح الطيب ٣/ ٥٤.

(٢) في نفح الطيب: «اكتئابي».

(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤، وجذوة المقتبس ٢٩، وتاريخ الإسلام ٤/ ٧٦٠ والتعليق عليها.

حاجبُه: عبد الرحمن بن مُغِيث.

بنوه: الذُّكورُ ستَّة، والإناث خمسٌ.

بُويع يَوْمَ الأحد مستهلَّ جُمادى الأُولى من السنة. وكان عند موت أبيه بمدينة مَارِدة[1]، فوفاه الخبرُ، فطَرَق، ووصل قُرْطُبَةَ بعد ستَّة أيّام. فبايَعه الخاصَّةُ والعامَّة. وكان أخوه بطُلَيْطُلة، وكان أكبرَ سِنًّا منه[2]، فلمّا اتَّصل به خبرُ أبيه، حَشَدَ الحشود، وجنَّد الجنودَ، يريد قُرْطُبة، مُخالِفًا لأخيه. فلمّا حصل بجَيَّان، خرج إليه هشامٌ في أجناده، والتقى معه بجهة بَلْج، فوقعتْ بينهم حربٌ شديدة، فانهزم سُليمان، وأسلم عسكَره، وفرَّ على وجهه. وقَفَلَ هشامٌ إلى قُرْطُبة ظافرًا في أجناده[3].

وتُوفِّي هشامٌ ليلةَ الخميس لثلاثٍ خلَوْن من صفر سنة ثمانين ومئة؛ فكان عُمُرُه أربعين سنة وأربعةَ أشهر وأربعة أيّام، فكانت مدَّة دولته وخلافته[4] سبعَ سِنِين وتسعةَ أشهر وثمانية أيّام[5].

وقيل: إنَّ عبدَ الرحمن بن مُعاوية، رحمه الله، لـمَّا حضرَتْه الوفاة، وابنُه هشامٌ بمارِدَة، وابنه الآخر سُليمانُ بطُلَيْطُلة، وكَّل ابنَه عبد الله[6] المعروف بالبَلَنْسيِّ، وقال له: مَن سَبَقَ إليك من أخَوَيْكَ، فارْمِ إليه بالخاتَم والأمر، فإنْ سبق إليك هشام، فله فَضْلُ دِيْنِه وعَفافِه واجتماعِ الكلمةِ عليه، وإنْ سبق إليك سليمان، فله فَضْلُ سِنِّه ونَجْدَتِه وحُبِّ الشّاميِّين إليه. فقَدِم هشامٌ من مارِدَة قَبْلَ سُليمان، فنزل بالرُّصَافة، وخاف من عبد الله أخيه؛ إذ صار مُتَمَكِّنًا من قُرْطُبة والقَصرِ والأموال، أن يُدافعَه. فخرج إليه أخوه عبدُ الله[7]، وسلَّم عليه بالخلافة، ودفع إليه الخاتَم، كما أوصاه أبوه، وأدخله القصر.

---

(١) الحلة السيراء ٢/ ٤٢.

(٢) «وكان أكبر سنًا منه» ليست في أ.

(٣) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٦-١١٧ باختلاف.

(٤) في ر٢ بدل هذه العبارة: «دولته» فقط.

(٥) الكامل ٦/ ١٤٨.

(٦) في ر٢: «عبد الملك» خطأ، وترجمته في الحلة السيراء ٢/ ٣٦٣.

(٧) في ر٢: «عبد الملك» خطأ.

قال الرَّازيُّ: ولـمّا صار الأمرُ إلى هشام، واتَّصل ذلك بسُليمانَ أخيه، أخذ بيعةَ أهلِ طُلَيْطُلَةَ وما جاوَرَها لنفسه، وغلب عليها. وشَغَلَه أمْرُ أخيه هشام. فثار سعيدُ بن الحُسين الأنصاريُّ بسَاغُنْت[1] من إقليم طُرْطُوشة، وأقبل إلى سَرَقُسْطَة، فأخرج منها واليَها، وضربَ بين الناس، ودعا إلى نفسه وإلى الفتنة، فأرسلها مُضَرِيَّةً ويَمَـانِيَّةً. وحشد مُوسَى بنُ فُرْتُون[2] إلى سَرَقُسْطَة، فأخذها، وكان على دعوة الـمُضَرِيَّة، فالتقى مع الـيَمَنِيِّين، وكانت بينهم حربٌ، فقَتَلَ منهم جماعة، ودخل سَرَقُسْطة. ثمَّ قَدِمَ مَطْرُوحُ بن سُليمان ابن الأعْرابيِّ[3] على دعوة أبيه من بَرْشِلُونة، فتغلَّب على وَشْقَةَ وسَرَقُسْطة والثَّغْر كلِّه[4].

وفي سنة ثلاث وسبعين ومئة: طمحتْ نفسُ عبد الله البَلَنْسيِّ أخي هشام إلى الإمارة، وقد كانت في يده أوَّلًا، ولم يَرْضَ منه إلَّا بمُشاركته، وذلك بعد سبعة أشهر من وفاة والدهما. وكان هشامٌ يبرُّه، ويترضَّاه، ويفضِّله على الكثير من إخوته، فلم يُقنعْه ذلك، وخرج يريد أخاه سُليمانَ بطُلَيْطُلة. فلمّا بلغ الأمرُ إلى هشام، أشفق من ذلك، وأخرج إليه مَن يُرْضِيهِ ويَردُّه، فلم يُدْرِكه. ومضى حتَّى قَدِم طُلَيْطُلةَ[5].

وفي هذه السنة: خرج هشامٌ إلى أخيه سُليمانَ بطُلَيْطُلة، فلمّا نزل عليه، خرج سليمانُ مستخفيًا، وخلَّف أخاه عبدَ الله وابنه داخِلَ المدينة، ونهض يريد انتهازَ الفُرْصة، فطوَى المراحلَ، حتَّى احتلَّ بشَقُنْدة، فخرج أهلُ قُرْطبةَ مُدافعين له، وبلغ هشامًا خبرُه، فلم يَكْتَرِثْ لذلك. ووجَّه ابنَه عبد الملك يقفو أثرَه، فلمّا قرب منه، وَلّى سُليمانُ منهزمًا، وقطع إلى غير وِجهةٍ حتَّى خرج متعسِّفًا إلى ناحية مارِدَة، وكان عامِلَها حُدَيْرٌ المعروف بالمذبوح، فخرج إليه، فهزمه. وتمادى الأميرُ هشام في حصار طُلَيْطُلةَ شهرَيْن وأيَّامًا، ثمَّ قفل عنها[6].

---

(١) ويقال فيها: «شاغنت»، كما في كامل ابن الأثير ٦/ ١١٧.

(٢) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٥٠٢.

(٣) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٠٧.

(٤) ينظر كامل ابن الأثير ٦/ ١١٧-١١٨.

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٦، والحلة السيراء ٢/ ٣٦٣.

(٦) الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٦، والحلة السيراء ٢/ ٣٦٣.

وفي سنة أربع وسبعين ومئة: انصرف عبدُ الله البلنسيُّ إلى أخيه هشامٍ بلا عهد ولا أمان، فأنزله الإمامُ هشام عند ابنه الحَكَم.

وفيها: أغزى هشامٌ ابنَه معاوية إلى تُدْمِير، وقائداه شُهَيْدُ[1] بن عيسى وتَـمَّام[2] بن عَلْقَمة، فدوَّخوا تُدْمِيرَ (وهي مُرْسِيَة)، وبلغوا البحر. وكان سُليمانُ، يعني أخا هشام[3]، قد حصلَ في بعض ثغور تُدْمِير، فطلب سُليمانُ الأمانَ، فاشترط عليه الأميرُ هشام الخروجَ عن الأندلس، ويُعطيه ستِّين ألفَ دينار، فركب سُليمانُ البحرَ بأهله وولده، واحتلَّ ببلاد البَرْبَر، فكفاه الله أمْرَ إخْوَته[4].

وفي سنة خمس وسبعين ومئة: أغزى هشامُ بن عبد الرحمن عُبَيْدَ الله بن عُثْمان[5] إلى سَرَقُسْطة، وبها يومئذٍ مَطْرُوحٌ المذكور، فحاصَرَها عُبَيْدُ الله، ثمَّ احتلَّ بمدينة طَرَسُونة[6]، وألحَّ عليها بالمحاصرة، حتَّى ضاق ذَرْعُ أهل سَرَقُسْطة، وضجُّوا من تمادي الحصار، فخرج مَطْرُوحٌ في بعض الأيَّام متصيِّدًا، ومعه عَمْرُوسُ بن يوسف وابنُ صَلْتان، فلمّا أرسل بازيَه على طائرٍ ونزل على الصيد، تَعاوَرَاه بسيوفهما حتَّى قتلاه، واحتزَّا رأْسَه، وتقدَّما به إلى ابنِ عثمان، وهو بطَرَسُونة، فتحرَّكَ إلى سَرَقُسْطة، فلم يمتنعْ عليه أحدٌ من أهلها، ودخل المدينة، فنزلها، وبَعَثَ برأْس مَطْرُوحٍ إلى الأمير هشام.

وفي سنة ست وسبعين ومئة: أغزى الإمامُ هشام أبا عُثْمان عُبَيْدَ الله بن عُثْمان إلى أَلِيَة[7] والقِلَاع، فلقيَ بها أعداءَ الله بجموعهم متَوافِين، فهزمهم اللهُ على يديه، وقُتِلوا في السَّهْل والوَعْر، وانتهى ما حِيْزَ من رؤُوسهم إلى تسعة آلاف رأْسٍ ونَيِّف[8].

---

(١) جذوة المقتبس (٥٠٢).

(٢) نفح الطيب ٣/ ٤٥.

(٣) «يعني أخا هشام» ليست في ر٢.

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ١١٧، والحلة السيراء ٢/ ٣٦٢.

(٥) «بن عثمان» من ر٢.

(٦) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٢٩.

(٧) معجم البلدان ١/ ٢٤٩.

(٨) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٢٣-١٢٤.

وفي هذه السنة: غزا يوسفُ بن بُخْت إلى جِلِّيقِيَّة. فالتقى ببَرْمُودَ الكبير، وواضعه الحربَ، فانهزمَ عدوُّ الله، وانتهب المسلمون عسكرَه، وقَتَل فيهم مقتلةً عظيمةً، وحَزَّ من رؤُوسهم عشرةَ آلاف، سوى مَن لم يَتمكَّن منه ممن قُتِلَ في الوَعْر[١]. وأتى هذا الفتحُ قُرْطُبة بعد فتحِ أبي عثمان؛ ذكر ذلك الرازيُّ وغيرُه.

وفي سنة سبع وسبعين ومئة: أغزى الإمامُ هشامٌ عبدَ الملك بن عبد الواحد بن مُغِيث بالصائفة إلى أرض الرُّوم، وهي غزوةٌ شهيرةُ الخَبَر، جليلةُ الخطر، انتهى فيها إلى إفْرَنْجة، فحاصَرَها، وثَلَم بالمجانيق أسوارها، وأشرفَ على بلاد الـمَجُوس، وجال في بلاد العدوِّ، وبقي شهورًا يحرق القُرَى ويُخرب الحُصُون. وأوقع بمدينة أرْبُونَة[٢]، وكان فتحًا عظيمًا، بلغ فيه خُمُسُ السَّبْي إلى خمسةٍ وأربعين ألفًا من الذهب العَيْن[٣].

وفي سنة ثمان وسبعين ومئة: هاجت الفتنةُ بتَاكُرُنَّا[٤]، وخالف بَرْبَرُها، وغاروا على الناس، وقَتلوا وسَبَوْا، فبعث الإمامُ هشام إليهم الأجنادَ بعد الإعذار إليهم، فقُتل أكثرُهُم، وفَرَّ سائرُهم إلى طَلَبيرة[٥] وتَرْجيلة[٦]. وأقامت تَاكُرُنَّا، وهي إقليم رُنْدة وبلادُها، خاليةً قَفْرًا سبعَ سنين[٧].

وفي سنة سبع وسبعين ومئة: أغزى الإمامُ هشام بن عبد الرحمن[٨] عبْدَ الكريم[٩] بن

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٢٤.

(٢) معجم البلدان ١/ ١٤٠.

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٣٥.

(٤) ينظر عنها الروض المعطار ١٢٩.

(٥) ينظر عنها الروض المعطار ٣٩٥.

(٦) ينظر عنها معجم البلدان ٢/ ٢٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٤٤.

(٨) «ابن عبد الرحمن» ليس في ر٢.

(٩) انظر عنه تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩.

مُغِيث بالصائفة، حتّى انتهى إلى مدينة أَسْتُرِقة داخل جِلِّيقِيَّة. فبلغه أنَّ إذْفُونْش قد[1] حشدَ بلادَه، واستمدَّ البَشْكُنِش وأهْلَ تلك النواحي التي تليه من المَجوس وغيرِهم، وأنه عَسْكَرَهم ما بين حَيِّز جِلِّيقِيَّة والصَّخْرة، وأنَّه أذِن لسكّان السَّهْل بالتفرُّق في شواهق جبال السواحل[2]. فقدَّم عبدُ الكريم فَرَجَ بن كِنَانة[3] في أربعة آلاف فارس، ثمَّ رحل في إثْره، فَألفى أعداءَ الله، فواضَعَهم الحربَ حتَّى هزمهم الله، فقتَل حُماتَهم، وأسَرَ جماعةً منهم، ثمَّ أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم، وبثَّ الخيلَ في القُرَى، فانتسفتْ جميعَ ما ألْفَتْه من زُرُوعهم، وخرَّبت ما مرَّت عليه من عِمارتهم. وتقدَّم بعد ذلك إلى وادٍ يُقال له: كُوثيَّة، فلقيَ به غُنْدُشارُه[4] وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتَلَه حتى انهزم عسكرُه، وأُخِذَ غُنْدُشارُه[5] أسيرًا، وقُتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ. وأصاب العسكرُ جميعَ ما في تلك الناحية. وتقدَّم مستَنْجِزًا لإذْفُونْش، فلمّا بلغه قَصْدُه إليه، تنحَّى عن الجبل الذي كان فيه منحازًا عنه إلى حِصْنٍ له، كان قد بناه وأتقنه على وادي نَلُون، فتقرَّب منه عبدُ الكريم مُقْتَفِيًا لأثَره، لا يمرُّ بمنزل فيما بينه وبينه إلَّا حرَّقه، ولا بمالٍ إلَّا أصابه، حتَّى أطلَّ على الحصن. فانتقل منه إلى حِصْنِ مُلْكِه. واحتلّ عبدُ الكريم بالحصن الذي انتقل منه، فألفى فيه الأطعمةَ وضُرُوبَ الذُّخْر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فَرَجَ بن كِنَانة، في عشرة آلاف فارس، يقفو أثَرَه، فلمّا قرب منه، انهزم عنه وأسلم جميعَ عُدَّته وذُخْره، فغنم المسلمون جميعَ ذلك.

وفي سنة ثمانين ومئة: تُوفِّي الإمامُ هشام بن عبد الرحمن، رحمة الله عليه، ودُفن بقصرِ قُرْطُبة، وصلَّى عليه ابنُه الحَكَم، وذلك ليلةَ الخميس، كما تقدَّم ذِكْرُه[6]. وبايع الناسُ ابنَه الحَكَم، وكان ابنُه عبدُ الملك أسنَّ منه[7].

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «في شواهق الجبال».

(٣) ترجمة فرج بن كنانة في جذوة المقتبس (٧٦٣) والتعليق عليه.

(٤) هكذا في النسختين، وغيّرها ناشرو (م) إلى: «غندماره».

(٥) كذلك.

(٦) ليست في ر٢.

(٧) خبر وفاته في كامل ابن الأثير ٣/ ١٤٨.

ذِكْر بعض أخباره على الـجُمْلة[١]

كان، رحمه الله، بَسْطَ البنان، فصيحَ اللسان[٢]، وَسيع الجَناب، حاكمًا بالسُّنَّة والكتاب، قَبض الزَّكَواتِ من طُرقها، ووضعها في حقِّها، لم يأْخذْه في الله لومٌ، ولا تعلَّق به ظلمٌ. ارتفع أخوه عن مُبايعته، وامتنع عن طاعته، واستبدَّ بطُلَيْطُلة استبدادًا، واستنفر للخلاف والنِّفاق أجنادًا[٣]، فما زال يشتغلُ بالفتنة بالًا، ويُذيق الناسَ وبالًا، قد عظمتْ عليه به المحنة، وعُدِمت منه الهُدْنة، حتَّى مات الأميرُ هشام، وحَكَمَتْ بخلافة ابنه الحَكَمِ الأحكام، فحاربَه في تلك الأقطار، إلى أن اختطفَتْه الأسِنَّة والشِّفار، فأُمِن بعد ذلك الجانب، ولم يكن في ذلك التأريخ هنالك مُجانِب.

وكان هشامٌ يبعث إلى الكُوَر قومًا عُدولًا يسألون الناسَ عن سِيَر العُمَّال، ثمَّ ينصرفون إليه بما عندهم، فيقع نظرُه بقدر[٤] ما تَكشِفُه المحنةُ له منهم. واعترض له يومًا متظلِّمٌ من أحد عُـمَّاله، فبدر إلى الشاكي[٥] من رجالِ العامِل مَنْ تَرَضّاه[٦] شَفَقةً منه على العامِل، فبعث إلى الشاكي، وقال له: احْلِفْ على كلِّ ما ظَلَمك فيه، فإن كان ضَرَبَك، فاضرِبْه، أو هتك لك سِترًا فاهْتِكْ سِتْرَه، أو أخذ لك مالًا، فخُذْ من ماله مِثْلَه، إلَّا أن يكونَ أصاب منك حَدًّا من حدود الله. فجعل الرجلُ لا يحلف على شيءٍ إلَّا أُقيد منه. فكان زَجْرُه هكذا لعُـمَّاله، أبلغ فيهم من النكال والأدب.

وكان كريمًا، عادلًا، فاضلًا، متواضِعًا، عاقلًا، لم تُعرف منه هفوةٌ في حداثته، ولا زلَّةٌ في أيَّام صِباه.

---

(١) «على الجُملة» ليست في ر٢.

(٢) في أ: «بسيط اللسان، فسيح الجنان».

(٣) في ر٢: «أحشادًا».

(٤) في م: «بهدم».

(٥) من هنا إلى قوله: «الشاكي» سقط من أ.

(٦) في م: «ترخاه»، ولا معنى لها.

ومن كَرَمِه: أنَّه كان يَصِرُّ أموالًا في صُرَر، ويَخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقَّد المسجد، فإذا وجد واحدًا يصلِّي في مسجد أو لا يُصلِّي، وضع بين يديه صرّةً، حتَّى كثرتْ عمارةُ المساجد.

وكان، رحمه الله، قد نظر في بُنيان قَنْطرة قُرْطُبة، وأنفق في إصلاحها أموالًا عظيمةً، وتولَّى بناءَها بنفسه، وتُعْطَى الأُجْرة بين يَدَيْه. قال ابنُ وَضَّاح: لَمَّا بنى هشامٌ القنطرة، تكلَّم بعضُ الناس فيه، وقالوا[1]: إنَّما بناها لتصيُّده ونُزْهَته![2] فحلف حين بلغه ذلك ألَّا يجوزَ عليها إلَّا لغزْوٍ أو مَصْلَحة.

قال القاضي أبو مُعاوية: أدركتُ صَدْرًا من الناس يحكون أنَّ أيَّامَ هشام هذا كانت من الدَّعَة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مِثْلٌ. وكان يحضر الجنائز ويُزاحم فيها، كأنَّه أحدٌ من الناس[3]؛ تواضعًا. وكان لبعض رجال هشامٍ خصومةٌ في دارٍ عند القاضي مُصْعَبِ بن عِمْران، فسجَّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها، فنهض الرجلُ إلى هشام، وقال له: إنَّ القاضيَ سجَّل عليَّ في داري التي كنتُ أسكنها، وأخرَجَني عنها! فقال له هشام: وماذا تُريد منِّي؟ والله لو سجَّل عليَّ القاضي في مقعدي هذا، لخرجتُ عنه! انقيادًا[4] منه للحق، رحمة الله عليه.

قِصَّة الكِنانيِّ مع هشام بن عبد الرحمن، رحمه الله[5]

كان قبل خلافته يقعد في عِلِّيَّة مُطِلَّة على النهر، ينظرُ منها إلى الرَّبَض، وتَقَعُ عينُه على مَن يَخطرُ، فنظرَ يومًا في الهاجِرة إلى رجلٍ من بني كِنَانة، وكان مِن صنائعه، مُقبلًا من باديته بجَيَّان، وكان أخوه سُليمانُ واليًا عليها، فدعا فتًى له وقال له: أرى الكِنانيَّ صَنِيعَنا مقبلًا في هذه الظَّهِيرة، وما أَحْسِبُ ذلك إلَّا لخَطْبٍ أقلقه من أبي أيُّوبَ أخي،

(١) في ر٢: «قال بعض الناس».

(٢) في ر٢: «ونزاهاته».

(٣) في ر٢: «من أحد الناس».

(٤) من هنا إلى آخر الفقرة ليس في ر٢.

(٥) جاء العنوان في ر٢: «قصة الكناني مع هشام الرضا».

فإذا وصلك، فأدْخِلْه عليَّ كما هو. ففعل الفتى ما أمَرَه، وكانت مع هشام جاريةٌ له، فلما دنا الكِنانيُّ، رفع سِترًا كان أمامه، فدخلت الجاريةُ خلفه، ثمَّ قال له، بعد أن سلَّم عليه: يا كِنانيُّ، لا أحسبك إلَّا وقد دَهَمَك أمْرٌ! فقال له الكنانيُّ: قَتل رجلٌ من بني كِنانةَ رجلًا خَطأً، فحُمِلَت الدِّيَةُ على العاقِلة، فأُخِذتْ بنو كِنانة عامَّةً، وحِيفَ عليَّ من بينهم خاصَّةً؛ لـمَّا عرف أبو أيُّوب مكاني منك، فعُذْتُ بك من ظُلامتي! فقال له: يا كِنانيُّ، ليفرَّجْ روعُك وليسكَّنْ جأشُك، لا جَرَم، قد تحمَّل هشامٌ عنك وعن قومك جميعَ الدِّيَة! ثمَّ مدَّ يدَه إلى خلف الستر، فأخرج عِقْدًا كان على الجارية، ثمنه ثلاثةُ آلاف دينار، فقال له: خُذْ هذا العِقْد، فأدِّ من ثَمَنِهِ عنك وعن قومك، وتوسَّع في الباقي. فقال الكنانيُّ: يا سيِّدي، إنِّي لم آتِكَ مُسْتَجْدِيًا ولا ضاق لي مالٌ عن أداءِ ما حُـمِّلْتُه، ولكني أتيتُك مُستجيرًا بك لِـمَا أُصِبْتُ بالعدوان والظلم، فأحببتُ أن تُظهِرَ عليَّ من عزِّ نصرك! قال له: فما وَجْهُ نصرِك؟ قال له: أن يكتب الأمير، أصلحه الله، إلى أبي أيُّوبَ في الإمساك عن أخْذي بما لم يجب عليَّ، وأن يحملَني محملَ عامَّة أهلي. فقال له هشام: خُذ العِقْدَ لأهلك ولنفسك، إلى أن يُيَسِّر الله فيما ذهبتَ إليه من أمْرِك. ثمَّ أمر هشامٌ بإسراج دابَّته من فَوْره، وركب إلى أبيه الأمير عبدِ الرحمن، فلما مَثُل بين يدَيْه، قال له: رجلٌ من بني كِنانة، هو لي صَنيعة، عدا عليه أبو أيُّوبَ بجَيَّان في دِيَة حُـمِلَتْ على العاقِلة. قال الأمير: فما تحبُّ في أمْرِه؟ قال: الكَتْبَ إليه بالكفِّ عنه، وأن لا يُؤْخذَ بغير ما لزمه. فقال الأمير: أوَ خَيْرٌ من ذلك! تُؤَدَّى الدِّيَةُ عنه وعن قومه من بيت المال؛ إذ هو منك بهذه المنزلة، وإذ أنت له بهذه العناية! فأكثر هشامٌ الشكرَ لوالده، ثمَّ أمر الإمامُ بأداء الدِّية من بيت المال، وبالكَتْب إلى أبي أيُّوبَ بترك التعرُّض للكنانيّ. ولـمّا حان توديعُ الكِنانيِّ لهشام، قال له: يا سيِّدي، إنّي قد بلغتُ فوق الأُمنية، وجاوزتُ أقصى غايةِ العزّ والنُّصرة! وهذا العِقْدُ النفيس قد أغْنَى اللهُ عنه فأنت أولى به مني[1]. فقال له هشام: يا كِنانيُّ، إنَّه لا سبيلَ إلى ردِّ شيء قد خرج عنَّا، فخُذْه مُبارَكًا لك فيه.

---

(١) قوله: «فأنت أولى به مني» من ر٢.

وهشامٌ هذا هو الذي أكمل سقائفَ المسجد الجامع بقُرْطُبة، ورفع مَنَارته القديمة، وبنى المِيْضأَة العجيبة، وعقد من الجَسْر ما كان تثلَّم بالسَّيْل، رحمه الله.

خِلافة الحَكَم بن هِشام بن عبد الرَّحمن[1]

كُنْيَتُه: أبو العاص.

أُمُّه: زُخْرُف.

مَوْلِدُه: سنة أربع وخمسين ومئة.

بويع بعد موت أبيه بليلةٍ، يومَ الخميس لثمانٍ خَلَوْنَ من صَفَر سنة ثمانين ومئة، وهو ابنُ ستٍّ وعشرين سنة؛ فكانت خلافتُه ستًّا وعشرين سنة وأحدَ عشَرَ شهرًا.

كُتَّابُه ثلاثةٌ: فُطَيْس، وخَطَّاب بن زَيْد، وحَجَّاجٌ العُقَيْليّ.

حاجِبُه: عبدُ الكريم بن عبد الواحد بن مُغِيث.

وُزَراؤُه وقُوَّادُه خمسةٌ: إسحاق بن الـمُنْذِر، والعبَّاس بن عبد الله، وعبدُ الكريم بن عبد الواحد المذكور، وفُطَيْس بن سليمان، وسعيد بن حسَّان.

قُضاتُه: مُصْعَب بن عِمْران، ومحمَّد بن بشير، والفَرَج بن كِنانة، وبِشْر بن قَطَن، وعُبَيْد الله بن موسى، ومحمَّد بن تَلِيد، وحامِد بن محمَّد بن يحيى.

نَقْشُ خاتَمه: «بالله يَثِقُ الحَكَم وبه يعتصم».

صِفَتُه: آدَم شديد الأُدْمة، طويل، أَشَمُّ، نحيف، لم يخضب.

بَنُوه الذكور: تسعة عشر، والبنات: إحدى وعشرون.

وفاتُه: تُوفِّي لأربعٍ بَقِين لذي الحجَّة سنة ست ومئتين؛ فكان عمره اثنتين وخمسين سنة.

ولـمّا بلغ موتُ هشامٍ الرِّضا إلى سُليمانَ وعبدِ الله ابنَيْ عبد الرحمن بن معاوية، وهما بالعُدْوة، تقدَّم عبدُ الله، فجازَ البحرَ إلى ريف الأندلس.

---

(١) ترجمته في التواريخ المستوعبة لعصره ومصره، وينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٤، وجذوة المقتبس ٣٠، وتاريخ الإسلام ٥/ ٦٠.

ولـمّا بويع الحَكَمُ بالخلافة، واستوسق له الأمر، وجّه عبد الكريم بن عبد الواحد غازيًا إلى دار الحرب، في جيش عظيم، فاحتلَّ عبدُ الكريم بالثغر، وتوافت عليه الجيوش. ثمَّ تقدَّم، فاحتلَّ على شاطئ البحر، وقسم الجيشَ على ثلاثة أقسام، وقدَّم على كلِّ قسم رئيسًا، وأمَرَ كلَّ واحد منهم بأن يُغير على الناحية التي قَصَدَها ووُجِّهَ إليها، فمضَوْا، وأغاروا، واستباحوا، وانصرفوا غانمين ظافرين. ثمَّ عادوا ثانيةً إلى الإغارة، وجاوزوا خُلُجًا كانت تمدُّ وتَحْصُر، وكان أهل تلك النواحي قد تحرَّزوا بها، ونقلوا إليها العيالَ والماشية والأموال، فأغاروا عليها، واحتوَوْا على جميع ما وجدوا فيها، وانصرفوا سالمين غانمين[١].

وفي سنة إحدى وثمانين ومئة: ثار على الأمير الحَكَم بَهْلُولُ[٢] بن مَرْزوق المعروف بأبي الحجَّاج في ناحية الثَّغْر، ودخل سَرَقُسْطة، ومَلَكها. وحلَّ به عبدُ الله ابن الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وكانت وجهتُه إلى إفْرَنْجة[٣].

وفيها: ثار عُبَيْدةُ بن حُمَيْد بطُلَيْطُلة، فنصب الحَكَمُ عَمْرُوسَ بن يوسف لحربه من طَلَبِيرة، فكان يتردَّدُ لحربهم، ثمَّ إنَّ عَمْرُوسَ كاتَبَ رجالًا من أهل طُليطُلة، واستلطفَهُم حتَّى مالوا إليه؛ فدعاهم إلى القيام على عُبَيْدة، والفتكِ به، ووعدهم على ذلك بمَثُوبةٍ جليلة من الأمير[٤]، فبَدَرُوا إليه، وقتلوه، وتوجَّهوا برأسه إلى عَمْروس، فأنزلهم عند نفسه بطَلَبِيرة. فلمّا علم بهم بعضُ بَرْبَر طَلَبِيرة، وكانت بينهم دِماءٌ، دخلوا عليهم تلك الليلةَ الدار، فقتلوهم. فبعث عمروسُ برأس عُبَيْدة وبرؤُوس المذكورين، وهم بنو مَخْشي، إلى الحَكَم بقُرْطُبة، وكتب إليه بخبرِهم، ثمَّ إنَّ عَمْروس أعمل جُهْدَه في استجلاب أهل طُلَيْطُلة بمكاتبتهم، حتَّى أدخلوه المدينة. فلمّا تمكَّن منها، بنَى القصرَ على باب جَسْرها، فأحكمه، وأتقن أمْرَه، ثمَّ سعى في قَتْل رجالِ طُلَيْطُلة، وقَطْعِ شرِّهم، وحَسْم دائهم؛ توطيدًا للمملكة، فأعدَّ للكيد صَنيعًا، أظهر

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢١١.

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٨.

(٤) في ر٢: «الإمام».

أنَّه يذبح فيه البقر، وأمَرَ أن يكون دخولُ الناس على بابٍ، وخروجُهم على بابٍ، فكان كلُّ مَن دخل وتجاوَزَ الباب قُتِلَ، حتَّى أفنى من أشرافهم سبعَ مئة[١].

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئة: كان السيلُ العظيم بقُرْطُبة، ذَهَب برَبَض القَنْطرة، ولم يُبْقِ فيه دارًا إلَّا هدمها، حاشى غُرْفةَ عَوْنٍ العطَّار. وبلغ السيلُ شَقُنْده[٢].

وفيها: دخل سُليمانُ بن عبد الرحمن بن معاوية الأندلسَ من العُدْوة، وتقدَّم متعرِّضًا لحرب الحَكَم، في شوَّالٍ منها، فانهزَمَ سُليمان، بعدما دارت بينهما حربٌ[٣] شديدةٌ.

وفيها: عاد سليمانُ ثانيًا للقتال، والتقى مع الحَكَم أيضًا ببنَجِيطة، فانهزم سليمان[٤].

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئة: خرجَ سُليمان، ومعه برابرُ اجتمعوا إليه، إلى ناحية إسْتِجَة، فغزاه الحَكَم، والتقيا بمقربة من إسْتِجَة، فدارت بينهم حروبٌ شديدة أيَّامًا. ثمَّ انهزم سُليمانُ بمن كان معه. ثمَّ التقيا أيضًا في هذا العام، فانهزم سُليمان[٥].

وفي سنة أربع وثمانين ومئة: حشد أبو أيُّوبَ سُليمانُ بن عبد الرحمن من الشَّرْق، فاحتلَّ بجَيَّان، ثمَّ بإلْبيرة. فأتْبَعه جماعةٌ من الكُورَتَيْن، والتقى معه الحَكَم، فدام القتالُ بينهم أيَّامًا، حتَّى همَّ الحَكَمُ بالهزيمة، ثمَّ انهزم سُليمانُ، وأفلت. وقُتِل في المُعترك بَشَرٌ كثير. وبعث الحَكَمُ أصْبَغ[٦] بن عبد الله في طلبه، فلَحِقَه بجهةِ مَارِدة، وأخذه أسيرًا، وأتى به إلى الحَكَم؛ فأمر بقتله، وبعث برأسه إلى قُرْطُبة.

وفي سنة ست وثمانين ومئة: أخرج الحَكَمُ إلى عَمِّه عبدِ الله[٧] البَلَنْسيّ أمانًا، وهو أوَّلُ خروجٍ كان إليه، وأوَّلُ مكاتبة كانت بين الحَكَم وبينه بعد حُلوله ببَلَنْسِيَة[٨].

---

(١) الخبر كله في الكامل لابن الأثير ٦/ ١٥٨.

(٢) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٦٢.

(٣) في ر٢: «حروب».

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٦١-١٦٢.

(٥) ذكره ابن الأثير أيضًا (الكامل ٦/ ١٦٢).

(٦) ينظر عنه نهاية الأرب ٢٣/ ٢١٥.

(٧) في ر٢: «عبد الملك»، وتقدم الكلام عليه.

(٨) الكامل لابن الأثير ٦/ ١٧٢.

وفي سنة سبع وثمانين ومئة: انعقد أمانُ عبد الله البَلَنْسيِّ وصُلْحُه بإجراء الأرزاق عليه، وذلك ألفُ دينار لكلِّ شهر، وبإجراءِ الـمَعَارِف، وذلك ألفُ دينار لكلِّ عام. وخرج إليه بهذا الأمان يحيى بنُ يحيى[1] وابن أبي عامِر، فعُقِدَ الصلحُ على ذلك وعلى أن يسكُن عبدُ الله[2] بَلَنْسية. وقدم يحيى وابنُ أبي عامر بولدِ عبد الله[3] على الحَكَم، فزوَّجه أُخْتَه شقيقتَه.

مقتل أهْل الرَّبَض أوَّلًا قَبْل هَيْجِهِ ثانيةً

وفي سنة تسع وثمانين ومئة: صَلَبَ الإمامُ الحَكَم اثنين وسبعين رجلًا بقُرْطُبة، منهم: أبو كَعْب بن عبد البَرّ، ويحيى بن مُضَر، ومسرورٌ الخادم. وكان السببُ في ذلك أنَّهم أرادوا الغَدْرَ به، وهمُّوا بالخلاف عليه، وطلبوا رئيسًا يقومون به، فوقع الخبرُ على محمَّدِ بن القاسم عَمِّ هشامِ بن حَمْزة، وأطلعوه على أمْرِهم، ودَعَوْه للقيام معهم، فخَذَلهم، وأفشى سرَّهم، وتقرَّب إلى الحكم بدمائهم، فتثبَّت الحَكَم، وسأله تصحيحَ ما رَفَعَ إليه، فقال له: هَاتِ أُمَناءكَ! فأخفاهم عنده، ووجَّه عنهم لميعاده، ثمَّ قال لهم: هذا الذي تدعُونَنِي إليه لا أثِقُ بمن سمَّيْتم، دون أن أسمعَ منهم كما سمعتُ منكم، فتَطِيبَ نفسي، وأدخلَ في الأمر على قوَّة وبصيرة. فأتَوْه، وسمع مقالتَهم، والأُمناءُ بحيث يَرَوْن ويَسمعون. فلمَّا صحَّ عند الحَكَم أمْرُهم بشهادة الأُمَناء عليهم، أخَذَهم وصَلَبهم جميعًا بمرَّةٍ واحدة[4]. ثمَّ أتقن سورَ قُرْطُبَةَ وحفر خَنْدَقَها، وتوجَّه غازيًا إلى بلاد الـمُشْرِكين.

ومن قوله [من الطويل]:

رأيتُ صُدُوعَ الأرْضِ بالسيفِ راقِعَا ... وقِدْمًا لأمتُ الشَّعْثَ مُذْ كُنْتُ يافِعَا
فسَائلْ ثُغُوري هَلْ بها الآن ثُغْرةٌ ... أبادرُها مستنْضِيَ السيف[5] دارِعَا

---

(١) هو الليثي فقيه الأندلس، وراوي «الموطأ» عن الإمام مالك.

(٢) في ر٢: «عبد الملك».

(٣) كذلك.

(٤) الخبر في كامل ابن الأثير ٦/ ١٨٨-١٨٩، لكنه ذكرها في حوادث سنة ١٨٧هـ.

(٥) في ر٢: «العزم».

وشَافِهْ على الأرض الفضاءِ جَماجِمًا كأقْحاف شرْيانِ الهبيدِ لَوامِعَا
تُنَبِّئْك أنّي لم أكُنْ عن قِراعِهم بِوانٍ وأنّي كنتُ بالسَّيْف قارِعَا
فإنّي إذا حادوا جِزاعًا عن الرَّدَى فلم أكُ ذا حَيْدٍ عن الموت جَازِعَا
حَمَيْتُ ذِماري وانتهكتُ ذِمارَهم ومَنْ لا يُحامي ظلَّ خَزْيانَ ضَارِعَا
ولَمَّا تساقَيْنا سِجَالَ حُرُوبِنَا سقَيْتُهُمُ سُمًّا من الموت نَاقِعَا
وهل زِدتُ أن وفَّيتُهُمْ صاعَ قرضِهِمْ فوافَوْا مَنَايَا قُدِّرَتْ ومَصَارِعَا
فهَاكَ بِلادي إنَّني قد تركتُها مِهَادًا ولم أتْرُكْ عليها مُنَازِعَا

وفي سنة تسعين ومئة: خرج الأميرُ الحَكَم غازيًا إلى مَاردَة، فلمّا وصلها، احتلَّها[1] وحاصَرَها، وكان بها أصْبَغُ بن عبد الله بن وَانْسُوس ثائِرًا، وإذا بالخبر وصله أنَّ سوادَ أهل قُرْطُبة أعلنوا بالنِّفاق، وتداعَوْا إلى صاحب السوق بالسلاح، وكتب المخلَّفون إلى الحَكَم بما حدث بعده وبما ظهر من ضمائر السَّفِلة، فصدر قافلًا، وطوى المراحِل، وقطع الطريقَ في ثلاثة أيام، ودخل القصرَ فهدأ الناسُ وسكنت الأحوال، وصار الناسُ في هدوءٍ وسكون من سنة تسعين ومئة إلى سنة اثنتين ومئتين، والتزموا الدَّعةَ اثنتي عشرة سنة[2].

وتردَّدت الغزواتُ سبعةَ أعوام إلى مارِدَة، وبها أصْبَغُ بن عبد الله ثائرًا متمنِّعًا. وكان سببُ ثورته أنَّ عدوًّا لأصْبَغَ طالَبَه عند الحَكَمِ وأغراه عليه، ثمَّ مشى إلى أصبغَ بـمِثْلِ ذلك، وروّعه منه، فتوقَّع العقوبةَ والسَّطْوة به. فكان ذلك سَبَبَ دخوله مارِدَةَ وقيامِهِ بها. وتكرَّرت الغاراتُ عليه سبعةَ أعوام، فافتُتِحَتْ في العام السابع بمجاولةٍ انجلت عن طَلَبِ الأمان لأصبَغَ، فأُمِّن، وخرج من مارِدَة، وصار في مصفِّ الحَكَم، فسكن قُرْطُبة، ثمَّ فسح له في الاختلاف إلى ضياعه بمارِدةَ حتى التاث أمْرُها، واضطربت حالُها.

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) ينظر كامل ابن الأثير ٦/ ٢٠١.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومئة: خرج رُذْرِيقُ صاحب إفْرَنْجة إلى جهة طُرْطُوشة، فأغزى الحَكَمُ ابنَه عبد الرحمن في جيشٍ كثيف، وكتب إلى عَمْرُوس وعَبْدُون عامِلَي الثَّغْر بالغزو معه بجميع أهل الثغر. فتقدَّم عبدُ الرحمن بالجنود، وتوافت عليه الحشودُ، وحفَّت به الـمُطَّوِّعة، فألفَوُا الطاغيةَ خارجًا[1] إلى بلاد المسلمين. ودارت بينهم حروبٌ[2] شديدة، ثبَّت اللهُ فيها أقدامَ المسلمين، فانهزم المشركون، وكانت فيهم مقتلةٌ عظيمة، فَنِيَ فيها[3] أكثرُهم[4].

وفي سنة أربع وتسعين ومئة: غزا الحَكَمُ أرضَ الشِّرك بنفسه[5]. وكان السببُ في هذه الغزاة أنَّ عبَّاسَ بن ناصِح الشاعِرَ[6] كان بمدينة الفَرَج، وهي وادي الحجَارة، وكان العدوُّ، بسبب اشتغال الحَكَم بمارِدَةَ وتوجيهِ الصوائف إليها مدَّةً من سبعة أعوام؛ قد عظمتْ شوكتُه، وقويَ أمْرُه؛ فشنَّ الغَاراتِ في أطراف الثغور، يَسبي ويقتل. وسمع عبَّاسُ بن ناصِح امرأةً في ناحية وادي الحِجَارة وهي تقول: واغوثاه يا حكَمَ! قد ضيَّعْتَنا وأسْلَمْتَنا واشتغلتَ عنَّا، حتَّى استأْسد العدوُّ علينا! فلمّا وفد عبَّاسٌ على الحَكَم، رَفَعَ إليه شِعرًا يستصرخُه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخَها به، وأنهى إليه عبَّاسٌ ما هو عليه الثغرُ من الوهن والتياثِ الحال، فرثى الحَكَمُ للمسلمين، وحمي لنصر الدِّين، وأمَرَ بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيًا إلى أرض الشِّرْك، فأوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتَلَ كثيرًا منهم[7]، وأسَرَ كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمَرَ لأهل تلك الناحية بمالٍ من الغنائم، يُصلحون به أحوالَهم ويَفْدُون به[8]

(١) من هنا تبدأ النسخة المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط رقم (١٠٣٠١) والتي رمزنا لها بالحرف (ت)، وهي في جملتها موافقة لما في ر٢ لذلك أعرضنا عن ذكرها إلا عند المخالفة.

(٢) في ر٢: «حرب».

(٣) من ت و ر٢.

(٤) الكامل لابن الأثير ٦/ ٢٠٢.

(٥) ليست في أ، م.

(٦) انظر عنه الوافي للصفدي ١٦/ ٦٤٤.

(٧) من ر٢.

(٨) ليست في ت وهي من ر٢.

سباياهم، وخصَّ المرأةَ وآثرها، وأعطاهم عَدَدًا من الأسرى عونًا لهم[1]، وأمَرَ بضرب رقاب باقيهم، وقال لأهل تلك الناحية وللمرأة: هل أغاثكم الحَكَم؟ فقالوا: شفى والله الصُّدُور، ونكى في العدوّ، وما غفل عنَّا إذ بَلَغَه أمْرُنا! فأغاثه اللهُ وأعزَّ نصره![2].

وفي سنة ست وتسعين ومئة: غزا الحَكَمُ إلى بلاد المشركين، وأوغل فيها، فأوقع بهم وأنكى فيهم[3]، وقَفَل.

وفيها: مات تَـمَّام بن عَلْقَمة الثَّقَفيُّ.

وفي سنة تسع وتسعين ومئة: كانت المجاعةُ التي عمَّت الأندلسَ؛ ومات أكثرُ الخلق جَهْدًا[4].

وفي هذه السنة: أغزى الحَكَمُ عمَّه عبد الملك أو عبد الله البَلَنْسيَّ الغزوةَ الشنيعة[5] المشهورة، وكانت ببَرْشِلُونة: ألْفَى المشركين قد حلُّوا بها يومَ احتلاله، وكان يومَ الخميس، فأراد مَن معه مُناشبةَ الحرب، وتشوَّفوا للقتال، فمَنَعَهم، حتَّى إذا كان في اليوم الثاني، وهو يوم الجُمُعة وقت الزوال، أمَرَ بتَعْبئَة الكتائب، ونَصَبَ الرُّدود، وقام، فصلَّى رَكْعتَيْن، ثمَّ نادى في الناس، وركب هو ومن معه، وناهض أهْلَ الشِّرك. وما أحْسِبُه فعل ذلك إلَّا فِقْهًا وعِلْمًا وتأسِّيًا بحديث النبي ﷺ حيث أمر بالقتال في تلك الساعة؛ فإنَّ فيها تهبُّ الأرواح، وتُفْتَح أبوابُ الجنَّة، وتُستجاب الدعوات. فمنحهم اللهُ أكتافَ المشركين، وانهزموا، وقَتَلَ عامَّتَهم، وفرَّق جَمْعَهم. فلمّا أقلع عن القتال وانجَلَتْ الحرب، نَصَبَ قَناةً طويلةً، فأُثبتتْ في الأرض[6]، وأمَرَ بالرؤُوس، فجُمعت وطُرحت حَوَالَيْها حتَّى غابت القناةُ فيها ولم تَظهر[7].

---

(١) من ت.

(٢) الخبر كله في كامل ابن الأثير ٦/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) «وأنكى فيهم» ليست في أ، م.

(٤) ذكر ابن الأثير هذا الخبر في حوادث سنة ١٩٧هـ (الكامل ٦/ ٢٧٧).

(٥) ليست في ر٢، ت.

(٦) قوله: «فأثبتت في الأرض» ليس في ر٢.

(٧) قوله: «ولم تظهر» من ر٢ فقط.

ذِكْر دُخُول الحَكَم طُلَيْطُلَةَ حين خالفَتْ عليه

وذلك أنَّه أظْهَرَ الغزوَ إلى بلاد المشركين، وقَصَدَ تُدْمِير، وهو يريد في نفسه طُلَيْطُلة. فنزل تُدْمِيرَ، واضطربَ فيها، ونازَلَ بعضَ حصونها. وكتب إلى عُمّال الثَّغْر بنزوله فيها وحَرْبه لها، فأمِنَ أهْلُ طُلَيْطُلة، وانتشروا في بسَائطهم، ونظروا في زُروعهم، وله عليهم عُيُونٌ. فلمّا صحَّ عنده انبساطُهم، جعل يتقَرَّب[١] من أحواز تُدْمِير، وأخبارُ طُلَيْطُلة تَرِدُ عليه. فلمّا أمكنَتْه الفُرْصة فيها، جدَّ السيرَ إليها، وطَوَى المراحل، فوصل إليها ليلًا، وسُبِقَ بقَطِيع من الحَشَم. فدخل طُلَيْطُلَةَ ليلًا[٢]، ولم يُعْلَم بدخوله، وأهْلُها في غَفْلة، وأبوابها مفتَّحة. وتتابع العسكرُ عليه بمقدار قوَّة كلِّ أحد. فمَلَكها، وحَالَ بين أهلها وبينها، وقطع الخروجَ عمَّن كان بها إلى مَن كان بخارِجها، فاستوسق[٣] له مُلْكُها دون مُؤْنةٍ ولا قتال. فاستنزل أهْلَها من الجبال إلى السّهْل، وحرَّق ديارَها، وأسكَنهم في الصحراء ثمَّ ردَّهم إليها.

وفي سنة مئتين: أغزى الحَكَمُ وزيرَه عبدَ الكريم بن مُغِيث إلى بلاد المشركين، فدخلها، وتوسَّطها، وأهلكَ معائشَها ومَرَافِقها، وحطم زُروعَها، وهدمَ مَنَازِلَها وحصونَها، حتَّى استوفى جميعَ قُرَى وادِي أرُون[٤]. فحَشَدتْ إليه الطاغيةُ، دمَّرها الله، وانْجَلبتِ النصرانيَّة] من كلِّ مكان، وأقبلت الجموعُ، ونزلت بعُدْوةِ نهر أرُون، وصار النهرُ حاجزًا بينهم وبين المُسلمين. فلمّا أصبح، نهض عبدُ الكريم بمن معه إلى مَخَائض الوادي، ونهَضَ أعداءُ الله إليهم، فقاتلوهم، على كلِّ مخاضة منها، فجالدَهم المسلمون عليها مجالدةَ الصابرين المحتسبين، واقتحم أعداءُ الله النهرَ إليهم، فاقتتلوا على مَخاضته. ثمَّ حمَلَ المسلمون عليهم حملةً صادقةً، فأضغطوهم في المضايق، وأدخلوهم على غير طريق، فأخذتهم السيوفُ والطَّعْنُ بالرِّماح والغرقُ في المياه[٥]، فقُتل من المشركين

---

(١) في م: «يتغرب».

(٢) في ر٢: «فدخلها ليلًا».

(٣) في ر٢: «فتمَّ».

(٤) معجم البلدان ١/ ١٦٤.

(٥) قوله: «والغرق في المياه» ليس في أ.

عددٌ عظيمٌ لا يُحصى كثرةً، ومات أكثرُهم بالتَرَدِّي، ودَرَسَ بعضُهم بعضًا، وصاروا بعد الـمُطَاعَنة والمجالَدة بالرِّماح والسيوف إلى القَذْف بالحجارة، وأكثروا الحُرَّاسَ بالمخائض، ووعَّروها بالخشب، وحفروا الحفائرَ، وخَنْدَقوا الخنادِق. ونزلت الأمطارُ. وكان قد فرغ ما كان لأعداء الله من الـمَرافق، وضاقت الحالُ أيضًا بالمسلمين؛ فقَفَلَ عبدُ الكريم ظافرًا لسبع خَلَوْنَ من ذي القعدة[1].

ولم يكن في سنة إحدى ومئتين صائفةٌ ولا حَرَكةٌ مشهورةٌ.

ذِكْر هَيْج أهْل الرَّبَض[2] ثانيةً في سنة اثنتين ومئتين

كان من أهل رَبَض قُرْطُبَةَ في هذه السنة ما نَسْتَعيذُ بالله من الخِذْلان في مِثْله، وذهابِ التوفيق. وقد اخْتَلَفَت الرواياتُ في سبب قيامِ الناس وهَيْجهم؛ فمنهم مَن يقول: إنَّ[3] ذلك الهَيْجَ كان أصْلُه الأشَرَ والبَطَرَ؛ إذ لم تكن ثَمَّ ضرورةٌ من إحجافٍ في مال، ولا انتهاكٍ لحُرْمة، ولا تعسُّفٍ في مَلَكةٍ، والحالُ تدلُّ على صحَّة ذلك؛ فإنَّه لم يكن على الناس وظائفُ، ولا مَغارِمُ، ولا سُخَرٌ، ولا شيءٌ يكون سببًا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشَرًا وبَطَرًا، وملالًا للعافية[4]، وطَبْعًا جافيًا، وعقلًا غبيًّا، وسعيًا في هلاك أنفسهم، أعاذنا اللهُ من الضَّلال والخِذْلان، وأسبابِ البوار والخُسران.

ولـمّا اهتاجوا وقاموا على السُّلطان، ناصَبَهم الحَكَمُ القتالَ، وواضَعَهم الحرب[5]. وانحاشَ إليه حاشيتُه وجُندُه، وتألَّبَ من كلِّ وجهٍ رجالُه. وقامت الحربُ بين الجُند وعامَّةِ قُرْطُبَة على ساقٍ. ثمَّ تكاثرت العامَّةُ، وهاجت الدَّهماءُ السوداء، فلم يزيدوا على أن ظَهَرُوا في ذلك الحين ظهورًا لم يبلِّغْهم إلى أمل، فلمّا اشتغلوا بالقتال، احتِيلَ عليهم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣١٧-٣١٨.

(٢) في ر٢: «ربض قرطبة».

(٣) جاءت العبارة في ر٢ كما يأتي: «اختُلِفَ في سبب ذلك الهيج، فالصحيح أنَّ».

(٤) «وملالًا للعافية» ليست في ر٢.

(٥) «وواضعهم الحرب» ليست في ر٢.

بمِثْلِ حيلةِ يوم الحَرَّة، وهم لا يَشعرون؛ لاشتغالهم بالقتال، فخرج عُبَيْدُ الله[١] بن عبد الله البَلَنْسِيُّ المعروف بصاحِب الصَّوائف، وإسحاقُ بن الـمُنْذِر القُرَشيُّ إلى باب الجَسْر، مع مَن أمكنهما من الفرسان والرَّجَّالة، والتقَوْا مع العامَّة، وجالَدُوهم حتى أزاحوهم وأدخلوهم الجَسْر، وفُتح بابُ المدينة عند الجَسْر، ودخل الذين سمَّينا على باب الحَدِيد، ثمَّ اقتحموا على الزُّقاق الكبير، وخرجوا على الرَّمْلة إلى مَخاضةٍ هناك، وجازُوا النهر، واجتمعوا مع مَن توافى عليهم من حُشود الكُوَر؛ إذ كانوا قد أُنْذِروا قبل ذلك بما كان بَدا منهم، وظَهَرَ من علاماتهم. فلمّا اجتمعوا، أقبل بَعْضُهم من وراءِ الرَّبَض، وشرعَ بعضٌ في طَرْح النار في الدُّور، ودسُّوا مَن أخبر العامَّةَ بما نزلَ بهم في دُورهم وذَراريهم وعيالهم، فلم يَبْقَ أحدٌ منهم دون أهلِه ومنزله، وانصرفوا راجعين نحوَها. فأخذتهم السيوفُ من أمامهم وورائهم، فقُتلوا قَتْلًا ذريعًا، وتتُبِّعوا في الأزِقَّة والطُّرُق يُقتَلون، ونجا منهم مَن تأخَّرَ أجَلُه، ففرَّ، فلم يَلْوِ على أهلٍ ولا وَلَدٍ. وأُخِذَ منهم ثلاث مئة رجل، فصُلِبوا على الوادي، صفًّا واحدًا من الـمَرْج إلى الـمُصَارة.

وكان الحَكَمُ قد عزم على تَتَبّعهم بالأندلُس، وقَتْلِهم حيث وُجِدوا، فكَسَرَ عليه بعضُ أصحابه، وذكَّره صُنْعَ الله له فيهم، فارْعَوَى وكَفَّ. فخرجوا أفواجًا بأهاليهم وأولادهم، ولم يَعْرِض لأحدٍ منهم في شيء من بلاد الأندلس، وهي طاعتُه ومُلْكُه، ولا نالهم ضُرٌّ بعد وقتِ المعركة وغَلَيان الحال؛ كرمًا وعفوًا من الأمير الحَكم، رحمه الله[٢]، وعفَّ الحَكَمُ عن الأموال والحُرَم. وتفرَّق أهلُ الرَّبَض في جميع أقطار الأندلُس، ومنهم مَن جاز البحرَ إلى العُدْوة بالأهل والولد، فاحتلُّوا بعُدْوة فاس، فهُمْ عدوةُ الأندلُس منها، فصيَّروها مدينةً. ومنهم أهل جزيرة إقْرِيطِش، فذُكِرَ أنَّه لم يخرج منهم طائفةٌ بناحيةٍ من نواحي الدنيا إلّا وتغلَّبوا عليها، واستوطنوها على قهرٍ من أهلها. وأكثرُ مَن هرب من أهل العِلْم والخير مـمَّن اتُّهِم أو خافَ على نَفْسِه إلى ناحية طُلَيْطُلَة، ثمَّ أمَّنهم الحَكَم، وكتب لهم أمانًا على الأنفس والأموال، وأباحَ لهم التفسُّحَ في البُلْدان حيثُما أحبُّوا من أقطار مملكته، حاشى قُرْطُبَةَ أو ما قرب منها.

---

(١) له ذكر في نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٢١، ٢٢٣.

(٢) قوله: «كرمًا وعفوًا من الأمير الحكم رحمه الله» ليس في ر٢.

وفي سنة ست ومئتين: اشتدَّ مرضُ الحَكَم بن هشام، فأخذ البيعةَ لابنه عبدِ الرحمن، ثمَّ للمُغِيرة مِنْ بعدِه. وانعقدت البيعةُ يومَ الأربعاء لإحدى عَشرة ليلة خلَتْ من ذي الحجَّة من السَّنة. فبُويع له ذلك اليومَ في القصر، واختلفَ الناسُ بعد ذلك اليوم إلى دار عبد الرحمن بن الحكم يُبايعونه، وبايَعُوا الـمُغِيرةَ في دار أخيه عبد الرحمن أيضًا، ثمَّ ركبَ الـمُغِيرةُ إلى الجامع، ونزل فيه يومًا بعد يوم لمبايعة الناس له، وكانوا يبايعونه عند الـمِنْبَر، ثمَّ بايعوه في داره. ولـمّا انقضت البيعةُ لعبد الرحمن والـمُغِيرة بعدَه، أمَر الحَكَمُ بن هشام بهدم الفُنْدُق الذي كان بالرَّبَض، وكان مُتَقَبِّلُه من أهل الإضرار والفِسْق، فهُدِمَ.

وتُوفِّي الأميرُ الحَكَم يومَ الخميس لأربعٍ بقين من ذي الحجَّة من السنة، وصلَّى عليه ابنُه عبدُ الرحمن، ودُفِن بالقصر(١).

بعض أخباره وسِيَره

كان الحَكَم، رحمه الله، شديدَ الـحَزْم، ماضيَ العزم، ذا صولة تُتَّقَى. وكان حَسَنَ التَّدْبير في سُلطانه، وتوليةِ أهل الفضل والعَدْل في رعيَّته، وكان مبسوطَ اليد. وكان له قاضٍ كفاه بوَرَعه وعِلْـمه وزُهْده، فمرض مرضًا شديدًا، فاغتمَّ الحَكَمُ لمرضه، فذكر بعضُ خاصَّته أنَّه أرِقَ ليلةً أرَقًا شديدًا، وجعل يَتَمَلْمَل على فِراشه، فقيل له: أصلح اللهُ الأمير! ما الذي عَرَض؟ فقال: وَيْحكم! إنِّي سمعتُ في هذه الليلة نادِبةً، وقاضِيْنا مريضٌ، وما أراه إلَّا وقد قَضَى نَحْبَه، فأين لي بمِثْله؟ ومَن يقوم بالرعيَّة مقامه؟! فمات القاضي في تلك الليلة، وهو الـمُصْعَب بن عِمْران قاضي أبيه. فولَّى بعدَه محمَّد بن بَشِير، وكان أقصدَ الناس إلى حقٍّ وأبعدَهم من جَوْرٍ، وأنفذهم بحُكْم. ورَفع إليه رجلٌ من أهل كُورة جَيَّانَ أنَّ عاملًا للحَكَم اغتصبه جاريةً، وصيَّرها إلى الحَكَم، فوقعتْ من قلب الحَكَم كلَّ مَوْقِع، فأثبت الرجلُ أمْرَه عند القاضي، وأتاه ببيِّنَةٍ تشهد على معرفةِ ما تظلَّم منه وبمِلْكه للجارية وبمعرفتهم بها. فأوجبت السُّنَّةُ أن تحضرَ الجارية، فاستأذن القاضي على الحَكَم، فأذِنَ له، فلمّا دخل عليه، قال له:

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٧٧.

أيُّها الأمير، إنَّه لا يتِمُّ عَدْلٌ في العامَّة دون إقَامَتِه في الخاصَّة. وحكى له أمْرَ الجارية، وخيَّره بين إبرازها للبيِّنة ليُشْهَد على عَيْنها، أو عَزْله. فقال له الحَكَم: أَوَلا أدعوك إلى خيرٍ من ذلك: تبتاعُ الجاريةَ من صاحبها بأبلغ ما يُطلَب فيها. فقال القاضي: إنَّ الشهودَ قد شهدوا من كُورة جَيَّان، وأتى الرجلُ يطلب الحقَّ في مظانِّه، فلمّا صار ببابك، تَصْرِفه دون إنفاذ الحقِّ له! ولعلَّ قائلًا يقول: باع ما لا يَمْلِكُ بَيْعَ مقهور، فلمّا رأى عَزْمَه على ذلك، أمَرَ بإخراج الجارية من قَصْرِه، فشهد الشهودُ عنده على عَيْنها، وقَضَى بها لصاحبها. وكان هذا القاضي محمَّدُ بن بَشِير، إذا خرج للمسجد وجلسَ للأحكام، جلس في رداءٍ مُعَصْفَر، وشَعرٍ مفرَّق، فإذا طُلِبَ ما عندَه، وُجِدَ أفضلَ الناس وأورعَهم.

وكان الحَكَم يقول: ما تَحلَّى الخلفاءُ بمِثْل العدل. وكانت فيه بطالة، إلَّا أنَّه كان شُجاعَ النفس، باسطَ الكفّ، عظيمَ العفو. وكان يُسَلِّط قُضاتَه وحُكَّامَه على نفسه، فضلًا عن وَلَده وخاصَّته. وكانت للحَكَم ألفُ فَرَسٍ مُرتَبطةً بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرةٌ من العُرَفاء، تحت يَدِ كلِّ عَريف مئةُ فَرَس، فإذا بلغه عن ثائرٍ ثار في أطرافه[1]، عاجَلَه قبل استحكام أمْرِه، فلا يشْعُر حتَّى يُحاطَ به. وجاءَه الخبرُ يومًا أنَّ جابرَ بن لَبِيد مُحاصِرٌ لـجَـيَّان، وهو يلعب بالصَّوْلَجان في القصر، فدعا بعَرِيف من أولئك العُرَفاء، وأسرَّ إليه أن يخرج بمن تحتَ يدِه إلى جابِر بن لَبِيد، ثمَّ فعل كذلك مع أصحابه من العُرَفاء. فلم يشعر ابنُ لبيد حتَّى تساقطوا عليه مُسَرْبَلين في الحديد، فلمّا رأى[2] ذلك، سُقِطَ في يده، وظنَّ أنَّ الدنيا قد حُشِرَتْ إليه، فولَّى بمن معه منهزمًا.

وكان الحَكَمُ فصيحًا بليغًا شاعرًا مُجيدًا. فمن شِعره، رحمه الله، يتغزَّل، وذلك أنَّه كان له خمسُ جَوارٍ قد استَخْلصَهُنَّ لنفسه ومَلَّكَهُنَّ أمْرَه، فذهب يومًا إلى الدخول عليهنّ، فأَبَيْنَ عليه، وأعرَضْنَ عنه، وكان لا يصبر عنهنَّ؛ فقال[3] [من البسيط]:

---

(١) في ر٢: «موضعه».

(٢) في أ، م: «رأى العدو»، وما هنا من ر٢، وهو أحسن.

(٣) الأبيات الأربعة في الحلة السيراء ١/ ٥٠.

قُضْبٌ من البانِ مَاسَتْ فَوْقَ كُثْبانِ أعْرَضْنَ عَنّي وقد أزْمَعْنَ هِجْرانِي

ناشَدتُهُنَّ بحَقّي فاعْتَزَمْنَ على الْـ ـهجرانِ حتّى خَلَا مِنْهنَّ هميانِي[1]

مَلَكْنَنِي مُلْكَ مَنْ ذَلَّتْ عَزِيمَتُهُ للحبِّ ذُلَّ أسِيرٍ مُوثَقٍ عانِي

مَنْ لي بمُغْتَصِباتِ الرُّوح من بَدَنِي غَصَبْنَني في الهَوَى عِزِّي وسُلْطَانِي

ثُمَّ إنَّهُنَّ عُدْنَ عليه بالوَصْل؛ فقال [من الخفيف]:

نِلْتُ كُلَّ الوِصالِ بعد البِعَادِ فكأنِّي مَلَكْتُ كُلَّ العِبادِ

وتَناهى السُّرورُ إذْ نِلْتُ ما لم يُغْنِ فيه تَكاثُفُ الأجْنَادِ

ومن مليحِ قوله فيهنَّ، رحمه الله [من الخفيف]:

ظَلَّ مِنْ فَرْطِ حُبِّهِ مَمْلوكَا ولقَدْ كان قَبْلَ ذاكَ مَلِيكَا

إن بَكَى أو شَكَا الهَوَى زِيدَ ظُلْمًا وبِعادًا يُدْنِي حِمامًا وَشِيكَا

تَرَكَتْه جآذِرُ القَصْرِ صَبًّا مُسْتَهامًا على الصَّعِيد تَرِيكَا

يَجْعَلُ الخَدَّ ماثلًا فوقَ تُرْبٍ وهْوَ لا يَرْتَضِي الحَرِيرَ أرِيكَا

هكذا يَحْسُنُ التَذَلُّلُ للحُرِّ إذا كان في الهَوَى مملوكَا

وله، رحمه الله، أشعارٌ كثيرةٌ في الرَّبَضيِّين القائمين عليه، لا يُجاريهِ فيها أحَدٌ. وقد تقدَّم[2] منها ما يُستدَلُّ به على فَضْله. ولـمّا دَنَتْ وفاتُه، عتب نفْسَه فيما تقدَّم منه عِتَابًا، وتاب إلى الله مَتابًا، ورجع إلى الطريقة الـمُثلَى، وقال: إنَّ الآخرة هي الأبْقَى والأوْلى؛ فتزيَّن بالتَّقْوَى، واعتصم بالعُرْوة الوثْقَى، وأقرَّ بذنوبه واعترف، وأنِسَ إلى قولِه تَعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وكان من عباد الله المتّقين، إلى أن أتاه من ربِّه اليَقين، فتُوُفِّي، رحمه الله، سنة ست ومئتين.

---

(١) في م: «هيماني»، ولا معنى لها، وفي الحلة: «عصياني»، والهميان: كيس النقود.

(٢) في ر٢: «ذكرتُ».

خِلافة عبد الرَّحمن بن الحَكَم بن هِشام[1]

كُنْيَتُه: أبو الـمُطَرِّف.

أُمُّه: تُسَمَّى حَلَاوة.

مَوْلِدُه: سنة ست وسبعين ومئة.

حاجِبُه: عبدُ الكريم بن عبد الواحد.

وُزَرَاؤُه: تسعة، رِزْقُ كلِّ واحد ثلاث مئة دينار.

كُتَّابُه ثلاثة: عبد الكريم المذكور، وسُفْيَان بن عبد رَبِّه، وعيسى بن شُهَيْد.

قُضَاتُه: أحد عشر؛ منهم: يحيى بن مَعْمَر، وقَبْلَه مَسْرور بن محمَّد بن بَشير، ثمَّ سعيد بن محمَّد بن بَشِير، ثمَّ يحيى المتقدِّم الذِّكر، وغير هؤُلاء، وإنَّما كَثُر القُضَاة في أيَّامه؛ لأنَّ الـمُشَاوَرَ في عَزْلهم وولايتهم يحيى بن يحيى اللَّيْثيُّ، فكان لا يولِّي رجلًا إلَّا برأْيه، فكان يحيى بنُ يحيى، إذا أنكر من القاضي شيئًا، قال له: استَعْفِ وإلَّا رفعتُ بعزلك! فكان يستعفي أو يُشير يحيى بعزله، فيُعْزَل.

نَقْشُ خاتَـمه: «عبد الرَّحمن بقضاءِ الله راضٍ»، وكان له قبلَ ذلك خاتمٌ باسمه، فتَلِفَ، وأمر بطَلَبِه، فلم يُوجد، فأعاد نَقْشَ خاتم جدِّه عبدِ الرحمن، بعد أن خرج نَصْرٌ الفَتَى من عند الأمير هذا بالخاتم للنقش، وبَعَثَ في عبد الله بن الشَّمِر الشاعر، وقال له: إنَّ الأمير أمَرَ بنقش هذا الخاتم، فقُلْ ما يُنْقَش فيه فقال: [من الرَّمل]:

خاتَمٌ للمُلْـكِ أضْـحَى ... حُكْمُه في النّاسِ مَاضِي
عابِـدُ الـرَّحمنِ فِيـهِ ... بقَـضَاءِ الله رَاضِي

فاستحسن ذلك الأميرُ عبد الرحمن، وأمَرَ بنقشها في الخاتم.

صِفَتُه: طويل، أسمر، أقْنَى، أعْيَن، أكْحَل، عظيمُ اللحية، يخضب بالحِنّاء والكَتَم.

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥، وجذوة المقتبس ٣٠، وتاريخ الإسلام ٥/ ٨٦٢، ونفح الطيب ١/ ٣٤٤ وغيرها.

بويع بعد موت أبيه بيومٍ واحد، وذلك يوم الخميس لثلاثٍ بقين من ذي الحجَّة سنة ست ومئتين، وهو ابنُ ثلاثٍ وعشرين سنة وتسعةِ أشهر.

وتُوفِّي ليلةَ الخميس لثلاثٍ خَلَوْن من شهر ربيعٍ الآخر سنة ثمان وثلاثين ومئتين. عمرُه: اثنتان وستون سنة. خلافتُه: إحدى وثلاثونَ سنة وثلاثةُ أشهر وستَّة أيَّام.

بنوه الذكور: خمسة وأربعون، وبناته: اثنتان وأربعون.

وفي سنة سبع ومئتين: ثارت بتُدْمِيرَ فتنةٌ بين مُضَرَ ويَمَن، ودامت سبعَ سنين، فأغزى إليهم الأميرُ عبد الرحمن في هذا العام يحيى بنَ عبد الله بن خَلَف، ثمَّ كان يبعث إليهم المرَّةَ بعد المرَّة بالقُوَّاد، فيفترقون، فإذا قفلوا، عادوا إلى الفتنة. وكانت بينهم وبين يحيى بنِ عبد الله وقيعةٌ تُعرف بوقعة الـمُصَارة بلَوْرَقة، انتهى مبلغُ القَتْلَى فيهم إلى ثلاثةِ آلاف[1].

وفيها: كان بالأندلس جوعٌ شديدٌ، مات به كثيرٌ من الخَلْق[2].

وفي سنة ثمان ومئتين: كانت الغزاةُ المعروفة بغزاة أَلْيَة والقِلَاع، غزاها عبدُ الكريم بن عبد الواحد بالصائفة، واحتلَّ بالثغر، وتوافت عليه عساكرُ الإسلام، واختلفوا في الدخول على أيِّ بابٍ يكون إلى دار الشِّرك، ثمَّ اجتمعوا على أن يكون من باب أَلْيَة؛ إذ كان ذلك الباب أنكى للعدوِّ وأحسمَ لدائه، فاقتحموا من فَجٍّ يُقال له: جَرْنِيق، وكان وراءَه بسيطٌ للعدوّ، فيه خزائنُه وذُخْره. فوقع أهلُ العسكر على تلك البسائط، فاستصفَوْها، وعلى ذُخرِ تلك الخزائن، فانتهبوها، واستوعبوا خَرابَ كلِّ ما مرُّوا عليه من العمران والقُرَى، وأقفروها. وانصرف المسلمون غانمين ظافرين. والحمد لله[3].

وفي سنة تسع ومئتين: توفِّي عبدُ الكريم بن عبد الواحد، وكان قد أخذ في الحركة إلى أرض العدوّ، فاعتلَّ. وعوَّض منه الأمير عبدُ الرحمن بن الحكم أُمَيَّةَ بنَ مُعاوية بن هشام، فغزا بالصائفة إلى أُورِيط[4]، فاحتلَّ بها، وهي يومئذٍ للإسلام، فأخذ

---

(١) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٨٤.

(٢) نفسه.

(٣) الكامل لابن الأثير ٦/ ٣٨٤.

(٤) ينظر عنها مراصد الاطلاع ١/ ١٣١.

أَهْلَ الذنوب والرِّيَب، وعفا عن الباقين، ثمَّ تقدَّم إلى شَنْتَ بَرِيَّة وتُدْمِيرَ، وكان أبو الشمَّـاخ رئيسُ اليَمـانيَّة يقوم بدعوة الأمويين[1] على الـمُضَريَّة. وكانت بينهم وقعةٌ بمُرْسية كوقعةِ يوم الـمُصَارة بلَوْرَقة، فَنِيَ فيها من المسلمين أُمَمٌ. وكان انبعاثُ هذه الفتنة وسَبَبُها بين الـمُضَريَّة واليَمانيَّة على ورقةِ داليةٍ أَخَذَها مُضَريٌّ من جنان يَماني، فقتله اليَمانيُّ، فكان ذلك سببَ الحروب التي دارت بين الفريقَيْن، واتَّصلت أعوامًا، وكانت الدوائرُ تدورُ أكثرُها على اليَمانيَّةِ والقَتْلَى منهم، وذلك أحدُ عجائب الدهر.

وفي سنة عشر ومئتين: أمر الأميرُ عبد الرحمن ببُنيان الجامع بمدينة جَيَّان[2].

وفيها: كَتَبَ إلى عاملِ تُدْمِيرَ أن ينزل بمُرْسية ويتَّخذَها موطنًا، فكانت حينئذٍ موضعَ نزولهم وموضعَ قرارهم، وأَمَرَ بهدم مدينة أُلُّه من تدمير، ومنها ثارت الفتنة أوَّلًا[3].

وفيها: افتتح فَرَجُ بن مَسَرَّة[4] في أرض العدوّ حصنَ القلعة[5]، وكان مَسَرَّة عاملَ جَيَّان.

وفي سنة إحدى عشرة ومئتين: ثار طَوْرِيل بتَاكُرُنَّا، فأخرج إليه الأميرُ عبدُ الرحمن معاويةَ بن غانِم في حَشْدٍ، فظَفِرَ به، وقطع عادِيَتَه[6].

وفي سنة اثنتي عشرة ومئتين: غزا عُبَيْدُ الله بن عبد الله البَلَنْسِيُّ بالصائفة إلى دار الحرب، فجال في أرض العدوِّ حتَّى بلغ بَرْشِلُونة، وتردَّد في تَدْويخها وانتسافها ستِّين يومًا[7].

---

(١) في أ، م: «الأمين».

(٢) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) في ر٢: «ميسرة».

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٠.

(٦) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٦.

(٧) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٠٠.

وفي سنة ثلاث عشرة ومئتين: انقطعت الفتنةُ بتُدْمِير، واستُنزل أبو الشمَّاخ وغيرُه من القلاع، وانقطعت عادِيَتُهم، وصار أبو الشمّـاخ من وُلاة الأمير عبدِ الرحمن ومن ثِقَاته.

وفي سنة أربع عشرة ومئتين: ثار الضَّرَّاب بطُلَيْطُلَة، واسمُه هاشم، وسُمِّيَ الضرَّاب؛ لأنَّه لـمّا أحرق الحَكَمُ طُلَيْطُلَة، وأنزل أهلَها منها إلى السَّهْل، أخذ رهائنَهم، فدخل حينئذٍ هاشمٌ الضرَّاب قُرْطُبَة، وصار يَضرِبُ بالمِعْوَل في الحدَّادين أجيرًا؛ فعُرِف بالضرَّاب. ثمَّ خرجَ من قُرْطُبَةَ إلى طُلَيْطُلَة، فاستدعى أهلَ الشرِّ والفساد، وألَّبَهم، فتألَّب إليه منهم نَفَرٌ، فخرجوا يُغِيرون على العَرَب والبَرْبَر. وتسامع أهلُ الشرِّ به، فقطعوا إليه، حتَّى اجتمع له منهم جمعٌ عظيمٌ وخَلْقٌ كثيرٌ، فعلا ذِكْرُه، وانتشر صِيْتُه. وأوقع بالبَرْبَر بشَنْت بَرِيَّة، ودارت له عليهم دوائرُ. فأخرج الأميرُ عبدُ الرحمن إليه محمدَ بن رُسْتُم[1]، وأمَرَه بحربه، فحاربه في هذه السَّنة[2].

وفي سنة ست عشرة ومئتين: توافت الجنودُ لمحمَّد بن رُسْتُم عاملِ الثَّغْر، فناهضَ هاشمًا الضرَّاب. وكان قد تغلَّب على جانب الثغر. وكان الأمير عبدُ الرحمن قد استقصر محمَّدَ بن رُسْتُم في حقِّه، وكتب إليه يعنِّفه، فتقدَّم ابنُ رُسْتُم، والتقى مع هاشمٍ الضرَّاب، فوقعتْ بينهم حربٌ شديدةٌ أيَّامًا، ثمَّ انهزم هاشم، وقُتل هو ومَن كان معه، وكانوا آلافًا.

وفي سنة سبع عشرة ومئتين: حوصرت مَارِدةُ وضُيِّق عليها، حتَّى فرَّ عنها خَلْقٌ كثيرٌ، وقُتل منهم كثيرٌ.

---

(١) في النسختين: «محمد بن وسيم»، وكذلك في جميع المواضع الآتية، وهو تصحيف بيّن، والمقصود هو محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم مولى الغمر بن يزيد بن عبد الملك، دخل أبوه إلى الأندلس، وكان محمد هذا بناحية الجزيرة واصطنعه عبد الرحمن بن الحكم في إمارته على شذونة من قبل أبيه الحكم، ثم لـمّا أفضت إليه الإمارة جعله حاجبًا ووزيرًا. وترجمته في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٢، وله أخبار في المقتبس لابن حيان ١٦٨، ٢٠٥، ٢١٩، وتوفي سنة ٢٣٥هـ.

(٢) الكامل لابن الأثير ٦/ ٤١٥- ٤١٦

وفي سنة ثمان عشرة ومئتين: كان الكسوفُ العظيم، الذي توارت معه الشمس وبدا الإظلامُ، وكان ذلك قَبْلَ زوال الشمس في أواخر رمضان.

وفيها: استوزر الأميرُ عبدُ الرحمن ابْنَ شُهَيْد واستَحْجَبه.

وفيها: قامت الزيادةُ في المسجد الجامع بقُرْطُبَةَ من الأرْجُل التي بين السواري إلى القِبْلة.

وفي سنة تسع عشرة ومئتين: غزا بالصائفة أُمَيَّةُ بن الحَكَم إلى طُلَيْطُلة وحاصرها، ثمَّ قَفَلَ العسكرُ بعد أن أتلف زروعَهم وقَطَعَ ثِمارَهم. وأبقى بقَلْعةِ رَبَاح مَيْسَرَةَ الفَتَى لـمُحاصرة طُلَيْطُلة، فخرج جمعٌ عظيمٌ من طُلَيْطُلة يريدون قَلْعةَ رَبَاح، فبلغه خبرُهم؛ فجَمَعَ الجموع، وكَمَنَ الكمائن. فلمّا قَرُبوا منها، وفرَّقوا خيلَهم في الغارة، خرجتْ عليهم الكمائنُ، فقُتلوا، وحُزَّت رؤُوسُهم، فجُمعت بين يدي مَيْسَرة، واجتمع منها جُملةٌ عظيمةٌ، فلمّا رأى ذلك، ارتاع وداخله الندمُ، فلم يلبثْ بعد ذلك إلَّا يسيرًا حتَّى مات ندمًا وأسَفًا[(١)].

وفي سنة عشرين ومئتين: غزا الأميرُ عبدُ الرحمن، فجعل صَدْرَ وجهته على طُلَيْطُلة[(٢)]، وولَّى أبا الشمَّـاخ قَلْعةَ رباح، وأبقى عنده خَيْلًا كثيفة ورَجْلًا كثيرة لمناهضة طُلَيْطُلة، وتقدَّم هو إلى كُوَر الغَرْب. وكان سُليمانُ بن مَرْتِينَ قد تحيَّل عليه يحيى المارِديُّ، فأخرجه من مَارِدَةَ، فكان في قُنَن الجبال حِينًا، فحلَّ عليه الأميرُ في هذه الغزاة، وحاصره حتَّى ضاقَ سليمانُ بن مَرْتِين في الحِصْن، فخرج ليلًا، فبَيْنا هو يمشي، إذ وافَقَ صخرةً ملساءَ على وجه الأرض، فزَلَقَ به الفرسُ، فسقط، ومات. ووجده رَجلٌ، فاحتزَّ رأْسَه، وادَّعى قَتْلَه، ثمَّ عُرف أمْرُه.

وفي سنة إحدى وعشرين ومئتين: افْتُتحت طُلَيْطُلة[(٣)]. وكان السببُ في ذلك أنَّ ابنَ مُهاجِر خرجَ عنها، ونزع إلى قَلْعة رَبَاح، واستدعى القُوَّاد، فخرجوا إليه،

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٦/ ٤٤٤.

(٢) الكامل ٦/ ٤٥٤.

(٣) ذكر ابن الأثير هذا في سنة ٢٢٢ (الكامل ٦/ ٤٧٥).

فنَهَضَ بهم إلى أبواب المدينة، وقطع عنهم مرافِقَهم. فكان ذلك من[1] أقوى الأسباب في افتتاحها. وكان عبدُ الواحد الإسْكَنْدَرانيُّ بعثه الأميرُ إليهم، فوجدهم قد بَلَغَ بهم الجَهْد. ثمَّ أطلَّ عليهم الأمير، فافتتحها قَهْرًا[2]، ودخلها على حُكْمه، وأمَرَ بتجديد القصر الذي كان بناه عَمْرُوس في أيام الحَكَم على باب الجَسْر. وقيل: إنَّ الذي افتتح طُلَيْطُلَةَ الوليدُ بن الحَكَم، وجَّهه إليها أخوه عبدُ الرحمن.

وفي سنة اثنتين وعشرين ومئتين: افتتحها عَنْوةً، ودخلها في شهر رجبٍ من هذه السنة على حُكْمه.

وفي سنة ثلاث وعشرين ومئتين: أغزى الأميرُ عبدُ الرحمن بن الحكَم أخاه الوليدَ بن الحَكَم إلى جِلِّيقِيَّة، فدخلَ من باب الغَرْب مع قَطيعٍ من العسكر، فدوَّخها. وكانت له فتوحاتٌ كثيرة.

وفي سنة أربع وعشرين ومئتين: أغزى الإمامُ عبدُ الرحمن ابنَه الحَكَم إلى دار الحَرْب[3]، وأمره بالتجوُّل في جهات الثغور؛ ليتعرَّف أخبارَها ومَصالحَها. وأمَرَ بإصلاح قَنْطرة سَرَقُسْطة. ودخل الحَكَمُ بالصائفة إلى دار الحرب، فدوَّخها، وقتَلَ من المشركين ما لا يُحصى. واجتمعَ مِنْ رؤُوسِهم أكداسٌ كالجبال، حتَّى كان الفارسُ يقف من ناحية، فلا يَرى صاحِبَه من ناحية أُخرى من عِظَمها[4].

وفيها: كانت رُجومٌ بالنجوم، في جُمادى الآخرة، وتناثرت الكواكبُ من قِبْلةٍ إلى جوفٍ، ومن شرقٍ إلى غربٍ، بجزيرة الأندلُس.

وفي سنة خمس وعشرين ومئتين: غزا الإمامُ عبدُ الرحمن بنفسه أرضَ جِلِّيقِيَّة[5]. ففتح حصونَها، وجال في أرضها. وطالت غَزاتُه، وتَعِبَ كَثيرًا، فأرِقَ في بعض الليالي،

---

(١) من ر٢.

(٢) في ر٢: «قسرًا».

(٣) ذكر ابن الأثير أن عبد الرحمن أغزى في هذه السنة عبيد الله ابن البلنسي (الكامل ٦/ ٥٠٧).

(٤) في ر٢: «لعظمها».

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥١٦.

فلمّا كان في بعض الليل، حضر عبدُ الله بن الشِّمْر[1] الشاعر، فوصف له أرَقَه، وأنَّه تذكَّر بعضَ مَن حنَّ إليه، فقال عبدُ الله بن الشِّمْر [من المتقارب]:

عَـدَانِيَ عَنْـكَ مَـزَارُ العِـدَى ... وقَـوْدِي إلـيهم لُهَامًـا مَهِيبَـا

وكَـمْ قَـدْ تَعَـسَّفْتُ مـن سَبْسَبٍ ... وجـاوَزْتُ بعـد دُروبٍ دُرُوبَـا[2]

وأدَّرِعُ النَّقْـعَ حتَّـى لَبِسْـ ... ـتُ مِن بَعْدِ نَضْرةِ وَجْهِي شُحُوبَا

أُلاقِـي بـوَجْهِي سُمُومَ الهَجِيرِ ... وَقَـدْ كـادَ مِنْـه الحَصَى أن يَذوبَا

أنـا ابـنُ الهِشامَيْن مِـن غالِـبٍ ... أَشِـبُّ حُرُوبًـا وأُطْفِـي كُروبَـا[3]

وبي ادَّرَكَ اللهُ دِيـنَ الهُـدى ... فأَحْيَيْتُـهُ واصْـطَلَمْتُ الـصَّلِيبَا

سَـمَوْتُ إلى الـشِّرْكِ في جَحْفَـلٍ ... مَـلأْتُ الحُـزُونَ بِـهِ والسُّهُوبَا

وفي سنة ست وعشرين ومئتين: غزا بالصائفة إلى جِلِّيقِيَّة من بلاد العدوِّ مُطَرِّفُ بن عبد الرحمن، فتوسَّط بَسِيطَهم، وذهبَ بنَعمتِهم، وكان القائدُ عبدَ الواحد بن يزيد الإِسْكَنْدَرانيَّ.

وفي سنة سبع وعشرين ومئتين: خرجَ عُبَيْدُ الله بن عبد الله صاحبُ الصوائف، فلمّا حصلَ بين أرْبُونةَ وسَرْطَانِيَة[4]، تَجالبَ الأعداءُ من كلِّ ناحية، وأحاطوا بالعسكر ليلًا؛ فقاتلهم المسلمون الليلَ كلَّه، فلمّا انبلجَ الضوءُ، أيَّدَ اللهُ المسلمين، وهَزَمَ الأعداءَ[5].

وفي سنة ثمان وعشرين ومئتين: خرج الأميرُ عبدُ الرحمن بنفسه إلى أرض العدوّ، وخلَّف في القصر ولدَه الـمُنْذِر، وجعل على مَيْمنتِه ولدَه محمَّدًا، وعلى الـمَيْسَرة ولدَه

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٠٩ (٦٨٩).

(٢) في ر٢: «ولاقيت بعد دؤوب دؤوبا».

(٣) في ر٢: «حروبا».

(٤) انظر عنها الروض المعطار ١/ ٣١٥.

(٥) الكامل لابن الأثير ٦/ ٥٢٩.

الـمُطَرِّف. فلقيَ جيشًا كبيرًا من المشركين، فناشَبَهم الحرب، فأنزل اللهُ نَصْرَه على المسلمين، وهَزموا المشركين، وأثخنوا فيهم القتل[١]. وأفاءَ اللهُ على المسلمين من ذَراري أهلِ بَنْبَلُونة[٢] وخيلِهم وأسْلِحَتِهم ما عَظُمَ به مِنَ الله سبحانه المنُّ. وقَفَلَ عزيزًا[٣] في منتصف شوَّال، وكان خروجُه من قُرْطُبَةَ لتسعٍ بَقِيْن من شعبان.

وفي سنة تسع وعشرين ومئتين: خرج الأميرُ عبدُ الرحمن لمحاصرة موسى بن موسى بتَطِيلة، فدوَّخ بلادَه، ثمَّ صالحَه. ثمَّ تقدَّم إلى بَنْبَلُونة، فكانت له بها وقعةٌ عظيمةٌ على المشركين، فَنِيَ فيها أعداءُ الله، وكان معهم موسى بن موسى، فناله ورجالَه ما نالَهُم[٤].

وفيها: ورد كتابُ وَهْبِ الله بن حَزْم عامِلِ الأُشْبُونة، يذكرُ أنه حلَّ بالساحِلِ قِبَلَه أربعةٌ وخمسون مَرْكَبًا من مراكِب الـمَجُوس[٥]، معها أربعةٌ وخمسون قاربًا، فكتب إليه الأميرُ عبد الرحمن وإلى عُـمَّال السواحِل بالتحفُّظ.

دُخُول الـمَجُوس إشبيلِيَة في سنة ثلاثين ومئتين

فخرج الـمَجُوسُ في نحوِ ثمانين مَرْكبًا، كأنَّمـا ملأت البحرَ طَيْرًا جُوْنًا، كما ملأت القلوب شجْوًا وشُجُونًا، فحَلُّوا بأُشْبُونة، ثمَّ أقبَلوا إلى قادِس إلى شَذُونة، ثمَّ قدموا على إشْبِيلِيَة، فاحتلُّوا بها احتلالًا ونازلوها نِزالًا، إلى أن دخلوها قَسْرًا، واستأصلوا أهلَها قَتْلًا وأسرًا. فبقُوا بها سبعةَ أيَّام، يَسْقون أهْلَها كأْسَ الـحِمام. واتَّصل الخبرُ بالأمير عبد الرحمن، فقدَّم على الخيل عيسى بنَ شُهَيْد[٦] الحاجبَ، واتَّصل

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨.

(٢) انظر عنها الروض المعطار ١٠٤.

(٣) في م: «غزيرًا».

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨.

(٥) كان المسلمون هنا يطلقون لفظة: «المجوس» على النورمان؛ لأنهم كانوا إذا أغاروا على موضع أشعلوا فيه النيران.

(٦) في ر٢: «سعيد».

المسلمون به اتّصَالَ العَيْنِ بالحاجب. وتوجَّه بالخيل عبدُ الله بن كُلَيْب وابنُ رُسْتُم[1] وغيرُهما من القُوَّاد، واحتلَّ بالشَّرَف. وكتب إلى عُمَّـال الكُوَر في استنفار الناس، فحلُّوا بقُرْطُبة، ونفَّر بهم نَصْرٌ الفتَى. وتوافت للمَجُوس مَراكبُ على مَراكب، وجعلوا يَقتُلون الرِّجال، ويَسْبُون[2] النساءَ، ويأْخذون الصِّبيان، وذلك بِطُول ثلاثةَ عشر يومًا؛ ذكر ذلك في «بَهْجة النَّفْس». وفي كتاب «دُرَر القَلَائِد»: سبعة أيَّام، كما تقدَّم. وكانت بينهم وبين المسلمين مَلاحِمُ. ثمَّ نهضوا إلى قَبْطِيل[3]، فأقاموا بها ثلاثةَ أيَّام، ودخلوا قُورَة[4]، على اثني عشر ميلًا من إشبيلية، فقَتلوا من المسلمين عَددًا كثيرًا، ثمَّ دَخَلوا إلى طَلْيَاطَة، على ميلَيْن من إشبيلية، فنزلوها ليلًا، وظهروا بالغداة بموضعٍ يُعرف بالفَخَّارِين، ثم مَضَوْا بمراكبهم، ونزلوا جوبا من إشبيلية، فتراحَوْا عن مراكبهم[5]، واعتركوا مع الـمُسلمين، فانهزم المسلمون، وقُتل منهم ما لا يُحصى. ثمَّ عادوا إلى مراكبهم، ثمَّ نهضوا إلى شَذُونَة، ومنها إلى قادِس، وذلك بعد أن وجَّه الأميرُ عبد الرحمن قُوَّاده، فدافَعَهم ودافعوه، ونُصبت الـمَجَانِيقُ عليهم، وتوافت الأمدادُ من قُرْطُبة إليهم؛ فانهزم الـمَجُوس وقُتل منهم نحو من خمس مئة عِلْج، وأُصِيبَت لهم أربعةُ مراكبَ بما فيها، فأمر ابنُ رُسْتُم[6] بإحراقها وبَيْعِ ما فيها من الفَيْء. ثمَّ كانت الوقعةُ عليهم بقَرْية طَلْيَاطَةَ يومَ الثلاثاءِ لخمسٍ بقِين من صَفَر من السنة، قُتل فيها منهم خَلْقٌ كثيرٌ، وأُحرق من مراكبهم ثلاثون مركبًا. وعُلِّقَ من الـمَجُوس بإشبيلية عددٌ كثيرٌ، ورُفع منهم في جُذُوع النَّخْلِ التي كانت بها. وركب سائرُهم مَراكِبَهم، وساروا إلى لَبْلة، ثمَّ توجَّهوا منها إلى الأُشْبُونة، فانقطع خَبَرُهم[7].

(١) في النسختين: «وسيم»، وقد تقدم الكلام عليه.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «قنطيل».

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٤١٢.

(٥) قوله: «ونزلوا جوبا» إلى هنا من ر٢.

(٦) في النسختين: «وسيم»، خطأ.

(٧) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٦ - ١٧ باختلاف.

وكان[1] احتلالُهم بإشبيلية يومَ الأربعاء لأربع عشرة ليلة خَلَتْ من المحرَّم من سنة ثلاثين ومئتين. وكان[2] بين دخولهم إلى[3] إشبيلية وخروج مَنْ بقي منهم[4] وانقطاعِهم اثنان وأربعون يومًا، فقتلهم اللهُ وأبادهم، ولـمّا قَتَلَ اللهُ أميرَهم، وأفنى عديدَهم، وفتح فيهم[5]، خرجت الكُتُب إلى الآفاق بخبرهم. وكتب الأميرُ عبد الرحمن إلى مَن بطَنْجَة من صُنْهاجة، يُعْلِمهم بما كان من صُنْع الله في الـمَجُوس، وبما أنزل فيهم من النِّقْمة والهَلَكة، وبعث إليهم برأس أميرهم وبمئتَيْ رأس من أنجادهم[6].

وفي سنة إحدى وثلاثينَ ومئتين: غزا بالصائفة إلى[7] جِلِّيقِيَّة محمَّدُ ابن الأميرِ عبدِ الرحمن، فحصرها، وحصر مدينةَ لِيُون[8]، ورماها بالمجانيق، فلمّا أيقنوا بالهلاك، خرجوا ليلًا، ولجؤُوا إلى الجبال والغِياض، فأحرق ما فيها، وأراد هَدْمَ سُورِها، فوجدهُ سبع[9] أو ثمان عشرة ذراعًا، فتركه، وأمعن في بلاد الشِّرك قتلًا وسَبْيًا.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومئتين: قحطت الأندلُسُ قحطًا شديدًا، وكانت فيها مجاعةٌ عظيمةٌ، حتَّى هَلكت المواشي، واحترقت الكُرُوم، وكثُر الجَراد[10].

وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين: أمر الأميرُ بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة مَيُورَقة؛ لنكايتهم، وإذلالهم، ومجاهرتهم بنقضهم العَهْدَ، وإضرارِهم بمن مَرَّ عليهم من

---

(١) من هنا إلى قوله: «ثلاثين ومئتين» ليس في ر٢.

(٢) في ر٢: «فكان».

(٣) ليست في ر٢.

(٤) في ر٢: «منها».

(٥) جاءت العبارة في ر٢ مختصرة كما يأتي: «ولما فتح الله فيهم هذا الفتح».

(٦) في ر٢: «أجنادهم».

(٧) من ر٢.

(٨) الروض المعطار ٥١٤.

(٩) في ر٢: «فوجد سعته»، وما هنا من أ، وهو الأصوب، ففي الكامل لابن الأثير: «سبع عشرة ذراعًا» (الكامل ٧/ ٢٤).

(١٠) المقتبس لابن حيان ١٤٣ (ط. محمود).

مَرَاكِبِ المسلمين. فغزَتهم ثلاث مئة مَرْكَب، فصنع اللهُ للمسلمين جميلًا، وأظفَرَهم بهم، وفتحوا أكثرَ جَزائرهم[١].

وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين المذكورة: توفِّي يحيى بنُ يحيى[٢]، فاستراح القُضاةُ من همِّه[٣].

وفي سنة خمس وثلاثين ومئتين: ورد كتابُ أهل مَيُورَقة ومِنُورَقة إلى[٤] الأمير عبدِ الرحمن، يذكرون ما نالهم من نِكاية المسلمين لهم[٥]، فكتب إليهم كتاباً أذْكُرُ هنا فُصولًا منه، وهو: أمَّا بَعْدُ، فقد بَلَغَنا كتابُكم، تذكرون فيه أمْرَكم، وإغارةَ المسلمين الذين وجَّهناهم إليكم لجهادكم، وإصابتَهم ما أصابوه منكم من ذَراريكم وأموالِكم، والـمَبْلَغَ الذي بلغوه منكم، وما أشْفَيْتُمْ عليه من الهلاك. وسألْتُمْ التَّدارُكَ لأمركم، وقَبولَ الجزية منكم، وتجديدَ عهدِكم على الـمُلازمة للطاعة، والنصيحةِ للمسلمين، والكفِّ عن مكروههم، والوفاءِ بما تَحْمِلونَه عن أنفسكم. ورجَوْنا أن يكون فيما عُوقِبتم به صلاحُكم، وقَمْعُكم عن العَوْد إلى مثل الذي كنتم عليه. وقد أعطيناكم عَهْدَ الله وذِمَّتَه.

وفيها: كان سيلٌ عظيمٌ بجزيرة الأندلُس[٦]، حَمَل واديَ شنيل[٧]، وخرَّب قَوسَيْن من حَنَايا قَنْطرة إسْتِجَة، وخرَّب السِّداد[٨] والأرحاءَ. وذهب السيلُ بستَّ عشرة قَرْيةً من قُرَى إشْبيلِيَة على النهر الأعظم. وحَمَل واديَ تاجُه، فأذهب ثمان عشرة قَرْيةً، وصار عَرْضُه ثلاثين مِيلًا[٩].

---

(١) المقتبس ١٤٣ (ط. محمود).

(٢) في ر٢ بعد هذا: «الليثي رضي الله عنه!».

(٣) في أ: «سمّه»، وانظر عنه مقدمتنا لكتاب «الموطأ» بروايته.

(٤) في ر٢: «على».

(٥) المقتبس ١٤٥ (ط. محمود).

(٦) في ر٢: «بالأندلس».

(٧) في م: «شيل»، وما هنا يعضده ما في المقتبس ١٤٦.

(٨) في م: «الأسداد».

(٩) المقتبس لابن حيان ١٤٦ (ط. محمود).

وفي سنة ست وثلاثين ومئتين: ثار رَجلٌ من البَرْبَر، يُقال له: حَبيب البُرْنُسيُّ، بجبال الجزيرة، وتأَبَّش إليه جماعةٌ من أهل الشرِّ والفَساد، فأخرج إليه عبدُ الرحمن الأجنادَ، فلمّا وصلوا إليه، ألفَوا البَرْبَر قد قَصَدوا حبيبًا ومَن تأَبَّش إليه، فتغلَّبوا على الـمَعْقِل الذي كان انضوى إليه، وأخرجوه عنه، وقَتلوا عِدَّةً كثيرةً من أصحابه، وافترق بقيَّتهم عنه، ودخل حبيبٌ في غِمار الناس؛ فكتب الأميرُ عبدُ الرحمن إلى عُـمَّال الكُوَر بالبحث عنه[1].

وفي سنة سبع وثلاثين ومئتين: قام رجلٌ من الـمُعَلِّمين بشَرْق الأندلُس، فادَّعى النُبوَّة، وتأوَّل القُرآنَ على غير تأْويله، فاتّبعه جماعةٌ من الغَوْغاءِ، وقامَ معه خَلْقٌ كثير. وكان من بعض شرائعه: النهيُ عن قَصِّ الشَّعرِ وتَقْليم الأظفار، ويقول: لا تغيير لخَلْق الله!، فبَعَثَ إليه يحيى بنُ خالد، فأُتِيَ به، فلما دخل عليه، كان أوَّلُ ما خاطَبَه به أن دَعاهُ إلى اتِّباعه والأخذِ بما شرع، فشاوَرَ فيه أهْلَ العِلْم، فأشاروا بأن يُستتاب، فإن تابَ، وإلَّا قُتِل، فقال: كيف أتوبُ من الحقِّ الصحيح! فأمَرَ بصَلْبه، فلمّا رُفع في الخَشَبة، قال: أتقتلون رجلًا أنْ يقولَ: ربِّيَ اللهُ! فصلبهُ، وكتب إلى الأمير بخبره[2].

وفي سنة ثمان وثلاثين ومئتين: تُوفِّي الأميرُ عبد الرحمن بن الحَكَم، رحمه الله، ليلةَ الخميس لثلاثٍ خَلَوْن من ربيع الآخر من السنة. وما زال يَقْتَنِي المآثِر ويبني المكارم والمفاخر، حتَّى قبضَتْه شَعُوب، وأرْداه مُرْدِي القبائل والشُّعوب[3].

ذكر بعض أخباره على الـجُمْلة وسِيَره

لـمَّا وَلِيَ الأميرُ عبد الرحمن، بَعَثَ في إخوته وأهله ووزرائه، فبايَعُوه، وبايعَتْه العامَّة. ثمَّ صلَّى على أبيه الحَكَم، فلمّا قَضَى صلاتَه وواراه، جلسَ بالأرض متطأْطئًا، ليس تحته وِطاءٌ، وجلسَ مَن كان معه، ثمَّ افتتح القول، فقال: الحمدُ لله، الذي جعل

(١) المقتبس لابن حيان ١٤٨ (ط. محمود).

(٢) المقتبس ١٥٧ (ط. محمود).

(٣) المقتبس ١٥٨ (ط. محمود).

الموتَ حَتْمًا من قضائه، وعَزمًا من أمْرِه، وأجرى الأُمورَ على مشيئته، فاستأثر بالـمَلَكُوت والبقاء، وأذلَّ خَلْقَه بالفناءِ، تبارك اسمُه وتَعَالَى جَدُّه، وصلَّى الله على محمَّدٍ نبيِّه ورسوله، وسلَّم تسليمًا. وكان مُصابُنا بالإمام، رحمه الله، ممَّا جلَّت به الـمُصيبة، وعَظُمَتْ به الرزيَّة، فعند الله نحتسبُه، وإيَّاه نسأل إلهامَ الصبر، وإليه نرغبُ في كمال الأجْر والذُّخْر[1]. وعَهِدَ إلينا فيكم بما فيه صلاحُ أحوالكم، ولسنا مـمَّن يُخالفُ عَهْدَه، بل لكم لدينا الـمَزِيدُ إن شاء الله. ثمَّ قام عنهم، وخَرَجت لهم الأموالُ والكُسا على قَدْر أقدارهم.

وكان شاعرًا، أديبًا، ذا همَّة عالية. وكانت له غَزَواتٌ كثيرة، وفتوحات في دار العدوِّ شهيرة، يخرج إليها في العَدد الجَمّ، والعسكرِ الضخم، يخرِّب ديارَهم، ويُعفِي آثارَهم، ويَقفِلُ[2] ظاهرَ الاعتلاءِ، قاهر الأعداءِ. لم يَلْقَ المسلمون معه بُؤْسًا، ولم يرَوْا في مُدَّته يومًا عُبوسًا. وهو أوَّلُ مَن جرى على سَنَن الخلفاءِ في الزِّينة والشكل، وترتيبِ الخدمة، وكَسا الخلافةَ أُبَّهَةَ الجلالة؛ فشيَّد القصور، وجلبَ إليها المياه، وبنى الرَّصِيف، وعمل عليه السَّقَائف[3]، وبنى المساجدَ الجوامع بالأندلُس، وعمل السِّقاية على الرَّصيف وأحدث الطُّرُز، واستنبط عَمَلَها، واتَّخذ السِّكَّة بقُرْطُبة، وفَخُمَ مُلْكُه.

وفي أيَّامه دخل الأندلُسَ نفيسُ الوِطاءِ وغرائبُ الأشياء، وسِيقَ ذلك إليه من بَغْدادَ وغيرِها. وعندما قُتِل محمَّدٌ الأمين، ابنُ هارون الرشيد، وانتُهِب مُلْكُه، سِيْقَ إلى الأندلُس كلُّ نفيس غريب من جَوْهرٍ ومَتَاع. وقُصِد بالعِقْد المعروف بعِقْد الشِّفَاء، وكان لزُبَيْدة أمِّ جعفر.

ومن مآثِره: أنَّه كان وَرَدَ عليه يومًا أموالٌ من بلاده، لعَطِيَّات أجناده، فأدخلت إليه وجُعلت الخرائطُ بين يديه. وكان بَعَثَ فتيانَه، فخلا مَجْلِسُه إذ ذاك، ولم يَبْقَ أحدٌ

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «ويرجع».

(٣) في ر٢: «السقايات»، وسيأتي عمل السقاية على الرصيف.

هناك، حاشَى فتًى كان بين يديه واقفًا، وعلى خدمته الخاصَّة عاكفًا، فغَشِيَت الأميرَ عبدَ الرحمن نَعْسة، ظنَّها الفتى نُـهْزةً وخُلْسة، فقبض على خَريطةٍ من ذلك المال، وأسدل عليها كُمَّه أسْبَغَ إسدال، والأميرُ يُلاحظه بطَرْفٍ خَفِيّ، ويصمتُ عنه صَمْتَ بَرٍّ حَفِيّ، ففازَ الفتى بماله، وناطَ به أسبابَ آماله، فلمّا رجع الفتيان، أمَرَهم الأميرُ عبد الرحمن برفع تلك الخرائط المبسوطة، فوجدوا نقصانَ تلك الخريطة، فتدافعوا فيها إذ ذاك، كلٌّ يقول لصاحبه: أنت أخذتَها من هناك، فقال لهم الأمير: اسْكُتوا عن هذا! فقد أخذها مَن لا يردُّها، وعايَنَه مَن لا يقولها. فكان هذا مـمَّـا عُدَّ من كَرَمِه وفَضْله.

وكانت له جاريةٌ تسمَّى طَرُوب[1]، كان بها دَنِفًا، فصدَّتْ عنه يومًا، وأبْدَتْ هِجْرانه، فأرسل فيها، فامتنعتْ عليه، وأغلقتْ على نَفْسِها بيتًا؛ فأمر ببنيان الباب بالخرائطِ المملوءة من الدَّراهم؛ استرضاءً لها، واستعطافًا لوَصْلها. فلمّا فتحت البابَ، تساقطت الخرائطُ من كلِّ جانب، فأخذَتها، فألْفت فيها نحوًا من عشرين ألفًا، وأمر لها بعِقْد قيمته عشرةُ آلاف دينار، فجعل بعضُ مَن حَضَر من وزرائه يعظِّم الأمرَ عليه، فقال الأمير عبدُ الرحمن: إنَّ لابسَه أنفسُ منه خَطَرًا وأرفع قَدْرًا! ولئن راق من هذه الحَصْباء منظرُها، ورصف في النفس جوهرُها، فلقد بَرَأ الله من خَلْقِه جوهرًا يَغشى الأبصار، ويَذهَبُ بالألباب. وهل على وجهِ الأرض من زَبَرْجَدها وشريفِ جَوْهرها أقَرُّ لِعَيْن، وأجْمَعُ لزَيْن، من وَجْهٍ أكملَ اللهُ فيه الحُسْنَ ونضرتَه، وألقى عليه الجمالُ بَهْجتَه؟ ثمَّ قال لعبد الله بن الشِّمْر الشاعر وكان حاضرًا: هل يَحْضُرُك شيءٌ في المعنى؟ فأنشد [من الطويل]:

أَتُقْـرَنُ حَـصْباءُ اليَواقِيـتِ والـشَّذْرِ ... بِمَنْ يَتَعَالَى عن سَنَا الشَّمْسِ والبَـدْرِ
بِمَنْ قَدْ بَرَتْ قِـدْمًا[2] يَـدُ الله خَلْقَـهُ ... ولم يَـكُ شَـيْئًا قَبْلَـهُ أَبَـدًا يَـبْرِي
فـأَكْرِمْ بـه مِـنْ صَـنْعةِ الله جَـوْهَرًا ... تَـضَاءَلَ عنـه جَـوْهَرُ الـبَرِّ والبَحْـرِ

---

(١) ترجمتها في التكملة الأبارية ٤/ ٢٢٣ ومصادر ترجمتها في التعليق عليها.

(٢) في ر ٢: «يومًا».

فأعجبت الأميرَ الأبياتُ وطرب لها طربًا شديدًا. وأنشد الأميرُ مُرْتَجِلًا [من الطويل]:

قَرِيضُكَ يَا ابْنَ الشِّمْرِ عفَّى على الشِّعْرِ ... وجَلَّ عن الأوْهامِ والذِّهْنِ والفِكْرِ
إذا شَافَهَتْهُ الأُذْنُ أدَّى بسِحْرِها ... إلى القَلْبِ إبداعًا فجَلَّ عن السِّحْرِ
وهلْ بَرأَ الرَّحمنُ من كُلِّ ما بَرَا ... أقَرَّ لِعَيْنٍ من مُنَعَّمَةٍ بِكْرِ
تَرَى الورْدَ فَوْقَ اليَاسَمِينِ بخَدِّها ... كما فُوِّقَ الرَّوْضُ المُنَعَّمُ بالزَّهْرِ
فلو أنَّني مُلِّكْتُ قَلْبِي ونَاظِرِي ... نَظَمْتُهُما مِنْها على الجِيدِ والنَّحْرِ

ثمَّ أمر لابن الشِّمْر ببَدْرة فيها خمسُ مئة دينار، فخرج مع الوصيف يحملُها له تحت إبْطه، فلمّا تَوَارَيَا عن الأمير، قال له الوصيف: أين لذَّاتُ العُمر، يا ابن الشِّمْر؟ فقال: تحت إبطك يا سَيِّدي!

ودخل عليه الغَزَالُ الشاعرُ يومًا، فقال الأمير [من الكامل]:

جاءَ الغَزَالُ بحُسْنِهِ وجَمَالِهِ

فقال له الوزير: أجِزْ ما بدأ به الأمير، فقال الغَزَال:

قالَ الأمِيرُ مُدَاعِبًا بِمَقَالِهِ ... جَاءَ الغَزَالُ بحُسْنِهِ وجَمَالِهِ
أيْنَ الجَمالُ من امْرِىءٍ أرْبَى عَلَى ... مُتَعَدِّدِ السَّبْعِينَ من أحْوالِهِ
وهلِ الجَمالُ لَهُ؟ الجَمالُ مِن امْرِئٍ ... ألقاهُ رَيْبُ الدَّهْرِ في أغْلالِهِ
وأعادَهُ من بَعْدِ جِدَّتِهِ بِلًى ... وأحالَ رَوْنَقَ وَجْهِهِ عن حالِهِ

وهي طويلة(١).

ومن قول الإمام عبدِ الرحمن(٢)، رحمه الله، يَصِفُ حالَ المَعْزُول، فأبْدَعَ [من الطويل]:

---

(١) «وهي طويلة» ليست في ر٢.
(٢) بعد هذا في ر٢: «ابن الحكم».

أرَى الـمَرْءَ بَعْدَ العَزْلِ يَرْجِعُ عَقْلُـهُ وقَـدْ كـان في سُـلْطَانِهِ لَـيْسَ يَعْقِـلُ
فتُلْفِيـهِ جَهْـمَ الوَجْـهِ مـا كـانَ وَالِيًا ويَــسْهُلُ عَنْــهُ ذَاكَ سَــاعَةَ يُعْــزَلُ

وكتب إليه بعضُ عُمّاله يسأله عملًا رفيعًا ليس من شاكِلته، فوقَّع له في أسفل كتابه: مَنْ لم يُصِبْ وَجْهَ مَطْلَبِه، كان الحِرْمانُ أولَى به. ومثل هذا كثيرٌ مـمَّا يدلُّ على فضله.

خلافة محمَّد بن عبد الرَّحمن بن الحَكَم بن هِشام[(١)]

كُنْيَتُهُ: أبو عبد الله.

أُمُّهُ: بُهَيْر[(٢)].

مَوْلِدُه: في شهر ذي القعدة سنة سبع ومئتين.

وزراؤُه وقُوَّادُه: اثنا عشر.

حُجَّابُه: اثنان: ابن شُهَيْد وابن أبي عَبْدة.

كُتَّابُه: ثلاثة: عبدُ الملك بن أُمَيَّة، وحامِد بن محمَّـد الزَّجَّاليُّ، وموسى بن أبان.

قُضاته: أحمد[(٣)] بن زِيَاد، ثمَّ عمرو[(٤)] بن عبد الله المعروف بالقُبَعة، ثمَّ سليمان[(٥)] بن أَسْوَد الغافِقيُّ.

نَقْشُ خاتمه: «بالله يَثِقُ مُحَمَّدٌ وَبِهِ يَعْتَصِم».

صِفَتُه: أبيضُ، مُشْرَبٌ بحُمْرةٍ، رَبْعةٌ، أوقصُ، وافرُ اللحية، يَخضِبُ بالحنَّاء والكَتَم.

بنوه: ثلاثة وثلاثون. **بناتُه**: إحدى وعشرون.

بويع يومَ الخميس لأربعٍ خلونَ لربيع الآخر سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومئتين، وهو ابنُ ثلاثين سنة وخمسة أشهر.

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥، وجذوة المقتبس ٣١، والمعجب ٤٩، وتاريخ الإسلام ٦/ ٦١٢، ونفح الطيب ١/ ٣٥٠.

(٢) في الجذوة: «تهتز»، وفي الكامل ٧/ ٧٠: «بهتر».

(٣) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٧٤، وتاريخ الإسلام ٧/ ٤٥٣.

(٤) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤١٤.

(٥) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٢٥٥.

وتوفِّي يومَ الخميس لليلةٍ بقيتْ من شهر صفر سنة ثلاث وسبعين ومئتين. عُمُرُه: خمس وستُّون سنة وأربعةُ أشهر. وكانت خلافتُه أربعًا وثلاثين سنة وعشرةَ أشهر وعشرين يومًا.

وفي سنة ولايته: ثار عليه أهلُ طُلَيْطُلة، وحبسوا العامِلَ عندهم، حتَّى أُطْلِقَتْ رهائنُهم من قُرْطُبة، وحينئذٍ أطلقوه.

وفي سنة تسع وثلاثين ومئتين: خرج الحَكَمُ ابن الأمير عبدِ الرحمن إلى طُلَيْطُلة بالصائفة. وكانت قَلْعة رَبَاح قد أقْفَرَت؛ خوفًا من أهل طُلَيْطُلة؛ فاحتلَّها الحَكَم، وأمر ببنيان سُورها، واسترجاع مَن فرَّ من أهلها إليها[1].

وفيها: أخرج الأميرُ محمَّد إلى شَنْدُلة قاسمَ بن العبَّاس وتـمَّـام بن أبي العَطَّاف صاحبَ الخَيْل، ومعهما الحَشَم[2]، فلمَّا حلَّا بأنْدُوجَر، خرجتْ عليهم كمائنُ أهل طُلَيْطُلة، ووقعت الحربُ، وكَثُرَ القتلُ، فانهزمَ قاسمٌ وتـمَّام، وأُصيب ما في العسكر. وفي ذلك، يقولُ صَفْوانُ بن العبَّاس أخو قاسمِ المذكور [من مجزوء الرمل]:

ضَرَطَ القاسِــمُ يَوْمًــا   ضَرْطَــةً في القَــرَمِيطِ
مَاتَ مِنْها كـلُّ حُـوتٍ   كَانَ في البَحْرِ الـمُحيطِ

وكانت هذه الوقعةُ في شوَّال[3].

وفي سنة أربعين ومئتين: خرج الأميرُ محمَّدٌ بنفسه إلى طُلَيْطُلة في المحرَّم، فلمّا اتَّصل بأهلها ذلك، أرسلوا إلى أُرْدون بن أذْفُونْش صاحبِ جِلِّيقِيَّة، يُعْلِمونه بحركته ويستمدُّون به[4]، فبعث إليهم أخاه غَتْثُون[5] في جمع عظيم من النصارى. فلمّا اتَّصل ذلك بالأمير محمَّدٍ، وقد كان قارَبَ طُلَيْطُلة، أعمل الـحِيْلَةَ والكَيْد، واستشعر الـحَزْمَ، فعبَّأَ الجيوشَ، وكَمَّن الكمائنَ بناحية وادي سَلِيط، ثمَّ نَصَبَ الرُّدُود، وطلع في أوائل

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٧١.

(٢) «ومعهما الحشم» ليست في ر٢.

(٣) هذه الجملة ليست في ر٢.

(٤) في ر٢: «ويستمدونه».

(٥) في أ: «غثون» وهو Gaston.

العسكر في قِلَّةٍ من العَدَد. فلمّا رأى ذلك أهْلُ طُلَيْطُلة، أعلموا العِلْجَ بما عايَنُوه من قِلَّة المسلمين، فتحرَّك العِلْجُ فَرِحاً، وقد طَمِعَ في الظَّفَر والغنيمة وانتهازِ الفُرْصة[1]. فلمّا التقى الـجَمْعانِ، خرجت الكمائنُ عن يمينٍ وشمال، وتواترت الخيلُ أرسالاً على أرسال، حتى غَشِيَ الأعداءَ منهم ظُلَلٌ كالجبال؛ فانهزم المشركون وأهلُ طُلَيْطُلة، وأخذتهم السلاحُ، هذًّا بالسيوف، وطعنًا بالرماح، فقتل اللهُ عامَّتَهم، وأبادَ جماعتهم، وحِيزَ من رؤوسهم ممَّا كان في المعركة وحوالَيْها[2] ثمانيةُ آلاف رأس، وجُمِعَتْ ورُصِّعَتْ، فصار منها جبلٌ علاه المسلمون، يُكبِّرون ويُهلِّلون ويحمدون ربَّهم ويشكرون. وبعث الأميرُ محمَّدٌ بأكثرها إلى قُرْطُبة، وإلى سواحل البحر، وإلى العُدوة. وانتهى عَدَدُ من فُقِدَ منهم في هذه الوقعة إلى عشرين ألفًا. وكانت في شهر محرَّم من السَّنة[3].

وفي سنة إحدى وأربعين ومئتين: شحن الأميرُ محمَّدٌ قلعةَ رَبَاح وطَلَبِيرة بالـحَشَم، ورتَّب فيها الفُرْسان، وترك فيها عاملًا حارثَ بن بَزِيع[4].

وفيها: جدَّد الأمير محمَّدٌ طُرُزَ الجامع بقُرْطُبَةَ وأتقن نُقوشَه.

وفيها: حشدَ الأميرُ محمَّد، ودخلَ إلى ألَبة والقِلَاع، وبلغَ إلى أقصاها، وافتتحَ كثيرًا من حُصون الـمُشركين.

وفي سنة اثنتين وأربعين ومئتين: كتب الأميرُ محمَّدٌ إلى موسى بنِ موسى بحَشْدِ الثغور والدخولِ إلى بَرْشِلُونة، فغزا إليها، واحتلَّ بها، وافتتح في هذه الغزاة حِصْنَ طَرَّاجة، وهي من آخر أحواز بَرْشِلُونة[5]، ومن خُـمُسِ ذلك الحصن زِيدَت الزوائد في المسجد الجامع بسَرَقُسْطة، وكان الذي أسَّسه ونَصَبَ مِـحْرابَه حَنَشٌ الصَّنْعانيُّ رضي الله عنه، وهو من التابعين.

---

(١) «وانتهاز الفرصة» ليست في ر٢.

(٢) بعد هذا في ر٢: «فقط».

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ٧٣-٧٤.

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٠.

(٥) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨١-٨٢.

وفيها: وجَّه الأميرُ محمَّدٌ ابنَه الـمُنْذِرَ بالجيوش إلى طُلَيْطُلة، فحاصرها، وأقام عليها يَنْسِفُ معايشَها.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومئتين: كانت وقعةٌ عظيمةٌ في أهل طُلَيْطُلة؛ وذلك أنَّهم خرجوا إلى طَلَبيرة، فخرج إليهم قائدُها مسعودُ بن عبد الله العَريفُ، بعد أن كَمَّن لهم الكَمائن، فقتلهم قَتْلًا ذَريعًا، وبعث إلى قُرْطُبَةَ بسبع مئة رأسٍ من رؤوس[1] أكابرهم[2].

وفي سنة أربع وأربعين ومئتين: خرج الأميرُ محمَّدٌ بنفسه إلى طُلَيْطُلة، وعَدَدُهم قد قَلَّ، وحَدُّهم قد فَلَّ، بتواتُر الوقائع عليهم، ونزولِ المصائب بهم؛ فلم تكن لهم حربٌ إلَّا بالقَنْطرة. ثمَّ أمر الأميرُ بقطع القَنْطرة[3]، وجَمَعَ العُرَفاءَ من البنَّائين والـمُهَنْدِسين، وأداروا الحيلةَ من حيثُ لا يشعر أَهْلُ طُلَيْطُلة. ثم نُوزِلوا عنها، فبينما هم مجتمعون[4] بها، إذ اندقَّت بهم، وتهدَّمت نواحيها، وانكفأت بمن كان عليها من الـحُماة والكُماة، فغَرِقُوا في النهر عن آخرهم. فكان ذلك من أعظم صُنْع الله فيهم.

وفي سنة خمس وأربعين ومئتين[5]: دعا أهلُ طُلَيْطُلَةَ إلى الأمان، فعَقَدَه الأميرُ لهم، وهو الأمان الأوَّل.

وفيها: خرج الـمَجُوسُ أيضًا إلى ساحل البحر بالغَرْب، في اثنين وستِّين مركبًا، فوجدوا البحرَ محروسًا، ومَراكِبَ المسلمين معدَّةً، تجري من حائط إفْرَنْجة إلى حائط جِلِّيقِيَّة في الغرب الأقصى. فتقدَّم مركبانِ من مَراكِب الـمَجُوس، فتلاقت بهم المراكبُ المعدَّة، فوافَوْا هذَيْن المركبَيْن في بعض كُوَر باجة، فأخذوهما بما كان فيهما من الذهب والفضَّة والسَّبي والعُدَّة. ومرَّتْ سائرُ مَراكِب الـمَجُوس في الريف حتَّى انتهت إلى مَصَبِّ نَهْر إشبيلية في البحر، فأخرج الأميرُ الجيوش، ونفَّر الناسَ

---

(١) ليس في ر٢.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٨٣.

(٣) قوله: «ثم أمر الأمير بقطع القنطرة» ليس في ر٢.

(٤) في ر٢: «فبينا الخائنون مجتمعون».

(٥) في ر٢: «وفي سنة أربعين ومئتين»، خطأ.

من كل أوْب. وكان قائدَهم عيسى بنُ الحسن الحاجبُ. وتقدَّمت المراكبُ من مصبِّ نهر إشبيلية حتَّى حلَّت بالجزيرةِ الخضراء، فتغلَّبوا عليها، وأحرقوا المسجدَ الجامع بها، ثمَّ جازوا إلى العُدْوة، فاستباحوا أريافها، ثمَّ عادوا إلى ريف الأندلُس، وتوافَوْا بساحل تُدْمِير، ثمَّ انتَهَوا إلى حِصْن أُورِيُولة، ثمَّ تقدَّموا إلى إفْرَنْجة، فشتَوْا بها، وأصابوا بها الذراريَ والأموال، وتغلَّبوا بها على مدينةٍ سكنوها، فهي منسوبةٌ إليهم إلى اليوم، حتَّى انصرفوا إلى ريف بحر الأنْدَلُس، وقد ذهب من مراكبهم أكثرُ من أربعين مركبًا. ولَقِيَهم مَراكِبُ الأمير محمَّد، فأصابوا منها مركبَيْن بريفِ شَذُونة، فيها كثير من[1] الأموالُ العظيمة، ومضت بقيَّةُ مَراكِب الـمَجوس[2].

وفي سنة ست وأربعين ومئتين: أغزى الأميرُ محمَّدُ بن عبد الرحمن إلى أرض بَنْبَلُونة أحَدَ قُوَّاده، فخرج في هذه الغزوة خروجًا لم يَـخْرُجْ قَبْلَه مِثْلُه جمعًا وكثرةً، وكمالَ عُدَّة، وظهورَ هيبة[3]. وكان غرْسِيَةُ إذ ذاك مُتظافرًا مع أُرْدُون صاحب جِلِّيقِيَّة، فأقام هذا القائدُ يدوِّخ أرضَ بَنْبَلُونة[4]، مُتَرَدِّدًا فيها اثنين وثلاثين[5] يومًا، يُخرِب المنازل، وينسفُ الثمار، ويفتح القُرَى والحصون. وافتتح في الـجُملة حِصْنَ قَشْتِيل، وأخذ فيه فُرْتُونَ بنَ غَرْسِيَة المعروفَ بالأنْقَر، وقدم به إلى قُرْطُبة، فأقام بها محبوسًا نحوًا من عشرين سنة، ثمَّ ردَّه الأميرُ إلى بلده، وعُمرُ فُرْتُون مئة وستٌّ وعشرون سنة[6].

وفي سنة سبع وأربعين ومئتين، قال الرازيُّ: غزا محمَّدُ بن السَّلِيم أرضَ الحرب، وعامِلُ الثغر إذ ذاك عبدُ الله بن يحيى. وكان كَتَب موسى بنُ موسى يذكرُ ما نالَهُ ونالَ أهلَ بلدِه في إداختهم أرض الـجِلِّقِيِّين، وما وصل إليهم من النَّصَب، وسأل أن يكونَ دخولُ العسكر على غير ناحيته، فأُسعف في ذلك، ودخلت العساكرُ على غير بلده.

---

(١) قوله: «كثير من» ليس في أ، م.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٩٠.

(٣) في ر٢: «هيئة».

(٤) في م: «بنبلوبة»، مصحفة.

(٥) في ر٢: «وأربعين».

(٦) الكامل لابن الأثير ٧/ ٩٤.

وفي سنة ثمان وأربعين ومئتين: تقدَّم موسى بنُ موسى لمقاتلة ابنِ سالم في وادي الحِجارة؛ فنالَتْه جِراحٌ منعَتْه الركوبَ بعدها، وكانت سببًا لهلاكه؛ فتوفِّي في هذه السنة.

وفي سنة تسع وأربعين ومئتين: خرج عبدُ الرحمن ابن الأميرِ محمَّدٍ إلى حصون ألبَةَ والقِلَاع، وكان القائدَ عبدُ الملك بن العبَّاس، فافتتحها، وقَتَلَ الرِّجال، وهدم البُنيان، وانتقل في بسائطها من موضعٍ إلى موضع يَحطم الزروع، ويَقطع الثمار[1]. وأخرج أُرْدُون بن إذْفُونْش أخاهُ إلى مَضِيْق الفَجِّ؛ ليقطعَ بالـمُسلمين، ويتعرَّضَهم فيه، فتقدَّم عبدُ الملك؛ فقاتَلَهم على الـمَضِيق، حتَّى هزمهم وقَتَلَهم وبدَّدهم، ثمَّ وافَتْهم بقيَّةُ العساكر، وأظلَّتْهم الـخَيْلُ من كلِّ الجهات، فصَبَرَ أعداء الله صبرًا عظيمًا، ثمَّ انهزموا. ومنحَ اللهُ المسلمين أكتافَهم، فقُتلوا قتلًا ذَريعًا، وقُتل لهم تسعة عشر قَوْمَسًا من كبار قوَّادهم.

وفي سنة خمسين ومئتين: كملتْ مَقْصُورةُ المسجد الجامع بقُرطُبة، وبنَى فيها الأميرُ محمَّدٌ بنيانًا كثيرًا في القصر الكبير والـمُنَى[2] الخارِجةِ عنه. ولم تكن في هذه السنة صائفةٌ؛ استُغْنِيَ بالغزوة المتقدِّمة، وأُرِيحَ العسكرُ فيها.

وفي سنة إحدى وخمسين ومئتين: كانت غزوةُ ألَبَةَ والقِلَاعِ أيضًا.

هزيمة الـمَرْكَويز، أخزاه الله

خرج إلى هذه الغزاةِ عبدُ الرحمن بن محمَّد، وتقدَّم حتَّى حلَّ على نهر دُوَيْره، وتوالت عليه العساكرُ من كلِّ ناحية، فرتَّبها، ثمَّ تقدَّم، فاحتلَّ بفجِّ برذيش[3]، وكانت عليه أربعةُ حصون، فتغلَّب العسكرُ عليها، وغَنِمَ المسلمون جميعَ ما فيها وخرَّبوها، ثمَّ انتقل من موضعٍ إلى موضع، لا يمرُّ بمسكنٍ إلَّا خرَّبه، ولا موضعٍ إلَّا حرَّقه، حتَّى اتَّصل ذلك في جميع بلادهم. ولم يَبْقَ لرُذْرِيق صاحِبِ القِلَاع، ولا لرُذْمِير

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٢٥.

(٢) المنى، جمع مُنْية.

(٣) هكذا في النسختين ومعجم البلدان ١/ ٣٨١ وفي م: «برذنش».

صاحبِ توقة، ولا لغُنْدِشَلْب صاحب بُرجية، ولا لغُومِس صاحبِ مسانقة، حِصْن من حصونهم إلَّا وعمَّه الخرابُ. ثمَّ قصد الملَّاحة، وكانت من أجَلِّ أعمال رُذرِيق، فحَطَمَ ما حوالَيْها وعفَّى آثارَها.

ثمَّ تقدَّم يؤمُّ الخروجَ على فجِّ الـمَرْكَوِيز، فصُدَّ العسكرُ عنه، وتقدَّم رُذْرِيقُ بحشوده وعسكره، فحلَّ على الخندقِ المجاور للمَرْكَوِيز. وكان رُذْريقُ قد عانى تَوْعيرَه أعوامًا، وسخَّر فيه أهْلَ مملكته، وقَطَعَه من جانبِ الهضبة، فارتفع جُرْفُه، وانقطع مسلكُه، فنزل عبدُ الرحمن ابن الأمير محمَّدٍ على وادي إبْرُه بالعسكر، وعبَّأ القائدُ عبد الملك للقتال، وعبَّأ المشركون، وجعلوا الكمائنَ على ميمنة الدَّرْب وميسرته. وناهض المسلمون جموعَ المشركين بصدورهم، فوقع بينهم جلاد شديدٌ، وصدق المسلمون اللقاء، فانكشف الأعداءُ عن الـخَنْدق، وانحازوا إلى هضبةٍ كانت تَلِيهِ. ثمَّ نزل عبدُ الرحمن ابن الأمير محمَّدٍ، ونصب فُسْطاطَه، وأمَرَ الناسَ بالنزول وضَرْبِ أبْنِيَتِهم، فأقامت[1] المحلَّة. ثمَّ نهض المسلمون إليهم، فصدقوهم القتالَ، وضرب اللهُ في وجوه المشركين، ومَنَحَ المسلمين أكتافَهم، فقُتلوا أبرح قَتْل، وأُسِرَ منهم جموعٌ. واستمرُّوا في الهزيمة إلى ناحية الأهْزُون، واقتحموا نهرَ إبْرُه بالاضطرار في غير مخاضةٍ، فمات منهم خَلْقٌ كثيرٌ غَرَقًا. وكان القتلُ والأسر فيهم من ضُحى يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلةً خلت من رَجَبٍ إلى وقت الظُّهر. وسَلَّم اللهُ المسلمين ونَصَرَهم على المشركين. وكان قد لجأ منهم إلى الوَعْر والغِياض، عندما أخذتْهم السيوفُ، جموعٌ، فتُتُبِّعوا وقُتلوا، ثمَّ هُتِكَ الخندقُ وسُوِّي حتَّى سَهُلَ، وسلكه المسلمون غيرَ خائفين ولا مُضْغَطين. وأعظم اللهُ الـمِنَّة للمسلمين بالصُّنْع الجميل، والفتحِ الجليل. والحمدُ لله ربِّ العالمين. وكان مبلغُ ما حِيزَ من رؤُوس الأعداء في تلك الوقيعة عشرين ألفَ رأس وأربعَ مئة رأس واثنين وسبعين رأسًا[2].

وفي سنة اثنتين وخمسين ومئتين: خرج عبدُ الرحمن ابن الأمير محمَّدٍ غازيًا إلى ألَبة والقِلَاع، فحارب أهلَها، وأفسد زروعَها، وغادرها هَشِيمًا. وكان أهلُ هذا الجانب

(١) في ر٢: «فقامت».

(٢) في الكامل لابن الأثير: «ألفين وأربع مئة واثنين وتسعين رأسًا» ٧/ ١٦٣.

في ضَعْف ووَهْن شديدٍ ألجأهم إلى المنع من التجمُّع والاحتشَاد؛ لِـمَا نالهم في العام الفارطِ من النَّهب والقتلِ الذَّريع[1].

وفي سنة ثلاث وخمسين ومئتين: خرج الـحَكَمُ ابن الأمير محمَّدٍ غازيًا إلى جَرْنِيق، فجال في أرض الأعداء، وحلَّ على حِصْنِ جَرْنِيق، وحاصره حتَّى فتحه عَنْوةً[2].

وفيها: كانت بالأندلس مجاعةٌ عظيمةٌ متواليةٌ.

وفي سنة أربع وخمسين ومئتين: خرج الأميرُ محمَّدٌ إلى مَارِدة، وأظهر أنَّ استعدادَه لطُلَيْطُلة. وكان بمارِدةَ قومٌ من الـمُنْتَزِين[3]. فلمّا فَصَلَ من قُرْطُبة، وتقدَّم بالمحلَّات إلى طريق طُلَيْطُلة، نَكَبَ إلى مارِدة، فاحتلَّ بهم، وهُمْ في أمنٍ وعلى غَفْلة، فتحصَّنوا في المدينة أيَّامًا. ثمَّ ناهَضَ القَنْطرة، فوقع القتالُ، واشتدَّ الحرب حتَّى غلبوا عليها، فأمر الأميرُ بتخريب رِجْل منها، فكان ذلك سَبَبًا لإذعان أهل مارِدة، فطاعوا على أن يخرجَ فرسانُهم، وهم يومئذٍ: عبدُ الرحمن بن مروان، وابن شاكِر، ومكحول، وغير هؤُلاء، وكانوا أهْلَ بأسٍ ونَجْدة وبَسالة مشهورة. فخرج المذكورون ومَن هو مِثْلُهم إلى قُرْطُبَةَ بعيالهم وذَراريهم. وولَّى عليها سعيدَ بن عبَّاس القُرَشيَّ، وأمر بهَدْمِ سورها، ولم تَبْقَ إلَّا قَصَبَتُها لمن يَرِدُ من العُمَّال فكان[4] ذلك سببَ خرابها، وكانت إحدى القواعد الأربع.

وفي سنة خمس وخمسين ومئتين: خرج الـحَكَمُ ابن الأمير محمَّد، وقصد مدينةَ سُرْيَة، وكان قد تغلَّب بها سُليمانُ بن عَبْدُوس، وخالَفَ فيها، فبادَرتْه الصّائفة، وحلَّت به العساكر، وأحدقتْ بالمدينة، ورُميت بالمجانيق، حتَّى هُتِكَتْ أسوارُها؛ فقام أهلُها على سُليمانَ بن عَبْدُوس، فطاعَ، ونزل؛ فقُدِمَ به قُرْطُبة، فسكنها.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٧٧.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٨٤.

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ١٨٩ باختلاف.

(٤) من هنا إلى نهاية الفقرة من ر٢.

وفي سنة ست وخمسين ومئتين: غدرَ عَمْرُوسُ عامِلَ وشْقةَ وملكها، وظهرتْ عاديتُه في الثَّغْر، فأخرج الأميرُ إليه قَطيعًا من الـحَشَم والعُدَّة، وقصدَ بها لاردِةَ ابنُ مُجاهِد المعروف بالتُّدْمِيريْ، فلزمها. وحشد عبدُ الوهَّاب بن مُغِيث الحشودَ، وقدَّم عليهم عبدَ الأعلى العريفَ، وبعثه إلى وشْقة. فلمّا بلغ عَمْرُوسَ خَبَرُه، خرج عن وشْقة، وأُسِرَ بها لُبُّ بن زكريَّا بن عَمْرُوس، وكان أحَدَ قَتَلَةِ عامِلِ السلطان بها موسى بنِ غَلِنْدُ، فقُتِل لُبٌّ وعُلِّق من السُّور.

وفي سنة سبع وخمسين ومئتين: خرج إلى الثَّغْر عبدُ الغافِرِ بن عبد العزيز، وكان بتَطِيلَة. فقَبَضَ على زكريَّا بنِ عَمْرُوس وعلى أولاده وجماعةٍ من أهل بيته، ونزل بهم على باب مدينة سَرَقُسْطة، وقَتَلَهم بها، وقَفَلَ إلى قُرْطبةَ بالرؤُوس.

وفي سنة ثمان وخمسين ومئتين: كانت في الثَّغْر ثَوْرات وحَركات، منها: أنَّ مُطَرِّفًا وإسماعيلَ ابنَيْ لُبّ، ويونُسَ بن زنباط غَدَروا بعبد الوهَّاب بن مُغِيث، عامِلِ تَطِيلة، وابنِه محمَّد عامِلِ سَرَقُسْطة، فتقبَّضوا عليهما، وملكوا في هذا العام الثَّغر. وكان تَوثَّب[1] مُطَرِّفٌ على عبد الوهاب[2] في صَفَر، ودخل إسماعيلُ سَرَقُسْطةَ في ربيع الأوَّل.

وفي سنة تسع وخمسين ومئتين: خرج الأميرُ محمد بنفسه إلى الثَّغر، وحلَّ في وِجهته بطُلَيْطُلة، وأخذ رهائنَهم، وعقد أمانَهم، وقاطَعَهم على قطيعٍ من العُشور يؤدُّونه في كلِّ عام، وهو الأمانُ الثّاني. واختَلفت أهواؤهم في عُمّالهم، فطلب قومٌ منهم تَوْلية مُطَرِّف بن عبد الرّحمن، وطلب آخرون تَوْليةَ طريشة[3]، فوليَ كلٌّ واحد منهما جانبًا، وتقسَّما المدينةَ وأقاليمها على حُدودٍ مفهومةٍ معلومةٍ، ثمَّ تنازعا، وأراد كلُّ واحد منهما الانفراد بمُلْك طُلَيْطلة، ثمَّ غلب الدّاعُون إلى تقديم طريشة ابنِ ماسوية، وتأخيرِ مُطَرِّفٍ المذكور.

---

(١) في م: «توفي»، وهو تحريف.

(٢) قوله: «على عبد الوهاب» من ر ٢.

(٣) هكذا في النسختين والكامل لابن الأثير ونهاية الأرب، وقد غيرها ناشرو الأوربية إلى: «طربيشة» بزيادة باء موحدة.

وكان الأميرُ محمَّد تتلقَّاه في وجهته هذه، في الارتحال والاحتلال، طلائعُ الظَّفَر، وبوادرُ النُّجح والنَّصْر. وتحوَّل في الثَّغر مُحاصرًا لبني موسى، ومُضَيِّقًا عليهم. ثمَّ تقدَّم إلى بَنْبَلُونة؛ فوَطِئ أرضَها، وأذلَّ أهلَها، وخرَّبها؛ ثمَّ قفل؛ فحلَّ بقُرْطُبة، ومعه جماعةٌ من الثُّوَّار النَّاكثين الـمُفسِدين. فلمّا أخذ راحتَه، أمر بقتلِ مُطَرِّف بن موسى وبَنيه، وأمر بإطلاق كاتبهم، وكان لا ذَنْبَ له. فلمَّا أُخرج مُطَرِّفٌ وبنوه للقتل، وأخرج كاتبُهم للإطلاق، وكان يُعرف بالأَصْبَحيّ، قال: لا خيرَ في العيش بعد هؤلاء! فقُدِّم للقتل قَبْلَهم، ورُفعتْ رؤُوسُهم[1].

وفي سنة ستين ومئتين: خرج الـمُنْذِرُ ابن الأمير محمَّد إلى سَرَقُسْطةَ وبَنْبَلُونة، وكان القائدَ هاشمُ بن عبد العزيز. فاحتلَّ سَرَقُسْطَة، وانتهبَ زروعَها، وأذهب ثمارَها وأشجارَها، ونقل أطْعِمتَها إلى وشْقة، وتقدَّم إلى بَنْبَلُونة، فجال في أرضها، وأتلف معايشَ أهلها.

وفيها: كانت المجاعةُ التي عمَّت الأَنْدَلُسَ، ومات فيها أكْثَرُ الـخَلْق[2].

وفي سنة إحدى وستين ومئتين: هرب ابنُ مروان الـجِلِّيقيُّ من قُرْطُبَةَ مع رجال مارِدةَ الـمُنْتَزين[3] منها، واستقرُّوا بقَلْعة الـحَنَش. فغزاه الأميرُ محمَّد، وحاصَرَهُ حِصارًا قَطَعَه وضيَّق عليه مدَّةً من ثلاثة أشهر، ألجأه فيها إلى أكْل الدَّوابِّ، وقَطَعَ عنه الماء، ورماه بالمجانيق، حتى أذعن، وطلب الأمانَ، وشكا ثِقَلَ الظَّهْر وضِيقَ الحال، فأباحَ له الأميرُ محمَّد الرحيلَ إلى بَطَلْيَوْسَ والحلولَ بها، وهي يومئذٍ قَرْيةٌ، فخرج إليها، وقفل عنه[4].

وفي سنة اثنتين وستين ومئتين: خرج الـمُنْذِرُ ابن الأمير محمَّد إلى ابن مروان، وكان القائدَ هاشمُ بن عبد العزيز[5]، وهو الذي كان سَبَبَ هروبِ ابن مروان؛ لأنَّه قال له من بين الوزراء: «الكَلْبُ خيرٌ منك!» وأمر بصَفْعِ قفاه، واستبلغ في خِزْيه،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٦٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٧٣.

(٣) في أ، م: «المنزلين».

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٨٨-٢٨٩.

(٥) تنظر عنه الحلة السيراء ١/ ١٣٧.

فهربَ مع أصحابه، وذلك في خبرٍ طويل. وكان ابنُ مروان قد ابتنى بطَلْيَوْسَ حِصْنًا، وجعله موطنًا، وأدخل فيه أهلَ مارِدةَ وغيرَهم من أهل الـمُكانفة له على الشَّرِّ. فلمّا انتهى إلى ابنِ مروان تحرُّكُ العسكرِ إليه، تنقَّل عن بطَلْيَوْس، وحلَّ بحِصْن كركر[١]، واجتمع أهْلُ مارِدةَ إليه فيه، فنزل العسكرُ بمَقْرُبة من الحصن[٢]. وكان هاشمٌ قد بعث إلى مُنْت شَلُوط خَيْلًا ورَجْلًا لضَبْطه. وكان سَعْدُون الرماريُّ[٣] قد دخل إلى بلاد الشِّرْك مُسْتَمدًّا، فجاء بمَدَدٍ من المشركين، وأظهر أنَّه في قِلَّة، فكتب بذلك[٤] عامِلُ حِصْنِ مُنْت شَلُوط إلى هاشم، فرأى هاشمٌ أنَّ ذلك فرصةٌ في سَعْدُون، فبادَرَ بالخروج من العسكر على غير تَعْبئَة ولا أُهْبة، في خيلٍ قليلةٍ. وأفحص هاشِمٌ، وجاوزَ الوَعْرَ، وأبعد عن العَسْكر؛ فأُخِذت المضايقُ عليه، وناشَبُوه القتال، فأخذَتْه جراحٌ، وقُتِلَ من أصحابه جماعةٌ، وأُسِرَ هاشِم المذكور. ولـمّا اتَّصل خبرُ هاشِم بالأمير محمَّد، وقع في جانبه، وقال: هذا أمْرٌ جَناهُ على نفسه بطَيْشه وعَجَلته. ثمَّ ردَّ ولده عِوَضًا منه. وحصل هاشِمٌ أسيرًا بيد ابنِ مروان الذي صفعه في أسْره في قُرْطُبة[٥]، فبرَّه ابنُ مروان، وأكرمه، وأحسن إليه[٦]، ولم يُعاقِبْه بما فعل معه.

وفي سنة ثلاث وستين ومئتين: خرج الـمُنذِرُ ابن الأمير محمَّدٍ، وجعل طريقَه على مارِدة، فلمّا انتهى ذلك إلى ابنِ مروان، زال عن بَطَلْيَوْس، واحتلَّ بها قائدُ الـمُنْذِر الوليدُ بن غانِم، فخرَّب ديارَها. وتقدَّم ابنُ مروان إلى بلاد العدوِّ.

وفي سنة أربع وستين ومئتين: حارب الـمُنْذِرُ سَرَقُسْطة، وأفسد ما ألْفَى من زروعها، ثمَّ تقدَّم إلى تُطِيلَةَ والـمَواضعِ التي صار فيها بنو موسى، فانتسفها، وأجال العسكرَ عليها[٧].

---

(١) هكذا في النسختين، والكامل لابن الأثير ٧/ ٣٠٦، ومعجم البلدان ٤/ ٤٥٣، وفي م: «كركي».

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٠٦.

(٣) في ر٢: «المرماري».

(٤) في ر٢: «وهرب».

(٥) في ر٢: «الذي صفعه وسبّه بقرطبة».

(٦) «وأحسن إليه» ليست في ر٢.

(٧) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٢٠-٣٢١.

وفيها: دخل البَرَّاءُ بن مالِك من باب قُلُنْبِرية إلى جِلِّيقيَّة بحشود الغَرْب، وتردَّد هنالك حتَّى أذهب نعيمَهم.

وفيها: انطلق هاشمٌ من الأسْر.

وفي سنة خمس وستين ومئتين: ظهرت الفتنةُ وظهر[1] الشَّرُّ في جانب كُورة رَيُّه والجزيرةِ وتاكُرُنَّا، وظهر يحيى المعروفُ بالـجَزِيريّ، فغزاه هاشم، فأذعن له، وقُدِمَ به إلى قُرْطُبة.

وفي سنة ست وستين ومئتين: خرج عبدُ الله ابن الأمير محمَّدٍ إلى كورة رَيُّه ونواحي الجزيرة، وبنى حُصونًا في تلك النَّواحي، ثمَّ قفلَ.

وفيها: أمَرَ الأميرُ محمَّدٌ بإنشاء المراكِب بقُرْطُبةَ؛ ليتوجَّه بها إلى البحر الـمُحِيط عبدُ الحميد الرُّعَيطيُّ المعروف بابن مُغِيث، وكان قد رفع إليه رافعٌ أنَّ جِلِّيقيَّة من ناحية البحر الـمُحِيط لا سُورَ لها، وأنَّ أهلَها لا يمتنعون من جيشٍ إنْ غَشِيَهم من تلك الناحية. فلمَّا كملت الـمَرَاكِب بالإنشاء، قُدِّم عبدُ الـحَمِيد بن مُغِيث عليها، فلمّا دخل البحر، تقطَّعت المراكبُ كلُّها وتفرَّقت، ولم يجتمع بعضُها إلى بعض. ونجا ابنُ مُغِيث[2].

وفي سنة سبع وستين ومئتين: التاثت الحصونُ الـمُبتناة برَيُّه وتاكُرُنَّا وجهةِ الجزيرة.

وفيها: ابتدأ شَرُّ اللَّعين[3] عُمَرَ[4] بنِ حَفْصُون، الذي أعيا الـخُلفاءَ أمْرُه، وطالت في الدُّنيا فتنتُه، وعظم شرُّه، فقام في هذه السَّنة على الأمير محمَّدٍ بناحية رَيُّه. فتقدَّم إليه عامرُ بن عامر، فانهزم عامرٌ وأسلم قُبَّتَهُ، فأخذها ابنُ حَفْصُون، وهو أوَّلُ[5] رِواق ضَرَبَه، فاستكنَّ إليه أهلُ الشرّ. وعزل الأميرُ عامِرًا عن كُورة رَيُّه، وولَّاها

---

(١) في ر٢: «وكَثُر».

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٣٤.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ترجمته في جذوة المقتبس (٦٨٨) والتعليق عليها.

(٥) في ر١: «وأخذ اللعين قبته فكان أول».

عبدَ العزيز بن عبَّاس، فهادَنَه ابنُ حَفْصُون، وسكنت الحالُ بينهما. ثمَّ عُزِل عبدُ العزيز، وتحرَّك ابنُ حَفْصُون، وعاد إلى ما كان عليه من الشرِّ. وخرج هاشِمُ بن عبد العزيز إلى كُورة رَيُّه يطلب كلَّ مَن كشف وجهَه في الفتنة وأظهر الخلافَ، وأخذَ رهائنَ أهلِ تاكُرُنَّا على إعطاءِ الطّاعة[1].

ومن العجائب في هذا العام، ما ذكره الرّازيُّ وغيرُه، قالوا[2]: زُلْزِلت الأرضُ بقُرْطُبَةَ زلزالًا شديدًا، وهاجت ريحٌ عند صلاة المغرب، فأثارت سَحابًا فيه ظُلُمات ورعدٌ وبَرْق، فصُعِقَ ستَّةُ نَفَر، وانقلبوا على ظهورهم، مات منهم[3] اثنان، وخَرَّ جميعُ الناس سُجّدًا إلّا الإمام، فإنَّه ثبتَ قائمًا، وكان الرجلانِ اللذان ماتا أقربَ الناس إلى الإمام، فاحترقَ شَعَرُ أحدهما واسودَّ وجهُه وشِقُّه الأيسر، والآخرُ ظهر بشقِّه الأيمنِ سوادٌ، والأربعةُ الصَّرْعَى مكثوا حتَّى فرغ الإمام من الصلاة[4]، فسُئِلوا عمَّا أحسُّوا، فقالوا: «أحْسَسْنا نارًا كأنَّها الموجُ الثقيل[5]»، ووجد أهْلُ المسجد رائحةَ النّار، ولم يُوجَدْ للصّاعقة أثَرٌ في سقفٍ ولا حائط. واهتزَّت لهذا الزلزال القصورُ والجبال، وهرب النّاسُ من القصور إلى الصّحارى، ضارعين إلى الله تعالى. وعمَّ هذا الزِّلزال من البحر الشاميِّ إلى آخر الجوف وإلى آخر أرض الشِّرْك، لم يَختلِف في ذلك مُـخْتَلِفٌ[6].

وفي سنة ثمان وستين ومئتين: خرج الـمُنْذِرُ ابن الأمير محمَّدٍ، والقائدُ هاشمُ بن عبد العزيز؛ فقصد الثَّغْرَ الأقصى، وحطَّم سَرَقُسْطة، وافتتح حصن رُوطَة، ثمَّ تقدَّم إلى ألْبَة والقِلَاع، وافتتح حصونًا كثيرةً، وأخلى حصونًا كثيرةً[7]؛ خوفًا من مَعرَّة العسكر، وتوقُّعًا من تغلُّبه[8].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٦١.

(٢) في أ، م: «قالا».

(٣) من ر٢.

(٤) «من الصلاة» «ليست في أ، م.

(٥) في ر٢: «لوح ثقيل».

(٦) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٦١.

(٧) قوله: «وأخلى حصونًا كثيرة» ليس في ر٢.

(٨) الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٦٩-٣٧٠.

وفيها: فسد ما بين الـمُنْذِرِ وبين الوزير هاشِمِ بن عبد العزيز.

وفي سنة تسع وستين ومئتين، قال الرّازي: وفي سنة تسع وستين ومئتين: غزا محمَّدُ بن أُميَّة بن شُهَيْد إلى كُورة رَيُّه وكورة إلْبيرة، وكانوا بحالِ توحُّش ونِفار، فسكَّن أحوالَ أهلها، وهدَّن الناسَ بها، ونظر في استنزال رجالٍ بجبال رَيُّه وغيرِها من بني رِفَاعة وغيرِهم.

وفي سنة سبعين ومئتين: استتمَّ محمَّدُ بن أميَّة بن شُهَيْد استنزالَ بني رفَاعة. وأتاه في هذه الغزاة كتابُ الأمير محمَّدٍ بتولية عبدِ العزيز بن العبَّاس كُورةَ إلبيرة، فولَّاه، وقفل.

وفيها: غزا هاشمٌ كُورةَ رَيُّه، واستنزل عُمَرَ بن حَفْصُون من جبلِ بَرْبُشْتر[1] وقُدِم به قُرْطُبَة، فأنزله الإمامُ، وأوسع له في الإكرام.

وفي سنة إحدى وسبعين ومئتين: هرب عمرُ بن حَفْصُون من قُرْطُبَة، ولجأ إلى جبل بَرْبُشْتر، فانتدب الأميرُ محمَّد إلى حربه، وحُوصِر في السنة الآتية[2].

وفي سنة اثنتين وسبعين ومئتين: خرج عبدُ الله ابن الأمير محمَّد، والقائدُ هاشمُ بن عبد العزيز، وقصد الغَرْبَ إلى ابن مروان، وهو بجبل أشْبَرَغُزَّة، فنازَلَه وحاربه[3].

قال حَيَّانُ بن خَلَف في عُمَر بن حَفْصُون: هو كبيرُ الثُّوَّار بالأنْدلُس، **ونَسَبُه**: عُمَرُ بن حَفْص، المعروف بحَفْصُون، ابن عُمَر بن جعفر بن شتيم بن ذُبيان بن فَرْغَلُوش ابن إذْفُونْش، من مُسَالِـمة الذِّمَّة، من كوُرة تَاكُرُنَّا من عَمَل رُنْدة. وكان الذي أسلم منهم جعفرُ بن شتيم؛ ففشا نَسْلُه في الإسلام. وكان له من الولد الذكور: عُمَرُ وعبد الرحمن، فوَلَدَ عمرُ بن جعفر حَفْصًا، وولد حَفْصُون هذا عُمَرَ هذا الثائرَ الملعون، فَعُمَرُ هذا هو الذي ثار على الأميرِ محمَّد أوَّلًا، ثم بلغ بعد ذلك في الشِّقاق والفِتَن مَبْلَغًا لم يبلغْه ثائرٌ بالأندلُس. واستوطن لأوَّل نِفاقه حِصْنَ بَرْبُشْتر قاعدةً وحضرةً، وهي[4] أمنعُ قِلاع

(١) ينظر الروض المعطار ٩٠، ومراصد الاطلاع ١/ ١٧٦.

(٢) الكامل لابن الأثير ٧/ ٤١٦-٤١٧.

(٣) الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٢٠-٤٢١.

(٤) في ر٢: «وهو».

الأندلُس قاطِبةً، وذلك[1] في هذه السَّنة، وهو تاريخُ صعودِه الآخر إليها الذي توطَّد له مُلْكُهُ فيه، وخالف على السُلطان حتَّى رضيَ عنه بالـمُتاركة. واتَّصلت أيَّامُه في ظهورٍ وعزَّة حتَّى قدَّم فيها ثلاثةً من خُلفاء المروانيِّين أئِمَّةِ الجماعة بالأندلُس، رحمهم الله، أوَّلُـهم هذا الأمير محمَّد، وتخلَّف بعدَهم إلى أن هلك على يد الرابع منهم، وهو عبدُ الرحمن النّاصر، على ما يأتي مُفَسَّرًا.

وفي سنة ثلاث وسبعين ومئتين: خرج الـمُنْذِرُ ابن الأمير محمَّد إلى كُورة رَيُّه، والقائدُ محمَّدُ بن جَهْوَر، فقصد مدينةَ الحامَّة، وفيها حارثُ بن حَمْدُون من بني رِفاعة، وكان مُظاهِرًا لعُمَرَ بنِ حَفْصُون، وكانا قد اجتمعا بالحامَّة، فنازَلَـهم، وناهَضَهم، وأحدق بهم من كلِّ ناحية، وأقامَ محاصِرًا لهم شهرَيْن. فلمّا وصل إليهم الضِّيق، برزوا إلى باب المدينة خارجًا، مُستقبِلين للحرب، وقام بها، فنالَتْه جِراحٌ، وشلَّت يدَه، ثمَّ انهزم هو وأصحابه، وصاروا بين قتيل وفَليل، ودخل باقِيْهم في الحامَّة. فبَيْنا المنذرُ في هذه الحال من السرور، إذ أتاه الـخَبَر بموت أبيه الأميرِ محمَّدِ بن عبد الرحمن، ليلةَ الخميس لليلةٍ بقيتْ من شهر صَفَرٍ من السنة، ودُفِن في القصر، وأدْرَكَه الـمُنْذِرُ قبل مُوَارَاتِه وصلَّى عليه[2].

بعض أخباره وسيره

كان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، فصيحًا، بليغًا، عظيم الأناة، متنزِّهًا عن القَبيح، يؤثِرُ الحقَّ وأهْلَه، لا يسمعُ من باغٍ، ولا يلتفتُ إلى قولٍ زائغ. وكان عاقلًا، على أخلاقٍ جميلة ومَكارِمَ حميدة، ذا بديهة ورَوِيَّة، يرى كلُّ من باشَرَه وحدَّثه أنَّ له الفضلَ الـمُسْتَبين في إدراكه، وفَهْمه، ودقَّةِ ذِهْنه، ولطيف فطنته، وجزالةِ رأيه. وكان أعلمَ النّاس بالحساب وطُرُقِ الخدمة. وكان متى أعْضَلَ منها شيءٌ، رُجِعَ إليه فيه، وإذا أخَلَّ أحَدٌ من خُزَّانه وأهْلِ خدمة الحساب بشيءٍ من ذلك، لم يَـجُزْ عليه بأدنى لحظة أو نظرة. ولقد استدرك على بعض خُزَّانِه في صَكٍّ يشتمل على مئة ألف دينار خُمُسَ

(١) من هنا إلى قوله: «وخالف» كله ليس في ر٢.
(٢) خبر وفات الأمير محمد في كامل ابن الأثير ٧/ ٤٢٤.

دِرْهَم، فردَّ الصَّكَّ، وأمر بتصحيحه، فتجمَّع الـخَدَمةُ والكُتَّابُ عليه، فلم يَقَعوا على ذلك النُّقْصان؛ لدِقَّته وخَفَائه، فرجعوا إليه معترفين بالتَّقصير، وأعلموا الرَّسول، فردَّ الصكَّ إليه وأعْلَمَه باعترافهم، فعلَّم لهم على موضع الخطإ، فإذا هو خُمُسُ دِرْهم.

وقال هاشِمُ بن عبد العزيز: كان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، أصحَّ الناس عَقْلًا، وأحسنهم تمييزًا، وأبصرَهم بوجه الرأي. وكان يستشيرُنا؛ فنَجْتَهِدُ ونَقولُ ونُحَصِّلُ، فإنْ أصَبْنا، أمضى ذلك، وإن كان في الرأي خَلَلٌ، قام فيه بالحُجَّة، وأبانَهُ بما تعجز الأوهامُ عنه تنقيحًا وتَهْذِيبًا.

ومـمَّا يُحفظ عنه: أنَّه قال لهاشم في شيء أنكره عليه من عَدَم التثبُّت: يا هاشم، مَن آثر السُّرعَةَ أفْضَتْ به إلى الـهَفْوة. ولو أنَّا أصْغَيْنا إلى نَحو[1] زلَّاتك، وأصَخْنا إلى هَفَواتك، لَكُنَّا شُرَكاءَك في الزَّلَّة، وقُسَماءَك في العَجَلة! فمَهْلًا عليك، ورُوَيْدًا بك! فإنَّك إن تَعْجَل يُعَجَّل لك. وكان، مع تثبُّتِه وأناته، وافيًا لمواليه في أنفسهم وأعقابهم، لا يكدحُ عنده كادِحٌ في شيءٍ عن أحدهم، فيَسْمَعه أو يُسْمِعه.

ولقد وَلَّى الكتابةَ عبدَ الملك بن عبد الله بن أُمَيَّة؛ اصطناعًا له، وعائدةً عليه، فردَّ عليه يومًا جوابًا يقول فيه: قد فَهِمْنا عنك، ولم نأتِ ما أتيناه عن جَهْلٍ بك، لكن اصطناعًا لك، وعائدةً عليك. وقد أبَحْنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكُتَّاب، فتَخَيَّرْ منهم مَن تَثِقُ به وتعتمدُ[2] عليه، ونحن نُعينك على أمرك بتفقُّد كُتُبك والإصلاح عليك، إلى أن تركب الطريقةَ وتُبْصِرَ الخدمةَ، إن شاء الله تعالى. فحسده على الـخُطَّة لشَرَفها مَنْ رأى نفسه أوْلَى بها لاستكمال أدَواتها، فطُولِبَ عليها. وكان أشَدَّ النّاس في ذلك هاشِمُ بن عبد العزيز، يُثِير سَقَطاتِهِ، ويتتبَّعُ هَفَواتِهِ، ويُشنِّع عليه، والأميرُ محمَّد بفطنته يتغافل له، فلمّا طال عليه الصَّبر، دعا هاشمًا، وقال له: قد أكثر أهْلُ خِدْمتنا وأكْثَرْتَ في هذا الكاتب: تَذْكُرون جَهْلَه وفَدامته، وقد ضَمَمْنا إليه من الكُتَّاب مَن يستعين به، ويستظهرُ على خدمته بمكانه، وإنَّما نَقْفُو بخدمتنا، ونَسْلُكُ

(١) في م: «محو»، وما هنا من أ، م.

(٢) في م: «ونعتمد»، خطأ.

بمَرَاتبنا طريقَ مَن ابتدأها وأسَّسَها ووضع أهْلَها فيها. وإذا كُنَّا لا نُخْلِف آباءكم بكم، ولا نُخْلِفُكم بأبنائكم، فعند مَن نَصْنَعُ إحسانَنا ونَرُبُّ أيادِيَنا، أعند أبناء الفَرَّانين أو الـجَزَّارين أو أمثالهم من الـمُمْتَهِنِين؟! وأنت كنتَ أحقَّ بالـحَضِّ على هذا، وتصويب الرأي فيه، لِـما ترجو من مثله في أولادك وعَقِبك. فرجع هاشم إلى الشُّكر له وتقبيل يده ورِجْله.

وكان، رحمه الله، مأمولًا محبوبًا في جميع البُلْدان. وكان محمَّدُ بن أفْلَح صاحبُ تاهَرْت لا يُقدِّم ولا يؤخِّر في أموره ومُعْضِلاته إلَّا عن رأيه وأمْرِه، وكذلك بنو مِدْرَار بِسِجْلماسَة[1]. وكان فرذلند[2] مَلِك إفْرَنْجَة يسترجح عَقْلَه، فيُهاديه ويُتحفه، وهو، أعني فردناند، الذي عمل صورةَ عبسي من ثلاث مئة رطل من ذهبٍ خالص، وصفَّها بالياقوت والزَّبَرْجَد، وجعل لها كُرْسيًّا من ذهب خالص مفصَّص بالياقوت والزَّبَرْجَد أيضًا، فلمَّا أكمل ذلك، سجد له وأسجد له جميعَ أهل إفْرَنْجة في ذلك التاريخ، ثمَّ دفعه إلى صاحب كَنِيسة الذَّهب برُومة.

وكان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، مهتبِلًا بأمور رعيَّته، مُراقبًا لمصالحها. ووضع عن أهل قُرْطُبة ضَرِيبةَ الحشود والبُعوث.

وقال ابن حَيَّان: كانت عِدَّة الفرسان المستنْفَرين لغزو الصائفة المجرَّدة إلى جِلِّيقِيَّة في مدَّة الأمير محمَّدٍ مع الوَلَد عبد الرحمن ابنه على هذه التسمية المفصَّلة: من ذلك: كُورة إلبيرة: ألفان وتسع مئة، جَيَّان: ألفان ومئتان، قَبْرة: ألف وثمان مئة، باغُه: تسع مئة، تَاكُرُنَّا: مئتان وتسعة وتسعون، الجزيرة: مئتان وتسعون، إسْتِجَّة: ألف ومئتان، قَرْمُونة: مئة وخمسة وثمانون، شَذُونَة: ستَّة آلاف وسبع مئة وتسعون، رَيُّه: ألفان وست مئة، فَحْص البَلُّوط: أربع مئة، مَوْرُور: ألف وأربع مئة، تُدْمِير: مئة وستَّة وخمسون، رُبينَة: مئةٌ وستَّة، قَلْعة رَبَاح وأُورِيط: ثلاث مئة وسبعة وثمانون. قال:

---

(١) في ر٢: «أصحاب سجلماسة».

(٢) هكذا في النسختين، وهو Ferdinand، ولكن ناشري الطبعة الأوربية عَدّوا ذلك غلطًا وغيّروها إلى «قرولش»، وهو Carolus (Charles le Chauve)، وأثبتنا ما في النسخ وإن كان غلطًا.

ونُفِرَ من أهْل قُرْطُبَةَ لهذه الغزوة عَدَدٌ لم يوقَفْ على قَدْره. وكان هذا العَدَد الذي غزا به بعد أن رفع الضّريبةَ التي كانت على أهل قُرْطُبَة وأقاليمِها وغيرها من البلاد، وقطع عنهم الحشودَ التي كانوا يؤخَذون بتجديدها في كلِّ سنة للصَّوائف الغازية لدار الحرب، وأسقطها عنهم[1] ووكَّلهم إلى اختيار أنفسهم في الطّواعيَّة للجهاد من غير بَعْث؛ فحَسُنَ مَوْقِعُ ذلك منهم، وتَضَاعَف حَمْدُهم له وشُكْرُهم واغتباطُهم بدولته.

وذكر جماعةٌ من المؤرِّخين، عن بَقِيّ بن مَخْلَد، أنَّه قال: ما كَلَّمْتُ أحدًا من ملوك الدُّنيا أكْمَلَ عقلًا ولا أبْلَغَ فضلًا من الأمير محمَّد، دخلتُ عليه يومًا في مجلس خلافته، فافتتح الكلامَ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبيِّ ﷺ، ثمَّ ذكر الخلفاء خليفةً خليفةً، فحلَّى كلَّ واحد منهم بتَحْلِيَتِه، ووَصَفه بصِفَتِه، وذكر مآثِرَه ومناقِبه بأفصح لسان وأبلغ بيان، حتَّى انتهى إلى نفسه، فسَكَتَ.

وفي صدر دولته سُعِيَ ببَقيٍّ بن مَـخْلَد إلى الأمير محمَّد؛ وذلك أنَّه لما قدم بَقِيٌّ بن مَخْلَد من المشرق عن رحلته الطويلة بما جَمَعَ من العلوم الواسعة والرواياتِ العالية والاختلافات الفِقْهيَّة، أغاظَ ذلك فُقَهاء قُرْطُبة أصحابَ الرأي والتَّقْليد، الزاهدين في الحديث، الفارِّين عن علوم التحقيق، الـمُقَصِّرين عن التوسع في المعرفة، فحسدوهُ، ووضعوا فيه القولَ القبيح عند الأمير، حتى ألزموه البِدْعة، وشنَّؤوهُ[2] إلى العامَّة. وتخطَّى كثيرٌ منهم برَمْيه إلى الإلحاد والزَّنْدَقة، وتشاهدوا عليه بغليظ الشهادة، داعين إلى سَفْكِ دَمِه، وخاطبوا الأميرَ محمَّدًا في شأْنه، يعرِّفونه بأمره، ويُكْثِرون عليه بكلِّ ما يرجون به الوصولَ إلى سَفْك دَمِه، ويسألونه تعجيلَ الـحُكْم فيه. فاشتدَّ خوف بَقِيّ بن مَـخْلَد جِدًّا، واستتر خوفًا على دمه، وعَمِلَ على الفرار عن الأنْدَلُس إن أمكنه ذلك. فأرشده اللهُ إلى التعلُّق بحَبْل هاشِم بن عبد العزيز، وسؤاله الأخْذَ بيده، وكَتَبَ إلى الأمير محمَّد، ينشدُه الله في دَمِه، ويسأله التثبُّتَ في أمره، والجمْعَ بينه وبين خصومه، وسماعَ حُجَّته، فيأتي في ذلك بما يوفِّقه اللهُ له. فألقى اللهُ في نفس هاشم الإصغاء إلى شكواه، والاعتناء بأمره، فشمَّر له عن ساعده، وأوصل كِتَابَه إلى الأمير

---

(١) في م: «منهم».

(٢) في ر٢: «وبغَّضوه».

محمَّد بشرح حاله، فعطف عليه، واتَّهم الساعين به إليه، فأمر بتأمين بقيٍّ بن مَخْلَد، وإحضارِه مع الطالبين له، فتناظروا بين يدَيْه، فأدلى بَقِيٌّ بحجَّته، وظهر على خُصومه، واستبان للأميرِ محمَّد حَسَدُهم إيَّاه[١]؛ لتقصيرهم عن مَدَاه، فدفعهم عنه، وتقدَّم إليه بطأطأةِ قدمه، ونَشْر علمه[٢]، وأمر بإيصاله إليه في زُمْرة من الفُقهاء، والرفعِ من منزلته، فاعتلى ذروةَ العِلْم، ولم يزل عظيمَ القَدْر عند الناس وعند الأمير محمَّد إلى أن مات، رحمه الله[٣].

وفي صَدْر دولته، تُوُفِّي عالِـمُ الأنْدَلُس عَبْدُ الـمَلِك بن حَبِيب[٤]، وذلك في رمضان سنة تسع وثلاثين ومئتين. وهو عبد الـمَلِك بن حبيب بن سليمان بن مروان بن جَيْهَلة بن عبَّاس بن مِرْدَاس السُّلَمِيُّ، يُكْنَى أبا هارون، أُوَله من كُورة إلبِيرة، ونقله الأميرُ محمَّد إلى قُرْطُبة، بل نقله أبوه عبدُ الرحمن بن الـحَكَم. وكان محمَّدُ بن عُمَر بن لُبَابة[٥] يقول: عالِـمُ الأنْدَلُس عبدُ الـمَلِك بن حَبِيب، وعاقِلُها يحيى بن يحيى، وفَقِيهُها عيسى بن دينار[٦]. قال ابنُ وضَّاح وغيرُه: لم يقدم الأنْدَلسَ أحَدٌ أفْقَهُ من سَحْنُون، إلا أنَّه قدم علينا مَن هو أطْوَلُ لِسانًا منه، يعني ابنَ حبيب. وكان ابنُ حبيب أديبًا، نَحْويًّا، حافظًا، شاعرًا، متصرِّفًا في فنون العلم من الأخبار والأنساب والأشعار. وله مؤلَّفاتٌ حِسان[٧] في الفقه والأدب والتواريخ كثيرة[٨]. قال ابن العَرَبيّ: بضاعتُه في الحديث مُزْجاة[٩]. وكانت عِلَّته التي مات منها الـحَصَى،

(١) في ر٢: «له».

(٢) في ر٢: «وأمره بنشر علمه».

(٣) قال بشار: ببقي بن مخلد ومحمد بن وضاح المرواني صارت بلاد الأندلس دار حديث، فجزاهما الله خيرًا عن رسول الله ﷺ.

(٤) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٥٩ والتعليق عليه.

(٥) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ٢/ ٤٩ والتعليق عليه.

(٦) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤٢٦ وتعليقنا عليه.

(٧) ليست في ر٢.

(٨) ليست في ر٢.

(٩) قول ابن العربي من ر٢.

وتُوُفِّيَ[1] وسِنُّه أربع وستُّون سنة. وكتب إلى الأمير عبدِ الرحمن بن الحَكَم في ليلة عاشُوراء [من البسيط]:

لا تَنْسَ، لا يَنسَكَ الرَّحْمنُ، عَاشُورَا ... واذْكُرْهُ لا زلْتَ في الأخيارِ مَذْكُورَا

مَنْ بَاتَ في لَيْلِ عَاشُوراءَ ذَا سَعَةٍ ... يكُنْ بعِيشَتِهِ في الحَوْلِ مَحْبُورَا

فارْغَبْ، فَدَيْتُكَ، فِيمَا فِيهِ رَغَّبَنَا ... خَيْرُ الوَرَى كُلِّهِمْ حَيًّا ومَقْبُورا

وخرج الأميرُ محمَّد بن عبد الرحمن إلى الرُّصافة يومًا مُتَنَزِّهًا، ومعه هاشمُ بن عبد العزيز، فكان بها صَدْرَ نهاره على لذَّته، فلمّا أمسى، واختلط الظلام، انصرف إلى القصر، وبه اختلاطٌ. فأخبر مَن سَمِعَهُ وهاشِمٌ يقول له: يا ابنَ الخلائف، ما أطْيَبَ الدُّنيا لولا الموتُ! فقال له الأمير محمد[2]: يا ابنَ اللَّخْناء! لَحَنْتَ في كلامك، وهَلْ مَلَكْنا هذا المُلْكَ الذي نَحْنُ فيه إلَّا بالموت[3]؟ فلولا الموت، ما ملكناه أبدًا.

وكان الأميرُ محمَّد، رحمه الله، غَزّاءً لأهل الشِّرْك والاختلاف[4]، وربَّما أوغل في بلاد العدوّ السِتَّة الأشْهُر والأكثر، يُحرِّق وينسف. وله وقعةُ وادي سَلِيط، وهي من أُمَّهات الوقائع، ولم يُعرف بالأنْدَلُس قَبْلَها مثلها. وفيها يقول عبَّاس بن فِرْناس[5]، وشِعرُه يكفينا من صِفَتها، وهو [من الطويل]:

ومؤتلف الأصْواتِ مختلف الزَّحْفِ ... لَهُوم الفَلاَ عَبْلِ القَنابِل مُلْتَفِّ

إذَا أوْمَضت فِيهِ الصَّوَارِمُ خِلْتَهَا ... بُرُوقاً تَرَاءى في الجَهَامِ[6] وتَسْتَخْفِي

كأنَّ ذُرَى الأعْلامِ في مَيَلاَنِهِ ... قَرَاقِيرُ في يَمٍّ عَجَزْنَ عن القَذْفِ

---

(١) العبارة في ر٢: «وتوفي من علة الحصا».

(٢) من ر٢.

(٣) العبارة في ر٢: «وهل أوصلنا إلى هذا الملك إلا الموت؟».

(٤) في ر٢: «والخلاف».

(٥) في ر٢: «مرداس»، وليس بشيء.

(٦) ي ر٢: «الظلام».

وإن طَحَنَتْ أرحاؤُها[1] كان قُطْبُها ... حِجَى مَلِكٍ نَدْبٍ شَمائلُه عَفِّ

سَمِيُّ خِتَامِ الأنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ ... إذا وُصِفَ الأمْلاكُ جَلَّ عَن الوَصْفِ

فمِنْ أجْلِهِ يَوْمَ الثلاثاءِ غُدْوةً ... وقَدْ نَفَضَ الإصْبَاحُ حَلْيَ عُرَى السَّجْفِ

بَكَى جَبَلاً وادي سَلِيطٍ فَأعْوَلاَ ... على النَّفَرِ العُبْدَانِ والعُصْبَةِ الغُلْفِ

دَعَاهُمْ صَرِيخُ الحَيْنِ فاجتَمَعُوا لَهُ ... كَمَا اجْتَمَعَ الجُعْلَانُ لِلبَعْرِ في وَقْفِ

فما كانَ إلا أنْ رَمَاهُمْ بِبَعْضِها ... فَوَلَّوا على أعْقَابِ مَهْزُولَةٍ كُشْفِ

كَأنَّ مَسَاعِيرَ المَوَالي عَلَيْهِمُ ... شَوَاهِينُ جَادَتْ لِلْغرانيقِ بالنَّسْفِ

بِنَفْسِي تَنَانِينَ الوَغى حينَ صَمَّمَتْ[2] ... إلى الجَبَلِ المَشْحونِ صَفًّا عَلَى صَفِّ

يَقُول ابْنُ بُوليشٍ[3] لمُوسَى وَقَد وَنَى[4]: ... أرى المَوْتَ قُدَّامِي وتَحْتِي ومِنْ خَلْفِي

قَتَلْنَا لَهُمْ ألْفاً وألفاً ومِثْلَهَا ... وألفًا وألفاً بَعْدَ ألفٍ إلى ألْفِ

سِوَى مَنْ طَوَاهُ النَّهْرُ في مُسْلَحِبِّهِ ... فأُغْرِقَ فيه أوْ تَذَأْذَأَ مِنْ جُرْفِ

قال أبو عُمَر السَّالِميّ: كانت أوَّلَ غَزَواته إلى بلد العدوّ، وقد حَشَّدَ لها وجَنَّدَ، وصوَّب كيف شاء وصَعَّد، ألفى العدوَّ وقد ضاقَ بخيله الفضاءُ الواسع، والمكان الداني والشاسِع، وهو متأهِّبٌ للقائه، مُتَوَجِّهٌ إلى تِلْقائه. فخامَرَ الأميرَ محمَّدًا الجَزَعُ، وشابَهُ الروْعُ والفَزَعُ، وظنَّ أن لا منجاةَ من الكُفَّار، وأن المسلمين هناك طَعْنُ الشِّفَار، فرأى من الحَزْم الأوْكَد، والنَّظر الأحْمَد الأرْشَد، الرجوعَ عن تلك الحَرَكةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩١]، فقام رَجلٌ، فقال: أيُّها الأمير، قال الله تبارَكَ وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣]. فقال له الأميرُ محمَّد: «والله، ما جَبُنْتُ نفسي، إلَّا أنَّه لا رأيَ لِمَنْ لا يُطَاعُ، ولسْتُ

---

(١) في ر٢: «أركانها».

(٢) في أ: «جمعت».

(٣) في ر٢: «برليس».

(٤) في ر٢: «نأى».

أستطِيعُ أن أُجاهِدَ وَحْدِي. فقال له العُتبيُّ: والله، ما أراه قَذَف بها على لسانه إلَّا مَلَكٌ، فاستَخِرِ اللهَ في ليلك هذا وفي يومك. فأراه اللهُ في مُقابلة العدوِّ الرَّشاد، وألْـهَمَه التوفيق والسَّداد. فندب الناسَ إلى لقاء أعداء الله ونَصْرِ دينه، وأن يكون كلٌّ على حُسْن ظنِّه من الظفر ويَقِينه. فلمّا انعقَدَتْ راياتُهم، وتأكَّدتْ على الـمُقارعة نِيَّاتُهم، قَدَّمَ عليهم الأميرُ محمَّد ابنَه الـمُنْذِرَ؛ إذ كان مشهورًا بالباس، محبوبًا في الناس. فسارَ المسلمون إلى أن التقى الجمعان، والتفَّ الفريقان، فأعقب اللهُ لأوليائه ظفرًا ونصرًا، وجعل بعد عُسْرٍ يُسْرًا. قال: ولم يؤذِّنْ مُؤذِّنُ الظُّهْرِ إلَّا ومِنْ رؤوس الأعداء جملةُ آلافٍ مقطوعةٌ لأعداء الله، وذلك من فضل الله. وفي هذا الفتح يقول العُتْبِيُّ، يمدح الأمير محمَّدًا في قصيد طويل أذْكُرُ هنا بعضَه، وهو[1] [من الكامل]:

سَائِلْ عَنِ الثَّغْرِ الصَّوارِمَ تَصْدُقِ ... واسْتَنْطِقِ السُّمْرَ العوَالِي تَنْطِقِ

تَرَكَتْ وَقَائعَ في الثُّغُورِ وَقَدْ غَدَتْ ... مَثَلًا بِكُلِّ مُغَرِّبٍ ومُشَرِّقِ

وأدَاخَ أرْضَ الْمُشْرِكِينَ بِوَقْعَةٍ ... تَرَكَتْهُمُ مِثْلَ الأشاء الـمُحْرَقِ

جَادَتْ عَلَيْهِمْ حَرْبُهُ بِصَوَاعِقٍ ... تَرَكَتْهُمُ مِثْلَ الرَّمَادِ الأزْرَقِ

خِلافَةُ الـمُنْذِر بن محمَّد بن عبد الرَّحمن بن الـحَكَم[2]

كُنْيَتُه: أبو الـحَكَم.

مَوْلِدُه: سنة تسع وعشرين ومئتين.

أُمُّه: تُسَمَّى أثْل، وَلَدَتْه لسبعةِ أشهر.

وُزَرَاؤُه: أحد عشر.

كُتَّابُه: اثنان: سعيد بن مُبَشِّر، وعبد الملك بن عبد الله بن أُمَيَّة بن شُهَيْد.

حاجِبُه: عبد الرحمن بن أُمَيَّة بن شُهَيْد.

---

(١) في ر٢: «في قصيدة منها».

(٢) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٦، وجذوة المقتبس ٣١، والمعجب ٥٢، وتاريخ الإسلام ٦/ ٦٣١، ونفح الطيب ١/ ٣٥٢.

قوَّادُه: سبعة.

قاضِيه: أبو مُعاوِية عامِر بن مُعاوِية اللَّخْميُّ[1].

نَقْشُ خاتَـمه: «الـمُنْذِر بقضاء الله راضٍ».

صِفَتُه: أسْمَرُ، جَعْدُ الشَّعْرِ، بوجهه أثَرُ جُدَرِي، يَـخضب بالـحِنّاء والكَتَم.

أولادُه الذكور: خمسة، والإناث: ثمان.

بُويع يومَ الأحد لثمان خَلَوْنَ من ربيع الأوَّل سنة ثلاث وسبعين ومئتين وهو ابن أربع وأربعين سنة، وسبعةَ عشر يومًا.

وتُوُفِّي في غَزاةٍ له على بَرْبُشتر يومَ السبت للنصف من صَفَر سنة خمس وسبعين ومئتين.

عُمُرُهُ: ستٌّ وأربعون سنة.

خِلافَتُه: سَنَتان إلَّا سبعةَ عشر يومًا، ودُفن بقَصْر قُرْطُبَة، وصلَّى عليه أخوه عبدُ الله، جدُّ الناصر.

واتَّصل به موتُ أبيه، وهو على حِصْن الحامَّة يُقاتل المرتدَّ اللعينَ عُمَرَ بن حَفْصون، فقفل إلى قُرْطُبة، وتـمَّت له البيعةُ في اليوم الثاني من وصوله، ففرَّق العطاء في الـجُند، وتحبَّب إلى أهل قُرْطُبة والرَّعايا بأن أسقط عنهم عُشَرَ ذلك[2] العام وما يلزمهم من جميع الـمَغْرَم.

وكانت أكثرُ حصون رَيُّه قد حصلتْ في طَوْع ابن حَفْصُون، فبعث إليها الإمامُ الـمُنْذِرُ الأجنادَ؛ فانصرفتْ إلى الطاعة.

ولـمّا بلغ ابنَ حفصون موتُ الأمير محمَّد، وانصرف عنه الـمُنْذِرُ على ما تقدَّم، نهَض من فوره، فراسَلَ الحصونَ التي بينه وبين الساحِل كلَّها، فأجابَتْه وطاعت له. ونهَض إلى بَاغُه وجَبَلِ شيبة[3]، فأخذ من الأموال ما لا يوصف، كلُّ ذلك منه بلا قوَّة، ولا كثرةٍ من مال، ولا عَدَد، ولَكِنَّه كان عَذَابًا من الله ونقمةً انتقم بها من عَبيده. وانفق له زمانُ هَرَجٍ

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٢٨٦ والتعليق عليه.

(٢) من ر٢.

(٣) ينظر عنه معجم البلدان ٣/ ٣٧٩.

وقلوبٍ قاسية فاسدة ونفوسٍ خبيثة، متطلِّعة إلى الشرّ، مُشْرَئبَّة إلى الفتنة. فلمّا ثار، وجد من الناس انقيادًا وقبولًا للمُشاكَلة والموافَقة، فتألَّبَتْ له الدنيا، ودخل إلى الناس من جِهَة الأُلْفة، وقال: طال ما عنَّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمَّلكم فوق طاقتكم، وأذَلَّتْكم العَرَب، واستعبدَتْكم! وإنَّما أُريد أن أقومَ بثأركم، وأُخْرِجَكم من عُبُودِيَّتكم. فكان ابنُ حَفْصون لا يُورِد هذا على أحدٍ إلَّا أجابه وشكره. فكانت طاعةُ أهل الحصون بهذا الوَجْه. وكان أتباعُه شُطَّارَ الناس وشِرَارَهم. فكان يمنِّيهم بفَتْح البلاد، وغنائمِ الأموال. وكان مع ذلك مُتَحَبِّبًا لأصحابه، مُتَواضِعًا لألافِه. وكان، مع شرِّه وفِسقه، شديدَ الغَيْرة، حافظًا للحُرْمة، فكان ذلك مـمَّا يُميل النفوسَ إليه. ولقد كانت المرأةُ في أيَّامه تجيءُ بالمال والمتاع من بلدٍ إلى بلد منفردةً، لا يعترِضُها أحَدٌ من خَلْق الله. وكانت عقوبتُه السيفَ، يُصَدِّق المرأَةَ والرجُلَ والصبيَّ أو من كان على مَن كان، لا يطلبُ على ذلك شاهدًا أكثرَ من الشكوى. وكان يأخذ الحقَّ من ابنه، ويَبَرُّ الرجال، ويُكْرِم الشجعان، وإذا قَدَرَ عليهم، عفا عنهم. وكان يُسَوِّرهم بأسْوِرَة الذَّهَب إذا اختصلوا. فكانت هذه الأشياءُ كلُّها عونًا له. وانتهى ابنُ حفصون بعادِيَته إلى قَبْرة وما أمامَها إلى قَرْية الـجَالِيَة، وأغار على القَبْذِيق من إلْبيرة، وعلى أحواز جَيَّان، وأسر عبدَ الله بن سَمَاعة عاملَ بَاغُه.

وكان اجتمع إلى حِصْن آشَر من حَوْز رَيُّه وبمقرُبة من قَبْره جَمْعُ الشرِّ من أصحاب ابن حَفْصُون، فراعَ أَهْلَ قَبْرَةَ أمْرُهم وهَابُوهم. واتَّصل بالأمير الـمُنْذِر خَبَرُهم، فأرسل أصْبَغَ بن فُطَيْس في خَيْلٍ كثيفةٍ إلى حِصْن آشَر، فحاصَرَهم حتَّى افْتَتَحَه، وقتل مَن كان فيه. وأخرج الأميرُ الـمُنْذِر عبدَ الله بن محمَّد بن مُضَر وأبْدُون الفَتى بخيلٍ إلى ناحية لجَّانَة من قَبْرة، وكان بها مسلحةٌ لابن حَفْصون، فنازلوهم وقاتلوهم حتَّى أفْنَوْهم.

قال الرازيّ: وفي سنة ولاية الإمام الـمُنْذِر، غزا محمَّد بن لُبّ[1] إلى ألبة[2] والقِلَاع ومعه جموعُ المسلمين، ففتح اللهُ للمسلمين، وقتلوا المشركين قتلًا ذَريعًا.

(١) تنظر الجمهرة لابن حزم ٥٠٣.

(٢) الضبط من ر٢.

وفي هذه السنة، أعْنِي سنة ثلاث وسبعين ومئتين، في جُمادى الأولى[1]، أمر الأميرُ الـمُنْذِر بسجن هاشِم بن عبد العزيز وزيرِ أبيه وخاصَّتِه، وأمر بقتله في جُمادى الأُولى، وسَبَبُ ذلك أنَّ هاشمًا كان يُـحْسَد لمكانه من الأمير محمَّدٍ وخاصَّته به، فكانوا يَسْعَوْن به عند الـمُنْذِر، ويكرِّرُون ذلك عليه، حتى تنافرت النفوس[2]. فلمّا مات الأميرُ محمَّد، ووليَ الـمُنْذِر، أرادَ أن يَفِيَ له ويتَّبع فيه فِعْلَ أبيه، فولَّاه الحجابة. ثمَّ تَمالأوا عليه، وأكثروا، وحَرَّفوا عليه الكلام، وتأوَّلوا عليه أقبحَ التأويل، حتَّى نفذ قضاءُ الله فيه. وكان مـمّا تأوَّلوا عليه: أنَّ هاشمًا أنشد عند مُواراة الأميرِ محمَّد، رحمه الله [من الوافر]:

أُعَـزِّي يَـا مُحَمَّـدُ عَنْـكَ نَفْـسِي ... أمـينَ الله ذَا الـمِنَنِ الجِـسَامِ
فهَـلَّا مَـاتَ قَـوْمٌ لـمْ يَمُوتُـوا ... ودُوفِـعَ عَنْـكَ لِـي كَـأْسُ الحِـمَامِ

فتأوَّلُوا أنَّه يريد بقوله: «لَـمْ يَمُوتُوا» الـمُنْذِرَ.

وكتب هاشِمٌ من حَبْسِه إلى جارِيَته عَاج [من الطويل]:

وَإنِّي عَـدَانِي أنْ أزُورَكِ مَطْبَـقٌ ... وبَـابٌ مَنِيـعٌ بالحَدِيـدِ مُـضَبَّبُ
فـإنْ تَعْجَبِـي يـا عَـاجُ مِمَّـا أصـابَنِي ... فَفِي رَيْبِ هـذا الـدَّهْرِ مَـا يُتَعَجَّـبُ
تَرَكْتُ رَشادَ الأمـرْ إذ كُنْـتُ قـادِرًا ... عَلَيْـهِ فَلاقَيْتُ الـذِي كُنْتُ أرْهَـبُ
وكَمْ قَائِلٍ قَالَ: انْجُ وَيْـحَكَ سَالِـماً ... فَفِي الأرْضِ عَنْهُم مستَرادٌ ومَذْهَبُ
فقُلْـتُ لـهُ: إنَّ الفِـرارَ مَذَلَّـةٌ ... ونَفْسِي علَى الأسـواء أحْلَى وأطْيَبُ
سَـأرْضَى بِحُكْـمِ الله فِـيمَا يَنُـوبُنِي ... ومَا مِنْ قـضَاء الله لِلْمَـرء مَهْـرَبُ[3]
فمَـنْ يَـكُ أمْـسَى شَـامِتاً بِي فإنَّـهُ ... سَـيَنْهَلُ في كَـأسِي وَشِـيكاً ويـشْرَبُ

---

(١) قوله: «أعني سنة ثلاث وسبعين ومئتين في جمادى الأولى» ليس في ر٢.

(٢) تنظر الحلة السيراء لابن الأبار ١/ ١٣٧.

(٣) في ر٢: « مذهب».

ثمَّ بعث فيه الأميرُ ليلًا، فقَتَله، وسجن أولادَه وحاشيته، وانتهب مالَه، وهدم دارَهُ، وألقى أولادَه في السجن، وألزمهم غُرْمَ مئتي ألف دينار، فلم يزالوا في السجن والغُرْم إلى موت الـمُنْذِر وولايةِ أخيه عبد الله، ثمَّ أطلقهم عبدُ الله، وصرف عليهم ضِيَاعَهم، وولَّى أحَدَهم الوزارةَ والقيادة.

وفيها: كانت الوقعةُ على أهل طُلَيْطُلة، وكانوا قد جيَّشوا البَرْبَر المنفيِّين من تَرْجِيلُه، فقُتل منهم ألوفٌ.

وفي سنة أربع وسبعين ومئتين: خرج الأميرُ الـمُنْذِر بجيوشه إلى عُمَر بن حَفْصُون، فافتتح حصونَه بِرَيُّه، والحصونَ التي بجهة قَبْرة، ثمَّ توجَّه إلى حضرته بَرْبُشتر؛ فحاصره فيها، وأفسد ما حوالَيْه، وضيَّق عليه، ثمَّ انتقل عنه إلى أُرْجُذُونة[1]، وبها عَيْشُون، فأقام عليها مُحاصِرًا لها ومُضَيِّقًا على أهلها[2]، إلى أن نبذوا عيشونًا وأهْلَه، وأسلموه بذَنْبه، فدخلها الأميرُ الـمُنْذِر، وقبض على عَيْشُون وأصحابِه. وظفر أيضًا ببني مَطْرُوح، وهم: حَرْبٌ، وعَوْنٌ، وطَالُوت، وافتتح حصونَهم بجَبَل بَاغُه، وأتى بهم إلى الأمير أسارى، فبعث ببني مَطْرُوح إلى قُرْطُبة، وأمر بقَتْلهم وصَلْبهم، وكانوا اثنين وعشرين رجلًا، فصُلبوا بأجمعهم، وصُلِب مع عَيْشُون في الـخَشَبة خِنْزِيرٌ وكَلْبٌ. وكان السَّببُ في ذلك أنَّ عَيْشُونًا كان يقول: إذا ظَفِرَ بي، فلْيَصْلُبْنِي ولْيَصْلُبْ عن يميني خِنْزيرًا وعن يساري كَلْبًا! وكان يَثِقُ بنفسه في القتال ثِقَةً شديدةً، ويأمَنُ مِنْ أن يؤخذ؛ لشِدَّته وشجاعته. فلما يَئِسَ الأميرُ منه، دسَّ إلى بعض أهل أُرْجُذُونة بأن يتحيَّل في أخْذ عَيْشون، فأجابه، ووعده بأخذه. فلمّا كان في يعض الأيَّام، دخل بَيْتَ أحدهم بغير سلاح، وقد استُعِدَّ له بكَبْلٍ، فأُوثِقَ به وبُعِث به إلى الأمير الـمُنْذِر.

شأن عُمَر بن حَفْصُون في أيَّام الـمُنْذِر، رحمه الله[3]

ولـمّا كان في العام الثاني من ولايته، وهي هذه السنة المؤرَّخة، خرج في عَديده الأكثر، وقصد مدينةَ[4] بَرْبُشتر. فحلَّ عليها أحْفَلَ احتلال، وقاتل ابنَ حَفْصُون بها

---

(١) معجم البلدان ١/ ١٤٤ والضبط منه.

(٢) «على أهلها» ليست في ر٢.

(٣) بعد هذا في ر٢: « وسمح له»

(٤) في ر٢.

أشدَّ قتال، وانتشرت خيلُه في تلك الأقطار، واستولت على السُّهول والأوعار. ثمَّ عطف الأميرُ إلى مدينة أُرْجُذُونة؛ ليُتَبِّرَها تَتْبِيرًا، ويُولِـيَ أهلَها يومًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا؛ لدخولهم في طاعة ابنِ حَفْصون، ونزوعهم إلى ما نزع إليه أهْلُ تلك الحصون، فخرجت رُسُلُهم إلى الأمير، فتلقَّتْه بالسمع والطاعة، والدخولِ في جمهور الجماعة، فتقبَّل نزوعَهم، وأنَّس جميعهم. وتغلَّب على القَصَبة إثْرَ ذلك، وأسر عاملَ ابنِ حفصون هنالك. واستمرَّ اللعينُ ابنُ حفصون على ضلالته وغَيِّه، ولم يَثْنِ عِنانًا عن عادِيَته وبَغْيِه. فخرج إليه الأميرُ ثانيًا وحاصره حصارًا، وقد عدم ابنُ حفصون[1] أعوانًا وأنصارًا. فلمّا رأى الأميرَ أَخَذَ بمَخْنَقه، وسدَّ أفواهَ طُرُقه؛ أعمل سوانِحَ الفِكْر، في الخديعة والـمَكْر؛ ليعتصم بذلك من تلك الحبال المنصوبة، والأشراكِ المعترضة المضروبة؛ فأظهر الإنابةَ إلى الطاعة، وشهرَ النصيحة جُهْدَ الاستطاعة، على أن يكون عند الأميرِ من خاصَّة جُنْده، ويسكنَ قُرْطُبَةَ بأهله وولده، وأن يُلْحِق أبناءه في الموالي، ويتابع الإحسان قِبَلَه[2] ويُوالِـي. فأجابه الأميرُ إلى مطلبه بأكيد الأيمان، وكتب له بذلك مبادرًا عَقْدَ أمان، وقطع لأولاده أرفعَ الثياب، وأُوقِرَتْ لهم الدوابّ، بالأموال والأسباب؛ إسباغًا عليهم بالإفضال، وتوسيعًا لهم في الأماني والآمال. وسأل اللعينُ[3] مئة بغل يحمل عليها جُملةَ متاعه وعِيَاله، وجعل طَلَبَها قوَّةً لمكره واحتياله. فأمر الأميرُ بالبغال أن تُحمل إليه، وتُوضعَ بين يديه، وقد جعل عليها عشرةً من العُرَفاء بمئة وخمسين فارسًا؛ إتمامًا للإكرام، وإنعامًا على إنعام. فأرسلِ عُمَرُ بن حَفْصُون جميعَهم إلى بَرْبُشْتر حيثُ أهْلُه ووَلَدُه، وطريفُه من المال وَمتْلَدُه. وانحلَّ العسكرُ عن الحصن[4] إذ ذاك، وقفل القاضي والفُقَهاء عن تَـمام الصُّلح من هناك، وظنُّهم قد غلب أن لا كَذِبَ ولا مَيْن، وأن قد نِيلَ من الراحة[5] من شغبه أمَلًا وقُرَّة عَيْن. فلمّا انفضَّ جمعُ ذلك[6] العسكر، وانتفض ذلك

(١) في ر٢: «وأباد له» بدلاً من «وقد عدم ابن حفصون».

(٢) في ر٢: «إليه».

(٣) ليست في أ.

(٤) في ر٢: « بَرْبُشتر».

(٥) «من الراحة» ليست في ر٢.

(٦) «جمع ذلك» ليست في ر٢.

الـمُعَسْكَر، ودخل الليل، وامتد للفاتِك الذَّيْل، هرب عُمَرُ بن حَفْصون من ذلك الـحِصْن، وسار إلى بَرْبُشْتر في ظِلِّ الأمْن. فلقيَ العُرَفاء، فَنَاشبهم[1] القتالَ، وأخذ تلك البغال، وعاد إلى سِيْرته الأُولى، وقال لشيعته: «أنا ربُّكم الأعلى!»، فأقسم الأميرُ الـمُنْذِر أن يَقْصِده ويحلَّ عليه، ولا يقبل منه أو يلقي بيده إليه، فأعمل الغَزْوَ إلى بَرْبُشْتر، وجمع لها الجمعَ الأكبر. فلمّا احتلَّ عليها، أمر أن يُحْدَق بها، ويُحاط بجَوَانِبها، وأن يعتزم لقتالها اعتزامًا، ويلتزم مُحاصرتها التزامًا.

فظهر من حَزْم الأمير المنذر[2] وعزمه ما يَئِس معه ابنُ حَفْصون، من البقاء في تلك الحصون. فبقي الأمير[3] على حِصْن بَرْبُشْتر، يَرومُه رَوْمًا، مدَّةً من ثلاثة وأربعين يَوْمًا. وكان قد أصابَتْه عِلَّةٌ أكرثتْ نفْسَه، وكدَّرت أُنسه[4]، فبعث في أخيه عبدِ الله لينوب منابَه، وينتدبَ في تلك الحال انتِدابَه. فلمّا وصل إليه، وحصل في الـمِظَلَّة لَدَيْه، خرجَتْ في الحين رُوحُه، وبكاه مَن كان يَغْدُوه ويَرُوحه. فوقع الـخَرْمُ في العسكر إثْرَ موته، وتفرَّق الناسُ عند فَوْته. ولم يقدر أخوه عبدُ الله على ضَبْطهم، وعَقْدِ ما انحلَّ من رَبْطهم. واستطال عُمَرُ بن حفْصُون في المحلَّة، وانتهبها بالـجُملة. وحُمِل الأميرُ الـمُنْذِر رحمه الله[5] على جَمَل إلى قُرْطُبة، فدُفن مع أجداده[6] هنالِك، وصار عند الناس أهْوَنَ مفقود وأيْسَرَ[7] هالِك؛ إذ كان قد اضطرَّهم في ذلك المقام، وندبهم إلى الثباتِ هنالك والـمُقام.

وفي هذه السنة: كان القحطُ الشديد بالأنْدَلُس، فاستسقى الناس، فنزل ثَلْجٌ كثيرٌ في أوَّل يوم من يَنَّيْر، ولم ينزل غيثٌ. ثمَّ استسقَوْا مرارًا، فلم يُمْطَروا؛ فخامَرَ

---

(١) في م: «فناصبهم».

(٢) في ر٢: « فظهر من حزمه».

(٣) في ر٢: « واستمر المنذر».

(٤) في ر٢: « أكذبت نفسه وكسفت شمسه».

(٥) «رحمه الله» من ر٢.

(٦) «مع أجداده» ليست في ر٢.

(٧) «مفقود وأيسر» ليست في ر٢.

النّاسَ القنطُ. فلمّا دخل من فِبْرَيْر بعضُ أيّام، سُقِيَ النّاسُ، وارتفع الباسُ، فاستبشروا بفضل الله، وأعلنوا بشكره، فقال العَكِّيُّ في ذلك، يمدح الأميرَ الـمُنْذِر [من الكامل]:

نَزَلَ الحَيَا الـمُحْيِي وطابَتْ أَنْفُسُ ... إذ كان سُوءُ الظَّنِّ فيها يَهْجِسُ

أحْيا الإلهُ عِبادَهُ من بَعْدِ ما ... كانت من القنطِ النُّفوسُ تُوَسْوِسُ

مُتلافيًا فيه بعائدِ رَحْمةٍ ... لولا عَوائدُها طَوَتْنَا الأَبْؤُسُ

مَلِكُ الملوكِ تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُهُ الـ ... ـحُسْنى وعَزَّ جَلالُه الـمُتَقَدِّسُ

ومنها:

بالـمُنْذِرِ الـمَيْمُونِ طَابَ زَمانُنا ... وبِطيبِ دَوْلَتِهِ تطيبُ الأَنْفُسُ

إلى قوله:

خُذْها أَمِينَ الله وابن أَمِينِهِ ... من شاكِرٍ في الشُّكْرِ لَيْسَ يُدَلِّسُ

وفي سنة خمس وسبعين ومئتين: تُوفِّي الأمير الـمُنْذِر، رحمه الله، وقد ذُكر موتُه على حصن بَرْبُشْتر[1] مُحاصِرًا للخبيث ابن حَفْصون. وكانت وفاتُه منتصفَ شهر صَفَر من السنة المذكورة[2]، وهو ابن ستٍّ وأربعينَ سنة. وملك[3] سَنَتَيْن إلّا أيّامًا[4].

بعض سيره وأخباره

كان الأميرُ الـمُنْذِر، رحمه الله، يحبُّ إخْوَتَه، ويُكرمُهم، ويُدْنِي مجالسَهم، ويَصِلُهم، ويُحضرهم مجالسَ أُنْسِه. وكان يُجزل العطاء للشُّعراء، فيُنْشِدونه غازيًا وراجعًا. وكان من شُعرائه: أحمدُ بن عبد رَبِّه، والعَكِّيُّ، وغيرُهما. ولم يكن أحدٌ من الخلفاء قَبْلَه مِثْله شجاعةً وصرامةً وعزمًا وحزمًا. ولقد بلغ في سنةٍ بذلك ما لم يَبْلُغْه

---

(١) قوله: «وقد ذكر موته على حصن بربشتر» ليس في ر٢.

(٢) قوله: «وكانت وفاته منتصف شهر صفر من السنة المذكورة» ليست في ر٢.

(٣) هذه الجملة ليست في ر٢.

(٤) الكامل لابن الأثير ٧/ ٤٣٥.

غيرهُ في الدَّهْر. ولقد كان أبطالُ الرجال وأنجادُهم من أهل الفتنة، يُذْعِنون إليه دون محِْنة، ويُرسلون إليه بالطاعة قبل أن يطلبَها. وإنَّ الخبر المستفيض عن الشُّيوخ أنَّه، لو عاش الـمُنْذِرُ عامًا واحدًا زائدًا، لم يَبْقَ بِرَيِّه مُنافِقٌ، وأخبارُه تدلُّ على ذلك. وأوَّلُ أخباره الدالَّة على ذلك: أنَّه، لـمّا أتاه موتُ أبيه، لم يمنعْه ذلك من التعريج عن القَصْد واختصار الطريق، ولا شَغَلَه أمرٌ مُهِمٌّ ولا أمرٌ جليلٌ عن آخر، فجعل طريقَه على رَيُّه، فهذَّب أُمورَها، وولَّى عليها سليمانَ بن عبد الملك بن أَخْطَل، وعبدَ الرحمن بن حُرَيْش، وأدخل معهما أهل الـمَعاقِل من العَرَب والـحَشَم. ثمَّ جمع في يوم واحد مبايعتَه، وإعطاء الـجُنْد، والنَّظَرَ فيما أسْقَطَ من الأزِمَّة عن الرعيَّة، وما فَعَلَهُ من الاستِحْماد إلى أهْل قُرْطُبَة بإسقاط العُشور عنهم، والنظَر في النَّدْب وإخراجِ القائد. وهكذا كان فِعْلُه في جميع أسبابه(١)، وبحسب ذلك كان انقياد الأشياء له.

خِلافة الأمير(٢) عبد الله بن محمَّد بن عبد الرَّحمن بن الـحَكَم(٣)

كُنيتُه: أبو محمَّد.

مَوْلِدُه: في النصف من ربيع الآخر سنة تسع وعشرين ومئتين.

أُمُّه: تُسمَّى بهَار، وقيل: عشار.

حُجَّابُه اثنان: عبد الرحمن بن شُهَيْد، وابن السَّلِيم.

وُزَراؤُه: ستَّة وعشرون.

كُتَّابه ثلاثة: عبد الله بن محمَّد الزَّجَّاليّ، وعبد الله بن محمَّد بن أبي عَبْدة، وموسى بن زيَاد.

صِفَتُه: أبْيَض، مُشْرَبٌ بحُمْرة، أصْهَب، أزْرَق، أقْنَى الأنف، رَبْعةٌ، يَـخضِب بالسواد.

---

(١) في ر٢: «أحواله».

(٢) من ر٢.

(٣) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٦، وجذوة المقتبس ٣٢، والمعجب ٥٣، وتاريخ الإسلام ٦/ ٩٦٨، ونفح الطيب ١/ ٣٥٢.

بنوه: أحد عشر، أحدُهم محمَّد المقتولُ، والدُ عبدِ الرحمن الناصر. بناته: ثلاث عشرة.

بويع في اليوم الذي مات فيه أخوه الـمُنْذِرُ في المحلَّة على بَرْبُشْتر، وذلك يوم السبت في النصف من شهر صَفَر سنة خمس وسبعين ومئتين. ثمَّ قفل إلى قرطبة بأخيه الـمُنْذِر مَيِّتًا، فاستتمَّ البيعةَ بقُرْطُبة، ودفن أخاه بقصرها. وتُوفِّي عبدُ الله سنة ثلاث مئة، وهو ابنُ اثنتين وسبعين سنة؛ فكانت خلافتُه خمسًا وعشرين سنة، وخمسة عشر يومًا[1]. ومن قول ابن عبد رَبِّه فيه [من الطويل]:

خِلافَـةُ عَبْـدِ الله حَـجٌّ عَـلَى الـوَرَى ... فَــلا رَفَــثٌ في عَــصْرِهِ وفُــسُوقُ

تَجَلَّتْ دَيَاجِي الـحَيْفِ عَنْ نُورِ عَدْلِهِ ... كَــما ذَرَّ في جُــنْحِ الظَّــلامِ شُرُوقُ

وثَقَّفَ سَهْمَ الـدِّينِ بالعَـدْلِ والتُّقَـى ... فهــذا لــهُ نَــصْلٌ وذَلِــكَ فُــوقُ

وأعْلَـنَ أسْـبَابَ الــهُدَى بـضَمِيرِهِ ... فلَــيْسَ لــهُ إلَّا بِهِــنَّ عُلُــوقُ[2]

ومَــا عَاقَــهُ عَنْهــا عَوَائِــقُ مُلكِــهِ ... وأمْثالُهـــا عَـــن مِـــثْلِهِنَّ تَعُــوقُ

وأفْضَت الخلافة إليه، وقد تحيَّفَها النَّكْثُ، ومزَّقها الشِّقاق، وحلَّ عُرَاها النِّفاق، والفتنةُ مستوليةٌ، والدُّجُنَّة متكاثفةٌ، والقلوبُ مختلفةٌ، وعصا الجماعة مُنْصَدِعةٌ، والباطلُ قد أُعْلِنَ، والشرُّ قد اشْتَهَرَ، وقد تمالأ على أهل الإيمان حِزْبُ الشيطان، وصار النّاسُ من ذلك في ظَلْماءِ لَيْلٍ داجٍ، لا إشراقَ لصباحه، ولا أُفُولَ لنجومه. وتألَّبَ على أهْلِ الإسلام أهْلُ الشِّرك ومَن ضَاهَاهُمْ من أهْل الفتنة، الذين جرَّدوا سيوفَهم على أهل الإسلام، فصار أهلُ الإسلام بين قتيل ومحروبٍ ومحصور، يعيش مجهودًا، ويموت هزلًا، قد انقطع الـحَرْث، وكاد ينقطع النَّسْلُ. فناضَلَ الأميرُ بجُهْده، وحمى بجِدِّه، وجاهَدَ عدوَّ الله وعدوَّه. وانقطع الجهادُ إلى دار الحرب، وصارت بلاد الإسلام بالأندلُس هي الثغرَ المخُوف، فكان قتالُ الـمُنافِقين وأشباهِهم أوْكدَ بالسُّنَّة، وألْزَمَ بالضَّرُورة.

---

(١) العبارة في ر٢ حول سنه ومدة خلافته فيها تقديم وتأخير.

(٢) هذا البيت ليس في ر٢.

فأوَّلُ ما تناوَلَه، ونظر فيه، أنْ وجَّه إبراهيمَ بن خَمِير لأخْذِ بَيْعة ابن حَفْصُون وبَيْعةِ مَن قِبَلَه. فقصد إبراهيمُ إليه، وطلب طاعَتَه، فظهر منه حُسْنُ مَذْهَب، فأخذ بَيْعتَه، وصدر عنه، وقَدِم معه حَفْصٌ ابنُه وجماعةٌ من أصحابه، فأُخِذَتْ عليهم البيعة، ورَدَّهم الأميرُ مَحْبُوِّين بالكرامة والرعاية. فبقيَ ابنُ حَفْصُون سامِعًا مُطِيعًا مُنْتَهِيًا عمَّا نُهِيَ عنه، واقفًا عندَ ما أُمِرَ به[1]. ثمَّ تعدَّى بعد ذلك[2] حَدَّه، ومدَّ يدَه إلى ما نُهِي عنه، فلم يَدَعْ مالًا عند مَن أمكنه، واستحْوَذَ على أهل الكُوَر في أموالهم[3]، وأمضى نفسَه على عادته الذميمةِ من الفساد وقَطْعِ السُّبُل، وذلك في سنة ولاية الأميرِ عبد الله.

وفي سنة ست وسبعين ومئتين: خرج الأميرُ عبد الله بنفسه إلى بَرْبُشْتر وحصونِ رَيُّه، فانتسف معايشَها، وقفل عنها، وقد شدَّ تلك الناحية، وأبقى بحاضرة رَيُّه محمَّدَ بن ذَنين[4] من أهل قُرْطُبَة، فخرج ابنُ حَفصون في إثره، وتألَّف إليه المفسدون، فأتوا إلى إسْتِجَّة، فاحتلُّوها، ثمَّ إلى حِصْن إسْتَبَّة، فأخذوه، فأخرج إليهم الأميرُ جيشًا، فحاصره[5] فنزل ابنُ حفصون، واعترف بذَنْبه، فعقد له الأميرُ أمانًا.

وفي هذه السنة: ولي محمَّد ابن الأمير عبدِ الله كُورةَ إشبيلية، فخرج في أيَّامه بعضُ عَرَب إشبيلية إلى قَرْمُونة، فضبطوها.

وفيها، ثار أبو يحيى محمَّدُ بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التُّجِيبيُّ المعروف بالأنْقَر.

وفيها: نقض ابنُ حَفصون وقصد بَيَّانةَ، فحارب أهْلَها، ثمَّ أعطاهم العهد، فلمّا نزلوا إليه، غدرهم، وقتَلَهم، وأخذ أموالَهم، وسبَى ذراريَهم.

وفيها: انتقضَ أهلُ جَيَّان، وأخرجوا عاملَها عبَّاسَ بن لَقِيط، وملكها ابن شاكِر.

---

(١) في ر٢ بدل هذه العبارة: «فبقي ابن حفصون مطيعًا».

(٢) «بعد ذلك» ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «على أموال أهل الكور».

(٤) في ر٢: قين».

(٥) من ر٢.

وفي سنة سبع وسبعين ومئتين: وُلد عبدُ الرحمن الناصِر[1].

وفيها: غزا القائدُ ابنُ أبي عَبْدة إلى جَيَّان، وبها ابنُ شاكِر مُخالِفًا، فحارَبَه، وحاصَرَه، وقتل جماعةً من أصحابه، وأحرق كثيرًا من دُور جَيَّان.

وفيها: خرج حفْصُ بن المرَّة إلى سَوَّار، وكمَّن له الكمائن، وأغار عليه، فلمّا خرج سَوَّارٌ في طلبه، خرجت عليه الكمائنُ، فقُتِل.

وفيها: قُتِلَ ابنُ شاكِر الثائر بجَيَّان. وسَبَبُ قتلِه: أنَّ ابنَ حَفْصُون أرادَ أن يُراجعَ طاعة الأمير، وأن يتقرَّب إليه بقتل ابن شاكِر، فبعث إليه خَيْلًا يُريه أن يمدَّه على عدوِّه، فأقبل الـمَدَدُ إليه، فلمّا خرج إليهم، فتكُوا به وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى ابن حَفْصون، فبعث به إلى الأمير عبدِ الله. وعند ذلك توجَّه ابنُ حَفْصون إلى جَيَّان، فأغْرَمَ أهْلَها الأموالَ الجسيمة. وأقامت جَيَّانُ وإلْبِيرة مُدّةً دون عاملٍ من الأمير.

وفي سنة ثمان وسبعين ومئتين: خرج الأميرُ عبد الله إلى بُلايّ من عمل قَبْرة، وبها عدوُّ الله ابنُ حَفْصون مع جماعةٍ كبيرة من أصحابه أهلِ الفساد والارتداد، وكانوا قد أضرُّوا بأقاليم قُرْطُبة، وضيَّقوا عليهم حتى أغاروا على أغنام قُرْطُبة. فخرج إليهم الأمير مستهلَّ صَفَر، واحتلَّ به، فناهَضَه وصادَقَه القتال، فانهزم هو ومَن معه، ولجأ إلى حصنِه مع ملإٍ من أصحابه، وعُوجِلَ عشيرُه عن الدخول معه، واتُّبِعوا، فلم يخلصْ منهم أحدٌ؛ فبات الأميرُ قريرَ عَيْنٍ، والمسلمون كذلك، وقد أخذوا عليه تلك اللّيلةَ البابَ رجاءَ أن يأتيَ الصّباح، فيؤخَذَ داخلَ الحصن. ثمَّ خرج منه مع بعض أصحابه، فنجا ونَجوْا. ولـمّا أصبح، أُعلم السلطانُ بخبره، فأرسل[2] الخيلَ في أثره، فلم يُعْلَم له خبر. ودخل الأميرُ الحصنَ يومًا آخَرَ، فوجده مُتْرَعًا بالذُّخْر، مَلآنَ من العُدَد، وكان عَدَدُ عسكر الأمير ثمانيةَ عشر ألف فارس. وقيل: إنَّ ابنَ حفصون ألَّبَ أهلَ حصون الأندلُس كلِّها، وأقبل إليه في ثلاثين ألفًا. ووقعت الحربُ بينهم، فانهزم عدوُّ الله، وقُتِل أكْثَرُ مَن كان معه. ودخلت جملةٌ منهم

(١) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧.

(٢) في ر٢: «فوجه».

في محلَّة الأمير، فأمر بالتقاطهم، فأُتي بألفِ رَجلٍ منهم، فقُتلوا صَبْرًا بين يديه. هكذا ذُكِر في «بَهْجة النَّفْس».

ثمَّ قصد الأميرُ إسْتِجَّة، فنازلهم، وحاربَهم، وقَتَلَ لهم عددًا كثيرًا. فلمّا أخذهم الـجَهْدُ، رفعوا الأطفالَ على الأيدِي في الأسوار، مستَصْرِخين، ضارعين، راغبين في العفو، فعفا عنهم.

وفي سنة تسع وسبعين ومئتين: غدر أهلُ أُرْجُذُونة بأحمدَ بنِ هاشِم. ونقض ابنُ حفصون ما كان انعقد[١] من السِّلم والطَّوع.

وفي سنة ثمانين ومئتين: توجَّه الـمُطَرِّف ابن الأمير عبدِ الله بالجيش إلى ابنِ حفصون ببَرْبُشْتر، فحاصرها، وهتك جميعَ ما حوالَيْها[٢].

وفيها: أمر الأميرُ عبد الله ببُنيان[٣] حِصْن لَوْشة[٤]، وأبقى عليه إدريسَ بن عُبَيْد الله.

وفيها: دخل إذْفُونْش بن أُرْدُون[٥] مَدينةَ سَمُّورة[٦] وبناها، وكانت من بنيان عَجَم طُلَيْطُلة.

وفي سنة إحدى وثمانين ومئتين: أغزى الأميرُ عبدُ الله عَبْدَ الملك بن أُمَيَّة[٧]، فتقدَّم إلى حصون ابن مَسْتَنَة، ونازَلَ حصنَ آشَر، وحارَبَه، وقَتَلَ من أهلِه عددًا كثيرًا، وهدم حِصْنَ السَّهْلة، ثمَّ قفل إلى قُرْطُبة.

---

(١) في م: «عاهد عليه».

(٢) الإحاطة ٣/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) في ر٢: «ببناء».

(٤) ينظر عنها معجم البلدان ٥/ ٢٦.

(٥) هو الفونسو الثالث.

(٦) معجم البلدان ٣/ ٢٥٥ وهي Zamora.

(٧) هو عبد الملك بن عبد الله بن محمد بن أمِته بن زيد بن عبد الرحمن بن أبي حوثرة، أبو مروان (الحلة السيراء لابن الأبار ٢/ ٣٧٣).

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين: غزا بالصّائفة الـمُطَرِّفُ ابن الأمير عبد الله. وقادَ الصائفةَ[1] عبدُ الملك بن أُمَيَّة. فلمّا كان بمقرُبة من إشبيلية، قبض على القائدِ عبد الملك، وقتله، وقدَّم على قيادة العسكر أحمدَ بن هاشِم[2]. وأقام العسكرُ في الموضع أربعةَ أيَّام، وكتب أمانًا لأهل إشبيلية، وأمانًا لأهل شَذُونة، فدانت له، وقبض جبايتَها، ودوخ تلك البلادَ. ثمَّ رحل إلى إشبيلية، فناشَبَهم الحربَ، فانهزم أهْلُ إشبيلية، ووقع فيهم القتلُ إلى سُور المدينة، ثمَّ أجاز الوادي، يتتبّع القُرَى بالنسف والتغيير.

وفي هذه السنة: ضمَّ الـمُطَرِّفُ ابنُ الأمير عبدِ الله[3] إبراهيمَ بن حَجَّاج وابْنَ خَلْدُون[4] وابنَ عبد الملك الشَّذُونيَّ إلى السجن، وأوثقهم في الحديد. وقطع لسانَ سَحْنُون الكاتب، وضرب ظَهْرَه.

وفيها: أتت جبايةُ إشبيلية. وعندما أتت، أطلق ابنَ حَجَّاج وابنَ خَلْدُون والشَّذُونيَّ من سجن قُرْطُبة.

ذكر ثَوْرة بني حَجَّاج بإشْبِيلِيَة

وذلك أنَّ إبراهيمَ بن حَجَّاج ترك وَلَدَه رهينةً بقُرْطُبة، ورجع إلى بلده إشبيلية، فتوزَّع كُورَتَها على نصفَيْن: خرج إبراهيمُ بالنِّصف، وابنُ خَلْدُون بالنّصف. وبَقِيَا كذلك أعوامًا. وكان الأميرُ عبد الله قد أخذ في الضَّرْب بينهما، ويكاتِبُ كلَّ واحد منهما بما يَراه من صاحبه. فلمّا كان في بعض الأيَّام، كتب إبراهيمُ بن حَجَّاج وكُرَيْبُ بن خَلْدُون إلى الأميرِ عبد الله في مصَالحِهما؛ وكتب معهما خَالدُ بن خَلْدُون أخو كُرَيْب كتابًا يُغْرِي فيه بإبراهيمَ بنِ حَجَّاج عند الأمير، ويقول: إنَّه في قَبْضَتهم، فكتب له جوابَه على نصِّ كتابه، وخرج الحامِلُ بالكُتُب إليهم، فسقَطَ له كتابُ خالدٍ الذي كان بعث للأمير، فأخذه بعضُ فِتْيان القَصْر، فقرأه وعلم ما فيه، فدفعه لرسولِ

---

(١) في ر٢: «والقائد».

(٢) الحلة السيراء ٢/ ٣٧٤.

(٣) ترجمته في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٦.

(٤) هو كريب بن عثمان بن خلدون، كما في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٦.

إبراهيم بن حَجَّاج، وقال له[1]: «اسبِقْ به مَوْلاك[2]!»، فلمّا وصل الرسولُ والكِتابُ إلى إبراهيم، علم حقيقةَ ما يحتوي عليه ابنا خَلْدُون من سُوء الباطِن. وكان هذا في[3] سنة ست وثمانين ومئتين. فعند ذلك، تلطَّف إبراهيمُ في طعام، ودعا ابنَيْ خَلْدُون، فوَصَلا إليه، فلمّا استقرَّ المجلسُ بهم، أخذ إبراهيمُ في عِتاب كُرَيْب وأخيه خالِد، وأخرج الكتابَ الذي بعث به الأميرُ إليهما، وأوقفهما عليه، وأبلغ في عِتابهما، وأكثر في ذلك عليهما. فأخرج خالِدٌ سِكِّينًا كانت في كُمِّه، فضرب بها رأسَ إبراهيمَ بنِ حَجَّاج، فمزَّق قَلَنْسُوَتَهُ، وضربه في وجهه، فلمّا صدر منه ذلك، نهض إبراهيم، ودعا مَن حضر من رجاله، فعَلَوْهُما بالسيُّوف، حتّى قتلوهما، وألقى رأسَيْهما إلى أصحابهما ورجالهما، فتفرَّقوا. وتتبَّعهم إبراهيمُ بالقتل والنَّهْب، ودفن جَسَدي ابنَيْ خَلْدُون، وانقادَ له جميعُ أهل الكُوَر الملاصقة لإشبيلية. وخاطب عند ذلك الأميرَ عبدَ الله، يتبرَّأُ له من دَمِهما، ويقول: إنهما كانا يَحْمِلانِهِ على النَّكْث، وإنَّه الآن على الطّاعة، وطلب منه ولايةَ إشبيلية، فأجابه الأميرُ إلى ذلك. وانفرد إبراهيمُ بولاية إشبيلية، فاجتبى الأموالَ، واصطنع الرِّجال، وارتقى في الأحوال، وامتدَّت لفضائله الآمال، وكان له حميدُ آثار، وجميلُ أخبار[4]، فاق[5] بها أهلَ عصره، وحسن في الآفاق طيبُ ذكره.

ولم يزل بعد ذلك إبراهيمُ بن حَجَّاج يشتطُّ[6] على الأمير عبدِ الله، إلى أن سأله إطلاقَ ولده عبدِ الرحمن الرهين عنده، فلم يُسعفه الأميرُ عبد الله في ذلك؛ فنبذ إبراهيمُ الطاعةَ عند ذلك، وظاهَرَ ابْنَ حَفْصُون، وأمدَّه بالمال والرِّجال؛ نكايةً للأمير عبدِ الله، فقويتْ شوكةُ ابنِ حَفْصون، وازداد به طماعيةً، وفي خلال[7] ذلك، لم يزل إبراهيمُ يُدَسِّس ويُرسل مَن يُشير على الأمير بإطلاق ولده، ويتضمَّن له عَوْدَه

(١) ليست في ر٢.
(٢) في ر٢: «إلى مولاك».
(٣) ليست في ر٢.
(٤) في ر٢: «أفعال».
(٥) من هنا إلى نهاية الفقرة لم يرد في ر٢.
(٦) في ر٢: «يبسط»، وهو تصحيف.
(٧) في ر٢: «أثناء».

إلى الطاعة، حتَّى وافَقَ السُّلطانُ على ذلك، فأطلق عبدَ الرحمن بن إبراهيم، وأعظم الإحسانَ إليه، وجدَّد له التَّسجيلَ على بلده إشبيلية، فعاد إبراهيمُ إلى ما كان أوَّلًا عليه من[1] الطاعة، واستقامت أحوالُ تلك النواحي على يديه.

قال حَيَّان بن خَلَف[2]: لـمّا ملك إبراهيمُ بن حجَّاج إشبيليةَ وقَرْمُونة وما والاهما، ارتفعَ ذِكرُه، وبَعُدَ صيتُه، واتَّخذ لنفسه جُنْدًا، ورتَّب لهم الأرزاقَ كفِعْل السلطان، فكَمُل في مَصَافِّه خمسُ مئة فارس. وكان لإبراهيمَ بنِ حَجَّاج في بسَاط السلطان بقُرْطبة قومٌ يَقِفُون في حقِّه، ويُعْلِمونه بما عند السلطانِ من حاله، وينصحونه في أمره. فعند ذلك، أقلع عمَّا كان عليه من موافقة ابنِ حَفْصون، واعترف بحقِّ أمير الجماعة، فعامَلَه الأميرُ بما شُهِرَ له من الفضل. وكانت منزلتُه عنده أعلى منزلة[3]، إلى أن تُوُفّي، رحمه الله.

وذكر حَيَّان أيضًا قال: كان لإبراهيم بن حَجَّاج في بلده إشبيليةَ قاضٍ يقوم بالـحُكم، وصاحِبُ مَدِينة يُقِيم الـحُدُود، جرى في ذلك كلِّه مَـجْرَى السلطان في حضرته. قال: وكان فَظًّا على أهل الرِّيَب، قامعًا لأهل الشرّ، وكان مُنْتجَعًا على البَرّ والبحر، مقصودًا بالغرائب والطُّرَف. وكانت له بإشبيلية طُرُزٌ يُطْرَزُ فيها على اسمه كفِعْل السلطان إذ ذاك، وكانت قَرْمُونة تحت مملكته، وهو الذي حصَّنها وحسَّن بنيان سورها، وفيها كان مَرْبَطُ خيله المتَّخَذة لركوبه، وبينها وبين إشبيلية كان تَرْدادُه سائرَ أوقاته. وكان جوادًا، ممدَّحًا، يرتاحُ للثناء، ويُعْطِي الشُّعراءَ، ويضاهي في فعله كبارَ الأُمراء، ويتفقَّد أهلَ البيوتات والشَّرَف بالعطاء. وكان[4] أهْلُ قُرْطُبة متعرِّضين لسَيْبِه، فيُكرمهم ويَصِلُهم. وقد انتجعه شاعرُهم الأكْبَر أبو عُمَر أحمدُ بن عبد رَبِّهِ من بين جميعِ ثُوَّار ذلك الوقت بالأندلُس، فعرف قَدْرَه، وأفضل عليه.

ومن قوله فيه، يَصِفُ تنقُّلَه من إشبيلية إلى قَرْمُونةَ [من الطويل]:

---

(١) قوله: «ما كان أولاً عليه من» ليس في ر٢.

(٢) المقتبس ١١ فما بعدها (ط. انطونيا).

(٣) «وكانت منزلته عنده أعلى منزلة» ليست في ر٢.

(٤) من هنا إلى آخر القطعة الثانية من الشعر لم يرد كله في ر٢.

ألا إنَّ إبـــراهيمَ لُـــجَّةُ ســـاحِلٍ   مِن الجودِ أرْسَت فوقَ لُـجَّةِ سـاحِلِ
فإشْـبيلَةُ الزَّهْـراءُ تُزْهَـى بمجـدِهِ   وقَرْمُونـــةُ الغَـرَّاءُ ذاتُ الفَـضَائِلِ
إذا مَا تجَلَّـتْ تِلْـكَ مـن نِـورِ وَجْهَـهِ   غَـدَت هـذِهِ للنـاسِ في زِيّ عاطِـلِ
وإنْ حـلَّ هـذِي فهْـوَ يُـوحشُ هـذِهِ   فَتَهـدِي بُرسْـلٍ نَحْـوَه ورَسَـائِلِ

وهي طويلة. ومن قوله أيضًا من قصيد طويل [من الوافر]:

كتـــابُ الـــشوقِ يَطْوِيـــهِ الفُـــؤادُ   ومـــن قـــبضِ الـــدُّموعِ لَـــه مِـــدادُ
تخُـــطُّ يَـــدُ البكـــاءِ بـــه ســـطوراً   عـــلى كبِـــدِي ويمليهـــا الـــسُّهادُ
وكَيْـــفَ وبي فـــؤادٌ مـــستطيرٌ   لِـــمَن لا يـــستطيرُ لـــه فُـــؤادُ
أمِـــنْ يُمْـــنٍ يكـــون الجـــودُ خلـــوًا   وإبـــراهيمُ حاتِـــمُها الـــجَوَادُ
زيارتـــه لِـــمَن يأتيـــهِ حَـــجٌّ   ومِدْحتُـــه رِبـــاطٌ أو جِهَـــادُ
ومـــا لي في التخلُّـــفِ عَنْـــه عـــذْرٌ   ولي في الأرض راحِلـــــةٌ وزَادُ

ولأحمد بن عبْد رَبِّهِ كبير شعراء قرطبة[1] في إبراهيم بن حَجَّاج أشعارٌ كثيرةٌ، ولغيره من الشعراء. وذكر ابن أبي الفيَّاض أنَّ محمَّد بن يحيى القَلْفاط الشاعِر القُرْطُبِيَّ قصد الأميرَ إبراهيم بن حجَّاج يمدحه بقصيدة نونيَّة، أوَّلُـها [من الخفيف]:

أزِفَتْ رِحْلَتِي فَاهْمَتْ جُفُونَا

ثمَّ أخذ في هجاء عشيرته أهْلِ قُرْطُبة، وكُبَرائِها، وعُظَماء دولتها، فأفْحَش عليهم. فلمّا أنشد القصيدةَ لإبراهيمَ بن حجَّاج، زها به، وحَرَمه وأساء ذِكْرَه، فانصرفَ خائبًا من نَواله، جانيًا ثمرةَ فِعاله ومقَاله. فلمّا وصل قُرْطُبة، أخذ يهجو إبراهيمَ بن حَجَّاج بقصيدة أوَّلها [من الكامل]:

لا تُنكِرِي للبَيْنِ طولَ بُكائي

---

(١) «كبير شعراء قرطبة» من ر٢.

فلمّا بلغتْ إبراهيم، أغْضَبَتْه، فأوصى مَن قال له عنه يمينًا مغلَّظةً: «إنَّه إن عاد لِـما وقع فيه، لآمُرَنَّ بأخْذ رأسه بقُرْطُبَة على فراشه! فارتاع القَلْفاط المذكور لذلك، وكفَّ[1]. فكان[2] هذا الفِعْلُ لإبراهيمَ في حقِّ أهل قُرْطُبَة أجلَّ مكرمةٍ، وعُدَّ في جُملة فضائله. ولأجْل هذا ساقَه القاضي ابنُ أبي الفَيَّاض رحمه الله وقد قصده العُذْرِيُّ من الـحِجاز، فراعى حقَّه، وأكرم[3] مثواه، وأناله جزيلَ خيره. ورفع الناسُ ذكرَه[4] وقد ذكر أبو عامِر السالِـميُّ في كتابه المسمى بـ«ـدُرَر القَلائد وغُرَر الفَوَائد» أن الأميرَ الرئيس الـهُمام الـجَوَاد الـحَسِيب[5] أبا إسحاق إبراهيمَ بن حَجَّاج سمع بجاريةٍ بَغْداديَّة اسْمُها قَمَر[6]، فوجَّه بأموالٍ عظيمة إلى المشرق في ابتياع هذه الجارية[7]، إلى أن استقرَّت بدار مملكته إشبيلية، وكانت كالبدرِ الـمُنير، ذاتَ بَيَان وفصاحة ومعرفة، بالألحان والغناء، فوجدها قَمَرًا عند اسْمِها، وكان لها شِعْرٌ يُسْتَحْلَى ويُسْتَحْسَن. فمن قولها تَرُدُّ على مَن عاذَها [من البسيط]:

قـالُوا: أَتَـتْ قَمَـرٌ في زِيِّ أطْـمَارِ ... مِـنْ بَعْـدِما هَتكَـتْ قَلْبًـا بِأشْـفَارِ

تُمْسِي[8] علَى وَحَلٍ[9] تغدو على سُبُلٍ ... تَـشُقُّ أمـصارَ أَرْضٍ بعْـدَ أَمْـصَارِ

لا حُـرَّةٌ هِـيَ مِـنْ أحـرارِ مَوْضِعِها ... ولا لَـهـا غـيرُ تَرْسِـيلٍ وأشْـعَارِ

لـوْ يَعْقِلُـون لـمَا عَـابُوا غَـرِيبتَهمْ ... لله مِـنْ أمَـةٍ تُـزْرِي بـأحْرارِ

---

(١) الخبر في المقتبس ١٣٣، وتنظر الحلة السيراء ٢/ ٣٧٧.

(٢) من هنا إلى قوله «رحمه الله» بعد سطرين ليس في ر٢.

(٣) في ر٢: «ورفع».

(٤) قوله: «ورفع الناس ذكره» ليس في ر٢.

(٥) في ر٢ جاءت العبارة كما يأتي: «ذكر أبو عمر السالمي أن الأمير الحسيب».

(٦) ترجمتها في التكملة الأبارية ٤/ ٢٢٦.

(٧) في ر٢: «في ابتياعها».

(٨) في ر٢: «تمشي».

(٩) في ر٢: «مهل».

مـا لابْـنِ آدَمَ فَخْـرٌ غَـيْرَ هِمَّتِـهِ	بَعْـدَ الديَانَـةِ والإخـلاصِ للبَـارِي
دَعْنِي من الـجَهْلِ لا أَرْضى بـصاحبِهِ	لاَ يَخْلُصُ الجَهْلُ من سَبٍّ ومن عَـارِ
لـوْ لـمْ تَكُـنْ جَنَّـةٌ إلَّا لجَاهلـةٍ	رَضِيتُ من حُكمِ رَبِّ الناسِ بالنّـارِ

ولم تزل مُدَّةُ إبراهيم تتمشَّى على أحسن حال وأجزلِه[1]، وأهذب[2] زيٍّ وأكمله، تَقَضَّتْ زينًا لعَصْرِه، وفخرًا له بها على أهل مِصْرِه، لم يلحَقْه في ذلك أحدٌ في وقته، ولا قَدَرَ على نَيْل مرتبته، إلى أن وافَتْه مَنِيَّتُه فُجاءةً، وذلك عام ثمان وثمانين ومئتين. وولِيَ ابنُه عبدُ الرحمن بن إبراهيم بن حجَّاج بعد أبيه، وطالت مدَّتُه ثلاثَ عشرة سنة، وتُوُفِّي سنة إحدى وثلاث مئة. وكان أخوه محمَّدُ بن إبراهيم بن حجَّاج، رحمه الله، صاحبَ قَرْمُونة في حياة أبيه وبعد موته إلى أن مات أخوه، ولم يستقرَّ بإشبيلية[3]، ولا حَكَمَها. وقيل: إنَّه دسَّ على أخيه عبدِ الرحمن جاريةً سمَّتْه، فمات من ذلك.

قال ابنُ أبي الفَيَّاض: كان محمَّدُ بن إبراهيم بن حَجَّاج صاحبَ قَرْمُونة بعد موت أبيه، وكانت له بها دولةٌ حسنةٌ وأيَّامٌ صالحةٌ، شُهِرَ في الفضل ذِكْرُه، وانبسطَ على ألْسِنة النّاس شُكْرُه، قُصِدَ من الأقطار، ومُدِحَ بجيِّد الأشعار، فأنالَ القاصدينَ، ومَنَحَ المادحينَ. ولـمّا توفِّي أبوه، وليَ إشبيليةَ أخوه عبدُ الرحمن؛ إذ كان كبيرَه. وكان محمَّدٌ يزيد على عبدِ الرحمن بأشياءَ من المحامِد، خُصَّ بها في وقته فحُمِد، وظهر أثرُ الإمارة[4] في فعاله فشُكِر وحُسِد. وكانت دولتُه بقَرْمُونة أضْخَمَ من دولة أخيه بإشبيلية وأطْوَلَ، وذلك أربع عشرة سنةً بعد موتِ أبيه. وتوفِّي عام اثنين وثلاث مئة.

قال الرازيّ: افتتح الناصِرُ لدين الله إشبيليةَ سنة إحدى وثلاث مئة، وكان سَبَبُ ذلك موتَ عبدِ الرحمن بن إبراهيم بن حَجَّاج الـمُنْتَزِي فيها بعدَ والده، واجتماعَ

(١) في ر٢: «على أجمل حال وأهدنه».
(٢) في ر٢: «وأجمل».
(٣) في ر٢: «يملك إشبيلية».
(٤) في ر٢: «السيادة».

أهلِها مِنْ[1] بعدِه على تقديم أحمدَ بنِ مَسْلَمة، ودَفْعَهم لأخي عبدِ الرحمن محمّدِ بن إبراهيم صاحبِ قَرْمُونة، ومخالفةَ محمَّدٍ ومَن معه بقَرْمُونة، ولِيَاذَه بسُلطان الجماعة. فبعث الناصرُ عسكرًا إلى إشبيلية، فجَرَتْ بينهم حروبٌ عظيمةٌ. ثمَّ بعث الأميرُ عبد الرحمن الناصرُ إلى محمَّدِ بن إبراهيم بن حَجَّاج، وأمَرَه بالتضييق على أهل إشبيلية، وعَقَدَ له على ذلك، وأشرك معه فيه قاسِمَ بن الوَلِيد صاحبَ شُرْطَته في ذلك الوَقْت، وكان بينه وبين محمَّدٍ صداقة، فخرجا معًا من قُرْطُبَةَ إلى قَرْمُونة، ومنها دَنَوَا إلى إشبيلية. فتردَّد محمَّدٌ وقاسم بالـجُموع على إشبيلية، ومَلَكا أقالِيمَ الشَّرَف، وأقالِيم طَالِقة، وإقليم إلبة وغيرها، وأخذا بمُخنّق ابنِ مَسْلَمة صاحب إشبيلية، فاستجاش ابنُ مَسْلَمة برأس النِّفاق اللعين ابنِ حَفْصون، فأتاه بنفسه، وخرج معه من مدينة إشبيلية، وجاز النهر، وكان الجيش بحصن قَبْرة، وفيه محمدُ بن إبراهيم بن حجَّاج، وقاسم بن وَلِيد، فخرجا إليهما بمن معهما من حَشم السلطان، فانهزم ابنُ حَفْصون، وفرَّ على وجهه، حتى لَـحِق بقَلْعته. فتأمَّلَ ابنُ مَسْلَمة مُنْتَشَبَه مع ابن عمِّه محمَّدِ بن حَجَّاج، ودخولَه معه في وراثة أبيه، وأنَّه لا طاقةَ له به؛ فأخذ في إصلاح ما بينه وبين السلطان الناصر، فراسَلَه بأن يُعْطيَه إشبيلية. فوصَلَهُ الحاجِبُ بَدْرٌ، وتملَّك السلطانُ إشبيليةَ دون إراقة دَم ولا قتال. فلمّا استقرَّ الحاجبُ بإشبيلية، أحضر أهلَها، ووعدهم عن السلطان بكلِّ جميل، وأن يُجْرِيَ عليهم عوائدَهم مع بني حجَّاج وزيادةً على ذلك، فرضي القوم، وتمَّ الأمرُ للحاجب وابنِ مَسْلَمة. وأخذ الحاجبُ في مخاطبة محمَّدِ بن حجَّاج، يُعَرِّفه بتملُّك السلطان إشبيلية، وأنَّ السلطان أمَرَه بالكفِّ عن حصارها. فعند وقوف محمَّدٍ على الكتاب، ساءَه ذلك، وتغيَّر له، وخرج من حصن قَبْرَةَ الذي كان به مع قاسِم بن وَلِيد ناكثًا للطاعة، وسرى ليلتَهُ مع جموعه قاصدًا بلده قَرْمُونة[2]، فلقي في طريقه أغنامًا لأهل قُرْطُبة، فأغار عليها، وحملها معه إلى قَرْمُونة، فدخلها، وأظهر التمنُّعَ بها. فأخرج إليه الناصرُ لدين الله صاحِبَ الـحَشَم، فلمّا وصله وخاطبه بما أمَرَه به السلطان، ردَّ عليه الأغنامَ بجُملتها.

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) من هنا إلى قوله: «قرمونة» سقط من ر٢.

ولـمّا رجع صاحبُ الـحَشَم إلى قُرْطُبة، خرج محمَّدُ بن حَجَّاج من قَرْمُونة بجيشه، فوصل إشبيليةَ عند الصباح، فهجمَ عليها. وكان بعضُ سُورها مهدَّمًا، فطمع فيها، فخرج إليه العامِلُ عليها من قِبَل السلطان، فهزمَهُ عنها، فرجع إلى قَرْمُونة. فلمّا علم الناصرُ بذلك، وجَّه عسكرًا إلى عامِل إشبيلية؛ تقويةً له، فحصَّن البلدَ على نفسه، وأمِنَ من عادية محمَّد بن حَجَّاج. ولـمّا طالَ على الناصر تَـمادي محمَّدِ بن حجَّاج على العِناد، بعث إليه[1] صديقَه ابن وَلِيد، طالبًا منه العودة إلى الطاعة، فلم يزل به حتى أظهرَ الإنابةَ له، فأنفذ محمَّدُ بن حَجَّاج خاصَّته إلى الناصر، فوصلَ إليه، فألـحَقَه الناصِرُ بنفسه، وشافَهَه بما ألقاه إليه محمَّدٌ، وأعلمه أنَّه يَنْعَزِل عن قَرْمُونةَ ويسكنُ قُرْطُبة، على أن يتركَ بها[2] نائبَه، فأجابه الناصرُ لذلك كلِّه، ووَعَدَه بتتميم أغراضه. فلمّا وصل الرسولُ إلى محمَّد بما ألقاه إليه الأمير الناصر، خرج من قَرْمُونَةَ في شهر رمضان المعظَّم من عام أحد وثلاث مئة، ووصل قُرْطُبَةَ مع وجوه قومه وعدَّةٍ من رجال، فأمر لهم الناصرُ بالكُسَى، ووَصَلَهم على أقدارهم ومنازِلهم عند محمَّد، وأجزلَ لهم الصِّلَة، وأعطى محمَّدًا العطاء الـجَزْل، وقَرَّبه من نفسه، وولَّاه من حينه خُطَّةَ الوزارة، مُنَوِّهًا، مُرَفَّعَ الذِّكْر. ثمَّ خرج الناصرُ لدين الله غازيًا، فأغزاه معه وزيرًا.

وكان حَبِيبُ بن عُمَر الوالي على قَرْمُونة من قِبَل السلطانِ قد امتنع بقَرْمُونة. فحاصر الناصرُ قَرْمُونة، ومحمَّدُ بن حجَّاج معه[3] وزيرًا، فسَعى به عند السلطان مَن كان يَـحْسُده، وقال له: «إنَّما نَافَقَ ابنُ عُمَر مع محمَّد وبأمره!» فعزله عن الوزارة، وحبسه، وحبس معه ابْنَ وَليد صاحِبَ الشرطة. ثمَّ أُطْلِقا بعد ذلك. فلم يلبث محمَّدُ بن حَجَّاج بعد ذلك إلَّا يسيرًا، وتُوفِّي في شوَّال سنة اثنتين وثلاث مئة.

ومن أخبار عُمَر بن حَفْصُون في أيّام الأمير عبد الله

وعندما وَلِـيَ عبدُ الله الخلافة، ووافَتْه الكُتُب من البلاد، واجتمعتْ على طاعته جميعُ العباد، رأى عُمَرُ بن حَفْصُون على فَرْط عِناده، وعُتُوِّه في الأرض وفسادِه، أن يدخلَ

(١) في ر٢: «معه».

(٢) في ر٢: «بقرمونة».

(٣) في ر٢: «عنده».

في جماعته، ويلتزمَ بفروض طاعته. فأرسل ابنَه حَفْصًا إلى قُرْطُبة مع جماعةٍ من أصحابه، على أن يَعقدوا مع الأمير سِلْمًا مُنْتَظِمًا، وصُلْحًا مُبْرَمًا، لا يُحيله حال، ولا يلحقه مُحال، على أن يستقرَّ عُمَرُ بن حَفْصُون ببَرْبُشْتر على الطوع، ويقيمَ بها على الطاعة والسَّمْع. فقبل الأميرُ نزاعَه، وسمح بإبقائه هنالك، وأصدر ابْنَه ورُسُلَه إصدارًا جميلًا، ومنحهم بِرًّا جزيلًا، ووجَّه معهم عبدَ الوهَّاب بن عبد الرَّؤُوف واليًا على كُورة رَيُّه، ومشاركًا لابن حَفْصُون في عَقْدِه[1] وحَلِّه، ومُساهِمًا له في توليته وعَزْلِه. فمكثا شريكَيْن في الأمر والنَّهْي، إلى أن غلب ابنُ حَفْصُون على عبد الوهَّاب، وأخرجه من الكورة مُنْبَتَّ الأسباب. واشتدَّت مَعرَّتُه، وتأكَّدت عاديتُه ومضرَّتُه، حتَّى همَّت القُرَى بالخلاء، والناسُ بالجلاء. ولم يَبْقَ بالقَنْبانِيَة قَرْيةٌ إلَّا غَشِيَتْها الـخَيْل، وعمَّتها الذِّلَّةُ والوَيْل، قد ملك اللعينُ إسْتِجَّة وأُرْجُذُونة، وأجادهما ثِقافًا، وصيَّرَ فيهما من الآلات أصنافًا.

فلمّا رأى الأميرُ عبد الله ما أحاط بقُرْطُبَةَ من ابن حَفْصُون، ودار عليها من الحرب الزَّبُون، أمر بإخراج السُّرَادِق إلى فَحْص الرَّبَض بشَقُنْدة. فلمّا اشتدَّت[2] أطنابُه، ومُدَّت حبائلُه وأسبابُه، بعث ابنُ حفصون خَيْلًا تَرْمِي على شَقُنْدة لَعَلَّها تأخُذ السُّرَادِق السُّلطانيَّ وتفوزُ به، وتَهْجم على البَلَد وتُحِيط بجانبه. فخرجتْ لهم[3] الخيلُ إثْرَ ذلك، وطردَتْهم طردًا من هنالك، ووصلت إلى ابن حفصون، فدفعَتْه عن الـجِهة، ومنعَتْه من[4] تلك الوجهة، وأوى إلى حصن بُلَيِّ بقَبْرة، فجمع له الأمير أَهْلَ قُرْطُبة، وسار إليه في نحوِ أربعة عشر ألفًا. وحشد ابنُ حفصون نحوَ ثلاثين ألفًا، فصدمه الأميرُ بمن معه، فنثر عِقْدَه وفرَّق جَمْعه، فعَملتِ السيوفُ في رقابهم، وتَبِعَتْ سبيلَ أعقابهم، حتى رَوِيَت الأرضُ من دمائهم. ودخل الأميرُ عبد الله القِلاعَ الثائرة عليه، وصارت يومئذٍ في يديه.

وفي ذلك يقول ابنُ عبد رَبِّه [من الكامل]:

رَامَ ابْنُ حَفْصُونَ النجاةَ فلَمْ يَسِرْ   والسَّيْفُ طالِبُهُ فلَيس بِنَاجِ

---

(١) في ر٢: «نقضه».

(٢) في ر٢: «امتدت»، وكلاهما بمعنى.

(٣) في ر٢: «عليهم».

(٤) في ر٢: «عن».

فِي لَيْلَـــةٍ أَسْرَتْ بِـــهِ فكَـــأنَّمَا خِيلَـتْ نَقيـضَةَ لَيْلَـةِ المِعْـراجِ
مَـا زَالَ يُلْقِـحُ كُـلَّ حَـرْبٍ حَامِـلٍ فـالآنَ أَنْتَجَهـا بـشَرٍّ نِتـاجِ
رَكِبُـوا الفِـرَارَ بعُـصْبةٍ قَـدْ جَرَّبـوا غِـبَّ الـسَّري وخوافـتِ الإدلاجِ
وإذا سَـأَلْتَهُمُ: مَوَالِـي مَـنْ هُـمُ قَـالُوا: مَوَالِـي كُـلِّ لَيْـلٍ دَاجِ

ولـمّا رجع ابنُ حفصون إلى بَرْبُشْتر، حشدَ أعوانَه، وجدَّد للعَرْض ديوانَه، وخرج بجَمْعِه إلى إلْبيرة، وأدارَ بها حَرْبًا مُبيرة، إلى أن تغلَّب عليها بأيْده، وقبض على عاملها بكَيْدِه. فأخرج الأميرُ عبد الله العسكرَ إليه، وقدَّم ابنَ أبي عَبْدة عليه[1]. فلمّا تدانى الفريقان، وتراءى الجمعان، هجمتْ خيلُ ابن أبي عَبْدة على خيل ابن حَفْصون،فعكَسَتْهم عسكًا، وطمستْ آثارهم طَمْسًا، وأُثقِلَ ابنُ حفصون بالجراح، وآبَ من النَّصْر صِفْرَ الراح، قد ركب الأوعار، واحتمل الـخِزْيَ والعار، وبلغَ حصنَ بَرْبُشْتر مَفْلولًا، خاسرًا ذليلًا. ثمَّ عاد إلى عاده، وسبيلِ بَغْيه وفساده. وفي كلِّ ذلك كان الأميرُ عبد الله يهزم جيشه، ويروع ببأسه جأشَه، حتَّى خمدتْ نيرانُه، وملَّت أنصارُه وأعوانُه. فلمّا توفّي الأميرُ عبد الله، وولي الناصرُ لدين الله، بادر إلى الطاعة، والدخولِ في الجماعة[2]، ثمَّ نكث وخان، حتَّى هلكَتْه[3] الأزمان.

جُملة الثُّوّار ببلاد الأَنْدَلُس في أيَّام الأمير عبد الله، الخارجين عن الجماعة، الـمُضْرِمين لنار الفِتْنة

أوَّلهم: ابنُ حفصون، وقد تقدَّم ذكرُه. وتأتي بقيَّة أخباره بحسب السنين.

وثار سوَّارُ بن حَمْدُون[4] بحصن مُنْت شاقَر[5]، فقام إلى جَعْدٍ[6] عامل إلبِيرة

(١) في ر٢: «بين يديه».

(٢) في ر٢: «في حزب الجماعة».

(٣) في ر٢: «أبادته».

(٤) ترجمته في الحلة السيراء ١/ ١٤٧.

(٥) في ر٢: «منت شافند»، وهو تحريف، وهو حص مطل على سهل غرناطة Monte Sacro.

(٦) هو جعد بن عبد الغافر.

بمن معه، فهزم جَمْعَه، وأخذه أسيرًا، وأراه يومًا عسيرًا. ثمَّ أطلقه من عِقاله، وعمَّه بإفضاله، وانصرف إلى إلبيرة بلدِه، ومَقَرِّ أهله وولده. وسار سَوَّارٌ إلى غرناطة، وأغار على حُصونِ ابن حَفْصون، فاجتمعَ أهلُ إلبيرة في نحو ثلاثة وعشرين ألفًا، فلقيهم سوَّارٌ في عدد قليل، فلاذوا بالفِرار والنُّفور، وصاروا كالـهَبَاء المنثور، ونيطَت بهم الـحُتُوف كَسْفًا، وقُتل منهم على ما ذُكر اثنا عشر ألفًا، وذلك في سنة ست وسبعين ومئتين.

وكانت بين سوَّارٍ هذا وابن حَفْصون ملاقاةٌ انقلبَ فيها ابنُ حَفْصون مهزومًا، وتولَّى مَلُومًا مَذْمومًا، قد أُثْقِلَ بالجراح، وقُتِلَ قُوّادُه في ذلك الكفاح. وكان جَعْدٌ الثائر بإلبيرة متَّفِقًا مع ابن حَفْصون على النِّفاق، مُنْعَقِدًا معه على الفَساد في تلك الآفاق، فأعملَ جَعْدٌ الـحِيلةَ في الغدرِ بسَوَّارٍ جُهْدَه، وأظهرَ في ذلك نَصَبَه وجَهْدَه، فأغارَ على جهته يومًا، وقد أكمن هنالك قومًا. وخرجَ هو بنفسِه في نفرٍ يسير، فاكتسحَ وأغارَ، وأنجدَ في الجهة وغارَ. وظَنَّ سَوَّارٌ أنْ ليس وراءَه أجنادٌ تُنْجِده، ولا أمدادٌ تُـمِدُّه، فبرزَ إليه بأهْل المكان، وقد أيقن بالظَّفر والإمكان. فلمّا انبسطَ من هنالك كالفَرْخ الأشِر، ثارت الكَمائنُ عليه كالجراد الـمُنْتَشِر، وأحدقت الخيلُ بسَوَّار، فقُتِّل تقتيلًا، وعادَ عسكرُه مهزومًا مفلولًا. وأرسل جَعْدٌ صاحبُ إلبيرة إلى ابنِ حَفْصون برأس سَوَّار، وأعلمه بالكَبْت الشامل لأعدائهم والبَوَار[1].

وثار سعيدُ بن جُودِي[2] في ذلك التاريخ بالعَرَب، وعارض ابنَ حفصون بالـحَرْب والـحَرَب، حتَّى أغَصَّه بِريقه، وضايقه في سبيله هناك وطريقِه، فرجع ابنُ حَفْصون إلى الحيلة فيه والكَيْدِ؛ إذ عجز عنه بالقوَّة والأيْدِ، حتَّى قبَضَ عليه، وصار أسيرًا لديه، وأقام عنده ببُبُشْتر شهورًا مكبولًا، إلى أنْ قَبِل فيه ابنُ حَفْصون مالًا جزْلًا قبولًا، فأطلقه من وَثاقه، فجد في خِلافه على الأمير عبدِ الله وشقاقه، إلى أن مَكَرَ به مكرًا، وقُتل في دار عشيقةٍ له يهوديَّةٍ غَدْرًا. وتولَّى أمْرَ العَرَب بجانب إلبيرة محمَّدُ بن أضْحَى، فأمسى على طاعة الأمير عبدِ الله وأضْحى، فناصَبَ ابنَ حَفْصون الحرب، وعارَضه بالطَّعْن والضرب، إلى أن ظَفِرَ به ابنُ حَفْصون في تلك

(١) ينظر المقتبس لابن حبان ٥٥ فما بعدها (ط. انطونيا).

(٢) ترجمته في الحلة السيراء ١/ ١٥٤ فما بعدها، وهو سعيد بن سليمان بن جودي السعدي من جند قنسرين.

المسالك، وصار عنده أسيرًا هنالك، ففداه العَرَبُ منه بمالٍ جسيم، ومَشَى من طاعة الأمير على منهاجٍ قويم.

وثار العَرَبُ بإشبيلية ثورةً، وقبضوا على عامِلها عَنْوةً، وانتهبوا طارفَه ومُتْلَدَه، ولم يتْركوا إلَّا أهلَه وولده، وقتلوا كثيرًا من أعوانه، وعاثوا ما شاؤوا في سُلطانه، فاجتمعت العساكرُ من قَرْمُونَةَ وسائرِ الأقطار، وأحاطت بإشبيليةَ إحاطةَ الفَلَك الدَّوَّار، فغلبوا على القائمين فيها، وقتلوا منهم فرقة، فكانت الوقعةُ المعروفة بالدَّعْقة.

وتغلَّب إبراهيمُ بن حَجَّاج على إشبيلية تغلُّبًا، ونصبَ لأحواز قُرْطُبة منها حَرْبًا وحَرَبًا، وارتبط مع ابن حَفْصون على العَبَث التامّ، والاحتلال بقُرْطُبة في ذلك العام. وتغلَّبا على الحصون والقِلاع، وجَدَّا في الكِفاح[1] والقِراع، إلى أن انتقض ما بينهما من السِّلم المنتظِم، والعهد المُحْكَم المُنْبَرِم. وصالَح ابنُ حَجَّاج الأميرَ عبدَ الله، فأقرَّه بإشبيلية، وصرف إليه زِمامَها، وأوقف عليه أعمالَها وأحكامها.

وثار دَيْسَمُ بن إسحاق، وغلب على مدينتَيْ لَوْرَقَةَ ومُرْسِيَة، وما يليهما من كورة تُدْمِير. وكان مَوْدُودًا من طبقات الناس، رفيقًا برعيَّته، جَوَادًا، منتجَعًا، له إفضال على الشعراء والأُدباء.

وثار عُبَيْدُ الله بن أُمَيَّة، وملك كورةَ جَيَّان، ودخل حصنَ [ابن عُمَر][2] وغيره.

ومنهم: عبدُ الرحمن بن مَرْوان المعروف[3] بالجِلِّيقِيّ، اقتعد مدينتَيْ بَطَلْيَوْس ومَارِدَة، ففارق الجماعة، وجاور أهلَ الشِّرْك، ووالاهم على أهل القِبْلة[4].

ومنهم: عبدُ الملك بن أبي الجَوَاد، اقتعد مدينةَ بَاجة وملكها، وتحصَّن بحصن مارْتُلة، وله حظٌّ من المَنَعة تشييدًا وعُدَّةً. وكان مُعاقِدًا لابن مروان، صاحب بَطَلْيَوْس في هذا التاريخ، وابْنِ بَكْر صاحبِ أُكْشُونُبَة، فكانوا متألِّبين على مَن خالَفَهم.

---

(١) في ر٢: «المكافحة».

(٢) في ر٢: «كذا».

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٣٣.

وثار ابنُ السَّلِيم، وهو مُنْذِرُ بن إبراهيم بن محمَّد بن السَّليم، بمدينةِ ابن السَّلِيم، المنسوبة إلى جدِّه، من كورة شَذُونة، فاقتصدَ في سيرته، ولم يُظْهر نَبْذَ الطاعة، إلى أن قتله مملوكٌ[1] له يسمَّى غَلَنْدَه[2]. وخَلَفَه وَليدُ بن وَليد، وصار إلى الطاعة عند هبوب ريحِها بالخليفة عبدِ الرحمن الناصر.

ومنهم: محمَّدُ بن عبد الكريم بن إلياس، امتنع بقَلْعةِ وَرْد من كورة شَذُونة، وسعَى للفتنة سَعْيَه، وتمادَى، حتَّى استنزله الناصرُ فيمن استنزل من الثُّوَّار. ومات بقُرْطُبة.

وثار خَيْرُ بن شاكِر بحصن شُوذَر من كورة جَيَّان، وظاهرَ زعيمَ الثوَّار عمرَ ابن حَفْصُون، ففتك بخَيْرٍ المذكور، وأرسل برأسه إلى الأمير عبد الله.

ومنهم: عُمَرُ بن مُضِمٍّ الـهَتْرُولي[3] المعروف بالـمَلَّاحيِّ، وكان جُنْدِيًّا متدوِّنًا عند العامل بحضرتها، فوثب عليه، فغدره، وضبط القصبةَ.

ومنهم[4]: سعيدُ بن هُذَيْل. كانت ثورتُه بحصن الـمُنْتِلُون من كورة جَيَّان، فبنَى قصبتَه، وحصَّنها، وأعلنَ بالخلاف، حتَّى استنزله الناصرُ، فلحق بقُرْطُبة إلى أن مات.

وثار سعيدُ بن مَسْتَنَّة[5] بكورة بَاغُه، واقتعد حصونَها، فاستفحل أمرُه وشرُّه، وعمَّ أذاه، واصطفىَ من حصونها التي ظهر عليها أربعةً لا مثيلَ لها في الحصانة والمنعة.

وثار بنو هابِل الأربعة: أكبرُهم مُنْذِر بن حَرِيز بن هابِل، وأخوه أبو كرامة هابِل بن حَرِيز، وأخوه عامِر، وأخوه عُمَر، ثاروا ببعض حصون جَيَّانَ في أيَّام الأمير عبد الله، وخلعوا طاعتَه، وأطلقوا الغارة، وأطلعوا[6] أهلَ الفساد. ثمَّ استُنْزِلوا، فنزلوا على حُكم الأمان، فحسُنت طاعتُهم وخدمتُهم[7].

---

(١) في ر٢: غلام.

(٢) الضبط من النسخ الخطية.

(٣) في ر٢: «الهنزوتي».

(٤) هذه الفقرة كلها ليست في ر٢.

(٥) الضبط من ر٢.

(٦) في ر٢: «وشاركوا».

(٧) «وخدمتهم» ليست في ر٢.

وثار[١] إسحاقُ بن إبراهيم بن عطَّاف العُقَيْليُّ بحصن مَنْتِيشة، فبناه وحصَّنه وامتنع به، إلى أن استنزله الخليفةُ الناصر إلى قُرْطبة، وبها تُوفِّي.

ومنهم: سعيدُ بن سُليمان بن جُودِي، أمَّرتْه عَرَبُ غَرْناطة وإلبيرة؛ فضبط أمْرَهم، حتَّى دَبَّر عليه كبيرانِ منهم بحيلة، فقتلاه بها. فلم ينتظِم للعَرَب هناك أمْرٌ بعده.

وثار محمَّدُ بن أضْحَى بن عبد اللطيف الـهَمْدَانيُّ[٢]، من أكابر أبناء العَرَب بكورة إلْبيرة، إلى أن هلك الأميرُ عبد الله، فاستنزله الناصرُ لدين الله عن حِصْنه، فيمن استنزله من الثُّوَّار. وكان ابنُ أضْحَى هذا مع رُجُوليَّته أديبًا بليغًا، يقوم بين أيدي الأُمراء في المحافِل، فيُحسِن القول، ويُطيب الثناء، وله أخبارٌ معروفة.

وثار بَكْرُ بن يحيى بن بَكْر، واقتعد مدينةَ شَنْت مَرِيَّة من كورة أُكْشُونُبة، وبناها حصنًا اتَّخذَ عليها أبوابَ حديد. وكان له ترتيبٌ وأُهْبة[٣]، ورجالٌ شجعان، وعُدَّةٌ موفورة. وكان يتشبَّه ـ بزعمه ـ في سلطانه بإبراهيم بن حَجَّاج. وكان له أصحابٌ للرّأي وكُتَّاب للعمل. وكان له عهدٌ مؤكَّدٌ إلى جميع مَن في طاعته بإضافة أبناء السبيل، وقِرَاء النَّزيل، وحِفْظِ المجتازين، فكان السالكُ بناحيته كالسالك بين أهله وأقاربه.

وثار ابنا مُهَلَّب، من وجوه قبائل البَرْبَر بكورة إلْبِيرة، وهما: خليلٌ وسعيد، ثارا ثورةَ نُظَرائهما بجهتهما، فأقاما على سبيلهما إلى أن استنزل الناصرُ أولادَهما بعد وفاتهما.

وثار سُليمانُ بن محمَّد بن عبد الملك الشَّذُونيُّ بشَرِيشِ شَذُونة، وهو الذي بنى نَبْرِيشَةَ وحصَّنها.

وثار[٤] ابنا جُرْج بحصن بَكُور، ففسدت سيرتُهما، فأُخرجا عن الحصن. فمات عبدُ الوهَّاب، ولحق محمَّدُ بن عبد الرحمن بن جُرْج بابن الشالِيَة[٥]، وكان مُصافيًا له،

---

(١) هذه الفقرة بتمامها ليست في ر٢.

(٢) ترجمته وخبره في الحلة السيراء ٢/ ٣٧٨-٣٧٩.

(٣) في ر٢: «وأبهة».

(٤) هذه الفقرة بتمامها ليست في ر٢.

(٥) هو عُبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية، وينظر المقتبس ٩-١٠، والحلة السيراء ١/ ٢٣٠.

فتقبَّله، واستخدمه، وبنى له حصنَ مُورِينة من كورة جَيَّان، فأقام فيه إلى أن استنزله الناصرُ ونقله إلى قُرْطُبة.

وثار أبو يحيى التُّجِيبيُّ المعروف بالأنْقَر بمدينة سَرَقُسْطةَ[1] وأعمالِـها، وقتل أحمدَ ابن البَـرَّاء القُرَشِيَّ عامِلَ الأمير على سَرَقُسْطة، واستولى عليها، وأظهر التمسُّكَ بطاعة الأمير عبد الله، وخاطبه، وهو ينسب ابْنَ البَرَّاء إلى الخلاف. فأظهر الأميرُ تصديقَه، وسجَّل له على سَرَقُسْطة. فثبتَ بها قدمُه.

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئتين: أخرج الأميرُ عبد الله على العسكر هشامَ بن عبد الرحمن ابن الـحَكَم إلى كُورة تُدْمِير، في أواخر ربيع الأوَّل. وكان القائدَ معه على الجيش أحمدُ بن أبي عَبْدة. ولما احتلَّ بوادي بُلُّون، تقدَّم قطيعٌ من الـخَيْل، فافتتح هنالك حِصْنًا، وغَنِمَ ما كان فيه. وتوافت على العسكر حشودُ أهلِ الكُوَر. ثمَّ انتقل وطوى الـمَراحِل حتَّى حلَّ بمُرْسِيَة. ثمَّ انتقل إلى لَوْرَقة، فخرج إليه دَيْسَمُ بن إسحاق، فحارَبَه، فهُزِمَ دَيْسَم، ورجع إلى لَوْرَقة وأقام محاصرًا حتَّى قفل عنه العسكر. ثمَّ خرج دَيْسَمٌ بمن معه، فضرب في الساقة، فرُجع إليه، فهُزِمَ واتُّبِعَ حتَّى استغاث بالوَعْر[2] ونجا راجلًا، وأُخِذَ فَرَسُه. وقفل العسكر سالـمًا. وفُقِدَ في هذه الغزاة الماءُ، ومات فيها اثنان وثلاثون رجلًا عَطَشًا، وهلكت دوابُّ كثيرةٌ.

وفي سنة أربع وثمانين ومئتين: أخرج الأميرُ عبد الله ابنَه أبانَ إلى لَبْلَة. وكان ابنُ خَصِيب بحصنِ مُنْت مَيُور، وكان قد ثار به، فحاصره، ونصب عليه المجانيق، ورماهُم بها حتَّى ضجُّوا ودَعَوْا إلى الطاعة، وانعقد أمانُهم. وفي خلال ذلك، دخل ابنُ حفصون إسْتِجَّةَ الدخلةَ الثانية، فورد كتابُ الأمير باستعجال القفول بسبب إستِجَّة؛ فقفل العسكر. وكانت مدَّةُ هذه الحركة شهرَيْن ونصفًا، وهي أَوَّلُ حركةِ أبانَ.

وفي سنة خمس وثمانين ومئتين: غزا أبانُ ابن الأميرِ عبدِ الله إلى ابن حَفْصون، والقائدُ ابنُ أبي عبدة.

---

(١) من هنا إلى قوله «سرقسطة» سقط من ر٢.

(٢) في ر٢: «حتى رجع إلى الوعر».

وفيها أيضًا: غزا عبَّاسُ بن عبد العزيز إلى حصن كرَكي وجبلِ البرَانس، وقتل ابنَ يَامِينَ وابنَ مَوْجُول، وأخذ حصونَهُما.

وفيها: تقدَّم لُبُّ بن محمَّد بن طُلَيْطُلة إلى حيِّز جَيَّان، ونازَلَ حصنَ قَسْطَلونة، وكان فيها نصارى يُحاربون عُبَيْدَ الله بن أُميَّة المعروف بابن الشاليَة، فأخذ الحصنَ، وقتل العَجَم. ووافاه فيه قتلُ أبيه محمَّد بن لُبَّ في مُحاصرته لسَرَقُسْطة[1].

وفيها: كانت المجاعةُ الشديدة التي سُمِّيت السَّنةُ بها «سَنَةَ لـمْ أظُنّ».

وفي سنة ست وثمانين ومئتين: أظهر ابنُ حَفْصون النَّصرانيَّةَ، وكان قبل ذلك يُسرُّها، وانعقد مع أهل الشِّرْك وباطَنَهم[2]، ونفرَ عن أهل الإسلام، ونَابَذَهم؛ فتبرَّأ منه خلقٌ كثير. ونابذه عَوْسَجةُ بن الـخَلِيع، وبنى حصنَ قَنيط، وصار فيه مواليًا للأمير عبدِ الله، محاربًا لأبن حَفْصون. واتَّصلت عليه المغازِي من ذلك الوقت، ورأى جميعُ المسلمين أنَّ حَرْبَه جهادٌ، فتتابعتْ عليه الغزواتُ بالصوائف والشواتي، ولا يَني القوّادُ عنه في الحلِّ والترحال. وفي ذلك قال ابنُ قُلْزُم للقائد ابن أبي عَبْدة [من المتقارب]:

فِفِـي كُـلِّ صـيفٍ وفي كُـلِّ مَـشْتَى ... غَزَاتـانِ مِنْـكَ عَـلَى كُـلِّ حـالِ
فتِلْـــكَ تُبيــدُ العَـــدُوَّ وهـــذِي ... تُفِيــدُ الإمــامَ بهـا بَيْــتَ مَـالِ

وفي سنة سبع وثمانين ومئتين: كانت الصّائفةُ مُتَجوِّلةً ما بين كُورة مَوْرُور وكورةِ شَذُونة وكورة رَيُّه.

وفيها: قَتلَ القائدُ ابن أبي عَبْدة طالبَ بن مَوْلُود الـمَوْرُوريَّ.

وفيها: صُلب إسحاقُ وصاحبُه، وكانا من رجال ابن حَفْصون، وفيهما جرى الـمَثَلُ في الناس: «غَرَرْتَني[3] يا إسحاق!»؛ وذلك أنَّ أحدهما قال هذه الكلمةَ لصاحبه، وهو يُرْفَع في الـخَشَبة.

---

(١) في ر٢: «وهو محاصر سرقسطة».

(٢) في ر٢: «وناظمهم».

(٣) في ر٢: «غررت بي».

وفي سنة ثمان وثمانين ومئتين: قُبضت رهائنُ ابنِ حَفْصون. وتجوَّلت الصائفةُ بشَذُونة وغيرِها من الكُوَر.

وفي سنة تسع وثمانين ومئتين[1]: خرج أبانُ ابنُ الأمير عبدِ الله إلى رَيُّه، فنهضَ حتى احتَلَّ بوادي بشقانية، واضطربَ بها محلَّتُه، وتوافت مُدود ابنِ حَفْصون. ثم التقيا، ووقعتْ بينهم حربٌ شديدةٌ انجلت عن هَزيمة اللعينِ ابن حفصون، وقُتِل من أصحابه عددٌ كثير. وعمَّ الإحراقُ جميعَ القرى التي على الوادي. وولَّى مُدبِرًا، ثم انتقل إلى حصن طُرُّش بناحية لَوْشَة، فحاربَه ونصب عليه المجانيقَ، وعلى حصن الرجل. وكانت مدّةُ هذه الغزاةِ ثلاثةَ أشهر.

وفي سنة اثنتين وتسعين ومئتين: كانت الوقعةُ العظيمة على ابن حفصون بوادي بُلُّون. وكان قد توافت عليه حشودٌ عظيمة لتوافي آجالِهم، فأُفنوا في ذلك المعترَك وقُطِعتْ دوابرُهم. وأفلتَ اللعينُ في شرذمة قليلة.

وفي سنة ثلاث وتسعين ومئتين: حُوصِرَ ابنُ راشد بحصنٍ من حصون جيّان، فأُخِذَ وصُلب بقُرطبة.

وفيها: دخل أحمدُ بن أبي عَبْدة حصن قنيط بتاكُرُنّا، وأدخل فيه الحَشَمَ، ووليَه العمّال، واستَنزَل مَن كان فيه.

وفي سنة خمس وتسعين ومئتين: غزا بالصائفة أبانُ ابن الأميرِ عبد الله إلى ناحية بُبَشْتر، وقاد أبو العبّاس بن أبي عَبْدة.

وفيها: غدر ابن مَسْتنّة، وتخلَّى من حصون بلدةَ إلى ابن حفصون، وعاقَدَه، وصار إلْفًا معه.

وفي سنة ست وتسعين ومئتين: خرج أبانُ والقائدُ أبو العبّاس المذكور، فقصدا ناحيةَ بُبَشْتر، وقصد عيسى بنُ أحمد إلى حصون سعيدِ بن وليد. ولـمّا قفل أبو العبّاس نازَلَ حصنَ لُكّ من حصون ابن مَسْتنّة، وأقام عليه حتى افتتحه.

---

(١) من هنا اعتمد دوزي مخطوطة تاريخ عريب التي في كوتا، وخلطها بالبيان المغرب فتشوه نص «البيان» وزيد فيه الكثير مما ليس منه، ومن ثم كان من أهم الواجب علينا تخليص النص مما أضيف إليه من تاريخ عريب، والله الموفق للصواب إليه المرجع والمآب.

وفي سنة سبع وتسعين ومئتين: افتُتِحتْ بَيّاسة، واستُنزِل منها محمدُ بن يحيى ابن سعيد.

وفيها: كان سيلٌ عظيم غرقتْ منه أركانُ بيت الله الحرام، وفاضت بئرُ زَمْزَم، ولم يُرَ مثلُ هذا السيلِ في قديم الأزمان.

وفيها: اجتمع ابنُ حفصون، وابن مَسْتَنّة، وابن هُذيل في عسكرٍ واحد، وضَرَبُوا على ناحية جَيّان، وأخذوا المواشيَ والدوابَّ، وانضوَوْا إلى حصن جريشة بالغنائم، فتَبِعَهم القائدُ أبو العبّاس بن أبي عَبْدة حتى لحقهم، فقاتَلَهم وقتل كثيرًا منهم.

وفيها: بَنى القائدُ أبو العبّاس على ابن هُذيل حصن مرصيص. وشتى القائدُ بقلعةِ أرش بريّة.

وفي سنة ثمانٍ وتسعين ومئتين: خرج العاص ابنُ الأمير عبدِ الله بالصائفة، وقاد أبو العبّاس إلى بُبَشْتر وغيرِها من حصون الساحل وكُورتَيْ رَيُّه وإلْبيرة.

وفيها: أغار ابنُ حَفْصُون وابنُ مَسْتَنّة على قُرى قَبْرة وقُرى قُرطبة، وأخذوا الغنائمَ، فخرج عيسى بنُ أحمدَ بن أبي عَبْدة من بَيّانة[1] طالبًا لهم، فأدركهم وهزمهم، وقَتَلَ منهم مقتلةً عظيمة، وأخذ لواءَهم، وافترقوا على غير طريق.

وفيها: كَسَفت الشمسُ، وظهرت النجومُ، وعمّت الظُّلْمة، وصلَّى أكثرُ الناسِ المغربَ، ثم انجلتِ الشمسُ وأضاءت قَدْرَ نصفِ ساعة قَبْلَ المغرب، ثم توارت.

شأن محمدٍ ومُطَرِّف ابنَي الأمير عبدِ الله

كان الأميرُ عبد الله قد رشَّح ابنه محمدًا لولاية عهدِه، وآثره بها عنده، فعَظُمَ الأمرُ على أخيه مُطَرِّف، وبَعُدَ ما بينهما كلَّ البُعد، وقابل الواحدُ الثانيَ بالهجران والصدّ. فوجد مطرِّفٌ يومًا فارسًا من فُرسان محمَّد، فاغتاله وقَتَلَه، ثم فَرِقَ من أبيه وحَذِرَ سطوتَه، ولم يأمن صولتَه؛ فسار إلى السجن وفتَقَه، وحلَّ مَن شدَّه أبوه وأوثقَه، وخرج بمن فيه من أهلِ الزَّعارة والفساد، ولحق ببُرْبَشْتر قاعدةِ أهل الضلال والعناد، وصار عند

(١) معجم البلدان ١/ ٥١٨.

ابنِ حفصون، في حِرْز من الأمن مصون. ثم إنَّ الأميرَ عبد الله أباه خاطَبَه بالأمان، وقال: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١١]، فقَبِلَ من أبيه[١]، وانصرف إلى أهله وذَويه، ولم يزل بعد ذلك مُطَرِّفٌ يُغري بمحمدٍ إغراء، ويطوي له عداوةً وبغضاء، ويزعم أنه يخاطب ابنَ حفصون ويُداخلُه، ويُوافِقُه على القيام على أبيه ويواصله؛ فسجن الأميرُ عبد الله ابنَه محمدًا في دار البَنِيقة، وامتحن خلال ذلك عينَ الحقيقة، فلمّا واصل في البحث صباحَه ومساءَه، لم يَقرَعْ سَمْعَه من جهة ابنه محمدٍ ما ساءَه، فأسرع إطلاقَه، وحلَّ وَثاقَه؛ فدخل مطرِّفٌ إليه، وأجهز في الـحِين عليه، وتركه متخبِّطًا في دمِه، مُلْقًى على وجهه وفمِه. فلمّا علم ذلك الأميرُ عبد الله، أعظم ذلك منه، وهمَّ بقتلِه عنه، فلم يَعْدِم مَن كَسَرَ عليه في ذلك؛ فتركه. وقيل: قتَلَه فيه. والله أعلم. وكان ذلك سنةَ سبع وتسعين ومئتين[٢].

شأن القاسم أخي الأمير عبد الله بن محمد

كان الأميرُ عبد الله قد اتَّهم أخاه بالقيام عليه في الـمُلْك، وإيرادِه مَوارِدَ الـهُلْك، فلمّا كثر الرفعُ بذلك إليه، وتتابع الكلامُ فيه عليه، رأى بمقتضى الرِّياسة، وحُكمِ التدبير والسياسة، أن يحبسَه في دار البَنِيقة من القصر، حتى يكشفَ عن هذا الأمر، ثم نَقَلَه منها إلى حبس الدُّويرة، فمُنع النومَ[٣] هناك، فأرسلتْ له أمُّه مُرقِدًا لذاك، وأمرَتْه أن يقسمَه على ثلاثة أيام، فشرب الجميعَ في يوم واحد، فأصبح رَهْنَ الـحِمام.

وفي سنة ثلاث مئة: توفِّي الأمير عبد الله بن محمد، رحمه الله، مستهلَّ ربيع الأولِ منها، وهو ابنُ اثنتين وسبعين سنة، ومَلَكَ خمسًا وعشرين سنة وخمسة عشر يومًا.

---

(١) في ر٢: «رأسه».

(٢) في عريب: سبع وسبعين ومئتين، وفي الإحاطة ٣/ ٢٨٠: اثنين وثمانين ومئتين، وما أثبتناه من النسختين.

(٣) في ر٢: «القوم».

بعض أخبار الأمير عبد الله بن محمد، رحمه الله، على الـجُملة

كان الأميرُ عبد الله مُقتصِدًا، يظهر ذلك في مَلْبَسِه وشكلِه وجميع أحواله. وكان حافظًا للقرآن، كثيرَ التلاوة له، وكانت له صَدَقاتٌ كثيرة، ونوافلُ جَزيلة. وكان مقدَّمًا في وَرَعِهِ وفَضْله، محبًّا للخير وأهلِه، دائمَ الخشوع والذِّكر لله، كثيرَ التواضع، شديدَ الوطأةِ على ذوي الظُّلم والـجَوْر، متفنِّنًا في جميع العلوم، فصيحَ اللسان، حَسَنَ البيان. وكان قد فتح بابًا في القصر سمّاه بابَ العدل، يقعدُ فيه للناس يومًا معلومًا في الجمعة؛ ليُباشِرَ أحوالَ الناس بنفسه، ولا يجعلُ بينه وبين المظلوم سِترًا. وكان بصيرًا باللغات، حافظًا لأشعار العرب وأيّامها وسِيَرِ الـخُلفاء، راويةً للشِّعر. وكانت اللَّذّاتُ في أيّامه مهجورةً، فإنه لم يشربْ قطُّ مُسكِرًا ولا نَبيذًا. واعتذر إليه يومًا بعضُ مَواليه، فقال: إنَّ مَخايِلَ الأمورِ لتَدُلُّ على خلاف قولك، وتُنبِئُ عن باطلِ تنصُّلِك، ولو أقررتَ بذَنْبك واستغفرتَ لجُرْمِك، لَكان أجملَ بك، وأسْدلَ لسَتْرِ العفوِ عليك. فقال: قد اشتمل الذَّنْبُ عليَّ وحاق الخطأُ بي، وإنما أنا بَشَر، وما يقوم لي عُذر. فقال: مهلًا عليك! رُويدًا بك! تقدَّمتْ لك خِدْمةٌ، وتأخّرتْ لك توبة، وما للذَّنبِ بينهما مَدْخل، وقد وَسِعَكَ الغفران.

وأملى كتابًا إلى بعض عمّاله: أمّا بعدُ، فلو كان نظرُك فيما خصصناك به، واهتِبالُك بذلك على حسب مُواترتِك بالكُتْب واشتغالِك بذلك عن مُهِمِّ أمرِك؛ لَكُنتَ من أحسنِ رجالِنا غَناءً، وأتـمِّهم نظرًا، وأفضلِهم حَزْمًا! فأقلِلْ من الكُتْب فيما لا وجهَ له ولا نَفْعَ فيه، واصرفْ همَّتك وفكرتَك وعنايتَكَ إلى ما يبدو فيه اكتفاؤُك، ويَظهرُ فيه غَناؤك، إن شاء اللهُ تعالى.

وكتب أحدُ الوزراء إليه كتابًا في أمرٍ، فوقَّع فيه [من مجزوء الخفيف]:

أنــــتَ يـــا نَـــصْرُ آبِـــدَهْ لــــستَ تُرْجــى لفائـــدَهْ
إنــــما أنـــتَ عُـــدَّةٌ لكَنِيــــفٍ ومائــــدَهْ

وكان، رحمه الله، تقيًّا نقيًّا، بَنى السَّاباطَ من القصر إلى الجامع؛ مُحافظةً منه على الصلوات، والتزمَ الصلاةَ مع الجماعة إلى جانب الـمِنْبر دائمًا حتى لقيَ ربَّه.

وكان، رحمة الله عليه، مع ذلك شاعرًا مطبوعًا وأديبًا ظريفًا. فمن قوله يتغزَّلُ في صِباه [من مخلّع البسيط]:

وَيْحي على شادِنٍ كَحيلٍ ... في مِثْلِه يُخلَعُ العِذارُ
كأنما وَجْنتاه وَرْدٌ ... خالطه النَّوْرُ والبَهارُ
قضيبُ بانٍ إذا تثنَّى ... يُديرُ طَرْفًا به احورارُ
فصفوُ وُدِّي عليه وَقْفٌ ... ما اطَّرَدَ الليلُ والنهارُ

وله ـ أيضًا ـ في مِثْلِ ذلك، رحمه الله [من السريع]:

يا مُهجةَ المشتاقِ ما أوجعَكْ! ... ويا أسيرَ الحبِّ ما أخضعَكْ!
ويا رسولَ العَيْن من لَحْظِها ... بالردِّ والتبليغ ما أسرعك!
تذهب بالسرِّ فتأتي به ... في مجلسٍ يَخْفى على مَن مَعَكْ
كم حاجةٍ أنجزتَ إسرارَها ... تبارك الرحمنُ ما أطوعَكْ!

وله في الزُّهد [من مجزوء الكامل]:

يا مَن يُراوِغُه الأجَلْ ... حَتَّامَ يُلهيكَ الأمَلْ؟!
حتَّامَ لا تخشى الرَّدى ... وكأنه بك قد نَزَلْ؟!
أغَفَلْتَ عن طَلَبِ النَّجا ... ةِ ولا نَجاةَ لمن غَفَلْ!
هيهاتَ يَشغَلُك المُنى ... ولَمَا يدومُ لك الشَّغَلْ
فكأنَّ يومَك قد أتى ... وكأنَّ نَعْيَك قد نَزَلْ

وفيه [من الوافر]:

أرى الدُّنيا تصيرُ إلى فناءِ ... وما فيها لحيٍّ من بقاءِ
فبادِرْ بالإنابةِ غيرَ راءٍ ... إلى شيءٍ يصيرُ إلى فَناءِ
كأنكَ قد حُمِلْتَ على سَريرٍ ... وغُيِّبَ حُسْنُ وجهك في الثَّراءِ
فنافِسْ في التُّقى واجنَحْ إليهِ ... لعلَّك تُرضِيَنْ رَبَّ السماءِ

ولم يزل، رحمة الله عليه، يرفعُ مَنارَ الدِّين، ويسلك سبيلَ المهتدين، لم تَمنعْه الفِتَنُ عن النظر لنفسِه، والعملِ ليوم فاقتِه وحُلولِ رَمْسِه. وكانوا يعدُّونه من أصلح خلفاء بني أُميّة بالأندلس، وأمثلِهم طريقة، وأتمِّهم معرفة، وأمْتنِهم دِيانةً، إلّا أنه كان مُنغَّصَ الحال بدوام الفتنة، وتضييقِ نِطاق الخطَّة، ونُقصانِ مقدارِ التزكية، حتى كان يتخلَّلُه الرِّياء تحت قِناع تَقْواه؛ والبُخل يُطوِّقه طبيعةً ليست مِن هَواه. وغُمِط لِـما كان من هَوانِ الدِّماء عليه، بسبب الفتن المتكاثفة لدَيْه، آخذًا لأكثرهم بالظِّنّة. وقد صرَّح الفقيهُ أبو محمد ابن حَزْم بذمِّ هذا الأميرِ، وقال: إنه كان قتّالًا تهونُ عليه الدِّماءُ مع كثرة إقباله على الخيرات، وإعراضِه عن جميع الـمُنكَرات؛ فإنه احتال على أخيه المنذر على إيثاره له، وواطأ عليه حَجّامَه بأنْ سَمَّ له الـمِبْضَعَ الذي فَصَدَه به، وهو نازلٌ بعسكره على ابنِ حفصون، ثم قَتَلَ ولدَيْه معًا بالسيف واحدًا بعد واحد؛ قتل محمدًا والدَ الناصرِ لدين الله، وقتل أخاه الـمُطَرِّفَ، ثم قتل أخوَيْن له معًا أيضًا؛ قتل أحدَهما ـ وهو هشامٌ ـ بالسيف، والآخر، بالسمِّ، إلى غير ذلك. واللهُ أعلم بحقيقة أمرِه.

خلافة عبد الرحمن الناصر لدين الله(١)

نَسَبُه: هو عبد الرحمن بن محمد، الذي قَتَلَه أخوه مطرِّف، ابن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الـحَكَم الرَّبضيِّ ابن هشام الرِّضي ابن عبد الرحمن الداخل.

كُنيتُه: أبو المطرِّف.

لَقَبُه: الناصر لدِين الله.

أمُّه: أُمُّ وَلَد تسمَّى مُزْنة.

عُمره: ثلاث وسبعون سنة وسبعة أشهر.

وليَ في اليوم الذي توفِّي فيه الأميرُ عبد الله، وبُويعَ فيه، وذلك يومَ الخميس مستهلَّ ربيع الأول سنةَ ثلاث مئة، وتوفِّي يومَ الأربعاء لليلتَيْن خَلَتا من شهرِ ربيع الـمُعظَّم سنةَ خمسين وثلاث مئة.

---

(١) ينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧، وجذوة المقتبس ٣٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٧/ ٨٩١ والتعليق عليها.

خِلافته: خمسون سنة وستةُ أشهر وثلاثة أيّام.

صِفَتُه: أبيضُ، رَبْعة، أشْهل، حَسَنُ الجسم، جميلٌ بهيٌّ، يخضب بالسَّواد.

قُضاته: أحمد بن محمد بن زياد[1]، ثم عَزَلَه وولّى أسلمَ بن عبد العزيز بن هاشم[2]، ثم أحمدَ بن محمد بن زياد ثانيةً، ثم أحمد بن بقيٍّ[3]، ثم مُنذِرَ بن سعيد البَلُّوطيَّ[4].

نَقْشُ خاتَمة: «عبد الرحمن بقضاء الله راضٍ».

وكان أبوه محمدٌ وليَّ عَهْدِ أبيه عبدِ الله وأكبرَ بَنيه، فقتله أخوه مُطَرِّف، وقتله أبوه به، وكان في ذلك كلامٌ كثير.

وكان مولدُ الناصر قَبْلَ قتلِ أبيه محمد بأحدٍ وعشرين يومًا، وذلك يوم الخميس لثمانٍ بقين من رمضان سنةَ سبع وسبعين ومئتين.

وكان جدُّه الأميرُ عبد الله يُحْظِيه دون بَنِيْه، ويومئ إليه، ويُرشِّحه لأمره، وربّما أقعده في بعض الأيام والأعياد مقعدَ نفسِه لتسليم الـجُندِ عليه؛ فتعلَّقتْ آمالُ أهل الدولة به، ولم يَشُكُّوا في مصير الأمرِ له، فلمّا مات جدُّه أجلَسُوه في مكانه للخلافة دون ولدِه لصُلْبِه، وكان يسكنُ القصرَ مع جدِّه دونهم، فتهيّأ بإجلاسه دونهم مكانُه بغير مُنازَعة. وقيل: إنَّ جدَّه رمى بخاتَمه إليه؛ إبانةً منه لاستخلافه.

فكان أولَ مَن بايَعَه أعمامُه أولادُ الأمير عبد الله، وهم: أبان، والعاص، وعبد الرحمن، ومحمدٌ، وأحمد. وتَلاهم إخوةُ جدِّه، وهم: العاص، وسُليمان، وسعيد، وأحمد، وكان أحمدُ متكلِّمَهم، فلمّا بايَعَه أثنى عليه بكلِّ جميل.

والناصرُ هذا هو أولُ مَن تسمَّى بأمير المؤمنين، وتلقَّب بأحد الألقاب السلطانية؛ وهو الناصر، ثم تسمَّى منهم مَن كان بعدَه من خلفائهم بإمرة المؤمنين. وآثر اللَّقَبَ السلطانيَّ، وذلك حين هاجت الخلافة العبّاسيّة وضَعُفتْ، وظهرت الدولةُ التُّركيّة والدَّيلميّة، فصارت إمْرةُ المؤمنين لائقةً بمنصبه وكلمةً باقية في عَقِبِه. فاستهلَّ الخطيبُ

---

(١) تاريخ ابن الفرضي ١/ ٦٩ والتعليق عليه.

(٢) جذوة المقتبس (٣٢٣) والتعليق عليه.

(٣) جذوة المقتبس (١٩٧) والتعليق عليه.

(٤) جذوة المقتبس (٨١٢) والتعليق عليه.

بجامع قُرطبة أحمدُ بن بقيٍّ بن مَـخْلَد بذِكْر هذا الاسمِ الـمُخَلَّد يومَ الجمعة من سنة ستَّ عشرة وثلاث مئة.

وفي يوم ولايته يقولُ أحمدُ بن عبد ربِّه [من المجتثّ]:

بَـــدا الهـــلالُ جَدِيـــدًا		والـــمُلْكُ غـــضٌّ جديـــدُ

يـــا نِعمـــةَ الله زيـــدي		فـــما عليـــكِ مَزيـــدُ

ووليَ والأندلسُ جَمْرةٌ تَحْتدِم، ونارٌ تضطرم، فأخمَدَ نيرانَها، وسكَّن زلازلَـها، وغزا غزواتٍ كثيرة[1]، وكان يُشبَّه بعبد الرحمن الداخل. ومن وقتِ دخولِه الأندلسَ سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومئة إلى ولاية عبد الرحمن الناصر مات من بني أُميّة سبعةُ خلفاءَ وعبدُ الرحمن ثامنهم، ومات في المدّة المذكورة من بني العبّاس اثنان وعشرون ملكًا.

وفي سنة ولايتِه: كانت غزاتُه إلى معَاقِل جَيّان، وهي أوَّلُ غَزَواتِه، نهض في جيوش كَثيفةٍ وعُدَّةٍ كاملة، فحَسَمَ الأدواءَ، وقَهَرَ الأعداء، وافتَتَح الحصون، وشكَّ برجاله كلَّ حصن افتتحه. وانحسم الداءُ في كُورة إلْبيرةَ، وتألَّفتْ كلمتُهم، واستقامت طاعتُهم. وقَفَلَ بعد استصلاح كُورتَيْ إلبيرةَ وجيّانَ وما والاهما، ودخل قصرَه وقد استتمَّ في غَزاته اثنين وسبعين يومًا.

وفي سنة إحدى وثلاث مئة: توفِّي بإشبيلية صاحبُها عبدُ الرحمن بن إبراهيم بن حَجّاج، في المحرَّم؛ فاجتمع أهْلُها على تقديم أحمدَ بن مَسْلَمة مكانَه، وكان من الشُّجْعان. فأخرج النّاصرُ أحمدَ بن حُدَيْر قائدًا نحوها، وأوقع بأهلها. وكان محمَّدُ بن إبراهيم بن حَجّاج عند ذلك بمدينة قَرْمُونة، فقصد بابَ السُّدَّة، وعرض نفسه لـمُحاربة أهل إشبيلية، فأخرجه الناصرُ إليها مع قاسم بن وليد الكَلْبيِّ، فحاصرها شهرًا. ثمَّ خرج إليها الحاجبُ بَدْرُ بن أحمد، فدخلها يومَ الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيتْ من جُمادى الأُولى من هذه السنة.

وفيها: كانت محاصرةُ لُبِّ بن محمدٍ مدينةَ سَرَقُسطة.

وفيها: توفِّي العاص ابن الأميرِ محمد.

---

(١) ينظر كامل ابن الأثير ٨/ ٧٤.

وفيها: خرج الناصر لدين الله[1] غازيًا إلى كُورة رَيُّه والجزيرةِ وقَرْمونة، وهي الثَّانية من غزواته: فكان خروجُه من قصر قُرْطُبة يومَ الخميس لثمان خلون من شهر رمضان، وفصل غازيًا لثمانٍ خلون من شوَّال. وتخلَّف في القصر موسى بن محمَّد بن حُدَيْر صاحب المدينة. وكانت الكُتُب تُنفَّذ إلى الولي هشام، وهو صغيرٌ. وكان مقصده حصنَ طُرُّش[2]، فاحتلَّ بجيوشه عليه، فحصر مَن كان فيه، وقتل مَن تظاهر منهم، وقطع ثمارَهم، وحَطَم معايشَهم ثمَّ أبقى عليه مَن يُحاصره، وتنقَّل إلى حصون رَيُّه ومعاقِلِ ابن حفصون، يتتبَّعها مَعْقِلًا معقلًا، وأوقع بابن حَفْصون ومَن انحشد إليه من النَّصرانيَّة وقيعةً ذهب فيها كثيرٌ منهم، وبعث برؤُوسهم إلى قُرْطُبة. وسارع كلُّ مَن كان في تلك الناحية من الحصون والقرى والمعاقل إلى الدخول في الطاعة والاعتصام بها من الهلكة، فقبلهم الناصرُ وأمَّنهم.

وتنقل إلى حاضِرة الجزيرة، إلى كُورة شَذونة، إلى كُورة مَوْرُور، حتَّى أوفى على مدينة قَرْمُونة، فاحتلَّها مستهلَّ ذي الـحِجَّة. وكان حَبِيبُ بن سَوَادة قد أظهر الـخِلافَ فيها عند قدوم محمَّد بن إبراهيم بن حَجَّاج قُرْطُبَةَ، فنازلَتْه جيوشُ الناصر، وحُوصِر بها عشرين يومًا، حتَّى عضَّتْه النكاية، وأخذت بمُخنَّقة الـمُحاصرة، ثمَّ استأمن، فأُمِّنَ، وقَبِلَ الناصرُ منه ولم يُرْهِقْه عسرًا من أمره، وقفل الناصرُ ظافرًا إلى قُرْطُبة؛ فدخلها لليلتَيْن بقيتا[3] من ذي الحجة.

وفي سنة اثنتين وثلاث مئة: كانت ولادةُ الحكم بن عبد الرحمن الناصر في مستهلِّ رجب.

وفيها: أغزى الناصرُ عمَّه أبانَ ابن الأمير عبد الله، ففصلَ في شوال إلى كُورة رَيُّة، وتردَّد بالجيوش فيها، ونازل حصونَها، وحطَّم زروعَها، وقطع ثمارها.

وفيها: أمحل الناسُ، وتوالى القحطُ وعمَّ ببلاد الأندلس كلِّها، وغلت الأسعارُ في جميع جهاتِها.

---

(١) من ر٢.

(٢) مراصد الاطلاع ٢/ ٨٨٤.

(٣) في ر٢: «وقد بقي يومين».

وفي سنة ثلاث وثلاث مئة: كانت المجاعةُ التي شُبِّهت بسنة ستِّين، وبلغت الحاجةُ بالناس مبلغًا لا عهدَ لهم بمِثْله، ووقع الوباءُ في الناس، وكَثُر الموتُ في أهل الفاقة والحاجة حتى كاد أنْ يُعجَزَ عن دَفْنهم.

وفيها: توفِّي أبانُ ابن الإمام عبد الله في جُمادى الآخرةِ وهو ابنُ خمس وخمسين سنة.

وفيها: أُسِرَ مُطَرِّفُ بن لُبّ، أَسَرَه العدوُّ بالثغر. ووقعت بين بني لُبٍّ فُتونٌ وحروب، واختلف أمرُهم.

وفي سنة أربع وثلاث مئة: أغزى الناصرُ لدين الله أحمدَ بن أبي عَبْدة إلى دار الحرب، ودخل أرض المشركين؛ فنكى وغَنِمَ وسَبَى، وخرج بالمسلمين سالمين غانمين[1].

وفيها: خرج الحاجبُ بدرُ بن أحمد من قُرطبةَ إلى مدينة لَبْلة، فحاصَرَها وفَتَحها[2].

وفيها: عزل الناصرُ عبدَ الملك بن جَهْوَر عن الكتابة، ووُلِيَها عبدُ الحميد بن بَسيل، ثم عُزل، وأُعيد إليها عبدُ الملك المذكورُ[3].

وفي سنة خمس وثلاث مئة: خرج القائدُ أحمدُ بن أبي عَبْدة إلى دار الحرب، وخرج معه طبقاتُ الناس من المجاهدين وأهل الدِّيوان، وحشدَ إليه رجالُ الثَّغر، فدخل أرضَ العدوِّ في جَمْع كبير، ونازل حصنَ قصرِ موسى، وجدَّ المسلمون في مُحاربة المشركين حتى كانوا قد أشرفوا على الظفر بمن كان في الحصن، فانحشدت النصرانيَّةُ من جميع جهاتها مُمَدِّين لكَفَرَتهم، ومُجْلِبين على المسلمين بخَيْلهم ورَجْلِهم، فتداعى أهلُ الـمُدَاهنة في الدِّين من أهل الثَّغر إلى إظهار الهزيمة، وجرُّوها على المسلمين؛ فانهزم كثيرٌ منهم، واستُشهِدَ القائدُ المذكور ومعه من المسلمين مَن آثر الشهادةَ ورَغِبَ عن خِزْي الفِرار. وانعقد سائرُ أهلِ الجيش، وصاروا يدًا واحدة، فسَلِموا وخرجوا إلى أرض المسلمين بدوابِّهم وأثقالهم.

---

(١) المقتبس ١٢٧ (شالميتا).

(٢) المصدر نفسه ١٢٨ .

(٣) المصدر نفسه ١٣٣-١٣٤ .

ذكر موت اللَّعين عُمر بن حَفْصون

وفي هذه السنة: هلك عمرُ بن حفصون، عميدُ الكافرين، ورأس المنافقين، ومُوقِد شُعَل الفتنة، ومَلْجأ أهل الخِلاف والمعصية.

فعُدَّ هلاكُه من أسباب الإقبال، وتباشير اليُمْن، وانقطاع عُلَقِ المكروه[1].

ولـمَّا توفّي افتتِحتْ أُبدةُ إلْبيرة، وكان فيها سليمانُ، فاستُنْزِل عنها، وقُدِم به قُرْطُبة.

وفيها: حشدَ أُرْدونُ وإذْفونش، وشانْجُه بن غَرْسِيَة صاحبُ النَّصرانيّة، بجلِّيقيَّة وبَنْبُلُونة، وخرجوا في جُموعهم واحتفالٍ من كَفَرَتهم، فعاثت النَّصرانيَّةُ في أطراف بلاد المسلمين. وأفسدت الزُّروعَ[2]، ثم انتقلتْ إلى تُطِيلَة. وبلغ العدوُّ واديَ طَرَسُونَة. وخلَّف شَانْجُه نهرَ إبْرُه، وقاتل حِصْنَ بَلْتيرَّة[3]، وقهر أهلَ الرَّبَض، وأحرق المسجدَ الجامع، فكان ذلك مما أحفظَ[4] الناصرَ وحرَّكه لـمُجاهَدَتهم والانتصارِ منهم.

غزوة مُطُونية

وفي سنة ست وثلاث مئة: غزا المشركين الحاجبُ بدر بن أحمد، وذلك أنه لـمّا اتصل بالناصر لدين الله تطاوُلُ المشركين على مَن كان بإزائهم من الثغور أحفظه ذلك، وأذكى عَزْمَه، وأكَّد بصيرته في مُجاهدة أعداء الله وأعداء دِينه في هذه السنة؛ فأمر بالاحتشاد والاحتفال في جمع الرجال والتكثير من الجند والفرسان الأبطال. وعَهِدَ إلى حاجبه بالغزو في الصائفة. ونُفِّذت كُتُبُه إلى أهل الأطراف والثُّغور بالخروج إلى أعداءِ الله، والإيقاعِ بهم في أواسط بلادهم، ومجتمعِ نَصْرانيَّتهم. ففصَل الحاجبُ بالجيوش، يومَ الثلاثاء لخمسٍ بقين من المحرَّم، وانثالت عليه العساكرُ من كلِّ جهة، ودخل بهم دارَ الحرب، وقد انحشَدَ المشركون، وتجمَّعوا من أقاصي بلادهم، واعتصموا بأمنع أجبُلهم، فنازَلَهم الحاجبُ بَدْر بن أحمد بأولياء الله وأنصار دِينه، فكانت لهم على أعداء

(١) المقتبس ١٣٨ (شالميتا).

(٢) في ر٢: «الزرع».

(٣) في ر٢: «فلتيرة» وهو جائز لأن أصلها باء أعجمية «P».

(٤) في ر٢: «أغضب».

الله وقائعُ اشتَفَتْ فيها صدورُ المسلمين، وانتصروا على أعداء الله الكافرين. وقُتِل في هذه الغَزاة من حُمَاتِهم، وأبطالهم، جُملةٌ عظيمةٌ لا يأخذُها عَددٌ، ولا يُحيط بها وَصْفٌ. وكان الفتح يومَ الخميس لثلاثٍ خَلَوْنَ من ربيع الأول ويومَ السبت بعده في معاركَ جليلة، لم يكُ أعظمُ منها صُنْعًا، ولا أكثرُ من أعداء الله قتيلًا وأسيرًا. وورد الكتابُ بذلك على الناصر يومَ الجمعة لإحدى عشرة ليلةً خلَتْ منه؛ فأكثر من الشكر لله على ما منَّ به، وفتح فيه، وقُرِئ في مساجد الجماعات، وكُتِبَ به إلى الأطراف[1].

غزاة[2] الناصر لدين الله بنَفْسه

وفي شهر ذي حجّة من السنة المؤرَّخة: غزا الناصرُ بنفسه مدينةَ بلدة[3] من كُورة رَيُّه، وتخلف في القصر بقُرطُبة ابنَه الحَكَم الـمُستنصِر بالله، فلما قرب الناصرُ قدَّم من رجالِه مَنْ يَمتحن إماكنَ زَرْعها وموضِعَ المضطرَب عليها، فألقى الزرعَ متأخِّرًا، وأتَتْه الأنْباء بإمكان زروع فَحْص رُعَيْن، فرأى التعريجَ إليه بعد أن أمر بابتناء صَخْرة غوجان[4]؛ لتكون مُطلَّةً على بَسِيط بَلْدة. ثمّ ارتحل إلى حصنِ دُوش أَمَانْتِش، فنازلَه وحارَبَه حتّى افتتحه. ثم نهض إلى مدينة بَلْدة؛ فاحتلَّها يومَ الثلاثاء لليلة بقيتْ من ذي الحِجَّة، وأحاطت العساكرُ بها، فتداعى مَن كان من المسلمين فيها إلى النزول بأثقالهم وذراريِّهم، وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمْرِهم، فأمَّنهم الناصر، وقاتَلَ الكَفَرَةَ الـمُتغلِّبين في المدينة، حتى أظفره اللهُ بهم، فقُتلوا عن آخرهم، ومُلكت المدينة. ثم انتقل إلى حصون رَيّه، يتقرَّاها مَعْقلًا معقلًا، ويفتتح ما مرَّ به منها. ونزل على مدينةِ برِبُشتر، فحاصر أهلَها، وقطع ثمارَها، واستبلغ في نكاية أهلها، فسأله جعفرُ بن عمَر بن حفصون قَبْضَ رهائنه؛ نُزوعًا إلى الطاعة، فقُبضتْ رهائنُه. ثم قفل الناصرُ لدين الله ودخل القَصْرَ لليلةٍ بقيتْ من المحرَّم من سنة سبع.

---

(١) المقتبس ١٤٦-١٤٧ (شالميتا).

(٢) في ر٢: «غزوة».

(٣) معجم البلدان ١/ ٤٨٣.

(٤) في عريب: «غوزان».

وفي سنة سبع وثلاث مئة: طاع عبد الرحمن بن عمر بن حفصون وأسلم حصن طرّش إلى رجال الناصر لدين الله، ودخل قُرطبة فأُنزل ووسِّع عليه[1]، وكان غيرَ داخلٍ في الحرب والفتنة مدخل أبيه وإخوته، وإنما كان صاحب كُتُب، وكان حسن الخط ضعيف العقل، قال عريب: وقد صار بعد ذلك وراقًا.

وفيها: أمَر الناصرُ بقتل موسى بن زياد، وكان وَلِيَ الوزارة في أيام الأمير عبد الله، وكَثُرت مطالَبتُه للناس ورَفْعُه عليهم، وكان يجاهِرُ ببُغْض الناصر ويرفع عليه إلى جده ويغريه به، فحبَسَهُ الناصرُ يوم بيعته، ولم يزل محبوسًا إلى أن قتله في أواخر صفر؛ وقتلَ معه حبيب بن سَوَادة وولدَيْه، ومحمد بن الوليد العُقيلي، وكانت لهم ذنوب وجرائم.

وفي سنة ثمان وثلاث مئة: خرج الناصر غازيًا من قصر قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة[2] خلت من ذي الحجة سنة سبع وثلاث مئة، ثم فصل غازيًا من قصر قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمان وثلاث مئة وتخلّف في قصرِه ولي عهده الحكم.

ونهض آمًّا لوجهته، والحشودُ والعساكرُ تتلاحق به من سائر[3] أقطار الأندلس، وجميع جهاتها. ونزل، رحمه الله[4]، على مدينة طُلَيْطُلة، فخرجَ إليه صاحبها لُبُّ بن الطربيشة، مُبادرًا للغزو معه، وكان يُظْهِر طاعةً تحتها معصيةٌ. ثمّ تنقَّل، في مَناقِله، حتى لحق بمدينة الفَرَج، فنظر لأهلها، وعزلَ بني سالم عنهم؛ إذ شكوا بهم. واستوزر في هذه المحلّة سعيد بن المنذر، وقدَّمه قائدًا وضابطًا لمدينة الفَرَج، وأغزاه مع نفسه، واستعمل عليهم ابنَ غِزْلان صِهْرَه، وعمَّ الرِّضا جميعَهم، وخرج للجهاد أكثرُهم. ثم نهض، رحمه الله، في جيوشٍ كثيفة حتى احتل بثَغْر مدينة سالم، وأظهر التوجُّهَ إلى الثَّغْر الأقصى،

---

(١) المقتبس ١٥٤ (شالميتا).

(٢) من هنا إلى قوله: «من المحرم» سقط كله من ر٢.

(٣) من ر٢.

(٤) «رحمه الله» من ر٢.

ثم عرج بالجيوش إلى طريق ألبة والقلاع، وطوى من نهاره ثلاثَ مراحل، حتى احتلَّ بوادي دومَرَة، فاضطربت العساكرُ فيه وباتت عليه، ثم أخرج في ذلك الصباح جرائد الخيل وسَرَعان الفُرسان فأغاروا يمنة ويسرة والمشركون في سكون وغفلة، فغنموا نَعَمهم وسوامهم ووجدوا دوابهم سارحة مهملةً، فاكتسحوا جميع ذلك وانصرفوا إلى العسكر بالغنائم. وبعد ذلك اندفعت الجيوش في أكمل تعبئة، وأهذب ترتيب وأبرع حزم وعَزْم إلى حصن وُخْشُمة، ففر عنه الكفرة، وأخلوه، ولاذوا بالغياض الأَشِبَة[١]، والصخور المنقطعة. ودخل المسلمون الحصنَ وخَرّبوا جميع ما فيه، وحَرَّقوا القرى المجاورة له ولم يتركوا لأعداء الله في ذلك الجانب نعمة يأوون إليها.

وما زال الناصر من موضع إلى موضع يُخَرّبُ ويقتل ويسبي في بلاد المشركين ويهزم الكفرة حتى تواروا في الجبال ولاذوا بالشعاب وأيقنوا بالدمار والهلاك وحيز من رؤوس أمثال الجبال، والمسلمون ظاهرون منبسطون في قراهم ومزارعهم[٢] يعفون آثارهم ويقتلون مَن أدركوا منهم.

ثم انتقل الناصرُ[٣] إلى حُصون المسلمين يُسَكِّنُها وينظر في مَصالِح أهلها، فكلَّما ألفى بقربها مَعقِلًا للمشركين، هدمَه وأحرق بَسيطَه، حتى لقد اتَّصل الحريقُ في بلاد المشركين عشرةَ أميال في مِثْلها. واجتمع عند المسلمينَ من الأطعمةِ والخيرات[٤] ما عجزوا عن حَمْله، ولم يجدوا لها ثَمَنًا تُباع به، وكان القمحُ في العسكر ستة أقفزة بدرهم، فلا يوجد من يشتريه، فجُمعت الأطعمة وأدخلت[٥] النار إليها حتى أحرقت عن[٦] آخرها. وبعث الناصر[٧] إلى قرطبة من رؤوس الكفرة أعدادًا عظيمة حتى لقد عجزت

---

(١) الغياض الأشبة: الكثيرة الشجر.

(٢) المقتبس ١٦٥ (شالميتا).

(٣) من ر ٢.

(٤) من ر ٢.

(٥) في ر ٢: «وأدخل».

(٦) في ر ٢: «حتى احترقت من».

(٧) في ر ٢.

الدواب عن حملها، ثم صدر قافلًا إلى قرطبة واحتل قصرها في عز يسرّ الإسلام ويقرّ أعين الأنام منتصف ربيع الآخر، وقد استكمل في غزاته هذه تسعين يومًا[١].

وفي هذه السنة: قُتِلَ جعفرُ بن عمر بن حفصون بجبل بُبَشتر؛ قتله أصحابُه غِيْلَةً، ودخله أخوه سليمان وضبطه[٢].

غَزَاة طُرُّش

وفي سنة تسع وثلاث مئة: خرج الناصر لدين الله من قصر قرطبة يوم السبت[٣] لثمان خلون من المحرم فسار في احتفالٍ من جيوشه، وطبقاتٍ من رجاله، حتى احتلَّ على حصنِ[٤] طُرُّش، وكانت النَّصرانية قد احتشدت إليه، وتحصَّنت فيه، فأحدقت العساكرُ به من جميع جهاته، فأمر بمحاربتهم والتضييقِ عليهم ونَصَبَ المجانيق على مُرتقًى تَصِلُ منه حجارتُه إلى الكَفَرة. وكانوا في أول الـمُنازلة لهم[٥] يَبْرزون للحرب، ويُظْهرون المدافعة، حتى مزَّقَتْهم الحرب، وقلَّلَت عددَهم، وفلَّتْ حدَّهم، فعاذُوا بالاستغلاق في داخل حِصْنهم[٦]. ثم تمادى التضييقُ عليهم، والحصارُ لهم، حتى أخذهم الجَهْد، وأشفَوْا على الهلاك؛ فخاطبوا أميرَ المؤمنين[٧] ضارعين إليه في تأمينهم، على أن يُسلِموا الحصن، ويَخرجوا عنه، فأجابهم إلى ذلك، وقَبِلَ إنابتهم، ودخل رجالُه الحصن، وخرج عنه جميع مَن كان به من النصرانية. وهُدمت قصبته، وأُلقيت أحجارُها في النهر، وبُني موضع الكنيسة مسجدٌ جامع. ونظر الناصرُ، رحمه الله، أيام مُحاصرته لحصنِ طُرُّش في توجيه القُوَّاد والأجناد إلى حِصْنِ[٨] بُبَشْتر وحصنِ أقُوط[٩]

(١) جذوة المقتبس ١٦٧-١٦٨ (شالميتا).

(٢) جذوة المقتبس ١٦٨ (شالميتا).

(٣) من ت.

(٤) في ر٢: «بحصن».

(٥) في ر٢: «منازلتهم».

(٦) في ر٢: «بالتحصين بجدار حصنهم».

(٧) في ر٢: «الناصر».

(٨) في ر٢: «جبل».

(٩) في ر٢: «أقرط».

وجَبَل الحجارة، لمحاربة سليمانَ وحفصٍ ابنَيْ عُمَر بن حَفْصون، والتضييقِ عليهم، والانتقاص[١] لعَدَدهم. ثم قفل الناصرُ، من محلَّته على حصنِ طُرُّش يومَ الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول[٢]، دخل قرطُبة وقد استتمَّ في غَزاته هذه تسعةً وستِّين يومًا[٣].

غَزْوة مُنْت روي[٤]

وفي سنة عشر وثلاث مئة: خرج الناصر لهذه الغزوة يوم الخميس لثلاث خَلَونَ من ذي الحجة من سنة تسع وفصل منها إلى قرطبة يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر من هذه السنة، وقد استكمل في غزاته هذه ستة وثمانين يومًا وتخلّف بقصر قرطبة ولي عهده الحكم، وسار حتى احتل بحصن مُنْت روي[٥] يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم، وكان جبلًا ممتنعًا بعيد المرام كثير السُّكان من عُجمةٍ، قد لاذت به، وامتنعت فيه، وهو متوسِّطٌ بين كُورة[٦] إلْبيرة وكورة جَيّان، وعلى طريق مدينة بَجّانة؛ فكان مَن سلك تلك السَّبيل من واردٍ أو صادر لا يَسلم من عاديةِ أهل[٧] ذلك الحصن. وكانوا يَسفكون الدِّماء، ويَسلُبون[٨] الأموال، فأقام عليهم أميرُ المؤمنين، خمسةً وثلاثين يومًا مُحاصِرًا، حتى أباد كثيرًا منهم، ثم أبقى على الحصن من رجاله وأجناده مَنِ استمرَّ على مُحاصرتهم، حتى كان[٩] لا يدخلُ إليهم داخلٌ، ولا يخرج عنهم خارجٌ. وتقدَّم إلى حصون كُورة إلْبيرة، فعمَّ جميعَها بالنِّكاية.

---

(١) في ر٢: «والنقص».

(٢) في ر٢: «في منتصف ربيع الأول».

(٣) في ر٢: «شهرين وأيامًا» وينظر المقتبس ١٧١-١٧٢ (شالميتا).

(٤) في أ: «منت روبي»، وينظر المقتبس ١٧٩ (شالمتا).

(٥) كذلك.

(٦) في ر٢: «كورتي».

(٧) من ر٢.

(٨) في ر٢: «ويغنمون».

(٩) في ر٢: «كانوا».

ثمّ عرَّج منها إلى كُورة رَيُّه، ونزل على بُبَشْتر[١]، فحارَبَهم أشدَّ مُحاربة، ونكاهم أبلَغَ نِكاية، وقطع ما بقي في أسناد الجبل من الثمار، ورتَّب لمحاصرتهم أكابر القواد. وقصدَ كورة تاكُرُنّا فاستصلحَ أحوال أهلها، واستوثق من طاعتهم، ونقل إلى قرطبة من رأى نقلَهُ من وجوههم. وطالع في طريقه كورة إشبيلية وقَرْمونة، وقفل بعد إحكامه جميع الأمور في تلك الجهات فاحتل قصره[٢] يوم السبت لست خلون من ربيع الآخر، وقد[٣] استكمل في غزاته هذه خمسة وثمانين يومًا[٤].

وفي سنة إحدى عشرة وثلاث مئة: خرج الناصر لدين الله إلى مدينة بُبَشْتَر وحصون رَيُّه، فسار حتى احتل على حصن بُبَشْتَر، فبادر سُليمان بن عمر بن حفصون بمكاتبته، فأعرض الناصر عن جوابه، وأخذ بالجد والعزم في محاصرته[٥]، وأقام عليه سبعة أيام يصل الغدو بالرواح في التغيير والتدبير[٦] والنكاية والاستبلاغ، وفعل كذلك فيما بقي من حصونه، واستنزل جميع أهل تلك الحصون، واستصلح تلك الجهات، ثم قَفَل ودخل قرطبة يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول[٧]، وقد استتم تسعة وستين[٨] يومًا[٩].

غزاة الناصر إلى بَنْبَلُونة[١٠]

وفي سنة اثنتي عشرة وثلاث مئة: كان غزاة أمير المؤمنين الناصر[١١] إلى دار الحرب، وهي الغزوة المعروفة ببَنْبَلُونة، وفصل من قرطبة يوم السبت لأربع عشرة

---

(١) في ر٢: «بربشتر».

(٢) في ر٢: «بعد إحكام ذلك كله إلى حضرته قرطبة فاحتل قصرها في التاريخ المتقدم».

(٣) من هنا إلى آخر الفقرة ليست في ر٢.

(٤) المقتبس ١٧٩-١٨١ (شالمتا).

(٥) في ر٢: «حصاره».

(٦) في ر٢: «التدمير».

(٧) في ر٢: «في أواخر ربيع الآخر».

(٨) في ر٢: «سبعين».

(٩) المقتبس ١٨١-١٨٢ (شالميتا).

(١٠) هذا العنوان ليس في ت.

(١١) في ر٢: «أغزى الناصر لدين الله الروم».

ليلة بقيت من المحرم[1][2]، فاحتل لأول خروجه بمَحَلَّة بَالِش، وكسر بها يومين، متلومًا على المجاهدين معه من أجناده ورعيته والمحشودين من أقطار كُوَره، وتخلّف في القصر بقرطبة وليّ عهده الحَكَم، ومَرَّ في أول خروجه بكورتي تدمير وبلنسية فاستصلح أحوال أهلها، واستنزل عبد الرحمن بن وَضّاح ويعقوب بن أبي خالد وعامر بن أبي جوشن وغيرهم من مواضعهم التي كانوا متأمرين فيها ومتعاصين عن النزول منها[3].

ثم نهض الناصر، في عساكرَ كعدد الحَصَى، حتى دخل ثَغْر تُطِيلة. وخرج إليه التُّجيبيُّون وغيرُهم[4]، وتلقَّاه عمّالُ الثَّغر في جنود عظيمة، وعدَّة كاملة[5]، فدخل، رحمه الله[6]، بلادَ المشركين بأنفذِ عَزْم، وأوكد حَزْم، وأقوى نيَّة في الانتقام لله، عز وجل[7]، ولدِيْنِهِ من الأرجاس، الكَفَرَةَ الأنجاس[8]. فحلَّ من أول بلادهم حِصْنَ قَلَهُرة[9]، وكان العِلْجُ شانْجُه قد أخلاه، فأمر بهدمِه وإحراقِ جميع ما فيه وحوَّله. وهدم المسلمون حصون الكفرة التي كانت في تلك الناحية، ولم يبق منها صخرة قائمة[10]. وانتهب المسلمون جميع ما كان فيها من الأطعمة والنَّعَم، ودأبوا في تخريب الديار وتغيير الآثار. ثم ارتحل منه إلى حصن قرقستال على وادي أرَغُون[11]. ثم عزم الناصر، رحمه الله، على الإيغال في بلدهم والتوصّل إلى موضع قرارهم، ومجتمع كفّارهم، ونِكايتِهم في

(١) في ر٢: «منتصف شهر محرم».
(٢) المقتبس ١٨٩ (شالميتا).
(٣) المقتبس ١٩٠ (شالميتا).
(٤) ليست في ر٢.
(٥) في ر٢: «وافرة».
(٦) «رحمه الله» ليست في أ.
(٧) «عز وجل» ليست في أ.
(٨) ليست في أ.
(٩) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٣٩٣.
(١٠) المقتبس ١٩٠-١٩١ (شالميتا).
(١١) في ر٢: «ثم انتقل إلى حصون وادي أرغون»، وما أثبتناه من أ.

عُقْر دارهم، ومكان أمنهم؛ فأخذ في الحزم[1]، وعَهِدَ بضبط مُجَنَّبات العسكر، وتقدَّم من فَجِّ الـمُرْكُوِير في أتمِّ تعبئة وأهذبِ ترتيب، فدخلت الجيوشُ مواضعَ لم تُدْخَل[2] قبل ذلك، حتى نزل بقَريَة بشكُونشة[3] التي إليها يُنسب العِلْج، ومنها أصلُه، فهُدمت مَبانيها، وأُحرق كلُّ شيء كان فيها[4].

فجمع العِلْجُ شانْجُه كَفَرَته، واستمدَّ بنصرانيَّته، حتى توافى له جمعٌ رجا أن يكافحَ المسلمين به؛ فتطلَّعت له خيلٌ على تلك الأجبُل المنيعة على العسكر، فأمر الناصرُ بتعبئة الرجال وشَدِّ العسكر، وإتقان النظر، وصابح النهوض والتقدُّم لوجهته، واثِقًا بالله، عزَّ وجلَّ، ومتوكّلًا عليه، فسلكت الجيوشُ بين أجبُل شامخةٍ وشواهِقَ مُنقطعة. ورجا أعداء الله عند[5] ذلك انتهاز الفرصة واعتراض المسلمين[6] في مُجَنَّبة أو ساقة، فلمّا توسَّط الجيشُ بعض تلك المواضع الـمُتضايقة[7] وبقيت من الساقة بقية[8]، هبطتْ للمشركين خيلٌ من الأجبل، فحالت بينهم وبين أهل العسكر، فنهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود، فعبروا النهرَ إليهم، وصمَّموا بالحملة عليهم، حتى اقتلعوهم عن موضعهم، وهزموهم[9]، ووضعوا سيوفَهم ورماحهم فيهم، حتى اضطرُّوهم إلى مرتَقًى وَعْر وجبلٍ منقطع، فتفحَّم المسلمون عليهم، وسهَّل الله وَعْرَه لهم، فقَتلوا جُملةً منهم، وانبسطت على الأرض أجسادهم[10]. واستمرَّت الخيلُ

---

(١) في ر٢: «بالحزم».

(٢) في ر٢: «تدخلها».

(٣) في ر٢: «بنكوشة».

(٤) المقتبس ١٩١-١٩٢ (شالميتا).

(٥) في أ: «مع».

(٦) في أ: «والاعتراض للمسلمين».

(٧) في ر٢: «بعض تلك الضيقات».

(٨) «وبقيت من الساقة بقية» ليست في أ.

(٩) ليست في أ.

(١٠) في أ: «وبسطت الأرض بأجسادهم».

الـمُغيرةُ في بَسِيطهم، فأصابت الغنائم والسَّوام وضروب النّعَم، وانصرفوا سالمين، لم يُصَب منهم غيرُ يعقوبَ بن أبي خالد التوزَريِّ، ونفرٍ يسير[1] من الحشم فازوا بالشهادة، وختم اللهُ لهم بالسعادة. واجتمع من رؤوس المشركين عدد عظيم.

ثم ارتحل المسلمون من موضع إلى موضع في بلاد المشركين وحصونهم يقتلون ويخربون إلى أن وصلوا إلى موضع العلج شانجُه ومكان طمأنينته، فحلّت الجيوش بهذه المحلة يوم الأربعاء لثمان بقين من ربيع الآخر، وتظاهر الكلب على الجَبَل وقد جمع جموعه وحشدَ رجاله واستمد[2] بمدود أتته من إلْبَة والقلاع، طامعًا في معارضة المسلمين بملاقاة[3] يقيم بها عُذْرَه عند كَفَرَته، وأهل مِلَّته، فناشبهم المسلمون الحربَ، والتحم بينهم القتال، فهزم اللهُ المشركين، وتفرَّقوا في شَعْراء متصلة بها. وبات أهلُ العسكر في محلّتهم. وانبسطت العلاقة في القُرى، فانتسفتْ ما فيها. وتظاهر العِلجُ مرةً ثانيةً؛ فانهزم أيضًا أقبحَ انهزام، وتنقَّل الناصرُ، رحمه الله، قافلًا، وجعلَ مرورَه ببني ذي النُّون؛ وكان يحيى بنُ موسى قد توقَّف عن الجهاد؛ فدارت عليه معرَّةُ الجيش، حتى أذعن مُنقادًا، وخرج خائفًا وَجِلًا، وتلقّى أميرَ المؤمنين[4] مُعترفًا بذَنْبه؛ فأوسعه عَفْوَه، ودخل أميرُ المؤمنين[5] قرطُبَةَ يومَ الخميس لثمانٍ بقين من جُمادى الأولى، وقد استتمَّ في غَزاته هذه أربعةَ أشهر[6].

وفي سنة ثلاث عشرة وثلاث مئة: كانت غزوة الناصر، رحمه الله، إلى كورة إلبيرة، واستصلاحه كورة جَيّان وما والاها، وفصل من قرطبة غازيًا يوم الخميس لثمان بقين من صَفَر وتخلف في القصر بقرطبة ولي عهده الحكم ومن الوزراء أحمد بن حُدَيْر،

---

(١) في ر٢: «لم يصب منهم أحد إلا نفر يسير».

(٢) في أ: «واستجاش».

(٣) ليست في أ.

(٤) في ر٢: «الناصر».

(٥) كذلك.

(٦) المقتبس ١٩٥-١٩٦ (شالميتا).

وعهد بهدم أكثر حصون جيان وقصباتها إذ كانت منزلًا[1] لأهل الشر والخلاف، وضررًا على أهل الطاعة والاستقامة، وكذلك فعل بحصون إلبيرة حتى احتل بحصن أشتين، وكان أهله على مكايدة باطنة، وإظهار طاعة تحتها معصية[2]، فعرض عليهم الناصر النزول عن حصنهم، فاضطربوا في أمرهم، ولاذوا عن رُشدهم، فاحتلت العساكر عليهم وأحيط بهم من جميع جهاتهم وبنيت عليهم ستة حصون يقابل بعضها بعضًا حتى عادوا[3] في مثل حلقة الخاتم، وبقي الناصر على محاصرتهم خمسة وعشرين يومًا، وهو مع ذلك يدأب في استصلاح أمور[4] رعيته، وتأمين سبلهم وقطع المخاوف عنهم ويشخص بنفسه إلى كل جهة من جهاتهم[5].

وفي هذه الغزاة، استجلب الناصرُ ابنَهُ الحَكَمَ من قصرِ قُرطُبَةَ إلى معسكره، وهو في ذلك الوقت ابنُ عشرة أعوام وثمانيةِ أشهر ونصف؛ إذ استوحش له، وتاقت نفسُه الكريمة إليه، فقدم عليه، بهذه المحلَّة مع ثقاتِ رجاله وفتيانه، واستخلف في القصر أخاه[6] عبد العزيز لينَفِّذ الكتب باسمه إلى وقت مُنصرَفِه. فأنس، رحمه الله، به، وسُرَّ بقُربه. وقفل الناصرُ من هذه الغزاة لستٍّ خلون من ربيع الآخر، بعد أن رَتَّبَ الوزيرَيْن سعيدَ بن المُنذِر وعبدَ الحميد بن بَسِيل على حصنِ أشتين، محاصِرَيْن لأهله[7]. ودخل القصرَ يومَ الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر[8].

وفي سنة أربع عشرة وثلاث مئة: أغزى الناصر، رحمه الله، قواده بالصوائف[9]،

---

(١) في ر٢: «مستركحًا».

(٢) في ر٢: «مداهنة».

(٣) في ر٢: «صاروا».

(٤) ليست في ر٢.

(٥) المقتبس ١٩٩-٢٠١ (شالميتا).

(٦) في م: «أخوه»، خطأ.

(٧) جاءت العبارة في ر٢ مختصرة كما يأتي: «بعد أن رتب عسكرًا على حصن أشتين يحاصره».

(٨) المقتبس ٢٠١ (شالميتا).

(٩) في ر٢: «بالصائف».

ولم يكن له غزو بنفسه(١) في هذا العام، لمحلٍ كان فيه، وقحطٍ، فأخرجَ عبد الحميد بن بَسيل الوزير إلى الثغر الذي كان به بنو ذي النون، فأوقع بهم إذ كانوا قد مرقوا(٢) عن الطاعة، فقتل منهم من استحق القتل. ثم صدر عبد الحميد من ذلك الثغر وقد استقامت على يديه أحوالُ أهله، فأخرجه الناصر إلى مدينة بُبَشْتَرَ محاصرًا لسليمان بن عمر بن حفصون(٣).

ذكر قَتْل سُليمان بن عُمر(٤) بن حفصون

وفي هذه السنة: قُتِلَ سُليمانُ بن عُمر بن حفصون، وكان قد خرج مغاوِرًا(٥) لبعض الحَشَم(٦) الـمُغاوِرين له من العسكر، فتبادَرَتْ إليه الخَيلُ من الجهة التي كان فيها عبدُ الحميد، فصُرِع سليمانُ عن فَرَسه، فاحتزَّ رأسَه سعيدُ بن يَعْلَى العَريف، وقُطِعت يداه ورِجْلاه(٧)، وذلك يومَ الثلاثاء مستهلَّ ذي الحجَّة من سنة أربع عشرة وثلاث مئة. وبعث الوزيرُ عبدُ الحميد برأسه وجثَّته(٨) ويدَيْه مُبَعَّضةً مفترقةً، فرُفعتْ على باب السُّدَّة في خشبة عالية، وكان الفتحُ فيه عظيمًا سارًّا لجميع المسلمين(٩).

وكان القحطُ في هذا العام شديدًا، والمحلُ عامًّا، فاستسقى بالناس الخطيبُ(١٠)

---

(١) هذه اللفظة ليست في أ.

(٢) في ر٢: «خرجوا».

(٣) المقتبس ٢٠٣-٢٠٤ (شالميتا).

(٤) «بن عمر» ليست في أ.

(٥) في أ: «معارضًا».

(٦) هذه اللفظة من ر٢.

(٧) كذلك.

(٨) في ر٢: «وجسده».

(٩) المقتبس ٢٠٤-٢٠٥ (شالميتا).

(١٠) هذه اللفظة من ر٢.

أحمدُ بن بَقِيٍّ مِرارًا، فوافى نزولُ الغَيْث مع رَفْعِ جُثَّة سُليمان بن حفصون صَليبةً على باب السُّدَّة؛ فقالت في ذلك الشعراء أشعارًا كثيرةً، منها [من الطويل]:

سَحابٌ يَمُورُ الغَيْثُ فيها وَدِيمَـةٌ ... دِمـاءُ العِـدَا تَهْمِـي بهـا وتَفُـورُ
غِياثـانِ فينـا واكِفـانِ مـن الحَيَـا ... ولَكِـنَّ ذا رِجْـسٌ وذاكَ طَهُـورُ
وَذَاكَ نَجِيـعٌ لَـيْسَ يَقْبَلُـهُ الثَّـرَى ... وذا نـاجِعٌ يَـسْرِي بِـهِ ويَغُـورُ
تَدَنَّـسَتِ الـدُّنْيَا بـه فتَطَهَّـرَتْ ... بُطـونٌ لهـا مـن رِجْسِهِ وظُهُـورُ

وفي سنة خمس عشرة وثلاث مئة: كان غزو الناصر إلى مدينة بُبَشْتر[1] لمحاربة حفص بن عمر بن حفصون، وخرج معه ابنه الحكم وهو ابن ثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر ونصف، وتخلَّف في القصر أخاه عبد العزيز. فنزل الناصر على بُبَشْتَر يوم الثلاثاء[2] لسبع بقين من ربيع الآخر، وزاد عزمًا في البنيان عليها والجد في محاصرتها وأرتب بها مَن يلازمها، وتنقل منها إلى مدينة الحَنَش، فاستنزل من كان فيها وأخلاها من ساكنيها، وأمر بهدم أسوارها وتعفية آثارها وقطعَ ثمارَهم وكُرومهم، ثم تنقَّل بجيوشه إلى مدينة مالَقة، وولَّى مدينةَ مالَقة عبد الملك بن العاص، وألزم معه جُملةً من الحَشَم لـمُغاورةِ أهلِ تلك الحصون، وأمره بحملِ السيف على كلِّ داخلٍ إليهم أو خارج عنهم. ثم صدر إلى مدينةِ بُبَشْتر، فاضطرب عليها ثانيةً، ورأى أنّ البُنيان بها من أنكى الأمور للكَفَرة وأشدِّها عليهم؛ فأمر ببُنيان صَخْرةٍ للأول تُعرف بالمدينة، وأقام بمحلَّته هذه سبعةَ أيّام، لم يَدَعْ فيها للكَفَرة مُرتفقًا ولا معاشًا. ثم قفل، ودخل قُرطُبة يومَ الثلاثاء[3] لعشر بقين من جمادى الآخرة، وقد استكمل في غزاته هذه[4] خمسةً وستِّين يومًا[5].

---

(١) في ر١: «خرج الناصر لمدينة ببشتر».

(٢) قفز نظر ناسخ ر٢ من هنا إلى آخر النص: «ودخل يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى... إلخ».

(٣) إلى هنا ينتهي السقط في ر٢.

(٤) هذه اللفظة من ر٢.

(٥) المقتبس ٢١٠-٢١٢ (شالميتا).

ذكر افتتاح[1] مدينة بُبَشْتر

ولـمَّا اشتدَّت الـمُحاصرةُ على حفص بن عمر بن حفصون، وأحيط به[2] بالبنيان عليه من كلِّ جانب، ورأى من الجدِّ والعزم في أمره ما علم ألا بقاء له معه في[3] الجبل الذي تعلَّق فيه؛ كتب إلى الناصر، يَسْأَلُه تأمينَه والصَّفْح عنه، على أن يَخرج عن الجبل مُستسلمًا لأمره، راضيًا بحُكمه، فأخرج إليه الناصرُ الوزيرَ ابن حُدَيْر، وتولَّى هو وسعيدُ بن المنذِر[4] إنزالَه من بُبَشْتر. ودخلها رجالُ أمير المؤمنين[5]، يومَ الخميس لسبعٍ بقين من ذي القَعْدة من السنة[6]. واستُنزِل حَفصٌ وجميعُ النصارى الذين كانوا معه، وقَدِمَ بهم ابن حُدَيْر قُرطُبَةَ مع أهلهم ووَلَدهم. ودخلها حفصٌ في مستهلِّ ذي الحجَّة[7]، وأوْسعَه أميرُ المؤمنين[8] صفحَه وعَفْوَه، وصار في جُملة حَشَمه وجُنْدِه. وبقي سعيدُ بن الـمُنْذِر بمدينة بُبَشْتر ضابطًا لها، وبانيًا لما عُهِدَ إليه من بنيانه فيها[9].

وفي سنة ست عشرة وثلاث مئة: كان غزاةُ الناصر[10] إلى مدينة بُبَشْتر، بعد افتتاحها[11]، لتدبير أمْرِها وإحكام ضَبْطها، واحتلَّ بحصنِ بُبَشْتر يومَ الأحد لعشر بقين من المحرَّم، فدخل المدينةَ[12]، وجال في أقطارها[13]، وعايَنَ من حصانتها، وعلوِّ

---

(١) في ر٢: «فتح».

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «على».

(٤) في ر٢: «بن حدير» خطأ.

(٥) في ر٢: «الناصر».

(٦) «من السنة» ليست في أ.

(٧) في ر٢: «ذي القعدة».

(٨) في ر٢: «الناصر».

(٩) في ر٢: «لما أمره ببنائه فيها»، وينظر المقتبس ٢١٢-٢١٣ (شالميتا).

(١٠) في ر٢: «خرج الناصر».

(١١) «بعد افتتاحها» ليست في ر٢.

(١٢) في ر٢: «فلما دخلها».

(١٣) «وحال في أقطارها» ليست في ر٢.

مُرتقاها، وانقطاع جَبَلها مع جميع جهاته، ما أيْقَنَ معه ألا نظيرَ لها في الأرض حَصانةً ومَنَعَةً واتِّساعَ قرارة؛ فأكثر من حمدِ الله، عزَّ وجلَّ، على ما افتتح منها، ويسَّر له فيها، والتزم الصَّومَ أيّامَ مُقامه بها. ثم دبَّر بُنيانَ قَصَبَتها على أحسن ما دبَّره وأحكمه في غيرها، وفرَّق رجالَه على هدمِ كلِّ حصن كان حَوالَيْها، وعلى الدِّيار[١] الخارجة عنها. وأمر بنَبْش جيفتَيْ عمرَ بن حفصون وابنه، فكُشفت قبورُهما، فأُلفِيَا مدفونَيْن على ظهورهما، كما يتَدافَن النصارى، وشهد ذلك عامةُ الفقهاء الغازِين مع الناصر، رحمه الله، وأيقن مَن شهد ذلك بهلاكِهِما على دين النصرانيّة، فاسْتُخرِجا من لُحودهما المتنة[٢]، وأُتِـيَ بأعْظُمِهما إلى باب السُّدَّة بقرطبة، فرُفِعَتْ في جُذوعٍ عالية إلى جنب سُليمانَ بن عمر، وصاروا عِظَةً للناظرين، وقَرَّتْ بهم عيونُ المسلمين، وقفل الناصر قرير العين[٣].

وفي هذه السنة[٤]: رأى الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبة له في جميع ما يجري ذكره فيه[٥] بأمير المؤمنين، فعهد إلى الخطيب أحمد بن بقي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة بحضرة قرطبة[٦] يوم الجمعة مستهل ذي الحجة، ونفذت الكتب إلى العمال بذلك[٧].

نسخة الرسالة النافذة في ذلك إلى الأقطار[٨]

بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعدُ، فإنّا أحقُّ مَن استوفى حقَّه، وأجدَرُ مَن استكمل حظَّه، ولَبِسَ من كرامة الله ما ألبسه[٩]، للذي فضَّلَنا اللهُ به، وأظهر أثَرَتنا

---

(١) في م: «الديارات»، وما أثبتناه من النسختين.

(٢) من ر٢.

(٣) المقتبس ٢١٥-٢١٧ (شالميتا).

(٤) في ر٢: «وفيها».

(٥) قوله: «في جميع ما يجري ذكره فيه» ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «أحمد بن بقي أن يخطب بذلك بحضرة قرطبة».

(٧) ليست في أ.

(٨) قوله: «إلى الأقطار» من ر٢.

(٩) قوله: «ولبس من كرامة الله ما ألبسه» ليست في ر٢.

فيه، ورفعَ سلطانَنا إليه، ويسَّر على أيدينا إدراكَه، وسهَّل بدولتنا مَرامَه، وللذي أشاد في الآفاق من ذِكْرنا، وعُلُوِّ أمرنا، وأعلن من رجاء العالَمِين بنا، وأعادَ من انحرافهم إلينا، واستبشارِهم بدَوْلتنا. والحمدُ لله وليِّ النِّعمة والإنعام بما أنعَمَ به، وأهلِ الفَضْل بما تفضَّل علينا فيه. وقد رَأيْنا أن تكونَ الدعوةُ لنا بأمير المؤمنين، وخروجُ الكُتُب عنّا وورودُها علينا بذلك؛ إذ كلُّ مدعوٍّ بهذا الاسم غيرنا مُنْتَحَلٌ له، ودخيلٌ فيه، ومُتَّسَمٌ بما لا يستحقُّه. وعَلِمْنا أنّ التمادِيَ على تَرْك الواجب لنا[1] من ذلك حَقٌّ أَضَعْناهُ، واسمٌ ثابتٌ أَسْقَطْناه. فأْمُرِ الخطيبَ بموضعك أن يقول به، وأجْرِ مخاطباتِك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان. وكتب لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة ست عشرة وثلاث مئة.

وفي سنة سبع عشرة وثلاث مئة: كانت غزاة الناصر إلى مدينة بَطَلْيَوْس[2] لمحاربة أهلها وابن مروان المنتزي عليه فيها، ومعه ولدُه الحكم وابنُه منذرٌ، وتخلَّف في القصر ابنه عبد العزيز. وأقام عليهم الناصر بجيوشه عشرين يومًا، ثم أبقى عليهم أحمد بن إسحاق في قطيع من الجند، وانتقل إلى جهة ماردة، فأصلح الأحوال بها، ثم عاد إلى بَطَلْيَوْس ثانية، فاضطربت عساكره عليها[3]،وتولى من نكايتهم[4]، وأليم محاصرتهم[5] ما أذاقهم به وبال عصيانهم وضلالهم، ثم رَتَّب عليهم عسكرًا قَوَّد عليه[6] أحمد بن إسحاق، وأمره بالتشدد في حصرهم والاستبلاغ في مضايقتهم، وانتقل ناهضًا إلى مدينة باجة، واضطربت عساكره عليها وتقدم بالإعذار إلى عبد الرحمن بن سعيد الذي كان بها ودعاه إلى الطاعة، فلاذ والتوى، فنصبت المجانيق عليه، وحُورب أشد محاربة. ثم استأمن هو وأهل باجة لأمير المؤمنين الناصر وخضعوا لأمره ونزلوا على حكمه، فأوسعهم أمانَه

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «خرج الناصر إلى مدينة بطليوس».

(٣) قوله: «فاضطربت عساكره عليها» ليست في ر٢.

(٤) في ر٢: «نكايتها».

(٥) في ر٢: «محاصرتها».

(٦) قوله: «عسكرًا قوّد عليه» ليس في أ.

ونقلوا إلى قرطبة، ودخلها الناصر وولاها عبد الله بن عمر بن مسلمة وندب[1] معه فيها قوةً وأمره[2] بابتناء قصبةٍ ينفرد بها العامل ويسكنها. وكان مقام الناصر على باجة[3] خمسة عشر يومًا. وقَفَل بعدما دَوّخ تلك الجهات كلها ومدنها وأصلح أحوال أهلها، ودخل القصر لأربع عشرة ليلة خلت من رجب وقد استتم في غزاته ثلاثة وتسعين يومًا[4].

مطالعة الناصر لبُبَشْتر في الشتاء

وفي هذه السنة: كانت للناصر خَرْجةٌ من قصر الناعورة طالعًا لمدينة[5] بُبَشْتَر ومعاينًا لما قام من البُنيان بها، وما تَمَّ من ترتيبه فيها. وكانت مدة توجُّهه وانصرافه[6] ثلاثة عشر يومًا[7].

وترددت الفتوحات في هذا العام بوقائع كانت على أهلِ بَطَلْيَوْس، وبعث أحمد بن إسحاق بسبعين أسيرًا من أهلها من المخالفين[8]، فقتلوا بين يدي قصر قرطبة[9].

وافتتحت مدينة شاطبة من بلنسية، واستنزل عنها عامر بن أبي جوشن[10].

وفي سنة ثمان عشرة وثلاث مئة: كان افتتاح[11] مدينة بَطَلْيَوس واستنزل ابنَ مروان الجِلِّيقيَّ وأهلَهُ وذوي الشوكة من صحبه[12]، وملكَ المدينة وولّاها عُمَّاله.

---

(١) في ر٢: «وترك».

(٢) في ر٢: «وأمر».

(٣) في ر٢: «وأقام الناصر على باجة».

(٤) في ر٢: «ودخل القصر منتصف رجب الفرد بعد ثلاثة وسبعين يومًا من خروجه منه». وينظر المقتبس ٢٤٨-٢٤٩ (شالميتا).

(٥) ليست في أ.

(٦) في ر٢: «ورجوعه».

(٧) المقتبس ٢٥٠ (شالميتا).

(٨) «من المخالفين» ليست في أ.

(٩) في ر٢: «بين يدي الناصر».

(١٠) المقتبس ٢٤٩-٢٥٠ (شالميتا).

(١١) في ر٢: «افتتح الناصر لدين الله».

(١٢) في ر٢: «رجاله».

وفيها: أخرج الناصر لدين الله أهل الثقة من خَدَمَتِهِ إلى أهل طليطلة، مُعْذِرًا إليهم وداعيًا لهم إلى الطاعة، فلاذوا بمعاذير المخادعة وجاوبوا الناصرَ بما لم يُصْغَ إليه من غِشِّهم وتمريضِهم، فاستعزم[1] على غزوهم، وشَمَّر لمناهضتهم، وقدم الوزير سعيد بن المنذر إلى مدينة طليطلة في جيش كثير وعدد جم[2]، وأمره بالإحلال عليها والمحاصرة لها[3] حتى يلحقه الناصر بجيوشه وصنوف[4] حَشَمه، فخرج إليها الوزير حتى نزل بساحتها، ثم فصل أمير المؤمنين إلى طليطلة[5]، لليلتين خلتا من جمادى الأولى[6]، فنزل على بابها وأبلغ في نكاية العصاة بها. وأقام بهذه المحلة سبعة وثلاثين يومًا يوالي فيها نكايتهم وقَطْع ثمراتهم. ثم أمر بالبنيان في جبل جَرَنْكَش لمدينة سماها بالفتح[7]، وأمر بنقل الأسواق إليها والتمدين لها[8]، وترك محاصرًا لطليطلة محمد بن سعيد بن المنذر الوزير[9]. ثم قفل إلى قرطبة ودخل القصر لأربع خلون من رجب[10] وقد استتم في غزاته هذه[11] أحدًا وستين يومًا[12].

وفي سنة تسع عشرة وثلاث مئة: كاتَبَ صاحبُ الغرب موسى بنُ أبي العافية، أميرَ المؤمنين الناصر، ورغب في مُوالاته، والدخولِ في طاعته، وأن يستميلَ له أهواء أهل الغرب المجاورين له، فتقبَّله أحسنَ قبول، وأمدَّه بالخِلَع والأموال، وقوَّى أيْدَهُ

(١) في ر٢: «فعزم».
(٢) في ر٢: «في جيش كثيف وعدد كبير».
(٣) في ر٢: «وأمره بمحاصرتها».
(٤) في ر٢: «وأصناف».
(٥) في ر٢: «ثم فصل الناصر إليها».
(٦) في ر٢: «غرة جمادى الأولى من السنة بجيوشه».
(٧) في ر٢: «ثم أمر ببناء مدينة في جبل جرنكش سماه مدينة الفتح».
(٨) «والتمدين لها» ليست في ر٢.
(٩) في أ: «وأرتب محمد بن سعيد بن المنذر».
(١٠) في ر٢: «في أوائل رجب الفرد».
(١١) ليست في أ.
(١٢) المقتبس ٢٨٢-٢٨٤.

على ما كان يحاوله من حربِ ابن أبي العَيْش وغيرِه؛ فظهر أمرُ موسى في الغرب من ذلك الوقت، وتجمَّع له كثيرٌ من قبائل البَرْبَر، وتغلَّب على مدينة جُرَاوة، وأخرج عنها الحَسَنَ بن أبي العَيْش بن إدريس العَلَويَّ، وجرتْ بينهما حروبٌ عظيمة.

وفيها: افتتح الناصرُ مدينةَ سَبْتة، فشكَّها بالرِّجال، وأتقنها بالبُنيان، وبَنَى سورَها بالكذّان، وألزم فيها مَن رَضِيَهُ من قُوّاده وأجناده، وصارت مِفتاحًا للعُدْوة من الأندلُس، وبابًا إليها كما هي الجزيرة وطريف مفتاحُ الأندَلُس من العُدْوة. وقامت الخطبة فيها لأمير المؤمنين الناصر، لثلاثٍ خَلَوْن لربيعٍ الأول من العام المؤرَّخ[١].

وفي سنة عشرين وثلاث مئة: خرج الناصر لدين الله من قرطبة إلى طليطلة وافتتحها[٢].

وكان أهلُ طُلَيْطُلة، لـمَّا أخذهم الحصار[٣]، واشتدَّ عليهم[٤] التضييقُ، ولازمهم القُوَّاد، قد استجاشوا بالمشركين، واستنجدوهم، ورَجَوْا نَصْرَهم لهم، فلم يُغْنُوا عنهم فتيلًا، ولا كشفوا عنهم عذابًا، ولا جلبوا إليهم إلا خِزْيًا وهَوَانًا. وخرج القُوّاد الـمُحاصِرون لهم إلى الكَفَرة، فهزموهم، وفرَّقوا جموعَهم، وانصرفوا مُوَلِّين على أعقابهم، خاذلين لمن انتصر بهم، فلمَّا يئس أهلُ طُلَيْطُلة أن ينصرَهم أحدٌ من بأس الله الذي عاجَلَهم، وانتقامِه الذي طاوَلَهم[٥]، عاذُوا بصفح أمير المؤمنين، وسألوه تأمينَهم، وضرعوا إليه في اغتفار ذنوبهم[٦]، فخرج لاستنزال أهل طُلَيْطُلة، وتوطيدِ طاعته فيها، وإحكامِ نظره بها، في التاريخ الذي قدَّمنا ذِكرَه[٧].

---

(١) المقتبس ٢٨٨-٢٨٩ (شالميتا).

(٢) في أ: «كان غزو الناصر إلى طليطلة».

(٣) في ر٢: «وكان أهلها لما طال عليهم الحصار».

(٤) ليست في ر٢.

(٥) قوله: «من بأس الله الذي عاجلهم وانتقامه الذي طاولهم» ليس في ر٢.

(٦) في ر٢: «والعفو عنهم وخرجوا متضرعين» بدلًا من «وضرعوا إليه في اغتفار ذنوبهم».

(٧) في ر٢: «في التاريخ المتقدم».

ثم رَكِبَ الناصرُ في اليوم الثاني من نزوله بمحلَّته عليها، ودخلها[١]، وجال في أقطارها، فرأى بلدًا تصلح للخلافة، وعاينَ[٢] من حصانتها، وشَرَف قاعدتها، وانتظام الأجبُل داخلَ مدينتها، وامتناعها من كلِّ الجهات بواديها ووَعْرها، وطِيب هَوَائها وجَوْهَرِها[٣]، وكثرة البَشَر بها، ما أكثر له[٤] من شُكر الله، سبحانه[٥]، على ما مَنَحَه فيها، وسهَّل له منها، وعَلِمَ أنَّه لولا ما أخذ به من الجدِّ والعزم في أمرها، لما مُلِكَتْ مع حصانتها[٦] ومنعتها مع اتِّساعها وانفساح أقطارها[٧]، ولِـمَا اعتاده أهلُها من مُداخلةِ الـمُشرِكين، والاستمداد على الخلفاء[٨] بهم، فكم أعيَت الملوك، وامتنعت من العساكر، وانصرفت عنها الصوائفُ بغير نُجْح، ولكنَّ فَضْلَ الله، عز وجل، الذي أعطاه أميرَ المؤمنين، وصَنَعَه له، وتأييده إيّاه، أجرى افتتاحَها على يديه.

ثم قفل الناصر عن محلته بطليطلة يوم السبت لستٍّ خَلون من شعبان، ودخل القصر بقرطبة يوم السبت لعشر بقين منه، وقد استتم في غزاته هذه[٩] ستة[١٠] وثلاثين يومًا[١١].

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة: وصل الخبرُ إلى قرطبةَ بولاية أبي المنصور بن المعتزِّ مدينةَ سِجِلْماسة، وهو غلامٌ ابنُ ثلاث عشرة سنة، فمكث في ولايته شهرين،

---

(١) في ر٢: «في اليوم الثاني من فتح طليطلة».
(٢) في ر٢: «بلدًا تصلح للخلافة، وعاينَ» ليس في أ.
(٣) في ر٢: «وطيب هوائها وجوهرها» ليس في أ.
(٤) ليست في أ.
(٥) في ر٢.
(٦) في ر٢: «لما ملكت أبدًا لشدة حصانتها».
(٧) في ر٢: «مع اتساع وانفساح أقطارها» ليس في أ.
(٨) «على الخلفاء» من ر٢.
(٩) من ر٢.
(١٠) في م: «سنة» محرفة
(١١) المقتبس ٣١٧-٣٢٠ (شالميتا) والي هنا ينتهي ما أقحمه دوزي من تاريخ عريب في «البيان المغرب»، والذي خلّصنا النسخة منه، والحمد لله رب العالمين.

وقام عليه ابنُ عمِّه محمد بن الفَتْح، وأخرجه منها، وتملَّكها، وتسمَّى بأمير المؤمنين، وتلقَّب بالشاكر لله، وذلك بعد مدَّة نحوٍ من عشرين سنة[1]، وضرب الدنانيرَ الشاكريَّة.

وفي سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة: وصل الخبرُ إلى قُرطبة بوفاة أمير إفريقية عُبيدِ الله الشيعيِّ الملقَّب[2] بالمهديِّ، وتقدُّم ولده أبي القاسم المتلقَّبِ القائمَ بأمر الله[3].

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة: وصل إلى مدينة فاس مَيْسورٌ الصِّقْلَبيُّ قائدُ أبي القاسم الشيعيِّ أمير[4] إفريقية، فحارَبَه أهلُ فاس سبعةَ أشهر، ولم يقدر عليهم، ثم حاصر ابن أبي العافية، واستعان عليه ببني إدريس، فانجلى ابنُ أبي العافية إلى الصحراء، وصار جميع[5] ما كان لابن أبي العافية لبني إدريس[6]، وقد تقدَّم خبرُ بني إدريس[7].

وفي سنة أربع وعشرين وثلاث مئة[8]: ظهر أبو يزيدَ مَخْلَدُ بن كَيْداد بإفريقية على أبي القاسم الشيعيِّ، وذلك في جبل أَوْراس، وفيه قِلاعٌ كثيرةٌ يسكنها هُوَّارة وغيرُهم، وهم على رأي الخوارج.

وفي سنة خمس وعشرين وثلاث مئة: أمر الناصرُ ببناء مدينة الزَّهراء[9]، وكان يصرفُ فيها من الصخر المنجور ستةَ آلاف صخرةٍ في اليوم، سوى التبليطِ في الأساس، على ما أذكُره بَعْدُ.

---

(١) قوله: «وذلك بعد مدة نحوٍ من عشرين سنة» ليس في ر٢.

(٢) في ر٢: «المتلقب».

(٣) تاريخ ابن خلدون ٤/ ٥١.

(٤) في ر٢: «ملك».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) نهاية الأرب للنويري ٢٨/ ١١٦.

(٧) هذه العبارة ليست في ر٢.

(٨) أخلت نسخة ر٢ بحوادث السنوات ٣٢٤ و٣٢٥ و٣٢٧ و٣٠٠، ثم ذكرت حوادث سنة ٣٢٩ في سنة ٣٢٤!

(٩) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ١٦١، ونهاية الأرب ٢٣/ ٣٩٨، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٨٥، والروض المعطار ٢٩٥.

وفي سنة سبع وعشرين وثلاث مئة: قام بالغرب الأقصى أبو الأنصار بنُ أبي عُفَيْر البَرْغَواطيُّ بعد موت أبيه، وكان يفي بالعهد والوعد، وهو الذي بعث زمُّورًا البَرْغَواطيَّ رَسولًا إلى الحَكَم الـمُستنصِر بالله، ابنِ أمير المؤمنين الناصر.

وفي سنة تسع وعشرين وثلاث مئة: استتمَّ القائدُ أحمد بن محمد بن إلياس مدينةَ سَكْتان، وشحنها بالرجال، واتَّخذ فيها الأطعمةَ والأسْلحة، فأخرج الناصرُ إليها أحمدَ بن يَعْلَى قائدًا في ضُروبٍ من الحَشَم، ضمَّهم إليه، فنفذ إليها في صَفَر من هذه السنة، فلمَّا كان في غُرَّة جُمادى الأولى منها، وافى فتحٌ من قِبَل أحمدَ بن يَعْلَى القائد بسَكْتان المحدثة بدخولٍ كان له منها إلى جهة من عمل الطاغية رُدْمِير، فقَتَلَ وسبى وأسر، وأرسل مع كِتابه إلى قرطبة مئتي عِلْج أسراء، وكان هذا أوّلَ فَتْح لابن يَعْلي أذلَّ به الطاغيةَ رُدمِير[1].

وفي سنة ثلاثين وثلاث مئة، في المحرَّم من هذه السنة: طلع كَوْكَب الزُّباني[2] في الأفق الغربيِّ بقُرْطبةَ إزاء العقرب، مُنحرفًا عنها، يكاد يتَّصل بالفلكة العُليا في رأي العين، وكان أول ليلةٍ لاح فيها للأبصار ليلة السبت لثلاثٍ بقين من المحرَّم منها، وهي ليلةُ ستَّ عشرة خَلَتْ من أكتوبر، وتمادى طلوعُه مُستعليًا مكبرًا في السماء حتى توارى.

وفي سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة، في يوم الخميس لخمسٍ خَلَوْن من صَفَر منها: دخل الوزير القائد أحمدُ بن إلياس إلى قرطبة قافلًا عن غَزاته إلى الثَّغْر التي خرج إليها في عَقِب[3] شوّال من[4] سنة ثلاثين وثلاث مئة قَبْلها، إلى ثلاثةِ أشهر ويومين من خروجه عنها، ودخل في سَفْرته هذه كُورةَ تُدْمِير، فأزال الالتياث[5] الواقع من أهلها[6]، وقَدِمَ برهائنِ بعضهم، وكان أَثَرُه جميلًا.

---

(١) المقتبس ٤٦٥-٤٦٦ (شالميتا).

(٢) في المقتبس: «الذنبي».

(٣) هذه اللفظة ليست في ر٢.

(٤) من هنا إلى قوله: «عنها» ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «الخلل».

(٦) بعد هذا في أ: «إزالةً».

وفيها: كان المدُّ العظيم بنَهْر قرطبة، الثالِـمُ لقَنْطَرتها.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مئة: أغزى الناصرُ لدين الله القائدَ أحمد بن محمد بن إلياس إلى جلِّيقِيَّة، فدخل دارَ الحرب، فغنمَ، وأحرقَ جُملةً مِن حُصونهم هنالك، وقَفَلَ راجعًا.

وفيها: كانت زلزلةٌ عظيمةٌ بقرطبة، ليلةَ[1] الاثنين لتسع خَلَوْنَ من ذي القَعْدة[2]، فلم يُرَ قطُّ مثلُها ولا سُمع من قوّتها، ووقعتْ بعد العِشاء الآخرة، فدامت ساعة، ففزع أهلُ قُرطبة لها فزعًا شديدًا، ولجأوا إلى المساجد فيها، وضجُّوا بالدعاء إلى الله تعالى في كشفها، حتى أغاثهم سُبحانه وصرفها عنهم. وفي صُبح ليلة الزلزلة، هبَّت ريحٌ عاصفٌ رَدِفتْها أخرى، فاقتلعتا كثيرًا من شجرِ الزَّيتون والتين وغيرِهما من الأشجار[3] والنخيل، وأطارتا كثيرًا من قَرمَد السُّقُف. ونزل إثْرَ ذلك مَطَرٌ وابلٌ طَبَّقَ الأرض، وبَرَدٌ غليظٌ، فقتلَ كثيرًا من الوَحْش والطير والمواشي، وأتلف ما أصابَ من الزَّرع، وأساء التأثير.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاث مئة في[4] المحرم: هبَّت بقرطبةَ ريحٌ عاصفٌ من ناحية القِبْلة ونزل بَرَدٌ غليظ.

وفيها: ظهرَ بأُشْبونة رَجُلٌ يزعم أنَّه من وَلَد عبد المطَّلب، وأنَّ أمَّه مَرْيَم ابنة فاطمة، وادَّعى مع النسب[5] أنَّه نبيٌّ، وأنَّ جبريلَ يَنزِل عليه، وسنَّ لأتْباعه سُنَنًا، وشرع لهم شرائعَ، منها: حَلْقُ الرأس، وغيرُ ذلك ممّا لا يُعْقَل، ثمّ وقعَ عليه البحث، فخَفِيَ أثَرُه.

وفيها: أخرج الناصرُ قاسم بن محمد قائدًا إلى عُدْوة الغَرْب[6] بحَرْب بني

---

(١) في ر٢: «يوم».

(٢) قوله: «لتسع خلون من ذي القعدة» ليس في ر٢.

(٣) قوله: «وغيرهما من الأشجار» ليس في ر٢.

(٤) من هنا إلى قوله: «وفيها» في الفقرة الآتية سقط من ر٢.

(٥) في ر٢: «مع ذلك».

(٦) في ر٢: «المغرب».

محمد الأدارِسة الحَسَنيِّين للذي[1] بدا من خِلافهم عليه في هذه السنة، ونَقْضِهم للطاعة، بعدما قَدَّم الكُتُبَ إلى محمد بن الخَيْر عظيم زَنَاته وغيرِه من وُلاته بالغَرْب، يأمرهم بالاستعداد لذلك والمعونةِ عليه[2]. وجاز[3] قاسمٌ البَحْرَ إلى سَبْتة في النصف من ربيع الأوَّل، فلمَّا تبيَّن ذلك لكبيرِ بني محمد[4]، وهو أبو العَيْش بن عُمر بن إدريسَ بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليِّ بن أبي طالب[5]، أسرع إلى تحقيق الطاعة للناصر[6]، فعقد له الناصر[7] الأمانَ على نفسه، وانفذ إليه ابنه محمد بن أبي العَيْش إلى قُرطبة، مؤكِّدًا لطاعته، فاحتفلَ السلطانُ لدخوله احتفالًا عظيمًا، وركب الوافِدُ محمدٌ مع مستقبله من قِبَلِ الناصر القائدِ أحمدَ بن يَعْلَى في أُهبة[8] راقت العيونَ وملأت الصُّدور. ووصل إلى قصر الزَّهراء، وقعدَ له الناصرُ أفخمَ قُعود، فأوصلَهُ إلى نفسه، وأبلغ في تكريمه، ثم خرج عنه في مثل الهيئة التي دخل عليها[9]. ودخلتْ بدخول محمدِ بن أبي العَيْش في هذا النهار[10] على الناصر رُسُلٌ لبني عمِّه الأدارِسة أمَراء الغرب. وانعقد في هذا النهار كتابُ أمان محمد بن إدريس. ودعا الناصرُ أيضًا محمدَ بن أبي العَيْش، فبالغ في تكريمه، وأقامَ بقُرطبة بقيَّة هذه السنة في تكرمة. وانصرف الوَفدُ المذكور بعد التزامهم للطاعة للناصر، وذلك في خبر طويل[11].

(١) في أ: «الذي»، وما أثبتناه من ر٢، وقرأها دوزي: «الذين»!

(٢) «والمعونة عليه» ليس في ر٢.

(٣) في أ: «وأجاز».

(٤) في ر٢: «لكبير الأدارسة».

(٥) قوله: «بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب» ليس في ر٢.

(٦) في ر٢: «أسرع إلى طاعة الناصر».

(٧) من ر٢.

(٨) في ر٢: «أبهة».

(٩) في ر٢: «في مثل التبريز الذي دخل عليه».

(١٠) في ر٢: «اليوم».

(١١) «وذلك في خبر طويل» ليست في ر٢.

وفي عَقِب شوال: قدم رسولُ الخَيرِ بن محمد بن خَزَر الزَّنانيِّ أميرِ الغَرْب، ومعه رسولُ حُمَيْد بن يَصَل[1] الزَّنانيِّ، يُعرِّفانِ الناصر بما كان مِن دخولهما مدينةَ تاهَرْت، وأنَّهما أقاما فيها الدعوةَ له.

وفي مُنسلخ شوال: قَدِمَ على الناصر رسولان من أبي يزيدَ مَخْلَدِ بن كَيْداد[2] المعروف بصاحب الحمار، القائمِ بإفريقيةَ على أبي القاسم الشيعيِّ[3]، برسالةٍ منه يُخبر بتغلُّبه على القَيْروان ورَقَّادةَ وعَمَلِهما، وإيقاعِه بأصحاب أبي القاسم[4] الشيعيِّ فيها، وما يعتقده من ولاية الناصر، ويأوي إليه من اعتقاد إمامته. واتَّصلت كُتبُ أبي يزيد ورُسُلُه على قرطبة[5] من ذلك الوقت إلى حين وفاته.

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة: جلس الناصرُ لدين الله لوَداع رُسُل أهل القَيْروان الواردين عليه من قِبَلهم وقِبَل أبي يزيد مَخْلَدِ بن كَيْداد[6] اليَفْرَنيِّ الناجمِ بأرض إفريقيَة في ذلك الوقت، مُحتسِبًا في جهاد مُلوك الشيعة المنتزين على إفريقيةَ من آل عُبَيْد الله الداعي، وكان له في القيام عليهم وقائعُ شنيعةٌ، فوصلوا إلى الناصر في هذا اليوم، وهم ثلاثةُ نفر، أوْجَهُهم تَميمُ بن أبي العَرَب التَّميميُّ، فكلَّمهم بما تقتضيه رسالتهم، ودفع إليهم أجوبةَ من أرْسَلَهم، وأذِنَ لهم في الانصراف إلى بلدهم، ووَصَلَهم وكَساهم، فانطلقوا لسبيلهم.

وفيها: وصل إلى قُرطبةَ رُسلُ مَلِك الروم الأكبر قُسطَنْطينَ بن ليون صاحبِ القُسطَنْطينة العُظْمى، بكُتُب من مَلِكهم[7] إلى الناصر، فقعد الناصرُ على سرير المُلْك بقصر قُرطبة[8] لدخولهم عليه، ولِمَن تكامَلَ بالباب من وُفُود البلاد، بعد أن أمَرَ

---

(١) في ر٢: «مصل».

(٢) «مخلد بن كيداد» ليست في ر٢.

(٣) «القائم بإفريقية على أبي القاسم الشيعي» ليست في ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) في ر٢: «الناصر».

(٦) بعد هذا إلى قوله: «فوصلوا إلى الناصر...» ليس في ر٢.

(٧) في ر٢: «بكتبهم من ملوكهم».

(٨) في ر٢: «بقصر الزهراء».

باستقبالهم بالعُدَد والأجناد. واستوى الناصرُ على سريره، وقعد على يمينه ابنُه الحَكَم، وقعد سائرُ أولاده عن يمينه ويساره[١]، وقعد الوزراء والحُجَّاب على منازلهم صُفوفًا صفوفًا[٢]. فدخل الرُّسلُ، وقد قدَّموا الهدايا بين أيديهم، وقد دَهِشُوا[٣] لـهَوْل ما عايَنوه من جَلالة الملك ووُفور الجَمْع، فصُقِعوا[٤] بين يدَي الخليفة، فأشار إليهم أن لا، فدَفَعوا إليه كتابَ مُرْسِلهم قُسْطَنْطِين. وكان الكتاب مَصْبُوغًا بلون سمائيٍّ، مكتوبًا بالذهب.

وفيها: كان السيلُ العظيم بقُرطبة، وبلغَ الماءُ في البُرْج المعروف ببُرْج الأسَد، فهدم من آخر القنطرة، وثلم الرَّصِيف وغَيرَه.

وفيها: قدم على الناصر محمدُ بن محمد بن كُلَيْب من القَيْرَوان، فحكى أنَّ أبا القاسم بن عُبيد الله الشيعيَّ هلك بالمهديّة وهو محصورٌ من أبي يزيد[٥]، وأنَّ شيعتَه قدَّمتْ ولدَه إسماعيل مكانَه، وأنّه فارِسٌ شُجاعٌ، أبِيُّ النفس، أقدم على أبي يزيدَ وجموعِه، ولاقاه بمدينة سُوسة، فانهزم أبو يزيدَ أمامَه إلى القَيْرَوان.

وفي[٦] عَقِب صَفَر منها: وُلِّـيَ خزانةَ السِّلاح عبدُ الأعلى بن هاشم المتوفَّى في المحرَّم منها.

وفي سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة: كان ابتداء بناء مدينة سالم[٧] بالثغر الأوسط من الأندلس[٨]. وفي كتاب ابن مَسْعود: في سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة: ابتنى الناصرُ

---

(١) في ر٢: «وقعد سائر أبنائه عن يساره».

(٢) سقطت من أ.

(٣) في ر٢: «وهم قد دهشوا».

(٤) في ر٢: «فصعقوا»، وما أثبتناه من أ، وكلاهما بمعنى، وصَقَع رأسه: علاه بأي شيء كان، فكأنه أريد لهم أن يجثوا أمام الخليفة، فأشار الخليفة بمنع ذلك.

(٥) في م: «زيد».

(٦) هذه الفقرة ليست في ر٢.

(٧) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ١٧٢.

(٨) «من الأندلس» ليست في أ.

مدينةَ سالمٍ القديمةَ التعطيلِ بالثَّغْر الأوسط الشَّرقيّ، المواجهة لبلد قَشْتِيلة، وهي يومئذ خاليةٌ مُقْفِرة. وأرسل لذلك غالبًا مَوْلاه في جيشٍ جرَّده معه من الحضرة، وأنفذ[1] العَهْد إلى قُوَّاد الثَّغْر بالاجتماع إليه[2] لبُنيانها، فسارَعُوا إلى أمرِه، وبُنيت أحسنَ بناء[3]، ونُقِلَ إليها البنَّاءون من بلاد الثَّغْر للاختطاط لديارها والرباط بها، فتَمَّ ذلك في صَفَر من هذه السنة. واطمأنَّت الدارُ بمن نزلها من المسلمين، واكتمل بناؤها وعُمرانُها على مرور الأيّام، فنفع اللهُ المسلمين بها، وصيَّرها شَجًا في حُلوق الكافرين. قال: ووافى في إثر كتابِ القائد ابن حُدَيْر وابن هاشم[4] كتاب من قِبَل عامرِ بن مطرِّف بن ذي النُّون إلى الناصر بما فتحَ اللهُ له في المشركين، وقتلِه العَدَدَ الكثير منهم، وبعثِه برءوسهم، فتمَّت الفتوح، وعمَّت الفُروح[5]، وعزَّ الإسلام، واستبشر الأنام، وطابت الأيّام، بحمدِ وليِّ الإنعام، الذي منه يُرْجى التمام، عزَّ وَجْهُه.

وفيها: كان القَحَطُ الكائن بقُرطبة.

وفيها: وصل إلى قرطبة أيُّوبُ بن أبي يزيدَ مَخْلَدِ بن كَيْدَاد اليَفْرَنيُّ الإباضيُّ رسولًا من والده أبي يزيد، فقعد له الناصرُ قعودًا، فأوصله إلى نفسه، وكرَّم لقاءَه، وأمر بإنزاله في قصر الرُّصافة، وقد أُعِدَّ له فيه من الفَرْش والوِطاء[6] والغِطاء والآنية والآلة ما يُعَدُّ لأمثاله[7]، فأقام هنالك تحت نُزُل واسع وكرامةٍ موصولة.

وفي سنة ست وثلاثين وثلاث مئة، في يوم الجمعة التاسع من[8] المحرَّم منها: ورد كتابُ قَنْدٍ مَوْلَى الناصر، القائدِ يومئذٍ بطُلَيْطُلة، بفَتْحٍ فتَحَه اللهُ على يده في أعداء الله

---

(١) في ر٢: «وأرسل».

(٢) في ر٢: «معه».

(٣) في ر٢: «فبنيت».

(٤) قوله: «في إثر كتاب القائد ابن حدير وابن هاشم» ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «الأفراح».

(٦) هذه اللفظة ليست في أ.

(٧) في ر٢: «ما أبهته».

(٨) «يوم الجمعة التاسع من» ليست في ر٢.

أهل جِلِّيقيّة، فقُرِئ في المسجد الجامع بقُرطبة والزَّهْراء، وبُعِثَ من ذلك برءوسٍ وخَيْل أُصيبت[١] لأعداء الله.

وفيها: عَزل[٢] الناصرُ عبدَ الله بن محمد عن السِّكَّة، وسخط عليه لتقصيرٍ ما كان فيه[٣] وأمر بسَجْنه. وقدَّم عبدَ الرحمن بن يحيى بن إدريس الأصَمَّ، ونقل السِّكَّة من مدينة قُرْطبة إلى الزَّهْراء.

وفيها: خرج الكاتبُ جعفر بن عثمان الـمُصْحَفيُّ إلى مَيُورقة وذواتِها لإصلاحِ ما فسد من حالها.

وفيها: وصل حُمَيْد بن يَصَل[٤] المِكْناسيُّ[٥] قائد العُبيدية[٦] إلى قرطبةَ قاصدًا إلى الناصر من بلده من الغَرْب[٧]، فاستُقْبِل بالجيش والزِّينة، وكرَّم الناصر مَوْرِدَه، وأجمل مَوْعِدَه.

وفي سنة سبع وثلاثين وثلاث مئة، في النصف من المحرَّم: قعدَ الناصرُ بقصر الزَّهْراء قُعودًا بَهِيًّا، فدخل إليه حُميدُ بن يَصَل[٨]، ثم وصل بعده منصورٌ وأبو العَيْش، ابنا ابن أبي العافية، ودخل معهما حمزةُ بن إبراهيم، صاحب جزائر بني مَزْغَنّا، فوصلهم وكَساهم، وأذِنَ لهم في الانصراف إلى بلادهم.

وفيها: صُلبَ بقرطبة عليُّ بن عَشَرة، من أهل أُشْبُونة، بعد أن قُطعت يداه ورِجْلاه، وكان من الـمُفْسدين في الأرض بقَطْع السُّبُل.

---

(١) في ر٢: «أخذت».

(٢) في ر٢: «سخط».

(٣) في ر٢: «ما كان منه فيها».

(٤) في ر٢: «مصل».

(٥) في ر٢: «الناصرَ».

(٦) «قائد العبيدية» من ر٢.

(٧) «إلى الناصر من بلده من المغرب» ليست في ر٢.

(٨) في ر٢: «مصل».

وفيها: كانت وقيعة أُرْتِقَيْرة[١] على العدوِّ دمَّره الله[٢].

وفي سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة: كان قدومُ رُسُل ملكِ الروم الأكبر صاحبِ القُسْطَنْطينة على الناصر، راغبًا منه إيقاعَ الـمُوالفة واتِّصال المكاتبة، فتأهَّب الناصرُ لورودهم[٣] عليه، وأمر بتلقِّيهم في الجيش والعُدَّة[٤]، وجلس لهم الناصرُ الجلوسَ المشهور الذي ما تهيَّأ مِثْله لـمَلِك قَبْلَه في جلالة الشأن، وعزَّة السلطان، وكثرة الجيوش وظهور القوة[٥]، ووَصْفُ ذلك يطول. ودفعوا كتابَ مَلكهم في رَقٍّ مصبوغ سمائيٍّ مكتوب بالذَّهَب، وكان على الكتاب طابعُ ذَهَب[٦]، وَزْنُه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورةُ الـمَسيح عليه السلام، وعلى الآخر صورةُ قُسْطَنْطين الـمَلِكِ وصورةُ وَلَده.

وفيها: أمر الناصرُ أحمدَ بن يَعْلَى وحُميدَ بن يَصَل[٧] المِكْناسيَّ بالخروج إلى بني محمد الأدارِسة الحَسَنيِّين[٨] أمراء الغَرْب، ففصلا بمن ضُمَّ إليهما من الجيش إلى الخَضْراء، وكان خروجُهما من قُرطبةَ للنصف من رَجَب. وفي عَقِبه: قَدِمَ على الناصر رسولٌ من بعض[٩] الحَسَنيِّين، يذكر طاعتَهم إليه[١٠]، وانقيادهم لأمرِه في هَدْمِ[١١] مدينة تِطَّاون التي أنكَر عليهم بناءَها، فعَقَدَ لهم في أول شعبان، وأمر بمحاربتهم،

---

(١) ينظر نزهة المشتاق للإدريسي ٢/ ٧٢٩.

(٢) «دمره الله» من ر٢.

(٣) في ر٢: «لوروده».

(٤) في ر٢: «في الجيوش والعدد».

(٥) قوله: «وكثرة الجيوش وظهور القوة» ليس في أ.

(٦) في ر٢: «عليه طابع ذهب».

(٧) في ر٢: «مصل».

(٨) ليست في ر٢.

(٩) ليست في ر٢.

(١٠) في ر٢: «له».

(١١) في ر٢: «ويعطونه هدم».

ثم وصل محمد بن أبي العَيْش الحَسَنيُّ[1] إلى الناصر من أبيه أبي العَيْش، فأقبل عليه الناصر، وأبلغ[2] في تَكْرِمته، ثم ورد[3] الخبرُ بوفاة أبي العَيْش، فأوصل الناصرُ ابنَه محمدًا إلى نفسه، وعزّاه عن والده، وعقد له على عَمَله، ووصله، وخلعَ عليه وعلى الوافِدين معه، وصرفهم. فخرج محمدٌ مبادرًا إلى عَمَله بالغَرْب. وكان، عند وفاة أبيه أبي العَيْش، قصد ابنُ عمِّه قَنُّون إلى بَلَده[4]، فاحتوى على ماله وأهله. ولـمَّا بلغ البَرَبَر إقبالُ محمد بن أبي العَيْش إلى بلده من قِبَل الناصر، رجعوا إلى عيسى بن قَنُّون، وقد خرج عن تِيكيسَاس، فقطعوا به، وكسروه، وسلبوه ما كان أخَذَه لابن عمِّه، وقتلوا أكثرَ أصحابه، فلم يخلص إلّا في سبعة فوارس.

وفيها: وصل إلى قرطبة أحمدُ ابن الأطْرَابُلُسيِّ رسولُ البُورِيِّ بن موسى بن أبي العافية بكتابٍ يذكر أنَّه صحَّ عنده أنَّ الخَيْر بن محمد بن خَزَر الزناتيَّ وصل إلى تاهَرْت، فحاربَها، فاستنصر أهلها بمَيْسُورٍ قائد الشيعيِّ، فالتقَوْا، فدارت الدائرةُ على ابن خَزَر أوَّلَ نهارهم[5]، ثمَّ كانت الكرَّة لزَناتة، ودخل الخَيْرُ أميرُهم مدينةَ تاهَرْت ومَلَكَها في غُرَّة ذي القَعْدة، وأخذ قائدَ الشيعيّ أسيرًا في عِدَّةٍ من أصحابه، ووقع في يده عبدُ الله بن بكَّار اليَفْرَنيّ[6] الذي توجَّه إلى الشيعيِّ برأس أيُّوبَ بن أبي يزيد، فأرسل به إلى يَعْلى بن محمد بن صالح اليَفْرَنيِّ ليقتله بوالده بعدما كان أخذ كلَّ ما عنده، فلم يَرْضَ يَعْلَى بذلك، ولا رآه كُفؤًا لعَبْده، فكيفَ لوالِده، ودفعه المذكورُ إلى رجل من البَرْبَر كان قد قَتَلَ ابنَه، فقتله به. ودخل يَعْلَى بن محمد وَهْرَان، فملكها.

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «وبالغ».

(٣) في ر٢: «وصل».

(٤) في ر٢: «وكان ابن عمه قنون عند وفاة والده قصد بلده».

(٥) في ر٢: «النهار».

(٦) قفز نظر ناسخ ر٢ من هذه اللفظة إلى مثيلتها الآتية بعد سطر فسقط ما بينهما.

وفيها: جرت قصَّةُ الوَلَد عبدِ الله ابن الناصر التي أراد الله بها ابتلاءَ أبيه فيه، فعجَّل الوثوبَ به وبأصحابه آخِرَ هذه السنة، عجَّل عليهم فيها بأفظع العقاب، فقتَلَهم، وتأنَّى بابنه عبد الله مُدَيْدةً إلى أن طوَّقه الحُسام في آخر سنة ثمان وثلاثين وثلاث مئة، وكان الحَكَم أخوه ذكر عنه أنّه يريد القيامَ على أبيه، فقَبِلَ قولَه فيه. وكان عبدُ الله من أهل العِلْم والذَّكاء والنُّبْل.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة: أخرج الناصرُ قائدَه أحمد بن يَعْلَى نحو جِلِّيقيَّة، رجاءً في انتهاز فُرْصة من العدوِّ، فأعانه اللهُ عليها، واقتحم على غفلة، فافتتح ثلاثةَ حصون، وسبَى نحوًا من ألْفِ سَبِيَّة، وانصرف آخِرَ رجب من السنة.

وفيها: ورد الخبرُ بهُلْك[1] رُذْمِير بن أُرْدُون صاحب جِلِّيقِيَّة، فمَلَّكَت الجَلالِقة ابنَه أُرْدُون، ونازَعه أخوه غَرْسِيَة، فجرى بينهم اختلافٌ أظفر اللهُ به المسلمين.

وفيها: وصل إلى قرطبة ابنا البُوريِّ بن موسى بن أبي العافية أميرِ الغَرْب. وورد رسولُ الأمير الخيرِ[2] أمير زَنَاتة وكبيرِ أمراء الغَرب إلى الناصر، يَذكر ما أتاح الله له من دخولِ مدينة تاهَرْت، وظَفَرَه بمَيْسورٍ وعبد الله بن بكَّار اليَفْرَنيِّ قُوَّاد الشيعيّ، فقُرِئ كتابُه بجامعَيْ[3] قرطبةَ والزَّهْراء. ثم ورد كتابُ عبد الرحمن بن عبد الله الزَّجَّاليِّ من جهة شَذُونة، يذكر أنَّ بني محمدٍ الأدارِسةَ بالغَرْب زحفوا إلى حُميد بن يَصَل[4] قائدِ الناصر، ونزلوا عليه، والتقَوْا به، فكانت الدائرةُ على بني محمَّد، وانصرفوا مفلولين.

وفي سنة أربعين وثلاث مئة: كانت للمسلمين غزواتٌ على الرُّوم، نصرهم الله فيها، منها: فَتْحٌ على يد قائد بَطَلْيَوْس بجِلِّيقِيَّة، هزمهم أقبحَ هزيمة، قتل جُملةً من حُماتهم ومقاتلتهم، وسَبى مِن نسائهم وذراريِّهم نَيِّفًا على ثلاث مئة رأس، ووصل ذلك

---

(١) في ر٢: «بمهلك».

(٢) في ر٢: «وورد دخول الخير»!

(٣) في ر٢: «بجامع».

(٤) في ر٢: «مصل».

السبيُ إلى قرطبة لثلاثٍ خَلَوْن من المحرَّم؛ وفَتْحُ[1] آخَرُ على يدَيْ أحمدَ بن يَعْلَى قائد الناصر، وفتحٌ آخَرُ على يدَيْ رَشِيقٍ قائد الناصر على طَلَبِيرة، وفتحٌ آخَرُ على يدَيْ يحيى بن هاشِم التُّجيبيِّ.

وفي غُرَّة جُمادى الآخرة، وهو الثامن من أُكْتُوبر: هبَّت بقرطبة ريحٌ عاصفٌ، وتتابع البَرْق، واشتدَّ الـهَوْل، ونزلت صاعِقةٌ في دار أحمدَ بنِ هاشِم بن عبد العزيز، فقَتلت امرأةً، وأبْطَلت أُخْرَى.

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة: كان للمسلمين غَزْوٌ في الرُّوم، نصرهم الله فيه، وفتُوحاتٌ ومنُوحات.

وفي آخر جُمادى الأولى: وردت الأخبارُ[2] بأنَّ زِيري بن مَناد الصُّنهاجيَّ عامِلَ الشيعيِّ على تاهَرْت أسر سعيدَ بن خَزَر زعيمَ زناتةَ وكبيرَها.

وفي هذا الوقت: ورد كتابُ ابنِ يَعْلَى قائدِ الأُسْطُول بقَبْضه لرَهْن محمَّد بن إدريس الحسنيِّ كبيرِ أُمراء الأدارِسة.

وفي آخر جُمادى الآخرة: وصل إلى قُرطبة فُتُوحُ بن الـخَيْر بن محمَّد بن خَزَر كبيرُ أُمراء زَناتة بأرضِ الغَرْب، وافدًا إلى الحضرة، ومعه وجوهُ أهل تاهَرْت ووَهْران[3]، وأُدخلت بين يديه الرءوس التي احتزَّها للقُوَّاد المشارِقة ووجوهِهم من رجال إسماعيلَ الشيعيِّ العُبَيْديِّ، يَقْدُمُها رأسُ كبيرهم[4] مَيْسُورٍ الـخَصِيِّ[5] ورأسُ محمَّد بن مَيْمون وغيرِهما من رءوس أعلام الشيعة، وعشرةٌ من بُنودهم، أُدخلت مُنَكَّسةً، معها عِدَّةٌ من طُبولهم، فرُفعت هذه الرؤُوسُ والبُنود والطبول على باب قصر قُرْطبة، وأُقيمت له ولمن جاء معه الكراماتُ الواسعة.

(١) من هنا إلى قوله «طلبيرة» سقط من ر٢.

(٢) بعد هذا إلى قوله «من ابن يعلى» في الفقرة الآتية سقط كله من ر٢.

(٣) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٦.

(٤) هذه اللفظة من ر٢.

(٥) في ر٢: «الفتى».

وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة: قدمت رُسلُ هُوْنُو[١] مَلكِ الصَّقَالِبة على الناصر.

وفيها: خرج القائدُ أحمد بن يَعْلَى غازيًا إلى جِلِّيقيَّة، فمنحه الله في الكُفَّار القتلَ للرجال، والسَّبيَ للذُّرِّيَّة والعِيال، وإحراقَ القُرى، وانتساف النَّعَم، فقُرئ كتابُه يومَ الجمعة لليلتَيْن بقيتا من ربيعٍ الأوَّل بقُرطبة، وقُرئ معه كتابُ القائد غالِبٍ، يذكر عظيمَ ما فتح الله عليه ومَنَحَه من نِكاية المشركين، ثمَّ دخلت الرءوسُ إلى قرطبة، ومعها النَّوَاقِيسُ والصُّلْبان، فقرَّتْ عيونُ أهل الإسلام.

وفي سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة: ولَّى الناصرُ مدينةَ[٢] طُلَيْطُلة القائدَ أحمد بن يَعْلَى، وصرف عنها محمَّدَ بن عبد الله بن حُدَير.

وفيها: فصل القائدُ حُمَيْد بن يَصَل[٣]، المستأمِن إلى الناصر، بالجيش الذي ضمَّه إليه إلى بلاد الغَرْب، وخرج معه القُرَشيُّ السُّلَيْمانيُّ المستأْمِن إلى الناصر أيضًا، الذي كان أميرًا على مدينتَيْ تَنَس[٤] وأَرَشْقُول[٥] وما بينهما من أرض إفريقِيَة، فأخرجه عنها قُوّاد الشيعيّ[٦]، واسمُه عليُّ بن يحيى، ينتسب إلى عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه[٧]، فكان خروجُهما من بين يدَيِ الناصرِ بعد أن خلع عليهما خِلَعَ الوَداع، بعد خِلَعٍ تقدَّمت له عليهما بيومٍ قَبْلَ وصولهما[٨]؛ من دَراريعِ الدِّيباج والـخَزِّ وعمائم الشَّرْب المذهَّبة، وغيرِ ذلك. ودفع لـحُمَيْد سبعةَ عشر ألفًا للنفقة على الـجُند، ومن أحمال الكُسْوة سبعة أحمال[٩].

---

(١) هكذا مجود التقييد في النسختين، وهو: هُوتو ـ بالتاء ثالث الحروف ـ وينظر تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٨٣ ونفح الطيب ١/ ٣٦٥ ويقال فيه: «أوتو» أيضًا.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «مصل».

(٤) في ر٢: «تونس»، وينظر معجم البلدان ٢/ ٤٨.

(٥) المسالك للبكري ٢/ ٧٤٧، والروض المعطار ٢٦.

(٦) في ر٢: «العبيدي».

(٧) «واسمه علي بن يحيى ينتسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه» ليس في ر٢.

(٨) «بيوم قبل وصولهما» ليست في ر٢.

(٩) في ر٢: «وسبعة أحمال من الكسوة».

وفيها: وصل إلى قرطبة وَفْدُ أَزْدَاجَة من البَرْبَر الذين انحاشوا إلى الطاعة، فكساهم الناصرُ ووصلهم[١]. وورد كتابُ فَتْحٍ من قبل[٢] حُميد بن يَصَل[٣] قائدِ الناصر بالعُدْوة بما فتح الله عليه[٤] من مدينة آسْلان وانتشارِ الدعوة الأُمَويَّة بنواحيها.

وفيها: قَدِمَ الـحُجَّاج، فذكروا أنَّه وقع بفُسْطاط مِصْرَ حريقٌ عظيمٌ احترق فيه ستَّة عشر ألفًا بين دار ومَسْكَن.

وفي سنة أربع وأربعين وثلاث مئة: وردت قُوَّادُ الثغور لسبعٍ خلون من ربيع الآخر على الناصر، وفيهم: غالبٌ، ومُطَرِّف، ومحمَّد بن يَعْلَى، وعُبَيْد الله بن أحمدَ[٥] بنِ يَعْلَى، وهُذَيْل بن هاشِم التُّجيبيُّ، ومروان بن رَزين، وعامر بن مُطَرِّف بن ذي النُّون، يَذكرون أنَّهم دخلوا إلى أرض العدوِّ، وقصدوا حِصْنًا من بلد[٦] قَشْتِيلة، فتغلَّبوا على أرباضه، وقتلوا جماعةً من أهله، وقفلوا عنه، فوافَتْهم جموعُ النصرانيَّة، فأيَّد اللهُ المسلمين، وانهزم المشركون أمامَهم مقدارَ عشرة أميال، يقتلونهم كيف شاءوا، فأُحْصِيَ أنَّه قُتل منهم مقدارُ عشرة آلاف. وكانت هذه الوقيعةُ بينهم لليلة بقيتْ من ربيع الآخر منها، فقُرِئَ كتابُهم بهذا الفَتْح الجليل بقُرْطبة، ثمَّ وردت إلى قرطبةَ الرءوس المحتزَّة في هذه الهزيمة نحو خمسة آلاف رأس، فأمر الناصر برفعِها على الخشب حوالَيْ سُور قرطبة.

ولسبعٍ خلون من جُمادى الأُولى: كانت بقرطبة زلزلةٌ عظيمةٌ ظاهرةُ الـهِزَّة، وعادت زَلزلَةٌ أُخرى مِثْلُها يومَ السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منها[٧]، وذلك عند الظُّهْر.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٩١.

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «مصل».

(٤) في ر٢: «قائد الناصر بالغرب يذكر ما فتحه الله».

(٥) «بن أحمد» ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «بلاد».

(٧) في ر٢: «منه».

وفيها: ثقَّف الناصرُ أُمورَ الـخِدْمة السُّلْطانيَّة، ووزَّعها بين وزرائه؛ فقلَّد الوزيرَ جَهْوَر بن أبي عَبْدة النَّظَرَ في كُتُب جميع أهل الـخِدْمة، وقلَّد الوزيرَ عيسى[1] بن فُطَيْس النظرَ في كُتُب أهْلِ الثُّغور والسواحِلِ والأطراف وغيرِ ذلك، وقلَّد الوزيرَ الكاتب عبد الرحمن الزَّجَّاليَّ النظرَ في تنفيذ كلِّ ما يُخرجه من العهود والتوقيعات، وينفِّذ به الأمر أو الرأي وغير ذلك، وقلَّد الوزيرَ محمَّد بن حُدَيْر النظرَ في مَطالِب الناس وحوائجهم، وتنجيزِ التوقيعات لهم. فالتزم القومُ ما أُلزموا؛ فاعتدل بهم ميزانُ الـخِدْمة، وسَهُلت مَطالِبُ الرعيَّة.

وفيها: ورد كتابُ يَعْلَى بنِ حُميد قائدِ العُدْوة من قِبَل الناصر بما فتح الله عليه في قائد الشيعيّ مَعَدِّ بن إسماعيل صاحب إفريقيَة من هزيمته له وقتلِه مَن قَتَلَ من رجاله، وغيرِ ذلك. ووصل إلى قرطبةَ ابنُ عمِّ حُميد بن يَصَل[2]، ومعه ستَّة وثلاثون من وجوه كُتَامةَ وغيرِهم من القبائل المستأمِنين إليه من عسكر الشيعيِّ، فأمر الناصرُ بإنزالهم، وجلس لهم على سَريره بقصر الزَّهْراء يومَ الثلاثاء لأربع خلون منه، فوصلوا إليه، فرأوا مَقامًا جليلًا، وكلَّموه، فردَّ عليهم جميلًا، وأحسن موعدَهم، وأمر بالـخَلْع عليهم، ووُصِلُوا بِصلات جَزلات، وأُمِرُوا بالرجوع إلى القائد حُمَيْد بن يَصَل[3].

وفيها: أمر الناصرُ بإطلاق اللَّعن على مُلوك الشيعة بجميع منابر الأنْدَلُس، وإنفاذِ كُتُبِه بذلك إلى العُمَّال بسائر الأقطار[4].

وفي سنة خمس وأربعين وثلاث مئة: وَطِئَ غالبٌ، قائدُ أُسْطُول الناصر، أرضَ سَواحِلِ إفريقيَة من عَمَل الشيعيِّ.

وفيها: قَدِمَ محمَّدُ بن حُسَيْن رسولًا كان من الناصر إلى الطاغية أُرْدُونَ بنِ رُذْمِيرِ مَلِك جِلِّيقِيَّة، ومعه حَسْدَاي بن[5] شَبْروط اليهوديُّ، بكتابه إلى الناصر، راغبًا منه

(١) في ر٢: «موسى»، خطأ.

(٢) في ر٢: «مصل».

(٣) كذلك.

(٤) في ر٢: «أقطار العدوة».

(٥) «حسداي بن» ليست في ر٢.

في الصُّلح، فأسعفه الناصرُ في ذلك على اختيار وَلَده الـحَكَم، واشتُرط على الطاغية شروطٌ، وانصرفتْ رُسلُه بذلك.

وفيها: قُتل محمَّدُ بن أبي العَيْش الإدريسيُّ أميرُ الغَرْب.

وفيها: خرج قاسمُ بن عبد الرحمن إلى حُميد بن يَصَل[1] قائد الناصر بالغَرْب من قرطبة بأحد عشر حِمْلًا من المال وأحمال العُدَّة؛ تقويةً على الذَّبِّ عن الدولة المروانيَّة بالغَرْب، وذلك لخمسٍ خَلَوْن من صَفَر منها[2]. ولـمَّا كان يومُ النصف منه، ورد كتابُ حُمَيْد بدخوله مدينةَ تِلِمْسان.

وفي سنة ست وأربعين وثلاث مئة: قَدِمَ إلى[3] الناصر أُمراءُ بني رَزين ومَن التفَّ إليهم، فوصل إلى الناصر كبيرُهم مروانُ بن هُذَيْل بن رَزِين الثائرُ بالسَّهْلة المنسوبة إليهم، فأُدْنُوا وأُكْرِمُوا.

وفيها: برز القائدُ غالبٌ الناصريُّ إلى فَحْص السُّرَادِق غازيًا إلى دار الـحَرْب، ففُتِح عليه في بلاد الـمُشركين، وفَتَح[4] الحصونَ وقتل المقاتِلةَ واكتسح بَسِيط عدُوِّ الله غَرْسِيَة بن شَانْجُه مَلِكهم، وخرَّب قُرَاه، ورجع بالمسلمين ظاهرين. وكذلك برز القائدُ أحمدُ بن يَعْلَى للغزو إلى بلد العدوِّ تاليًا للقائد غالب، فورد كتابُه يومَ الأحد لخمسٍ بقين من ربيع الآخر بفتحٍ عظيم تهَيَّأ له في غَزْوه إلى جِلِّيقيَّة، وأنَّه أثخن في قتلهم، وحزَّ من رؤُوسهم أربع مئة، واستاق من الماشية والكُراع ما فات الإحصاءَ.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاث مئة، أوّلَ المحرَّم: أمر الناصرُ صاحبَ الشُّرْطة القائدَ أحمد بن يَعْلَى بالخروج غازيًا في الأسْطُول إلى بلد الشيعيِّ مَعَدِّ بن إسماعيل صاحبِ إفريقية، فبرز ابنُ يَعْلَى إلى محلَّة الرَّبَض لغزَاته هذه يومَ الخميس لثمان خلون منه، وكان بُروزه فَخْمًا، خرج إليه من النَّظَّارة من أهل قُرطُبَة: رجالِـهم ونسائهم

(١) في ر٢: «مصل».

(٢) قوله: «وذلك لخمس خلون من صفر منها» ليس في ر٢.

(٣) في ر٢: «على».

(٤) في ر٢: «فملك».

وأبنائهم ووِلْدانهم[١] خَلْقٌ لا يُـحْصيهم إلَّا خالِقُهم، فانتشروا بأكناف الرَّبَض على عادتهم، فأخذ السِّفلة منهم والغَوْغاءُ يتقاذَفون بالـحِجَارة حاكين لِصَفِّي القِتال، فدخل في عَرْضهم قومٌ من الطَّنْجيِّين من جُنْد السلطان حَشُّوا الضراب بينهم، حتى حَمِيَ وَطِيسُه، وقد تكنَّف صفَّيْهم من النَّظَّارة الرجال والنساء خَلْقٌ عظيمٌ، فلم يَكُ إلَّا ساعةٌ، ودارت بينهم جَوْلةٌ ظهر فيها أحَدُ صفَّيْهم، فمالُوا على مغلوبهم، وانبسطوا عليهم، فامتدَّ الطَّنْجيُّون بغالب شَرِّهم وجَهْلِهم إلى نَهْب مَغْلُوبهم من الرجال، وتَخَطَّوْهم إلى مَن حَوْلَـهم من النَّظَّارة، وانبسطوا على النساء، فسَلَبُوهُنَّ ثِيَابَهُنَّ، وفضحوا كثيرًا منهنَّ، فجعل الـمُجَرَّداتُ من النساء يَتوارَيْنَ في الزرع الـمُكتَّل؛ حياءً من الناس، وترقُّبًا لوقت تفرُّقهم. وشَرْحُ ذلك يطول.

وفي جُمادى الآخرة منها: ورد كتابُ قائدِ[٢] الأُسْطُول أحمَدَ بنِ يَعْلَى من مدينةِ آسْلَان[٣] من عَمَل تِلِمْسان، يذكر أنَّ جَوْهَرًا قائدَ مَعَدِّ بن إسماعيل العُبيدي[٤] صاحبِ إفريقية قَتَلَ يَعْلَى بنَ محمَّد بن صالح اليَفْرَنيَّ صاحِبَ مدينة آفَكَّان غَدْرًا، وأنَّ ابن عمِّه انتصب مكانَه بإقامةٍ من جِلةِ[٥] قومه له، ورجع القائدُ المذكور إلى قُرْطبةَ ومعه وَلَدُ ابْنِ قُرَّة، ابْنِ عمِّ يَعْلَى بن محمَّد المتقدِّمِ الذِّكر، المقدَّم بعده في قومه بني يَفْرَن، فبُولِغ في إكرامه.

وفي سنة ثمان وأربعين وثلاث مئة، في أوَّل ربيع الآخر منها[٦]: خرج عليُّ بن يحيى الـحَسَنيُّ إلى شَرْشَل مَكانِه من العُدْوة قائدًا، بمن انضمَّ إليه من الـحَشَم؛ لـمُكافحة أصحاب الشيعيِّ[٧] صاحبِ إفرِيقيَة.

---

(١) هذه اللفظة ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «صاحب».

(٣) في ر٢: «أفسلان».

(٤) من ر٢.

(٥) «من جلة» ليست في أ.

(٦) «في أول ربيع الآخر منها» ليست في ر٢.

(٧) في ر٢: «معد».

وفي أوَّل ذي القَعْدة منها: أوصل الناصرُ إلى نفسه حَرِيزَ بن مُنْذِر في جماعةٍ من وُجوه الموالي والعُرَفاء ورجال الـجُنْد، يأمرهم جميعًا بالخروج إلى مدينة سَبْتة من أرض العُدْوة، مع بَدْرٍ الفتى الكَبير صاحبِ السَّيْف؛ لتنفيذ العُدد فيها[1] من أجْلِ جَوَلان جَوْهرٍ قائد مَعَدٍّ الشيعيِّ[2] صاحبِ القَيْرَوان[3] بأرْض العُدْوة، فنفذوا لأمره، ومكثوا كذلك إلى أن أُمِنت الحادِثةُ، فانصرفوا مع القائد بَدْر، آخرَ ذي الـحِجَّة من السنة.

وفي سنة تسع وأربعين وثلاث مئة: كان ابتداءُ عِلَّة الناصر، وذلك يومَ الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ من صَفَر، وذلك نصفَ النهار منه، طرقتْ أميرَ المؤمنين الناصر عِلَّتُه الصَّعبة من الريح الباردة، فأُرْجِفَ به، وخِيفَ عليه، وأكَبَّت الأطِبَّاءُ على مُعالَـجَته، إلى أن ظهر عليه تجفيفٌ، فتجشَّم القعود لخاصَّته في العشر الأُوَل لـجُمادى الأُولى. فوصل إليه الفِتْيانُ الأكابِر، وصاحِبُ الطِّراز، وخواصُّ أكابر العَبيد، كمُظَفَّرٍ وذَويه، فاستبشر أهْلُ المملكة بما بدا لهم من انحطاط مَرَضِه، وسألوا اللهَ كمالَ عافيته، والقضاءُ قد سبق بموته من عِلَّته، فلم تُفارِقْهُ، تَـخِفُّ حِينًا وتَثْقُلُ حينًا، إلى أن قَضَتْ عليه في سنة خمسين التي بعد هذه[4].

بَعْضُ أخبار الناصر، رحمه الله[5]، على الـجُمْلة

كان الناصرُ، رحمه الله، مَلِكًا أدال اللَّأْواءَ، وحَسَمَ الأَدْواءَ، وقهر الأعاديَ، وعدل في الحاضر والبادي، قد أَسَّس الأُسوس، وغَرَس الغُرُوس، واتَّـخذ الـمَصانعَ والقُصور، وترك أعْلامًا باقيةً إلى النَّفْخِ في الصُّور. فاعْتبِرْ بالزَّهراء كَمْ بها من قَصْر مَشِيد، وآثارِ مُلُوك صِيْد، قد عادت معاهِدُها بَعْدَهم[6] دارِسة، وآثارُها دُونَهم طامِسة،

(١) في ر٢: «منها».

(٢) في ر٢: «العُبيدي».

(٣) «صاحب القيروان» ليست في ر٢.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٨٥.

(٥) عبارة «رحمه الله» من ر٢.

(٦) في ر٢: «معاهدهم بعدها».

تُسْفِي الرياحُ بجَنَباتها، وتبكي الغُيومُ على عَرَصاتها. ولـمَّا وليَ الناصِرُ لدين الله، اعتزَّ رُكْنُ الدِّين، واحتمى ذِمَار المسلمين، وقامَ الجهادُ على ساق، وخَمَدت نارُ الخِلاف والشِّقَاق، ودخل الناسُ في طاعته أفواجًا، واستنفروا[١] إلى دعوته أفرادًا وأزواجًا. فناهِيكَ من فَضْلٍ أعطاهُم، وعَدْلٍ أكْنَفَهم به وغَطَّاهم، وتكْرِمةٍ أنالهم إيَّاها، ومَسَرَّةٍ أبدى لهم مُـحَيَّاها، قد مَلَكَ سَبْتَةَ وما يَليها من الأقطار، وطَرَدَ عنها مُلوكَ الأدارِسة طَرْدَ الليلِ النهارَ، وبثَّ عُمَّالَه وقُوَّاده فيها، وطاعت له البرَابرُ في جميع نواحيها، واعتصموا بحَبْله، ولاذُوا بفَضْله وعَدْله. وكان اصطفى مَوْلاه بَدْرًا، وجعله شَمْسًا لـمُلْكه وبَدْرًا، وقلَّده خُطَّةَ الـحِجاب، وجعل له النَّفْيَ والإيجاب، فشدَّ مُلْكَه بقوَّةِ ساعِدٍ، وسَعْدٍ مُساعِدٍ[٢]، ثمَّ قدَّم موسى بنَ حُدَيْر، فكمل به الـمُلْك واتَّسَق، واتَّفَقَ له من الـجِدِّ ما اتَّفق، فقاد عسكرًا مَـجْرًا، وجرَّ الدُّنيا جَرًّا.

ومن قول ابن عبد رَبِّه فيه[٣] [من البسيط]:

قَـدْ أوْضَـحَ اللهُ للإسْـلامِ مِنْهـاجا والناسُ قَدْ دخلوا في الـدِّينِ أفْوَاجـا
وقـــدْ تَزَيَّنَـــت الـــدُّنيا لـــساكِنِها كـــأنَّها أُلْبِـــسَتْ وَشْـــيًا وديباجَـــا
يا ابْنَ الخَلائفِ إنَّ الـمُزْنَ لَوْ عَلِمَتْ نَـدَاكَ مـا كـان مِنْهـا المـاءُ ثجَّاجـا
والـحَرْبُ لَوْ عَلِمَتْ بأساً[٤] تَصُولُ بـهِ ما هيَّجَتْ من حُمَيّـاكَ الـذي اهْتَاجـا
مَـاتَ النِّفـاقُ وأعْطَـى الكُفْـرُ ذِمَّتَـهُ وذَلَّـت الـخَيْلُ إلْـجاماً وإسْراجـا
وأصْـبَحَ النَّـصْرُ معقـوداً بألْوِيـةٍ تَطْوِي الـمَرَاحِلَ تَهْجِيرًا وإدْلاجـا
إنَّ الخِلافةَ لـنْ تُـرْضَى وَلا رُضِـيَتْ حتَّى عَقَـدتَ لهـا في رأسِـكَ التَّاجـا[٥]

---

(١) في ر٢: «واستبقوا».
(٢) قوله: «وسعد مساعد» ليس في أ.
(٣) العقد لابن عبد ربه ٥/ ٢٤٠.
(٤) في ر٢: «حربًا»، وما هنا يعضده ما في «العقد».
(٥) قفز ابن عذاري هنا إلى البيت الأخير متجاوزًا تسعة أبيات. ينظر العقد ٥/ ٢٤٠-٢٤١.

ومن مناقِبه: أنَّه لم يَبْقَ في القصر الذي هو من مصَانِع أجداده ومعَالِـم أوَّليَّته بُنْيةٌ إلّا وله فيها أثرٌ مُـحْدَثٌ، إمَّا بتجديدٍ أو بتزييدٍ. ومن مَنَاقبه: كَثْرةُ جُوده الذي لم يُعْرَف لأحد قَبْلَه من أجواد الجاهليَّة والإسلام، حتَّى قيل فيه، رحمه الله [من الكامل]:

يـا ابْـنَ الخَلائـفِ والعُـلَى لِلْمُعْـتَلِي ... والـمَجْدُ يُعْـرَفُ فَـضْلُهُ لِلْمُفْـضَلِ
نَوَّهْـتَ بالخُلفـاء بَـلْ أَخْـمَلتَهُمْ ... حتَّـى كَـأنَّ نبـيلَهمْ لَـمْ يَنْبُـلِ
أذْكَرْتَ بَلْ أنْسَيْتَ ما ذَكَرَ الـوَرَى ... مِـن فِعْلِهِـم فكأنَّـهُ لَـمْ يُفْعَـلِ
وأَتَيْـتَ آخِـرَهُمْ وشَـأْوُكَ فَائِـتٌ ... لِلآخِـرينَ ومُـدْرِكٌ لِـلأَوَّلِ
تَـأبى فِعَالُـكَ أنْ تُعَـدَّ لآخِـرٍ ... مِـنْهُمْ وجُـودُكَ أنْ يُعَـدَّ لأوَّلِ

وكَمْ للناصر، رحمه الله، من غَزَوات مذكورة، وفتوحاتٍ مشهورة، يبقى في الأعقاب فخرُها، ولا يَبْلَى على مَرِّ الأحقابِ أثَرُها.

وقد نظم ابنُ عبد رَبِّه في غزواته أُرجْوزةً من سنة إحدى وثلاث مئة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة. وقد أطال الشُّعَراء في مدحه، وأطنبوا في شُكره، ولولا(١) أنَّ الناس مُكتَفُون بما في أيديهم منها، لأعْدَنا هُنا ذِكْرَها أو ذِكْرَ بعضها؛ ولكنَّ الـمَذْهَبَ هنا الاقتصار والإيجازُ والاختصار.

حكاية: ومـمّا ذُكر من إفضاله، مع بعض عُمّـاله: قال حَيَّانُ بن خَلَف: كان محمَّدُ بن سعيد المعروف بابن السَّلِيم قد احتجن أموالًا كثيرة بتصرُّفه في كبار الولايات في المدَّة الطويلة، فعَلِمَ ذلك منه الناصر، فعرَّض له مِرارًا في أن يُساهِمَه فيه عن طِيب نَفْس منه، وهو(٢) مَلِكُه، ولو شاء لأخذه منه، ولكنْ أبى ذلك كَرَمُ طبعه، فقال في مجلسه يوماً: «ما بالُ رجالٍ من خاصَّتنا توسَّعوا في دُنيانا، فطَفِقوا يَحتجِنُون الأموال، ويُضيعون تَعهدنا، وهم يَروْنَ غليظَ مَؤونتنا في الإنفاق على شؤُوننا التي بِقُدْرَتنا عليها صلاحُ أحوالهم ورَفاهِيَةُ عَيْشهم، ويعلمون أنَّ أمير المؤمنين عُمَر بن الخطَّاب،

---

(١) في ر٢: «تركنا ذلك اختصارًا» بدلًا من مما جاء من هنا إلى نهاية الفقرة.
(٢) من هنا إلى قوله: «كرم طبعه» ليس في ر٢.

رضي الله عنه، قُسْطاسَ الـمَوَازين، قاسَمَ عُمَّالَه أرباحَهم في عمالاتهم فصيّرَها[1] في بيت المال، وهُوَ مَن هُوَ، وهُمْ من هُمْ، والأُسْوةُ في فِعْله!»، فسكت ابنُ السَّليم عنه، وغالَطَه في تَعْريضه كأنَّه يعني غَيْرَه، فازداد الناصرُ حَنَقًا عليه وغيظًا[2]، فقال له يومًا في بعض مَجالِسه الخاصّة معه، وقد أخذ الشَّرابُ منه، وشقَّ تفَّاحةً بسكِّين في يده: «وَددِتُ أن أشُقَّ هكذا رأسَ مَنْ أعْرِفُ له مالًا كثيرًا غلَّه دوننا، ولم يُسْهِم بيتَ المال منه!»، فطار عقلُ ابن السَّلِيم، ولم يَختلِجْه الشَّكُّ في أنَّه الـمَعْنِيُّ به، فقام بين يدَيْه، وقال: «يا أميرَ المؤمنين، طال ما عَرَّضْتَ بي، فسكتُّ، بَلَى والله، إنَّ عندي مالًا كثيرًا، وهو دون ظَنِّك فيه، حُطْتُه بالتقتير، وأعْددتُه للدَّهْر العَثُور، ولستُ والله أُعطيكَ منه دِرْهمًا، فما فَوْقَه، ورأيُك فيَّ جميلٌ إلَّا أنْ تستحلَّ، وأعوذُ بالله[3] أن تَـمُدَّ يَدَكَ إليه بغير جنايةٍ منِّي عليك، فإنَّ الأنْفُسَ مُـحْضَرة الشُّح». قال: فخجل الناصرُ، وأطرق يتلو قَوْلَ الله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]، ثمَّ أقبل على ابن السَّليم يؤنِّسه ويُسَكِّن جأشَه، إلى أن اعتدل مَـجْلِسُه، فجعل يُمْعِنُ في الشُّرْب طَلَبًا للسُّكْر الذي خَامَرَهُ من الذُّعْر، فقال له الناصر: «خَفِّضْ عليك، يا محمَّد، فلا سبيل إليك»، فلمَّا سَكِرَ ابنُ السَّليم، تَهَوَّعَ، فقَذَف، وابتدره الوُصَفاء بالطَّسْت والـمَنَادِيل، فأقبل الناصرُ وأخذ[4] برأسه يُمسكه، ويقول له: «استفرِغْ ما في مَعِدَتِك وتَأَنَّ بنفسك»، فأنكر ابنُ السَّليم كلامه بين الـخَدَم، وصرف[5] إليه رأسَه، وإذا به الناصر، فما تَـمالَكَ أن خَرَّ إلى رِجْلَيْه يُقَبِّلُهما، ويقول: «يا ابنَ الخلائف، إلى هُنا انتهيتَ من بِرِّي!» وجعل يدعو له، ويُعَظِّم شُكره، فقال له الناصر: «لَيْتَني أخرجُ كَفافًا من شأني معك الليلةَ: تأنيسًا بإخافة وإلطافًا بجَفْوة». ثمَّ أمر له بكُسوة، وانقلب إلى أهله. فكان هذا مـمَّا يُعَدُّ من كَرَمه وفضله. فلمَّا مضت أيَّامٌ، أرسل ابنُ السَّليم إلى

(١) في ر٢: «تجاراتهم فجعلها».
(٢) ليست في ر٢.
(٣) «وأعوذ بالله» من ر٢.
(٤) في ر٢: «فأخذ الناصر».
(٥) في ر٢: «ورفع».

الناصر بمئة ألف دينار دَرَاهِم، فقبِلَها الناصر، وشكر فَضْلَه[1] وعَوَّضه بكبير الولايات، وصَحِبَتْه منه النعمةُ العريضة إلى حين وفاته.

حكاية: ومازَحَ الناصرُ، يومًا وزيرَه أبا القاسم لُبًّا، فقال له: «يا لُبُّ، اهْجُ الوزيرَ عبد الملك بن جَهْوَر» فامتنع عليه، فقال لابن جَهْوَر: «فاهْجُه أنْتَ، إذ أبَى هو مِن هَجْوِك»، فقال: «يا أمير المؤمنين، أتوقَّع عِرْضي منه، وأصونُ نفسي عنه»، فقال الناصر: «فأنا أهْجُوه، فقال [من السريع]:

لُبٌّ أبو القاسِمِ ذُو لِحْيَةٍ ... طَوِيلةٍ في طُولِها مِيلُ

ثم قال لابن جَهْوَر: «لا بُدَّ لك من تذييل هذا البيتِ، فَدَعِ الاعتذار». فقال: ابن جَهْوَر مُذيلًا لبيت الناصر[2]:

وعَرْضُها مِيلانِ إن كُسِّرَتْ ... والعَقْلُ مأفونٌ ومَدْخُولُ

لَوْ أنَّه احتاج إلى غَسْلِها ... لم يَكْفِهِ في غَسْلِها النِّيلُ

فضحك الناصر، وقال للُبٍّ: «إنَّه قد سبَّب لك القوْلَ، فَقُلْ» فقال لُبٌّ:

قَال أمِينُ الله في خَلْقِهِ: ... لي لِحْيَةٌ أزْرَى بها الطُّولُ

وابنُ عُيَيْرٍ[3] قال قَوْلَ الَّذي ... مَأكُولُهُ القَرْطِيلُ[4] والفُولُ

لولا حَيائي من إمامِ الهُدَى ... نَخَسْتُ بالمِنْخَسِ «شُو قُولُ»

فلَمَّا بلغ لُبٌّ إلى قوله: «شُو» سكت، فقال له الناصر: «قُولُ»، فأتَمَّ له على نحو ما أضْمَر، فقال له: «أنت هَجَوْتَهُ، يا موْلاي!» فضحك الناصر، وأمر له بصلَة.

---

(١) في ر٢: «شاكرًا فعله».

(٢) «ابن جهور مذيلًا لبيت الناصر» من ر٢.

(٣) في ر٢: «عمير».

(٤) في م: «القرطيل» مصحف، وفي ر٢: القرضيل، وما هنا من أ وكلاهما صحيح، وهي لفظة إسبانية تعني: الشوك Cardillo (وينظر معجم دوزي ٨/ ٢٣١).

وكان الناصرُ قد خرج[1] يومًا على فرس أبْلَق في هيئةٍ جليلة[2] والوزراء قد حفُّوا به، فقال ابنُ عَبْد رَبِّهِ في ذلك مُرْتجِلًا من قصيدة [من السريع]:

بَـــدرٌ بَـــدَا مِـــنْ تَـــحْتِهِ أبْلَـــقُ ... يَحْسُدُ فِيــهِ الـــمَغْرِبَ الـمَـشْرِقُ
لَـــوْ يعلَـــمُ الأبْلَـــقُ مَـــنْ تحتــه ... لاخْتــالَ مــن عُجْــبٍ بــه الأبْلَــقُ
إمـــامُ عَـــدْلٍ باسِـــطٌ كَفَّـــهُ ... يَـــرْزُقُ منهـــا اللهُ مَـــنْ يَـــرزُقُ
عــادَ بــه الـدَّهْرُ الَّـذي قَـدْ مَـضَى ... وجَـــددَّ اللهُ بـــه الـــمُخْلَقُ

وكان، لـمَّا تَرَعْرَعَ ابنُه الـحَكَمُ بن عبد الرحمن، ولَّاه العَهْد من بَعْده. وكان له أخٌ اسمُه عبد الله[3]، فحسده على ذلك[4]، واجتمع عليه قومٌ وأراد قَتْلَ أخيه، واتَّفق مع أصحابه أن يُبادروه، فافتَضَحُوا وقُتِلوا جميعًا، كما تقدَّم. وأمَّا الوَلَد عبد الله، فذُكِر أنَّه أخرجه أبوه الناصر[5] ثانيَ يوم عيد الأضْحَى، فذُبِح بين يدَيْه، وكان عالـمًا فاضلًا[6].

وكان[7] الناصرُ أمر ببناء الصَّومْعَة العظيمة في سنة أربعين وثلاث مئة، وشرع في بنائها، وهي الشهيرة التي لا صومعةَ تَعْدِلُـها. وكان الذي دعاهُ إلى بنائها... حدث في القديمة، فهُدمت إلى قواعدها... وبُنيت بِصَخْر الحجارة المنقولة إليها على العَجَل، وجمع لها... فجاءت فائقةَ الصَّنعة. وقد كانت الأُولى ذاتَ مَطْلَع واحد، فصيَّر لهذه مَطلَعَيْن، وفصل بينهما بالبناء، فلا يلتقي الراقُون فيها إلَّا بأعلاها. ولكلِّ مَطْلَع منها مئة درج وسبعة أدراج، وطولُـها ثمانون ذراعًا بالرَّشَّاشيِّ إلى وقوف المؤذِّن، وفي أعلى ذِرْوة المنار ثلاثُ رُمَّانات تُغْشِي النَّواظِر بشُعاعها، وتخطف الأبصار بالتماعها: الأُولى

---

(١) في ر٢: «وخرج الناصر».

(٢) «في هيئة جليلة» ليست في أ.

(٣) قوله: «كان له أخ اسمه عبد الله» ليس في ر٢.

(٤) في ر٢: «فحسده على ذلك أخوه عبد الله».

(٥) في ر٢: «وأخرج الناصر ابنه عبد الله».

(٦) «مكان عالـمًا فاضلًا» ليس في ر٢.

(٧) هذه الفقرة ليست في ر٢.

مفروغة من الذَّهَب، والوُسْطى من الفضَّة، والثالثة من الذَّهَب أيضًا، وفَوْقها سُوسانةٌ من الذَّهَب الـمَحْض مُسَدَّسةٌ، وفَوْقَ السُّوسانة رُمَّانةٌ صغيرةٌ من الذَّهَب، ثُمَّ طَرَفُ الزُّجِّ، وفيه تاريخٌ مكتوبٌ بالذَّهَب. وزِنَةُ كلِّ رُمَّانة من الثلاثة المذكورة قِنطارٌ واحدٌ فما دونَه، ودَوْرُ كلِّ واحدة ثلاثة أذرع ونصف. وكمل بناءُ الصَّوْمَعة في جُمادى الأُولى، فذلك ثلاثة عشر شهرًا.

وكان الناصر[١] زاد في الـمَسْجِد الجامِع بقرطبة زيادتَه المشهورة، المتَّصِلة بزيادة ابنه الـحَكَم بَعْدَه[٢]، وفيها القَبْوُ الكبير الذي يَصْطَفُّ المؤذِّنون أمامَه يومَ الـجُمُعة للأذان، وهو من أعجب البُنيان.

وإذ قد وقع ذِكْرُ المسجد الجامع بقُرطبة، فالواجبُ أن نذكر أوَّلَ مَنْ أحْدَثَه، ومَنْ تولَّى بناءه من مُلوك بني أُميَّة[٣]، على سبيل الاختصار؛ فنقول:

ذِكْر مَسْجِد قُرْطُبة الأعْظَم[٤]

ذكر الرَّازيُّ[٥] عن الفقيه محمَّدِ بن عيسى أنَّه قال: لـمَّا افتتح المسلمون الأنْدَلُس، استدلوا بما فعل أبو عُبَيْدَةَ وخالِدٌ، رضي الله عنهما، عن رأي أمير المؤمنين عُمَرَ بنِ الخطَّاب، رضي الله عنه، من مُشاطَرة الرُّوم في كَنَائسهم مِثْل كنيسة دِمَشْق وغيرِها مـمَّا أخذوه صُلْحًا، فشاطَرَ المسلمون أعاجِمَ قُرْطُبة في كَنِيستهم العُظْمَى التي كانت بداخلها، وابتنى المسلمون في ذلك الشَّطْر مسجدًا جامعًا، وبقي الشَّطْرُ الثاني بأيدي الروم، وهُدِمَتْ عليهم سائرُ الكنائس. فلمَّا كثر المسلمون بالأنْدَلُس، وعَمُرت قرطبةُ ونزلها أُمراءُ العَرَب بجيوشهم، ضاق عنهم ذلك المسجدُ، وجعلوا يُعَلِّقون منه سَقَائفَ، فنال الناسَ من الضيق مَشَقَّةٌ عظيمةٌ. فلمَّا دخل عبدُ الرحمن بن مُعاوية الأندلس، وسكن قرطبةَ، نظر في أمر الجامع،

(١) في ر٢: «والناصر هو الذي».
(٢) «المتعلقة بزيادة ابنه الحكم بعده» ليست في ر٢.
(٣) في ر٢: «ومن زاد في بنائه من بني أمية».
(٤) هذا العنوان ليس في ر٢.
(٥) ينظر نفح الطيب ١/ ٥٦٠-٥٦١.

وتوسيعِه، وإتقانِ بنائه، فأحضر أعاجِمَ قُرطبة، وسألهم بَيْعَ ما بقي بأيديهم من الكَنِيسة المذكورة، وأوسع لهم البَذْلَ فيه؛ وفاءً بالعهد الذي صُولحوا عليه، وأباحَ لهم بناء كَنَائسهم التي كانت هُدِمَتْ عليهم في وقت الفَتْح بخارج قرطبة. وخرجوا عن الشَّطْر، فاتَّخذه[1]، وأدخله في الجامع الأعْظَم. وكان شروعُ عبد الرحمن الداخل في هَدْم الكنيسة وبناء الجامع سنة تسع وستين ومئة، وتمَّ بناؤُه، وكملتْ بلاطاتُهُ، واشتملت أسوارُه في سنة سبعين ومئة، فذلك مدَّةٌ من عام كامل، فقيلَ: إنَّ النَّفَقَة التي أنفق الإمامُ عبد الرحمن بطُول هذه السنة في بناء الجامع: ثمانون ألفًا بالوَازِنة، وفي ذلك يقول البَلَويُّ، رحمه الله [من الطويل].

وَأبْـــرَزَ في ذاتِ الإلـــهِ ووَجْهِـــهِ ... ثَمانِـينَ ألْفًـا مِـن لُجَـيْنٍ وعَـسْجَدِ

فأنْفَقَهــا في مَــسْجِدٍ أُسُّـــه التُّقَــى ... ومَنْهَجُــه[2] دِيــنُ النبــيِّ مُــحَمَّدِ

ثمَّ زاد ابنهُ هشام صَوْمَعةً، كان ارتفاعُها أربعين ذِراعًا إلى موضع الأذان، وبنى بآخِرِ المسجد سَقائفَ لصلاةِ النساء، وأمر ببناء الـمِيضَأةِ بشرقيِّ الجامع. وأقام الجامعُ على هَيْئَته تلك إلى أيَّام عبدِ الرحمن بن الـحَكَم.

ثمَّ زاد عبدُ الرحمن بن الـحَكَم بن هشام بن عبدِ الرحمن الداخِلِ[3] الزيادةَ الـمُنْتَظِمة بالأرْجُل، طُولُها خمسون ذراعًا، وعَرْضُها مئة وخمسون، وعَدَدُ سَوَاريها ثمانون سارية، وكان الفراغُ من هذه الزيادة في جُمادى الأُولى سنة أربع وثلاثين ومئتين.

ثمَّ زاد الأميرُ محمَّد بن عبد الرحمن أن أمر بإتقان طُرَر الجامع، وتنميقِ نُقوشه، وبإقامة الـمَقْصُورة، وجعل لها ثلاثةَ أبواب، فلمَّا كَمُلَ ما أمَر به في الجامع، دخله وصلَّى فيه رَكَعات خَشَعَ فيها، فقال في ذلك موسى بنُ سعيد [من الطويل]:

لَعَمْري لقد أبْدَى الإمـامُ التواضُـعَا ... فأصْـبَحَ للـدُّنيا وللـدِّين جامعـا[4]

---

(١) هذه اللفظة ليست في أ.

(٢) في ر٢: «وشرعته».

٣)) «بن هشام بن عبد الرحمن الداخل» ليست في ر٢.

٤)) في ر٢: «جامعا».

بَنَى مَسْجِدًا لم يُبْنَ في الأرض مِثْلُه وصلَّى به شُكْرًا لذي العَرْش راكِعا
فطُوبَى لمن كان الأميرُ محمَّدٌ له إذْ دَعَا فيه إلى الله شافِعا

ثُمَّ زاد الأميرُ الـمُنْذِرُ بن محمَّد البَيْتَ المعروف ببَيْت المال في الجامع، فوضع فيه الأموالَ الـمُوَقَّفة لغُيَّاب المسلمين، وأمر بتجديد السِّقاية وإصلاح السَّقائف.

ثُمَّ زاد أخوه الأميرُ عبد الله بن محمَّد ساباطًا معقودًا على حَنَايَا، أوْصَلَ به ما بَيْن القصر والجامعِ من جِهَة الغَرْب، ثمَّ أمر بِستارةٍ من آخِر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب، وفتح إلى المقصورة بابًا كان يخرجُ منه إلى الصلاة، وهو[١] أوَّلُ من اتَّخذ ذلك من أُمراء بني أُميَّة بالأندلس.

رَجْعُ الـخَبَرِ إلى ذِكْر الناصر: قيل: إنَّه أنفق في صَوْمعة المسجد وفي تعديلِ المسجد[٢] وبُنيان الوَجْهِ للبلاطات الأحَدَ عشر بلاطًا سبعةَ أمْداد وكيْلَيَن ونصفَ كَيْل من الدراهِم القاسِميَّة. وجُمْلةُ ما أنفق عبدُ الرحمن[٣] الناصر في بناء مدينة الزَّهراء وقُصورها: خمسةٌ وعشرون مُدْيًا من الدَّراهم القاسِميَّة وستَّة أقْفِزة وثلاثةُ أكْيَال ونصفٌ.

ذِكْر بناءِ مدينة الزَّهْراءِ بقُرْطبة، أعادها الله للإسلام بفَضْله[٤]

ابتُدِئ بُنيانُها[٥] في أيَّام الناصر من[٦] أوَّل سنة خمس وعشرين وثلاث مئة. وكان يُصْرَف فيها كلَّ يوم من الصَّخْر المنجور ستَّة آلاف صَخْرة سِوَى التبليط في الأُسوس، وجُلِبَ إليها الرُّخام من قَرْطاجَنَّةِ إفريقِيَة ومن تُونُس، وكان الأُمَناءَ الذين جلبوه: عبدُ الله بن

---

(١) من هنا إلى نهاية الفقرة ليس في ر٢.
(٢) في ر٢: «وفي تعديله».
(٣) «عبد الرحمن» ليس في ر٢.
(٤) «أعادها الله للإسلام بفضله» ليست في ر٢.
(٥) في ر٢: «بناؤها».
(٦) «أيام الناصر من» ليست في ر٢.

يُونُس، وحَسَنٌ القُرْطُبيُّ، وعليُّ بن جعفر الإسْكَنْدَرانيُّ، وكان الناصرُ يَصِلُهم على كلِّ رُخامة بثلاثة دنانير، وعلى كلِّ سارية بثمانية دنانير سِجِلْماسيَّة. وكان فيها من السَّوارِي أربعةُ آلاف سارية وثلاث مئة سارية وثلاث عشرة سارية، المجلوبة منها من إفريقيَة ألفُ سارية وثلاث عشرة سارية. وأهدى إليه مَلِكُ الرُّوم مئةً وأربعين سارية، وسائرُ ذلك من رخام الأنْدَلُس. وأمَّا الـحَوْض الغريب المنقوش الـمُذَهَّب بالتماثيل، فلا قيمةَ له، جَلَبَهُ ربيعٌ الأُسْقُفُ من القُسْطَنْطِينة من مكان إلى مكان حتى وصل في البَحْر، ووضعه الناصرُ في بيت المَنَام في الـمَجْلِس الشرقيِّ المعروف بالـمُؤنِس، وكان عليه اثنا عشر تِـمْثالًا من الذَّهَب الأحمر المرصَّع بالدُّرِّ النفيس العالي ممَّـا صَنَعَه بدار الصَّنْعة بقصر قُرْطُبة. وكان المتولِّـيَ لهذا البُنيان المذكور ابْنُه الـحَكَم، لم يَتَّكِل الناصرُ فيه على أمينٍ غيره. وكان يُـخْبَز في أيَّامه كلَّ يوم بِرَسْم حِيْتان البُحَيْرات ثماني مئة خُبْزة، وهذا من أعْظَم الأشياء[1]، إلى ما فوقَ ذلك.

وكان الناصرُ قد قسم الجِباية على ثلاثة أثلاث: ثُلُثٌ للجُنْد، وثُلُثٌ للبناء، وثُلُثٌ مُدَّخر. وكانت جبايةُ الأنْدَلُس يومئذٍ من الكُوَر والقُرَى خمسةَ آلافِ ألْفٍ وأربع مئة ألف وثمانين ألف دينار، ومن الـمُسْتَخْلَص والأسواق سبعَ مئة ألف دينار وخمسةً وستِّين ألف دينار.

ومـمَّا قيل في آثار مدينة قُرْطُبة وعِظَمها[2] حين تكامل أمْرُها في مدَّة بني أُميَّة، رحمهم الله: إنَّ عِدَّة الدُّور التي بداخلها للرعيَّة دون الوزراء وأكابر أهل الـخِدْمة: مئةُ ألف دار وثلاثة عشر ألف دار، ومساجدُها ثلاثة آلاف، وعِدَّة الدُّور التي بقصرها الزَّهْراء: أربع مئة دار، وذلك لسُكْنَى السلطان وحاشيته وأهل بيته. وعَدَدُ الفِتْيان الصَّقالِبة: ثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسون. وعِدَّة النساء بقصر الزَّهْراء الكبارِ والصغار وخَدَم الـخِدْمة: ستَّة آلاف وثلاث مئة امرأة، وكان لهؤلاء من اللحم ثلاثة عشر ألف رِطْل ينقسم من عشرة أرطال للشخص إلى ما دون ذلك، سوى الدَّجاج والـحَجَل وصُنوفِ الطير وضُروب الحِيتان. وعَدَدُ حَمَّاماتها[3]: ثلاث مئة حمَّام، وقيل: إنَّها المُبْرَزة

(١) «وهذا من أعظم الأشياء» ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «وعظيمها».

(٣) في ر٢: «حمامات قرطبة».

للنساء[1]. وكان عَدَدُ أرباض قُرْطُبة في ذلك الوقت ثمانيةً وعشرين ربَضًا، منها مَدِينتانِ: الزَّهْراءُ والزاهِرة. وأمَّا اليتيمة التي كانت في الـمَجْلِس البَدِيع، فإنَّها كانت من تُحَف قَيْصَر اليُونانيِّ صاحب القُسْطَنْطينة، بعث بها للناصر مع تُحَف كثيرة سَنِيَّة. فسُبْحانَ مَن لا يبيد مُلْكُه ولا ينقطع عِزُّه[2].

وفي سنة خمسين وثلاث مئة: تُوفِّي الناصر، رحمه الله[3]، وذلك في صَدْرِ رمضان منها. ووُجِدَ بخطِّه تاريخٌ قال فيه: أيَّام السرور التي صَفَتْ لي دُونَ تكدير في مدَّة سُلْطاني[4]: يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا. فعُدَّت تلك الأيَّام، فوُجِد فيها أربعة عشر يومًا. فاعْجَبْ أيُّها الغافل[5] لهذه الدنيا، وعدَم صَفائها، وبُخْلها[6] بكمال الأحوال لأوليائها! إنَّ الخليفة الناصرَ مَلَكَ خمسين سنة وسبعةَ أشهر وثلاثة أيَّام، ولم يَصْفُ له من الدُّنيا إلَّا أربعة عشر يومًا! فسُبحانَ ذي العزَّة العالية، والمملكة الباقية، تَبارَك اسمُه وتَعالَى جَدُّه.

وممَّن رثاه: جعفرُ بن عثمان الـمُصْحَفيُّ[7]، فقال [من الطويل]:

ألا إنَّ أيَّامًا هَفَتْ بإمامها ... لَجائرةٌ مُشْتَطَّةٌ في احْتِكامِها

فلَمْ يُؤلِم الدُّنيا عِظامُ خُطُوبِها ... وأحْداثِها إلَّا قُلُوبَ عِظَامِها

تأمَّلْ فهَلْ من طَالِعٍ غَيْرُ آفِلٍ ... لَهُنَّ وهَلْ من قاعِدٍ لقِيَامِها

وعَايِنْ فهَلْ من عائشٍ برَضاعِها ... من الناس إلَّا مَيِّتٌ بِفطامِها

كأنَّ نفوسَ الناسِ كانت بنَفْسِهِ ... فلمَّا تَوَارَى أيْقنَتْ بحِمامِها

فطَارَ بِها يَأسُ الأسَى وتقَاصَرَتْ ... يَدُ الصَّبْرِ عن إعوالِها واحْتِدامِها

---

(١) في ر٢: «للناس».

(٢) في ر٢: «سلطانه».

(٣) «رحمه الله» ليست في أ.

(٤) قوله: «في مدة سلطاني» من ر٢.

(٥) في ر٢: «العاقل».

(٦) في أ: «ومحلها».

(٧) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٥٢) والتعليق عليها.

خِلافة الـحَكَم بن عبد الرحمن الـمُسْتَنِصر بالله[١]

نَسَبُه: هو[٢] الـحَكَمُ بن عبد الرحمن بن محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن عبد الرحمن بن الـحَكَم بن هِشامِ بن عبد الرحمن الداخل.

كُنْيَتُه: أبو الـمُطَرِّف.

أُمُّه: اسْمُها مِهْرَجَان.

عُمرُه: ثلاث وستُّون سنة وسبعة أشهر.

بُويع بعد موت أبيه لثلاث خلَوْن[٣] لرمضان سنة خمسين وثلاث مئة. وتوفِّي ليلةَ الأحد لثلاث خَلَوْن من صَفَر من سنة ست وستين وثلاث مئة؛ فكانت دولته[٤] خمس عشرة سنة، وسبعةَ أشهر، وثلاثة أيَّام.

لَقَبُه: الـمُستنصِر بالله.

صِفَتُه: أَبْيَضُ مُشْرَب بحُمْرةٍ، أعْيَنُ، أقْنَى، جَهيرُ الصوت، قصيرُ الساقَيْن، ضَخْم الـجِسْم: غليظُ العُنُق، عظيمُ السَّواعِد، أَفْقَمُ.

قُضَاتُه[٥]: مُنْذِر[٦] بن سعيد البَلُّوطيُّ قاضي أبيه، ثمَّ أبو بكر محمَّد[٧] بن السَّلِيم.

نَقْشُ خاتَـمه: الـحَكَمُ بقضاء الله رَاضٍ.

وافتتح خلافتَه بالنَّظر في الزيادة في المسجد الجامع بقُرْطُبة، وهو أوَّل عهدٍ أَنْفَذَه، وقلَّد ذلك حاجِبَه وسَيْفَ دولته جَعْفَر بن عبد الرحمن الصَّقْلَبيَّ، وذلك لأربع

---

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧، وجذوة المقتبس ٣٣، وبغية الملتمس ١٨، والمعجب ٥٩، والحلة السيراء لابن الأبار ١/ ٢٠٠، وتاريخ الإسلام للذهبي ٨/ ٢٤٠، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٢٦٩، ونفح الطيب ١/ ٣٨٢ وغيرها.

(٢) من ر٢.

(٣) قفز نظر ناسخ ر٢ من هذه اللفظة إلى مثيلتها الخاصة بالوفاة فاختل النص.

(٤) في ر٢: «خلافته».

(٥) في ر٢: «قاضيه».

(٦) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٨١.

(٧) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٠٤ واسمه: محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم بن محمد بن السَّلِيم.

خَلَوْن لرمضان من السنة، وهو اليومُ الثاني من يوم[1] خلافته. فكان أوَّلَ ما عَهِدَ إليه تقديمُ النَّظَر في سَوْق الصُّخور التي هي أُسُّ البُنيان، فابْتُدئ بانتقالها في رمضان المذكور. وكان قُطْر[2] قُرْطُبة إذ ذاك[3] قد كثر به الناس[4]؛ فضاق الجامعُ عن حَمْلهم، ونالَـهم التَّعَبُ في ازدحامهم، فسارَعَ الـمُستنصِر إلى الزيادة فيه، فخرج لتقديرها، وتفصيلِ بُنيانها، وأحضرَ لها الأشياخَ والـمُهَنْدِسين، فحَدُّوا هذه الزيادة[5] من قِبْلة المسجد إلى آخِر الفضاء مادًّا بالطُّول لأحدَ عشر بلاطًا. وكان طولُ الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسةً وتسعين ذراعًا، وعَرْضُها من الشرق[6] إلى الغرب[7] مثلُ عَرْض[8] الجامع سواءً، وقُطع من هذا ساباطُ القصر المتَّخَذ لخروج الخليفة إلى الصلاة إلى جانب الـمِنْبَر بداخل المقصورة، فجاءت هذه الزيادةُ من أحسن ما زِيدَ في المسجد قَبْلُ وأشَدِّه وأتْقَنِه[9].

ذِكْرُ الـحُبْس الذي حبَّس الـمُستنصِر بالله على الجامع بقُرْطُبة

لـمَّا كَمُلَتْ زيادته، أحضر الفُقهاء والعُدول الشُّهَداء وأعيانَ الناس ووُجوهَهم وقُضاتَهم وأئمَّتَهم، فحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، وجدَّد شُكرَه على توفيقه، لإجراء هذه البِنْيَة الكريمة على يديه، وأنَّه تلقَّى هذه النِّعْمَةَ العظيمة بأن حبَّس رُبعَ جميع ما جَرَّته إليه الوراثةُ عن أبيه أميرِ المؤمنين في جميع كُوَر الأنْدَلُس وأقاليمِها على ثُغور الأنْدَلُس كافَّةً تُفرَّقُ عليهم غَلَّاتُ هذه الضِّياع عامًا بعد عام على ضُعَفائهم، إلَّا أنْ تكونَ بقُرْطُبة مجاعةٌ؛ فتُفَرَّق فيهم إلى أن يَجْبُرَهم الله. وجعل القَبْضَ والنَّظَرَ في هذا الـحُبْس إلى

(١) ليست في ر٢.

(٢) في أ: «قصر».

(٣) «إذ ذاك» من ر٢.

(٤) في ر٢: «الخلق».

(٥) قفز نظر ناسخ ر٢ من هذه اللفظة إلى مثيلتها الآتية فسقط ما بينهما.

(٦) في ر٢: «المشرق».

(٧) في ر٢: «المغرب».

(٨) في ر٢: «حد».

(٩) «قبل وأشده وأتقنه» من ر٢.

حاجبِه وسَيْفِ دولته جَعْفر، وجعل دَفْعَ ذلك إلى وزيره وكاتبه عيسى بنِ فُطَيْس، وأشهد الحاضرين على ذلك، وأشهد أيضًا بعَتْقِ كلِّ مملوكٍ له من الذُّكْران، وخرج غازيًا إلى بلاد الـمُشْرِكين.

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة: غزا الـحَكَمُ الـمُستنصر بالله بلادَ الرُّوم بنفسه، فشمَّر ملوك الروم أمامه فأحاط بأرض الروم[1]، ففتح بها حصونًا كثيرةً ومُدُنًا جَليلة، وسبى كثيرًا[2] وغَنِم عظيمًا[3] وانصرف غانمًا ظافرًا.

وفيها[4]: وفد عليه أبو صالح زَمُّور البَرْغَواطيُّ رسولًا من مَلِك بَرْغواطة أبي منصور عيسى بنِ أبي الأنصار، فسأله الـحَكَمُ عن أنساب بَرْغَواطة ومَذَاهِبهم، فأخبره بما تقدَّم في الـجُزْء الأوَّل.

وكان الـحَكم[5] قد أنفذ الكُتبَ في محرَّم من سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة إلى جميع الولاة والقُوَّاد والعُمَّال بأقطار الأنْدَلُس، يأمرهم بارتباط الخيل، والقيامِ عليها، والاستعداد بالعُدَد[6] والأسْلِحة والآلاتِ برَسْم الجهاد في سبيل الله.

وفيها: عَزَلَ عبدَ الله بن بَدْر عن شُرْطة المدينة بقُرْطُبة، وولَّاها محمَّدَ بن جَهْوَر[7]، وأنفذ له سِجِلًّا بذلك بخطِّ يده.

وفيها: اسْتُحجب جَعْفَر[8] الصَّقْلبيُّ الفَتَى الكبيرُ الناصِريُّ.

وفيها: وفد على الـمُسْتَنِصر بالله أُرْدُونُ بن إذْفُونْش الأحْدَبُ، من ملوك الـجَلالِقة، الـمُنازِع لابن عمِّه شَانْجُه بن رُذْمِير سابِقِه إلى ولاية مُلْكهم، فبالغ في إكرامه، في

---

(١) لفظ الجلالة ليس في ر٢.

(٢) قوله: «بنفسه فشمر ملوك الروم أمامه فأحاط بأرض الروم» سقط من أ، م.

(٣) ليست في أ.

(٤) هذه الفقرة كلها ليست في ر٢.

(٥) ليس في ر٢.

(٦) ليست في أ.

(٧) في ر٢: «جوهر».

(٨) في ر٢: «استَعْجَبَ جعفرًا» وباقي النص بالنصب.

خَبرٍ طويل. وكان للفُصَحاء في ذلك مقامات وأشعار يطول الكتابُ بذكرها، فمن[1] قول عبدِ الملك بن سعيد من قصيدةٍ [من الكامل]:

مَلِـكُ الخِلافـةِ[2] آيـةُ الإقْبـالِ ... وسُـعودُه مَوْصُـولةٌ بتَوالِـي

فالـمُـسْلمونَ بعِـزَّةٍ وبِرفْعـةٍ ... والـمُـشْرِكونَ بذِلَّـةٍ وسَـفالِ

أَلْقـتْ بأيـديها الأعـاجِمُ نَحْـوَه ... مُتَـوَقِّعينَ لـصَوْلةِ الرِّئْبَـالِ

هـذا أمـيرُهُم أتـاهُ آخِـذاً ... مِنْـه أواصِرَ ذِمَّـةٍ وحِبـالِ

وفيها: وصل قُرْطُبَةَ أرسالُ شَانْجُه بنِ رُذْمِير، مُنازِعِ الطاغيةِ أُرْدُون ابنِ عمِّه مَلِك الـجَلالِقة، ومعهم عبدُ الرحمن[3] بن جَحَّاف قاضِي بَلَنْسِيَة، وأَيُّوب بن الطَّوِيل، وغيرُهما، فتوصَّلوا كلُّهم إلى الـمُستنصِر في ربيع الآخِر: وأوصلوا كتابَ شانْجُه بن رُذْمِير بجوابِ ما خُوطِبَ فيه وبَيْعته التي عقدها على نفسه وجميع أهل مملكته لأمير المؤمنين الـمُستنصِر بالله، في خَبَر طويل.

وفيها: وُلِد للخليفة الـحَكَمِ ولدٌ ذَكَرٌ من حَظِيَّته[4] التي سمَّاها جَعْفَرَ أُمَّ وَلده، فسمَّاه عبدَ الرحمن، وسُرَّ به سرورًا عظيمًا؛ إذ كان لا يُولَد له، وقالت في ذلك الشُّعَراءُ والأُدَباء، فأكثروا.

وفيها: ظهر نَكْثُ الـجَلالِقة بكلِّ جهة.

وفيها: كان الـمَدُّ الطامِي بنَهْر قُرْطُبة.

وفي سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة: كانت غزوةُ شَنْت أَشْتَبِن، غَزاها الـحَكَمُ الـمُستنصِر بالله.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاث مئة: كانت بقُرْطُبة مجاعةٌ عظيمةٌ، فتكفَّل

---

(١) في ر٢: «فمنه» وليس فيها بقية النص.

(٢) في ر٢: «الخليفة».

(٣) ترجمته في التكملة الأبارية والتعليق عليها ٣/ ١٣٦.

(٤) «من حظيته» ليست في ر٢.

الـحَكَمُ بضُعَفائها ومساكينِها بما يُقِيمُ أرماقَهم، وأجْرَى نَفَقاتِه عليهم بكلِّ رَبَض من أرباض قُرْطُبَة وبالزَّهْراء.

وفيها: قُرِئ بالجامعَيْن[١]: قُرْطُبَةَ والزَّهراء، فَتْحٌ وَرَدَ من قِبلَ سَعْد الـجَعْفَريِّ مَوْلَى الخليفة الـحَكَم، القائد بالـجَوْف، يذكر ما أتاحه اللهُ على يدَيْه في أهلِ جِلِّيقيَّة، وأفاءَه على المسلمين بسَعْدِ إمامهم الزَّكيِّ.

وفيها: كان ازدحامُ الناس بالمسجد الجامع بقُرْطُبة وتَضَاغُطُهم حتى كادت النفوسُ تَتْلَف؛ فأمَرَ الـمُستنصِرُ بالله بتوسعتِه والزيادةِ فيه، فأتى القاضي مُنْذِرُ بن سعيد إلى المسجد الجامع، ومعه صاحبُ الأحباس والفُقَهاء والعُدولُ بما اجتمع قِبَله[٢] من أموال الأحباس، فنظروا في الزِّيادة فيه.

وفيها: أنْفَذَ الـمُستنصِرُ بالله ثقته[٣] أحمدَ[٤] بن نَصْر لبُنيان مدينةٍ بثَغْر طُلَيْطُلة، وتشييدِها، وتوثيقِ أُمورها، وجَعَلَ بين يدَيْه أحمالَ أموال.

وفيها: تحرَّكَ الـحَكَم من قُرْطُبة إلى الـمَرِيَّة تَوَقُّعًا لما يصدرُ من صاحب إفْرِيقيَة الـمُحادِّ لأهْل الأندلس: ولمعايَنةِ ما استكمله بها من الـحَصانة، ومُطالعةِ حالِ[٥] رابِطة القَبْطة[٦]، ومُشارفةِ حال الرعايا بتلك الجهة.

وفيها: كان خَبَرُ اللِّص الذي سرق بَيْتَ المال الذي للسبيل[٧] بداخلِ المسجد الجامع بقُرْطُبة في شوَّال.

وفي سنة أربع وخمسين وثلاث مئة: نزل الغَيْثُ بقُرْطُبة؛ فرَوِيَت الأرض، وطاب الـحَرْثُ، وسُرَّت النفوس.

---

(١) في ر٢: «بجامعي».

(٢) هذه اللفظة ضبطت في ر٢: «قَبْله».

(٣) ليست في أ.

(٤) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٩٦.

(٥) ليست في أ.

(٦) في ر٢: «البقعة».

(٧) هذه اللفظة ليست في ر٢.

وفيها: وُلِد هشامُ بن الـحَكَم؛ قال ابنُ حَيَّان: كان الخليفةُ الـحَكَم شديدَ الكَلَف بطَلَب الوَلَد؛ لعُلُوِّ سِنِّه، فبُشِّر في بعض خَلَواته باشْتمال أُمِّ وَلَده على حَمْل، فسُرَّ به، وبَقِيَ يترقَّبه، فأَتَتْه به أوَّلَ خلافته، ثمَّ مات طِفْلًا، فأحزنه، فلمَّا بُشِّر بهذا، فرح به، فاستَبْشَرَ جَعْفَرُ[1] بن عُثمان وزيرُه ببُشراه، وأرسل إليه في التهنئة بذلك أبياتًا، وهي [من الوافر]:

هَنِيئـــاً للأنـــام وللإمـــامِ كَـــرِيمٌ يـــستفيدُ عـــلى كِـــرامِ
مُرَجًّـــى للخلافـــة وهْـــوَ مـــاءٌ ومـــأمولٌ لآمـــالِ عِظَـــامِ
أضـــاء عـــلى كريمَتِـــه ضِـــيَاه فلَـــمْ تَعْلَـــمْ بغاشـــيةِ الظَّـــلامِ
وَلِـــمْ لا يُسْتَـــضاءُ بجانِبَيْهـــا وبَـــيْن ضُـــلُوعِها بَـــدْرُ التَّمَـــامِ!

قال: فلمَّا وَلدتْ جاريتُه جَعْفَرُ ابْنَها هشامًا الملقَّب بالمؤيَّد، بُشِّر الخليفة[2] الـحَكَمُ بطُلوعه، وجَعْفَر بن عثمان عنده في خَلْوة، فارتاح لارتياحه، فقال على البَديهة يُهنِّئه [من مخلع البسيط]:

اطَّلَـــعَ[3] البَـــدْرُ مِـــن حِجابِـــهْ واطَّـــرَدَ الـــسَّيْفُ مِـــن قِرابِـــهْ
وجاءنـــا وارِثُ الـــمَعَالِي لِيُثْبِـــتَ[4] الـــمُلْكَ في نِـــصَابِهْ
بَـــشَّرَنا سَـــيِّدُ البَرايَـــا بنِعْمـــةِ الله في كِتابِـــهْ
لَـــوْ كنـــتُ أُعْطِـــي البَـــشِيرَ نَفْـــسِي لَـــمْ أقْـــضِ حَقًّـــا لِـــما أتَـــى بِـــهْ

وفيها: كَمُلت القُبَّةُ الـمُبْتناةُ على الـمِحْراب في الزيادة بالمسجد، وذلك في شهر جُمادى الآخرة منها.

---

(١) ترجمته في الحلة السيراء ١/ ٢٥٧.
(٢) ليست في ر٢.
(٣) في ر٢: «تطلع».
(٤) في ر٢: «يُثْبِّت».

وفيها: شُرِع في تنزيل الفُسَيْفِساء بالمسجد الجامع، وكان مَلِكُ الرُّوم بعث بها إلى الخليفة الـحَكَم. وكان الـحَكَمُ قد كتب له في ذلك، وأمَرَه بتوجيه صانِعِها إليه؛ اقتداء بما فَعَلَهُ الوليدُ بن عبد الملك في بُنيان مسجد دِمَشْق، فرجع وَفْدُ الـحكَم بالصانع، ومعه من الفُسَيْفِساء ثلاث مئة وعشرون قنطارًا، بعث بها مَلِك الرُّوم هَدِيّةً، فأمر الـحَكَم بإنزال الصانع، والتوسيعِ عليه، ورتَّب معه جُملةً من مَـمَاليكه لتعلُّم الصناعة، فوضعوا أيديَهم معه في الفُسَيْفِساء المجلوبةِ، وصاروا يعملون معه؛ فأبدعوا، وأرْبَوا عليه، واستمرُّوا بعد ذلك مُنْفَرِدين دُونَ الصانع القادِم؛ إذْ صدر راجعًا عند الاستغناء عنه، بعد أن أجزل له الـمُستنصِرُ الصِّلةَ والكُسوة. وتداعى إلى هذه البِنْية كلُّ صانع حاذق من أقطار الأرض. وركب الـحَكَمُ[1] الـمُستنصر بالله في العَشْر الوُسَط لشوَّال من الزَّهْراء إلى الجامع، ودَخَلَه، ونظر إلى الزيادة وما تمَّ فيها، وأمر باقتلاع[2] السَّوارِي الأربع التي كانت في عِضادة الـمحْراب القديمِ الفائقة التي لا نظير لها، وصيانتِها إلى أن تُوضَعَ في الـمِحْراب الجديد عند إتقان إحكامه وإكماله.

وفي سنة خمس وخمسين وثلاث مئة، في المحرَّم: أمر بوضع الـمِنْبَر القديم إلى جانب الـمِحْراب، ونَصْبِ الـمَقْصورة القديمة. ونُصِب في قِبْلة هذه الزيادة مَقْصورةٌ من الـخَشَب، منقوشةُ الظاهر والباطن، مُشرَّفة الذِّرْوة، طولُـها خمسةٌ وسبعون ذِراعًا، وعَرْضُها اثنانِ وعشرون ذِراعًا، وعُلوُّها إلى الـمُشَرَّفات ثمانية أذْرُع. وكان الفراغ من هذه الزيادة[3] ونَصْبِ المقصورة في رَجَب من السنة.

وفي يوم الـجُمعة لثمانٍ خَلَوْنَ منه: قُرِئ كتابُ فَتْح من قِبَل سعادة الـجُعَيْفرِيِّ، القائدِ بمدينة الفَرَج، يذكر ما فتح اللهُ له وأُتيح على يدَيْه من أعداء الله الـمُشرِكين.

وفي يوم الأربعاء لأربع خَلَوْنَ من ربيع الأوَّل منها: نفِّذت الكُتُب إلى عُمَّال الثَّغْر الأدْنى والأقْصى في ارتباط الخيل، والتكثيرِ منها، وجَوْدةِ القيام عليها، لِـمَا يؤمَّل من الجهاد بعون الله.

---

(١) ليس في ر٢.

(٢) في م: «بإقلاع».

(٣) في ر٢: «الزيادات».

وفي يوم الجمعة لثلاث خَلَوْنَ منه: قُرِئَ بقُرْطُبَة والزَّهْراء كتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل الوزير يحيى بنِ هاشِم(١)، وكتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل سَعْد الـجَعْفَرِيِّ، وكتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل حَرِيزِ بن هابِل، يذكرونَ ما منحهم اللهُ وفَتَحَ على أيديهم من قِبَل أعداء الله الـمُشْرِكين، وأنَّ كلَّ واحد منهم نهض إلى ما قِبَله من بلادهم، فقَتَلَ وسَبى، واكتسح وأشجى، وانصرف سالـمًا غانمًا.

وفي أوَّل رَجَب منها: ورد كتابٌ من قَصْر أبي دَانِس(٢) على الـمُستنصِر بالله، يَذكر فيه ظُهورَ أُسْطُول الـمَجُوس ببَحْر الغَرْب(٣) بقُربٍ من هذا المكان، واضطرابَ أهل ذلك الساحل كلِّه لذلك؛ لتقدُّم عادتهم بطُروق الأندلس من قَبْلِه فيما سلف، وكانوا في ثمانية وعشرين مَرْكبًا، ثمَّ ترادفت الكُتُب من تلك(٤) السواحل بأخبارهم، وأنَّهم قد أضرُّوا بها، ووصلوا إلى بَسِيطِ أُشْبُونة. فخرج إليهم المسلمون، ودارت بَيْنَهم حربٌ شديدة(٥)، استُشْهِد فيها من المسلمين وقُتِل فيها من الكافرين. وخرجت أُسْطُولُ إشْبيلِيَة، فاقتحموا عليهم بِوَادي شِلْب، وحطموا عِدّةً من مراكبهم، واستنقَذُوا مَن كان فيها من المسلمين، وقتلوا جُملةً من الـمُشْرِكين، وانهزموا إثْرَ ذلك خاسرين. ولم تزل أخبارُ الـمَجوس تَصِلَ إلى قُرْطُبة في كلِّ وقت من ساحِل الغَرْب، إلى أن صرفهم الله تعالى.

وفيها: أغزى الـحَكَمُ القائدَ غالِبًا، ففتح الله له في الـمُشْرِكين، وانصرف سالـمًا غانمًا.

وفيها: أمر الـحَكَم لابن فُطَيْس بإقامة الأُسْطُول بنَهْر قُرْطُبة، واتِّخاذ الـمَرَاكِب فيها على هَيْئة مَرَاكِب الـمَجُوس، تأميلًا لرُكوبهم إليها.

وفي سنة ست وخمسين وثلاث مئة: عَهِدَ الخليفةُ الـحَكَم بمُخاطبة العُمَّال بِكُوَر الأنْدَلُس، يُعنِّفهم على جُرْأتهم ويُـحذِّرهم من سَطْوَته وعقوبته؛ إذ اتَّصل به

---

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٠٩.

(٢) ينظر عن قصر أبي دانس الروض المعطار ٤٧٥.

(٣) في ر٢: «المغرب».

(٤) في ر٢: «ملك».

(٥) سقطت من أ.

أنَّ بعضَهم قد استزادوا زياداتٍ فاحِشات يُعامِلون بها الرعيَّةَ[١] ظُلْمًا لهم، فأنكر ذلك عليهم.

وفيها: كانت غَزَواتٌ للمسلمين انجلَتْ عن هزائم الـمُشركين.

وفيها: ولَّى أميرُ المؤمنين[٢] الـحَكَمُ محمَّدَ[٣] بن عبد الله بن أبي عامِر الذي رأس بَعْدُ وتلقَّب بالمنصور[٤]، وكالةَ أبي الوليد هِشام بن الـحَكَم، وفوَّض إليه في جميع شؤونه؛ فتحرَّكت حاله في الدولة.

وفي النصف من شوَّال: قعد الخليفةُ الـحَكَم على السرير بالزَّهْراء قُعودًا بهيًّا احتفل فيه، وأوصلَ إلى نفسه رسولَيْن وصَلا من أُمراء الغَرْب الأدارِسة، فأوْصلا كِتابَهم، يذكرون أنَّهم على محبَّةٍ صادقة ومَوَدَّة مُسْتَحْكمة مع التِزامهم للطاعة واعتِقادهم للولاية، فأدنى رسولَيْهم، وألطف جوابَها.

وفي يوم الـجُمعة لأربع بقين من شوَّال[٥]: قُرِئ كتابُ فَتْحٍ ورد من قِبَل القائد غالِبٍ، يذكر ما هَيَّأ الله له في كَفَرةٍ قَشْتِيلة من القتل والأَسْر؛ فسُرَّ الخليفة بذلك، ودخلت الرؤُوسُ قُرْطُبة.

وفي يوم السبت بعده[٦]: أنفذ الخليفةُ الـحَكَم كتُبَه إلى القُوَّاد والعُـمَّال بأقطار مملكته، بإنكارِ ما اتَّصل به من أنَّ بعضَهم يسفك دماءَ بعضٍ بلا عَهْد ولا مَشُورة، وأنَّ ذلك عَظُمَ عنده، وتبرَّأ إلى الله مـمَّن أقْدَم عليه.

وفيها: أجْرى الماء إلى سِقايات الجامِع والـمِيضَأتَيْن اللَّتَيْن مع جانبَيْه: شَرْقيِّه وغَرْبيِّه، ماءً عذَبًا جلبه من عَيْنٍ بجبل قرطبة، خرق له الأرضَ، وأجراه في قَناةٍ من حَجَر

---

(١) في ر٢: «فاحشات على الرعية».

(٢) «أمير المؤمنين» ليست في ر٢.

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (١٢١)، وبغية الملتمس (٢٤٢)، والمعجب ٧٢، والحلة السيراء ١/ ٢٦٨، وتاريخ الإسلام ٨/ ٧٣١، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٥، والوافي للصفدي ٣/ ٣١٢ وغيرها.

(٤) قوله: «الذي رأس بعد وتلقب بالمنصور» ليس في ر٢.

(٥) في ر٢ بدل هذه العبارة: «وفيها».

(٦) في ر٢: «وبعد ذلك».

مُتْقَنِة البناء، مُحْكَمة الهندسة، أَوْدَع جَوْفَها أنابيبَ الرَّصاص؛ لتحفظه[١] من كلِّ دَنَس. وابْتُدِئ جَرْيُ الماء من يوم الـجُمعة لعشرٍ خَلَوْنَ لصَفَر من السنة. وفي جَرْي الماء إلى قُرطبة يقول محمَّد بن شُخَيْص[٢] في قصيدة له، منها [من البسيط]:

وقَدْ خَرَقْتَ بُطُونَ الأرضِ عن نُطَفٍ ... من أعْذَبِ الماءِ نحْوَ البَيْت تُـجْرِيها

طُهْـرٌ الجُـسومِ إذا زالـت طهارتُهـا ... رَيُّ القُلـوب إذا حَـرَّتْ صَـوَادِيها

قَرَنْـتَ فَخْـراً بِـأجْرٍ قَلَّـما اقْـتَرَنا ... في أُمَّـةٍ أنْـتَ راعِيهـا وحامِيهـا

وابتنى بغربيِّ الجامع دارَ الصَّدَقة، اتَّـخذها[٣] مَعْهدًا لتفريق صَدَقاته[٤]، رحمة الله عليه. ومن مُستحسَنات أفعاله وطيِّبات أعماله[٥]: اتّـخاذُه المؤدِّبين يُعَلِّمون أولادَ الضُّعَفاء والمساكين القُرْآنَ حوالَـي المسجد الجامع وبكلِّ رَبَض من أرباض قُرْطُبة، وأجرى عليهم الـمُرَتَّبات، وعَهِدَ إليهم في الاجتهاد والنُّصْح، ابتغاء وَجْهِ الله العظيم، وعَدَدُ هذه المكاتِب سبعةٌ وعشرون مَكْتَبًا، منها حوالَـي المسجد الجامعِ ثلاثة، وباقيها[٦] في كلِّ رَبَض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول ابن شُخَيْص [من البسيط]:

وسـاحَةُ الـمَسْجِدِ الأعْـلَى مُكَلَّلـةٌ ... مَكاتِبـاً لليَتـامى مِـن نَواحِيهـا

لَـوْ مُكِّنَـتْ سُـوَرُ القُـرْآنِ مِـنْ كَلِـمٍ ... نادَتْـكَ: يـا خَـيْرَ تالِيهـا ووَاعِيهـا

ووُجِد بخطِّ الخليفة الـمُستنصِر بالله: «ابْتُدِئ بُنيان الجامع، صانه الله[٧]، يومَ

---

(١) في ر٢: «لحفظه».

(٢) له ذكر في كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس للكتاني ٥٦، ٥٨، ٨٧، ٢١٤... الخ ومالك الأبصار ٢٤/ ٤٨١، ٤٨٤، والروض المعطار ٥٤٨.

(٣) في ر٢: «استعدها».

(٤) في أ: «الصدقة».

(٥) في ر٢: «ومن محببات أعماله».

(٦) في ر٢: «وباقيهم».

(٧) «صانه الله» ليست في أ.

الأحد لأربع خلَوْنَ من جُمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وثلاث مئة، وكَمُلَ سنة خمس وخمسين وثلاث مئة. وبلغت النَّفَقة فيه إلى مئتي ألف وأحدٍ وستِّين ألفًا وخمس مئة وسبعة وثلاثين دينارًا ودِرْهَم ونِصْف». (وقع «ونصف» في الأصل المنقول منه هذا، وقال: إنَّه نقله مُنْدَرِسًا، ثمَّ إنَّه تعرَّف بعد ذلك صِحَّتَه من الثِّقات أنَّه «ونِصْف» صحيح، وكذلك قال وقَعَ بخطِّ الحَكَم، رحمه الله).

وفي سنة سبع وخمسين وثلاث مئة، في العَشْر الآخِر من رمضان: احتلَّ الوزيرانِ القائدان غالبُ[1] بن عبد الرحمن وسعيدُ بن الحَكَم الجَعْفَريُّ بجيوش الثَّغْر بالصائفة على حِصْن قَلَهُرَّة[2]، فأقاما بساحته مُدَّةً استظهرا بها على تمكين بُنيان الحِزام فيه والزيادةِ في ارتفاع البُرْج الثامن بذِرْوته، فانْتَهَيا من ذلك إلى الإدارة، وقفلا بالعسكر، وقد وثِقا للحصن بالأمَنَة.

وفي سنة ستين وثلاث مئة، في محرَّم منها: قعد الخليفةُ[3] المُستنصر بالله على السرير بقَصْر قُرْطُبة على جَرْي العادة من الاحتفال والزِّينة، فأوصل إلى نفسه عيسى بنَ محمَّد ومحمَّد بن العالي وحسنَ بن عليّ رُسلَ بني محمَّدٍ الحسنيِّين أُمراء الغَرْب، فأوصلوا كتابَ مُرْسِلهم، وذكروا ما هم عليه من الطاعة، وطلبوا بَعْثَهُ رُمَاةً؛ تقويةً لهم لِما يتوقَّعونه من حَرَكةِ قائد مَعَدٍّ الشيعيِّ نَحْوَهم، وتقرَّبوا بإهداء خَيْلٍ وجِمالٍ وغير ذلك، فقُبِلت منهم.

وفي صدر رمضان منها: وقع الإرجافُ بتحرُّك المَجُوس الأُرْدُمانيِّين، لعنهم الله، وظهورِهم في البحر، ورَوْمِهم سواحِلَ الأنْدَلُس الغَرْبيَّة على عادتهم؛ فأزعج السلطانُ قائدَ البَحْر بالخروج إلى المَرِيَّة، والتأهُّبِ لركوب الأُسْطول منها إلى إشبيلية، وجَمْعِ الأساطِيل كلِّها للركوب إلى ناحية الغَرْب[4].

---

(١) ينظر المقتبس ٢١ (ط. الحجي)، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٠٣.

(٢) معجم البلدان ٤/ ٣٩٣.

(٣) في ر٢: «الحكم».

(٤) المقتبس ٢٣-٢٤ (ط. الحجي).

ذِكْرُ مَقْتَل زِيرِي بن مَنَاد، قائدِ الشيعيِّ على تِيهرت

وفي يوم السبت، لاثنتَيْ عشرة ليلة بقيتْ لشهر رمضان منها: ورد الـخَبرُ على الـمُستنصِر بالله بقَتْلِ زِيري بنِ مَنَاد عامِل مَعَدٍّ الشيعيِّ وقائده على الغَرْب، قَتَلَهُ جعفرٌ ويحيى ابنا عليٍّ المعروفِ بابن الأنْدَلُسيِّ، المخالفانِ على مَعَدٍّ فيمن استظهرا به عليه من زَناتة، وجَدُوه بناحية الغَرْب في حربٍ دارت بينهم شَهِدَها بنو خَزَر وغيرُهم من رؤساء القبائل[1] القائمين على زِيري بدعوة الـحَكَم المستنصر بالله، ففُتِحَ لهم في قَتْلِه أعْظَمُ الفتوح. ووصل عليٌّ البَغْدادِيُّ كاتِبُ جعفرٍ المذكور بكتابه إلى الـمُستَنْصِر بالله، وذكر اهتياجَ الحربِ العظيم بين أهل الدَّعوتَيْن بالغَرْب[2].

ذِكْرُ فراق جَعْفَر[3] بن عليٍّ المعروف بابن الأنْدَلُسيِّ صاحبِ الـمَسيلة لـمَعَدِّ ابن إسماعيل الشيعيِّ[4] صاحب إفرِيقيَة

وتَقَرُّبه إلى الـحَكَم الـمُستنصِرِ بانضمامه إلى زَناتةَ الـمُنحاشين إلى دَعْوة بني أُميَّة، وتألُّبِ جماعتهم على زِيري بن مَنَاد الصُّنْهاجيّ عامِلِ مَعَدٍّ الشيعيِّ[5] على حَرْبِ بلاد الغَرْب وقَتْلِهم لزِيري عند انقضاضه عليهم صاداً لهم عن طريقهم، مُتَقَرِّبين بقَتْله إلى الـحَكَم، وسَبَقَ جعفر ويحيى أخوه وذَوُوهما بالعُبور إلى الأنْدَلُس مُهْدِيَيْن[6] رأسَ زِيري، خالعَيْن للدعوة الشيعيَّة، مُتَقَلِّدَين للدعوة الأُمَويَّة الـجَماعِيَّة. فكان لهما في ذلك قَبولٌ ورِفْعةٌ عظيمةٌ من[7] الخليفة[8].

---

(١) في المقتبس: «البرابر».

(٢) المقتبس ٢٦-٢٧ (ط. الحجي).

(٣) ينظر الوافي للصفدي ١١/ ١١٦.

(٤) في ر٢: «العبيدي».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «مقدمين».

(٧) في ر٢: «عند».

(٨) المقتبس لابن حيان ٣٢ (ط. الحجي).

وقد ذكر محمَّدُ بن يوسف الوَرَّاق خَبَرهما؛ قال: وهما ابنا عليٍّ[1] بن حَمْدُون، وجَدُّهما الأكبر عبدُ الحميد كان[2] الداخلَ إلى الأندلس من الشام، ونزل بكُورة إلْبيرة، ثمَّ تنقَّل حفيدُه حَمْدُون، جدُّ جعفر هذا، إلى بِجَاية، وصحب أبا عبد الله الشيعيَّ[3] الداعِيَ، ودخل في مَذْهَبه. فلمَّا تغلَّب الشيعيُّ على إفريقِيَة، ظهر عليُّ بن حَمْدُون، ثمَّ ازداد ظهورًا في أيَّام عُبَيْد الله المَهْدِيّ وحُظْوةً، وضمَّه إلى ابنه أبي القاسم ولِيِّ عهده؛ فازداد حُظْوةً لدَيْه، وخرج معه إلى أرض الغَرْب، فأمَرَه ببناء مدينة المَسِيلة، وولّاه عليها، فبقيَ بها إلى أن هَلَكَ في فتنة أبي يَزِيد؛ سقط من جُرف عالٍ، فاندقَّت يداه ورِجلاه، سنةَ أربع وثلاثين وثلاث مئة. وتولَّى جَعْفرٌ ابنُه هذا المَسِيلةَ مِن بعده، فلم يزل متولِّيًا لها، رفيعَ المنزلة عند سُلطانه، إلى أن قَتَلَ محمَّدَ بن الخَيْر بن خَزَر الزَّناتيَّ القائمَ بدعوة بني أُميَّة بالغرب[4] زيرِي بنُ مَناد، فخاف جعفرٌ من صاحِب إفْرِيقِيَة، فبادَرَ إلى الفِرار بنفسه مع أخيه يحيى وجميع أهله وماله سنة ستين وثلاث مئة، فصار عند بني خَزَر أُمراء زَنَاتة، فشقَّ جَعفرٌ الصحراء معهم قاصدين لِزيرِي بن مناد[5]، فالتقَوْا معه، ودارت بينهم حربٌ صعبةٌ انجلَتْ عن قَتْل زيري وخَلْقٍ من رجاله، واحتوى الزَّناتيُّون فيها على جميع عسكر زِيرِي، وأدركوا ثأرَهم منهم[6]. ولـمَّا أنْ تمَّ الأمرُ لأُمراء زَنَاتة وجعفرِ بن عليّ على ما أمَّلوه من الفَتْح في عدوِّهم زيري بن مَنَاد، بادَرَ جعفرٌ بمُراسلة الحَكَم إلى الأندلُس، مُلْقِيًا بنفسه عليه، مُعتصِمًا بدعوته، ثمَّ أرسل إليه أخاه يحيى، ثمَّ سار إليه بنفسه، فحَظِيَ عنده.

قال ابن حَمَادُه: وفي ربيع الآخر من سنة ستين وثلاث مئة: التقى يوسفُ بن زيري[7]

(١) له ذكر في معجم البلدان ٥/ ٦٥، ومسالك البكري ٢/ ٧٢٢، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٥١.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) «بن مناد» من ر٢.

(٦) تنظر التفاصيل في المقتبس لابن حيان ٣٣-٣٦ (ط. الحجي).

(٧) قفز نظر ناسخ ر٢ من «زيري» هذه إلى «زيري» الآتية بعد سطر فاختل النص.

الصُّنهاجِيُّ، الـمُشْتَهر اسْمُه بِبُلُقِّين، مع محمَّد بن الـخَيْر أمير زَناتة، فهزمه بُلُقِّين بن زِيري، وقتل جماعةً من أهله ورجاله. فلمَّا أيقن محمَّدُ بن الـخَيْر أن عدوَّه قد أحاط به، اتَّكأ على سَيْفه، فذبح به نَفْسَه، أَنَفَةً مِن أن يملكه بُلُقِّين، فأتى بأمر عظيم سار[1] ذِكْرُه بأرض الغَرْب[2]. وملك بُلُقِّين بن زِيري إثْرَ ذلك الغَرْبَ، وقتل زَناتةَ، وهدم مدينةَ البَصْرة وغيرَها من مُدُن الغَرْب[3]، ولم يَثْنِ عِنانًا عن مدينة سَبْتة، ومنها رجع، وإليها كان انْتِهاؤه، وصدر عاجِزًا عنها.

وفي ذي القَعْدة منها: خاطب الـمُستنصِرُ بالله قُوَّادَه وعُمَّاله بكُوَر الأندلُس في استقدام كِبارها وأعلام رجالها لـمُشاهدة دخولِ يحيى بن عليٍّ بن حَمْدون وبني خَزَر أُمَراء زناتة القادمين برأس زيري بن مَنَاد الصُّنهاجيِّ قائدِ مَعَدِّ بن إسماعيل الشيعيِّ وبرؤُوس أعيان أصحابه[4]. فلمَّا كان يومُ الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة[5] خَلَتْ من ذي القعدة منها، خرج صاحبُ السِّكَّة والمواريث، وقاضي إشبيلية محمَّدُ بن أبي عامر لتَلَقِّي جعفرِ بن عليٍّ ويحيى أخيه، ومعه أربعةٌ من عِتاق الـخَيْل وبَغْلٌ أشْهَب، مُنْتَقاةٌ من دوابِّ الخليفة، بسُروجِ الخلافة ولُـجُمها، ومعه الأَخْبِيَةُ الديباجيَّة وغير ذلك. فاحتلَّ ابنُ أبي عامر بالـمَرْسَى الذي خرج فيه جَعْفَر بمقربةٍ من مالَقة. ثمَّ وصل بعد ذلك للوافدين خَيْلٌ وبِغالٌ من قِبَل الخليفة، وهوادِج وكسوات وعَمَّـاريَّات لعِيال جَعْفر، ثمَّ قدموا إلى قُرطبة ببُروز عظيم، واحتفالٍ لدخولهم جسيم، حتَّى وصلا الخليفة[6].

وقد ذكرتِ الشعراءُ شأنَ فِراق جعفر وأخيه يحيى لسُلطانِـهما مَعَدِّ بن إسماعيل

(١) في ر٢: «طار».

(٢) المقتبس ٣٨ (ط. الحجي).

(٣) قوله: «وغيرها من مدن الغرب» ليس في أ.

(٤) في ر٢: «برأس زيري بن مناد ورؤوس أصحابه».

(٥) ليست في ر٢.

(٦) تنظر التفاصيل في المقتبس لابن حيان ٣٣-٣٦ (ط. الحجي).

ومَسيرِهما إلى الخليفة الـحَكَم، واعترافِهما بحقِّه فيما مَدَحَتْ به الخليفةَ الـحَكَم وأكثرتْ في ذلك. وقال يوسفُ بن هارون [من الكامل]:

ولَقَـدْ عَجِبْـتُ لِغَفْلَـةِ الـمُستنـصِرِ إذْ أكْتَـفَ الـجَيْشَ اللُّهَـامَ لِـجعْفَرِ

ولَـوَ انَّ مَـنْ أهْـواهُ أبْـرَزَ وَجْهَـهُ قامَـتْ لَواحِظُـهُ مَقـامَ العَـسْكرِ

وفي يوم السبت لليلتَيْن من ذي القَعْدة منها: جلس الخليفةُ الـحَكَم فوق السرير جلوسًا بهيًّا، وأوصل إلى نفسه أجنادَ الكُوَر ووجُوهَ أهلها الذين استدعاهم لـمُشاهدة دخول[1] جعفرِ بن عليٍّ ومَن أتى معه من أُمراء زَناتة، وأمَرَهم بالانصراف إلى بلادهم، فانصرف جُنْدُ دِمَشْق، وهُم أهل إلْبيرة، وجند حِمْص، وهُمْ أهْل كُورة إشْبيلية، وجُنْدُ قِنَّسْرين، وهُم أهل جَيَّان، وجُنْدُ فِلَسْطِين، وهُم أهل شَذُونة، وغير هؤلاء[2].

وفي سنة إحدى وستين وثلاث مئة: هاجت بالغَرْب حروبٌ مع حَسَنِ بن قَنُّون الحسنيِّ وقُوَّادِ الـحَكَم الـمُستنصِر بالله.

بعضُ أخبار حَسَن بن قَنُّون الحسنيِّ أمير الغَرْب مع قُوَّاد الأنْدَلُس في هذه السنة

كان المستنصرُ بالله دعا محمَّدَ بن قاسم الناظر في الـحَشَم، وأمَرَهُ بالخروج إلى مدينة[3] سَبْتة في رمضان من هذه[4] السنة، قائدًا على مَن يضمُّه إليه من طوائف الأجناد، للذي بدا من نَقْض حَسَنِ بن قنُّون، وانحرافِهِ إلى دعوة مَعَدٍّ صاحب إفْريقية واستدعائه مَن دَنا منه مِن أحزابه، مُستعينًا بهم فيما اعتزم عليه من نِفاقِه على الـحَكَم، وإعلانه بإيقاع الدُّعاء للشيعيِّ مَعَدٍّ[5] على منابِر عَمَلِه،

(١) من ر٢.

(٢) المقتبس ٣٨ (ط. الحجي).

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «وإعلانه بالدعاء لمعد المذكور».

فأوصى الـحَكَمُ قائدَه محمَّد بن قاسم باستعماله جِدَّه وجُهْده في مُغاورة[1] ابن قَنُّون، وأمَرَه، إنْ أظهره اللهُ تعالى، أنْ يأخذَ بالعَفْو والصَّفْح، وإصلاح البلاد، واستصلاح الرعيَّة، وأمرَهُ أن يستعينَ بمن دخلَ في الطاعة الأُمَويَّة. فكان عُبُورُه البَحْرَ إلى سَبْتة لإحدى عشرة بقيتْ من شوَّال منها، وتكاملت الجيوشُ والأساطيل بسَبْتة[2].

وفي يوم السبت لأربع خَلَوْنَ من ذي القَعْدة[3]: وَرَدَ كتابٌ على الـمُستنصر بالله بفَتْح طَنْجة، فتحها قائدُه على البحر عبدُ الله[4] بن رُمَاحِس[5]، يذكر أنَّه نازلَـها بالأُسْطُول غُرَّةَ ذي قَعْدة، ودعا أهلَها إلى الطاعة والعَوْد إلى الجماعة[6]، فأسَاؤُوا الردَّ عليه، وكان حَسَنُ بنُ قَنُّون داخِلَها يَشُدُّ عزائمَهم، فلمَّا كان يوم الخميس، خرج حَسَنٌ لقتال العسكر الخارج إليه من سَبْتة إلى تِطَّاوِن[7]، وأبرز من طَنْجة عَدَدًا كبيرًا من جُنده الغَرْبيِّين وأنصاره، فانهزموا أمام جيش الـحَكَم، وولَّوا مُدْبِرين، فلمَّا رأى ذلك حَسَن، فرَّ هاربًا[8] في خاصَّة من أصحابه، لا يلوي على أحد، ولم يُعرِّج على ما كان له ولأصحابه بطَنْجة من أموالٍ وأخْبية وأمتعه، فلمَّا أمعنَ في فِراره، وأسلم أهلَ طَنْجة، خرجَ شيخُهم ابن الفاضِل إلى القائد ابنِ رُماحِس[9] مع جماعةِ وجوه طَنْجة، وهم يُنادون: «الطاعةُ لله ولأمير المؤمنين الـحَكَم»، ثمَّ تقدَّم ابنُ الفاضِل إلى القائد

---

(١) في ر٢: «بأن يعمل جده وجهده في محاربة».

(٢) المقتبس لابن حيان ٧٩-٨٠ (ط. الحجي).

(٣) في ر٢: «وفي ذي القعدة».

(٤) في طبعة الحجي من المقتبس ٨٩: «عبد الرحمن»ز

(٥) في ر٢: «رياحين»، محرف.

(٦) «والعود للجماعة» ليست في ر٢.

(٧) «إلى تطوان» ليست في ر٢.

(٨) في ر٢: «وفر حسن هاربًا» بدلًا من «فلما رأى ذلك حسن فر هاربًا».

(٩) في ر٢: «رياحين».

رُماحِس[1] وطلب منه الأمانَ لأهل بلده، فأعطاه إيَّاه، ودخل طَنْجة، ونهبَ ما كان بها لـحَسَن بن قَنُّون وأصحابه، وأنفذ القائدُ كتابَه بالفَتْح إلى الخليفة[2].

وورد كتابُ القائد محمَّد بن قاسم على الـمُستنصِر بالله لتسع بقين من ذي القَعْدة، يذكر أنَّه التقى مع حَسَن بن قَنُّون، فدارت بينهما حَرْب شديدة، أجْلَتْ عن هزيمته، وقَتْلِ كثير من شيعته، وفرَّ فيمن بقي معه إلى جَبَلٍ حَصِين، فتَبِعَه الجندُ، وانقضُّوا عليه، فدارت بينهم حَرْب يسيرة، ثمَّ انهزم أيضًا، وخلَّف أثقاله، وفرَّ لا يَلْوي على شيء، فصار الـجَبَلُ بأيدي الـجُند، ونهبوا ما فيه، ثمَّ نهضوا في اليوم الثاني إلى مدينة دَلُول[3]، ففتحها اللهُ لهم. ولحق بهم القائدُ محمَّد بن قاسم في العسكر، فقصد مدينة آصِيلَا، فدخلها، ودخل القائدُ إلى جامِعِها، فوجد فيه مِنْبرًا جديدًا موسومًا باسْمِ الشيعيِّ مَعَدِّ بن إسماعيل، فأمر بإحراقه بالنار، بعد أن خَلَعَ من أعلاه اللوحَ المنقوش فيه اسم مَعَدٍّ، وكان فيه من الغُلُوِّ ما في ذِكْره أمْرٌ كبير، فأمر باقتلاعه، وأرْسَلَه مع كتاب الفَتْح إلى الـمُستنصِر بالله. وانصرف العسكرُ إلى مدينة دَلُول، فأمر بهدمِ أسوارها، وتضريمِ[4] بيوتها نارًا، وتَرْكِها[5] عِبْرةً. واستولى العسكرُ على جميع[6] ما كان بها، واستوسعوا في أطْعِمَتِها وما ترك فيها حَسَنٌ المذكور[7].

وفي سنة اثنتين وستين وثلاث مئة: قُتِلَ القائدُ محمَّد بن قاسم بفَحْص مِهْرَان على يدَيْ حسَن بن قَنُّون، يومَ الأحد[8] لسبعٍ بقين من ربيع الأوَّل، وقُتل في ذلك

---

(١) ليس في ر٢.

(٢) المقتبس لابن حيان ٨٩ (ط. الحجي).

(٣) هكذا في النسختين، وفي معجم البلدان ٣/ ١٤٦: «زلول» بالزاي في أوله.

(٤) في ر٢: «وضَرَّم».

(٥) في ر٢: «وتَرَكَها».

(٦) من ر٢.

(٧) المقتبس ٩٠-٩١ (ط. الحجي).

(٨) «يوم الأحد» ليست في ر٢.

اليوم جملةٌ من الـجُند الذين كانوا معه نحو الخمس مئة من الفُرسان[١] الأندلسيِّين الأنجاد[٢]، ومن رجَّالتِهم نحو الألف.

وفي غُرَّة جُمادى الآخرة: دخل إلى قُرْطُبة جَمْعٌ من مَصْمودة ممَّن كان مع حَسَن بن قَنُّون، وهم سبعون رَجُلًا، نَزَعوا إلى الطاعة[٣].

وفيها: استدعى الـمُستنصِرُ بالله غالِبَ بن عبد الرحمن، وأمره بحَرْب حَسَن ابن قَنُّون الـحَسَنيِّ عندما تَفَاقَم أمرُه، وقَتَلَ الـجُند. وورد على الـمُستنصر بالله كتابُ فَتْحٍ من قِبَل القُوَّاد بمدينة آصِيلَا، أنَّهم التقَوْا مع حَسَنِ بن قَنُّون، فدارت بينهم حَرْبٌ شديدة انهزم فيها حَسَنٌ، وقُتل كثيرٌ من حُماته[٤].

وقَدِمَ إلى قُرْطُبة رسولُ[٥] حنونِ بن إدريسَ صاحبِ مدينة العُدْوة الأنْدَلُسيَّة من فاس، ورَسولُ عبد الكريم صاحِبِ مدينة القَرَوِيِّين من فاس، يرغبان في طاعة أمير المؤمنين الـمُستنصر، والقيامِ بدعوته، فكرَّم رسولَـيهما، وأجمل موعودهما[٦].

وفي شعبان منها: خوطبَ القائدُ غالبٌ بأنَّه بُعِثَ إليه بعشرة آلاف دينار لِصِلات الخارجين إليه من أصحاب حَسَن بن قَنُّون، يُوَزِّعها عليهم بحسب مقاديرهم، وقُرِنَ بها من فاخِرِ الكُسوة والسيوف الـمُحَلَّاة عَدَدٌ كبيرٌ للخَلْع عليهم[٧].

وفيها: أرسل الـمُستنصِرُ بالله الوزيرَ يحيى بن محمَّد التُّجِيبيَّ إلى الغَرْب بعَسْكر، مَدَدًا للقائد غالب، وجامعًا لليدِ معه على الخالع للطاعة حَسَنِ بن قَنُّون، فكان ذلك في خَبَر طويل[٨].

---

(١) في ر٢: «الفرسان الأبطال».

(٢) هذه اللفظة ليست في ر٢، وكان قد استعاض عنها قبل ذلك بلفظة الأبطال.

(٣) المقتبس ٩٦ (ط. الحجي).

(٤) المقتبس ١٠٢-١٠٣ (ط. الحجي).

(٥) سقط من م.

(٦) المقتبس ١٠٣ (ط. الحجي).

(٧) المصدر نفسه ١٠٨.

(٨) المصدر نفسه ١٢٨.

وفي أواخر ذي القعدة: ورد على الـمُستنصِر كتابُ القائدِ غالبٍ يَذْكُر صُنْعَ الله تعالى في افتتاحِه حِصْنَ الكَوْم[1]، وهَرَبِ المخذول عنه حَسَن بن قَنُّون مع صِهْره صاحب مدينة[2] البَصْرة [و][3] عليِّ بن خَلُوف وغيرِهما.

وفي منتصف ذي الـحِجَّة: ورد كتابُ صاحب الشُّرْطة[4]، قاضي القُضاة بالغَرْب محمَّدِ بن أبي عامر، يذكرُ تَعْيِيدَ الناس يومَ الخميس، وقيامَ الخطبة في الـمُصَلِّيات هنالك للمُستنصِر بالله، وسرورَ المسلمين بذلك، وابتهاجَهم به[5].

وفيها: كانت حروبٌ مع الـحَسَنِيِّين يطول ذِكْرُها، انْجَلَتْ عن مَقْتَل خَلْق كثير[6] من أصحاب حَسَنِ بن قَنُّون الـحَسَنيِّ، وحُزَّ مِنْ رؤُوس مشاهيرهم مئةُ رأس، وتُرِكَ أَكْثَرُهم صريعًا. وقُتِل في الهزيمة محمَّدُ بن أبي العَيْش الكُتاميّ[7]، وكان من حَسَنٍ محلَّ أخيه تارةً ومحلَّ أبيه تارةً أُخرى[8].

وفي سنة ثلاث وستين وثلاث مئة: افتتح غالِبٌ، قائدُ الـحَكَم الـمُستنصر بالله، مدينةَ البَصْرة التي كان انتزى فيها محمَّدُ بن حَنُّون الـحَسَنّي؛ وذلك أنَّ أهل البلد قاموا عليه، وقتلوا نائبَه وخليفته عليهم، وابتدروا لمخاطبة القائدِ غالب، يَستجلبونه إليهم، فوصلهم، وملك المدينة، وخاطب الخليفةَ بخَبَرِها، وأدرج كتابَ أهلها طَيَّ كتابه[9].

---

(١) ينظر المسالك للبكري ٢/ ٨١١.

(٢) من ر٢.

(٣) لا وجود للواو في النسختين، ولا يستقيم النص إلا بها، فإن علي بن خلوف ليس هو صهر حسن بن قنون، قال ابن حيان: «وهرب المخذول عنه حسن بن قنون مع صهره محمد بن حنون صاحب البصرة وعلي بن خلوف» (المقتبس ١٣٤ من ط. الحجي).

(٤) «صاحب الشرطة» ليست في ر١.

(٥) المقتبس ١٣٤ (ط. الحجي).

(٦) في ر٢: «عظيم».

(٧) في أ: «الكتاني»، محرف.

(٨) المقتبس ١٣٩-١٤١ (ط. الحجي)، وفيه تفصيل.

(٩) المقتبس ١٤١-١٤٤ (ط. الحجي).

وفي يوم الخميس منتصف صَفَر: ورد كتابُ غالبٍ على الـمُستنصِر، يذكر مُنْصرَفه عن بلد البصرة وأخْذَه رَهْنَهم، ويذكر أنَّه قد صار إلى الطاعة جميعُ أهل الغَرْب وعامَّةُ قبائل البَرْبَر، ولم يَبْقَ فيه غيرُ الخائن حَسَنِ بن قَنُّون، وأنَّه قد صار من ضيق أمره في غُمَّة. ووصل أَهْلُ البَصْرة إلى قُرْطُبة الدافعين لأميرهم حَسَن، الداخلين في الطاعة[١].

وفيها: ورد الـخَبَر السارُّ على الـمُستنصر بالله بإذعان الـحَسَن بن قَنُّون الـحَسَنيِّ، ودخولِه في طاعته، فشَهِد الخليفةُ[٢] صلاةَ الجمعة مُنسلخَ جُمادى الآخرة، فقعد بجامع قرطبة[٣]، وأعلم الوزراء بخضوع حَسَنِ بن قَنُّون المنتزي عليه بالغَرْب، وأنَّه ورد عليه كتابُ غالبٍ بذلك، وأنَّه يُوَجِّه إليه ابنَه عليَّ بن حَسَن المذكور، وأنَّ الـخُطْبة قامت بدعوته في قَلْعة حَجَر النَّسْر، فاستبشر الوزراء وهنَّؤوه، وغبَّطوه وأعلنوا بالشُّكْر لله تعالى والدعاء للخليفة، وأطالوا في ذلك[٤].

وفي سنة أربع وستين وثلاث مئة: قَدِمَ على الـمُستنصِر قائدُه غالبُ بن عبد الرحمن قافلًا من عُدْوة الغَرْب، ومعه حَسَن[٥] بن قَنُّون وشيعتُه بنو إدْريس الـحَسَنيُّون ملوكُ الغَرْب، الـمُستنزَلون من مَعَاقِلهم إلى الأندلُس، حافِّين بشيخهم الـمُشْتَهَر بحَنُّون، واسْمُه أحمدُ بن عيسى، صاحبِ مدينة الأقْلام وما والاها، ومعه إخْوَتُه وبنو عمِّه وبنوهم وأهْلوهم، فأمر باحتمال هؤُلاء الأشرافِ من المحلَّة، في ظلام ليلة الخميس لأربع خلون من المحرَّم[٦]، إلى الدُّور التي أُخْلِيَتْ لهم بقُرْطُبة، فأرسل القَوْمُ معهم ثِقاتِهم من فِتْيانهم ومَوَاليهم، حتَّى أدَّتهم إلى[٧] الدُّور الـمُعَدَّة لهم، بعد أن فُرِشَت مجالسها بشَيْء يطول ذِكْرُه[٨].

---

(١) المقتبس ١٤٥-١٤٦ (ط. الحجي).

(٢) هذه اللفظة ليست في ر٢.

(٣) في ر٢: «بقرطبة» بدلًا من «منسلخ جمادى الآخرة، فقعد بجامع قرطبة».

(٤) المقتبس ١٥٠-١٥١ «ط. الحجي».

(٥) في ر٢: «السلطان حسن».

(٦) «لأربع خلون من المحرم» ليست في ر٢.

(٧) في ر٢: «أدنتهم من».

(٨) المقتبس ١٩٤-١٩٥ (ط. الحجي).

وفيها: كان اعتلالُ الخليفة الـحَكَم، في ربيع الأوّل، واحتجب عن جميع مملكته إلى أن تخفَّف وصَبُه، وظهر لخاصَّته يومَ الجمعة لليلةٍ بقيتْ من ربيع الآخِر منها[١]. وفي عَقِب ربيع المذكور: أعْتَق الـحَكَمُ نحوًا من مئة رقبةٍ من عَبيد له، فيه لبعضهم[٢] تدبيرٌ، ولباقيهم[٣] عِتْقُ بَتْلٍ ومُؤَجَّل، خُلِّصَ به جميعُهم من الرِّقّ، وعُقِدَتْ بذلك وثائق. فكان أوّلَ مَن أوقع شهادتَه فيها أبو الوليد هشام بن الـحَكَم[٤]، ثمَّ الفُقهاء[٥] أهْلُ الشُّورَى، ثمَّ العُدولُ[٦].

وفيها: حبَّس الـحَكَمُ حوانيتَ السَّرَّاجين بقُرْطُبة على الـمُعَلِّمين لأولاد الضُّعَفاء القُرآن[٧].

وفيها: أسقط الـحَكَمُ[٨] سُدُسَ جميع الـمَغارِم عن الرعايا بجميع كُوَر الأنْدَلُس؛ شُكْرًا لله على أنْظاره له[٩].

وفيها: كان جَيَشانُ العدوِّ، خَذَلَه الله، ومُنازَلتُه بعضَ حصون المسلمين.

وفيها: كان الظَّفَر بأبي الأحْوَص مَعْنِ بن عبد العزيز التُّجِيبيِّ[١٠]؛ فقبض عليه رشيق، وبعثه مكبولًا إلى قُرْطبة مع عشرةٍ من أصحابه، وكان يُظاهر المشركين ويَدُلُّـهم على عَوْرات المسلمين، فأخَذَهُ الله[١١].

---

(١) المصدر نفسه ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) في ر٢: «بعضهم».

(٣) في ر٢: «وثانيهم».

(٤) في ر٢: «الخليفة».

(٥) في ر٢: «الفقراء»، وهو تحريف ظاهر.

(٦) المقتبس ٢٠٦ (ط. الحجي).

(٧) هذه اللفظة من ر٢، والخبر في المقتبس ٢٠٧ (ط. الحجي).

(٨) ليست في ر٢.

(٩) المقتبس ٢٠٧ (ط. الحجي).

(١٠) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(١١) المقتبس ٢٢٤-٢٢٥ (ط. الحجي).

وفي سنة خمس وستين وثلاث مئة: خرج من قرطبة جَعْفَر ويحيى، ابنا عليٍّ بن حَمْدُون ابن الأندلُسيِّ، قائدَيْن إلى الغَرْب من العُدْوة[1]، وبين أيديهما الألْوِيةُ والطبولُ مُدِيلَيْنِ[2] للوزير يحيى بن محمَّد بن هاشِم.

وفيها: كان الإعلانُ ببيعة أبي الوليد هشامِ بن الـحَكَم[3]، وأنْ تُؤخَذَ له من الخاصَّة والعامَّة بقرطبة وسائر كُوَر الأندلس، وما إلى طاعته من بلاد الغَرْب، وذِكْرِه في الـخُطْبة على المنابر في الـجُمعة والأعياد، وذلك مستهلَّ جمادى الآخِرة؛ قعد أميرُ المؤمنين الـحَكَمُ بقصره، وافتتح الكلامَ بما عزم عليه من تقليد ابْنِه عَهْدَه الخلافة من بعده، فالتزمت بيعتُه، وأُخْرِجَت نظائرُ من كُتُب البيعة ليُوْقِعَ شهادته كُلُّ مَن التزمها، وتولَّى إعطاءها للناس على مراتبهم المنصورُ محمَّد بن أبي عامر، وهو يومئذٍ صاحبُ الشُّرطة والـمَوَاريث، ومَيْسُورٌ الفَتَى الـجَعْفَريُّ الكاتب.

وفيها: خرج الوزير يحيى بنُ محمَّد بن هاشم قائدًا إلى سرَقُسْطة، وبين يديه الطبول والبنود.

وفيها: نَفَذَ عهدُ الـحَكَم إلى الوزير صاحب المدينة جَعْفر بن عثمان الـمُصْحَفيِّ بإطلاق أبي الأحْوَص التُّجِيبيِّ من سجن الـمُطْبق مع أصحابه، فصفح الـحَكَمُ عنهم.

وفي سنة ست وستين وثلاث مئة: تُوفِّي أبو عليٍّ البَغْداديُّ[4]، صاحب «النوادر»، المعروف بالقاليِّ، منسوبٌ إلى قالِـيْ قَلا: من ديار المشرق.

---

(١) «من العدوة» ليست في ر٢.

(٢) في أ: «مزيلين».

(٣) كان عمره يومئذٍ عشر سنوات، ينظر المختصر لأبي الفدا ٢/ ١١٧.

(٤) هكذا في النسختين، وهو وهم، صوابه سنة ست وخمسين وثلاث مئة، ليلة السبت لسبع خلون من جمادى الأولى، كما في مصادر ترجمته ومنها: طبقات الزبيدي ١٨٨، وتاريخ ابن الفرضي (٢٢١)، ومعجم الأدباء ٢/ ٧٢٩، ومعجم البلدان ٤/ ٣٠٠، وإنباه الرواة ١/ ٢٠٤، ووفيات الأعيان ١/ ٢٢٦، وتاريخ الإسلام ٨/ ٩٦ وغيرها.

وفيها: مات محمدُ بن يحيى النَّحْويُّ[1]، وأبو مروانَ الأديبُ الـمُراديُّ، وعبد الملك[2] بن سعيد، فكانت تُسمَّى سنةَ الأُدَباء.

وكَمُلَ بناءُ المسجد سنة خمس وستين، وكان[3] المنبر الذي صنعه الـحَكَمُ مُدْخَلًا من عُود الصَّنْدَل الأحمر والأصْفَر والأبَنُوسِ والعاج والعُود الـهِنْديِّ، قام على الـحَكَم، رحمه الله، بخمسةٍ وثلاثين ألفَ دينار وسبع مئة دينار وخمسةِ دنانير، وكان تمامُه في خمسة أعوام.

ووُجِد بخطِّ الحكم[4] الـمُستنصِر بالله تاريخُ وفاةِ قاضيه وقاضي أبيه مُنْذِرِ بن سعيد البَلوطيِّ، وأنه تُوفِّي يومَ الخميس لليلتَيْن بقيتا من ذي قعدة من سنة خمس وخمسين، وكان مولدُه سنة ثلاث وسبعين ومئتين؛ فكان عُمُرُه اثنتين وثمانين سنة. وكان في هذا القاضي مُنْذِرٍ دُعابةٌ يُعرِّض بها ويُتَعَرَّض له بها، فكتب إليه قومٌ من أهل الـمَجانة والظَّرْف [من الخفيف]:

قُـلْ لِقـاضي الجماعـة البَلُّـوطيْ: ... مـا تَـرى في خَريـدةٍ كالـخُوطِ
ناكَهـا للشـواب قَـوْمٌ ظِـرافٌ؟ ... هَلْ تَرى سيِّدي بـذا مِـنْ سُقُوطِ؟

فوقَّع لهم في كِتابهم: «لا» مُفْرَدة، فقال له مَن حضر: «ما هذا؟» فقال: «أردتُ: لا أرى ذلك»، فقالوا: «لا يُفْهَم عنك إلَّا غَيْرُه»، فقال: «كُلٌّ يُـجاوبُ على مُعْتَقَدِه». فكان له، رحمه الله، نَوادِرُ مستحسَنةٌ، وغرائبُ مُستملَحةٌ[5].

---

(١) هكذا في النسختين، وهو وهم، صوابه: سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة، كما في طبقات الزبيدي ٣١٠، وتاريخ ابن الفرضي (١٢٩٠) والتعليق عليه.

(٢) هكذا في النسختين، ونظنه وهمًا، فالصواب حذف الواو؛ ذلك أن أبا مروان الأديب المرادي هو عبد الملك بن سعيد، وذكر الكتاني في التشبيهات وفاته سنة ٣٦٦هـ وذكر أن هذه السنة تسمى سنة الأدباء (ص٣١١)، وله ترجمة في جذوة المقتبس للحميدي (٦٣٢)، ويتيمة الدهر للثعالبي ١/ ٣٦٤، وبغية الملتمس (١٠٦٧)، والمغرب لابن سعيد ١/ ٢٣٢، وينظر نفح الطيب ١/ ٣٩٣ و٣/ ١٧٨، ٥٣٧.

(٣) الواو من ر٢.

(٤) من ر٢.

(٥) «وغرائب مستملحة» ليست في ر٢.

ذِكْر اتِّصال محمَّد بن أبي عامر بخِدْمة الحَكَم الـمُستنصِر

قال بعضُ المؤرِّخين: كان اتِّصالُ ابن أبي عامر بالحَكَم، فيما حدَّثني به ابن حُسين الكاتب، والأديبُ أبو إسحاق بن محمد[1] الإفْليليُّ، وغيرُهما من الـمَشيخة: أنّ الحاجب جَعفرَ بن عثمان الـمُصحفيَّ، القائمَ بدولة الحَكَم، خلا في بعض الأيّام بالقاضي محمدِ بن إسحاق بن السَّليم، فشكا إليه ابنُ السليم شَجْوَه بمحمد بن أبي عامر، ووصف له حالَه. فلمّا طلب الحَكَمُ له وكيلًا لولده عبدِ الرحمن الدارج في حياته، ذكر له جعفرٌ ابنَ أبي عامر بخَيْر، ووصف لأمِّ عبد الرحمن جماعةً اختارَتْ منهم ابنَ أبي عامر، وذلك باختيار جعفرٍ له، فنصبه الحَكَمُ لخِدْمتها وخَدْمةِ ابنها عبد الرحمن.

فلمّا مات عبدُ الرحمن، بَقِيَ في خِدْمة أُمِّه السيِّدة صُبْح[2]، وكانت قد وَلَدَتْ هِشامَ بن الحَكَم، فصُرِف ابن أبي عامر لوَكالته. وكان تقدُّمه[3] أولًا لوكالة الوَلَد عبدِ الرحمن يومَ السبت لتسعٍ خَلَون من ربيع الأول سنة ست وخمسين وثلاث مئة، وأجْرَى عليه في ذلك الوقتَ خمسةَ عشر دينارًا في الشهر مُرَتَّبًا بالوازنة[4]. فبدا من نُصْحه وحُسْنِ نَظَره ما عُرِف له، ثم استأثر اللهُ بعبد الرحمن؛ فصُرِفَ إلى وكالة هشام، يومَ الأربعاء لأربع خلون لرمضان سنة تسع وخمسين وثلاث مئة. وكان قد تقدَّم للنظر في أمانة دار السِّكَّة يومَ السبت لثلاث عشرة ليلة خلت لشوال من سنة ست وخمسين. كانت ولايته أولًا للوكالة، وأضاف له الخزانة، ثم قدَّمه على خطَّة المواريث يومَ الخميس لسبع خلون من المحرم سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة. واستقضاه على كُورة إشبيلية ولَبْلَة وأعمالِـها يومَ الأربعاء لاثنتَيْ عشرة ليلة خلت من ذي الحِجَّة سنة ثمان وخمسين المذكورة.

وفي سنة إحدى وستين وثلاث مئة: قدَّم الخليفة[5] الحَكَمُ الـمُستنصِرُ بالله

---

(١) في ر٢: «بن محمد» ليست في ر٢.

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «مقدمه».

(٤) ليست في ر٢.

(٥) من ر٢.

محمدَ[١] بن أبي عامر على الشُّرطة الوُسْطى في جُمادى الآخِرة، وأهاب به إلى الإعانات بالعُدْوة، فاستصلَحَها واستمال أهلَها، وجعله قاضيَ القضاة بالغرب من العُدْوة، وأمر عُمّالَه وقُوّاده ألا يُنَفِّذوا شيئًا دونَه[٢]، إلّا بمَشورته، ثم أضاف إليه الحَكَمُ النَّظَرَ في الحَشَم، وهو في عِلّته التي مات فيها بالفالِج.

وقيل أيضًا: إن سَبَب ظهوره كان[٣] خِدْمَتَه للسيِّدة صُبْح البَشْكُنشيَّة، أمِّ عبد الرحمن وهشام، فكانت أقْوى أسبابِه في تنقيل الـمُلْك عمّا قليلٍ إليه[٤]؛ فإنه استمال هذه المرأةَ بحُسْن الخِدْمة، ومُوافَقةِ الـمَسَرَّة، وسَعةِ البَذْل في باب الإتْحاف والـمُهاداة، حتى استهواها، وغلب على قلبها، وكانت الغالبة على مَوْلاها، وابنُ أبي عامر يجتهد في برِّها والـمُثابرة على مُلاطَفتها؛ فيُبْدع في ذلك، ويأتيها بأشياءَ لم يُعهَد مِثلُها، حتّى لقد صاغ لها قَصْرًا من فَضّة وقتَ ولايته السِّكَّة[٥]، عَمِلَ فيه مدّةً، وأنفق فيه مالًا جسيمًا، فجاءَ بديعًا، لم تَرَ العيونُ أعْجَب منه، وحُمِلَ ظاهرًا لأعيُن الناس من دار ابن أبي عامر، وشاهَدَ الناسُ منه منظرًا بديعًا، لم تَرَ العُيونُ أعْجَبَ منه[٦]، فتحدَّث الناسُ بشأنه[٧] دَهْرًا، ووقع من قلب المرأة مَوْقِعًا لا شيء فوقه، فتزيَّدتْ في بِرِّه، وتكفَّلَتْ بشأنه، حتَّى تحدَّث الناس بشَغَفها به. وقال الحَكَمُ يومًا لبعض ثقاته: ما الذي استَلْطَف به هذا الفَتَى حُرَمَنا حتى ملك قلوبَهُنَّ، مع اجتماع زُخْرُف الدنيا عندهنَّ، حتى صِرْنَ لا يَصِفْنَ إلا هَداياهُ، ولا يُرْضيهنَّ إلا ما آتاه؟! إنّه لساحِرٌ عليمٌ، أو خادمٌ لبيبٌ! وإنِّي لخائفٌ على ما بيده!

ثم سُعِيَ به إلى الحَكَم، وقيل عنه: إنه قد أسرع في إتْلاف[٨] مال السِّكَّة الموقوف

---

(١) «المستنصر بالله» ليست في ر٢.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ليست في أ، وينظر المعجب ٧٤.

(٥) ليست في أ.

(٦) «لم تر العيون أعجب منه» ليست في ر٢.

(٧) في ر٢: «بشهادته».

(٨) هذه اللفظة ليست في أ.

قِبَله، فأمره الحَكَمُ بإحضاره ليشاهِدَ سلامتَه[1]، فأظهر الإسراعَ إلى ذلك، وقد استهلك جُملةً من الأموال[2]، فألقى نفسه في جَبْرها[3] على الوزيرِ ابن حُدَيْر في إسلافه إياها[4]، وكان صديقًا له، فياسَرَه فيه، وحمل المالَ إليه من وقته فتمَّم به ما قِبَله، وارتفعت الظِّنَّةُ عنه، فأكذب الحَكَمُ ما رُفِعَ[5] إليه عنه، وازداد عَجَبًا به، وأقرَّه على حاله، فردَّ ابنُ أبي عامر المالَ لابن حُدَيْر من حينه، ولَصِقَ بالحَكَم، وصار في عداد كُفاته.

واشتغل قَلْبُ الحَكَم، آخِرَ أيَّامه، بأمر العُدْوة ومن جَرَّده إليها من عساكره لحرب الأدارِسة وغيرِهم، واغتمَّ لِـمَا خرج من يده في ذلك الوجه من الأموال؛ فقلَّد ابنَ أبي عامر قضاء القُضاة بالغَرْب، وجعله عَيْنًا على العسكر، وأوعز إليه في مهمَّاته، فسار ابنُ أبي عامر إلى هنالك، فحُمِدت آثارُه[6]، وصَحِبَ حينئذٍ وجوهَ العسكر[7] وأشياخَ القبائل وملوكهم، فكانت تلك الحركةُ أوّلَ ظهورِه، وبعد رجوعه منها، لم يَزَل يزداد نُبْلًا، ويرتقي مَنزِلةً، وهو مع ذلك كلِّه يغدو إلى دار جعفر بن عُثمان الـمُصْحفيِّ وزير الدولة ويروح، ويختصُّ به، ويدَّعي نصيحتَه[8].

وفي سنة ست وستين وثلاث مئة: تُوفِّي الحَكَمُ الـمُستنصِر بالله بعد اتِّصال عِلَّته، وجعفرُ بن عثمان يُدَبِّر سلطانَه إلى حين وفاته، ليلةَ الأحد لثلاث خلون لرمضان من السنة المؤرَّخة[9].

---

(١) في ر٢: «براءته».

(٢) في ر٢: «كثيرًا منه» بدلًا من: «جملة من الأموال».

(٣) في ر٢: «جبره».

(٤) في ر٢: «إياه».

(٥) في ر٢: «وقع»، وما أثبتناه من ر٢.

(٦) في ر٢: «سيرته».

(٧) في ر٢: «الجند».

(٨) في ر٢: «نصحه».

(٩) ينظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٧٧.

خلافة هشام[١] بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر[٢]
والدولة العامريَّة

نَسَبُه: تقدَّم في خلافة أبيه وجدِّه[٣].

كُنْيَتُه: أبو الوليد.

لَقَبُه: المؤيَّد بالله.

أُمُّه: صُبْح البَشْكُنِشِيّة، أُمُّ وَلَدٍ، وكان سيِّدُها الحَكَمُ يُسمِّيها بجَعْفر، وكانت مُغَنِّيَة[٤] حَظِيَّة عنده، وتُوفِّيت في خلافة ابنها هشام.

بويع له يومَ الاثنين لأربع خلون من صَفَر سنة ست وستين بعَهْدٍ من أبيه، وهو ابنُ إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر[٥]، وخُلع يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة، سنة تسع وتسعين وثلاث مئة؛ فكانت[٦] خلافته الأولى، إلى أن قامت الفتنة: ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعةَ أشهر وعشرة أيّام، وفي الخلافة الثانية: سنتَيْن وعشرة أشهر، الجميع[٧] الذي كَمُلَ له في المرَّتَيْن ستٌّ وثلاثون سنة وشهران وعشرة أيّام.

صِفَتُه: أبيضُ، أشْهَلُ، أعْين، خفيفُ العارضَيْن، لِحْيَتُه إلى الحُمْرة، حَسَنُ الجسم، قصيرُ الساقَيْن، مائلٌ إلى العبادة والانقباض، مُقبِلٌ على تلاوة القرآن ودَرْسِ العلوم، كثيرُ الصدقات على أهل السِّتْر من الضُّعفاء والمساكين.

---

(١) ينظر تاريخ ابن الفرضي ١/ ٣٧، وجذوة المقتبس ٣٧، والمعجب ٧٢، وتاريخ الإسلام ٩/ ٦٦، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٢٧١، ونفح الطيب ١/ ٣٩٦ وغيرها.

(٢) «بن عبد الرحمن الناصر» ليست في ر٢.

(٣) «نسبه: تقدم في ولاية أبيه وجده» ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في كامل ابن الأثير: «ابن عشر سنين» ٨/ ٦٧٧.

(٦) ليست في ر٢.

(٧) ليست في ر٢.

قُضَاتُه: محمَّد بن السَّليم، أَلْفاه قاضيًا لأبيه فأقرَّه على ولايته، ثم أبو بكر بن زَرْب[1]، ثم محمَّد بن يحيى التَّميميُّ، عُرِف بابن بَرْطال[2]، وغَيرُهم.

نَقْشُ خاتَـمِه: «هشام بن الحَكَم، بالله يَعْتَصم».

وتولَّى عَقْدَ الشهادة على الناس في البيعة بين يديه وَكِيلُه وصاحبُ شُرْطَته الوُسْطى والسِّكَّة والمواريث أبو عامر محمَّد بن أبي عامر، بعدما كان قاضيَ الجماعة محمدُ بن إسحاق بن السَّليم يأخذها على مَن شهد المجلس من الأعْمام وأبنائهم والوزراء وطبقاتِ أهل الخِدْمة ورجالات قريش وأعلامِ أهل الحَضْرة.

فلمَّا كان يومُ السبت السادس من جلوس هشام، وهو العاشر لصَفَر سنة ست وستين وثلاث مئة، قلَّد الخليفةُ هشام حِجابتَه وزيرَ أبيه الأَخَصَّ به[3] أبا الحسن جعفرَ بن عثمان الـمُصْحَفيَّ. وفي هذا اليوم: أنهض الخليفةُ هشامٌ محمدَ بن أبي عامر إلى خُطَّة الوزارة، نقله إليها عن شُرْطَته الوُسطى، وأجراه رسيلًا لحاجبه جعفرٍ في تدبير دولته، فمادَّه محمدٌ[4] شأوًا، وجرى إلى غايةٍ برَّز فيها دُونَهُ، سابقًا في الحَلْبة، وتخلَّف جعفرٌ عن مَداه[5].

ومن أخبار جعفر بن عثمان الـمُصْحَفيّ: هو أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نَصْر بن فَوْز بن عبد الله بن كُسَيْلة[6] القَيْسيُّ. وكان لطيفَ المنزلة من الحَكَم الـمُستنصِر بالله، قديمَ الصُّحْبة، قريب الخاصّة، وكان أوَّلُ سبب ذلك تأديبَ والده عثمانَ بن نَصْر للحَكَم في صِباه، واستَخْدَمه في أيّام والده الناصر، واستكتبه، ورقَّاه إلى خُطَّة الشُّرطة الوسطى والنظر في عدَّةٍ من الأعمال والكُوَر. فلمَّا أفضت الخلافة إلى الحَكَم،

---

(١) هو محمد بن يبقى بن زرب (تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٢٦، وجذوة المقتبس (١٧٠)، وترتيب المدارك ٧/ ١١٤، وتاريخ الإسلام ٨/ ٥٢٩ وغيرها.

(٢) تاريخ ابن الفرضي ٢/ ١٣٩، وترتيب المدارك ٦/ ٣٠٧، وتاريخ الإسلام ٨/ ٧٤٣، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٧.

(٣) من ر٢.

(٤) في ر٢: «فمده».

(٥) في ر٢: «هذا».

(٦) ليس في ر٢.

قلَّده، بعد ثلاثة أيام من خلافته، خُطَّةَ الوزارة، وأمضاه على الكتابة الخاصَّة، ثم جمع له الكتابةَ العُلْيا بالخاصَّة، وولَّى ابنَيْه[1] الأعمالَ الكبار.

وكان جعفرُ بن عثمان أحدَ شُعراء الأندلس الـمُحسِنين، المتصرِّفين في أنواع الشِّعْر من المديح والأوصاف والغزَل، غايةً في كلِّ ذلك في الرِّقَّة والإبداع والحُسْن. وقد تقدَّم قولُه مُرْتَجِلًا: «هنيئًا للإمام وللأنام»، وقولُه مُرْتَجلًا: «تطَلَّع البَدْرُ من حجابه»، وغيرُ ذلك.

قال ابنُ بسام: كان جعفرُ بن عثمان رجلًا بلغَ الـمُنتهى، وسُوِّغَ بُرْهةً من دَهْرِه ما اشتهى، دون مَجْدٍ تفرَّع من دَوْحتِه، ولا فَخْرٍ نشأَ بين مَغْداه[2] ورَوْحتِه، فسَمَا دون سابِقة[3]، وارتقى[4] إلى رُتبةٍ لم تكن لبَيْتَتِه[5] مُطابِقة، فلم يزل يستقلُّ ويَضطلع[6]، وينتقل من مَطْلِع إلى مطلع، حتى التاح في أُفق الخلافة، وارتاح إليها بعِطْفها[7] كنَشْوان السُّلافة، وحجب الإمام، وانسكب برأيه ذلك الغَمام، فأدرك بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائلَ والشَّرَك، واقتنى وادَّخر[8]، وأزرى بمن سِواه وسخر. واستعطفه محمد[9] بن أبي عامر، ونَجْمُه غابرٌ لم يَلُحْ، وسِرُّه مكتومٌ لم يَبُحْ، فما أقبل عليه ولا عَطَف، ولا جَنى من رَوْضة[10] دنياه زَهْرةَ أملٍ ولا قَطَف، وأقامَ في تدبير الأندلس، وهو يَجْري من السَّعد في مَيدان رَحْب، ويكرع من العزِّ في مشرب عَذْب.

---

(1) في ر٢: «بنيه».

(2) في ر٢: «مقداره».

(3) في ر٢: «سابقة».

(4) في ر٢: «وارتمى».

(5) في ر٢: «لبنيته».

(6) في ر٢: «ويُضلع».

(7) في ر٢: «إليه معطفها».

(8) في ر٢: «ودخر».

(9) «محمد» ليس في ر٢.

(10) في ر٢: «زهرة».

وكان له أدَبٌ بارع، وخاطِرٌ إلى نَظْم المحاسن مُسارِع، فمن ذلك: ما بعثه عليه إيناسُ دَهْره وإسْعادُه، وقاله حين ألْـهَتْه سَلْمَاهُ وسُعادُه [من الطويل]:

لِعَيْنِـــكِ في قَلبِـــي عَـــليَّ عُيُـــونُ ... وبَـــيْنَ ضُـــلُوعِي للـــشُّجُونِ فُنُـــونُ

لَئِنْ كان جِسْمي مُخْلَقًا في يَدِ الـــهَوَى ... فحُبُّـــكِ غَـــضٌّ في الفُـــؤادِ مَـــصُونُ

وله، وقد أصبح يومًا عاكفًا على حُميَّاه، هاتفًا بإجابة[١] دُنْياه، مرتَشفًا ثُغُورَ الأنس متنسِّما[٢] ريَّاه، والـمُلْكُ يُغازِله بطَرْفٍ عَلِيل، ويُبرم من أُنسه كلَّ نَحِيل، والسَّعْد قد عقد عليه أيَّ إكليل، يَصِفُ لَونَ مُدامِه[٣]، وما يعرف منها دون نِدامِه، فقال [من الكامل]:

صَفْراءُ تَبْرُقُ في الزُّجـاج فـإنْ سَرَتْ ... في الجـسم دبَّـتْ مِثْـلَ صِـلٍّ لادِغِ

عَبَـثَ الزمـانُ بحُـسْنِها فتـستَّرَتْ ... عـن عَيْنـه في ثَـوْبِ نُـورٍ سابِـغِ

خَفِيَـــتْ عـــلى شُرَّابِهـــا فكـــأنَّما ... يَجِـــدُونَ رِيًّـــا في إنـــاءٍ فـــارِغِ

واستمرَّ في حجابته، ومرَّ بين سَمْع الدهر وإجابتِه، والنفوس[٤] العَلِيَّة من تناهي حاله متغيِّرة، وفي تكيُّف[٥] سعده متحيِّرة. ولم يزل لنجاد تلك الخلافة مُعْتَقِلًا، وفي مَطالعها مُنْتَقِلًا، إلى أن تُوفِّي الحَكَم، فانفصم عِقْدُه الـمُحكَم، وانبرت إليه النوائب، وتسدَّدت[٦] له الخطوب بسهامٍ صوائب، واستولى عليه الكَسَل، وأسرعتْ إليه الذوابلُ والأَسَل، وتَعاوَرَه الإدبار، وساوره من المكروه ما فيه اعتبار، وانتقل إلى المنصور ذلك الأمْر، واختصَّ به كما اختصَّ بيزيدَ أخيه الغَمْر، وأنافَ في تلك الخلافة كما

---

(١) في ر٢: «بلذة».

(٢) في ر٢: «متنشقًا».

(٣) في ر٢: «شرابه».

(٤) في ر٢: «ونفوس».

(٥) في ر٢: «تكييف».

(٦) في ر٢: «وتسردت».

شبَّ قبل اليوم عن طَوْقه عَمْرو، فاعتقل بتلك[1] النِّجاد، واستبدَّ به دون أولئكَ الأمجاد، وانبرى إلى الـمُصْحَفيِّ بصَدْرٍ كان قد أوغره، وجدٍّ سامٍ طالما استقصره[2]، فأباده ونكبَه، وسلبَ جاهَه وانتهبه، واقتصَّ من تلك الإساءة، وأغصَّ حَلْقه بكلِّ مساءة، وألهب جوانحَه حَزَنًا، ونهبَ له مُدَّخَرًا ومُختزَنًا، ودمَّر عليه ما كان حاط، وأحاط به من مكروهه ما أحاط، فبقي سنين في مهوى النكبة، وجَوَى تلك الكُربة، ينقله المنصورُ معه في غَزَواته، ويعتقله بين أظفار التضييق أو في لَـهَواته، وهو يستعطفُ ويستميل، فلا يَتحقَّق له رجاءٌ ولا تأميل، إلى أن تكوَّرتْ شَمْسُه، وفاضت بين أنياب المِحَن نَفْسُه، فاغتِيلَ في الـمُطْبَق، ونفذ فيه أمرُ الله وسَبَق.

بعض أخبار المنصور محمد بن أبي عامر في ابتدائه[3]

نَسَبُه: هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبدِ الله بن محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمدِ بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الداخلِ إلى الأندلس مع طارق، وكان له في فتحها أثرٌ جميلٌ، وكان في قومه وَسِيطًا، وقد ذكره محمدُ بن حُسَيْن الشاعر العالم بأخبار الأندلس في بعض أمداحه للمنصور هذا، فقال [من الطويل]:

وكُـلُّ عَـدُوٍّ أنـت تَهْـدِمُ عَرْشَـهُ ... وكُـلُّ فُتُـوحٍ عنـك يُفْـتَحُ بابُهـا
وإنَّك من عبـد الـمَليك الـذي لـه ... حُـلَى فَـتْحِ قَرْطَاجَنَّـةٍ وانْتِهابُهـا
جَبَاهـا أبـو مَـروانَ جَـدُّك قابـضًا ... بكـفٍّ تَليـدٌ طَعْنُهـا وضِرابُهـا
فإنْ سَنَحَتْ في الشِّرْكِ من بَعْدِ فَتحِهِ ... فُتُـوحٌ فمَـصْرُوفٌ إليـك ثَوابُهـا

(١) في ر٢: «بذلك».

(٢) في ر٢: «استنصره».

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (١٢١)، وبغية الملتمس (٢٤٢)، والمعجب ٧٢، والكامل لابن الأثير ٨/ ٦٧٧، والحلة السيراء ١/ ٢٦٨، وتاريخ الإسلام ٨/ ٧٣١، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٥، والوافي بالوفيات ٣/ ٣١٢، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٤٧، ونفح الطيب ١/ ٣٩٦ و٢/ ٢٦٠ وغيرها.

وجدُّه عبدُ الملك هو الذي دخل مع طارقٍ ونزل الجزيرةَ الخضراء لأوّل الفَتْح، فسادَ أهْلَها، وكَثُرَ عَقِبُه فيها، وتكرَّرت فيهم النبَّاهةُ والوجاهة، وجاوَرَ الخلفاءَ منهم بقُرطُبة جماعةٌ أَحَدُهم أبو عامر محمد بن الوليد، الذي عُرِف آلُ عامر طُرًّا به. وساد بعده ولدُه عامر، وتقدَّم عند الخلفاء، ووُلِّيَ الأعمال، ومات بقُرطُبة، وباسمِهِ نَقَشَ محمدٌ السِّكَك، ورَقَمَ الأعلام. وكان عبدُ الله الـمَكْنيُّ بأبي حفص، والدُ محمدٍ المنصور، من أهل الدِّين والزُّهْد في الدنيا والقعودِ عن السلطان، سمع الحديثَ، وأدَّى الفريضة، ومات مُنصرفًا من حَجِّه بمدينة أَطْرَابُلُس المغرب، وأصهر التَّمِيميِّين المعروفين بقُرْطُبة ببني بَرْطال، فنكح بُرَيْهَةَ بنتَ يحيى بن زَكَرِيّا، فولدتْ له أبا عامر المنصور، وأخاه يحيى. وكانت أُمُّ عبد الله، والدِ المنصور، بنتَ الوزير يحيى بنِ إسحاق، وزيرِ الناصر لدين الله وطبيبه.

وكان محمَّدٌ هذا حَسَنَ النشْأة، ظاهر النجابة، تُتفرَّس فيه السِّيادة، سلكَ سبيلَ القُضاة في أَوَّلِيَّته، مُقتفيًا آثار عُمُومته وخؤولته، فطلب الحديثَ في حداثته، وقرأ الأدب، وقيَّد اللُّغاتِ على أبي عليٍّ البغدادِيّ، وعلى أبي بكر بن القُوطِيَّة. وقرأ الحديثَ على أبي بكر بن مُعاوية القُرَشِيِّ[1]، راوية النسائيِّ، وعلى[2] غيرِه من رُؤساء أهل المشرق، وبرع بُروعًا أدناه، مع نوازع سَعْدٍ وبوادِرِ حَظٍّ، من الـحَكَم الـمُستنصِر، فقرَّبه وصرَّفه في مُهِمِّ الأمانات وأصنافها، فاجتهد وبرَّز في كلِّ ما قلَّده، واضطلع بجميع ما حمَّله.

وكان الـحَكَمُ، لشدَّة نظره في الـحَدَثان، يتخيَّل في محمَّد بن أبي عامر أكثرَ الصِّفات[3] الـمُجْتَمِعة إلى النَّسَب والبلدة. وكان يَـجِدُ القائمَ عليهم[4] من الجزيرة الخضراء، أصفرَ الكفَّيْن، فيقول لخاصَّته: «ألَا تَرَوْنَ صُفْرة كفَّيْه؟» فإذا قالوا له: «أَرِحْ نفسك منه» يقول: «لو كانت به شَجَّةٌ، لكانت تَكْمِلَةَ صِفاته». فكان من قَدَرِ الله أنْ حدثَت الشجَّة بمحمَّدٍ بعد موت الـحَكَم بضربةِ غالبِ الناصِرِيِّ له، وبها تـمَّ الأَثَرُ فيه، كما أنَّ الـحَكَمَ قد كان وقف في الأثَر على البُقْعة السعيدة[5] التي بُنِيَتْ فيها

(١) هو المعروف بابن الأحمر، وقد وصلت إلينا روايته للسنن الكبرى للنسائي.

(٢) من ر٢.

(٣) في ر٢: «الصفة».

(٤) من ر٢.

(٥) هذه اللفظة ليست في أ.

الزاهِرة، وكانت ملوكُ المروانيَّة تتخوَّف ذلك، وكان الـمُجْهِرَ[1] بشأنها الخليفةُ[2] الـحَكَم، فنظر في أمرها، وهي البُقْعة المعروفة بألَش، بفتح اللام[3]، وهي بغربِيِّ قُرْطُبة، ووجد انتقالَ الـمُلْك إليها، فأمر حاجِبَه جعفرًا بالسَّبْق إليها والشروع في بنائها؛ طمعًا في مَزيَّة سَعْدها، وأن لا يُـخْرِجَ الأمْرَ عن يد ولده، وأنفق عليها مالًا عظيمًا، فكان من غريب الأُمور أنَّ محمَّد بن أبي عامر تولَّى النظرَ في شأنها مع مَن نظر فيها، وهو يومئذٍ في حال الفُتُوَّة والاحتياج، ولا يُعْلَم يومئذٍ به. فسُبْحانَ مَن يُؤْتي مُلكه مَن يشاءُ.

ثم وَقَع[4] إلى الـحَكَم أنَّ البُقْعة بغير ذلك الموضع، وأنَّها بشرقِيِّ مدينة قُرْطُبة، فأنفذ ثِقَتَه محمَّدَ بن نَصْر بن خالد للوقوف عليها، وانتهى إلى منزل أبي بَدْر المسمَّى بِألُش مضمومة اللام[5]، وأصاب[6] هنالك عجوزًا مُسِنَّةً وافقَتْه[7] على حدِّ الارتياد، وقالت له: «سمعنا قديمًا أنَّ مدينةً تُبْنَى هنا، ويكون على هذا البِئْر نزولُ مَلِكها». فعاد إليه محمَّدُ بن نَصْر بالـجَلِيَّة، فلم تَطُل المدَّة حتى بناها ابنُ أبي عامر، وتَبَوَّأ أرْجاء ذلك البِئْر قَرارةً. وكان المنصورُ على ثِقة[8] من سُرْعة انتقال الـمُلْك إليه، لا يشكُّ في ذلك؛ لأنَّه تمكَّن من مُطالعة ما كان عند الـحَكَم، فوقف على الـجَلِيَّة.

ولم يزل الـحَكَم يُقَدِّم محمَّدًا ويُؤثِره، إلى أن وَلِـيَ العَهْدَ ابنُه هشامٌ، فزاد مقدارُه لخاصَّته بولـيِّ العَهْد ومكانِه من السَّيِّدة والدته، فاحتاجَ الناسُ إليه، وغَشَوْا بابَه، فأنساهم مَن سلف من أصحاب السلطان سعَةَ إسعافٍ، وكَرَمَ لقاء، وسهُولةَ حِجاب، وحُسْنَ أخلاق؛ فعَرُضَ جاهُه، وعُمِرَ بابُه، واتَّسع في بناء داره بالرُّصافة، واتَّـخذ الكُتَّاب الـجِلَّة، واستصحب سَرَاة الصحابة. وكانت مائدتُه موضوعةً لمن

---

(١) في ر٢: «ألهجهم».

(٢) ليست في ر٢.

(٣) «بفتح اللام» من ر٢.

(٤) في م: «رفع» وما أثبتناه من النسختين.

(٥) «مضموم اللام» من ر٢.

(٦) في ر٢: «ووجد».

(٧) في ر٢: «أوقفته».

(٨) في ر٢: «يقين».

يَنتاب دارَه، وهِمَّتُه تترامى إلى وراء ما ينالُه، وهو في هذا كلِّه يغدو إلى دار جعفرِ بن عثمان الـمُصْحَفيِّ ويروح، ويُصبِح ببابه ويختصُّ به.

ثمَّ اتَّصلت عِلَّة الخليفة الـحَكَم من الفالِج، وجعفرٌ يُدِير سُلطانه. ووقع إرجافٌ بموت الـحَكَم، فأشار محمَّد بن أبي عامر على جعفر بن عثمان باستِرْكاب وليِّ العَهْد هشام في ذلك اليوم في الجيش؛ إرهابًا لأهل الخلاف، ففعل وركب في الناس رَكْبَتَه المشهورة، ومحمَّد بن أبي عامر بين يديه، قد كساه الـخَزَّ، ونقله إلى أكابر أهل الـخِدْمة.

وأمر وليُّ العَهْد هشامٌ في ذلك اليوم، وهو العاشر لصفر من سنة ست وستين، بإسقاط ضريبة الزَّيْتُون المأخوذةِ في الزيت بقُرْطُبة، وكانت إلى الناس مُسْتكْرَهةً، فسُرُّوا بذلك أعظمَ سرور. ونُسِب شأنُها إلى محمَّد بن أبي عامر، وأنَّه أشار بذلك، فأحبُّوه لذلك. ولم تزل الـهِمَّة تَـحْذُوه، والجدُّ يُحظِيه، والقضاءُ يُساعِده، والسياسةُ الـحَسَنة لا تُفارِقه، حتَّى قام بتدبير الخلافة، وأقعد مَن كان له فيها إنافة، وساس الأُمورَ أحسن سياسة، وداس الخطوبَ بأخشن[1] دِياسة؛ فانتظمتْ له الممالِك، واتَّضحت به المسالِك، وانتشر الأمنُ في كلِّ طريق، واستشعر اليُمْنَ كلُّ فريق. وأسقط جعفرًا الـمُصْحفيَّ جُملةً[2]، وعمل فيه ما أراده.

فأوَّلُ عُرْوة فَصَمَها من عُرَى المملكة: عُرْوةُ الصَّقَالِبة الـخَدَم بالقصر موضعِ الخلافة، وكانوا أبْهَى حُلَل المملكة، وأخصَّ عُدَدها، عُنِـي الخلفاءُ بجمعهم والاستكثار منهم، وكانوا خاصَّةَ الناصر والـحَكَم بعده، حتَّى لقد ظهرتْ منهم في زمن الـحَكَم أُمورٌ قبيحةٌ أغْضَى عنها مع إيثاره العَدْل واطِّراح الـجَوْر بالـجُملة[3]، وكان يقول: «هُمْ أُمَناؤُنا وثِقاتُنا على الـحُرَم، فينبغي للرعيَّة أن تَلِينَ لهم، وتَرفُقَ في مُعاملتهم، فتَسْلَم من مَعَرَّتهم؛ إذ ليس يمكننا في كلِّ وقت الإنكارُ عليهم».

ولـمَّا مات الـحَكَم، كان الصَّقَالِبة أكثرَ جَمْعًا وأحَدَّ شوكةً، يظنُّون أن لا غالبَ لهم، وأنَّ الـمُلْك بأيديهم. وكانوا نَيِّفًا على الألف مُـحْبُوب، فحَسْبُك بها يَتْبعهم، وكان رأسَهم

(١) في ر٢: «أحسن».

(٢) من ر٢.

(٣) قوله: «واطراح الجور بالجملة» ليس في ر٢.

فائقٌ المعروف بالنِّظاميِّ، صاحبُ البُرُد والطِّراز، ويليه صاحبه جُؤذَر صاحبُ الصاغة والبَيازِرة، وإليهما كان أمرُ الغلمان الفحول بخارج القصر. وكان قد جرى بين فائقٍ وجُؤذَر مع الحاجب جعفر الـمُصْحَفيِّ إثرَ[1] موت الـحَكَم ما أذْكُرُه: وذلك أنه لـمَّا تُوفِّي الـحَكَم، خفي موتُه على وزيره جعفرٍ وسائر أهل المملكة[2]؛ لطول تردُّده في العِلَّة، وتفرَّدَ بعِلْم ذلك في وقته خادِماه الخاصَّان به: فائقٌ وجُؤْذَر، فاستظهرا بكتمان ذلك، وتقدَّما في ضبط الدار، وخَلَوَا للتشاور، وقد عزما على ردِّ الأمر للمُغيرة بن الناصر، أخي مولاهما الـحَكَم؛ خَشْيةً من انتشاره على ابنه هشام؛ لصغر سنِّه، وإنكارِ الناس لتقديمه[3]، على أن يُقِرَّ ابنَ أخيه هشامًا على العهد بعده؛ فيَمُنَّا على الـمُغيرة بسَوْق الخلافة إليه، ويفيا لمولاهما بارتقاب كِبَر ولده، ويكون الـمُلْك في أيديهما بحاله[4]، وكان رأيًا حسنًا لو أراد الله به.

فلمَّا اتَّفقا على ذلك، قال جُؤذَر لفائق: «ينبغي أن نُحْضِر جعفرَ بن عثمان الحاجب، فنضربَ عُنقَه، فبذلك يَتِمُّ أمرُنا»، فقال له فائق: «سُبحانَ الله يا أخِي! تُشير بقتلِ حاجب[5] مولانا وشيخٍ من مشيختنا دون ذَنْب! ولعلَّه لا يُـخالفنا فيما نريده، مع افتتاحنا الأمرَ بسَفْك الدم!»، فأرسلا في جعفر بن عثمان، فحضر، ونعيا إليه الـحَكَم، وعرضا عليه ما أجمعا عليه من الرأي، فقال لهما جعفر: «هذا، والله، أسَدُّ رأيٍ وأوْفَقُ عَمَلٍ، والأمْر أمْركما، وأنا وغيري فيه تَبَعٌ لكما، فاعزما على ما أردتما، واستَعِينا بمشورة المشيخة؛ فهي أنْفَى للخلاف، وأنا أسيرُ إلى الباب، فأضبِطُه بنفسي، وأنفِذا أمْرَكما إليَّ بما شئتما». وخرج عنهما، فضبط بابَ القصر، وتقدَّم في إحضار أصحاب[6] الهاشِميَّة مِثْل زيادِ بن أفْلَح مولى الـحَكَم، وقاسم بن محمَّد، ومحمَّدِ بن أبي عامر، وهشام بن محمَّد بن عثمان، وأشباهِهم، واستدعى بني بِرْزال؛ إذْ كانوا بِطانتَه من سائر الـجُند، واستحضر سائرَ قُوَّاد

---

(١) في ر٢: «بعد».

(٢) في ر٢: «الدولة».

(٣) «وإنكار الناس لتقديمه» ليس في ر٢.

(٤) «ويكون الملك في أيديهما بحاله» ليس في ر٢.

(٥) في ر٢: «كاتب».

٦)) في أ: «أصحابه».

الأجناد الأحرار، فاجتمع له من هذه الطوائف ما شدَّ رُكْنَه وقوَّى أيْده، فنعى لهم الخليفة، وعرَّفهم مذهبَ الصَّقالِبة في نَكْث بَيْعة هشام، وأقبل بُثَبِّت أصحابه، وقال لهم[1]: «إن حَبَسْنا الدولة على هشام، أمِنَّا على أنفسنا، وصارت الدُّنيا في أيدينا، وإن انتقلتْ إلى الـمُغيرة استبدَلَ بنا، وطلب شِفاء أحقاده»[2]. فأشار عليه أصحابُه بقتل الـمُغيرة قَبْل أن يَبلُغَه موت[3] أخيه، فتُمْكِنَه الحيلة. فعمل برأيهم؛ فتَوافَقُوا[4] فيما بَيْنهم النهوضَ إلى قتله، فكفُّوا وجَبُنُوا، فبَدَرَهم محمدُ بن أبي عامر وقال: «يا قوم إنِّي أخاف فسادَ أمركم[5]، ونحن تبعٌ لهذا الرئيس، وأشار إلى جعفر، فينبغي ألَّا نختلفَ عليه، وأنا أتحَمَّل ذلك عنكم إن أنفذني[6]، فخَفِّضوا عليكم»، فأعجَب جعفرًا والجماعةَ ما كان منه، وولَّوه شأنَه، وقالوا له: «أنت أحقُّ بتَوَلِّي كِبْرِه؛ لخاصَّتك بالخليفة هشام ومَحَلِّك من الدولة»، فأرسل جعفرٌ معه طائفةً من الـجُنْد الأحرار، وثِقَ بهم لذلك.

مقتل الـمُغِيرة بن عبد الرحمن الناصر، رحمه الله[7]

فركب محَمَّدُ بن أبي عامر إلى الـمُغِيرة من ساعته، وركب معه بَدْرٌ القائد مَوْلى الناصر في مئة غلام من غِلْمان السلطان، ووقف لهم خارجَ باب[8] دار الـمُغِيرة، وأحاط سِوَاهُ من أصحاب محَمَّدٍ بجهاتها، واقتحم محمَّد عليه، فوجده مُطمئنًّا على غير استعداد، فنعَى إليه أخاه الـحَكَم، وعرَّفه بجلوس ابنه هشام في الخلافة، وأنَّ الوزراءَ خَشُوا خلافَه، فأنفذوه لامتحان القِصَّة. فاشتدَّ ذُعْرُه، ثمَّ استرجع عليه، واستبشر بمُلْك ابن أخيه، وقال: «أعلِمْهم أنِّي سامعٌ مُطيعٌ وافٍ ببيعتي، فتوثَّقوا[9] مني كيف شئتم»،

(١) في ر٢: «ويقول».
(٢) في ر٢: «أجناده».
(٣) في ر٢: «خبر».
(٤) في أ: «فتدافعوا».
(٥) في ر٢: «رأيكم».
(٦) في ر٢: «إن اجذبني إليه».
(٧) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٢٠٤.
(٨) ليس في ر٢.
(٩) في ر٢: «فاستوثقوا».

وأقبَلَ يستلطفُ ابنَ أبي عامر، ويُناشده الله في دمه، ويسأله المراجعةَ في أمره، حتَّى رقَّ له محمَّد، وكتب إلى جعفر يَصْدُقه عنه ويَصِفُ له الصورةَ التي وجده عليها من السلامة والطمأنينة، ويستأذنه في شأنه، فردَّ عليه جعفرٌ يلومه في التأخير، ويَعزِمُ عليه في التصميم، ويقول له: «غررْتَنا من نفسك، فانْفُذْ لشأنك، أو فانصرفْ، نُرسِلْ سِوَاكَ» فحميَ محمَّد لجوابه، وعرض الرُّقعةَ على الـمُغِيرة، وجعلها بيده، وزال عن وجهه، وأدخل عليه تلك الطَّبَقَة، فقتلوه خَنْقًا في مجلسه، وعلَّقوا جسده في مَـخْدع يتَّصل بمجلسه، كهَيْئَة الـمُخْتَنِق من تِلْقاء نفسه، وذلك كلُّه بمُعاينة حُرَمه، ثمَّ أشاعوا أنَّه خنقَ نفسَهُ، لـمَّا أكْرَهُوه على الرُّكوب لابن أخيه، فطاح دَمُه على هذه الصورة. وكان سِنُّه يومَ قُتِل سبعًا وعشرين سنة. ثمَّ أمر محمد عيالَهُ[1] بإخفاء ذلك، وأمرَهم بدفنه في مجلسه، وأن يسدُّوا أبوابَهم، فيأمنوا بذلك على وَلَده ونِعْمَته.

وعاد ابنُ أبي عامر إلى جعفر بالقِصَّة، فطابت نفسُه، وصيَّر محمَّدًا إلى جانبه، وشكره.

ووصل الحادِثُ على الـمُغِيرة إلى جُؤذَر وفائق، فدَهِشا، وسُقِطَ في أيديهما، وقال جِؤذَر لفائق: «قد نصحتُ لك[2]، فلم تسمعْ منِّي»، وكان أكملَ دهاءً منه[3]. فانكَفَآ إلى جعفر، فأظهرا له السلامةَ والاستبشار بما أتاه، والاعتذارَ ممَّا رأياه، وقالا له: «إنَّ الـجَزَعَ أذهَلَنا عَمَّـا أرشدكَ الله إليه، فجزاك الله عن ابن مَوْلانا خيرًا، وعن دولتنا وعن المسلمين»، فأظهر لهما بعضَ القَبُول. وانغمس جعفرٌ في الشغل بأمر البيعة أيَّامًا، وفي نفسه للصَّقالِبة ما لا تُهَنِّيه معه عِيشةٌ، وفي أنفسهم له أبْرَحُ لَوْعة.

وأجلس جعفرٌ هشامَ بن الـحَكَم للبَيْعة بالخلافة صبيحةَ يوم الاثنين لأربع خلون من صَفَر سنة ست وستين وثلاث مئة، ودعا الناسَ ابنُ أبي عامر للبيعة، فلم يختلفْ عليه اثنان. فكان لابن أبي عامر في أخْذها[4] أثَرٌ كبير، تذاكره[5] الناسُ، وعلا شأنُه ومكانه، وبَعُد في الناس صِيتُه.

---

(١) في أ، م: «ثم تقدم محمدٌ».

(٢) في ر٢: «قد نصحتك».

(٣) «وكان أكمل دهاءً منه» ليس في ر٢.

(٤) في ر٢: «ذلك».

(٥) في ر٢: «تداركه».

بعض أخبار الصَّقالِبة مع محمد[1] بن أبي عامر

وذلك أنَّه لـمَّا تمكَّنت الوَحْشةُ ما بين جعفرٍ والصقالِبة؛ انحرفوا عنه، وكرهوا ولاية هشام، فأخذ جعفرٌ حِذْرَه منهم، وأذكى العيونَ، وبلغه أنَّ جُؤذَرًا وفائقًا يُدبِّران على الدولة، ويَدسَّان في ذلك إلى بعض مَن في قيادتهما من وجوهِ الغلمان والفُحولة، وكان الدخولُ والخروج إليهما على باب الحديد، فأمَر الحاجبُ[2] جعفر الـمُصْحفيُّ[3] بسَدِّه بالـحَجَر[4]، وصيَّر دخولَ الناس على باب السُّدَّة؛ فحَسَم شرَّ الصقالبة، وصيَّرهم تحت الرِّقْبة. ونظر[5] جعفرٌ في إزالة الغلمان الفحولة عن رَسْم هذَيْن الصَّقلبيَّيْن بمواطأة محمَّدِ بن أبي عامر، ودس محمَّدًا إلى مَن طلبهم له، فتقدَّم عليهم محمَّدُ بن أبي عامر، فكان يطَأُ عَقِبَهُ منهم خمس مئة غلام، فاشتدَّ بهم أزْرُه، وفَخُمَ أمرُه، وقدَّمهم في الإنزال والعطاء، فأحبُّوه[6]، ثمَّ انقلب بنو بِرْزال إلى محمَّد بن أبي عامر، وصاروا في قيادته؛ فاعتزَّ بالطائفتَيْن، وقهر عدوَّه، وتبعه سائرُ الـجُنْد؛ فهان أمْرُ الصَّقالِبة عنده.

ثمَّ إن جُؤذَرًا الفتَى استأذن السلطانَ في الخروج إلى داره مُستعفيًا من الـخِدْمة، وهو يظُنُّ أنَّه لا يُجاب إلى ذلك، فأذن له في الخروج، فاشتدَّ وعيدُ أصحابه، وزاد كلامُهم، وكان أجسرَهم على ذلك دُرِّيٌّ الفَتى الصغير؛ لِـما فيه من التمرُّد والجهالة، فحرَّك جعفرٌ ابنَ أبي عامر لإزالته والراحة منه، وقال: «حاوِلْ عليه»[7]، فدسَّ ابنُ أبي عامر[8] إلى رعيَّته ببَيَّاسة، وأمَرَهم بالشَّكْوى به وبعُمَّاله، ووعدهم العُدْوَى عليه والإراحة من جَوْره، فسارعوا إلى ذلك. ورفع الحاجبُ جعفر قصَّتَه إلى السلطان،

---

(١) من ر٢.

(٢) ليست في ر٢.

(٣) كذلك.

(٤) كذلك.

(٥) في ر٢: «ثم نظر».

(٦) هذه اللفظة من ر٢.

(٧) قوله: «وقال: حاول عليه» ليس في أ.

(٨) من ر٢.

وقد أحكم ابنُ أبي عامر شأنَ[1] التدبير عليه، فخرج التوقيعُ بالـجَمْع بين دُرِّيٍّ وبينهم، والنظر في مَصَالحهم، فاستُدعي دُرِّيٌّ إلى بيت الوزارة، فلمَّا أشرف على الدار، ورأى مَنْ أُعِدَّ فيها، أحسَّ بالشرِّ؛ فخَنَسَ راجعًا، فمنعه ابنُ أبي عامر، وقبض عليه، فتَجَاذَبا، فبطش دُرِّيٌّ بابن أبي عامر، وقبض على لحيته، فصاح محمَّدُ بن أبي عامر بمن حضر من الـجُنْد، فاحتشم الأندلسيُّون دُرِّيًا، وأسرع بنو بِرْزال إلى إجابته، فتقدَّموا إلى دُرِّيٍّ، فأوجعوه ضَرْبًا، ولـحِقَتْه ضربةٌ بصَفْح السيف، أزالت عقلَه، وحُمِل للوقت إلى داره، فعُوجِل من ليلته بالقَتْل. وأمَرَ في الوقت فائقًا وجماعةً من كبارهم بالخروج إلى ديارهم والتزامِها، فخرجوا إليها. وانحصدت شوكةُ الصَّقالِبة حينئذٍ، وفُلَّ حَدُّهم، وتجرَّد ابنُ أبي عامر لطلبهم، فاستَخرجَ منهم أموالًا جمَّةً. وآلَتْ حالُ فائق إلى أن صُيِّر إلى الجزائر الشرقيَّة، فمات هنالك.

وفي خروج الصَّقالِبة من القَصْر، يقول سعيدٌ الشَّنْتَرينيُّ الشاعر [من السريع]:

أُخْـرِجَ مـن قَـصْرِ إمـامِ الـهُدَى ... كُـلُّ فَتًـى مُنْبَـسِطٍ جـائِرِ

فمَـنْ رَأيْنـا مِـنْهُمُ قـال: لا ... مِسَاسِ، فِعْلَ الناسِ بالسَّامري[2]

فَخَـفَّ ظَهْـرُ الـمَلِكِ الـمُرْتَضى ... قَـدْ خَـفَّ مِـن ثِقْلِهِـمُ الظـاهِرِ

وسَـالَ مـاءُ العِلْـمِ مِـن وَجْهِـهِ ... مُـذْ زَالَ مِـن جَهْلِهِـمُ[3] الخـاثِرِ

فـلازَمَ الإقْـرَاءَ[4] في قـصره ... مَـعَ الـوزيرِ الـخَيِّرِ الطـاهِرِ

وقَلَّد جعفرٌ الـمُصْحفيُّ أمْرَ القصر والـحُرَم، بعد إخراج هؤلاء الفتيان، سُكَّرًا صاحبَهم، فسكَّن أنفسَ الصَّقالِبة، وأجْرَاهم على الطاعة، فأصغَوْا إليه[5]، إلى أن استهاجهم[6] جُؤذَرٌ الفَتَى عظيمُهم عند الظهور الذي هَمَّ به.

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في أ: «بالشاكر».

(٣) في أ: «مال من خلهم».

(٤) في أ: «الميدان».

(٥) «فأصغوا إليه» ليست في ر٢.

(٦) في ر٢: «استباحهم».

فلمّا تمَّ لابن أبي عامر تدبيرُه في الصقالبة، جعل يتوصَّل إلى تقلُّد جيش المملكة[1]، والقيام بجهاد العدوِّ دون الجماعة، وكان العدوُّ جاس بلادَ المسلمين، وطمع في انتهاز الفُرْصة فيهم، فأنِف ابنُ أبي عامر من ذلك، وأشار على الحاجب جعفرٍ بتجهيز الجيش والاعتداد للجهاد، وعرضَ القيامَ به على جميع الأكابر، فكلُّهم كَعَّ عنه إلّا ابنَ أبي عامر، فإنَّه بادر إليه على أن يختار مَنْ يخرج معه من الرجال، ويتجهَّز لغزوه بمئة ألف دينار، فاستكثر ذلك بعضُ مَن حضر، فقال له محمَّد بن أبي عامر: «خُذْ ضِعْفَها وامْضِ، ولْيَحْسُنْ غَناؤُك!»، فَخَامَ الـمُعترِض عن ذلك، وسُلِّم الجيشُ والمال إلى ابن أبي عامر.

غزوة محمَّد بن أبي عامر الأُولى

فخرج[2] لثلاث خلون من رَجَب من سنة ست وستين وثلاث مئة، ودخلَ على الثَّغر الـجَوْفيِّ، فنازل حصنَ الحامَّة من جِلِّيقِيَّة، فحاصَرهُ، وأخذَ ربَضَه، وغَنِمَ وسبَى، وقَفَلَ بالسَّبْي والغنائم إلى قُرْطُبة إلى ثلاثة وخمسين يومًا، فعظُمَ السرورُ به، وأُخْلِص الجندُ له؛ لِـما رأوا من كثرة جُوده، وكرم عِشْرته، وسَعَة مائدته، فأحبُّوه والتفُّوا به، وكثر إحسانُه إليهم وإفضاله عليهم، إلى أن أدرك بهم سُوْلَه، وبلغ مأمُولَه[3].

ذكر نَكْبة الحاجب جعفر بن عُثمان[4]

وذلك أنَّه، لـمَّا سَمَت الحالُ بمحمَّد بن أبي عامر، واستتبَّ أمرُه، أعمل الحيلةَ والتدبير في إسقاط جعفر بن عثمان، والانفرادِ بالدولة، فلم يجد لذلك سببًا أقْوَى من مُظاهَرة الوزيرِ أبي تَـمَّام غالِب الناصِريِّ، صاحب مدينة سَالِـم والثَّغْر الأدْنى، شيخِ الموالي قاطبةً، وفارِس الأندلُس يومئذٍ غيرَ مُدافعٍ[5]، وكان بَيْنه وبَيْن الحاجب جعفر بن عثمان عداوةٌ ومنافسَةٌ. والتاثت حالُ غالبٍ صَدْرَ دولة هشام في سنةِ ولايته لـمَّا مَلَكَ جعفرٌ أمرها، وبان

(١) في ر٢: «الحضرة».

(٢) في ر٢: «فخرج محمد».

(٣) الذخيرة لابن بسام ٧/ ٦٢ نقلًا عن ابن حيان.

(٤) الذخيرة ٧/ ٦٣.

(٥) في أ، م: «غير مدافع له»، وما أثبتناه من ر٢ وهو الأصح.

تقصيرُ غالبٍ في مُدافعة أعداء الله، وخاف أن يصل أمرُه إلى الخلاف والمعصية، فأشار ابنُ أبي عامر في استصلاحه ورَعْي ذِمامِه. ولم يزل ابنُ أبي عامر يقوم بشأنه، ويخدمُه داخل الدار عند السيِّدة أُمِّ هشام وسائر الـحُرَم، حتَّى تمَّ مُرادُه فيه كَيْ يستعينَ به على إهلاك الـمُصْحَفيِّ، فأنهض غالبًا إلى خُطَّة الوزَارتَيْن، وأنفذ إليه كتابَ الخليفة بذلك، وأمره بالاجتماع مع ابن أبي عامر على التدبير على الصَّوائف، على أن يُدَبِّر[1] ابنُ أبي عامر جَيْشَ الـحَضْرة، ويُدَبِّرَ غالِبٌ جيشَ الثَّغْر.

غزوة ابن أبي عامر الثانية

وخرج محمَّدُ بن أبي عامر بالصائفة يومَ الفِطْر من سنة ست وستين وثلاث مئة، فاجتمعَ مع غالِبٍ بمدينة مَـجْرِيط. وأصَّلَ معه من التظافر على جعفرٍ ما أصاب به النُّكْتة من قلبه، واتَّفقا وتوافقا. وخدم ابنُ أبي عامر غالبًا في سفره هذا خِدْمةً مَلَكَ بها نَفْسَه؛ فمال إليه غالبٌ بكُلِّيَّته. واستمرَّا في غزوهما، وافتتحا[2] حِصْنَ مُولَة[3]، وظهرا فيه على سَبْيٍ كثير، وغَنِمَ المسلمون أوسعَ غَنيمة. وكان أكثرُ الأمرْ[4] فيها لغالب، فتجافى عنه لابن أبي عامر. وسار معه إلى ثَغْره، ومنه فارَقَهُ، بعد أن أبلغ في مواطأة محمَّدِ بن أبي عامر على عدوِّه جعفرٍ بما أراده، وقال غالبٌ لابن أبي عامر عند وداعه: «سيظهر لك بهذا الفَتْح اسْمٌ عظيم وذِكْرٌ جليلٌ، يُشْغِلهم السرورُ به عن الـخَوْض فيما تُحْدِثه من قصَّة. فإيَّاك أن تخرجَ عن الدار حتَّى تعزلَ ابنَ جعفر[5] عن المدينة وتتقلَّدَها دُونَه»، فاعتقد محمَّدٌ ذلك.

وخاطب غالِبٌ الخليفةَ هشامًا بحُسن مَنَاب ابن أبي عامر في هذه الغزوة، ونَسَبَ[6] السَّعْيَ والاجتهاد إليه، وشَكَرَه، وشدَّ عَضُدَه عند الخليفة، وعاد محمَّد بن

---

(١) قوله: «ابن أبي عامر على التدبير على الصوائف على أن يدبّر» سقط من ر٢.

(٢) في أ، م: «وافتُتِح».

(٣) ينظر الروض المعطار ٤٦١.

(٤) في ر٢: «الأثر».

(٥) في ر٢: «جعفرًا» خطأ، وهو محمد بن جعفر بن عثمان، وسيأتي بعد قليل على الوجه.

(٦) في ر٢: «وجعل».

أبي عامر إلى حضرة قُرْطُبة منصرفًا بالسَّبْي والغنائم. فاستمال محمَّدٌ بهذا الفتح قلوبَ العامَّة والخاصَّة، وتعرَّفوا فيه يُمْنَ النَّقيبة؛ فبَعُد صِيتُه، وهان عليه أمرُ جعفر وغيرِه، وشرعَ في هَدْمه. فخرج أمرُ الخليفة يومَ وروده بصَرْف محمَّد بن جعفر[1] بن عثمان عن المدينة وتقليدِها ابنَ أبي عامر. فخرج محمَّدٌ نحو كُرْسِيِّها في هذا اليوم، والـخِلَعُ عليه، ولا عند جعفر عِلْمٌ بذلك، وكان محمَّدُ بن جعفر جالسًا في مجلسها في أُبَّهةٍ، إذ صَعِدَ ابنُ أبي عامر نحوه، فولَّى محمَّد بن جعفر ناكصًا على عَقِبه، وأُتبع بدابَّته.

ومَلَكَ ابنُ أبي عامر البابَ بولاية الشُّرْطة، والـجَيْشَ بِقَوْدِه له، والدارَ بعناية الـحُرَم به، فملك على جعفرٍ بذلك وُجُوهَ الحيلة، وخلَّاه، وليس في يده من الأمر إلَّا أقلُّه. فضبط محمَّدٌ المدينة ضبطًا أنْسَى أهْلَ الحضرة مَنْ سَلَفَ مِن أفراد الكُفَاة وأُولِـي السياسة، وقد كانوا قَبْله في بلاء عظيم، يتَحَارَسون الليل كلَّه، ويُكابِدون من رَوْعات طُرَّاقه ما لا يُكابِد أهلُ الثُّغور من العدوِّ، فكشف الله ذلك عنهم بمحمَّد بن أبي عامر وكِفايتِه، وتَنَزُّهِهِ عمَّا كان يُنْسَب لابن جعفر. فسدَّ باب الشفاعات، وقمع أهْلَ الفِسْق والزعارات، حتى ارتفع الباس، وأمِنَ الناس، وأُمِنت عادية المتجرِّمين من حاشية السلطان، حتَّى لقد عَثَرَ على ابن عَمٍّ له يُعْرَف بعَسْقَلاجة، فاستحضره في مجلس الشُّرْطة، وجَلَده جلدًا مُبَرِّحًا كان فيه حِمامُه، فانقمع الشرُّ في أيَّامه جُمْلةً. واستخلف ابنُ أبي عامر على المدينة ابنَ عمِّه عَمْرو[2] بن عبد الله بن أبي عامر، فسلك في أهل الشرِّ سبيلَه، بل أربَى عليه في ذلك.

وكاتبَ جعفرٌ غالبًا يستخلصُه، ويستميلُه، ويَخطُب بنتَه لابنه، فتجدَّدَتْ بينهما أُلْفةٌ، وجرى عَقْدٌ في الـمُناكَحة. وانكشفَ ذلك لابن أبي عامر، فكاتبَ غالِبًا يُنْشِده العَهْدَ، وألقى أهْلَ الدار عليه في فَسْخ الـمُصاهَرة، فكاتبوه في ذلك، فانحرف إلى ابن أبي عامر، وحلَّ عُقْدة جعفرٍ في نكاحه، وأنكح ابنَ أبي عامر أَسْماء ابْنَتَه، فكانت أَحْظَى نسائه.

---

(١) في ر٢: «بصرف جعفر»، خطأ.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٤٠، والاستقصا ١/ ٢٥٩.

غزوة ابن أبي عامر الثالثة

فلمّا تمَّ هذا العَقْدُ، خرج إليها[1]، فدخل على طُلَيْطُلة غُرَّةَ صَفَر من سنة سبع وستين وثلاث مئة، فاجتمعَ مع صِهْره غالِب، فعظَّمَهُ وجرى إلى موافقته. ونهضا معًا، فافتتحا حِصْنَ المال وحصن زنبق، ودوَّخا مدينةَ شَلَمَنْقة[2] وأخذا أرْباضَها. وقفل ابنُ أبي عامر إلى قُرْطُبة بالسَّبْي والغنائم، وبعَدَدٍ عظيم من رؤُوس الـمُشركين، إلى أربعة وثلاثين يومًا من خروجه، فزاد له السلطانُ في التنويه، وأنهضَهُ إلى خُطَّة الوِزَارتَيْن، سوَّى فيها بينه وبين غالب، ورفع راتِبَه إلى ثمانين دينارًا في الشهر، وهو راتبُ الـحِجابة. واستقدم السلطانُ غالبًا لاستهداء أسْماءَ إلى زَوْجها محمَّد، فبالغ في إكرامه، ووقع زِفافُ أسْماء في مَشْهدٍ بَعُدَ العَهْدُ بمثله شُهْرةً وجَلالة، وزُفَّت إليه ليلةَ النَّيْرُوز من قَصْر الخليفة، فهو الذي تولَّى مع حُرَمه أمْرَها. وكانت أسْماءُ هذه تُوصَف بجَمالٍ بارعٍ وأدَبٍ صالح، وحَظِيَتْ عند ابن أبي عامر، فلم يفارقْها حياته[3]. وقلَّده الخليفةُ خُطَّة الـحِجابة مع جعفرٍ مشتركًا. ثمَّ سخط الخليفةُ على جعفر بن عثمان الـمُصْحَفيِّ[4]، وصرفه عن الـحِجابة يومَ الاثنين لثلاث عشرة ليلةً خلت من شعبان سنة سبع وستين وثلاث مئة، وأمر بالقبضِ عليه وعلى ولده وأسبابه، وعلى ابن أخيه هشام، وصُرفوا عمَّا كان بأيديهم من الأعمال، وطولبوا[5] بالأموال. فتوصَّل ابنُ أبي عامر بمُحاسَبَتهم[6] إلى استصفاء أموالهم، وانتهاكِ حُرَمهم، وتَرْديد النَّكبات عليهم، حتى مزَّقهم كلَّ مُـمَزَّق. وسارعَ إلى قتل هشام ابن أخي جعفر في الـمُطْبَق، إذ كان أشَدَّ آلِ عثمان[7] عداوةً له، وأُخْرج إلى أهله ميِّـتًا. واستمرَّت النكبـةُ

(١) في ر٢: «خرج إلى الغزو».

(٢) ينظر نزهة المشتاق ٢/ ٧٢٥، ٧٣١-٧٣٣.

(٣) من ر٢.

(٤) «بن عثمان المصحفي» ليست في ر٢.

(٥) في م: «وطلبوا».

(٦) في ر٢: «بمخاطبتهم».

(٧) في ر٢: «جعفر»، وما هنا من أ وهو أحسن.

على جعفر سِنِينَ عِدَّة، يُحبَس مرّةً ويُطْلَق أُخرى. وممّا حُفِظ له في ابن أبي عامر، مُسْتَعطِفًا له [من المتقارب]:

عَفَا اللهُ عَنْكَ ألا رَحْمَةً[1] ... تَجُودُ بعَفْوِكَ إن أبْعَدَا

لئن جَلَّ ذَنْبٌ ولَمْ أعْتَمِدْهُ ... فأنْتَ أجَلُّ وأعْلَى يَدَا

ألَمْ تَرَ عَبْداً عَدا طَوْرَه ... ومَولًى عَفَا ورَشِيدًا هَدَى

ومُفْسِدَ أمْرٍ[2] تلافيتَه ... فعَاد فَأصْلَحَ مَا أفْسَدَا

أقِلْنِي أقالَكَ مَن لم يَزَلْ ... يَقِيكَ ويَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى

وكان جعفرُ بن عثمان في مِحْنته أخْوَرَ النَّاس، وأرْأمَهم للذُّلِّ، وأحبَّهم في الحياة؛ انتهى به الاستخذاء لمحمَّد بن أبي عامر، والطمعُ في الحياة، أنْ كتب إليه يعرضُ نفسه عليه لتأديب ابنَيْه عبدِ الله وعبد الملك، فقال ابنُ أبي عامر: أراد أن يَستجْهِلَني ويُسْقِطني عند الناس، وقد عَهِدوا منِّي ببابه مُؤمِّلًا، ثمَّ يَرونَه اليومَ بِدِهْليزي مُعلِّمًا.

ثمَّ جدَّ ابنُ أبي عامر في مكروهه، وأدقَّ حسابَه، وأمر بإحضاره إلى مجلس الوزراء بقصر الخِلافة، ليُناظر بيْن أيديهم فيما ادُّعِيَ عليه من الخيانة، فتردَّد إلى هذا المجلس مِرارًا، وأقبل آخر مرَّة إليه، وواثِقٌ الضاغطُ يُزعجه، والبُهْر والسِّنُّ قد هاضاه، وقصَّرا خُطاه، والموكَّل به يحذُوه ويَستحِثُّه، فيقول له جعفر: «يا بُنَيَّ رِفْقًا، فستُدْرِك ما تريد، ويا لَيْتَ أنَّ الموت بِيعَ، فأغْلَى اللهُ سومَه»، حتَّى انتهى به إلى المجلس، والوزراء جُلوس، فجلس في آخِر المجلس دون أن يسلِّم، فسرع[3] إليه الوزيرُ محمَّد بن حَفْص بن جابر، وكان من حِزْب ابن أبي عامر، فعنَّفه، واستجهله، وأنكر عليه تَرْكَ التسليم، وجعفر مُعْرِضٌ عنه، فلمّا أكثر عليه، قال له جعفر: «يا هذا جَهِلْتَ المبرَّة، فاستجهلتَ عالِمَها، وكفرتَ اليد، فقصَّرت بمُسْدِيها»، فاضطرب ابنُ جابر من قوله، وقال: «هذا هو[4] البَهْتُ بعينه! وأيُّ أياديك الغَرّاءُ التي

(١) في ر٢: «عطفةً».

(٢) في ر٢: «من قد».

(٣) في ر٢: «فتسرع».

(٤) في ر٢: «هذا والله».

مَنَنْتَ بها؟ أيَدَ كذا أم يَدَ كذا؟»، وعدَّد أشياء، فأنكرها عليه الحاجب جعفر[1]، وقال: «هذا لا يُعْرَف، والمعروفُ دَفْعِي عن يُمْناكَ القَطْعَ، وشفاعتي فيها إلى الماضي، رحمه الله، حين استخوَنك في مال كذا»، فأصَرَّ ابنُ جابر على الـجَحْد، فقال جعفر: «أَنْشُدُ اللهَ مَنْ له عِلْمٌ بما ذكرتُ أن يتكلَّم!» فقال الوزيرُ ابن عيَّاش: «قد كان بعضُ ما ذَكَرْتَه، وغيرُ هذا أَوْلَى بك، يا أبا الحسن» فقال: «أحْرَجَني الرَّجُل، فقُلْتُ»، ثمَّ أقبل الوزير محمَّدُ بن جَهْوَر على محمَّد بن جابر، فقال له: «أوَما عَلِمْتَ أنَّه مَن كان في سُخْط السُّلطان، تَـحَامَى السَّلامَ على أوليائه؛ لأنَّهم إنْ ردُّوا عليه، أسخطوا السلطان لتأمينهم مَنْ أخَافَه، وإن تركوا الردَّ، أسخطوا الله، وتركوا ما أَمَرَ به؟ فكان الإمساك أَوْلَى، ومِثْلُ هذا لا يخفى[2] على أبي الحسن»، فخجل ابنُ جابر، وأَسْفَر وجْهُ جعفر وتهلَّل[3]. ثمَّ أخذ القومُ في مناظرته على المال، فقال: «قد والله استنفدتُ ما عندي من الطارِف والتالِد، ولا مَطْمَعَ فيَّ في درهم، ولو قُطِعْتُ إرْبًا إرْبًا»[4]، فصُرِفَ إلى محبسه في مُطْبَق الزَّهْراء، فكان آخِرَ العَهْد به.

وله، رحمه الله، وقد أودعه المنصورُ الـمُطْبِق، والشجونُ تُسْرِع إليه وتَسْبِق، مُعَزِّيًا لنفسه، ومُـجْتَزِيًا في يومه بإسْعاد أَمْسِه؛ فقال [من المتقارب]:

أُجَــارِي الزمــانَ عــلى حالِــهِ ... مُـــجاراةَ نَفْـــسِي لأنفاسِـــهَا
إذَا نَفَـــسٌ صـــاعِدٌ شَـــفَّها ... تـــوارَتْ بـــه بَـــيْنَ جُلَّاسِـــها
وإنْ عَكَفَـــتْ نَكْبَـــةٌ لِلزَّمـــانِ ... عَكَفْـتُ بِـصَدْرِي عـلى رَاسِـهَا

ومن بديع ما حُفظ له في نكبته، قولُه، رحمه الله، يستريح من كُرْبته [من الطويل]:

صَـبَرْتُ عـلى الأيَّـامِ لَــمَّا[5] تَوَلَّـتِ ... وأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَها فاسْتَمَرَّتِ
فيـا عَجَبـاً للقَلْـبِ كَيْـفَ اصطِبارُهُ ... وللنَّفْسِ بَعْـدَ العِزِّ كَيْـفَ اسْتَذَلَّتِ

---

(١) ليست في أ، م.
(٢) في ر٢: «يذهب».
(٣) ينظر سطح الأنفس ١٦٤-١٦٦.
(٤) في ر٢: «آرابا».
(٥) في ر٢: «حتى».

وما النَّفْسُ إلَّا حَيْثُ يَـجْعَلُها الفَتـى ... فـإنْ طُمِّعَـتْ تاقَـتْ وإلَّا تَـسَلَّتِ

وكانـتْ عَـلَى الأيَّـامِ نَفْـسِي عَزِيـزَةً ... فلـمَّا رَأتْ صَـبْرِي عـلى الـذُّلِّ ذَلَّـتِ

وقُلْتُ لـها: يا نَفْسُ مُوتِـي كَرِيمَـةً ... فَقَـدْ كانَـتِ الـدُّنْيا لَنـا ثُـمَّ وَلَّـتِ

وكان مِنْ هلاكه في مَحْبسه هذا على يقين، وذلك أنّه لـمَّا أُمِرَ به إلى الـمُطْبق، ودَّع أهْلَه ووَلَدَه وَداعَ الفُرْقة، وقال: «هذا وقتُ إجابة الدعوة، وأنا أرتقبُه منذ أربعين سنة»، فسُئِل عمَّا ذَكَرَه[1]، فقال: «رُفِع على فلان أيَّامَ الناصر وسُعِيَ به إليه[2]، فأشرفتُ على أعماله، فآلَ أمْرُه إلى ضَرْبه وتَغَيُّرِ نِعْمته وإطالةِ حَبْسِه. فبَيْنا أنا نائم ذاتَ ليلةٍ، إذ أتاني آتٍ، فقال لي: «أطْلِقْ فلانًا، فقد أُجيبَتْ دعوتُه فيك، ولهذا أمْرٌ أنت لا بُدَّ لاقِيه»، فانتبهتُ مَذْعورًا، وأحْضرتُ الرَّجُلَ، وسألْتُه إحْلالي، فامتنع عليَّ، فاستحلفتُه على إعْلامي بما خصَّني به من الدُّعاء، فقال: «نَعَمْ، دعوتُ اللهَ أن يُمِيتَك في أضْيَق السجون كما أعْمَرْتَنِيهُ حِقْبَةً»، فعلمتُ أنّه قد وجبتْ دعوتُه[3]، وندمتُ حيث لا ينفعُ الندم، وأطلقتُ الرجل، ولم أزل أرتقبُ ذلك في السجن»، فما لبث في السجن إلَّا أيَّامًا، وأُخْرِج ميِّتًا، وأُسْلِم إلى أهْله. فقيل: قُتِل خَنْقًا في البيت المعروف ببيت البراغيث في الـمُطْبِق، وقيل: دُسَّت إليه شَرْبةٌ مسمومةٌ[4].

قال محمَّد بن إسماعيل، كاتبُ المنصور[5]: سِرْتُ مع محمَّد بن مَسْلَمة إلى الزَّهْراء لتسليم جسد جعفرٍ إلى أهله وولده، والحضورِ على إنزاله في مُلْحَده، فنظرتُ إليه ولا أثَرَ فيه، وليس عليه شيءٌ يُواريهِ غيرَ كِساء خَلَقٍ لبعض البوَّابين، سَتَرَهُ به. فدعا له محمَّدُ بن مَسْلَمة بغاسل، فغسله، والله، على فَرْدِ بابٍ اقْتُلِع من ناحية الدار، وأنا أعتبر من تصرُّف الأقدار، وخَرَجْنا بنَعْشه إلى قبره، وما معنا إلَّا إمامُ المسجد الـمُسْتَدْعَى للصلاة، وما تجاسر أحَدٌ على النظر إليه. ثمَّ قال: وإنَّ لي في شأنه لَـخَبَرًا ما سمع بِمثْله طالبُ وَعْظٍ،

---

(١) في ر٢: «ذكر».

(٢) في ر٢: «عليه».

(٣) في ر٢: «أن دعوته قد وجبت».

(٤) الذخيرة ٧/ ٦٨ (ط. الأولى).

(٥) في ر٢: «كاتب ابن أبي عامر».

ولا وقع في مِسْمَع ولا تصوَّرَ لِلَحْظٍ؛ وقفتُ له في طريقه، أيّامَ نَهْيه وأمره، أرومُ أن أُناوله قِصَّةً، كانت به مختصَّة، فوالله ما تمكَّنْتُ من الدنوِّ منه[1] بحيلة؛ لكَثافة مَوْكبه، وكَثْرة مَن حفَّ به، وأخذَ الناسُ السِّكَك عليه[2] وأفواهَ الطُّرُق، يَنظرون إليه ويُسلِّمون عليه، حتَّى ناولتُ قِصَّتي بَعْضَ كُتَّابه الذين نَصَبَهُم جَناحَيْ مَوْكِبه لأخْذ القِصَص، فانصرفتُ وفي نفسي ما فيها من الشَّرَق بحاله والغَصَص، فلم تَطُل المدَّة حتَّى غضب عليه المنصورُ، واعتقله، ونقله معه في الغزوات ذليلًا وحمله. واتَّفق أنْ نزلتُ بِجلِّيقيَّة في بعض المنازل إلى جانب خِبائه في ليلةٍ نهى فيها المنصورُ عن وَقْدِ النيران؛ ليَخفى على العدوِّ أثَرُه، ولا ينكشفَ له خبَرُه، فرأيتُ، والله، ابنَه عثمان يُسِفُّه دَقيقًا قد خلطه بماءٍ يُقيم به أوَدَه، ويُمْسك به رَمَقَه، بضعف حالٍ، وعَدَمِ زادٍ ومال، وسمعتُه يقول [من الطويل]:

تأمَّلْتُ صَرْفَ الحادِثاتِ فلَمْ أزَلْ ... أراها تُوافي عِنْدَ مَقْصَدِها الحُرَّا
فللَّـهِ أيَّام مَضَتْ لسبيلها ... فإنِّيَ لا أنْسَى لها أبداً ذِكْرَا
تجافَتْ بها عنَّا الحوادِثُ بُرْهَةً ... وأبْدَتْ لنا منها الطلاقةَ والبِشْرَا
ليالِيَ لَمْ يَدْرِ الزَّمانُ مكانَنا ... ولا نَظَرَتْ منَّا حَوادِثُه الشَّزْرَا
وما هذِهِ الأيَّامُ إلَّا سَحَائبٌ ... عَلَى كُلِّ أرْضٍ تُمْطرُ الخَيْرَ والشَّرَّا

وكان ممَّا أُعينَ به ابنُ أبي عامر على جعفر بن عثمان المُصْحَفيِّ[3] مَيْلُ حِلْية[4] الوزراء إليه، وإيثارُهم له عليه، وسَعْيُهم في تَرَقِّيه، وأخذُهم بالعَصَبيّةِ فيه، فإنَّهم، وإن لم تكن لَهُم حَمِيَّة أعْرابيَّة، فقد كانت سَلَفِيَّة سُلْطانيَّة، يَقْتَفي القومُ فيها آثارَ سَلَفهم، ويمنعون بها ابتذالَ شَرَفهم، غادروها سِيرةً، وخلَّفوها عادةً أثيرةً، تَشَاحَّ الخَلَفُ فيها تَشَاحَّ أهْل الدِّيانة، وصانوا بها مراتبَهم أعظم صيانة، ورأوا أنَّ

(١) في ر٢: «إليه».
(٢) ليست في ر٢.
(٣) ليست في ر٢.
(٤) ليست في أ.

أحدًا من التوابع لا يدركُ فيها غايةً، ولا يلحقَ لها رايةً. فلمَّا أحْظَى الـمُستنصِرُ بالله جعفرَ بن عثمان واصطنعه، ووضعه مِن أُثْرَته حيث وضعه؛ حسدوه وذَمُّوه، وخصُّوه بالمطالبة وعمُّوه. وكان أسْرَعَ هذه الطائفة إلى مُهاودة المنصور عليه، والانحرافِ عنه إليه، آلُ أبي عَبْدة وآلُ شُهَيْد، وآلُ جَهْوَر، وآلُ فُطَيْس، وكانوا في الوقت أزمَّةَ الـمُلْك وقُوَّام الـخِدْمة، وسُرُج الخلافة(١) ومصابيحَ الأُمَّة، فأحظَوْا محمَّد بن أبي عامر مُشايَعةً، ولأسْبابِ الـمُصْحَفيِّ مُنازَعةً، وشادوا بِناءَه، وقادوا إلى عُنْصُره سَناءَه، حتَّى بلغ الأمل، والتحف بِمُناهُ واشتمل. وعند التئام هذه الأُمورِ لابن أبي عامر، استكان جعفرُ بن عثمان للحادِثة، وأيقن بالنَّكبة، وزوال المرتبة، وكفَّ عن اعتراض محمَّدٍ وشركته في التَّدْبير، وانقبضَ الناسُ عن الرواح إليه والتبكير، وانثالوا على ابن أبي عامر؛ فخفَّ مَوْكِبُه، وغار من سماء العزَّة كَوْكَبُه، وتوالى عليه سَعْيُ ابنِ أبي عامر وطَلَبُه حتَّى محاه، وهتك ظِلالَه وأضحاه. ومن قوله [من الكامل]:

لا تَـأمَنَنَّ مِـن الزَّمـانِ تَقَلُّبـا ... إنَّ الزَّمـانَ بأهْلِـهِ يَتَقَلَّـبُ

ولَقَـدْ أراني والليـوثُ تَهـابُني ... وأخـافَني مـن بعـد ذاك الثَّعْلَـبُ

حَـسْبُ الكَـريمِ مَهانـةً ومَذَلَّـةً(٢) ... ألَّا يـزالَ إلى لَئِـيمٍ يَطْلُـبُ

وكان قولُه هذه الأبياتَ لـمَّا سِيقَ إلى مجلس الوزارة للمُحاسبة، وواثِقُ الضاغِط يُزْعِجه ويستحثُّه، وهو يقول له: «رِفْقًا بي يا واثِق، فستُدْرِك ما تحبُّه وتشتهيه، وترى ما كنتَ ترجّيه»، وقد تقدَّم ذلك(٣).

استبداد ابن أبي عامر بالـمُلْك وتغلُّبه عليه

لـمَّا قتل ابنُ أبي عامر جعفرَ بن عثمان، انفرد بشأنه، ورمى الغَرَض الأبعد من ضَبْط السلطان والـحَجْر عليه والاستبداد بالمملكة وأُمور الدولة(٤)، جرى في ذلك مَـجْرَى

(١) «وسرج الخلافة» ليست في أ، م.

(٢) في ر٢: «مذلةً ومهانة».

(٣) قوله: «وقد تقدم ذلك» ليس في ر٢.

(٤) «وأمور الدولة» ليست في ر٢.

المتغلِّبين على سُلطان بني[1] العبَّاس بالمشرق من أُمراء الدَّيْلَم، حتَّى أورث ذلك عَقِبَه. فأخذ ابنُ أبي عامر في تغيير سِيَر الـخُلَفاء الـمَرْوانيَّة في استجرار الأمر لنفسه وسَبْكِ الدولة على قالبه، فأدَّاه ذلك إلى مُضادَّةِ ما كانوا عليه، فعوَّضَ باللِّين غِلْظةً، وبالسكون حركةً، وبالأناةِ بَطْشَةً، و[2]بالـمُوادَعة مُحارَبة، فجعل أهل الرأي يعجبون[3] من مصادِرِ أُموره ومَوارِدها يَقْضُون[4] بخروجها عن حدِّ الصواب وقانُون التدبير لها، ورُبَّما فَاوَضَ جِلَّتَهم الرأي، فيُشيرون عليه من الوجه الذي عرفوه، والقانونِ الذي حَمِدوه، فيعدلُ عن ذلك إلى الـمَذْهَب[5] الذي شرعه، والطريقِ[6] الذي نهجه، والخطرِ[7] الذي لا يجهل اقتحامَه، فيَبْهَتُ القَوْمَ من حُسْن ما يقع له.

قال الفَتْحُ بن خَاقَان[8]: «فَرْدٌ نَابِهٌ على مَن تقدَّمه، وصَرَّفه واستخدَمَهُ، فإنَّه كان أمضاهم سِنانًا، وأذكاهم جَنانًا، وأتـمَّهم جلالًا، وأعظمهم استقلالًا، فآلَ أمْرُه إلى ما آلَ، وأوهم العقولَ بذلك المآل، فإنَّه كان آيَةَ الله في اتِّفاق سَعْدِه، وقُرْبِهِ من الـمُلك بَعْدَ بُعْدِه، بهر برفعه القَدْر، واستظهر بالأناة وسَعَةِ الصدر، وتحرَّكَ فلاحَ نَجْمُ الـهُدُوِّ، وتملَّك فما حقق بأرضه لواءُ عدوٍّ، بعد خمولٍ كابَدَ منه غَصَصًا وشَرَقًا، وتعذُّرِ مأمولٍ طارَدَ فيه سَهَرًا وأرَقًا[9]، حتَّى أُنجز له الموعود، وفرَّ نَحْسُه أمام تلك السُّعود. فقام بتدبير الخلافة، وأقعد مَن كان له فيها إنافة، وساس الأُمورَ أحسن سياسة، وداس الـخُطوبَ بأخشن دِياسة؛ فانتظمتْ له الممالك، واتَّضحتْ به المسالك، وانتشر الأمنُ في كلِّ طريق، واستَشعر اليُمْنَ كلُّ فريق. وملك الأندلُسَ بِضْعًا وعشرين حِجَّة،

---

(١) في ر٢: «ولد».

(٢) سقطت الواو من م.

(٣) ليست في أ، م.

(٤) في م: «ويقصون».

(٥) في ر٢: «إلى القانون».

(٦) في ر٢: «والمذهب».

(٧) في ر٢: «الخطأ».

(٨) هذا الخبر في المطمح، ونقله المقري في نفح الطيب ١/ ٤٠٥.

(٩) في ر٢: «وفرقا»، وما هنا يعضده ما في النفح.

لم تُدْحَض لسعادتها حُجّة، ولم تزخر لمكروه بها لُـجّة، لبستْ فيها البهاءَ والإشراق، وتنَّفستْ عن مثل أنفاس العِراق. وكانت أيَّامُه أحمدَ أيَّام، وسهامُ بأسه أسدَّ سهام. غزا الروم[1] شاتيًا وصائفًا، ومضى فيها يرومُ زاجرًا وعائفًا[2]، فأوغل في تلك الشِّعاب، وتغلْغَلَ حتَّى راع ليثَ الغاب، ومشى تحت ألْوِيته صِيدُ القبائل، واستجرَّت في ظِلِّها بِيضَ الظُّبا وسُمْرَ الذَّوابل، وهو يقتضي الأرواحَ بغير سَوْم، وينقضي الصِّفاح على كلِّ رَوم، ويُتلف مَن لا ينساق للخلافة وينقاد، ويختطف منهم كلَّ كوكب وَقَّاد، حتَّى استبدَّ وانفرد، وأنِسَ إليه من الطاعة ما نَفَرَ وشرد. وانتظمتْ له الأنْدَلُس بالعُدْوة، واجتمعتْ له اجتماعَ قُرَيْش في دار النَّدْوة، ومع هذا، فلم يخلع اسمَ الحجابة، ولم يَدَع السَّمْعَ لخليفته والإجابة، ظاهرٌ يُخالفه الباطن، واسمٌ تُنافره مواقِعُ الـحُكْم والـمَواطِن. وأذلَّ قبائلَ الأنْدَلُس بإجازة البرابر[3]، وأخمل بهم أولئك الأعلامَ الأكابر، فإنَّه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادِهم، حتَّى تغلَّبوا على الـجُمْهور، وسلبوا منهم الظُّهور، ووثبوا عليهم الوثوبَ المشهور، الذي أعاد أكثرَ الأندلُس قَفْرًا يبابًا، وملأها وحْشًا وذِئابًا، وأعراها من الأمان، بُرْهةً من الزمان. وعلى هذه الـهَيْئة[4]، فهو وابنُه الـمُظَفَّر كانا آخِرَ سَعْد الأندلُس، وحدَّ السرور بها والتَّأنُّس. وغزواتُه فيها شائعة الأَثَر، رائعة كالسيف ذي الأَثْر، وحَسَبُه وافِر، ونَسَبُه مَعَافِر؛ ولذا قال يفخَر [من الطويل]:

رَمَيْـتُ بَنفِـسي هَـوْلَ كُـلِّ كَرِيهـةٍ ... وخـاطَرْتُ والـحُرُّ الكَرِيمُ مُخـاطِرُ

ومـا صـاحِبي إلَّا جَنـانٌ مُـشَيَّعٌ ... وأسْـمَرُ خَطِّـيٌّ وأبْـيَضُ بـاتِرُ

وإنِّي لَزَجَّـاءُ الجيـوشِ إلى الـوَغى ... أُسُـودٌ تُلاقِيهَـا أُسُـودٌ خَـوادِرُ

لَـسُدتُ بنفـسي أهْـلَ كُـلِّ سِيادةٍ ... وكاثَرْتُ حتَّى لـمْ أجِـدْ مَـنْ أُكـاثِرُ

---

(١) سقطت من م.

(٢) بعد هذا في النفح: «فما مر له غير سنيح، ولا فاز إلا بالمعلّى لا بالمنيح».

(٣) في أ، م: «البربر» وما هنا من ر٢ ويعضده ما في النفح، وهو الموافق للسجعة.

(٤) في ر٢: «الهنة»، وهي جيدة أيضًا.

وما شِـدتُ بُنْيانًـا ولكـنْ زِيـادةً على مَـا بَنـى عَبْـدُ العزيـز[1] وعـامِرُ

رَفَعْنا الـمَعالِـي بالعَوالِـي حَدِيثةً وأوْرَثْناهـا في القَـدِيم مَعـافِرُ

وكانت أمُّه تَـمِيميَّةً، فحاز الشَّرَفَ من طَرَفَيْه، والتَحَفَ بِمطْرَفَيْه. قال القَسْطَلِيُّ [من الطويل]:

تَلاقَـتْ عَلَيْـه مِـنْ تَمـيمٍ ويَعْـرُبٍ شُـموسٌ تَـلالا في العُـلَى وبُـدُورُ

مِـنَ الحِمْيَرِيِّـينَ الـذِينَ أكُفُّهُـمْ سَـحائبُ تَهْمِـي بالنَّـدَى وبُحـورُ[2]

وتصرَّف قبل ولايته في شتَّى الولايات، وجاء من التحدُّث بمُنْتهى أمْره بآيات، حتَّى صحَّ زَجْرُه، وجاء بصُبْحه فَجْرُه، تُؤثَرُ عنه في ذلك أخبار، فيها عَجَبٌ واعتبار. وكان أديبًا مُـحْسِنًا، وعالِـمًا مُتَفَنِّنًا، فمن ذلك: قولُه، يمنِّي نفسه بمُلْك مِصْر والـحِجاز، ويستدعي صُدورَ تلك الأعجاز [من الخفيف]:

مَنَـعَ العَـيْنَ أن تـذوقَ الـمَناما حُبُّهـا أن تَـرى الـصَّفا والـمَقاما

لي دُيُـونٌ بالـشَّرْقِ عِنْـدَ أُنـاسٍ قَـدْ أحَلُّـوا بالـمَشْعَرَيْنِ الـحَرامَا

إنْ قَـضَوْها نـالوا الأَمـانِي وإلَّا جعلـوا دُونَهـا رقابًـا وهامَـا

عـنْ قَرِيـبٍ تَـرى خُيـولَ هِـشامٍ يَبْلُـغُ النِّيـلَ خَطْوهـا والـشامَا[3]

وفي سنة ثمان وستين وثلاث مئة: أمر المنصورُ بن أبي عامر ببناء قصره المعروف بالزَّاهِرة، وذلك عندما استفحل أمْرُه، واتَّقد جَـمْرُه، وظهر استبدادُه، وكثر حُسَّادُه، وخاف على نفسه في الدخول إلى قصر السُّلطان، وخشيَ أن يقع في أشْطان[4]، فتوثَّق لنفسه، وكُشف له ما سُتِر عنه في أمْسه، من الاعتزازِ عليه، ورفعِ الاستناد إليه، وسَما إلى

(١) هكذا في النسختين، وفي م: «عبد المليك».

(٢) الأبيات في ديوان القسطلي ٣٠١.

(٣) تنظر الحلة السيراء ١/ ٢٧٥، وإلى هنا ينتهي النقل من المطمح.

(٤) قوله: «وخشي أن يقع في أشطان» ليس في ر٢.

ما سَمَتْ إليه الملوكُ من اختراع قَصْرٍ ينزل فيه، ويحُلُّه بأهله وذويه، ويضمُّ إليه رياستَه، ويُتِمُّ به تدبيرَه وسياسته، ويجمع فيه فتيانَه وغلمانه. فارتاد موضعَ مدينته المعروفة بالزاهِرة، الموصوفة[1] بالقصور الباهرة: وأقامها بطَرَف البلد على نَهْر قُرْطُبة الأعظم، ونَسَقَ فيها كلَّ اقتدار مُعْجِز ونَظَم. وشرع في بنائها في هذه السنة المؤرَّخة، وحشد إليها الصُّنَّاعَ والفَعَلة، وجلب إليها الآلاتِ الجليلة، وسَرْبَلها بَهَاء يردُّ العيونَ كَليلة، وتوسَّع في اختطاطها، وتولَّع بانتشارها في البَسيطة وانبساطها، وبالَغَ في رفع أسوارها، وثابر على تسوية أنْجادها وأغوارها. فاتَّسعت[2] هذه المدينةُ في المدَّة القريبة، وصار بناؤها[3] من الأنباء الغريبة. وبُنِيَ مُعْظَمُها في عامَيْن.

وفي سنة سبعين وثلاث مئة: انتقل المنصورُ بن أبي عامر إليها، ونزلها بخاصَّته وعامَّته، فتبوَّأها وشَحَنَها بجميع أسلحته، وأموالِه وأمتعته، واتَّخذ فيها الدواوينَ والأعمال، وعمل داخِلَها الأهْراء[4]، وأطلق بساحتها الأرْحاء. ثُمَّ أقطع ما حَوْلَها لوزرائه وكُتَّابه، وقُوَّاده وحُجَّابه، فاقتنَوْا بأكْنافها كِبارَ الدُّور، وجليلاتِ القصور، واتَّخذوا خلالَها المُستغلَّات[5] المُفيدة، والمَنَازِهَ المَشيدة، وقامت بها الأسواقُ، وكثرت فيها الأرْفاق، وتنافس الناسُ في النزول بأكْنافها، والحُلولِ بأطرافها؛ للدُّنوِّ من صاحب الدَّولَة، وتناهى الغلوُّ في البناء حولَه، حتى اتَّصلت أرْباضُها بأرباض قُرْطُبة، وكثرت بحَوْزتها العِمارة، واستقرَّت في بُحْبُوحتها الإمارة. وأفرد الخليفةَ من كلِّ شيء إلَّا من الاسْم الخِلافيْ، وصُيِّر ذلك هو الرَّسْم العافِي. ورتَّب فيها جلوسَ وزرائه، ورؤُوسِ أُمرائه، وندب إليها كلَّ ذي خُطَّة بخُطَّته، ونصب على بابها كُرْسيَّ شُرْطَته، وأجلس عليه واليًا على رسم كُرْسيِّ الخليفة، وفي صِفَة تلك الرُّتبة المُنيفة. وكتب إلى الأقطار بالأندلس والعُدْوة بأنْ تُحْمَل إلى مدينته تلك أموال الجِبايات، ويقصدها أصحابُ

---

(١) في ر٢: «المختصة».

(٢) في ر٢: «فاتسقت».

(٣) ليست في أ، م.

(٤) جمع هُرْي، وهو المكان الذي يجمع به الطعام.

(٥) في ر٢: «الغلات».

الولايات، وينتابها طُلَّابُ الحَوائج، وحذَّر أن يَعُوجَ عنها إلى باب الخليفة عائج. فاقْتُضِيَتْ لَدَيْها اللُّبانات والأوطار، وانحشد الناسُ إليها من جميع الأقطار. وتَمّ لمحمَّد بن أبي عامر ما أراد، وانتظم بلَبَّةِ أمانيه المُراد، وعطَّل قَصْرَ الخليفة من جميعه، وصيَّره بمَعْزِلٍ من سامعه ومُطيعه، وسدَّ بابَ قصره عليه، وجدَّ في خَبَرٍ ألَّا يَصِلَ إليه، وجعل فيه ثِقَةً من صَنائعه يَضْبِط القصر، ويبسط فيه النَّهْيَ والأمر، ويُشْرِف منه على كلِّ داخل، ويمنعُ ما يَحذره من الدَّواخل، ورتَّب عليه الحُرَّاسَ والبوَّابين، والسُّمَّار والمُنتابين، يُلازمون حِراسةَ مَن فيه ليلًا ونهارًا، ويُراقبون حركاتِهم سِرًّا وجهارًا، وقد حَجَرَ على الخليفة كلَّ تدبير، ومَنَعَه من تملُّكِ قَبيلٍ أو دَبير. وأقام الخليفةُ هشام مهجورَ الفِناء، محجورَ الغَناء، خفيَّ الذِّكْر، عليلَ الفِكْر، مسدودَ الباب، محجوبَ الشخص عن الأحباب، لا يراه خاصٌّ ولا عامّ، ولا يُخاف له[1] بأسٌ ولا يُرْجَى منه إنعام، ولا يُعْهَد منه إلَّا الاسْمُ السلطانيُّ في السِّكَّة والدَّعْوة، وقد نَسَخَه ولَبِس أُبَّهتَه، وطمس بَهْجَتَه. وأغْنَى الناسَ عنه، وأزال أطماعَهم منه، وصيَّرهم لا يعرفونه، وأمَرهم أنَّهم لا[2] يذكرونه.

واشتدَّ مُلْكُ محمَّدِ بن أبي عامر منذ نزل قَصْرَ الزاهِرة، وتوسَّع مع الأيَّام في تشييد أبْنِيَتها، حتَّى كَمُلَتْ أحسنَ كمال، وجاءت في نهاية الجمال؛ نَقاوةَ بِناء، وسَعَةَ فِناء، واعتدالَ هواء رقَّ أدِيمُه، وصَقالةَ جَوٍّ اعتلَّ نَسِيمُه، ونُضرة بُستان، وبهجةً للنفوس فيها افتنان. وفيها يقولُ صاعِدٌ اللُّغَويُّ [من البسيط]:

يا أيُّها المَلِكُ المَنْصُورُ من يَمَنٍ ... والمُبْتَني نَسَبًا غَيْرَ الذي انْتَسَبا

بِغَزْوةٍ في قُلوبِ الشِّرْكِ رائِعةٍ ... بَيْنَ المنايا تُناغي السُّمْرَ والقُضُبا

أما تَرى العَيْنَ تَجْري فَوْقَ مَرْمَرِها ... زَهْوًا فَتُجْري على أحسائها[3] الطَّرَبا

أجْرَيْتَها فَطَما الزاهي بجِرْيَتِها ... كَما طَمَوْتَ فَسُدْتَ العُجْمَ والعَرَبا

تَخالُ فيه جُنودَ الماءِ رافِلةً ... مُسْتَلئِماتٍ تُريكَ الدِّرْعَ واليَلَبا

---

(١) في ر٢: «منه».

(٢) في ر٢: «ألا».

(٣) في ر٢: «أحنائها»، وفي النفح: أحفافها.

تَـــحُفُّها مـــن فُنُـــونِ الأيْـــكِ زاهِـــرةٌ قــد أورقَــتْ فِـضَّةً إذ أثْمَـرَتْ ذَهَبـا
بَدِيعَــةُ الـــمُلكِ مــا يَنْفَــكُّ ناظِرُهــا يَتْلُــو عــلى الــسَّمْعِ مِنْهــا آيَــةً عَجَبــا
لا يُحْسِنُ الـدَّهرُ أن يُنْشِيْ لهـا مَـثَلًا ولَـــوْ تَعَنَّـــتَ فيهـــا نَفْــسَهُ طَلَبــا[1]

ودخل عليه عمرُو بن أبي الـحُبَاب[2] في بعض قصوره من الـمُنْيَة المعروفة بالعامِريَّة، والرَّوْضُ قد تفتَّحت أنوارُه، وتوشَّحت نِجادُه[3] وأغوارُه، وتصرَّف فيها الدهرُ متواضِعًا، ووقف بها السعدُ خاضِعًا، فقال [من البسيط]:

لا يَـــوْمَ كـــاليومِ في أيّامِـــك الأُوَلِ بالعامِريَّـــةِ ذَاتِ المـــاء والظُّلَــــلِ
هَوَاؤُهـــا في جَميـــعِ الـــدَّهْرِ مُعْتَــدِلٌ طِيبـاً وإن حَـلَّ فَـصْلٌ غَـيْرُ مُعْتَـدِلِ
مـــا إنْ يُبـــالي الـــذي يَحْتَـــلُّ ســـاحَتَها بالسَّعْدِ أَلَّا تَـحُلَّ الشَّمْسُ بالـحَمَلِ[4]

وما زالت هذه المدينةُ رائقة، والسعودُ بلبَّتها مُتناسقة، تُراوحها الفتوحُ وتُغاديها، وتَجلِب إليها منكسرةً أعاديها، ولا تزحف منها رايةٌ إلَّا إلى فَتْح، ولا يَصدر عنها تدبيرٌ إلَّا إلى نَجْح، إلى أن حان يَوْمُها العَصيب، وقُيِّض لها من المكروه أوفرُ نصيب، فتولَّتْ فَقيدة، وخلَتْ من بَهْجتها كلُّ عقيدة[5].

وأشاع ابنُ أبي عامر أنَّ السلطانَ فوَّض إليه النظرَ في أمر الـمُلْك، وتخلَّى له عنه لعبادة ربِّه. وانْبَثَّ ذلك في الرعيَّة حتَّى اطمأنُّوا إليه، مع قوَّة ضَبْطه وسُرْعة بَطْشه.

---

(١) الأبيات في نفح الطيب ١/ ٥٨١.

(٢) هكذا في الأصل، قال صديقنا العلامة إحسان عباس يرحمه الله: «وهو خطأ، وأظن أن ابن أبي الحباب هو أحمد بن عبد العزيز بن أبي الحباب النحوي (ت ٤٠٠) أحد تلامذة القالي، وقد ترجم له الحميدي في موضعين، مرة باسمه ومرة بكنيته «أبو المطرف» وكنّاه في الأولى بأبي عمر، ولعل هذا موضع اللبس والاضطراب بتسميته «عمرو» في البيان، وفي الترجمة الثانية أورد الحميدي شعره في المنية العامرية» (تعليقه على النفح ١/ ٥٨١)، وتنظر جذوة المقتبس بتحقيقنا (٩٥٦).

(٣) في م: «بجاده»، وهو تصحيف صوابه ما أثبتناه.

(٤) نقلها المقري في النفح ١/ ٥٨١، وهي في جذوة المقتبس باختلاف لفظي، ص٥٨٨.

(٥) نفح الطيب ١/ ٥٨١-٥٨٢.

فانتظم له ذلك كلُّه وأكْثَرُ منه، بعد أن حصَّن قصرَ الخليفة في هذا الوقتِ بالسُّور الذي أدار حَوْلَه، وعمل الـخَنْدَق الـمُطِيف به من جانبَيْه، والأبوابَ الوَثيقة بالأحراس والسُّمَّار الذين وضعهم بأنْقابه. ومنع الخليفةَ من الظُّهور، ووكَّل بأبوابه مَن يمنع وصولَ خَبَرَ إليه أو أمْرٍ من الأمور إلَّا عن إذْنه، فإنْ عُثِرَ على أحد من الناس في تجاوُز هذا الحدِّ، عاجَلَه ونكَّل به.

والأخبارُ عنه في هذا المعنى واسعةٌ جدًّا، غَيْرَ أنَّ الاختصارَ في ذلك: أنَّ ابن أبي عامر بلغ من ذلك مَبْلَغًا لم يبلغه قط مُتغلِّبٌ على خليفة؛ لأنَّه احتوى على الـمُلْك كُلِّه، وصيَّر الخليفةَ قُبْضةً في يده، حتَّى أنَّه لم يكن يُنْفَذ له أمْرٌ في داره ولا حُرَمِه إلَّا عن إذْنِه وعِلْمه. وجعل مُتَوَلِّيَ قصره من قِبَله مَن يَثِقُ به، وصيَّره عَيْنًا على السلطان، لا يخفى عليه شيءٌ من حركاته وأخباره.

ولـمَّا ترقَّى ابنُ أبي عامر إلى هذا القَدْر، عمل في مكروه القائد الكبير غالبٍ الناصِريِّ صِهْرِه، والتوطئة لأسبابِ هَدْمه. فرأى أن يَبْنِيَ عليه ضِدًّا له من أصحاب السُّيوف والحِرابة المشهورين؛ لأنَّ غالبًا كان يستطيلُ على ابن أبي عامر بأسباب الفُرُوسيَّة، ويُبايِنه[1] بمعاني الشجاعة، ويَعْلُوه من هذه الجهة التي لم يتقدَّم[2] لابن أبي عامر بها معرفة. فلم يجد لذلك مِثْلَ جعفر بن عليٍّ بن حَمْدُون المعروف بابن الأنْدَلُسيِّ؛ شدَّةَ بأسٍ، ورَبْطَ جأش، ونَباهةَ ذِكْر، وجلالةَ قَدْر. فجدَّ في استجلابه، وهو مُقيم بالعُدْوة. وآلُ عليٍّ مـمَّن أطاع الخليفةَ هشامًا مِن زَنَاتة، فبعث ابنُ أبي عامر إليه، وتواترت كُتُبُه إليه، فأسلم العملَ إلى أخيه يحيى، وعبر إلى الأندلُس بجيشه، فنزل قَصْرَ العُقاب، بعد أن أعدَّ له ما يصلح فيه. فاستوزره ابن أبي عامر؛ فعَظُم شأنُه، وأحلَّه محلَّ الأخ في الثِّقَة، وقدَّمه على الكافّة[3]، فوجد عنده ما أحبَّه، وفَوْقَ ما قدَّره، فاعتدل بالبَرابرة أمْرُه، وقَوِيَ ظَهْرُه، وكانت هذه القطعةُ من البَرْبَر نحو الستِّ مئة. وما زال بعد ذلك يَستدعيهم ويتضمَّن الإحسانَ إليهم، والتوسعةَ عليهم، إلى أنْ أسرعوا إلى الأنْدَلُس، وانثالوا

---

(١) في أ: «ويفايقه».

(٢) في ر٢: «يكن».

(٣) في أ، م: «الكفاة».

على ابن أبي عامر، وما زالوا يتلاحقون، وفُرسانُهم يتواترون، يجيءُ الرَّجلُ منهم بلباس الـخَلَق على الأعْجَف، فيُبَدَّل له بلباس الـخَزِّ الطِّرازيِّ وغيره، ويُركَب الجوادَ العَتيق، ويُسكَن قصرًا لم يَتصوَّر له في مَنامه مِثْلُه، حتَّى صاروا أكْثَرَ أجنادِ الأندلُس. ولم تزل طائفةُ البَرْبَر خاصَّةَ ابنِ أبي عامر وبِطانَتَه، وهُمْ أظهرُ الـجُنْد نِعمةً، وأعلاهم مَنْزِلةً.

ولـمَّا علم غالبٌ بإدْناء جعفر، علم الغَرَضَ فيه؛ ففسد ما بينهما، ووقع بينهما مَعارِكُ وفِتَنٌ كان الظَّفَرُ فيها لابنِ أبي عامر على غالب. ومات وهو يقاتِلُه مع النصارى، وكان قد استجلبهم إليه في خَبَرٍ طويل. فوُجِدَ غالِبٌ مقتولًا في مَجال الـخَيْل، وابنُ أبي عامر كاد أن ينهزم له. فقيل: إنَّ قَرَبُوس سَرْجه قتَلَه. وقيل غير ذلك. فكان ذلك أكبرَ سَعْدِ ابنِ أبي عامر، ولم يَبْقَ له بعد ذلك مَنْ يخاف منه.

ولـمَّا فرغ ابنُ أبي عامر من غالب، دبَّر الحيلةَ في حَتْفَ[1] جعفر بن عليّ، الذي أقامه أكبرَ مُعِينٍ في أمر غالب؛ فواطأ على قَتْله أبا الأحْوَص مَعْنَ[2] بن عبد العزيز التُّجِيبيَّ فارِسَ العَرَب، في طائفة من أصحابه الأندلُسيِّين، فقتلوه غِيلةً، ثمَّ قتل ابنُ أبي عامر بعد ذلك أبا الأحْوَص، وانفرد وحدَه.

وفي سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة: تسمَّى ابنُ أبي عامر بالمنصور، ودُعِي له على المنابر به، استيفاءً لرُسوم الملوك، فكانت الكُتُب تُنْفَذ عنه: من الحاجبِ المنصور أبي عامر محمَّد بن أبي عامر إلى فلان. وأخذ الوزراءُ بتقبيل يده، ثمَّ تابعهم على ذلك وجوهُ بني أُمَيَّة، فكان مَن يدخل عليه من الوزراء وغيرِهم يُقبِّلون يدَه، ويمُوِّلونه عند كلامه ومخاطبته. فانقاد لذلك كبيرُهم وصغيرُهم، وإذا بدا لأبصارهم طِفْلٌ مِن وَلَده، قاموا إليه، فاستَبَقُوا ليده تقبيلًا، وعمُّوا أطرافَه لَثْمًا. فساوى محمَّدُ بن أبي عامر الخليفةَ في هذه المراتب، وشاركه في تلك المذاهب. ولم يجعل فَرْقًا بَيْنه وبينه إلَّا في الاسْم وحْده في تصدير الكُتُب عنه، حتَّى تنامت[3] حالُه في الجلالة، وبلغ غاية العزِّ والقُدرة.

---

(١) في ر٢: «قتل».

(٢) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٣١-٢٣٢.

(٣) في ر٢: «تناهت».

قال حَيَّان بن خَلَف: وقرأتُ في بعض الكُتُب أنَّ محمَّد بن أبي عامر، لـمَّا حَجَبَ هشامًا عن الناس واستبدَّ بالأمر دونه، ظهرتْ فيهم بقُرْطُبَة أقوالٌ مُعَرِّضة أفشَوْا بينهم فيها أبياتًا فاحشةً، فمن ذلك: ما قيل على لسان هشامٍ الخليفة في شكواه لهم [من الوافر]:

أَلَـيْسَ مِـنَ العَجائـبِ أنَّ مِـثْلِي يَـرَى مـا قَـلَّ مُـمْتَنِعًا عَلَيْـهِ

وتُـمْلَكُ[1] باسْـمِهِ الـدُّنيا جَميعًـا ومـا مـن ذاك شيءٌ في يَدَيْـهِ!

ومـمَّا قيل في تقديم هِشام، وهو صغيرٌ لم يبلغ الـحُلُم، وفي قاضيه ابنِ السَّليم [من السريع]:

اقْـتَرَبَ الوَعْـدُ وحـانَ الـهَلاكْ وكُـلُّ مـا تَكْرَهُـه قَـدْ أتـاكْ

خَلِيفَـةٌ يلعـب[2] في مَكْتَـبٍ وأُمُّـه حُـبْلَى وقَـاضٍ يُنـاكْ

يريد بذلك شَغَفَ أُمِّ هشام بابن أبي عامر؛ لأنَّها كانت تُتَّهَمُ به، وهي أوصلَتْه إلى حيثُ وصل من الحال التي لم يتمكَّن لأحد قَبْلَه ولا بَعْدَهُ مِثْلُها، فسَلَب هشامًا مُلْكَه وجُندَه ومالَه.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاث مئة: قُتِلَ جعفرُ بن عليٍّ بن حَمْدون المعروف بابن الأنْدَلُسيِّ؛ وذلك أنَّ المنصورَ عزم ـ بزَعْمه ـ على إكرام جعفرٍ المذكور ليلةَ الأحد لثلاث خلون من شعبان من السنة، مَكْرًا منه، وحيلةً لقتله، فانتخبه ساقي المجلس كأسًا، فقال له ابنُ أبي عامر: «اسْقِها أعَزَّ الناس عليَّ»، فأمسك الساقي حَيْرةً لكثرة مَن ضمَّ المجلسُ من العِلْية، فزجره ابنُ أبي عامر وقال: «ناوِلْـها الوزيرَ أبا أحمد، عليك لعنة الله!» فقام جعفر، فتناولها على قَدَمه، واستخفَّه الطَّرَبُ حتَّى قام يَرْقُص، فلم يَبْقَ أحَدٌ بالمجلس إلَّا فعل كفِعْلِه، وأُميلت إليه الكؤوسُ حتَّى ثَقُلَ وانصرف في جوف[3] الليل مع بعض غِلْمانه، فخرج إليه مَعْنٌ وأصحابه، فلم يكن فيه امتناعٌ؛ لِـما كان عليه من السُّكْر، فأخذَتْه السيوفُ حتَّى بَرَدَ، وحُزَّ رأسُه ويده اليُمنى، وحُمِلا إلى ابن أبي عامر سِرًّا. فأظهر ابن أبي عامر الـحُزْنَ عليه.

---

(١) في ر٢: «وتؤكل».

(٢) في ر٢: «يحضر».

(٣) في ر٢: «بعض».

وفي سنة خمس وسبعين وثلاث مئة: جهَّز المنصورُ جيشًا كَثيفًا، وبعثه إلى العُدْوة، فحاصر حَسَنَ بن قَنُّون الشريف الـحَسَنيّ. وكان حاوَلَ الخروجَ من الدعوة المروانيَّة[1]، واجتمع إليه خَلْقٌ من أهل الغرب، وظهر أمرُه، فوصله الجيشُ العَرَمْرَم[2]، فلم يجد ملجأً إلّا الاستسلامَ للأمان. فأمَّنه قائدُ الجيش، وحمله إلى قُرْطُبة مرقَّبًا. فلم يُمْضِ ابنُ أبي عامر أمانَه، وأمر بقتله لَيْلًا في الطريق بَغْيًا وتَعَدِّيًا؛ لأنَّ أمانَ قائده أمانُه، فقال مَن شاهد قَتْلَه أن هبَّتْ عليهم ريحٌ عاصفٌ في تلك الليلة التي قُتِل فيها غَدْرًا ذلك الشريفُ، صَبَّتْهم على وجوههم، وسلَبَتْهم أثوابَهم، واحتملتْ رِداء حَسَنٍ المقتول، فلم يجدوه، وأظلم عليهم الأُفُق حتَّى خافوا على أنفسهم.

وفيها: تفرَّق بنو إدْريسَ في البلاد، وملك ابنُ أبي عامر الغَرْب، وأخرج منه مَن كان بقي به من الأدارِسة. فقيل في ذلك[3] [من الكامل]:

فِـيما أرَى عَجَـبٌ لِـمَنْ يَتعجَّـبُ ... جَلَّـتْ مُـصِيبتُنا وضـاقَ الـمَذْهَبُ
إنِّي لأُكْـذِبُ مُقْلَتِـي فـيما أرى ... حتَّـى أقـولَ: غَلِطـتُ فـيها أحْـسَبُ
أيكـونُ مـن أبْنَـا[4] أُمَيَّـةَ واحِـدٌ ... ويَسُوسُ ضَخْمَ الـمُلْكِ هذا الأحْدَبُ!
تَـمْشِي عَـساكِرُهُمْ حَـوالَيْ هَـوْدَجٍ ... أعْـوادُهُ فِـيهِنَّ قِـرْدٌ أَشْـهَبُ
أبَنِـي أُمَيَّـةَ أيْـن أقـمار الـدُّجى ... مِـنْكم ومـا لوجُوهِهـا تَتَغَيَّـبُ؟

ثمَّ قام بعد ذلك في الغَرْب على ابن أبي عامر زِيري[5] بنُ عَطِيَّة الـمَغْراويُّ، ونكث طاعتَه بعد الحُبِّ الشديد والوَلاء الأكيد، وطعن على ابنِ أبي عامر تَغلُّبَه على هشام وسَلْبَه مُلْكَه. فأنفذ له ابنُ أبي عامر واضِحًا الفَتَى في جيش كثيف، فقاوَمَه بالغَرْب،

---

(١) في ر٢: «طاعه ابن أبي عامر».

(٢) ليست في أ.

(٣) القائل هو إبراهيم بن إدريس الحسني، وترجمته في جذوة المقتبس (٢٦٥) وتعليقنا عليها، والأبيات في ترجمته من الحلة السيراء ١/ ٢٢٧.

(٤) هكذا في النسختين، وفي الحلة: «حيًا من» بدلًا من «من أبنا».

(٥) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٩.

ودارت بينهم حروبٌ عظيمةٌ. ثمَّ أردفه ابنُ أبي عامر بوَلَده عبدِ الملك، وهبط ابنُ أبي عامر إلى الجزيرة الخضراء، يمدُّهم بالقُوَّاد والأجناد. وسار عبدُ الملك بن أبي عامر من طَنْجَةَ إلى زِيري بن عَطِيَّة، ودارت بينهم حربٌ، لم يُسمَعْ بمثلها قطُّ. ثمَّ انهزم زِيرِي ومَن معه، ونجا مُثْخَنًا بالجِراح. وملك ابنُ أبي عامر بلادَ الغَرْب إلى سنة سبع وسبعين وثلاث مئة.

وكان أوَّلَ مَن ملك سَبْتة من بني أُمَيَّة وملك منها الغَرْب[١] عبدُ الرحمن الناصر، وسَبَبُ ذلك: أنَّه[٢] وجَّه إليها أُسْطولًا، فلمَّا حلَّتْ بسَبْتة، أعلن أهْلُها بدعوته، وبادروا إلى طاعته، يَوْمَ الجمعة صَدْرَ ربيع الأوَّل من سنة تسع عشرة وثلاث مئة، ثمَّ تتابعت البلادُ بالطاعة، ثمَّ تكاثر ورودُ وُفودها عليه وعلى الـحَكَم ابنه، ثمَّ التاثَتْ طاعتُها على ابن أبي عامر؛ فوجَّه واضِحًا فتاهُ، فسكن في جَبَل أبي حَبيب عامًا في الأخْبِية، ثمَّ وجَّه بابنه عبدِ الملك إليها، فالتقى بزِيرِي وهزمه، وغدره[٣] ابنُ عمِّه الـخَيْرُ بن مُقاتِل، فطعنه برُمح في قَفَاه وهرب، ومات بعد ذلك زِيرِي من الـجُرْح بعدما لقيَ جُموعَ صُنْهاجة، أصحاب إفْريقية، وهَزَمَهم.

وانصرف عبدُ الملك بعدما استقامت له الطاعةُ بالغَرْب، فوجد أباه في غَزاته بلاد البشاكِشة مُنصرِفًا عنها، والتقى به بسَرَقُسْطة، وهي التي تُسمَّى بغزاة البَيَاض، سنة تسع وسبعين وثلاث مئة.

وفي سنة تسع وسبعين وثلاث مئة: قَتَل المنصورُ بن أبي عامر عبدَ الرحمن بن مُطَرِّف صاحِبَ سَرَقُسْطة والثَّغْرِ الأعلى، وسبب ذلك: أنَّه، لـمَّا فكَّر عبدُ الرحمن في شأن مَنْ أتْلَفَه ابنُ أبي عامر من كبار رجال الدولة، علم أنَّه لم يَبْقَ غيرُه، وخَشِيَ أن يُلحِقَه بالجماعة، فسوَّل له القَدرُ الـمُتاحُ التدبيرَ على محمَّد، وقرَّب عليه مأخَذَه وَلَدُه عبدُ الله[٤] ابن المنصور.

---

(١) في أ: «وكان سبب تملك بني أمية مغرب العدوة».

(٢) «وسبب ذلك أنه» ليست في أ.

(٣) في ر٢: «وطعنه».

(٤) له ذكر في المغرب لابن سعيد ١/ ٢١٢.

ذكر تدبير عبد الرحمن بن مُطَرِّف

مع عبد الله ابن المنصور في القيام عليه

وذلك أنَّ عبدَ الله بن محمَّد بن أبي عامر كان مُقيمًا بِسَرَقُسْطة عند عبد الرحمن، مُتغيِّرَ النفس على أبيه؛ لإحظائه عبدَ الملك أخاه. وكان عبدُ الله يرى أنَّه أشجعُ وأفهم وأرْجَلُ وأفْرس من أخيه عبدِ الملك، وأنَّ أباه عَيْنُ الظالم له في التسوية بعبد الملك، فكيف في تقديمه عليه! فكان في قلبه على أبيه سعيرُ نار، أذْكاها عبدُ الرحمن بن مُطَرِّف وأضرَمَها. فتوطَّآ على الوُثوب بالمنصور في أوَّل فُرصة، على أن يَقسِما مُلْك الأندلس: فالحضرةُ لعبد الله، والثَّغْر لعبد الرحمن. وشَرَعا في إحكام سبيل ذلك والتماسِ وجهه، وساعَدَهما عليه جماعةٌ من وجوه أهل قُرْطُبة من الـجُنْد والـخَدَمة وغيرهم، فيهم الوزيرُ عبد الله بن عبد العزيز الـمَرْوانيُّ صاحب طُلَيْطُلة. فانبثَّتْ أراجيفُ شنيعةٌ تَحقَّقَ المنصورُ صحَّتَها، ولم يشكَّ فيها، فاستدعى ابنَه عبد الله من سَرَقُسْطة، واستأنف له كثيرًا من التقديم والـمَبَرَّة، خديعةً ومُغالطةً، وصرف المروانيَّ عن طُلَيْطُلة صَرْفًا جميلًا، ثمَّ صرفه عن الوزارة بعد مُدَيْدة، وألزمه دارَه. ثمَّ خرج ابنُ أبي عامر غازيًا إلى قَشْتِيلة، فتوافت إليه أمدادُ الثغور، فيهم عبدُ الرحمن بن مُطَرِّف ورجال سَرَقُسْطة، فلمَّا صاروا بوادي الـحِجَارة، أطبق أهْلُ الثغور على الشكوى بعبد الرحمن، بدَسِيسةٍ من ابن أبي عامر لهم في ذلك، حيلةً منه، وذكروا أنَّه يحتبسُ أرزاقَهم، ويَحْتَجِن لنفسه؛ فصرفه المنصورُ عن سَرَقُسْطة مُنْسَلَخَ صفر من سنة تسع وسبعين المذكورة[1]، وقلَّدها مكانَه ابْنَ أخيه عبدَ الرحمن بن يحيى[2] الملقَّب بِسِماجة؛ إطماعًا لقومه التُّجِيبيِّينَ في المحافظة. ولبث عبدُ الرحمن في العسكر متردِّدًا إلى أن قُبض عليه يومَ الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأوَّل. وسخط عليه المنصورُ، وأمر بحسابه، ثمَّ قُتِلَ بعد ذلك بالزَّاهِرة بين يدَي المنصور.

---

(١) قوله: «منسلخ صفر من سنة تسع وسبعين المذكورة» ليس في ر٢.

(٢) في أ: «ابن عبد الرحمن يحيى».

واستدعى المنصورُ ابنَه عبد الله إلى عسكره خوفَ أنْ يُـحْدِث حَدَثًا بأنَفته، فوافى العسكرَ، فَرَفَق به أبوه، وأمَّل استصلاحَه، وقد تباعد ذلك عليه؛ لسُقْم سَريرته وشدَّة حِقْدِه. ونازل المنصورُ أثناء ذلك مدينةَ شَنْت أشْتَبِين، فلمّا اشتغل المسلمون بالقتال، فرَّ عبدُ الله بن المنصور من العسكر في ستَّة نفر من غلمانه، فلحق بعدوِّ الله غَرْسِيَة[1] بن فرذِلَنْد صاحب آلَبَة، فقَبِلَه وأجازه على أبيه، فتحرَّك المنصورُ لغزو غَرْسِية ومُطالبتِه بإسلام ابنه إليه، وأقسم له أنَّه لا يُقلِعُ عنه حتَّى يُمْكِنه من ولَدِه، وأصرَّ غَرْسِيَةُ على الامتناع من ذلك، فهزم المنصورُ جيشَ[2] غَرْسِيَة، وفضَّ جَمْعَه، واشتقَّ بلدَ آلَبة، وافتتح حِصْنَ وخْشُمة عَنوةً، أسكنه المسلمين، فضرع غَرْسِيَةُ في مُسالمته على ما شاء من شُروطه في عبد الله وغيره، فعقد له المنصورُ الأمان[3] على ذلك، فوكَّل غَرْسِيَة بعبد الله جماعةً من العُلُوج، وحُمِل عبدُ الله وأصحابُه على البغال. وخرج سَعْدٌ الخادِم يستقبل عبدَ الله، فدنا من سَعْد وهو على بَغْلٍ فارِهٍ، مُرتفِع الـحِلْيَة، عليه ثَوْبُ وَشْي عجيب الصنعة، وهو مُتَطَلِّقٌ، قويُّ الرجاء في الإقالة. فقبَّل سَعْدٌ يَدَه، وأنّسه، وهوَّن عليه الـخَطْبَ، ثمَّ تخلَّف عنه بقُرب الوادِي الجوفِيِّ، ووكَّل به مَن قتله، فحفَّ به الموكَّلون وأعلموه بموته.

ذكر مقتل عبد الله ابن المنصور

ولـمَّا أعلموه بأنْ حلَّ به ما كان يَحذره، أمروه بالنزول، فلم يمتنع لهم، وترجَّل، ومشى إلى السيف مُتَطَلِّقًا، فظهرتْ منه عند الموت صَرامةٌ، عَجِبَ لها مَن شاهَدَه، وتقدَّم إليه ابنُ خفيف الشُّرْطيُّ، فضرب عُنقَه صَبْرًا عند غروب الشمس من يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلةً خلت من جُمادى الآخرة سنة ثمانين وثلاث مئة، وأنفذ المنصورُ رأسَ ابنه إلى الخليفة مع كِتاب الفَتْح، ودُفِن جسدُه في الموضع الذي قُتِل فيه. وكان سِنُّه يومَ قُتِل ثلاثًا وعشرين سنة، وذلك في غزوته الخامسة والأربعين. ثُمَّ إنَّ ابنَ أبي عامر استثقل سَعْدًا وابْنَ خفيف، ولم يزل حاقدًا عليهما، حتَّى قتلهما بعد الامتحان. وازداد ابنُ أبي عامر بها فَعَلَه بابنه هيبةً، ومُلِئتْ قلوبُ الناس منه ذُعرًا.

---

(١) من هنا إلى قوله «غرسية» في السطر الذي بعده قفز نظر الناسخ فسقط من ر٢.

(٢) من ر٢.

(٣) من ر٢.

ومـمَّا حُكي في أمر عبد الله المقتول: قال الوزيرُ أبو عمر بن عبد العزيز: لـمَّا قَتَل المنصورُ ابنَه، ارتاع الناسُ لذلك، وأوحشهم فعلُه، فتكلَّموا في ذلك كثيرًا، ورجموا فيه الظُّنون، ولم يتوجَّه لأحدٍ فيه سَبَبٌ يقضي بقتله[١]. ثمَّ تحرَّكَ المنصورُ إثْرَ ذلك في بعض غزواته، فلمَّا احتلَّ بقَلْعة رَبَاح، قال الـمُخْبِر: دُعِينا إلى الطعام، فلمَّا كُنَّا في وسط الطعام، وقد استفاض الحديثُ في عبد الله المقتول، فقال مَن حضر على لسان واحد: أيَّدَ اللهُ المنصورَ، لقد صِرْتَ من قتلِه في غايةٍ يُعدم الصبرُ في مِثْلِها، فما سَبَب ذلك؟ قال: لا أعلم له سَبَبًا، إلَّا أنِّي لـمَّا عُرِضَتْ أمُّه، عَلِقْتُ بها، وتمكَّن من قلبي حبُّها تمكُّنًا لم أقدر أن أسلُوَ عنه. فابتعْتُها، متجاوزَ النهاية في ثمنها، وجعلتُها عند قريبةٍ لي. وكنتُ كلَّ يومٍ أخطرُ عليها أتعرَّف استبراءها، فلمَّا أحسَّتْ بحُبِّي لها، وكَلَفِي بها، تَوَخَّت رِضائي، وذكَرَتْ لي أنَّها قد استبرأتْ، وهي كاذبةٌ في ذلك، تريد بذلك موافقةَ مَسارِّي واستعجالَ مُرادي، فدخلتُ بها وهي لم تستبرأ، فكنتُ شاكًّا فيه. وكان مولده سنة ثمان وخمسين وثلاث مئة.

حكاية زَطَرْزُون البَرَبْرَيِّ مع المنصور: وجرت للمنصور غِبَّ[٢] ذلك مع رجلٍ من أعيان البربر اسمه زَطَرْزُون بن نِزار البِرْزاليُّ نادرةٌ؛ وذلك أنَّه قال يومًا، وقد بسطه في بعض المجالس: يا مولاي، لِـمَ قتلتَ عبدَ الله ابنك؟ ووصف شجاعتَه وخِصاله، فقال له المنصور: لا يَسُؤك ذلك، فلو لم أفعل لقَتَلَني، ما كان من ولدي! وبهذا اتَّهمْتُ أُمَّه، وكانت أمَةَ سَوْء. وقد قالوا: «إنَّ الأرحام الرديَّة تُفْسِد الذُّرِّيَّة»، فقال الجاهلُ زَطَرْزُون: «كذا يا مولاي؟» فحَرَامُ أُمِّه وحِرْمُ أبيه، فخجل المنصورُ لذلك[٣] وقال: شَقِينَا بهذا الملعونِ في حياته وبعد موته! وعلم ما كان عليه زَطَرْزُون من الجهالة، فأعرض[٤] عنه. وصارت كلمتُه مأثورةً في الناس مدَّة طويلة.

---

(١) قوله: «ولم يتوجه لأحد فيه سبب يقتضي بقتله».

(٢) في ر٢: «إثر».

(٣) من ر٢.

(٤) في ر٢: «فتغافل».

وكان المنصورُ آيةً من آياتِ فاطِرِهِ دهاءً ومَكْرًا وسياسةً[١]: عدا بالـمَصَاحِفة على الصَّقَالِبة حتَّى قتلهم[٢] وأذلَّـهم[٣]، ثمَّ عدا بغالبٍ الناصِريِّ على الـمَصَاحِفة حتَّى قتلهم وأبادهم، ثمَّ عدا بجعفرٍ ابن الأندلُسيِّ على غالبٍ حتَّى قتله، ثمَّ عدا بنفسه على جعفر وقتله، ثمَّ انفرد بنفسه وصار يُنادي صُرُوفَ الدَّهْر: «هل مِنْ مُبَارِز؟» فلمَّا لم يَـجِده، حَمَلَ الدهرَ على حُكْمه، فانقاد له وساعَدَه، فاستقام أمرُه، منفردًا بمملكةٍ لا سَلَفَ له فيها. ومن أوضَحِ الدلائل على سعده: أنَّه لم يُنْكَب قطُّ في حربٍ شَهِدَها، وما توجَّهت قطُّ عليه هزيمة، وما انصرف عن موطنٍ إلَّا قاهرًا غالبًا، على كثرة ما زاول من الحروب، ومارس من الأعْداء، وواجَهَ من الأُمَم. وإنَّها لخاصّةٌ ما أحسبُ شَرِكَه فيها أحَدٌ من الملوك الإسلاميَّة. ومن أعظم ما أُعين به، مع قوَّة سعدِه، وتمكُّن جَدِّه: سعةُ جُوده وكثرة بَذْله، فقد كان في ذلك أعجوبةَ الزمان، وأوَّلَ ما اتَّكأ على أرائكِ الـمُلْك وارتفق، وانتشر عليه لِواء السَّعد وخَفَق، حطَّ صاحِبَهُ الـمُصْحَفيَّ، وأثار له كامِنَ حِقْده الـخَفيّ، حتَّى أصاره للهموم لَبِيسًا، وفي غَيابات السجون حَبيسًا، فكتب إليه يستعطفه[٤] [من البسيط]:

هَبْنِي أسـأتُ فـأيْنَ العَفْـوُ والكَـرَمُ ... إذْ قـادَني نَحْـوَكَ الإذْعـانُ والنَّـدَمُ!

يا خَيْرَ مَنْ مُـدَّت الأيْـدِي إلَيْـه أمـا ... تَرْثِـي لِـشَيْخٍ نَعـاهُ عِنْـدَكَ القَلَـمُ!

بالغْتَ في السُّخْطِ فاصفَحْ صَفْحَ مُقْتَدِرٍ ... إنَّ الـمُلوكَ إذا مَـا استُرْحِمُوا رَحِمـوا

فما زاده ذلك إلَّا حَنَقًا وحِقْدًا، ولا أفادته الأبيات إلَّا تضرُّمًا ووَقْدًا، فراجَعَه بها أيْأسَه، وأراه مَرْمَسَه، وأطبق عليه محبسَه، وضيَّق تروُّحه من المحنة وتنفُّسَه[٥] وهو قوله [من البسيط]:

---

(١) ليست في ر٢.

(٢) في ر٢: «أبادهم».

(٣) ليست في ر٢.

(٤) ليست في ر٢.

(٥) في ر٢: «مخنقه ومتنفسه».

الآنَ يـا جـاهِلاً زلَّـتْ بِـك القَـدَمُ | تَبْغِـي التَّكَـرُّمَ لـمَّا فاتَـكَ الكَـرَمُ!
أغْرَيْــتَ بي مَلِكًــا لَــوْلا تَثَبُّـــتُهُ | مـا جـاز لي عِنْـدَه نُطْـقٌ ولا كَلِـمُ
فايْأسْ مِنَ العَيْشِ إذْ قَد صِرْتَ في طَبَقٍ | إنَّ الـمُلُوكَ إذَا مَـا استُنْقِمُوا نَقَمـوا
نَفْسِي إذا سَخِطَتْ لَيْسَتْ بِراضِيةٍ | ولَـوْ تَـشَفَّعَ فِيـكَ العُـرْبُ والعَجَـمُ

وكان من أخبار المنصور الداخلة في أبواب البرِّ والقُرْبة: بُنيانُ المسجد الجامع والزيادة فيه سنة سبع وسبعين وثلاث مئة؛ وذلك أنَّه، لـمَّا زاد الناسُ بقُرْطُبة، وانجلب إليها قبائلُ البَرْبَر من العُدْوة وإفْرِيقيَة، وتناهى حالُـها في الجلالة؛ ضاقت الأرباضُ وغَيْرُها، وضاق المسجدُ الجامع عن حَمْل الناس؛ فشرع المنصورُ في الزيادة بشرقيِّه حيث يتمكَّن الزيادةُ لاتِّصال الجانب الغَرْبيِّ بقصر الخلافة. فبدأ ابنُ أبي عامر هذه الزيادةَ على بَلَاطات تمتدُّ طُولًا من أوَّل المسجد إلى آخِره، وقصد ابنُ أبي عامر في هذه الزيادة المبالغةَ في الإتقان والوَثاقة دون الزَّخْرَفة، ولم يقصِّر مع هذا عن سائر الزيادات جُودةً ما عدا زيادة الـحَكَم. أوَّلُ ما عمله ابنُ أبي عامر تطييبُ نُفوس أرباب الدُّور والـمُستَغَلَّات الذين اشتُرِيتْ منهم للهَدْم لهذه الزيادة، بإنصافهم من الثَّمَن أو بمُعَاوَضةٍ. وصنَع في صَحْنه الـجُبَّ العظيمَ قَدْرُه، الواسعَ فناؤُه. وابنُ أبي عامر رتَّب إحراقَ الشَّمْع في المسجد الجامع زيادةً للزيت، فتطابق بذلك النُّورانِ. وكان عَدَدُ سَوَارِي الجامع، الحاملةِ لسَمائه واللاصِقة بمبانيه وقِبابه ومَنَاره، ما بَيْنَ كبيرةٍ وصغيرةٍ، ألفَ سارية وأربع مئة سارية وسبع عشرة ساريةً، وعَدَدُ ثُرَيَّات الجامع، ما بَيْنَ كبيرة وصغيرة، مئتان وثمانون ثُرَيَّة، وعَدَدُ الكؤُوس سبعة آلاف كأس وأربع مئة كأس وخمس وعشرون كأسًا. وزِنَةُ مَشَاكِي الرَّصاص للكؤوس المذكورة[(١)] عشرة أرباعٍ أو نحوها، وزِنَةُ ما يحتاج إليه من الكَتَّان للفتائل في كلِّ شهر رمضان ثلاثةُ أرباعِ القنطار، وجميعُ ما يحتاج إليه الجامع من الزَّيت في السَّنة خمس مئة رُبع أو نحوها، يُصرف منه في رمضان خاصَّةً نحوُ نصف العَدَد. ومـمَّا كان يختصُّ برمضانَ المعظَّم ثلاثةُ قَناطِرَ من الشمع، وثلاثةُ أرباع القنطار من الكَتَّان الـمُقَصَّر، لإقامة الشمع المذكور، والكبيرةُ من الشمع تُوقَدُ بجانب الإمام يكون وَزْنُها من خمسين إلى

(١) من ر٢.

ستِّين رِطْلًا، يحترق بعضُها بطول الشهر، ويعُمُّ الـحَرْقُ لجميعها ليلة الـخَتْمة. وكان عددُ مَن[1] يخدم الجامعَ المذكور بقُرْطُبة في دولة ابن أبي عامر ويتصرَّف فيه من أئمَّة، ومُقْرِئين، وأُمَناء، ومُؤذِّنين، وسدَنَة، ومُوقِدين وغيرِهم من المتصرِّفين: مئة وتسعة وخمسين شَخْصًا. ويُوقَد من البَخور ليلةَ الـخَتْمة أربعُ أواقٍ من العَنْبَر الأشْهب وثماني أواقٍ من العُود الرَّطْب.

ومن ذلك: بنُيانُ قنطرةٍ على نَهْر قُرْطُبة الأعْظَم. ابتدأ المنصور بُنيانَها سنة ثمان وسبعين وثلاث مئة، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وسبعين، وانتهت النفقةُ عليها إلى مئة ألف دينار وأربعين ألف دينار؛ فعظمتْ بها الـمَنْفَعة، وصارت صَدْرًا في مَناقِبه الجليلة. وكانت قطعةَ أرْضٍ لشيخٍ من العامَّة، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها، فأمر المنصور أُمَناءه بإرضائه فيها، فحضر الشيخُ عندهم، وأخذ حَذَرَه منهم، فساوَموه بالقطعة وعرَّفوه وَجْهَ الحاجة إليها، وأنَّ المنصورَ لا يريد إلَّا إنصافه فيها، فرماهم الشيخُ بالغَرَض الأقصى عنده فيما ظنَّه[2] ألا تخرج عنه بأقلَّ من عشرة دنانير ذهبًا، كانت عنده أقصى الأُمنيَّة، وشَرَطَها صِحاحًا. فاغتنم الأُمَناءُ غفلتَه، ونَقَدُوه الثَّمَن، وأشهدوا عليه، ثمَّ أخبروا المنصور بخَبَره، فضحك من جهالته، وأنِف من غَبْنه، وأمر أن يُعْطَى عشرةَ أمثال ما سأل، وتُدْفع له صِحاحًا كما قال. فقبض الشيخُ مئة دينار ذهبًا، فكاد أن يخرجَ عن عقلِه وأن يُـجَنَّ عند قَبْضها من الفرح، وجاء مُـحْتَفِلًا في شُكر المنصور. وصارت قصَّتُه خَبَرًا سائرًا.

ومن ذلك أيضًا: بنيانُ قنطرةٍ على نَهْر إسْتِجَّة، وهو نَهْر شَنِيل، فتجشَّم لها أعظمَ مُؤنة، وسهَّل الطُّرُقَ الوعرة والشِّعاب الصَّعْبة.

ومن ذلك: أنَّه خطَّ بيده مُصْحَفًا كان يحمله معه في أسفاره، يَدْرُسُ فيه ويتبرَّك به. ومن قوَّة رجَائه: أنه اعتنى بجَمْعِ ما عَلِقَ بوَجْهه من الغُبار في غزواته ومَواطِنِ جهاده، فكان الـخَدَمُ يأخذونه عنه بالـمَنادِيل في كلِّ منزل من منازله، حتَّى اجتمع له منه صُرَّةٌ ضخمة عَهِدَ بتصييره في حَنُوطه عند موته، وكان يحملُه حيثما سار مع أكفانه؛ توقُّعًا

---

(١) «عدد من» من ر٢.

(٢) «فيما ظنه» ليست في ر٢.

لـحُلُول منيَّته، وقد كان اتَّخذ الأكفانَ من أطْيَب مَكْسَبِه؛ من الضَّيْعة الموروثة عن أبيه، ومن[1] غَزْلِ بنَاتِه. وكان يسأل الله تعالى أن يتوفَّاه في طريق الجهاد، فكان كذلك.

وكان المنصور متَّسمًا بصحَّة باطنه، واعترافِه بذَنْبه، وخوفه من ربِّه، وكثرةِ جهاده. وإذا ذُكِّر الله ذَكَر، وإذا خُوِّف من عِقابه ازْدَجَر، ولم يزل متنزِّهًا عن كلِّ ما يَفْتَتِن به الملوكُ سوى الـخَمْر، لكنَّه أقلع عنها قبل مَوْته بسنتَيْن. وكان عَدْلُ المنصور في الخاصَّة والعامَّة، واطِّراحُه الـمُهاودة، وبَسْطُه الحقَّ على الأقرب فالأقرب من خاصَّتِه وحاشيتِه، أمْرًا مضروبًا به الـمَثَلُ.

ومن عَدْله: أنَّه وقف عليه رجلٌ من العامَّة يومًا بمجلسه، فناداه: يا ناصرَ الحقِّ، إنَّ لي مَظْلِمةً عند ذلك الوصيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفتى صاحب الدَّرَقة، وكان له فَضْلُ محلٍّ عند ابن أبي عامر، ثمَّ قال: وقد دعوتُه إلى الحاكم، فلم يأتِ! فقال المنصور: أوَعبدُ الرحمن بن فُطَيْس بهذه الـمَنْزِلة من العَجْز والـمَهَانة، وكُنَّا نظُنُّه أمضى من ذلك؟! اذكُرْ مَظْلَمَتَك، يا هذا. فذكر الرجل مُعامَلَةً كانت جاريةً بينهما قَطَعَها من غير نَصَف، فقال المنصور: ما أعْظَمَ بَلِيَّتَنا بهذه الحاشية! ثمَّ نظر إلى الصَّقْلَبيِّ، وهو قد ذَهِلَ عَقْلُه، فقال: ادفع الدَّرَقةَ إلى فلان، وانزِل صاغرًا، وساوِ خَصْمَك في مقامه، حتَّى يرفعَك الحقُّ أو يضَعَك! ففعل، ومَثَلَ بين يَدَيْه، ثمَّ قال لصاحب شُرْطَته الخاصِّ به: خُذ بيد هذا الظالم الفاسِق، وقدِّمْه مع خَصْمه إلى صاحب الـمَظَالِـم ليُنَفِّذ عليه حُكْمَه بأغلظ ما يُوجبه الحقُّ من سجنٍ أو غيره. ففعل ذلك، وعاد الرجلُ إليه شاكرًا، فقال له المنصور: قد انتصفتَ أنْتَ، فاذهبْ لسبيلك، وبَقِيَ انتصافي أنا مِـمَّن تهاوَن بمنزِلَتي. فتناول الصَّقلبيَّ بأنواعٍ من الـمَذَلَّة، وأبعده عن الـخِدْمة.

ومن ذلك: قصَّةُ فتاه الكبير المعروف بالـمَيُورْقيِّ مع التاجر الـمَغْربيِّ، فإنَّهما تنازعا في خُصومة توجَّهت فيها اليمينُ على الفتى المذكور، وهو يومئذٍ أكبرُ خَدَم المنصور، وإليه أمْرُ داره وحُرَمه، فدافَعَ الحاكِمَ، وظنَّ أنَّ جاهَه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجرُ بالمنصور في طريقه إلى الجامع مُتظلِّمًا من الفتى، فوكَّل به في الوقت مَن حمله إلى الحاكم، فأنصفه منه، وسَخِطَ عليه المنصورُ، وقبض نِعْمتَه منه ونَفَاه.

---

(١) من ر٢.

ومن ذلك: قصَّة محمَّد، فَصَّادِ المنصور وخادمه وأمينِه على نفسه، فإنَّ المنصورَ احتاجه يومًا إلى الفَصْد، وكان كثيرَ التعهُّد له، فأنفذ رسولَه إلى محمَّد، فألفاه الرسولُ محبوسًا في سجن القاضي محمَّدِ بن زَرْب، لِـحَيْفٍ ظهر منه على امرأته، قدَّر أنَّ سبيلَه من الـخِدْمة يَـحْمِيهِ من العقوبة. فلمَّا عاد الرسولُ إلى المنصور بقصَّته، أمر بإخراجه من السجن مع رقيبٍ من رُقَباء السجن يلزمه إلى أن يفرغ من عملِه، ثمَّ يُعيده إلى محبسه. ففعل ذلك على ما رَسَمَه، وذهب الفاصدُ إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: يا محمَّد، إنَّه القاضي، وهو في عَدْله، ولو أخذني الحقُّ، ما أطَقْتُ الامتناعَ منه، عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحقِّ، فهو الذي يُطْلقك. فانكسر الحاجم، وزال عنه رِيحُ العناية. وبلغتْ قصَّتُه للقاضي، فصالَـحَه مع زَوْجه، وزاد القاضي شِدَّةً في أحكامه.

ومن دَهَائه؛ قال ابنُ حَيَّان: كان جالسًا في بعض الليالي، وكانت ليلةً شديدةَ البَرْد والريح والـمَطَر، فدعا بأحَد الفُرْسان، وقال له انهَضْ إلى فَجِّ طَلْيَارِش، وأقِمْ فيه، فأوَّلُ خاطر يَخْطُرُ عليك، سُقْهُ إليَّ. قال: فنهض الفارسُ، وبقي في الفجِّ في البرد والريح والمطرِ واقفًا على فَرَسه، إذ وقف عليه قُرْبَ الفجر شيخٌ هَرِمٌ على حمار له، ومعه آلةُ الـحَطَب، فقال له الفارس: إلى أين تذهب، يا شيخُ؟ فقال: وراء حَطَب. فقال الفارسُ في نفسه: هذا شيخٌ مسكينٌ نهض إلى الجبل يسوق حطبًا، فما عسى أن يريد المنصورُ منه؟! قال: فتركتُه. فسار عنِّي قليلًا، ثمَّ فكَّرتُ في قول المنصور، وخِفتُ سَطْوتَه، فنهضتُ إلى الشيخ، وقلتُ له: ارجع إلى مولانا المنصور. فقال: وما عسى أن يريد المنصورُ من شيخ مِثْلي؟! سألتك بالله أن تتركَني لطلب معيشتي. فقال له الفارس: لا أفعل. ثمَّ قَدِمَ به على المنصور، ومثَّله بين يَدَيْه، وهو جالس، لم يَنَمْ ليلتَه تلك، فقال المنصور للصَّقالِبة: فَتِّشوه. ففُتِّش، فلم يُوجَد عنده شيءٌ، فقال: فَتِّشوا بَرْذَعة حماره. فوجدوا داخِلَها كتابًا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور، يَـحزِمون عنده إلى أصحابهم من النصارى ليُقبِلُوا ويضربوا في إحدى النواحي المعلومة. فلمَّا انبَلَجَ الصُّبح، أمَرَ بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضُربت أعناقُهم، وضُرِبت رَقَبةُ الشَيخ معهم.

ومن ذلك: قصَّة الجَوْهَريِّ التاجر؛ وذلك أنَّ رجلًا جَوْهَريًّا من تُجَّار الـمَشْرق قصد المنصورَ من مدينة عَدَن بجَوْهرٍ كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصورُ من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى الـجَوْهَريِّ التاجر صُرَّته، وكانت قِطْعةً يَـمانيَّة. فأخذ التاجرُ في انصرافه طريقَ الرَّمْلة على شطِّ النهر، فلمَّا توسَّطها، واليومُ قائظٌ، وعَرَقُه مُنْصَبٌّ، دَعَتْه نفسه إلى التبرُّد في النهر، فوضع ثيابَه وتلك الصُّرَّة على الشطِّ، فمرَّت حِدَأةٌ، فاختطفت الصُّرَّة، تحسبها لحمًا، وصاعدتْ في الأُفق بها ذاهبةً، فقطعت الأُفقَ الذي تنظر إليه عينُ التاجر، فقامت قيامتُه، وعَلِمَ أنَّه لا يقدر أن يستدفعَ ذلك بعَدْوَى ولا بحيلة، فأسَرَّ الـحُزْنَ في نفسه، ولحقَتْه لأجل ذلك عِلَّةٌ اضطرب فيها. وحضر الدفعُ إلى التجَّار، فحضر الرجلُ لذلك بنفسه، فنظر إليه المنصور[1] فاستبان له ما به من الـمَهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النَّشاط وشدَّةِ العارضة. فسأله المنصورُ عن شأنه، فأعلمه بقصَّته، فقال له: هَلَّا أتَيْتَ إلينا بحَدَثانِ وقوعِ الأمر؟ فكُنَّا نستظهرُ على الحيلة، فهل هُدِيتَ إلى الناحية التي أخذ الطائرُ إليها؟ قال: مرَّ مُشَرِّقًا على سَمْت هذا الجِنان الذي يلي قَصْرَك، يعني الرَّملة، فدعا المنصورُ شُرْطِيَّه الخاصَّ به، فقال له: جِئْني بمَشْيخةِ أهل الرَّملة الساعةَ. فمضى، وجاء بهم سريعًا، فأمرهم بالبحث عمن غَيَّرَ حالَ الإقْلالِ منهم سريعًا، وانتقل عن الإضافة دون تدريج، فتناظروا في ذلك، ثمَّ قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلَّا رجلًا من ضُعَفائنا كان يعمل هو وأولادُه بأيديهم، ويتناوبون السَّقْيَ[2] بأقدامهم؛ عجزًا عن شراء دابَّة، فابتاع اليومَ[3] دابَّةً، واكتسى هو وولدُه كُسوةً متوسِّطةً. فأمر بإحضاره من الغَد، وأمر التاجرَ بالغُدُوِّ إلى الباب، فحضر الرجل بعَيْنه بين يديِ المنصور، فاستدناه، والتاجر حاضرٌ، وقال له: سَبَبٌ ضاع مِنَّا وسَقَطَ إليك: ما فعلتَ به؟ فقال: هو ذا يا مَوْلاي. وضرب بيده إلى حُجْزة سَراويله، فأخرج الصُّرَّة بعَيْنها، فصاح التاجرُ طَرَبًا، وكاد يطير فَرَحًا، فقال له المنصور: صِفْ لي حديثَها. قال: نَعَم، بَيْنا أنا أعمل في جِناني تحت نَخْلة، إذْ سقطَتْ أمامي، فأخذتُها، وراقَني منظرُها،

---

(١) قوله: «فنظر إليه المنصور».

(٢) في النسختين: «السبق»، ولا معنى لها.

٣)) في ر٢: «الآن».

فقلت إنَّ الطائر اختلسها[1] من قَصْرك؛ لقُرْب الـجِوار، فاحترزت بها، ودَعَتْني فاقتي إلى أخذِ عشرة مثاقيل عُيُونًا كانت معها مصرورةً، وقلت: أَقَلُّ ما يكون في كَرَم مَوْلايَ أنْ يسمحَ لي بها. فأعجب المنصورَ ما كان منه، وقال للتاجر: خُذْ صُرَّتَك، وانظُرْها، واصدُقْني عن عَدَدِها. ففعل وقال: وحَقِّ رأسك، يا مَوْلاي، ما ضاع منها شيءٌ سوى الدنانير التي ذَكَرها، وقد وهَبْتُها له. فقال له المنصور: نحن أولى بذلك منك، ولا نُنْقِص عليك فرحتَك، ولولا جَمْعُه بَيْن الإقرار والإنكار، لكان ثوابُه مَوْفُورًا عليه. ثمَّ أمر للتاجر بعشرة دنانير عِوَضًا من دنانيره، وللجَنَّان بعشرة دنانير ثوابًا لتأنِّيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال: لَوْ بَدَأنا بالاعتراف قبل البَحْث، لأوسعناه جَزاء. قال: فأخذ التاجرُ في الثناء على المنصور، وقد عاوَدَه نشاطُه، وقال: والله لأَبُثَّنَّ في الأقطار عظيمَ مُلكك، ولأُبَيِّنَنَّ أنك تَـمْلكُ طَيْرَ عَمَلك كما تَـمْلِكُ إنْسَها[2]، فلا تَعْتَصِم منك ولا تؤذِي جارَك! فضحك المنصور، وقال: اقصِدْ في قولك، يغْفِر الله لك! فعجب الناسُ من تلطُّف المنصور في أمره، وحيلتِه في تفريج كُرْبته.

وكان المنصورُ أَشَدَّ الناس في التغيرُّ على من عَلِمَ[3] عنده شيئًا من الفَلْسَفة والـجَدَل في الاعتقاد، والتكلُّم في شيء من قضايا النجوم وأدِلَّتها، والاستخفافِ بشيء من أُمور الشريعة. وأحرق ما كان في خزائن الـحَكَم من كُتُب الدَّهْريَّة والفَلاسِفَة، بمحضر كبار العلماء، منهم الأَصِيليُّ وابنُ ذَكْوان والزُّبَيْديُّ وغيرُهم، واستولى على حَرْق جميعها بيده.

ومـمَّن أوقع به المنصور في مِثْل هذه المعاني الـمُنْكَرة: محمَّدُ بن أبي جُمعة، بلغه عنه قولٌ من الإرْجاف في القَطْع على انقراض دولته؛ فقطع لسانَه، ثمَّ قتله وصَلَبَه، فخرستْ أَلْسُنُ جميعِهم لذلك؛ وكذلك أيضًا عبدُ العزيز ابن الخطيب الشاعر، وكان أرفعَ أهل هذه الطبقة منزلةً، وكان مقدَّمًا في أصحاب المنصور، حتَّى فسد ضميرُه عنده، وبقي مدَّةً يلتمس غِرَّةً منه، حتَّى قال في بعض أبيات من شِعره أفْرَطَ فيها [من الكامل]:

---

[1] في ر٢: «اختطفها».

[2] في ر٢: «بشرها».

[3] ليست في أ.

مَـا شِـئْتَ لا مـا شـاءتِ الأقْـدارُ فـاحكُمْ فَأنْـتَ الواحِـدُ القَهَّـارُ
فكَـأَنَّما أنْـتَ النَّبِـيُّ مُـحَمَّدٌ وكَـأَنَّما أنـصارُكَ الأنْـصَارُ

فأمَرَ بضربه خمس مئة سَوْط، ونُودِيَ عليه باستِخْفافه، ثمَّ حَبَسَه، ونفاه بعدُ عن الأندلُس.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاث مئة: رشَّح المنصورُ وَلَدَه عبدَ الـمَلِك للولاية، وقدَّم أخاه عبدَ الرحمن للوزارة، وترك اسْمَ الحجابة، واقتصر على التسمِّي بالمنصور، وأن يُكتب: «من المنصور أبي عامر، وفَّقه الله، إلى فلان» بحذف اسْم الـحِجابة، ويُذكر اسمُ ولده عبدِ الملك بخُطَّة الحجابة والقيادة العُلْيا وسائر خُطَط المنصور، سلَّم فيها لابنه عبد الملك، وصَحَّتْ له الحجابة من يومئذٍ. وبعد هذا، استبدل المنصور جُنْدَ الأندلُس بالبَربَر، فأقام لنفسه جُندًا اختصَّهم باستصناعه، واسترقَّهم بإحسانه، نَسَخَ بهم في المدَّة القريبة جُنْدَ الخليفة الـحَكَم، كما فعله في سائر أُموره.

واتَّفق في ذلك الوقت أن تحرَّك بُلُقِّين بن زِيرِي الصُّنْهاجيُّ إلى الـمَغْرِب في جموعه، وأوقع بقبائل زَناتة طالبًا ثَأر أبيه زِيرِي، فهربوا أمامه كلُّهم إلى سَبْتة، وضاقت عليهم أرض العُدْوة، فقيل لابن أبي عامر: قد أمكنك اللهُ من اصطناع فُرْسان زَناتة، واعتقادِ الـمِنَّة عليهم، فأرْسِلْ إليهم، يأْتُوك سِراعًا، فيَجِدُ إحسانك إليهم مكانًا. فعمل ابنُ أبي عامر على ذلك، وأنفذ كُتُبَه إلى قبائل العُدْوة يستدعيهم، ويتضمَّن الإحسانَ إليهم، والتوسعة عليهم، حتَّى كثروا بالأندلُس، فحَسُنت أحوالهم، وكَثُرت أموالُهم، وما زالوا خاصَّتَه وبِطانته إلى أن هلك، وانقرضت الدولةُ العامريَّة وقد صار بالأنْدَلُس منهم القبائلُ بأسْرِها، وكاثَروهم حتَّى نفذ قضاء[1] الله عليهم بأيديهم.

وفي سنة ست وثمانين وثلاث مئة: عَهِدَ المنصورُ أن يُـخَصَّ بتسويده من بَيْن سائر الناس كافَّةً في الـمُخاطَبات، وأن يُرفَع ذلك عن سائر أهْل الدولة مع الاقتصاد في مراتب الأدْعِيَة، فنفَّذ الكُتُبَ بذلك، وجرى العَمَلُ عليه بقيَّةَ حياته، وخُوطِبَ هذا الوقتَ بالـمَلِك الكَرِيم، واستُبْلِغ في تكريمه وتعظيمه.

---

(1) في ر٢: «أبادهم» بدلًا من «نفذ قضاء».

غزوة شَنْت يَاقُوب على سبيل الاختصار[1]

وعند تناهي المنصورِ ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار، والنصرِ على الملوك الطاغية، (دمَّرها الله)، سَما إلى مدينة شَنْت يَاقُوب قاصيةِ غَلِيسيَّة، وأعظمِ مَشاهِدِ النصارى الكائنة ببلاد الأنْدَلُس وما يتَّصل بها من الأرض الكَبِيرة. وكانت كَنِيستُها عندهم بمنزلة الكَعْبة عندنا، فبها يَحلِفون وإليها يحجُّون من أقصى بلاد رُومة وما وراءها، ويزعمون أنَّ القَبْرَ الـمَزُورَ فيها قَبْرُ يَاقُوب الـحَوَاريِّ أحدِ الاثْنَي عشر، (رحمهم الله)، وكان أخصَّهم بعيسى (عليه السلام)، وهُمْ يسمُّونه أخاه؛ للُزومِهِ إيَّاهُ. وقد زعم جماعةٌ منهم أنَّه ابنُ يوسف النَّجَّار. وشَنْت يَاقُوب هي مَدْفَنُ ياقُوب، فهُمْ يسمُّونه أخا الربِّ! تعالَى اللهُ عن قولهم عُلوًّا كبيرًا. وياقُوب بلسانهم: يَعْقُوب، وكان أُسْقُفًا ببيت الـمَقْدِس، فجعل يَستَقْرِي الأرَضين داعيًا لمن فيها، فجاز إلى الأندلُس حتَّى انتهى إلى هذه القاصية، ثمَّ عاد إلى أرض الشام، فقُتِلَ بها، وله مئةٌ وعشرون سنة شمسيَّة. فاحتمل أصحابُه رِمَّتَه، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثَرِه. ولم يطمع أحدٌ من ملوك الإسلام في قَصْدها، ولا الوصولِ إليها؛ لصعوبة مَدْخَلها وخُشُونةِ مكانها، وبُعْد شُقَّتها.

فخرج المنصورُ إليها من قُرْطُبة غازيًا بالصائفة يومَ السبت لستٍّ بقين من جُمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاث مئة، وهي غزوته الثامنةُ والأربعون. ودخل على مدينة قُورِيَّة. فلمَّا وصل المنصورُ إلى مدينة غَلِيسيَّة، وافاه عَدَدٌ عظيم من القَوامس المتمسِّكين بالطاعة، في رجالهم[2]، وعلى أتمِّ احتفالهم، فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في الـمُغاورة سبيلَهم. وقد كان المنصورُ تقدَّم في إنشاء أُسْطُول كبير في الموضع المعروف بقَصْرِ أبي دَانِس من ساحل غَرْب الأنْدَلُس، وجهَّزه برجاله البَحْرِيِّين وصُنوف المترجِّلين، وحَمَلَ الأقواتَ والأطْعِمة والعُدَد والأسلحة؛ استظهارًا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بمَوْضِع بُرْتُقال على نهر دُوَيْرُهْ، فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل

---

١)) ذكر الحميري في الروض المعطار ٣٤٨ مدينة شنت ياقوب وشيئًا يسيرًا عن الغزوة.

٢)) في ر٢: «جموعهم».

المنصورُ على العبور منه، فعقد هناك مِن هذا الأُسْطُول جَسْرًا بقرب الـحِصْن الذي هناك. ووزَّع المنصورُ ما كان فيه من الـمِيْرة على الـجُنْد، فتوسَّعوا في التزوُّد منه إلى أرض العدوِّ.

ثمَّ نهض يريد شَنْت يَاقُوب، فقطع أرَضين متباعدةَ الأقطار، وقطع بالعُبور عدَّةَ أنهار كبارٍ وخُلْجان يمُدُّها البحرُ الأخْضَر. ثمَّ أفضى العسكرُ بعد ذلك إلى بَسائطَ جليلةٍ من بلاد فَلْطَارِش ومباسيطة[١] والدَّير وما يتَّصل بها، ثمَّ أفضى إلى جبلٍ شامخٍ شديد الوَعْر، لا مسلكَ فيه ولا طريق، لم تهتدِ الأدِلَّاءُ إلى سِوَاه، فقدَّم المنصورُ الفَعَلَةَ بالحَديد لتوسِعة شِعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكرُ وعبروا بعده واديَ مِنْيُهْ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائطَ عريضةٍ، وأَرَضين أرِيضة، وانتهت مُغِيرتُهم إلى دَيْر قَسْطان وبسيطِ بلبنوط[٢] على البحر الـمُحيط، وفتحوا حصنَ شَنْت بَلايُه، وغنموه، وعبروا سِبَاحَةُ إلى جزيرةٍ من البحر الـمُحيط لجأ إليها خَلْقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي، فسَبْوا مَن فيها مـمَّن لجأ إليها. وانتهى العسكرُ إلى جَبَل مراسية[٣] المتَّصل من أكثرِ جهاته بالبحر الـمُحيط، فتخلَّلوا أقطارَه، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمَه. ثمَّ أجاز المسلمون بعد هذا خليجَ لورقي في معبرَيْن أرشدَ الأدِلَّاءُ إليهما، ثمَّ نهر أيلة، ثمَّ أفضَوْا إلى بسائطَ واسعة العِمارة، كثيرة الفائدة، منها بسيطُ أوْنَبَة وقَرْجِيطَة ودَيْر شنت بَريَّة. ثمَّ انتهوا إلى خليج إيلياء، وهو من مشاهِد يَاقُوب أيضًا صاحب القَبْر، تِلْوُ مَشْهَدِ قبرِه عند النصارى في الفضل، يقصد نُسَّاكُهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القِبْط والنُّوبة وغيرِها. فغادره المسلمون قارعًا. وكان النزول بعدَه على مدينة شَنْت يَاقُوب البائسة، وذلك يومَ الأربعاء لليلَتينْ خَلَتا من شعبان، فوجدها المسلمون خاليةً من أهلها، فحاز المسلمون غنائمَها، وهدموا مَصَانعَها وأسوارها وكَنِيستها، وعَفَّوا آثارَها. ووكَّل المنصورُ بقبرِ ياقوب مَن يحفظه ويدفع الأذَى عنه، وكانت مصانِعُها بديعةً مُـحْكَمة، فغُودِرَتْ هَشِيمًا، كأنْ لم تَغْنَ بالأمْس، وذلك يومَ الاثنين أو الثلاثاء بعده. وانتَسفَتْ

١)) في ر٢: «مَبْلَسِيطة».

٢)) في ر٢: «بنبلونة».

٣)) في ر٢: «مرامية».

بُعُوثُه بعد ذلك سائرَ البسائط، وانتهت إلى جزيرةِ شَنْت مانكش[1] مُنْقطَع هذا الصُّقع على البحر الـمُحيط، وهي غايةٌ لم يبلُغْها قَبْلَهم مُسلِمٌ، ولا وَطِئَها لغير أهلها قَدَمٌ، فلم يكن بعدَها للخيل مجالٌ، ولا وراءها انتقالٌ.

وانكفأ المنصورُ عن باب شَنْت يَاقُوب، وقد بلغ غايةً لم يبلغها مسلمٌ قبله. فجعل في طريقه القَصْدَ على عَمَل بَرْمُنْد بن أُرْذُون ليستقريَه عائثًا ومُفْسِدًا، حتَّى وقع في عملِ القَوَامِس الـمُعاهَدين الذين في عسكره، فأمر بالكفِّ عنها، ومرَّ مُجتازًا حتَّى خرج إلى حِصْن مَلِيقُه من افتتاحه. فأجاز هناك القَوَامِسَ بجُمْلتهم على أقدارهم، وكَساهم، وكسا رجالَـهم، وصَرَفهم إلى بلادهم. وكتب بالفَتْح من مَلِيقُه. وكان مَبْلَغ مَنْ أكسَاهُ ابنُ أبي عامر في غزاته هذه من ملوك الرُّوم ولمن حَسُنَ عَنَاؤه من المسلمين ألفَيْن ومئتين وخمسًا وثمانين شُقَّة من صنوف الـخَزِّ الطِّرازيِّ، وإحدى وعشرين كِساءً من صوف البَحْر، وكسائَيْن عَنْبَرِيَّيْن، وأحد عشر سِقْلاطُونًا، وخمس عشرة مُرَيَّشات، وسبعة أنماط دِيباج، وثَوْبَيْ ديباج رُوميٍّ، وفَرْوَيْ فَنَك. ووافى جميعُ العسكر قافلًا إلى قُرْطُبة سالـمًا غانمًا، وعَظُمت النعمةُ والـمِنَّة على المسلمين، والحمد لله.

ولم يجد المنصور بشَنْت ياقوب إلَّا شيخًا من الرُّهْبان جالسًا على القبر، فسأله عن مُقامه، فقال: أُؤانِسُ يعقوبَ. فأمر المنصورُ بالكفِّ عنه.

قال الفَتْح بن خاقان: وتمرَّس المنصورُ ببلاد الشِّرْك أعْظَمَ تمرُّس، ومحا من طواغِيتها كلَّ تَعَجْرُف وتَغَطْرُس، وغادرهم صَرْعَى البِقاع، وتركهم أذَلَّ من وَتِد بِقاع، ووالى على بلادهم الوقائعَ، وسدَّد إلى أكبادهم سِهام الفجائع، وأغصَّ بالحِمام أرواحَهم، ونغَّص بتلك الآلام بُكورَهم ورَوَاحَهم. ومن أوضح الأُمور هنالك، وأفصحِ الأخبار في ذلك: أنَّ أحدَ رُسُله كان كثيرَ الانتياب، لذلك الـجَناب، فسار في بعض مسيراته إلى غَرْسِيَة صاحبِ البَشْكُنِش، فصادَفَه في يوم فِصْح، فوالى في إكرامه، وتناهى في بِرِّه واهتمامه، فطالت مُدَّتُه، فلا متنزَّهَ إلَّا مرَّ عليه مُتَفَرِّجًا، ولا موضعَ إلَّا سار إليه مُعَرِّجًا، فحلَّ في ذلك أكثرَ الكنائس هنالك، فبَيْنا هو يجولُ في

---

١)) في ر٢: «فانْكَشَر».

ساحتها، ويُجيل العَيْنَ في مساحتها، إذْ عرضتْ له امرأة قديمةُ الأسْر، قويمةٌ على طُول الكَسْر، فكلَّمَتْه، وعرَّفتْه بنفسها وأعلمتْه، وقالت له: أيرضى المنصورُ أن ينسى بتنعُّمه بُؤسَها، ويتمتَّعَ بلَبُوس العافية وقد قَضَتْ لَبُوسَها؟! وزعمتْ أنَّ لها عِدَّة من السِّنين بتلك الكنيسة مُـحْبَسة، وبكلِّ ذُلٍّ وصَغَارٍ مُلْبَسة، وناشَدَتْه اللهَ في إنهاءِ قصَّتها، وإبراءِ غُصَّتها، واستحلفتْه بأغْلَظ الأيمان، وأخذتْ عليه في ذلك أوكدَ مواثيق الرحمن. فلمَّا وصل إلى المنصور، عرَّفه بما يجب تعريفُه به وإعلامُه، وهو مُصْغٍ إليه حتَّى تمَّ كلامُه، فلمَّا فرغ، قال له المنصور: هَلْ وقفتَ هنالك على أمْرٍ أنكرتَه، أم لم تَقِفْ على غير ما ذكرتَه؟ فأعلمه بقصَّة المرأة، وما خرجتْ عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذتْ عليه، فعَتَبَه ولامَه، على أن لم يبدأ بها كلامَه، ثمَّ أخذ في الجهاد من فَوْرِه، وعرض مَنْ مِن الأجناد في نَجْده وغَوْره، وأصبح غازيًا على سَرْجِه، مُباهيًا مَرْوانَ يومَ مَرْجِه، حتَّى وافى ابنَ شانْجُه في جَمْعه، فأخذَتْ مهابتُه ببصره وسَمْعِه، فبادَرَ بالكتاب إليه يتعرَّف ما هي الـجَنِيَّة، ويحلف له بأعظم أَلِيَّة، أنَّه ما جنى ذَنْبًا، ولا نبا عن مَضْجَع الطاعة جَنْبًا. فعنَّف أرسالَه، وقال لهم: كان قد عاهَدَني ألَّا يَبْقَى بأرضِه مأسورةٌ ولا مأسُور، ولو حَمَلَتْه في حواصِلِها النُّسور، وقد بلغني بعدُ مُقامُ فُلانةٍ الـمُسْلِمَة[1] بتلك الكنيسة، ووالله، لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسِحَها! فأرسل إليه المرأةَ في اثنتَيْن معها، وأقسم له أنَّه ما أبصرهُنَّ، ولا سمع بهنَّ، وأعلمه أنَّ الكنيسةَ التي أشار بعِلْمها، قد بالغ في هدمِها، تحقيقًا لقوله، وتضرَّع له في الأخْذ بطَوله. فاستحيا منه، وصرف الجيوشَ عنه، وأوصل المرأةَ إلى نفسِه، وألحَق توحُّشَها بأُنْسِه، وغيَّر سوء حالِها، وعاد بسَواكب نُعْماهُ على جَذْبِها[2] وإمحالِها، وحملها إلى قوْمِها، وكَحَلَها بما كان شَرَدَ من نَوْمِها.

وحدَّث شُعْلَة، قال: قلتُ للمنصور ليلةً طال فيها سَهَرُه: قد أفْرَطَ مولانا في السَّهَر، وبَدَنُه يحتاج إلى أكثر من هذا النوم، وهو يعلم ما يُـحَرِّكه عَدَمُ النوم من عِلَّة العَصَب. فقال لي: يا شُعْلة، إنَّ الـمَلِكَ لا ينام إذا نامت الرعيَّة، ولو استوفيتُ نَوْمي، لما كان في دُور هذا البلد العظيم عَيْنٌ نائمةٌ.

---

١)) في أ: «المسبلة».

٢)) في م: «جذبها» بالذال، وما أثبتناه أصح.

وكان المنصورُ يزرع في كلِّ سنة ألفَ مُدْي[١] من الشعير قَصِيلًا[٢] لدَوَابِّه الخاصَّة به، إذا قدم من كلِّ غَزْوة من غَزَواته، لا يحلُّ عن نفسه حتَّى يدعو صاحِبَ الخيل، فيُعْلِمه ما مات منها وما عاش، وصاحِبَ الأبنِيَة، فيُعْلِمه بما وَهَى من أسواره ومبانيه وقصوره ودُوره. وكان له دَخَالةٌ في كلِّ يوم اثني عشر ألف رَطْل من اللحم، حاشا الصيدِ والطيرِ والحِيْتان. وكان يصنع في كلِّ عام اثني عشر ألف تُرْس عامريَّةٍ لقَصْرَي الزاهِرة والزهراء. وابتنى المنصورُ على طريق المُباهاة والضَّخامة مدينةَ الزاهرة ذاتَ القصور، والمُتَنَزَّهات المخترعة كذات الوادِيَيْن، ومُنْيَة السُّرور، وأُرْطَانيَّة، وغَيْرَها من مُنشَآته البَديعة.

قال أحمد[٣] ابنُ حَزْم: كُنَّا مع المنصور، في يوم صَقيل الجَوِّ، في الزَّوْرَق، في النَّهْر الذي بين يدَي الزاهِرة، في نَفَرٍ من وزرائه، ومَنْظَر يَفْتِن بأمامه ووَرائه، ونَحْنُ على مؤانسة قد امتدَّ طَنَبُها، وارْتُشِف بها لَعَسُ المَسرَّة وشَنَبُها، وانحشر إليها لَـهْوُ الدنيا ولَعِبُها، وهو يَستبْدِع ذلك النَّشيد، ويتطلَّع منها إلى المُزَخْرَف والمَشِيد، ويُصَوِّب نظَرَهُ ويُصَعِّده في قصوره المُشْرِقة، ومصانِعِه المؤنقة، وقد قيَّدت الألحاظَ جَمالًا، وجدَّدتْ في الحياة آمالًا. فقال المنصور: «وَيْـهًا لَكِ! يا زاهِرةَ الحُسْن، لقد حَسُنَ مَرْآكِ، وعَبِق ثَراكِ، وراق مَنْظَرُكِ، وفاقَ مَخْبَرُكِ، وطاب تُرْبُك، وعَذُبَ شِرْبُكِ! فلَيْتَ شِعْري مَن المَريدُ الذي يُعْدِمُكِ، ويُوهِن رُكْنَكِ ويَهْدِمُكِ، ويُخْلي مَيْدانَك، ويُضْوي قَصَبَكِ وأفْنانَك! فبُؤْسًا له إذ لا يروقه حُسْنُكِ، فيَكُفَّ عن تَغْييرك! ألا تَسْبيه بَهْجةُ مَنْظَرِكِ، فكَيْف عن مَحْو أثَرِكِ!». قال: فاستعظَمْنا ذلك منه، وأنكَرْنا ما صدر عنه، وظَنَنَّا أنَّ الراحَ غلبتْ عليه، وخَيَّلت ذلك إليه[٤]، فأفرط الكلُّ مِنَّا[٥] في استنكار ما جاء به، وفَاهَ بأمره وسَبَبه، فقال: والله، كأنَّكُمْ لا تَعلَمون ذلك، نَعَم، سيظهر عليها

١)) في أ، م «ألف ألف»، وما أثبتناه من ر٢ وهو الموافق لما في النفح ١/ ٥٨٤.
٢)) القصيل: العلف الأخضر من الشعير، ويسمى كذلك قبل ظهور السنبل فيه، وهذه اللفظة مستعملة إلى يوم الناس هذا عند المزارعين في العراق.
٣)) ليست في م.
٤)) في أ، م: «عليه».
٥)) في م: «مما».

عَدُوُّنا في أقرب مُدَّة، فيهدم هذا كلَّه ويُعْدِمه. وكأنّي بحِجارَتِها في هذا النَّهْر! فأخذْنا به طريقَ التسكين والتهدين، وعجِبْنا لِـمَا ذكره من ذلك النبإ الـمُبين.

وعند[1] فَراغه من ابتناء الزاهِرة، غزا غزوةً أبعد فيها الإيغال، وغال فيها من عُظَماء الرُّوم مَنْ غال، وحلَّ من أرضهم ما لم يُطْرَق، وراع منهم ما لم يُرَع قَطُّ ولم يُفْرَق، وصدر صَدْرًا أسمى به على كل حَسْناء عَقِيلةٍ، وجَلا به كلَّ صفحة للحُسْن صَقِيلةٍ، ودخل قُرْطُبَةَ دخولًا لم يُعْهَد، وشُهِدَ له فيه يَوْمٌ لم يُشْهَد. وكان ابن شُهَيْد مُتخلِّفًا عن هذه الغزوة لِنِقْرِس عَدَاهُ عائدُهُ، وجَفَاهُ مُنْتَجِعُه ورائدُه. وابنُ شُهيد هذا أحدُ حُجَّاب الناصر، وله على ابن أبي عامر أيَادٍ مُـحْكَمة الأواصِر. وكان كثيرًا ما يُتْحِفُه، ويَصِلُه ويُلطِفُه. فلمّا صدر المنصورُ من غَزْوَته هذه، نَسِيَ مُتاحفتَه، وأغفل مُلاطفتَه، فكتب إليه [من الخفيف]:

أَنَـا شَـيْخٌ والـشَّيْخُ يَهْـوَى الـصَّبايَا ... يـا لـنفسٍ[2] تَقِيـكَ صَرْفَ الرَّزايَـا

ورَسُـولُ الإِلـهِ أَسْـهَمَ في الْفَـيْ ... ءِ لِـمَنْ لَـمْ يُجِـبَّ فِيهَـا الـمَطايَا

فـاجعَلَنِّي، فُـدَيْتَ، أَنْكِـحُ[3] مَعْـرو ... فَـكَ وابعَـثْ بهـا عِـذابَ الثَّنايَـا

هُـوَ عُـرْفٌ فـإِنْ تَـحَوَّل صِـهْراً ... كَـانَ واللهِ آيَـةً في البَرايَـا

فبعث إليه بعَقيلة من عقائل الروم، يَكْنُفُها ثلاثُ جَوارٍ، كأنَّهُنَّ نجومٌ سَرارٍ، وكتب إليه[4] [من الخفيف]:

قَـدْ بَعَثْنـا بِهـا كَـشَمْسِ النَّهـارِ ... في ثَـلاثٍ مِـنَ الـمَها أَبْكـارِ

فاجْتَهِـدْ واتَّئِـدْ فإِنَّـكَ شَـيْخٌ ... خَفِـيَ اللَّيْـلُ عـن بَيـاضِ النَّهـارِ

صـانَكَ اللهُ عـن كَلالِـكَ فيهـا ... فَمِـنَ العـارِ كَلَّـةُ الـمِسْمَارِ

---

(١) هذا النص من المطمح لابن خاقان، ولكنه ليس في المطبوع، وقد صرّح بذلك المقري في نفح الطيب ١/ ٥٨٥.

(٢) في النفح: «يا بنفسي».

(٣) في النفح: «أشكر».

(٤) سقطت من م.

فافْتَضَّهُنَّ جميعًا في ليلة واحدة، وكتب إليه [من الخفيف]:

قَــدْ فَضَــضْنا خِتــامَ ذاكَ الــسِّوارِ ... واصْــطَبَغْنا مِــن النَّجِيــعِ الجـارِي
ونَعِمْنــــا في ظِـــلِّ أَنْعَـــمِ لَيْـــلٍ ... ولَـــهَوْنا بالبَــدْرِ ثُــمَّ الــدَّرارِي
وقَــضَى الــشَّيْخُ مــا قَــضَى بِحُـسامٍ ... ذِي مَــضَاءٍ عَــضْبِ الظُّبــا بَتَّــارِ
فاصْــطَنِعْني فلَــسْتُ أَجْزِيــكَ كُفْـراً ... واتَّخِــذْني سَــيْفًا عَــلَى الكُفَّــارِ

قال حَيَّان بن خَلَف: وُجِدَ بالمنصور عَزْمٌ أزعَجَه لغَزْوِ بعض البروج الـمُهِمَّة، فأبرز أموالًا عظيمةً، وتقدَّم إلى الناس في البُكُور للزاهِرة، فاسْتَبَقوا، وقد طَرَقَه في ليلته وَجَعٌ حَـمَاه عن الغَمْضَ، فلم يمنعه من إنفاذ عزيمته، وقَعَدَ للنظر في شأنه بأعلى مُنْيَته الـمُسمَّاة باللؤلؤة، وقد صحَّ على الكَيِّ عَزْمُه، وكان أقربَ أبوابِ الراحة منه، فأقبل بوَجْهه على مَن تحته، يَفْري الفَرِيَّ في شأنهم، وقد ناوَلَ الطبيب في خِلال ذلك رِجْلَيْه، فحمل عليها عِدَّةَ كَيَّات، ثمَّ أمال شِقَّه نحوه، وأمكنه من يَدَيْه معًا واحدةً بعد أُخْرَى، وما زَوَى وجْهَه، ولا فَقَدَ نصحًا له كلامُه، بل كان يتناوَل أوامِرَه من وَعْده ووَعِيده بأنفذَ من الإشْفَى[1]، ويحملهم من وُروده على الأوْفَى فالأوْفَى، وإنَّ نَتْنَ لحمِه المكويِّ ليَبْتَثُّ فيهم آخِذًا بخَواشِيمِهِم، وهُمْ لا يَعْلَمون.

وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة: تُوفِّي المنصور ابن أبي عامر[2]، رحمه الله، ليلةَ الاثنين لثلاث بَقِينَ لرمضان المعظَّم، وهو ابنُ خمس وستِّين سنة وعشرةِ أشهر، وكان له من الولد الذكور يَوْمَ وفاته اثنان؛ وهُمَا: عبدُ الـمَلِك وعبد الرحمن الناصر؛ فكانت مدَّة قيامه بالدولة منذ تقلَّد الـحِجابة إلى أن تُوفِّي خمسًا وعشرين سنة، وأربعة وأربعين يومًا. وترك من الأموال الناضَّة بالزاهِرة أربعةً وخمسين بَيْتًا. وكان عَدَدُ الفرسان الـمُرْتَزِقين بحضرته ونواحيها، الذين حارب بهم الحروب، عشرةَ آلاف وخمس مئة، وأجنادُ الثغور قريبًا من ذلك.

---

١)) الإشفى: المخرز.

٢)) ذكر ابن الأثير وفاته سنة ٣٩٣ (الكامل ٩/ ١٧٦).

ولله دَرُّ القائل فيه [من الكامل]:

آثـــارُهُ تُنْبِيـــكَ عَـــنْ أخْبَـــارِهِ ... حتَّـــى كأنَّـــكَ بـــالعُيُونِ تـــرَاهُ
تـــالله مـــا مَلَـــكَ الجَزيـــرَةَ مِثْلُـــهُ ... حَقًّـــا ولا قـــادَ الجُيُـــوشَ سِـــوَاهُ

وذُكِرَ أنَّ هذَيْن البيتَيْن قد نُقِشا في رُخامةٍ على قبره، رحمه الله. وكانت عدَّة غزواته سبعًا وخمسين غزوة، باشَرَها كلَّها بنفسه، وهو في أكثرها يشكو عِلَّة النِّقْرِس. عفا اللهُ تعالى عَنَّا وعنه[1].

(١) جاء في آخر النسختين: «كمل السفر الأول بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه (الجميل) ويُمنه، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبده (وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا)»، وما بين الحاصرتين الكبيرتين من ر٢ فقط، وليس فيها «نبيه وعبده». وفي ت: «تم السفر الأول والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله».

[ذكرُ تداوُل الأمراء الأمويّينَ والحجَّاب العامريِّين بقُرْطُبـةَ إلى وقتِ الفتْنةِ الـمُبِيرة بالأندَلُس وتغلُّبِ الثوّارِ عليهـا][1]

(١) من هنا تبدأ النسخة المحفوظة في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط برقم (٣٣٣) والتي نشر بروفنسال المجلد الثالث لطبعته من «البيان المغرب» وهي التي عبرنا عنها بالأصل.

ذكرُ ولاية عبدِ الملك بن أبي عامرٍ[1] الـحِجابةَ للخليفة هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصِر

هو أبو مروان المظفَّرُ بالله ابن المنصور أبي عامر محمَّد بن أبي عامر المعافريُّ، وليَ الحجابةَ بعد موت أبيه يومَ الاثنين لثلاث بقينَ من رمضان المعظَّم سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة، ولُقِّب المظفَّرَ وسيف الدولة. ولـمَّا تمَّت له الولايةُ نُفِّذت كُتُبه إلى أقطار المملكة بالأندلس والعُدْوة يُعلِمُ بوفاة أبيه وتوليته تدبيرَ المملكة مكانَه، فاستَوْسَقَ له الأمرُ، ولم يردَّ أحدٌ منهم طاعتَه، واجتمع الناسُ على حُبِّه، وكان مع غلبة النَّبيذِ عليه واستغراقِه في لَذَّاته مُراقِبًا لربَّه، باكيًا على ذَنْبه، مُحبًّا في الصالحين، يستهدي أدعيتَهم ويُجزِلُ الثواب لمن دلَّه عليهم. وكان يُظهِرُ العدل، ويحمي الشَّرعَ، ويرفقُ بالرعيَّة، ويحطُّ عنها البقايا بعد أن أسقط عن جميع البلاد سُدسَ الجِباية. وكان أبرَّ الناسِ بأبيه، وأثبتَهم على عَهْده، وأوصلَهم لأهله وصَنائعه، وكان لوالدته كذلك؛ ما عَدَلَ بها في سُلطانه أحدًا، ولا غيَّر لها حالًا، ولا خالف لها أمْرًا. وكان من فَرْطِ الحياء مع الشجاعة في غايةٍ بعيدة.

وله في بلاد الرُّوم آثارٌ عظيمة، غزا سبعَ غَزَوات في مُدَّته، وفي السابعة تُوفِّي. قيل: إنه مات مسمومًا. وقيل: مات من علَّة الذَّبحة. وكان موتُه بمنزل أمّ هاني بمقربةٍ من أرملاط[2] ليلةَ الجمعة لأربعٍ خلون لصَفَر من سنة تسع وتسعين وثلاث مئة: فكانت مدَّةُ حِجابته ومُلْكِه مُستبدًّا ستَّ سنين وأربعةَ أشهر وسبعة أيَّام من وفاة أبيه إلى وفاته.

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاث مئة: كانت أوَّلُ غَزَواتِه إلى بلاد الإفْرَنج، وفتَحَ حِصنَ مُـمَقْصَر من ثَغرِ بَرْشَلونةَ عَنْوةً، وأسكنَه بالمسلمين، ودوَّخَ بسيطَ بَرْشَلُونةَ وما اتَّصل به.

---

(١) ينظر المعجب ٨٥، والكامل لابن الأثير ٩/ ١٧٦.

(٢) ينظر نفح الطيب ٣/ ٢٦٠ حيث وردت في شعر.

قال ابنُ حيَّان: وأظهر عبدُ الملك الجِدَّ في أمرِ هذه الغزوة غُرَّةَ رجَبٍ من السنة، ودفَع في دَفْعِ الـمَعاريف والصِّلات إلى طبقات الأجناد الغازينَ معه فيها أوَّلًا. ووافت الحضرةَ لأوَّل هذا الوقتِ طوائفُ كثيرة من مُطَّوِّعة العُدْوةِ المجاهدين للحِسْبة، فيهم جماعةٌ كبيرة من أمرائهم وزُعمائهم وعِصابةٌ كثيرةٌ من فُقهائهم يَبغُونَ مشاهدةَ هذه الغزوةِ الـمُحتفَل لها في هذه السنة، فتسابقوا إلى الُورودِ قبلَ حضورِها بمُدَّة.

وتعرَّض قومٌ من أمراء هذه القبائل ورؤسائهم لصلةِ عبد الملك، فأطلق لهم عند تكامُلِهم ببابِه نحوَ خمسةَ عَشرَ ألفَ دينار عَيْنًا صِلةً لهم وَزَّعها عليهم بحَسَبِ مقاديرهم؛ معونةً على جهادهم، قَبِلُوها منه بالتأوُّل، وتَحرَّج[1] آخرون مـمَّن وافى معهم عن فِعْلهم. واتَّصل ورودُ أمداد الـمُطَّوِّعة من كلِّ قوم وكلِّ ناحية، فتكاملتِ الحشودُ بالحضرة، ودَنا وقتُ الحركة فوقع الجد وصُبَّ المالُ صبًّا، وعهِدَ عبدُ الملك إلى خُزَّانِ الأسلحة بتوزيع خمسة آلاف دِرْع وخمسةِ آلاف بَيْضة وخمسة آلاف مِغْفَر على طبقاتِ الأجناد الدَّارِعين في جيشه.

وركب عبدُ الملك إلى المسجد الجامعِ بحضرةِ قُرْطبةَ لشهود عَقْدِ الألوية لهذه الغَزاة، على عادةِ أُمراء الأندلس قَبْلَه، يومَ الجمعة لثمانٍ خلَوْنَ من شعبان من هذه السنة، ثمَّ خرج الحاجبُ عبدُ الملك يومَ الاثنين لإحدى عشْرةَ ليلةً خلت من شعبان، فكان خروجُه على باب الفتح الشرقيِّ من أبوابِ مدينة الزاهرةِ وقد اجتمع الناسُ لرؤيته، فخرَجَ عليهم شاكِيَ السِّلاح في دِرْع جديدة سابغةٍ وعلى رأسه بَيْضةُ حَديد مُثمَّنةُ الشكل مُذهَّبةٌ شديدة الشُّعاع، وقد اصطَفَّت القُوَّادُ والـمَوالي والغِلْمان الخاصَّةُ في أحسن تعبئة، فساروا أمامَه وقد تكنَّفه الوزراءُ الغازونَ معه، وسار الحاجبُ عبدُ الملك إلى أن نزل بمُنية أرملاط أوَّلِ محلَّاته، ثم رحل في جُيوشِه عن أرملاطَ غداةَ يوم الثلاثاء بعدَه سائرًا لوِجهتِه وعساكرُه مُحدِقةٌ به، إلى أن وصل طُلَيْطُلَةَ لسبعٍ بقينَ من شعبان، فتلوَّمَ بها يومَ الجمعة، ورحَلَ يومَ السبت إلى أن وصل مدينةَ سالِـم، فوافاه هنالك عِدَّةُ زعماءَ من وُجوهِ النصارى وفُرْسانِهم أرسل بهم مَلِكُ القُوط يومئذٍ أذفُونش بن أرْدون المعروفُ بابن البَرْبريَّة، ومعهم آخرون

---

(١) في النسخة «وتخرج» وليس بشيء.

مـمَّن أرسل بهم خالُه شانجُه بن غَرْسية زعيمُ الـجَلالِقة وصاحبُ قَشْتيلةَ وألبَة، وحضر هؤلاء الأرهاطُ للغزوِ بين يدَيْ عبدِ الملك على ما تضمَّنه شرطُ سِلْمهم المنعقدِ صَدْرَ هذه الدولةِ وأوَّلَ هذه السنةِ المورَّخة، وافينَ بالعَهدِ حافظينَ للحُرْمة، فأحسن عبدُ الملك قَبُولَهم، وأوسع إنزالَهم، وأصعَدَ عن مدينة سالِـم نحوَ الثَّغر الأعلى، فاحتلَّ سَرَقُسْطةَ ثمَّ رحل عنها.

وأخرج عبدُ الملك مولاه واضحًا في نُخْبة من رجاله إلى حِصن مدنيش بمقرُبة من حِصْنِ مُـمَقصر الذي عُمِل على قَصْدِه، لانتهاز فُرْصة من أهله، فسار واضح لذلك، فصبَّح هذا الحصن مع إسفار الصبح، وأحاط بأهلِه، ورحَلَ الحاجبُ آمًّا الحصنَ المذكور، فتلَقَّتْه رُسلُ واضحٍ فبشَّروه بالفتح، فاستَبْشَرَ بذلك، وأشرف المسلمون على حِصْنِ مُـمَقصر، فكبَّروا لـمّا نظروا إليه تكبيرًا عاليًا كادت الأرضُ ترجُفُ له، وتتابع قَرْعُ الطُّبول من جهات العسكر، وطمَّ هولُه، فذُعِر[1] الكَفَرةُ لأوَّل وقتِهم، واحتلَّ الحاجبُ وعسكرُ المسلمين بساحتهم، فأحاطوا بالحصن من جميع جهاته، وأقام مراتبَ الـحَرَس بنواحيه، وصمَّم المسلمون نحوَ أعداءِ الله صاعِدِينَ إلى الحصن لـحَرْبهم فوجًا إثْرَ فَوْج وقد بَرَزَ المشركون إلى الرَّبَض يُـمانعونَهم عنه بزَعْمهم، فنَشِبَ القتالُ بين الطائفتين، وصَبَرَ المشركون فلم يُـمهلْهم المسلمون إلَّا رَيْثَ ما كشَفوهم عن الرَّبَض بأسْرِه، وأقحموهم خلفَ السُّور، واضطرُّوهم إلى التحصُّن به. ثمَّ جَدَّ الكَفَرةُ في الدفاع، وصَدَقوا القِراع، فتجرَّعوا أكؤُسَ الـحِمام دِراكًا، وضرب الليلُ رَواقَه فحَجَزَ بين الفريقَيْن وقد ثَلَمَ المسلمون في السُّور ثُلَـمًا كثيرة. ثمَّ غدا المسلمونَ على قتالِ الكَفَرة إثْرَ صلاةِ الفجر من يوم الثلاثاءِ بعدَه، فناهضوا أعداءَ الله بأصحِّ عزيمة، وقامت الحربُ على ساق، وحَمِيَ وَطيسًا، فصبَرَ المسلمونَ على مُباشرتِها أكرمَ صَبرٍ سمُع به، حتى ولَّى الكفرةُ الأدبارَ، فاقتحموا عليهم الأسوارَ[2]، وأخذوا كثيرًا منهم، وملكوا عيالَهم وأبناءَهم، وصاروا فَيْئًا للمسلمين، واشتغل المسلمون بنَهْبِ أموالهم.

---

(١) في الأصل: «فذعن»، وهو تحريف.

(٢) غير واضحة في الأصل.

وركب الحاجبُ عَجِلًا بنفسه مع أكابرِ فتيانه وأهل مَركْبه، فارتقى إلى بابِ قَصَبتهم، واقتحم الناسُ على أعداء الله القصبةَ، فمَلَكُوها، وخَلَصتْ طائفةٌ منهم إلى محلٍّ مَنيع بهذه القَصَبة، فساوَرَهم أولياءُ الله بذرْوةِ ذلك المحلِّ، فأيقنوا بالهلاك وسألوا النزولَ على حُكم الحاجب، فأنزلهم على ذلك، وحكم فيهم بحُكْم ابنِ عمِّه سعدِ بن مُعاذ[1] رضي الله عنه؛ فقتل جميعَهم ومَلَكَ الحصنَ وحاز الغنائم، وعهد الحاجبُ وقتَ الفتح إلى المسلمين ألَّا يَحرقوا منزلًا ولا يَهدموا بناءً؛ لِـما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه، فشرع للوقتِ في إصلاحه، ونادى في المسلمين: مَن أراد الإثباتَ في الدِّيوان بدينارَيْن في الشَّهر على أن يستوطنَ في هذا الحِصْن فَعَلَ، وله مع ذلك المنزلُ والـمَحْرث. فرَغِبَ في ذلك خَلْقٌ عظيم، واستقرُّوا به في حينهم[2].

ولـمّا استكمل الحاجبُ ما أراده من تكميل أمرِ هذا الحصن وإقامةِ كلمة الإسلام فيه بأرضٍ لم تَرَ الإسلامَ قطُّ؛ رحل عنه يريدُ السِّياحةَ في بَسيط بَرْشلونة والإثخانَ في أرضها، فدوَّخ بلادَ الكَفَرة، وانبسط المسلمون في عَرَصاتهم يَحرقون ويَهدِمون ويَحطِمون، وانبسطتْ خيلُ الـمُغيرة في بَسائطهم، وأوغل بهم قوَّادُهم إلى أن أتى بسيطًا كثيرَ العِمارة فاحتلُّوه وعَمُّوا جميعَه انتسافًا وغارة، ووقعوا على كثيرٍ من عِيال الجالية من هذه الحصونِ، فردُّوهم سَبْيًا إلى المحلَّة، وأبلغوا في النِّكاية، وأحرزوا الغنائمَ والأَجْرَ الجزيل والسلامة.

وعيَّد الحاجبُ والعسكرُ عيدَ الفطر بأرض برْشلونة، ثمَّ رحل سائرًا يومَ الثلاثاء وهو يومُ عيد الفطر غرَّةَ شوَّال من السنةِ المؤرَّخة، فأدركه وقتُ صلاة العيد وهم سائرون في فِجاج سهلٍ، فنزلوا للصلاة، ولـمَّا أن قضى الحاجبُ صلاتَه تبوَّأ بمصلَّاه مَقْعدًا للصلاة وتهنئتِه بما سنَّى الله له من التَّعييد في سبيل جهادِه وطاعةِ خالقِه، فتقدَّم إليه أكابرُ الناس على مَراتبهم، ثمَّ ركب فَرَسَه، فتقدَّم إليه طبقاتُ الأجناد طبقةً بعد طبقة مسلِّمِين عليه ومُبتهلين بالدعاء له، وسار العسكرُ عند انقضاء ذلك كلِّه فنزل بالبَطْحاء، ثمَّ رحل من منزلٍ إلى منزل، فعمَّ ذلك كلَّه انتسافًا وغارة.

---

(١) يشير إلى حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة.

(٢) طمس أكثرها في الأصل.

قال حيَّانُ بن خلف: ورأى الحاجبُ عبد الملك أنْ قد بلغ الغايةَ من التَّدويخ لأرض العدوِّ والوطءِ لها وإبادتِها وتَرْكها بَلْقعًا خرابًا وقَفْرًا يَبابًا، فرحل بالعسكر مُنكفئًا نحو أرض الإسلام، وأمَرَ كاتبَ الرسائل أحمدَ بن بُرْد[1] أن يَكتُبَ بالفتح نظيرَيْن أحدُهما إلى الخليفة هشام المؤيَّد بالله، والآخرُ يُقرأ على كافَّة المسلمين بقُرْطُبة، وتُنفَذ نُسختُه إلى الأقطار، فعجَّل ذلك، وأنفذه نحو حَضْرةِ قُرطبة، وكان جُمْلةُ ما تضمَّنه كِتابُ الفتح من عَدَد السَّبْي خمسةَ آلاف وخمس مئة وسبعين رأسًا، وعَدَد الـحُصونِ التي افتُتحت عَنوةً فقُتِلت مُقاتلتها وسُبيتْ ذَراريُّهم وغُنِمتْ أموالهم ستَّة حُصونٍ، وعدَّة الحصونِ التي أخلاها العدوُّ فخُرِّبتْ ودُمِّرت خمسةٌ وثمانون حصنًا، وكلُّهم مُسمَّون في كتابه، وأذِنَ الحاجبُ لجميع الـمُطَّوِّعة في القُفول إلى بلادهم؛ إذ قد قضَوْا ما قصدوا له من جهاد عدوِّهم ووصولِـهم إلى مآمنهم، فقَفَلُوا فَرِحين مُستبشِرين.

ورحل العسكرُ من مدينة لارِدَة يومَ الثلاثاء لثمانٍ خلون من شوَّال قافلًا إلى قُرطبة، وسار في مَرْكِبه فدخل قُرطبةَ يومَ الثلاثاء لخمسٍ خلون من ذي القَعْدة من السنة، فتلقَّاه أهلُ قرطبة وعلماؤها ووُجوهها مُسلِّمين داعِينَ مُهنِّين شاكرين. ثمَّ دخل الحاجبُ إلى الخليفة هشام، فرفَع مجلسَه وأعلى مكانَه وكساهُ من مَلابسه السنيَّة ثلاثَ رُزَم قَرَن بها سبعين من خاصِّ سُيوفِه، فأظهر عبدُ الملك السرورَ بذلك، وشكر الخليفةَ وقبَّل يدَه، ثمَّ رحل عنه مُنصرِفًا إلى قُصوره بالزاهرة، وجلس يومَ الأربعاء ثانيَ يوم وصوله مجلسَ التهنئة في أُبَّهة فخمة، وأذِنَ للناس في الوصول على مَراتبهم، فوصل في أوائلهم كبارُ قُرَيش من بيتِ الخليفة الـمَرْوانيُّون، ثمَّ القُضاةُ والـحُكَّام والفقهاء وأهلُ العدل، ثمَّ وجوهُ أهل الأرباضِ والأسواق من أهل قُرطبة، ووصل بعدَهم الشعراءُ والأُدباء بما صاغُوه من أشعارهم، فأنشَدَ منهم مَن رَسْمُه الإنشاد، ووضع سائرُهم الأشعارَ بين يديه، وانفضَّ الـجَمْعُ عن سرورٍ وغِبْطة وحُبور.

---

(١) ترجمه الحميدي في جذوة المقتبس (١٩٩)، وابن خاقان في المطمح ٢٧، وابن بسام في الذخيرة ١/ ٩٠-١٠٤، وابن بشكوال في الصلة (٧٤)، والضبي في بغية الملتمس (٣٨٧)، والذهبي في تاريخ الإسلام ٩/ ٢٩٠، وابن فضل الله في مسالك الأبصار ١٣/ ٥١، والصفدي في الوافي ٦/ ٢٦٣.

قال حيَّانُ بن خلف: وفي قُفولِه من هذه الغزوة يقولُ ابنُ دَرَّاج القَسْطَلِّي، رحمه الله [من الطويل]:

بَدا [لكَ] ريحُ السَّعْد واستُقبِلَ النُّجْحُ فبالله فاستفتِحْ فقد جاءك الفتحُ
وقد قدَّم النصرُ العزيزُ لواءَه وقَبْلَ طلوعِ الشمس يَنبلِجُ الصبحُ
فقُدْ في سبيل الله جيشًا كأنَّه من الليل قِطْعٌ طبَّقَ الأرضَ أو جُنْحُ
كتائبُ في أقدامها الحقُّ والتُّقى وألويةٌ في عَقْدِها اليُمنُ والنُّجْحُ

وجرت على الحاجبِ في هذه الغزوةِ محنةٌ عظيمة وَقَاه اللهُ منها وقايةً عجيبة صَنَعَ له بها خاصَّةً وللمسلمين عامَّة، وشاع حديثُها في الناس مدَّةً؛ وذلك أنه انعكس حَجَرٌ من حجارة المَنْجَنيق على مجلسِه تحت الشِّراع الذي كان يُشارِفُ الحربَ منه، ووجوهُ أهلِ الدولة بين يديه، والخدَّامُ والأكابر قيامٌ على رأسه، فأخَّره اللهُ، سبحانه، بقُدرته عن رأس عبدِ الملك قَيْدَ شِبرَيْن أو أقلَّ، وصبَّه على رأس جعفرِ الفتى الكبيرِ صاحبِ الأبنية في موقفه إزاءَه؛ فشَدَخَه لوقته وحُمل للحِين ميِّتًا مُنتشِرَ الدِّماغ، فُوورِيَ في غَيابةٍ من الأرض، واستهول عبدُ الملك والناسُ ما عايَنُوه من ذلك.

وفي سنة أربع وتسعينَ وثلاث مئة: احتكمتْ ملوكُ الروم إلى الحاجب عبد الملك بن أبي عامر.

قال محمدُ بن عَوْن الله: وانتهى المظفَّرُ عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلةٍ عظيمة مِثْلِ منزلة والدِه المنصور، وأحلُّوه محلَّه في الإصغاء له والتعظيمِ لجلاله والهَيْبَةِ من سَخَطه والطلبِ لمَرْضاته، حتى صار أعاظمُهم يَحتكِمُون إليه فيما شَجَرَ بينهم فيَفصِل الحُكْمَ فيهم ويَرضَوْن بما قضاه ويقفون عنده.

وفي دولة المظفَّرِ ظهرتْ فصولٌ مختلفةٌ من الآفاتِ، منها في هذه السنة: كسوفُ الشمس في الساعة السابعةِ من يوم الاثنين لليلةٍ بقيتْ من ربيعِ الأوَّل، وبعد ذلك ظهرَ النجمُ الذُّؤابيُّ، وكانت في المنجِّمين فيه أقوالٌ عظيمة وإنذاراتٌ مرهوبة(١)... شنيعة، وسيأتي ذِكرُه.

---

(١) بعد هذا كلمة مطموسة.

وفي سنة خمس وتسعين وثلاث مئة: كانت غزوةُ عبدِ الملك بن أبي عامر الثانيةُ إلى جِلِّيقيَّة، دمَّرها الله، من عملِ بني غرمس وبني أذفونش معًا، فخرج من قصرِ الزاهرة في يوم الاثنين لستٍّ خلون من شوَّال من العام المؤرَّخ، واستخلف وزيرَه على استخراج العسكرِ غداةَ هذا اليوم، وسارت العساكرُ وقد اصطفَّ لها النَّظَّارةُ من أهل قُرطبة ومَن طرأ إليها من الجهات في خلائقَ لا يُحصيهم إلَّا الذي أحصى آجالَهم وأرزاقهم، واستقرَّ نزولُ العسكر بأرملاط، فرحل الحاجبُ عبد الملك من الغد نافذًا لوجهتِه مُنتقلًا في محلَّاته المعهودةِ، إلى أن وصل طُلَيْطُلة، فأمر الناسَ بالتزوُّد والتأهُّبِ، ثمَّ خرج عنها قاصدًا لغَزْوه، إلى أن خرج من بلاد الإسلام، وأخرج واضحًا فتاه على سَرِيَّة من خمسة آلاف فارس، سَرَوْا ليلتَهم فصبَّحوا مدينةَ سَمُّورة[1] الخراب من فتحِ المنصور بن أبي عامر غداةَ يوم السبت بعدَه، فأصابوا بها قومًا من النصارى يَأْوُون إلى أبراجٍ اتَّخذوها بعد الفتح بمُدَّة، فقتلوا رجالَهم وسَبَوْا نساءَهم وذُرِّيَّتهم، وانبسطوا بالغارة على بسائِط سَمُّورةَ وذلك الصُّقْع كلِّه، فعَمُّوه غارةً، ولم يزل العسكرُ يرحل في بلاد العدوِّ يَحرِقُ ويَهدِم ويَسبي ويقتل، وبالَغَ في كلِّ نِكاية، وأتى واضحٌ في بعض تلك الأيَّام إلى مكانٍ آخرَ فيه جمعٌ عظيم من أهل هذه البسائطِ الـمُستباحة لجأ إليه، فسَرى عليهم وأوقع بهم، فقتل منهم خَلْقًا، وحاز من سَبْيهم نحو ألفَيْ رأس، واستاق من أموالهم ما ملأ الأرضَ، وسُرَّ الناسُ بذلك، والحمدُ لله.

خبرُ نزول الصاعقة بالعسكر

قال ابن حَيَّان: وركب عبدُ الملك غداةَ يوم الاثنين قبل الشروق[2] ينوي وصولَه قاصيةَ هذه البلادِ الموصوفة، وقد غيَّمت السماءُ وعصَفَت أهواؤُها واستغلَظَ سحابُها وتوالى الرَّعدُ، ثمَّ تَلَتْه قَصْفةٌ شديدة، ووقعتْ صاعقةٌ في ميسرة العسكر في ناحيةِ الأثقال أصابت دوابَّ لعبد الله بن علي، ولهشامِ بن علي، كانت مجتمعةً معها أعوانٌ لها بينَهم رجلٌ من جُملة الحشود، فأحرقتهم جميعًا، وارتاع الناسُ

---

(١) ينظر عنها معجم البلدان ٣/ ٢٥٥.

(٢) في الأصل: «الشروع»، وما أثبتناه أصوب إن شاء الله.

لذلك، ثمَّ إنَّ اللهَ سبحانه جلَّى ذلك بفَضْله، وسكن الرعدُ وارتفع الظلامُ بشمسٍ مُشرقة حتى استوفت العسكرُ على القلعةِ المقصودة.

وفي سنة ستٍّ وتسعين وثلاث مئة: خرج الحاجبُ عبد الملك غازيًا إلى بَنْبلونة، وهي الرابعةُ من غَزَواته في دولته، في يوم الـجُمعةِ لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شوَّال، ورحل سائرًا إلى مدينة سَرَقُسطة، ثمَّ إلى وَشْقة، ثمَّ إلى بَرْبُشْتَر، فمنها أمَرَ عبدُ الملك بالدخول إلى أرض العدوِّ، فدخل أرضَ العدوِّ لأربعَ عشرة ليلة بقيتْ من ذي القَعْدة، وابتدأ بالغارة من بَسيطِ حِصْنِ أبنيونش وقد فرَّ أهلُه وخَلَّوه، فهَدَمَه، فرحل عنه إلى شَنْت يوانش، فجالت الخيلُ في بَسائطِه، فبلغتْ من انتسافِها أبعدَ غاية. وما زال العسكرُ يجولُ في بلاد العدوِّ يَسبي ويَقتلُ ويَحرق ويهدم.

وأصاب الناسَ في هذه المحلَّة هولٌ عظيم من مَطَرٍ شديد أصابهم ببَرَدٍ كثير وبَرْقٍ مُتتابع ورَعْدٍ قاصِف ارتاع به الناسُ جدًّا، وتوالى البَرْقُ، وجاءت في أثرِه قَصَفاتٌ مُفزِعة ألبست الناسَ خُشوعًا واستكانة، وخافوا حُلولَ العذاب، فَجهَرُوا إلى الله ضارعين في كَشْفِ ما بهم وألَّا يُشمِتَ بهم عدوَّهم الذي جاهَدُوه من أجْلِه، ففعل ذلك، سبحانه، سريعًا، ورحم تضرُّعَهم، ونشر رحمتَه عليهم، وشكر الناسُ مولاهم على ما جَدَّد عندهم من فَضْلِه، وأراهم من آيات قدرته، واللهُ سبحانه لطيفٌ بعباده.

وكانت العامّةُ بقُرْطبة أَزْرَتْ بغزوة عبدِ الملك هذه؛ إذ لم يُرَحْ عليهم سَبْيٌّ طريٌّ يستجدّون التلذُّذَ به على عادتهم أيَّامَ والده، فتكلَّمتْ في استقصار سَعْيه بَطَرًا بقَدْر النِّعمة وسابغِ الطَّوْل والعافية، وتولَّع نخَّاسُ الرَّقيق بكلمةِ تَعْريض؛ وهي: «مات الـجَلَّاب، مات الجلَّاب» يعني المنصورَ، حتى رُفعت إلى الحاجب عبدِ الملك، فأقلقتْه على سَعَةِ صدره، وتقدَّم في زَجْر العامَّة عنها، وجرَّد عبدُ الملك في كتابِ الفتح فَصْلًا أبان فيه عن وجه إخفاقِه، وكان أهلُ قرطبة على الـجُملة من قلَّة الرِّضا عن أملاكهم العامريِّين بحالٍ من الـجَوْر عظيمةٍ، إلى أن وَثَبُوا عليهم فأهلكوا الدولةَ وبها حان حَيْنُهم، واللهُ يحكُم لا مُعقِّب لـحُكْمه.

وفي سنة سبع وتسعين وثلاث مئة: خرج الحاجبُ عبد الملك غازيًا إلى بلاد قَشْتيلة من عمل الطاغية شانجُه بن غرسية بن فرذلند، وهي غزاةُ قَلُونِيَة الخامسةُ

من غَزَواتِه المعروفةُ بغَزاة النصر التي لقيَ فيها شانْجُه بجميع النصرانيَّة على اختلافها، فهزَمَه الحاجبُ عبدُ الملك هزيمةً عظيمة رَزَق اللهُ المسلمينَ فيها النصرَ الـمُبين، وعلى إثْرِها تسمَّى عبدُ الملك بالـمُظفَّر، وشرْح هذه الغزوةِ يطول؛ ووصَلَ إلى قُرطُبَةَ كتابُ الفتح، وقُرئ على العامَّة بحسب العادة، وقد كان أهلُ الحضرة من الإرجاف بعساكر المسلمين والإشفاق عليهم؛ لِـما بَلَغَهم من زَحْفِ جميع النصرانيَّة إليهم على حالٍ غليظة سكَّنها ورودُ هذه البُشرى، فاجتمع لسماعها خَلْقٌ عظيم، وجَلَتْ عنهم الكَرْبَ ومَلأتْهم سرورًا، وأصبح أهلُ العسكر في سرورٍ لا كِفاءَ له؛ قد أقرَّ اللهُ عيونَهم، وشفى صدورَهم، وكتب أُجورَهم، وأعظم الفتحَ لهم، وتـمَّم النِّعمةَ عليهم، فانبسطوا في نَهْبِ محلَّة المشركين، ورجعوا لديارهم مُطمئنِّين، ثمَّ رحل الحاجبُ عبدُ الملك قافِلًا إلى قُرطبةَ يومَ الأربعاء لثلاثَ عشْرةَ بقيتْ لذي الـحِجَّة من السنة، وكان القِرانُ الواقعُ في الأسَد في هذه السّنة التي اجتمعتْ فيها الدَّراريُّ السَّبعة، ووصَلَ إلى السُّنْبُلة، وهي العَذْراءُ صاحبةُ قُرْطبةَ التي وضع أقادِمُ حُكمائهم صورتَها فوقَ باب مدينتها القِبْليِّ، وهُو بابُ القَنْطرة، وكان الاستعلاءُ فيه - زعموا - لزُحَل؛ فدلَّ على انتقاض الدولة، وكَثُرَ كلامُ الـمُنجِّمينَ فيه، وأنذَرُوا بأشياءَ عظيمةٍ كان الناسُ عنها في غفلة.

قال محمَّدُ بن عَوْن الله: فحكَى لي حينئذٍ صديقٌ لي ولـمَسْلمةَ الفيلسوف، أنه باحَثَه عن تأثير هذا القِران، فقال له: أهونُ ما فيه انقلابُ هذه القَصَبة بأسْرِها، وانتقالُ الدولة إلى غير أهلِها، وتسلُّطُ الخرابِ على هذه العِمارة بجُمْلتها، فينالُ هذا الخَلْقَ قتلٌ ذَريع ومجاعة لا عَهْدَ لهم بمِثْلها. فهَلَكَ هو قبلَ ذلك سنةَ ثمان وتسعين وثلاث مئة، وجاءت الفتنةُ إثْرَ ذلك بأعظمَ مـمَّا ذكَرهُ وظنَّه.

ذِكرُ تسمية الحاجبِ عبدِ الملك بالمظفَّر بالله

قال ابنُ عون الله: وسَما الحاجبُ عبد الملك آخرَ وقته مِن طلب اللَّقب السلطانيِّ الذي أُولع الناسُ به؛ فلا حيلةَ في إزالتهم عنه، وابتغى ذلك من قِبَلِ الخليفة هشامٍ المؤيَّد بالله مخدومِه إلى الذي سما إليه أبوه المنصورُ قَبْله، وعلى سبيلِه؛ في التدريج له ورياضتِه المدَّةَ قُدَّامَه والاستطرادِ لحُلوله، إلى أن مضت لِحجابته حِجَجٌ خمس وأشهرٌ ثلاثة ارتُضِيتْ فيها

سِيرتُه في أحكامه، وحُمِدت مقاماتُه في الضَّبط لسُلطانه، وبَعُد في الناس صِيتُه، وهاب الأعداءُ حَوْزتَه، فالتمس اللَّقَبَ لدى الخليفةِ بعد نظرٍ ومشورة إثْرَ قُفوله من غزوة قَلُونِيَة التي فضَّ فيها جموعَ المشركين وجيوشَ النصرانيَّة أجمعين، وانقلب منها بفتحِ الفتوح خلالَه، وأحبَّ ـ مع ذلك ـ ترشيحَ ابنِه الغلام محمَّدٍ، وتنقيلَه في المراتب العالية، والتنويهَ باسمِه في الدولة، وهو يقدِّر فيه ما قدَّره الآباءُ في بَنِيْهم قَبْلَه من توريثِه المرتبةَ الجليلة، فداخل الخليفةَ هشامًا في ذلك، وسأله إخراجَ الأمرِ له بأن يتسمَّى بالمظفَّر اسمًا تخيَّره وآثَره، وأن يُكنى في جميع ما يجري به ذِكْرُه بأبي مروان، ولم تزل كُنْيتَه؛ وأن يُثنِّي وزارةَ ابنه محمَّدٍ فيُصيِّرَه بها ذا الوزارتَيْن ويُعلي بذلك مرتبتَه على سائر الوزراء، فأجابه الخليفةُ إلى ما سأل من ذلك كلِّه، وزاد فيه أن يُكنى ابنُه بأبي عامر، كُنْيةَ جدِّه، وألْحَقَه في شُهرته بمنزلة أبيه عبدِ الملك؛ إبلاغًا في مَسرَّته.

وكان الخليفةُ يومئذٍ مقيمًا عند الحاجبِ بقصر الزاهرة في النُّزهة التي أنشأها في قصوره صَدْرَ سنةِ ثمانٍ وتسعين وثلاث مئة، فلمّا كان في نصف المحرَّم منها ركب الخليفةُ نحوَ قصرِ ناصِح من الزاهرة على سبيله المعهودِ من الاستخفاء عن أعيُنِ الناس وطَرْدِهم عن وجهه بكلِّ سبيل، وحاجِبُه في الجيش سائرٌ أمامَه على العادة، حتى نَزَلا منزلَهما من القصر، واستدعى الخليفةُ حاجبَه في هذا اليوم إلى مجلسه إثْرَ نزوله، وفاوَضَه فيما احتاج إليه، فلمّا انصرف من عنده أَتْبَعه رُقعتَه بالتَّكرِمة التي أناله إيَّاها من التسميةِ وما اقترن بها مُظهِرًا أنه ابتدأه بها من غير مسألة، وأنه كافأه بها عن غَنائه وحُسنِ مَنابه فيما قلَّده، فأظهرها عبدُ الملك للناس، وأوعز إليهم بامتثالها، وأمَرَ بإنفاذ الكتب إلى الآفاق بالعمل بها.

وكانت نسختُها ـ وزعموا أنها بخطِّ الخليفة هشام ـ وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم. من الخليفةِ هشام بن الحكمِ المؤيَّدِ بالله، أتمَّ اللهُ عليك نِعَمَه، وألبسك عَفْوَه وعافيته، إنَّا أريناك سلَّمك الله، من صنع الله الجسيم، وفَضْله العظيم، لنا عليك ما شفى الصدورَ وأقرَّ العيون، فاستخرْنا اللهَ سبحانه في أن سمَّيناك المظفَّرَ، فنسألُ اللهَ تعالى سؤالَ إلحافٍ وضراعة وابتهال إليه أن يُعرِّفَنا وإيَّاك بركةَ هذا الاسم، ويُحلِّيَك معناه، ويُعطيَنا وإيَّاك وكافَّةَ المسلمين فَضْلَ ما حملتَ منه، وأن يَـخِيرَ لنا ولهم في جميع أقضيتِه،

ويَقرِنَه بيُمْنه وسعادتِه بمَنِّه وخفيِّ لُطْفِه، وكذلك أبَحْناك التكنِّيَ في مجالسنا ومحافلِنا وفي الكُتبِ الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا وسائرِ ما يجري فيه اسمُك معنا ودوننا؛ إناقةً بمحلِّك لدينا، ودلالةً على مكانك منَّا، وكذلك ما شرَّفنا فتاك أبا عامر محمَّدَ بن المظفَّر تلادَنا، أسعده الله، بالإنهاض إلى خُطَّة الوزارتَيْن، وجمعناه بها في التكنِّي على المشيخةِ والترتيب إثرَك في الدولة، وأنت الحقيقُ منَّا بذلك كلِّه، وبجميل المزيد عليه؛ لأنَّك تربيتُنا، وسَيفُ دولتنا، ووليُّ دعوتِنا، ونشأةُ نعمتنا، وخرِّيج أدَبِنا، فأظْهِرْ ما حدَّدناه لك في الموالي وأهلِ الخدمة، واكتبْ بها إلى أقطار المملكةِ، وتصدَّ فيه لِشُكرِ النعمة، أحسن الله توفيقَك، وأمتعَنا طويلًا بمُعافاتك، وآنسَنا مَلِيًّا بدوام سلامتك، إنَّه وليٌّ قادر عزيزٌ قاهر».

وعنوانُ ما كَتَبَ به عبدُ الملك من الحاجب المظفَّرِ سيف الدولة أبي مروان عبدِ الملك بن المنصور، فكان أوَّلَ مَن اجتمع له لَقبانِ من مُلوكِ الأندلس، وسلك مَن جاء بَعْدَه من ملوك الفتنةِ سبيلَه في ذلك.

وكسا عبدُ الملك جميعَ الأجناد في هذا الوقت؛ ثوابًا لمسرَّةِ هذه التسمية، وكَثُرت الأشعارُ في هذه التسمية جدًّا، وأطلق لهم صِلاتٍ جَزْلة، وكان من غريبِ النَّوادر اشتراكُ أكثرِهم في ابتداءاتِ أشعارهم فيها، من ذلك ابتداءُ مروان الطليقِ في شِعرٍ في مدح المظفر [من الكامل]:

تِـهْ في الـدُّنا وافخـرْ فمِثلُـك يفخـرُ   فـأبوك منـصورٌ وأنـت مُظفَّـرُ

ولقاسم ابن الشبانسي، رحمه الله، في مدحه شِعرٌ أوَّله [من الطويل]:

دعـاك أمـيرُ المـؤمنين الـمُظَفَّرا   وسـمَّاك سـيفَ الدولـة الـمُتخيَّرا

ولعبدِ الله بن زيادٍ الكاتبِ شِعرٌ أوَّلُه [من الطويل]:

تَـسمَّيتَ لـمّا أن ظفـرتَ الـمُظفَّرا   وصرتَ على الأعـداء لَيْثًا غَـضَنْفَرا

ولهشام بن جعفر بن عثمان رحمه الله، شعرٌ أوَّله [من الطويل]:

ظَفِـرتَ فـسمَّاك الإمـامُ المظفَّـرا   وما زلتَ سيفَ النصر في الشِّرْكِ مُظهرا

ولأحمدَ بنِ محمَّد، رحمه الله، شعرٌ أوَّله [من الخفيف]:

ظَفِـرَ الـدِّينُ إذ دُعِيـتَ الـمُظفَّرْ ... وبَأى[1] الـمُلْكُ وازْدَهـى وتَبَخـتَرْ

قال حيَّانُ بنُ خَلَف: واقترح المظفَّرُ عبدُ الملك بن أبي عامر على شُعرائه في بعضِ أوقات الربيع من دَوْلتِه قِطَعًا نُوَّاريَّة في المنثور، وهو الخيريُّ، وفي الزَّهر وغيرِ ذلك من أنواع النوَّار، وكان شديدَ الإعجاب بذلك كثيرَ الطلب لأنواعه في مَظانِّه، وأحبَّ أن يُدخلَها قِيانُه في أغانيهنَّ، واكتتب الناسُ كثيرًا منه في وقتِه لحُسنِه وغرابته في معناه، وكان من مُستحسَنِه: قولُ أبي العلاء صاعدِ بن الحسين البغداديِّ النَّديم، رحمه الله، فقال في الآس [من البسيط]:

مَـن كـان في ودِّه لـلآسِ مُتَّهَـمًا ... فـإنَّ عنـديَ ودًّا غـيرَ مُـتَّهَمِ
نِعْـمَ الـصديقُ فـما يُخشى تلوُّنُـه ... عـلى مُعاقَبـةِ الإصباحِ والظُّلَـمِ
أوراقُـه مِثـلُ آذانِ الجِيـاد إذا ... تَـشوَّفتْ في مجـال الطَّعـنِ للـبُهُمِ
إذا رآه أبـو مـروانَ ذكَّـرهُ ... تهافُـتَ الـرُّكنِ في القِيعـانِ والأكَـمِ
اللهُ صـوَّر هـذا الـخَلْقَ مـن حمإٍ ... قِـدْمًا، وصـوَّره مـن طينـةِ الكـرَمِ

وقال في التُّرُنْجان [من البسيط]:

لم أدرِ قبـلَ تُرُنْجـانٍ عبثـتُ بـه ... أنَّ الزُّمـرُّدَ قـضبانٌ وأوراقُ
مِـن طِيبِـه سَرَقَ الأُتـرُجُّ نكهتَـهُ ... يا قـومِ حتـى مـن الأشـجار سُرَّاقُ!
يُـشارِكُ الخمـرَ في نَفْـيِ الهمـومِ إذا ... مـا شَـمَّه مُـوثَرٌ بالـهَجْرِ مُـشْتاقُ
كـأنَّما الحاجـبُ الميمـون علَّمـه ... فِعْـلَ الجميـلِ فطابـت منـه أخـلاقُ

وقال في النَّرجس [من الكامل]:

جُـمَلُ الفـضيلةِ للبَهـارِ بـسَبْقه ... ولطالَمـا خَلَـفَ البهـارَ النـرجسُ

---

(١) بأى، كسعى ودعا: فَخَر بنفسه. القاموس المحيط «بأى».

أربـى عليـه طِيبُـه ونـسيمُه ... لكنـه عـن نَـشْرِه يَتـنفَّسُ
كالحاجـبِ الميمـون شُـبِّه في العُـلى ... بأبيـهِ لكـن فِعْـلُ هـذا أنفَـسُ

وقال في البنفسَج [من الكامل]:

سَـقْيًا لأيَّـام البَنَفْـسَجِ إنهـا ... لـو أُنـصِفتْ لم تقـترن بنَظـيرِ
طالـت ولايتُـه وطـابَ نـسيمُه ... وزَكـا عـلى المَعْـسُور والمَيْـسُورِ
يُزري إذا احتست الـمَعاطِسُ رِيحَه ... بنـسيمِ غاليـةٍ وفَـوْحِ عَبـيرِ
يحكـي قمـيصَ الفَجْـرِ لـونُ أديمِـه ... والقَرْصَ في خَـدِّ الـمِلاح الـحُورِ
إنّي لأشـكرُ صَـبْرَه ووفـاءَه ... شُـكري لـسيفِ الدَّولـةِ المنـصورِ

وقال في الخيريِّ [من الخفيف]:

قـد نَعِمنـا في دولـةِ المنثـورِ ... ووَصـلْنا صـغيرَنا بـالكَبيرِ
وسـألْناه لِـمْ تـضوَّعتَ لـيلًا ... قـال: فَتْـكُ الـشُّجعانِ بالـدَّيجُورِ
وقَرَنّـا احمـرارَه باصـفرارٍ ... فعَجِبْنـا مـن لُطـفِ صُـنعِ القَـديرِ
مـا عَلِمْنـا اليـاقوتَ للـشمِّ حتـى ... نَفحَتْنـا روائـحُ المنثـورِ
حاجـبَ الـمُلْكِ لا عَـداك بـشيرٌ ... بفُتـوحٍ أو قـادمٍ بـسُرورِ

وقال في الوَرْد [من البسيط]:

ليَـصرِفَنْ قائـدُ المنثـورِ عـسكَره ... ويَنهـزِمْ إنَّ جـيشَ الـوردِ قـد وَرَدا
في معرضٍ سَجَدَ الروضُ الأنيقُ لـه ... ولو أتاه فَتِيتُ الـمِسْك مـا سَـجَدا
شـبَّهتُه وسـقيطُ الطَّـلِّ تُحـدرُه ... عنـه الريـاحُ وقـد مَدَّت إليـه يَـدا
بخـدِّ ذي خَجَـلٍ أبكتْـه خَجْلتُـه ... حتـى تفـرَّق فيـه دمعُـه بَـدَدا
في غـير أيَّامِـه يُـشنَى الـصَّبُوحُ وفي ... أيَّامِـه فلـيكُنْ غـيُّ الهـوى رَشَـدا

وقال ابنُ درَّاج في الوَرْد أيضًا [من الكامل]:

ضَحِكَ الزمانُ لنا فهاكَ وهاتِهِ … أوَ ما رأيتَ الوَرْدَ في شَجَراتِهِ
قد جاء بالنارَنْج من أغصانِه … وبخَجْلةِ المعشوق من وجَناتِهِ
وكَساه مولانا غَلائلَ سُنْدُسٍ … يومًا يُسربِلُه دماءَ عِدَاتِهِ

وقال ابنُ درَّاج في السَّوسن [من المنسرح]:

إن كان وجهُ الرَّبيعِ مُبتسِمًا … فالسوسنُ المُجتلَى ثَنايـاهُ
يا حُسْنَه سِنَّ ضاحكٍ عَبِقٍ … يطيبُ ريَّا الحبيب ريَّاهُ
خاف عليه الحسودَ عاشِقُهُ … فاشتقَّ من ضِدِّه فسمَّاهُ
وهْوَ إذا مُغرمٌ تَنسَّمَهُ … خلَّى على الأنْفِ منه سِيْماهُ
كما يُحلِّي الحبيبُ غاليةً … في عارضَيْ إلْفِه لذِكْراهُ
يا حاجبًا مُذ بَراه خالِقُهُ … تَوَّجَه بالعُلى وحَلَّاهُ

وقيل في عبد الملك المظفَّرِ [من المتقارب]:

زمانٌ جديدٌ وصُنْعٌ جديدُ … ودُنيا تروقُ ونُعمى تزيدُ
وغيثٌ يصوبُ وعيشٌ يطيبُ … وعِزٌّ يدوم وعِيدٌ يعودُ
ودهرٌ ينيرُ بعبدِ المَليكِ … كشمسِ الضُّحى ساعَدَتْها السُّعودُ

وفي سنة ثمانٍ وتسعينَ وثلاث مئة: خرج الحاجبُ المظفَّر بالشاتِيَة التي لم تكن له شاتية سواها، وهي السادسةُ من غَزَواته، من قُرطُبَةَ يومَ الاثنين لاثنتَيْ عشْرةَ ليلةً خلَت من صَفَرٍ من السنةِ المؤرَّخة، ورحَل حتى احتلَّ حصنَ شَنْت مَرْتين[1]، فأمر عبدُ الملك بحطِّ الأثقال، ونهض المسلمون نحو الحصنِ لوقتهم؛ إذ كان الكَفَرةُ سكَّانُه بَرَزُوا أمامَه يقدِّرون المنعَ منه بزعمهم والقتالَ دونه، ثمَّ لم يلبَثوا فوَلَّوا مُدبِرين، ونالت

(١) ينظر نزهة المشتاق ٢/ ٧٧٤، ٧٨٥، والروض المعطار ٣٤٩.

السيوفُ بعضَهم إلى أن وصَلوا إلى حَرَم حِصنِهم، فلاذُوا بسُورِهِ، ورامُوا مُراماةَ المسلمين بالنَّبْل والحجارة من أعلاه، فلم يكنْ أحدٌ منهم يُخرِجُ يدَه حتى تَنتظِمَها السِّهامُ والثلاثة، فانحجَرُوا سِراعًا تحت الخشب، وظَهَرَ المسلمون لوقتهم على الرَّبض، فنَهبوا ما وجَدوا فيه، وأطلقوا النيرانَ عليه، وغدا المظفَّرُ على حربِ الحِصْن، وأرسل البنَّائينَ والنقَّابينَ مع عُرَفائهم لحَفْرِ السُّور المُحدَث، وحلِّ حجارتِه من بين نُطُقِ الخَشَب، ودَأبوا في ذلك حتى أوسعوا الثَّلْم، ثمَّ حَشَوْه حطبًا مُضرّجًا بالقَطِران، وأطلقوا فيه النارَ فاضطرمتْ تحت السطحِ فأحرقتْه، فَجزِعَ الكَفَرةُ لذلك، ويَئسوا من الحياة، وندموا على وقوفهم في وجهِ عبدِ الملك والمسلمين، ثمَّ عاوَدَهم عبدُ الملك بالقتال يومًا آخر، وأمر الناظرينَ على الوَقُودِ بالعسكر أن يأخذَ الناس بانتقالِ حُزَمِ الحطب إلى قُرْب الثَّلْم، فجَلَبُوا منه أكوامًا عظيمة، وتوالى على عداةِ الله قذفُ المَنْجنيقِ ورَشْقُ النِّبال، حتى ظَلَّ الرَّجلُ منهم لا يقدرُ أن يتحرَّكَ من مكانِه، فاتَّصلت الحربُ الضَّرُوس عليهم تسعةَ أيَّام، فلمّا عايَنَ الكفَرةُ الغلَبَةَ عليهم، وأضرَّ العطشُ بهم، عزَموا على إسلام الحصنِ إلى عبد الملك بأمانِ أنفسهم، فأمَر عبدُ الملك بالدنوِّ إليهم ومعرفةِ ما يبغُونَه من سؤالهم، فسَألوا أن يأخُذوا الأمانَ منه ويَخرُجوا عن الحِصْن ويَنصرفوا منه، فأبى إلَّا أن ينزلوا على حُكمِه؛ إذ لم يكنْ لهم مُناصل، فانعقَد ذلك، وفتح الكفَرةُ بابَ حِصنِهم، فأمر عبدُ الملك أخاه عبدَ الرحمن وفتاه شَفيعًا بالدُّخولِ إليهم، ففعلوا ذلك، وأمروا أهلَ الحِصن بالخروج، فخرجوا مُزعَجين قد سُقِط في أيديهم.

ولـمّا اجتمع أهلُ الحِصْنِ بساحتِه ولم يبقَ منهم أحدٌ داخلَه؛ أمر عبدُ الملك بتمييز المُقاتِلة والرِّجال عن الذُّرِّيَّة والعِيال، وإقامةِ كلِّ فريق منهم ناحيةً، ففُعِل ذلك، وأُعْلِم به، فركب من مجلسِه، والتفَّ به جماعةُ المسلمين يَدعُونَ له ويبتهلونَ بالشُّكر والثناءِ، فوقف بساحةِ الحصن على جَوادِه يتأمَّلُه، ثمَّ انتهى إلى الموضع الذي مُيِّز فيه أهلُ الحصن، فنهض نحوَ الرِّجال وقد استَشرَفوا له ورجَوْا عَطْفَه عليهم بأن يأسِرَهم، فنظر إليهم وحَكَمَ فيهم بحُكم سعدِ بن معاذ، رضي الله عنه، وأوْمَأ إلى مَن حوله من الأجناد، فوَضعوا فيهم الأسلحةَ، وصبَّروهم في ساعة، ثمَّ أمر بتوزيع سَبْيِهم على أهلِ الرِّباط وفُرسانِ الوفود على العادة، ففُعِل ذلك كلُّه، وأمر بالشروع

في بناءِ ما تثلَّم من السُّور، وأمر كاتبَ الرسائل أحمدَ بن بُرْد بإنفاذ كتابِه بالفتح إلى الحضرة على نظيرَيْن بحسب العادة، وقَفَلَ الجيشُ راحلًا إلى قُرطُبَةَ إلى أن أشرفَ عليها، ثمَّ دخلها مستهلَّ ربيع الآخِر.

وكان من غريبِ ما جَرى له يومَ دخوله من غَزاته هذه: أن استثار غلمانُه في انتشارهم بفَحْص بدر خنزيرًا وسطَ المزارع طَرَدْته خيلُهم، فاقتحم شوارعَ قُرطُبة، وأكثرُ أهلِها يومئذٍ لا يَعرفونَ ما هو؛ لسَعَةِ عِمارتهم وعدمِ الوَحْش بباديتهم، فضلًا عن حاضرتهم، فلم يزَلْ ذلك الخِنزيرُ راكبًا وجهَه يخترقُ الناسَ وقد تسابقَت الخيلُ في طَلَبِه إلى أن لحقتْه بالشطِّ قبالةَ قصرِ الخلافة، فأطال الناسَ وقتًا في حديثه، وأكثروا الخوضَ في شأنه والتطيُّرِ منه.

قال محمَّدُ بن عبد الرحمن: وأمَّا غزاتُه المعروفةُ بغزَاة العلَّة، وهي السابعةُ من مغازيه، في صائفةِ سنة ثمانٍ وتسعينَ وثلاث مئة، فقد تقدَّم ذكرُها في صَدْرِ أخبار المظفَّر في باب العِلَل من كتابِه. وقال عن ابن حيَّان: قال: ومِن كبار عِلَل عبد الملك ومُنكراتِها على الإسلام، ومُؤذناتِها بما جرَى عليه بعدُ من الانثلام: علَّتُه الشديدةُ بمدينة سالم مخرَجَهُ إليها سنةَ ثمانٍ وتسعينَ محتفلًا، لقَصْد عدوِّ الله شانجه بن غَرْسيةَ بن فرذلند، فصدَّته عن الدّخول إليه بجموع المسلمين، واشتدَّت به مدَّةً تفرَّقَ عنه فيها أكثرُ الـمُطوِّعة، وصارت على الإسلامِ مُصيبةٌ بها أوْهَنت من بَطْش عَضُدِه ونقَصَت من حَفيل عديدِه، ورام ـ معَ ذلك كلِّه ـ الاقتحامَ على أعداء الله في حال نقوهِه طمعًا في إتمام غزوِه، فكانت آخرَ صائفة نفَذت من الحضرة، إذ هلَكَ عبدُ الملك وألقَتْ بَرْكَها الفتنة، وخبرُ هذه العلَّة وشُؤمُها مشهورٌ في الناس إلى أبعدِ غاية.

وفي هذه السنة: قُتل طَرَفةُ الفتى الصَّقْلَبي، وكانت حالُه تناهت في الجلالة، وكان عبدُ الملك، لانهماكِه في لَذَّته ومواصلتِه لشُربه ومسرَّتِه، استعان على التدبير بخواصِّ خدَمِه وأكابِر رجالِه، فسعى بعضُهم على بعضٍ عندَه، حتّى هلَكَ جميعُهم بيدِه، ومضى سريعًا خلفَهم. فأوَّلُ ذلك: مقتلُ طَرَفةَ المذكور، وكان المظفَّرُ فوَّض أمرَه أوَّلَ ولايتِه إلى أبي الأصبغ عيسى(١) بن سعيد اليَحْصُبيِّ وزير أبيه محمَّد بن أبي عامر، وَلَّاه الإشرافَ على

(١) ترجمته في تاريخ ابن الفرضي ١/ ٤٣٢، وجذوة المقتبس (٦٨٠)، وتاريخ الإسلام ٨/ ٦٦٧.

المملكة، وقدَّمه على كافَّة رجالِه، وصيَّر أمرَه في يدِه، وكان شَهْمًا ماهرًا بالحساب، لكنّه كان عاطلًا عن الآداب، فأسنَدَ إليه النظرَ في أشغالِه وأحوالِه، فناب فيها أحسنَ مَناب، وعرَفَ له عبدُ الملك حقَّه، فأمضاه على خاصَّتِه وعامَّتِه، فطاف النَّاسُ ببابِه وغَلَّقوا أسبابَه، فسارَعَ رجالُ العامريَّة إلى منافستِه وحسَدِه، وحَمَلوا الصَّقْلَبيَّ خادمَ عبد الملك الأكبرَ على مُناوأةِ عيسى والاعتراض عليه، ولم تزَلْ حالُ طَرَفةَ تعلو في الدّولة، ومولاه يُؤْثِرُه ويزيدُه حُظوةً إلى أن غَطَّى على عيسى وزيرِه، وأخَذَ الغرَضَ عنه بحَشَمِه، وخلَّاه يُدبِّرُ الدّيوان معَ أصحابِه، ثمَّ عارَضَه في كثيرٍ من أمورِها، واستبدَّ عليه بتدبير ولاتِها، فكاد يُسقِطُه. ومضَى طَرَفةُ على غَلوائه، واعتلَّ مولاهُ المظفَّرُ في جُمادى الآخِرة من السنة ـ وحالُ طَرَفةَ فيها على ما وصَفْناه ـ علّتَه الطويلة، فانفرد طَرَفةُ به فيها، وأغلظ حجابتَه مدّتَها، وهاب الجندُ فيها طَرَفةَ الخادمَ في هذا الوقت، وخافوا سَطْوتَه وطلَبوا موافقَته.

قال ابنُ حيّان: وتناهَتْ حالُ طَرَفةَ في الجلالة، فعطَّل عيسى وزيرَ الدّولة، وصار النّهيُ والأمرُ إليه والقَبْضُ والبَسْط في يدَيْه وزِمامُ الـمُلك في قبضَتِه، فتقدَّم أصحابُه، وتناولوا الأمرَ بقوَّة، وذهَبَ بطَرَفةَ العُجْبُ مذهبَه، والناسُ في ذلك كلِّه يزدَرونَه وعيونُهم تقتحمُه لِـما كان عليه من الطَّيش والذَّمامةِ والتّبذُّل للخدمة، حتى قال الناسُ فيه أهاجيَ كثيرةً.

قال: وأفاق الحاجبُ من علَّتِه عَقِبَ رجبٍ وقدِ استولَى طَرَفةُ هذا على أمرِه وأنفَذَ أشياءَ بغيرِ علمِه، ولـمّا أبلَّ الحاجبُ من مرضِه استعجَلَ الخروجَ للغَزْوِ في شهر رمضانَ من هذه السنة، ووزيرُه عيسى معَه، وعبدُ الملك[1] بنُ إدريسَ صاحبُ طَرَفةَ يكتُبُ له الرّسائلَ في وقتِه ولا يَشُكُّ أنّ حالَ طَرَفةَ باقيةٌ عند مَوْلاه.

وانفرد عيسى في طريقِه بالحاجبِ المظفَّرِ، فأحكَمَ التدبيرَ على عدوِّه طَرَفة، ومكَّن فسادَه في نفسِ المظفَّر، وقوَّى عَزْمَه على إبادتِه، وصاعَدَ الحاجبَ نحوَ سَرَقُسْطة، وواعَدَ خادمَه طَرَفَةَ ومن معَهُ الالتقاءَ بها، فاتَّفق دخولُ الجيشَيْنِ معًا إليها في يوم واحد،

(١) ترجمه الحميدي في جذوة المقتبس (٦٢٥)، والثعالبي في اليتيمة ١/ ٤٣٧، وابن بشكوال في الصلة (٧٦٠) وفيه مصادر ترجمته.

وكان يومَ الخميس لليلة بقِيَت من شهر رمضان، فدخَل طَرَفَةُ، وتقدَّم إلى قصرِ مَوْلاه في أُبَّهةٍ مُدِلًّا بحالِه وخاصَّته وقد نَفَذَ القضاءُ عليه وهُو لا يشعرُ به، فلمّا دخَل الدارَ عُدِل به عن مجلس مَوْلاه دونَ أن تقعَ عينُه عليه، فقُيِّدَ لوقتِه بقَيْدٍ ثقيل وُكِّل به جماعةٌ من وجوه الغِلمان مَضَوْا به نحوَ الساحل، وحُمل على بغل ورجلاهُ في ناحية، خُرِج به كذلك على جميع الناس، فلم يكنْ بينَ دخولِه سَرَقُسطةَ أميرًا معظَّمًا وخروجِه منها أسيرًا مُقيَّدًا مُهانًا غيرُ لمحة، فاتَّخذ الناسُ حديثَه عَجَبًا في سرعة الاستحالة، وأدَّاهُ الغِلمانُ إلى الجزيرة إلى حَبْس بها، ثمَّ لم يفارقْه جميلُ ظنِّه بمولاهُ إلى يومَ أرسَلَ في قتلِه، وذلك عندَ إكمال الحاجِب لغزاتِه وقُفولِه إلى الحضرة، ووزيرُه عيسى غالبٌ على أمرِه ومُصرِّفٌ لدولتِه، فهو لا يزالُ يُحرِّكُه على طَرَفةَ هذا حتى ساقَه إلى قتلِه.

وفي هذه السنة: قتَلَ المظفَّرُ عبدَ الملك بنَ إدريسَ الـجَزِيريَّ الكاتبَ البليغ، وكان الوزيرُ عيسى مكَّن في قلبِ المظفَّر على هذا الكاتب من صحَّة مُشايعتِه للحائن طَرَفةَ على المعصية، ومظاهرتِه إيَّاهُ على غِشِّ الدولة ما أوجَبَ عندَه قتلَه وإلحاقَه بصاحبِه طَرَفة.

ذكْرُ مقتلِ عيسى بن سعيدٍ وزيرِ الدّولة[1] وصاحبِه هشام بن عبد الجبَّار المتَّهم بالقيام معَه على آلِ عامر وما انبعثَتْ لذلك من الفتنة الـمُبِيرة

قال حيَّانُ بن خَلَف: ولـمّا مضَى طَرَفةُ لسبيله وكُفي عيسى شأنَه، انفرد بصاحبِه المظفَّر، واشتمَلَ على دولته، ودبَّر أمرَها كما أراد، فانقاد له جميعُ أهلِ الدّولة ورَهِبوا صَوْلتَه وتدبَّروا أمرَه، فعُنيَ لأوَّلِ وقتِه واغترَّ بما تهيَّأ له من وَقْم[2] عداتِه، وألَحَّ عليهم بأذاهُ وسِعايتِه، وأعملَ في إسقاطِهم وجوهَ حيلتِه، وأعتَقَ صنائعَه، فأعلى منازلَهم واستأثَرَ عليهم بدُنياه، وابتغَى المالَ من مَبْغاه، فبَلَغَ في ذلك مَداه، حتّى ما كان أحدٌ يَلِي عملًا للسُّلطان ولا يتولَّى جهةً إلَّا أسهم عيسى في فائدتِه وتناوَلَه بمِرفقِه وهبتِه،

---

(١) الخبر في الذخيرة ١/ ١٠٤ فما بعد باختلاف.

(٢) الوقم، هو القهر والإذلال، والحزن أشدّ الحزن، والردّ بأقبح الردّ. وبابه وعد. القاموس المحيط (وقم).

وهُو لا يزالُ في ذلك يستَقصي على أعمالِ السّلطان وأهلِ خدمتِه، ويُدقّقُ حسابَهم، ولا يَخْلُونَ في كلِّ وقتٍ من مكروه يُجدِّدُه عليهم، فحابَوْهُ، وشارَكَهم في مجابيهم، فاستقام أمرُ عبد الملك بنظرِه، وهابَهُ كلُّ فريق من رجالِ السُّلطان من أصحابِ السُّيوفِ والأقلام، فلزِموا السّلامةَ، واستقاموا على الطاعة والطّريقة.

قال: ولـمّا نظَرَ الناسُ إلى عبد الملك وغَلَبةِ عيسى على سُلطانِه واستئثاره بدُنياه، سارَعوا إلى حَسَدِه ونَقَموا عليه اعتلاءَ منزلتِه حسبَما لا يزالُ يجتمعُ عليه أصحابُ السُّلطان من عَداوةِ مَن يعلوهم عندَه. قال: وقد كانت الدُّنيا غيَّرت من عيسى آخرَ وقتِه وعندَ تناهي حالِه، فاستخَفَّ بجميع الناس وترَكَ إسعافَهم، وزَوى وجهَه لهم، وأغلظَ حجابَه، فأحنَقَهم، وعمَّروا بشكواهُ نَجْواهم. وكان يسيرُ من دارِه إلى الزاهرة راكبًا دابَّتَه لا يقفُ على أحدٍ من الناس لتقدُّمِه لهم لا يلقَوْنَه إلّا في دارِ سُلطانِه، وكانوا يناولونَه رَقائعَهم، فربَّما أخذ وربَّما ترَكَ، ولا يُخلصونَ في ذلك من نَجْهِه[1] وتضاجُرِه، وكان من أقبح ما فعَلَه في بعض رَكباتِه يومَئذٍ أنْ كثُرَ عليه مناولةُ الكُتبِ يومَئذ وهُو يجمَعُها في كفِّه حتى ضاقت عنها، فرَمَى بها جُملةً في الخندق والناسُ ينظرونَ إليه، فتحدَّثوا بقُبحِه. قال: فكثُرَ أعداءُ عيسى في وقتِه هذا وأحصَوْا أفعالَه وجميعَ سَقَطاتِه[2]... فذهبَ الاحتراسُ منهم جُهدَه، وسعَى في[3]... قومًا من وجوهِ أهلِ الدّولةِ استَخْلَصَهم لنفسِه وصيَّرهم من بِطانتِه واستكثَرَ بهم، وصاهَرَ منهم: آلَ حُدَيْر وآل فُطَيْس يبغي تكثيرَ عدَدِه وإعزازَ رُكنِه، فسما بجماعةٍ من رجال هذَيْن البطنَيْن في هذا الوقت إلى منازلَ عَلِيَّة.

قال: ولـمّا استراحَ عبدُ الملك إلى كفايةِ عيسى واستقلالِه، انهمَكَ في ابتغاءِ لَذّاتِه ومُواصلةِ شُربِه الذي لم يكنْ يصبرُ عنه، فاغتنم عيسى ذلك منهُ وأقبل على جَمْع المال

---

(١) النّجه، قال الفيروزآبادي: هو استقبالك الرجل بما يكره، وردّك إياه عن حاجته، أو هو أقبح الرد، وبابه منع. القاموس (نجه). قلت: فهو كالوقم، الذي سبق شرحه.

(٢) بعد هذا غير مقروء.

(٣) كذلك، قدر ثلاث كلمات.

واكتساب الضِّياع، فبلَغَ من ذلك أكثرَ ما بلَغَه وزيرٌ قبلَه، وكان من أعظم الآفات على عيسى لأوَّل وقتِه: مُداخلتُه الـجُندَ وإحاطتُه بهم، حتى صيَّر أرفعَ طوائفِهم المدعوِّينَ بالموالي في قيادتِه، فاعتزُّوا على الأجنادِ بالضمِّ إليه، واعتقد هو الاستظهارَ بهم على أمرِه، على أنه في ذلك كلِّه لم يحمِل السَّيفَ ولا نَبَذَ قلمَه، وتلك حالٌ أهلَكَت الوزراءَ قديمًا، وفتحت لملوكِهم أبوابَ الاتّهام لعيوبهم، لم يحترسْ عيسى منها، فأوْدَى كما أوْدَوْا.

قال: ولـمّا تَمالأ أصحابُ عبد الملك على عيسى ونَصَبوا لهُ العداوةَ، دَبُّوا عليه بالقَدْح والسِّعاية بكلِّ وجهٍ وحيلة، واستَظْهَروا على ذلك بالـحُرَم والحاشية، لأشياءَ استحقَّها عندَهم منَ الاعتسافِ وقلَّة الإنصاف، استَفْسَد بذلك كثيرًا منهم ولا سيَّما الذَّلْفاءَ[1] والدةَ الحاجبِ عبد الملك، وجواريَه، فإنَّهنَّ احتمَلْنَ عليه أحقادًا مَحْضَنَهُ بها العداوة، ومكَّنَّ لأعدائه في قلبِ عبد الملك عُلوقَ السِّعاية، حتى نفَذت عليه المحنةُ المكتوبة، وكان عبدُ الملك في الأغلبِ من حالِه شديدَ التمسُّك بعيسى والمعرفةِ برَجاحتِه والردِّ لـما يُنمَى إليه عنه، حتّى رُمي بالتي لا فوقَها من السعي على دمِه ودولةِ سُلطانِه، وذُكِر لهُ على ذلك أدلَّةٌ أزالت شكَّه، فلحِقَه من الإشفاقِ ما يلحَقُ مثلَه، فوَثَبَ على وزيره عيسى فقتَلَه.

قال ابنُ حيّان: ولم يُمَنَّ وزيرُ مملكةٍ علمناهُ بأعظمَ مـمَّا مُنِّيَ به عيسى من نُظرائه على حَسَدِه وعَداوتِه وكشْفِ جِناياتِه وبَثِّ مَساويه، وعبدُ الملك يرُدُّ أكثرَ ذلك منه ولا يقبَلُه، حتّى زاد الأمرُ عليه ورسَخَ بخَلَدِه، فأخَذَ في التغيُّرِ على عيسى بالاتّهام لهُ والـحَذَر منه، مُكاتـمًا بذلك لا يُبديه.

ولـمّا فهِم عيسى ذلك وأحسَّ بالشّر وأيسَ من إصلاح ضميرِ عبد الملك له، فسمَا عند ذلك ـ زَعَموا ـ إلى الغَدْر بالعامريِّينَ والانقلابِ إلى الـمَرْوانيِّينَ الموتورينَ دولتَهم، وإقامةِ هشام بن عبد الجبَّار بن عبد الرحمن الناصِر على الخليفة هشام بن الـحَكَم بن الناصِر، وصَرْفِ الخلافة لهشام بن عبد الجبَّار لضَعْف استقلالِ هشام

---

(١) الذَّلَف، محرّكة: صغر الأنف واستواء الأرنبة من غير حدّ غليظ. القاموس (ذلف)، وتسمى به بعض النساء.

المؤيَّد، والتدميرِ بذلك على آلِ عامر قوَّام دولتِه تدميرًا لا بقيَّةَ بعدَه، وقد كان عيسى خليطًا لهشام هذا محمولًا ما بينَهما على السّلامةِ بالجُملة، لثقةِ عيسى عندَ أصحابِه، حتّى أن هشامَ بن عبد الجبَّار لَيَستنجِزُ حوائجَه في الدّولة بعيسى، فلما تغيَّر ضميرُ عيسى عليهم في هذا الوقت ورَهِبَ سطوةَ عبد الملك لإدنائه لأخيهِ عبدِ الرحمن ضدًّا عليه، قدَّر بزَعْمِه أنهُ يلجئُ الأُمَّةَ بهشام بن عبد الجبَّار إلى سنَدٍ يضبطُ لها شأنَها، ويَنْجو هُو معَ ذلك من النَّكبة، فدعا هشامًا إلى ما عَزَمَ عليه من ذلك سرًّا، ولقيَه خُفْية، وقرَّب عليه بأخْذِ ما بيدِه لمنزلتِه من أولياءِ العامريِّين، وأنّ قُوَّادَهم لا يُخالفونَه بحيلة، فاستجابَ له هشامٌ لذلك فيما زَعَموا، وأخَذَ بَيْعتَه عليه، وواطَأَه على إيقاعِه، وكشَفَ ذلك إلى خواصِّه من قُوَّادِ العامريِّينَ والاستعانة بهم على دعاءِ مَن خلفَهم إلى الدّخول، فساعدَهُ على ذلك جماعةٌ من الطائفتَيْن: الأندَلُسيِّينَ والبَرابِرة، وأعطَوْهُ بيعتَهم لهشام بن عبد الجبَّار، وقاموا معَه في التدبير على عبدِ الملك، وتأتَّوْا لذلك تحت احتراسٍ شديد ومراقبةٍ صعبة يلتقُونَ فيها ليلًا ويتلقَّوْنَ رمزًا قد انتَصَبَ لدعاء الثِّقاتِ إليه وأخْذِ أيمانِهم، واكتَتَم أمرُهم مُدَيْدة الردِّ لعيسى التدبير فيها، فكاد يُشارِفُ التّمام لولا حارسُ المدَّة، وذلك أنّ عيسى ومن معَه دبَّروا أن يَستدعيَ عيسى عبدَ الملك ومَن معَه وأخاه عبدَ الرحمن وأصحابَه إلى المنيةِ التي كان عبدُ الملك وَهَبَه إيَّاها هذه الأيَّام بالرَّملة قُربَ قصرِ الزّاهرة، بحضورِ دعوةٍ يُهيئُها له هناك عظيمةٍ لعقيقةِ مولودٍ رُزِقَه ابنُه عبدُ الملك بنُ عيسى صاحبُ السِّكَّة كانوا منهُ في أفراح متَّصلة، فالتمَسَ عيسى من أميرِه عبدِ الملك بإتيانِه لها زيادةَ التشريف وإقامةَ المنزلة، ويُقدِّرُ أنه لا يختلفُ عنه أخوه عبدُ الرحمن عدوُّه ولا أحدٌ من خاصَّتِه وهم كانوا أوكدَ عليه، ودَبَّر في تكمينِ جَمْع من الأجناد الرَّجّالة قد كان أعدَّهم للحادثة معَهم السّلاحُ والعُدَّة ببعضِ جهات تلك المنية، فإذا حصَلَ فيها عبدُ الملك وأصحابُه واطمأنُّوا خرَجَ عليهم أولئك الرَّجَّالةُ فابتَدَروهم فلم يُخرجْ منهم أحد، ومشَى بصاحبِه هشام بن عبد الجبَّار إلى قصرِ الزّاهرة من قُرب فأجلَسَه هناك، وأخَذ عليه البيعةَ بالخلافة من غيرِ أن يحترمَ شيئًا عن دولة العامريِّينَ، أو تَعْدُوهم القاصمةُ ثمَّ يدعو الناسَ إلى خَلْع هشام بن الحكم الظاهرِ

عجْزُه عمَّا حُمِّل من أمرِ الخلافة ويكشِفُ لهم مسَاويَه المستورة، ويُعوِّضُهم منه بابن عمِّه هشام بن عبد الجبَّار الخليق لها، ولا يخاف أن يَختلفَ عليه منهمُ اثنان لجلالةِ عيسى في نفوسِهم ورضاهم عن تدبيرِه، وتأتّى لعيسى سؤالُ عبدِ الملك مُشاهدةَ دعوتِه تلك، فأجابه عبدُ الملك إلى ذلك وارتَبطَ بموعدِه، فأشرف على حتفِه لولا حارسُ أجلِه الكاشفُ له عن التدبير عليه بين يدَيْ وقوعه وتواليه عليه من جهاتٍ أزاحت شكَّه.

قال ابنُ عَوْنِ الله: بَلَغَني يومئذٍ أنّ أوَّل معرفتِه ما دَبَّر عليه وزيرُه كان من جهة المعروفِ بابن القارِح أحدِ الـمَوالي صنائع ابن أبي عامرٍ الأندلسيِّين، واسمُه خَلَفُ بن سَعْد، وكان عيسى كشَفَ له عن القصَّة بعدَ التوثُّق من يمينِه وأخْذِ بَيْعتِه ودَفْع الجائزة إليه، فصار من فَوْرِه إلى نظيفٍ الخادم فخَلا به وأطْلَعَه على القصَّة وأراه الجائزةَ التي قَبَضَها وخاتَمَ عيسى عليها، فدخَلَ نظيفٌ لوقتِه إلى عبد الملك وأعلَمَه بخبرِ ابن سَعْدٍ هذا، وأوصَلَه سرًّا إليه، فخَلَا به عبدُ الملك ووَعَدَه الغَناءَ والـحُظْوةَ على نصيحتِه، وأنهى إليه من طريق صاحبِ المظالم في ذلك، وهُو أبو حاتم بنُ ذَكْوان، ما شدَّه وقوَّاه، فقلِقَ عندَ ذلك ووَثَبَ على عيسى لوقتِه فقتَلَه.

قال حيَّانُ بن خَلَف: وقد أخبرني الفقيهُ أبو الـمُطرِّف بنُ عبد الرحمن بن عَوْنِ الله أنّ أبا حاتم بنَ ذَكْوان لم يُشافِهْ عبدَ الملك بالقصَّة، وإنَّما عرَّضَ له رَجُلًا متفقِّهًا عَدْلًا، فألقى إليه أبو حاتم ما سَقَطَ له من تدبيرِ عيسى، وكان عند الذَّلْفاءِ والدةِ عبدِ الملك بمحَلٍّ عظيم من الثِّقة يصلُ إليها من وراءِ حجاب، فتسمعُ منه النَّصائحَ في دولة ابنها وتنتهي إليها الرغائبُ من حوائج الناس، فلمّا سمِعَ ذلك منَ ابن ذَكْوانَ قام من وقتِه فوصَلَ إلى والدةِ عبد الملك هاميَ العَبْرة، فوَصَفَ لها الحال، فدخَلَت إلى ابنِها فصدَقَتْهُ عن تُهمة عيسى، وعزَمَتْ عليه في قَتْلِه. قال محمد بن عبد الرحمن بن عَوْن الله: ووَهِمَ ابنُ حيّان في هذه الحكايةِ التي حملها على أبي رحمه الله، فإنّي سمعتُ والدي يحدِّث بها غيرَ مرّة، أنّ الرجلَ لم يكن ممّن يُداخلُ الذَّلفاء، وإنّما كانت له والدةٌ صالحة تُعرف بالقابلة، ولها من الذّلفاء منزلة لطيفة، فأعلمها ابنُها بما ألقى إليه

أبو حاتم من خبر عيسى، فنهضت من فَوْرها وأعلمتها بما عزم عليه عيسى من الفتك بابنها، وصحّحت الخبر لديها، فأُحضِرت الذَّلفاءُ لعبد الملك وسمع الخبرَ على وجهه من هذه المرأة، فلم يشُكَّ في صحَّةِ ذلك وخرَجَ لوقتِه فأمَرَ بقتلِه.

وممَّا ذكر في قَتْل عيسى ـ على سبيل الاختصار ـ قال: لـمّا عزَمَ عبدُ الملك على قتله، شاوَرَ في ذلك أخاه عبدَ الرحمن، فقَوّى عَزْمَه على ذلك، وكان مُناهُ الذي ينتظرُه، وأكثر عليه في المعنى الذي رُمي به، وحذَّره منَ التّواني في أمرِه، فأشعَلَه عليه، فعَقَدَ عبدُ الملك مجلسًا للشُّربِ ليلةَ السّبت لعشْرٍ بقينَ من ربيعٍ الأوّل من سنة سبع المتقدِّم ذكْرُها، فلمّا مضَى صَدْرٌ من الشُّرب أرسَلَ بعضَ خدَمِه الصَّقالبة يستحضرُ عيسى، فطَرَقه الرسُولُ وهُو يشربُ أيضًا في قوم من خواصِّه، منهم: أبو الحَسَن بنُ بُرد كاتبُ الرسائل، فذَكَر أبو الـحَسَنِ هذا أنه بادَرَ بالركوبِ والرُّسُلُ تحُثُّه والقضاءُ يجذِبُه، فانطلَقْنا إلى منازلِنا فلم نعلَمْ بشيءٍ من أمرِه إلّا منَ الغد، قال ابنُ حيّان: وذلك أنه لـمّا دخَلَ على عبد الملك أظهَر له الاستبشارَ بحضورِه، وأقبَلَ عليه بوجهِه، وحثَّ السُّقاةَ عليه، فلمّا مضَتْ أدوارٌ أخَذَ عبدُ الملك في معاتبتِه واتّهامِه والتعريضِ له بغَدْرِه، وعيسى ينزعجُ لقولِه ويوكي إيكاءً من ملامتِه، إلى أن صَرَّح عبدُ الملك وألقى له بما في نفسِه، وألقى مِن يدِه القَدَح وأقبَلَ على سبِّ عيسى والإفحاش عليه، فأيْقنَ عيسى بالشّر ورابَهُ ذلك، وأقبَلَ يعتذرُ إلى عبدِ الملك مـمَّا قُذِف به ويسألُه التثبُّتَ في أمرِه، فقال عبدُ الملك: الحمدُ لله الذي أمكنني منكَ أيُّها الغادر، وتناولَه أخوهُ عبدُ الرحمن والجماعةُ بالمكروه، وتوَثَّبوا عليه من كلِّ ناحية، وعلا الكلامُ إلى أن توقَّدت جمرةُ عبدِ الملك فسَلَّ سيفَه ووَثَبَ به على عيسى، فاستقبَلَ صَفْحةَ وجهِه فشَقَّه إلى ذقنِه، وكبا عيسى لِفيه ثمَّ نهَضَ متحاملًا بضربةٍ أخرى، فنثَرَ حَشْوتَه، وخرَّ صريعًا، وخبَطَه أصحابُ عبد الملك بسيوفِهم حتّى هَبَّروه، وأمَرَ بحزِّ رأسِه، فوُضع جانبًا، وأمَرَ عبدُ الملك في مقامِه بقتل صاحبَيْه: يخْلُفَ بنِ خليفة وحسنِ بن فَتْح، فجالت عليهما الجماعةُ فقُتلا، وأمَرَ عبدُ الملك بطَرْح أجسادِ القتلى ثلاثتِهم في غُمرةِ النَّهر في زَنابيلَ مُثقَّلةٍ بالحجارة، وقام عن الشّرابِ متغيّرًا، ثمَّ لم يعُدْ إلى الشراب، زَعَموا، مدَّةَ حياتِه.

وأحضَرَ في اللّيل صاحبَ الزاهرةِ مُفرجًا، فقلَّده عبدُ الملك قَبْضَ نعمةِ عيسى، وأمَرَهُ بالمسيرِ إلى دارِه ودورِ ولدِه واعتقالِ ما فيها قبلَ سَوْق الخبرِ إليهم، والاحاطةِ بمنازِل كتّابِهم ومَواليهم، وأرسَلَ معَه ثقاتِ خدَمِه الأكابرِ للهجوم على حُرَمِهم، فقام في ركائبِه وطَرَقَ القومَ ليلًا وهم في غَفْلة، فريعَ سِربُهم، وكان حديثُهم في عالم القارعةِ عِبرة، وأمَرَ عبدُ الملك بنَصْب رأس عيسى على بابِ مدينة الزّاهرة لينظُرَ الناسُ إليه، فأصبح ماثلًا للأعْين آيةً بيّنة ومَوْعِظةً وازِعة، فما زال هنالك إلى أن ذهبت الدّولةُ العامريَّة.

قال ابنُ حيان في كتابه: أقولُ: وقد سمِعتُ من جهات أنّ هذا المولودّ الذي شَأمَ أهلَ بيته هُو هذا الرجُلُ الضَّخمُ الـمِراس في آخرِ هذه الفتنة، الـمُرتقي بغير أسبابٍ متينةٍ إلى سماءِ العزَّة، حتى نال ساميَ ذِروة خُطَّة الوِزارة من غير أدبٍ ولا صَنْعةِ كتابة، فاغتَدى عَجَبًا من أعاجيبِ هذه الفتنة، وأمَّا هو فمُنكِرٌ لولادتِه في تلك الأيَّام، بل يقول: بعدُ.

خبرُ مقتلِ هشام بن عبد الجبَّار ابن الناصِر لدين الله المتَّهم بالقيام على المظفَّر(١)

قال: وتَجسَّس المظفَّرُ غَداةَ قَتْل وزيرِه عيسى على الولدِ أبي بكرٍ هشام المذكور، المتَّهم في قصَّته: هل هو في دارِه أو في مُنْيَتِه؟ فعرَفَ أنه في الـمُنية، فوَضَع الأرصادَ عليه لِـما يكونُ منه، فأقام هشامٌ على حالِه ثلاثةَ أيّام بعدَ مقتلِ عيسى، ثمَّ أقبَلَ إلى دارِه والعينُ واقعةٌ عليه، وأُنهِي إلى عبدِ الملك خبرُه، فلمّا جَنَّ اللّيلُ عليه أنفَذَ أخاه عبدَ الرحمن ومَوْلاه مُفرجًا في طائفةٍ من وجوه الغِلمان للقَبْض على هشام المذكور، فأحاطوا بدارِه، فحملتْه هَشاشتُه على الظهورِ وتَرْكِ اللِّياذِ عنهم، فاختطفوهُ للحِين وحَملوهُ إلى الزاهرة، ولم يتعرَّضوا لأهلِه بمكروه، فأمَرَ عبدُ الملك باعتقال هشام في حُجرةٍ قد كان تقدَّم بإعدادِها له بما يَصلُحُ فيها فصُبِر هنالك، فمكثَ بها يومَيْنِ ثمَّ نُقل إلى حَبْس ابتُنيَ له فغاب عن العين، فكان آخرَ العهدِ به.

---

(١) ذكر النويري خبر مقتله (نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٠-٤١١).

ومن أغربِ ما ورَد في الرؤيا المتعلِّقة بمحنةِ عيسى: أنّ رجُلًا من ذوي الصِّدق كان يتأمَّلُ رأسَه في المنام، فسَمِعَه فوقَ خشَبتِه يُنشدُ هذا البيتَ بصوتٍ يُغنّيه [من الكامل]:

بـــانَ الخلـــيطُ وشـــفَّني وَجْـــدي ... وبقيـــتُ أنـــدُبُ ربْعَهـــمْ وَحـــدي

فأوّلتُ هذه الرؤيا يومَئذٍ على بَيْنِ آلِ عامر إثْرَ وزيرِ دولتِهم عيسى، وصحَّت إلى مُدَيْدة.

وذكَرتِ الشُّعراءُ قتْلَ عيسى، ورفَعتْ أشعارَها إلى الحاجبِ عبدِ الملك مُهنّئةً بالصُّنع فيه، فأكثَرتْ على عادتِها، فمن ذلك: قولُ أبي العلاء صاعدٍ البغداديِّ من قصيد [من البسيط]:

يـا مَـن أعـاد لنـا مـن عدلِـه عُمَـرا ... حتّـى حَـسِبناه مـن مَّلحـودِه نُـشِرَا

وهي طويلةٌ، ومن ذلك: قولُ أبي عُمر ابن دَرَّاج القَسْطَلِّي [من الكامل]:

شـكرًا لمـن أعطـاك مـا أعطاكـا ... مَلِـكٌ أذَلَّ لـمُلكِك الأملاكـا

ولـمّا انفرد المظفَّرُ بنفسِه بعدَ مهلِك وزيرِه، استيقَظَ من غَفْلتِه واستلَذَّ بالاستبدادِ والإشرافِ على أمورِ سُلطانِه وإحياءِ رَسْم والدِه، فأخَذَ في حَرْفٍ من ذلك وحَسَمَ أطماعَ الكُتّاب في تدبيرِه، ووالى الجلوسَ للكشف عليهم، وأورَثَه ذلك الرغبةَ في توفيرِ المال، ودعاهُ إلى القصدِ في الإنفاق، فبلَغَ من ذلك في المدَّة القصيرة ما رُجِيَت فيه البركة، وقضَى اللهُ تعالى باختَرامِه عندَ توقّيه في ذلك أسدَّ ما كان في رأيِه وأضبَطَ ما كان لشأنِه، فمضَى حامدًا غادرَ الأسفَ عليه نَصَفَةً.

واضطربَ الأمرُ بعدَه، ونَسَخت الفتنةُ دولتَه، وكان من عظيم عاديتِها بالأندَلُس ما يأتي الآنَ ذكرُه والحولُ والقوَّةُ لله سبحانَه.

ذكْرُ وفاةِ الحاجبِ المظفَّر عبدِ الملك بن أبي عامرٍ رحمه الله

كان قفولُ المظفَّر من غزوةِ صائفةِ ثمانٍ وتسعينَ وثلاث مئة عن بلاد عدوِّ الله شانجه بن غَرْسية، ووصولُه إلى الحضرة، مُنتصَفَ المحرَّم من سنة تسع وتسعينَ في

عقابيلِ علَّتِه التي عكَّست أملَه في وَقْم هذا الطاغية، مُخبرًا على ما أوهَنَتْ من بَطْشِه، متحدّثًا بالانكفاءِ إلى أرضِه، فلم يستقرَّ إلّا رَيْثَ ما تراجعَتْ قوَّتُه، إلى أن صحَّ عَزْمُه على مفاجأةِ عدوِّ الله شانجه بالشّاتية، وقُدِّر أن يُصيبَ منه غِرَّة، فأمَرَ بالتأهُّب لذلك والاستعداد على حدِّ الانكماش وتخفيفِ الوطأة لسُرعة النهضة، فخرَجَ بسُرعة من قُرطُبَةَ للنِّصف من صَفَر من سنة تسع وتسعينَ وثلاث مئةٍ وقد بدأ به في السَّحَر وجَعُه الذي هلَكَ به، فصمَّم ورَكِب متحاملًا يطمَعُ أن يخُفَّ مرَضُه في أثناء سَفَرِه، وقد آذَتْه الحركةُ في يومِه فزاد مرضُه، وكان به ذَبْحةٌ تقوَى معَ الساعات حتى خنقَتْه، فوضَعَ جنبَه واشتَغَل بتدبيرِ نفسِه، وأقاموا به في منزلِه ذلك مؤمِّلينَ راحتَه، وأوعَزوا عنه إلى أهل العسكر بالمقام بمنزلهم فأنكَروا ذلك وتأوَّلوا فيه.

ووصَلَ القاضي ابنُ ذَكْوان ثانيَ يوم خروجِه، فأوقَفُوه على حالِه، فأشار عليهم بصَرْف المظفَّرِ في العمّاريةِ إلى قصرِه، فنادَوْا بالرَّحيل إلى قُرطُبة، فأخَذوا فيه لا يَلْوي أحدٌ على أحد، وانفرد بعبدِ الملك أهلُ موكبِه الخاصُّونَ به من الغِلمان، فحملُوهُ في العمّارية، فزَعمَ قومٌ منهم أنّ وفاتَه كانت وهو جآءٍ في الطريق قُبالةَ دَيْر أرملاط وسِيرَ به على حالِه حتى أُدخِل القصرَ بالزاهرة ميّتًا وأقام أخوهُ عبدُ الرحمن معَ خَواصِّ أهلِ الدولة ليلتَه بقصرِ الزاهرةِ فلم يحدُثْ به حادث وأصبح في عزٍّ ومَنَعَة. قال: وما ترَكَ الناسُ لأوَّلِ وفاة عبدِ الملك وسرعة فجأتِها أنْ قالوا: إنه احتيل عليه بشَرْبة دُسَّت له مسمومةٍ من قِبَل أخيه عبدِ الرحمن بيدِ أحدِ خَدَم عبدِ الملك المظفَّر فاضَتْ نفْسُه منها، على اختلافِهم في وجهِ الحقيقة في سَقْيها واللهُ أعلم بذلك.

ولايةُ عبدِ الرحمن بن أبي عامرٍ الحِجابةَ لهشام بن الحَكَم(1)، وإسراعُه إلى تغيير السِّيرة بالجَهْل على نفسِه

لـمّا دُفن المظفَّرُ رحمه الله، تأهّب أخوه عبدُ الرحمن، الملقَّبُ بشنجول، اسمٌ غلَبَ عليه من قِبَل أُمِّه عَبْدةَ بنتِ شَنْجه النَّصرانيّ الملك تذكُّرًا منها لاسم أبيها فكانت

(1) ينظر المعجب ٨٦.

تدعوهُ في صِغَره بشنجول وكان أشبَه الناس بجَدِّه شانجه، ففرَّق الأموالَ وثقَّف المدينةَ الزاهرة وجلَسَ في مجلس أخيه المظفَّر، ودخَلَ الناسُ عليه من كلِّ طائفة يهنُّونه، فوعَدَهم بكلِّ جميل، ثمَّ ركِبَ إلى قصرِ الخليفة فدخَلَ إليه وأخَذ بيدِه، فعزَّاه الخليفة في أخيه، وأقام عندَه بُرْهةً ثمَّ انصرفَ وقد خَلَع عليه خِلَعًا سُلطانيَّة وقلَّده الـحِجابة، فوصَلَ إلى قصرِ الزاهرة وجلسَ مجلسًا عامًّا، ودخَل الأعيانُ من كلِّ طبقة يُبايعونَه، وتلقَّب للحين بالناصِر ثمَّ بالمأمون، فكان يُدعى بالحاجبِ الأعلى المأمون ناصِر الدّولة، فنظَر في الأمور نظرًا غيرَ سديد، وأنفق الأموالَ في غيرِ وجهِها، وأغار على كثيرٍ من الناس، وبَسَطَ يدَه عليهم وأخَذ أموالَهم، ونَسَبَ إليهم أباطيلَ من القول والفعل حتّى قلِقَ الناسُ به وأبغَضوه في الله وابتهلوا لله تعالى في الدّعاءِ عليه.

ولـمّا مضَى لوقتِه شهرٌ ونصفٌ تصنَّع للخليفة هشام بن الـحَكَم وطلَبَ منه أن يُولِّيَه العهدَ من بعدِه، وأن يتسمَّى بوليِّ عهدِ المسلمين، ففعل ذلك هشامٌ معه، لضعفِه وسوءِ نظرِه ونُقصانِ فطرتِه، فولَّاه عهدَه، فكان ذلك سببَ انحرافِ أكابرِ الأندَلُس عن عبدِ الرحمن لِـما تبيَّن لهم من سُخفِ عقلِه وسُرعتِه إلى نقل المملكةِ عن خُلفائها إليه دونَ غَزاةٍ ولا نُصرةٍ في حرب، وأمّا الخليفةُ فخارجٌ عن تدبيرِ الناس لضَعْفه وحَجْرِه، وخاطَبَ عبدَ الرحمن الطاغيةَ بمثلِ ما خاطَبَه به أخوهُ قبلُ، فوصَلَه عنهُ أنه قال: والله لو أنّي نائم، وأقبَلَ عبدُ الرحمن بجميع جيوشِه، ما استيقَظْتُ له، فاغتاظ لذلك عبدُ الرحمن وعزَم على الغزوِ، وخاطَبَ جميعَ البلاد يَستنفِرُهم للجهاد، فأجابه جميعُ الـمُرتزَقةِ ويسيرٌ من الـمُطوِّعة، وخرَجَ من قُرطُبة، فترَكَ الطريقَ الذي كان أبوه وأخوه يسلُكانِه، وأخَذ على الطريق المدعوِّ بالعُرْيان، فتفاءل له قومٌ من الناسِ وقالوا: أُعْرِيَ هذا الفتى، فكان كذلك.

قال إبراهيمُ بن القاسم[1] في كتابِه: فافتتَح شنجولُ أمرَه بالـخَلاعة والـمَجانة، فكان يَخرُجُ من مُنيةٍ إلى مُنْية، ومن مُتنزهٍ إلى مُتنزهٍ معَ الخياليِّينَ والمغنِّينَ والـمُضحكينَ مُجاهرًا بالفَتْك وشُرب الخمر، ثمَّ إنه عاد من نُزهتِه، فدَسَّ إلى الخليفة هشام مَن

(١) هو الرقيق القيرواني.

خوَّفَه منه وعرَّفَه أنه عزَم على الفَتْك به إن لم يُولِّه عهدَه والخلافةَ من بعدِه، فكثُرَ الإرجافُ بذلك، فأمَرَ شنجولُ جميعَ أهلِ الخِدمة أن يُبكِّروا إلى الزّاهرةِ بسلاحِهم، فامتَثلوا أمرَه.

ذكْرُ تألُّفِ عبدِ الرحمن بن أبي عامر لهشام الخليفة وما جَرَّ ذلك عليهما وعلى أهل الإسلام من البَليّة

قال ابنُ عَوْن الله: وكان من أشدِّ ما غيَّره عبدُ الرحمن من سيرةِ سَلَفِه لأوَّلِ وقتِه: الإفراطُ في وُصْلة الخليفة هشام، واستئلافُه لهُ ولجماعته، وقضاؤه لحوائجِهم، وكان سَلَفُه على اقتصادٍ في ذلك واعتدالِ طريقة وحِذارَ وَثْبة يحملونَهم على الجادَّة ويمنعونَهُمُ المسائلَ المشتطَّة، ويؤْثرونَ تعظيمَ الخليفة معَ البعدِ عنه وإغبابِ لقائه، فاعتَدَلت بذلك الحالُ واستقامت السِّيرة، فلمّا وُلِّي عبدُ الرحمن هذا زايَلَها ضربةً واحدة، وهوى بفؤادِه إلى الجهة المتحاماة، فأكَّد وَطْأتَه على هشام، وتهافَتَ على مَرْضاتِه، وأظهر من التذلُّل بخدمتِه والحرصِ على مسَرَّتِه ما استمالَهُ به وأحظاهُ على والدِه وأخيه وخَلَطَه بنفسِه، وعبدُ الرحمن يَستخفُّ بذلك كلِّه ولا يَؤُودُه ثِقْلُه، فكان أوَّلُ ما ظهَرَ من نتائج هذه الأُلفة: أنْ سألَ الخليفةَ إخراجَه للنُّزهة معَ أهلِه في قصورِ الملكِ بالحَضْرة في جُملة الخليفة وجَواريه في احتجابٍ عن الرَّعيَّة على عادتِه، وكانت عادتُه يلبَسُ بُرْنُسًا كما يفعلُه الجواري فلا يُعرَفُ منهنَّ، فأنْعَمَ الخليفةُ بذلك، وتقدَّم بالتأهُّبِ للنهوض معَه لوقتِه، وأوعَزَ بالاحتفال في خدمتِه، وأُعِدَّت مطايا الأهل، وأُنذِر مَن رَسْمُه الركوبُ من الجُند والغِلمان معَ الحاجبِ عبدِ الرحمن، وقدِّمت المطابخُ والثُّوّةُ[1] إلى قصرِ ارحي ناصح، فغدا الجُندُ على عبدِ الرحمن، فأتى بهم قصرَ الخليفة فأُذِن له في الوصُول إليه، وخاطَبَه الخليفةُ بما لهُ لدَيْه وشَرَّفه في مقامِه بالتّكنية وحَلّاه بالتسمية بالمأمونِ مضافًا له إلى اسمِه الأوَّل ناصرِ الدّولة، خاطَبَه به مُشافهةً وكنَّاه خلالَ ذلك في الحديث والمخاطبة، وأمَرَه بإخراج الأمرِ عنه بذلك إلى

---

(١) جمعها ثوًى، وهو قماش البيت، كما في «اللسان».

الكافَّة وإنفاذِه إلى أقطارِ المملكة بالأندَلُس والعُدوة، وخَلَع عليه من سَنِيِّ كُسوتِه وسيفًا من كرام حِليتِه، فشُهِر هذا الاسمُ بين يدَيْ ركوبه، وانبثَّت التهنئاتُ له من أصحابِه، وبادَرَ الخليفةُ إثرَ ذلك بالركوبِ على عادتِه، فنهَضَ الحاجبُ في مقدِّمةِ خَدَمةِ القصرِ على رُتبةٍ سامية بعدَ أن أحْكم إخلاءَ الطُّرق وضَبْطِها بأكابرِ رجالِه، وسَلَكَ بها الخليفةُ خاليًا في نسائه، حتّى نزَلَ قصرَ ناصح، فتبوَّأَ منازلَه منه، واحتلَّ الحاجبُ في الـمُنية الموسُومة لسَلَفِه، ووَصَلَ نظرُه هنالك في أسبابِ المملكة وأمورِها تولُّعًا بالولاية، وأنفَذَ كتابًا إلى الوزير الكاتب جَهْوَر[1] بن محمَّد يأمُرُه بإثباتِ التسميةِ في الأزمَّة، والاعتمالِ عليها في المخاطبة، والإشاعةِ بها في المملكة. ولـمّا رجَعَ الحاجبُ إلى الخليفة كتَبَ له رُقعةً بالتسميةِ عنوانُها: «الحاجبُ المأمونُ ناصرُ الدّولة أبو الـمُطرِّف حفِظَه الله. بسم الله الرحمن الرحيم. أدام اللهُ حِفظَك وأحسَنَ على الصّلاح عَوْنَك. رأَينا أكرَمَك اللهُ لِـما ظَهَر لنا من جميلِ طاعتِك وبِدارِك إلى ما يَلزَمُك من الـمُناصحة والقيام بأعباءِ المملكة على أفضلِ الطُّرقِ المحمودة والمساعي المشكورة، تسميتَك في كُتُبِنا إليك، وتحليتَك بالمأمونِ في مخاطبتِك، زائدًا على أوَّلِ أسمائك، مظاهرةً لأنعُمِنا عليك، وأنت عندَنا أهلٌ لذلك ومستحِقٌّ به، فاعتمِلْ فيما ينفُذُ من الكتُبِ عنكَ وإليك على عُنوانِ كتابِنا هذا إليك، نسألُ اللهَ عَوْنًا شافيًا وتأكيدًا كافيًا إن شاء اللهُ تعالى»، فوقَفَ جَهْورٌ على كتابِ عبدِ الرحمن له يأمُرُه بإثباتِ التسمية عندَه، ونُسخةُ رُقعةِ الخليفة مُدرَجةٌ في كتُبِه، فامتثَلَ جَهْورٌ ما أمَرَه مِن ذلك، وشَهر هذا اللقبَ في الكافَّة.

قال: فأنكَرَ الناسُ على عبدِ الرحمن وخليفتِه تسميتَه بهذا الاسم الـخِلافيِّ، وهُو مُعَرًّى من علائقِ النَّجابة في الدّولة، وكرِهوا للخليفة السَّماحَ به، واعتَدُّوا ذلك من حاملِه جهلًا وجُرأةً، وذَمُّوا معَ ذلك عجَلةَ عبدِ الرحمن في سُرعةِ ارتقائه إلى علاءِ هذه المنزلة إلى عشَرةِ أيَّام من ولايتِه من غيرِ ارتياض ولا تُؤدَة، فكانت هذه أيضًا من بوادرِه المستنكَرة.

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس (٣٥٩)، ومطمح الأنفس ٢١٦، والمعجب ١٠٩-١١٢، والحلة السيراء ٢/ ٣٠، والمغرب ١/ ٥٦، وتاريخ الإسلام ٩/ ٥٤٧، والوافي بالوفيات ١١/ ٢١١.

وفي سنة تسع وتسعينَ وثلاث مئة: كان السببُ في ادّعاءِ العهدِ الباعثَ على الفتنة؛ قال ابنُ حَيَّان: ورحَل الخليفةُ هشام بنُ الـحَكَم عن قصرِ ناصح إلى مدينةِ الزّهراء مُستَخْفيًا في رَسْمِه بأهلِه يومَ السبّت لإحدى عشْرةَ ليلةً من ربيعٍ الأوَّل من هذه السنة، وحاجبُه عبدُ الرحمن في مقدّمتِه، فنزَل قصرَه بها أشأمَ منزلٍ عظُمت الفِتَنُ منهُ على الأندَلُس، ونزَلَ حاجبُه منزلَ سَلَفِه، فأقام الخليفةُ هناك يومَيْن ثمَّ تحرَّك في اليوم الثالث إلى مُنْية جعفرٍ بأهلِه على سبيلِه في تستُّرِه وحاجبُهُ معَه وقد اشتَدَّ به عُجْبُه وأوصَلَه إلى نفسِه هذا اليوم، فأطال الـخَلْوةَ به والتقرُّبَ منه حتى استَدْنَى نسَبَهُ منه بالـخُؤولة، إذ كانت أُمَّاهما بشْكُنَشِيَّتَيْنِ، فقدَّرها عبدُ الرحمن بجهلِه قرابةً سَما بها إلى ميراثِ الخلافة.

وخرَجَ شنجولُ إلى أصحابِه عَشِيَّ هذا اليوم يَزعُمُ أن الخليفةَ ولّاه عهدَه صُراحًا واختاره للخلافةِ دونَ بني عمِّه وأهلِه، إذ ليس له ولدٌ يؤمِّلُ خلافتَه، فتلقَّفها منهُ أصحابُه وخَدَمُه لوقتِهم، فطاروا بها كلَّ مَطارٍ وغَبَطُوهُ بأخْذِها وشدِّ اليدِ عليها، يحسَبُونَ بجهلِهم أنّ مَرامَها سهلُ المتناوَل، وأنّ فيها نَجاتَهم مـمَّن كانوا يخافونَه من بني مروانَ آخِرَ دهرِهم، فأعلنوا البُشرى بمكانِهم، ووَرَدَ من ذلك على الناس ما حيَّرَ عقولَـهم، فكثُرَ خَوْضُهم لأوَّلِ هذا الوقت، واهتبَلَ بنو مروانَ وشِيعتُهم بالبلد غِرَّةَ العامريِّينَ فيما ارتكبوه من ذلك، فدبَّت عقاربُهم إلى الناس وقاموا في قلبِ الدّولة العامريَّة بِجدٍّ وبصيرة، فلم يخذُلْـهمُ الناسُ وظَفِروا بالبُغْية.

ذكرُ عَقْد عبدِ الرحمن بن أبي عامرٍ لنفسِه ولايةَ عهدِ المسلمينَ على الخليفة هشام بن الـحَكَم جَهالةً منهُ

قد تقَدَّم القولُ في سببِ توصُّل هذا الجاهل بدعوى الخلافة عَجْرفيَّةً من غيرِ تأوُّل ولا أهليّة، وكيف استهواهُ كيْدُ الشيطان، وغَرَّتْه قوَّةُ السُّلطان، إلى أن ركِبَها عمياءَ مُظلِمةً لم يشاوِرْ فيها نصيحًا ولا فكَّر في عاقبة، بل أخَذَها بالـجُملة، ولم يُمهل الخليفةَ عندَ مُنصَرِفهم من نُزهتِهم التي أوقَعوا فيها هذه الوَهْلة حتّى غَدا عليه اليومُ الرابع في جيوشِه المتكاثفة وعُدَّتِه المتظاهرة، فأخَذَ عليه أنقابُ قصرِ الخلافة بعد أن أحضرَ

من شاءَ من طبقات أهل الحضرة، فأجلسَ لهم هناك، وأشهَدَهم فيها أمضاهُ من الولاية، وأخرج كتابًا قُرئ بحضرته من إنشاءِ كاتبِ الرسائل أبي حفصٍ أحمدَ بن بُرْد رحمه اللهُ تعالى(1):

«هذا ما عهِدَ به أميرُ المؤمنينَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله أطال اللهُ بقاءه، إلى الناس عامَّة، وعاهَدَ اللهَ عليه من نفسِه خاصَّة، وأعطى به صفقةَ يمينِه بيعةً تامَّةً، بعدَ أن أمعَنَ النظَرَ وأطال الاستخارة، وأهمَّه ما جعَلَ الله إليه من إمامةِ المسلمين، واتَّقى حُلولَ الأجلِ بما لا يؤمَن، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرَف، وخشِيَ إنْ هجَمَ محتومُ ذلك عليه ونزَلَ مقدورُه به ولم يرفَعْ لهذه الأُمَّة عَلَمًا تأوي إليه، أن يكونَ بلقاءِ الله مُفرِّطًا فيها، ساهيًا عن أداء الحقِّ إليها، ونَظَر عندَ ذلك طبقاتِ الرِّجال من أحياءِ قُرَيْش وغيرِها مـمَّن يستحقُّ أن يُسنَدَ الأمرُ إليه، ويُعوَّلَ في القيام به عليه، بعدَ اطّراح الـهَوادة، والتبرّي من الهوى، والتحرِّي للحقّ، والتزلُّفِ إلى الله جَلَّ جَلالُه بما يُرضيه، وإن قَطَعَ الأواصر وأسْخَطَ الأقارب، عاملًا بألَّا شفاعةَ عندَه أعلى من العمل الصّالح، وموقنًا ألَّا وسيلةَ إليه أزكى من الدِّين الخالص، فلم يجِدْ أحدًا هو أجدرُ أن يُقلِّدَه الخلافَةَ في فضل نفْسِه وكرم خَيْمِه وشرفِ مَوْكِبه وعلوِّ منصبه، معَ تقواهُ وعفافِه، وحَزْمِه وثِقافِه، من المأمون الغَيْب، الناصح الـجَيْب، النازح عن كلِّ عَيْب، ناصرِ الدولة أبي المطرِّف عبدِ الرحمن بن المنصور أبي عامرٍ محمَّد بن أبي عامر، وفَّقه اللهُ، إذ كان أميرُ المؤمنينَ قدِ ابتلاهُ واختبَره، ونظَرَ في شأنِه واعتبَرَه، فرآهُ مُسارعًا إلى الخيرات، مستوليًا على الغايات، جامعًا للمأثُرات، وارثًا للمكرُمات، يجذِبُ بضَبْعِه إلى أرفع منازلِ الطاعة، ويسمو بعينيه إلى أعلى دُرُج النّصيحة، أبٌ منقطعُ القَرِين، وصِنْوٌ معدومُ النّظير، ومن كان المنصورُ أباه، والمظفَّرُ أخاه، فلا غَرْوَ أن يبلُغَ من سُبُل البرّ مَداه، ويَحوي من خلال الخير ما حَواه، معَ أنّ أميرَ المؤمنينَ أبقاه الله، لكثرةِ ما طالَعَه من مكنونِ العلم، ووَعاهُ من مخزونِ الأثر، أمَّلَ أن يكونَ وليُّ عهدِه القَحْطانيَّ الذي جاء فيه الأثرُ عن

---

(1) نص الرسالة في الذخيرة لابن بسام ١/ ٩١-٩٢ باختلاف يسير، ومنه نقلها النويري وابن خلدون والمقري وغيرهم، وأخذنا من الذخيرة في ضبط ما انخرم من النص.

النبيِّ ﷺ: «لا تقومُ الساعةُ حتى يَخرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ العربَ بعَصَاه»، فلمّا استولَى عندَه الاختيار، وتقابَلَت فيه الآثار، لم يجِدْ عنه مذهبًا ولا إلى غيرِه مَعْرَجًا، خرَجَ إليه من تدبير الأمر في حياتِه، وفوَّضَ إليه النظرَ في أمورِ الخلافة بعدَ وفاتِه، طائعًا راضيًا مجتهدًا، متخيِّرًا غيرَ مُحابٍ له ولا مائلٍ بهَوادةٍ إليه، ولا مُتَّرِكٍ نُصحَ الإسلام وأهلِه فيه، وجعَلَ إليه الاختيارَ لهذه الأُمَّة بولاية عهدِه فيها إن رأى ذلك في بقاءِ أميرِ المؤمنينَ أعزّه الله وبعدَه، وأمضَى أميرُ المؤمنين أعزَّه اللهُ عهدَه هذا، وأنفَذَه وأجازه وبتَّلَه، لم يشترطْ فيه مَثْنَويَّةً ولا خِيارًا، وأعطى على الوفاءِ بذلك في سرِّه وجهرِه، وقولِه وفعلِه، عَهْدَ الله وميثاقَه وذمَّةَ نبيِّه محمَّد ﷺ وذممَ الخلفاءِ الراشِدينَ من آلِه وآبائه، وذمَّةَ نفْسِه بأنْ لا يُبدِّل، ولا يغيِّر، ولا يُحوِّل، ولا يتأوَّل، وأشهَدَ اللهَ على ذلك وملائكتَه، وكفى بالله شهيدًا، وأشهَدَ مَن أوقَعَ اسمَه في هذا الكتاب، وهو، أبقاه اللهُ، جائزُ الأمرِ ماضي القولِ والفعل، بمحضَرٍ من وليِّ عهدِه المأمونِ ناصرِ الدّولة أبي الـمُطرِّف عبدِ الرحمن بن المنصور وفَّقه الله، وقبولِه لِـما قلَّده والتزامِه لِـما التزَمَه، وذلك في شهر ربيعٍ الأوَّل سنةَ تسع وتسعينَ وثلاث مئة».

وهذا الكتابُ نسختان، أوَّلُ الشّهودِ فيه قاضي الجماعة أحمدُ بن عبد الله بن ذَكْوان، ويليه من الوُزَراء أسماءُ تسعةٍ وعشرينَ رجلًا منهم، يليهم أسماءُ مئة وستّة وثمانينَ رجلًا من طبقاتِ أهلِ الـخِدمة ومن الـحُكّام والقضاةِ والفُقهاء المشاوَرينَ وغيرِهم.

قال ابنُ عَوْن الله: وصار عبدُ الرحمن في أهل المملكة إلى قصرِه بالزاهرة يَختالُ في ثوبِ الخلافة ويحسَبُ أنها له نِحْلة وأنه مستحِقٌّ لها وخليقٌ بها، فلمّا استقرَّ به مجلسُه أذِنَ لخاصَّتِه من الوُزَراء والأصحابِ وأكابرِ أهل الخِدمة بالدُّخولِ إليه، فأفاضوا في ذكْرِ تهنئتِه بما أكرَمَه اللهُ به والدُّعاءِ له يَمُدُّونَه في غَيِّه وقلوبُهم مُنكِرةٌ عليه، وهُو يُوليهم قَبولًا ويوسعُهم تكرِمة، وأمَرَ بإنفاذِ الكتُبِ عنه إلى أقطارِ المملكة بالأندَلُس والعُدوة يُخبِرُ بولايتِه العهدَ وأمرِهم بالدُّعاء له على منابرِهم بالعهدِ بعدَ الدُّعاءِ للخليفة، معَ نَسْق أسمائه المجموعةِ له.

قال: وغَدا وجوهُ الناس من أهل قُرطُبَةَ لتهنئةِ المغرور عبدِ الرحمن بهذه الـمِنْحة التي كانت عندَهم أعظَم محِْنة، كلُّهم يُعزّي عنها نفْسَه ويُكفكفُ عَبْرَتَه، ثمَّ تجمَّلوا بالملَق، وجلسَ لهم عبدُ الرحمن بقصر الزّاهرة في مَرْتبة الـمُلْك لا ينقُصُه دقيقة، وصيَّر رجالَ المملكة قيامًا بينَ يدَيْه على مراتبِهم في رائق أُبَّهتِهم، وأذِنَ لمن حضرَ البابَ بالدّخول إليه لتهنئتِه، فدخلوا على منازلهم يَقدُمُهم الـمُبعَدونَ عن الخلافة من أهل بيتِ المؤيَّد هشام المروانيَّة وغيرِهم من بطون قُرَيْش تبدو عليهم في ظاهرِهم الاستكانةُ والكَبْوة، وتَتابعَ بعدَهم وجوهُ الناس من أهل الحضرة، فقَضْوا حقَّ تهنئتِه وغَبَطوه بما ارتقَى إليه من رفيع مَرْتبتِه، فأحسَنَ الردَّ عليهم، وخرَجوا من عندِه وقلوبُهم موقودةٌ ببُغْضِه.

وولَّى عبدُ الرحمن ابنَه عبدَ العزيز خُطّةَ الـحِجابة مجموعةً له بسيف الدّولة لقبِ عمِّه المظفَّر، فرُسِّم هذا الطّفلُ بالحجابة بقيَّةَ مُدَّةِ أبيه، وطمَّت الحادثةُ بإسنادِها إليه.

وانهمَكَ عبدُ الرحمن بعدَ هذه الحادثة في غَيِّه، وأزلّ عن الحقّ، وأقبل على بطالته، وجاهَرَ بلَذّاتِه، ومالَ إلى صُحبة الـجُند بكُلّيّتِه، فأدنى إليه الفريقَيْن، ونادَمَ وجوهَ الـجِنسَيْن، أعني البرابرَ والأندَلُس، فأكثَرَ أنواعَ النُّكْر والزيادات والإسعاف بالمحالات حتى تفاقَم أمرُ النّفَقاتِ وهُو ذاهلٌ عن ذلك كلِّه مشغولٌ بشأنِه.

وقال الرّقيقُ في كتابِه: لـمّا تمَّ له ما أرادَ من ولاية العهد واستقلَّ بالـمُلْك، أخَذَ في التخليط والفُسوق والانتهاكِ والزِّنا، ثمَّ تجاوَزَ ذلك كلَّه إلى أن حَمَلَ بعضَ أصحابِه على بعض بحضرته وفي مجلِس شَرابِه وخَلْوتِه حتّى كَبا عن قريبٍ لفِيه.

قال: وأقبل عبدُ الرحمن بعدَ فراغِه من عَقْد الخلافة لنفسِه على طلبِ لَذَّتِه ومواصلةِ شُربِه والخروج في نُزَهِه وصيدِه، معَ الإخوان السَّوءِ الذين اصطفاهم لذلك من رجالِه وشَرى بإرضائهم إسخاطَ ربِّه وإفسادَ مُلكِه.

خبرُ التعميم

وكان من أنْكى ما ارتكَبَ به عبدُ الرحمن رجالَ المملكة وذوي الهيئاتِ من طبقَات أهل الخِدمة إثْرَ ولايتِه للعهد: أنْ أوْعَزَ إليهم بطرح قَلانِسِهمُ الطِّوالِ الـمُرقَّشةِ الـمُلوَّنة،

وكانت على قديم الدّهر تيجانَهم التي يُباهُونَ بها طبقاتِ الرّعيَّة ويُباهونَ بها أهلَ المملكة، وأمَرَهم بالانتقال عنها إلى العمائم ضربةً وَعَدَهم على التفريط في ذلك بالعقوبة، فاستعان كثيرٌ منهم بجيرانِهم من البرابر وإخوانِهم حتّى لبِسُوها على أكرَهِ حالٍ وأشدِّ مشقَّة، وغدَوْا إلى قصرِ الزاهرة يومَ الـجُمعة لأربعَ عشْرةَ ليلةً خَلَت من جُمادى الأولى، فكانوا بها أقبحَ منظر وأهجنَ زِيٍّ وملبَس، لمخالفة العادة، وأصبحوا في الناس فضيحة، وتأوَّل الناسُ في ذلك أراجيفَ شطَّةً صَدَّقها ظهورُ أصحاب العمائم البرابرة بعدَ مدَّة قريبة، فانتزَعوا منهم الدّولةَ وعَمُّوهم كلَّ مصيبة.

خبرُ المدِّ بنهرِ قُرطُبة

وتوالى المطرُ آخِرَ شهرِ ربيع الآخِر من سنة تسع وتسعين وثلاث مئة المذكورة، فاحتَفَلَ مَدُّ النهر وطَمَا حتّى غلَبَ على بُستان... ابن أبي غالب بالزّاهرة، وحتى قارَبَ مجلسَ القاضي على السوق العظيم بأسفلِ قُرطُبَةَ إلى... حوانيتِ الصبّاغينَ وأصحاب الطرائف، وهَدَمَ بعضَها، فكان من أُمَّهات السُّيول المشهورةِ بقُرطُبة، فجَرى من مُرادِ عبد الرحمن بن أبي عامرٍ في هذا المدِّ إنِ استَبدَلَ منَ الاعتبار به النُّزهة، ومن الخشوع لهَوْلِه البِطالة، يعتلي على النهرِ مواصِلًا الشّربَ عليه والقلوبُ منه واجفة.

غزوةُ عبد الرحمن بن أبي عامرٍ
المشؤومةُ عليه بشاتِية سنة تسع وتسعين وثلاث مئة المذكورة،
التي جَلَبت حتفَه وختَمت المغازيَ بعدَه وشَبَّت الفتنةَ ونقَضَت الدَّولة

وكان استعجالُ عبد الرحمن الخروجَ عن الحضرة لهذه الوِجهة لغيرِ سببٍ مُزعج ولا لعلّة، إذ هي بوادرُه الـمُستنكَرة ونَقْضُ آرائه الـمُخلَّطة، خرَجَ إليها في جُمادى الأولى من السنة، فكانت له ابتداءَ البوس وفاتحةَ النُّحوس، وكان فتاهُ الأكبرُ نَصَح له في تَرْك الغزو وخَوَّفه من اضطراب الناس وأبلَغَه عن بعض شِيَع الـمَرْوانيّة، نصيحةً في إرادة رجُل منهم القيامَ عليه واستجابةَ خَلْق من الجُند له، وأنّ رجلًا منهم اشتَرَطَ عليه دارَه، أعني هذا

الفتى، وكان اسمَه محبٌّ، وخوَّفه الفتى ذلك، فأعرَضَ عمّا ذكَرَه واستهان الأمرَ وقال: والله لو اجتمع بنو مروانَ على مَرْقَدي وأنا نائمٌ ما أيقظوني، فصمَّم لغزوتِه هذه كالـمُعينِ لكاشِحه في الوثوبِ عليه في تغييب وَجْهه وإبعادِ شُقَّتِه وحَصْد شوكةِ الجُند عن عدوِّه باستيعابِ جُملتِهم معَه وتخليفه لطالبِه بيوتَ الأموال خَلْفَه مُعرَّضةً كيما يحوزُها فيشتريهم منه صفقةً واحدة، فعُمِي هو وغُوَاتُه من ذلك كلِّه، ولُهِيَ بالغزوِ عنه، لا لجهادٍ يصِلُه، ولا لبرٍّ يلتمسُه، بل لراحةِ قلبِه وإضرارِ رجلِه ولقضاءِ ذِمام العِلج شانْجُه على قومِه المغالبينَ على سُلطانِه.

وكان استَخلَفَ على المملكة ثلاثةَ رهطٍ من جِلّة رجالِه: أحمدَ بنَ سعيد بن حَزْم وزيرَ العامريّين، وعبدَ الله بن مَسْلمةَ صاحبَ مدينة الزّاهرة صنيعةَ آلِ عامر تِلْو أحمدَ في المنزلة، وأحمدَ بنَ بُرْد كاتبَه الأقدم، وعوَّل عبدُ الرحمن في حفظ قصره وما وراءَ بابِه الجماعة من سبع مئة مقاتل ذوي سلاح وعُدّة فيهم فرسانٌ كثيرة يُسْتَدْفَعُ بمثلِهمُ الضَّيْمُ لو ساعَدَ التوفيق، لكن غَشِيَهم من أمر الله ما غَلَّ أيديَهم وسَلَبَهم وقايتَهم فاستسلموا لعدوِّه الضّعيفِ الشوكة لأوَّل وَهْلةٍ ولم يغنِ عنهم مالٌ ولا عُدّة.

قال: وخرَجَ عبدُ الرحمن بعدَ نَظْمِه لهذا كلِّه من مدينة الزّاهرة في جماعةِ جنودِه وعساكره وعُدَدِه، وأخرَجَ معَه من نسائه ضِعفَ ما كانوا يحملونَه غيرَ هائبٍ لصعوبة وقتِه ومشتقّةِ سَفَرِه، وكان نفوذُه في النِّصف من جُمادى الأولى، وأخرج معَه القاضيَ أبا العبّاس بنَ ذَكْوان وسائرَ وُزرائه وصحابتِه... نفسه وجنوده... حاله بما أتاهُ في دعوى الخلافة واستخفافٍ عن الإمامة إلى ما بدا منه من مذموم... الطريقة واستباحةِ الأموال والإعلان بالقبائح... ما أعظَمَ طلبَ محمد بن هشام بن عبد الجبّار بِدَم والدِه وأَخْذِ أهل بيتِه وشَيْع المروانيّينَ في السرِّ بالوثوب بابن أبي عامر وإنكارِ ولايتِه، والتوصُّل بذلك إلى خَلْع هشام ونَقْض دولتِه، ولذلك كانت هذه الشِّيَعُ تبُثُّ في الناس مساوئ عبد الرحمن وتُشنِّعُ أحداثَه وتكْثِرتُ في الكثير منها عليه، وأطْبَقوا على نقضِه وذمِّه، وأصْغَوا في ذلك إلى قول عدوِّه، وانقادوا لأتباعِه، وقاموا في نصرِه قيامًا أمكن الواثبَ به التدبيرُ فكان ذلك من علامةِ الإدبار.

ونفَذَ عبدُ الرحمن لسبيلِه في وقتٍ لم يُسمَعْ قطُّ أشدُّ منه قوّةَ بَرْد وكلَبَ مطر واستقلاقَ طريق وزُخورَ مُدودٍ كابَدَ الناسُ منها مشقّاتٍ هي منهم إلى الآنَ مذكورةٌ مشهورة اقتُحمَ عليها أرضُ جِلّيقيّة من قِبَل طُلَيْطُلَةَ وهو على حالِه في البِطالة والـخَلاعة.

وذَكَر الرّقيقُ في كتابِه أنه كان معَه في هذه الغَزاة رجلٌ من سُفَّال أهل قُرطُبَةَ يقال له: ابنُ الرسَّان[1]، جعَلَه صاحبَ شُرطتِه وأدناه منه، وكان إذا شرب يقول له: نادِ في الناس: يأمُرُكم أميرُ المؤمنينَ المأمونُ بكذا وكذا، فينادي بذلك، فيقول له شنجول: كيف تَرى الناس، هل أنكَرَ أحدٌ شيئًا؟ فيقول: لا، فيقول: عاوِدْ ذلك مرارًا، في مواضعَ كثيرة، ولم يزَلْ كذلك إلى أن بلَغَ طُلَيْطُلة، فاتَّصل به أنّ محمَّدَ بن هشام بن عبد الجبَّار بن عبد الرحمن الناصِر قام بقُرطُبة وهدَمَ بالِسَّ والزّاهرةَ، ولـمّا وصَلَه الخبرُ بأنّ محمَّد بن هشام دخَلَ القصرَ بقُرطُبَةَ وتغلّب على الزاهرة وأخَذ أموالَها ونقَلَ جميعَ ما فيها إلى قصر قُرطُبة، هالَهُ ذلك وأمَرَ بضَبْط العسكر، وأتى قلعةَ رَباح فأقام بها أربعةَ أيّام حائرًا لا يدري ما يصنَع، وجعَلَ يُحلِّفُ رؤساءَ الجُند وأهلَ الخدمة عندَ الـمِنبَر بأيمانِ البيعة أن يُقاتلوا معَه أهلَ قُرطُبة، وكتَبَ لهم صكوكًا بالإنزال في دورِهم وضِياعِهم، وقدَّم جميعَهم على الخُطط، وهُو معَ ذلك لا ينتهي عن شرب الخمر واللِّواط وأعمال الشرّ، ثمَّ أخَذَ في الرجوع إلى قُرطُبَةَ بعدَ أنِ استدار في الطريق سبعةَ عشَر يومًا، فلمّا وصَلَ إلى منزلِ هاني[2] افترَقَ الناسُ عنه ووَصَلوا قُرطُبة وتَركوه في نحوِ خمسينَ فارسًا، ثمَّ هبَطَ إلى أرملاط، فزال عنه مَن بقي معه فسُقِط في يدِه وباتَ بأرملاطَ يُقلّبُ كفَّيْه. وحصَّل حُرَمَه في قصر أرملاط، فأرسَل إليه محمَّدُ بن هشام يؤمِّنُه ليَدخُل في طاعتِه فلم يقبَلْ ذلك، فدخَل قصرَه بأرملاط، وصيَّر فيه حُرَمَه وقد علا نَحيبُه وغَلَب الـجَزَعُ صبرَه ثمَّ نكَص على عَقِبَيْه هاربًا والصُّراخ يتبَعُه، وهُو يخافُ أن يُقبَضَ عليه، وفرَّ معَه ابنُ غومس القُومس وبعضُ أصاغرِ خَدَمِه، وكان أراد الفِرار نحوَ الجَوْف فأرسَل إليه ابنُ هشام ألفَ فارس في طلبِه، وكان عبدُ الرحمن قد عَدَل إلى جبلٍ للمَبيت به مُستترًا، فلم يَشْعُرْ إلّا وقد أُحيطَ به.

---

(١) ينظر نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤١٧.

(٢) أقرب محلّات عبد الرحمن بن أبي عامر إلى قرطبة، كما سيأتي ذكره عند المؤلف.

دولةُ محمد بن هشام بن عبد الجبَّار[1]، وانتزاعُه الخلافةَ عن هشام بن الحَكَم، وظَفَرُه بعبدِ الرحمن بن أبي عامر

نسَبُه: محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبَّار بن عبد الرحمن الناصر.

لقبُه: المَهْديّ.

كُنْيتُه: أبو الوليد.

أمُّه: أمُّ وَلَدٍ اسمُها مُزْنةُ، ولقبُها كُبارة، وتُعرَفُ بالعَرْجاء لخَلْع كان بها.

ولقَّب نفْسَه المهديَّ ولقّبْته العامَّةُ المَنْقَش، لهشاشتِه وطَيْشِه وخِفَّته، وهو كان بابَ الفتنة وسببَ الشِّقاقِ والنِّفاق.

عُمُرُه: ثلاثٌ وثلاثونَ سنة.

خلافتُه: وَلِي مرَّتين، الأولى: يومَ خَلْع هشام بن الحَكَم ثانيَ يوم قيامِه يومَ الخميس لأربعَ عشْرةَ ليلةً خَلت من جُمادى الأولى من سنة تسع وتسعينَ وثلاث مئة، وانخلَع لسُليمانَ بن حَكَم في النِّصف من ربيع الأوَّل سنة أربع مئة حسبَما يأتي ذكْرُ ذلك إن شاء اللهُ تعالى، فكانت ثورتُه الأولى بقُرطُبَةَ تسعةَ أشهر، ودولتُه الثانية بعدَ سُليمان تسعةٌ وأربعونَ يومًا، الجميعُ: عشَرةُ أشهر وتسعةَ عشَرَ يومًا.

صفته: أبيضُ أشقر أشهَلُ تامُّ القامةِ به انحناءٌ، تَعْلوهُ صُفْرة.

قاضيه: أبو العبَّاس بنُ ذَكْوان، ألْفاهُ على القضاء لهشام فأبقاه، ولم أجِدْ له أثرًا في نَقْش خاتِمَه، قيَّدتُ هذا من كتابِ «أخبار الرُّؤساء بالأندَلُس».

ومن كتاب الاقتضاب، قال: وهذا المهديُّ بويعَ له في دولته الأولى إذ استتمَّ له الأمرُ بقُرطُبة، فلمّا أخفَى هشامًا وأشاع أنه قد مات انصَرفت عنه نفوسُ المَوالي والخواصّ، واضطربت عليه بنو أُميَّة، وكان قدِ اتَّخَذ جُندًا من العامَّة وأطرافِ الناس وقَرَّبهم وآثَرَهم على العبيدِ العامِريَّةِ وعلى الطوائف البربريَّة، فالتفَّت منهم طائفةٌ وقاموا على المهديِّ المذكور

---

(1) ترجمته في جذوة المقتبس ٣٨، والكامل لابن الأثير ٨/ ٦٧٩، والمعجب ٨٨، وتاريخ الإسلام ٨/ ٨٢١.

معَ هشام بن سُليمان[1]، وكان بشقُنْدة، وهو عمُّ سُليمان[2] القائم معَهم بعدَه، وسمَّوه بالرّشيد، ورجَعوا معَه إلى القصر بقُرطُبة وحاصَروا فيه المهديَّ يومًا وليلَة، ثمَّ كانت الكَرَّةُ للمهديِّ عليهم وقُتِلَ الرّشيدُ وافترقَ ذلك الجَمْع، فأحال يومَئذٍ المهديُّ على من كان بقُرطُبَةَ من البَرْبر عامَّةَ قُرطُبَةَ فاستَحالوا عليهم قتلًا وأسرًا وغارةً حتّى استَرَقُّوا منهم طائفة، ففرَّ مَن قَدَر على الفِرار منهم والتَأموا معَ غيرِهم من المنهزمينَ على الرّشيد واجتمعوا معَ سُليمانَ بن حَكَم بن الناصِر لدِين الله، وكان بشقُنْدة أيضًا، فصار سُليمانُ من يومئذٍ إمامًا للبربر، وذلك في عَقِب شوَّال من سنة تسع المذكورة، وبايعوهُ وسمَّوهُ المُستعينَ بالله، ونَهَضوا معَه إلى شانْجُه بن غَرْسيةَ بن فرذلند وعاقَدوهُ على أن يَدخُلَ سُليمانُ بن حَكَم قُرطُبة، فجاء معَهم شانْجُه في عسكرٍ عظيم من النّصارى واحتَلَّ قُرطُبة، فبَرَزَ إليهم المهديُّ فيمن كان معَه من الجُند أكثرُهم العامَّة فهزَمَهم سليمانُ، وقتَل النّصارى يومَئذٍ من أهل قُرطُبة نيّفًا على ثلاثينَ ألفًا، فكانت أوَّلَ ثاراتِ المشركينَ على المسلمين، وفرَّ المهديُّ من قُرطُبة مستترًا، وكان لـمّا شعر بقُرب سُليمان معَ البَرْبرِ والنّصارى ورأى تغيُّرَ الناس عليه رَدَّ هشامًا المؤيَّدَ بالله إلى القصر رجاءَ أن يتماسَكَ له الحالُ به ويأبى اللهُ إلّا ما يريد[3].

رَجْعٌ للخبر: وكان السببُ في وثوبِ محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار على القيام وانتزاعِه الخلافةَ عن هشام بن الحَكَم وتظفيرِه بعبد الرحمن بن أبي عامرٍ حاجبِه وقَتْلِه له وتدميرِه على الدّولةِ العامريَّة ما أذكُرُه، وذلك أنّ الذَّلْفاءَ أُمَّ عبد الملكِ المظفَّر بن أبي عامر اتَّهمت أخاه عبدَ الرحمن بقتلِه، فحقَدَت عليه اغتيالَه له وسَعَتْ في حتفِه، على أنّ عبدَ الرحمن أجمَلَ عِشرتَها وعظَّم منزلتَها وأقرَّها معَ وَلَدِ أخيه عبد المِلك ابنِها وحُرَمِه وأسبابِه في قصرِها لم ينقُصْها شيءٌ من حالها، وتحقَّق صِدقَ عداوتِها إلّا السَّعَي على دمِه عندَ بني مروانَ عُداةِ قومِها، وبعْثَهم للقيام عليه وتحريكَهم لارتجاع دولتِهم، فوصَلت ذلك ببُشرى الصَّقْلَبيّ،

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٩٣ وغيره من المصادر.

(٢) هو سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين بالله (المعجب ٩٠).

(٣) الخبر في المعجب ٨٨-٨٩.

إذ كان في صباهُ لبني مروان، ثمَّ انتقَل لبني أبي عامر، ولم يزَلْ يُعرَفُ بالتشيُّع لبني مروان، فدسَّته مولاتُه الذَّلفاءُ إلى معارِفِه الناصِريِّينَ يدعوهم للقيام بهذا الأمر وتُهوِّنُ عليهم الخَطْبَ فيه وفي طلبِه، وتَعِدُ من نَشِط منهم للقيام به المعونةَ بمالها وحيلتِها، وتشترط الأخْذَ لها بثأرِها وثأرِ وَلَدِها، فأرشدَه الأمويُّونَ إلى فاتكِهم محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار، ابنِ قتيل عبد الملِك بن أبي عامر، في قصَّةِ وزيرِه عيسى بن سعيد، كما قدَّمنا، وقالوا له: هو حَرَّانُ ثائرٌ جَسُورٌ مُخاطِر، وقد بَلَغنا أنه تطلَّب هذا الأمرَ منذُ قتلتُم أباه، وتألَّف من شِرار الناس كثيرًا، وشيعتُنا تلقاه وتُؤمِّله فليس لكم غيرُه، فانحرَف هذا الخادمُ عندَ ذلك إلى محمَّد بن هشام هذا، ونقَلَ إليه عن الذَّلفاءِ ما قَوَّى عَزْمَه، وحَمَلَ إليه من عندِها ما قَوِيَ به على أمرِه، وداخَلَه لذلك سليمانُ بن هشام، واستَظْهرَ بسائرِ وَلَدِ أبيه الناصِريّينَ وقومِهمُ المَرْوانيّين، فَجدُّوا في مَعُونتِه وكلمتُهم يومَئذٍ في بغضاءِ العامريّينَ مُتَّفقة، ونفوسُهم من مخافتهم مُختلَسة، فلاذوا بمحمَّد بن هشام وبايعوهُ سرًّا، وقد كان له ولأبيه قبلُ دعاةٌ من أهل قُرطُبة، فابتَعثَهم الآنَ محمَّدُ بن هشام في الاجتراءِ على عبدِ الرحمن بن أبي عامر، فاستمالوا له خَلْقًا منهم وبايعوه، وكان يلقاهُ مَن يثقُ به من وجوهِهم بأحْوازِ قُرطُبة وبسَفْح جبلِها في اكتتام وخُفْية، قد أعدَّهم لوقت الوَثْب، وخفِيَ على شِيعةِ السُّلطان أكثرُ ذلك، فانتظم أمرُ المشؤوم ابن عبد الجبَّار كما قدَّره اللهُ تعالى واشتعل بسُرعة.

قال: وأخَذ محمَّدٌ معَ ذلك في الاحتراس بنفسِه والانتزاح عن منازِله والجِدِّ في شأنِه، وطفِقَ دُعاتُه يُرْجِفونَ بوثوبِ قائم من آلِ مَروانَ ولا يُسَمُّونَه، ويُشيعونَ الأحاديثَ عن نَصْرِه، ويتكهَّنونَ بهُلْك عبدِ الرحمن، ويحضُّونَ الناسَ على الخروج عن طاعتِه، ويقطَعونَ على إدبارِ دولتِه، ويُشنِّعونَ عنه تشانيعَ قبيحةً، حتّى أطبَقَ الناسُ على بُغْض عبد الرحمن وآلِه، وأسرُّوا لهم الغائلةَ وسَقَطوا من أعيُنِهم، وسعَوْا على دولتِهم، وتهيَّأ لمحمَّدٍ ودُعاتِه هذا ومثله قبلَ سَفَر عبد الرحمن لغَزْوتِه المشؤومة عليه، فلمّا ذهبَ عبدُ الرحمن لوَجْهِه هذا، تمكَّن محمَّدُ بن هشام من وثوبِه، فأكمل أمرَه وعبَّى أنصارَه وبثَّ دُعاتَه وأخفَى شخصَه، وتمكَّن بالأطراف، فكان أصحابُه يلقَوْنَه ليلًا ونهارًا في أوقاتِ الغَفْلة بكهوفِ جبل قُرطُبة يُدبِّرُ معَهم ما يريدُهُ، والقَدَرُ يُسعِدُه والواقيةُ تدفَعُ عنه، إلى أنْ ظهَرَ وتمَّ أمرُه.

وكان المنصوبَ من قِبَلِه لدعاءِ العامَّة وأَخْذِ بيعتِهم في السرّ: صاعدُ بن عبد الوهَّاب الحرَّار، وكان في الجهلِ آية، وكان لمحمَّدٍ به خاصَّة. وأرجَفَ الناسُ بظهورِ قائم من بني مروانَ، فكثُر خَوْضُهم في ذلك. وقام في المسجد الجامع بقُرطُبَةَ في أوَّلِ جُمعة من جُمادى الأولى الذي خَرَج فيه عبدُ الرحمن بن أبي عامرٍ إلى غَزاتِه وقتَ إنصاتِ الناس للخُطبة فتًى ممرورٌ من صناعة القَطَّانينَ قُبالَةَ الخطيب، فاعتَرَضَه لـمّا بلَغَ موضعَ الدُّعاء لعبد الرحمن بولايةِ العَهْد، فصاح بأعلى صوتِه: آشٍ هذا الدّلسُ يا شيخَ السَّوء؟ بأنكرِ صوت، فلم يلبَثْ أنِ ابتَدرَه القومُ فقبَضوا عليه وحَملوهُ إلى السِّجن وهُو يزيدُ في صياحِه وينبئُ عن اختلاطِه، فحُبِّس مقيَّدًا، وأُنهِيَ خبرُه إلى صاحبِ المدينة، فأمَرَ بصَلْبِه، فأُحضِر جِذْعٌ وأُخِذ في تهيئتِه له، واجتمَع عالَـمٌ من الناس لمشاهدتِه، فلمّا بَلَغَ خبرُه إلى الخليفة هشام، وبيَّن له خادمُه جوذرٌ الفتى أمرَه وأنه مُصابٌ في عقلِه، رَقَّ لحالِه وأمَرَ بالكفِّ عنه إلى وقتِ وصول عبد الرحمن فينظُرُ فيه بنظرِه، فقَدَّر اللهُ تعالى أنْ زُحزِحَ الفتى عن الجِذْع الذي أُعِدَّ لصَلْبِه ورُدَّ إلى محبِسه، فكان في مقامِه ذلك يَكثُرُ القول بأنَّه لا يُصلب وأنّ المصلوبَ غيرُه وسوف يُعلَمُ أمرُه، فكان من الاتّفاق الرَّبَّانيِّ أنّ ذلك الجِذعَ لم يُنَحَّ من ذلك الموضع إلى أنْ وثَبَ محمَّدُ بن هشام على قُرطُبة، فانطلقَ الفتى الممرورُ من حبسِه، وعوجِلَ الذي رام صلبَه، وهو حاكمُ المدينة عبدُ الله بن عُمر، ثمَّ تلاه صاحبُه عبدُ الرحمن بن أبي عامر فغدا يودعُه الممرورُ بنفسِه، وصار من العجائب أنّ جِذعَه ذلك مـمّا استُعينَ به على صَلْب عبد الرحمن المذكورِ والـمُلكُ لله الواحدِ القَهّار.

وفي سنة تسع وتسعينَ وثلاثة مئة: قوِيَ أمرُ محمَّد بن هشام بقُرطُبة، وكثُر الإرجافُ به، وانكشف للناس اسمُه، فكثُر خَوْضُهم في ذلك، ووقَعَ إلى وُزراءِ عبد الرحمن بن أبي عامر خبرٌ من ذلك، فارتاعوا له وجَدُّوا في حَرْس القصر وضبطِ أبوابِه. ووافَى كتابُ المغرور ابن أبي عامر بدخولِه إلى جِلّيقيَّة، وكان ذلك ميقاتَ ابن عبد الجبَّار لدُعاتِه، ولـمّا اطمأنَّ لبُعدِه وأمِنَ من سرعة رجوعِه وثَب على بابِ السُّلطان في السادسَ عشَرَ لـجُمادى الآخِرة، اهتَبَلَ فيه غِرَّة صاحبِ المدينة لإبعادِه أكثرَ مَن كان على بابِ القَصْر،

وقد كان محمَّدُ بن هشام بَثَّ رجالَه بهذه الناحية مُتَفَرِّقين كأنَّهم نظَّارةٌ يُخفُونَ أسيافَهم تحتَ بَرانِسِهم مُستعِدِّينَ للوثبة مُرتقِبينَ للإشارة، وانتبَذَ هُو إلى عُدوة النهر قُبالةَ القصر يرتقبُ الميقات، إلى أن جاءه هناك مِن أصحابِه اثنا عشَرَ فتًى فيهم طَرسوس الـمَجُوسيّ، وكان أشهمَهم، فدَبَّره على الكُرور إلى الباب وإظهارِ أمرِه، فانكفَى إلى هنالك وقد بَثَّ العصابةَ أمامَه فاكتنَفُوا البابَ كأنَّهم نَظَّارةٌ إلى أن يَطلعَ عليهم، وشَرَّع سيفَه فوقَعَتِ الحادثة.

وقد وقَع الاختلافُ في وَصْف ظهورِه وموضِع مَخْرجِه، فزعَموا أنّ رَجّالتَه هجَموا للحِين على صاحبِ المدينة عبد الله بن عُمر فوجدوهُ في غُرفته مترنِّحًا من نَشْوتِه جالسًا بينَ قَيْنتَيْنِ تُغنّيانِه، وكان زَعَموا أنّ الذي سبَقَ إليه طَرْسُوس عدوُّ آلِ عامر، فقَبَضَ عليه وقادهُ إلى محمَّد بن هشام مختبِلًا لفَرْطِ جَزَعِه، فأمَرَ بضرب عنُقِه ورفْع رأسِه على رُمح وتَرْك جسَدِه مطَّرَحًا وَسْطَ الطريق تطؤُه الأقدامُ إلى أن تمزَّق، وصار خبرُه عِبرة.

وما هُو إلَّا أن رأت العامَّةُ رأسَ عبد الله فتداعَتْ إلى محمَّد وانثالت عليه من ناحيةِ السُّوق والأرباضِ الغربيَّة، فوجَدوا بابَ الشّكال مُقفَلًا على رَسْمِه عندَ مَغيب العامريِّين، فتزاعَقُوا من هنالك، واتَّصل ضجيجُهم، فكَسَر لهم محمَّدٌ القُفْلَ ودخَلوا إليه، وفيهم من العنَّازينَ والجزَّارينَ والسِّفْلةِ وسائرِ غَوْغاءِ الأسواق ما لا يحصيهم إلَّا اللهُ تعالى، فقَوِيَت نفسُه بهم وأقبَلَ يُخاطبُهم بوجهِ قيامِه وسبيل احتسابِه وتحرُّكِهم على ابن أبي عامر، وأطمَعَهم نَهْبَ مدينتِه، فاستهواهم وائْتَمروا له، وتسَلَّحوا بها عندَهم من رَثِّ السلاح الذي لم يكنْ عَهِد بتعهيدِه.

وأرسَل محمَّدٌ للوقت مَن كَسَر سِجنَ العامَّة فانطلقَ جميعُ مَن كان فيه من اللُّصوص والذُّعّار وأصحابِ الجرائم، وسارَعوا إلى محمَّد، فاستعان بهم، وتَداعَى بنو عمِّ محمَّد الناصريُّونَ وغيرُهم إلى نَصْر محمَّد، واستَنْهضَوا الناسَ لـمَعُونتِه، ولبوْا دعوتَه.

وأغلق هشامٌ الخليفةُ أبوابَ القصرِ عليه وسكَّها بخَدَمِه الصَّقالبة، وارتقَى هشامٌ المؤيَّدُ إلى سَطح وأشرَفَ على العامَّة بين مُصحَفَيْنِ يحمِلُهما خادمانِ له، وأشار إلى مَن تحتَه منَ العامَّة بالسُّكون بيدِه، فصاحوا به: لا حاجةَ لنا بك، وليس المُلْكُ من شأنِك،

وهذا أَوْلى به منك، فلمّا سمع ذلك منهم وَلَّى مُنصرِفًا إلى دارِه وأَمَرَ خَدَمَه أَلَّا يُقاتلوا أحدًا منهم ولا يَرمُوا بسَهْم ولا حَجَرٍ عليهم حتّى يقضيَ اللهُ قضاءه، ودخَل مِحرابَه فلم يتحوَّلْ عنه إلى أن نَفَذ أمرُ الله عليه، ومحمَّدُ بن هشام معَ ذلك كلِّه يقولُ لقَرابتِه وأهلِه خيرًا في هشام بن الحَكَم ولا يَسكُتُ عن ذكرِه والدعاءِ له، وعجِبَ الخَدَمُ من دَفْع هشام لهم عن القتال ومَنْعِه إيَّاهم من الدّفاع عنه، ووافَقَ ذلك هوى جماعة منهم لحقدِهم عليه في التفويض للعامِريَّة، وطمِعوا في ابن عمِّه، فغَلُّوا أيديَهم وخَلُّوا محمَّدَ بن هشام وشأنَه، فنفَذَ قضاءُ الله بإذلالِه.

وأمَرَ محمَّدٌ العامَّةَ بنَقْب القصر والدّقِّ لأبوابِه والاحتيال لفتحِه، ووعَدَهم على ذلك جزيلَ الصِّلات، فسارعوا الأمرَ واجتهدوا فيه، وحمَلوا سَلاليمَ سُوقِ الخَشَّابينَ ووصَلوها بالحبال، وطَلَعت العامَّةُ من تلك الجهة على السُّور وعَلَوْا سقفَ القصر ومَلَكوا عُدَّةً من أدنى دورِه، وأوقَعوا النَّهبَ على بعض ما وصَلوا إليه، وغُرِّر بعضُ خَدَم القصر بعضَ التغرير بمُراماتِهم بالنُّشّابِ والقرمَد على غيرِ نيَّة، وكلَّما غشِيَت العامَّةُ ناحيةً أفْرَجوا لهم عنها وقَهقَروا إلى ما خلفَها، فظَهَروا على بعض خزائنِ الأسلحةِ الدانية من هذه الجهة فانتهبوها، فغَلُظت بها شوكتُهم، وكان محمَّدٌ أمَرَهم ببَسْط أيديهم إلى سلاح الصياقلة والتّرّاسين، فأخَذوا ما وجَدوهُ فيها، وغلَّ اللهُ أيديَهم عن سائر الأسواق بلُطفِه.

فلمّا رأى الخليفةُ هشامٌ ظهورَهم عليه وإبطاءَ أهلِ الزّاهرة عن نُصرتِه بوصولِهم إليه، خاف الفضيحةَ على نفسِه وأهلِه، فراسَلَ محمَّدَ بن هشام يسألُه الكفَّ عنه على أن يُعينَه وبني عمِّه على ما نَقَموا عليه ويُقصيَ آلَ عامر عنه ويُقلِّدَه عهدَه ويُشرِكَه في أمرِه، فأبى محمَّدٌ من ذلك ولم يُقنعْه إلَّا الدخولُ والتحكُّم، فحضَّ العامَّةَ على التقدُّم، وكلَّم محمَّدٌ فاتنًا الفتى صاحبَ القصر الضابطَ لأبوابِه بكلام سديدٍ أوصَلَه إلى مَوْلاهُ هشام، فأمَرَ أن يَفتحَ له الأبوابَ ويخلِّيَه والقصرَ، ففعَلَ فاتنٌ ذلك. ودخَل محمَّدُ بن هشام لوقته إلى المجلس الكامل مساء ليلة الأربعاء، فجلسَ هنالك وأصحابُه يَحُفُّونَ به وقد ملَكَ القصرَ أجمعَه وتمكَّن من إرادتِه، وغَشِيَه اللّيلُ فأشعَلَ القصرَ بالشّمع وأمضَى قضاياه طُولَ ليلتِه وأصبح مُستوليًا على أمرِه.

واتَّصل الخبرُ بوُزراءِ الزّاهرةِ لحينه، فتحيَّروا ودَهِشوا، وبادرَ متقلِّدُ مدينتها عبدُ الله بن مَسْلمَة إلى ضبط أسوارها وأبوابها، وعرَّض ما اجتمَع بها من صنوفِ الـمُقاتلة، فوجَدها نحوَ السبع مئة رجل معَ حصانةِ مدينتهم وتقارُبِ أقطارِها وسهولة شُرُفِها، فما نفَع اللهُ بشيء من ذلك كلِّه ولا عَمِل القومُ على مدافعة، ولا نَظَروا لخاصَّةٍ ولا عامَّة، ولا فكّروا في عاقبة، ولا كان فيهم سديدٌ يُشاوَرُ في الحادثةِ لأوَّلِ وقوعِها، بل خانوا وغدَروا وأسلموا سُلطانَ مَوْلاهم فأصبحوا في رِبْق أسرٍ وذِلَّة.

وتعجّل للزاهرة عَشِيَّ هذا اليوم العَصِيب خَلْقٌ عظيمٌ من العامّة أنفَذَهم محمَّدُ بن هشام نحوَها معَ طائفةٍ من أصحابِه، فجاءتها العامَّةُ في جموع أضاقت فضاءها وأحاطت بها من جميع أقطارِها، فخَرَج عليهم نَظيفٌ الخادم ونَصْرٌ الـمُظفَّريُّ فيمن معَهم من الغِلمان خَرْجةً كشَفوهم فيها عن ساحة المدينة وأصابوا منهم في الصَّدمة معَ إمساكهم عن أكثرِهم، فارتدَّت العامَّةُ عنهم خاسئة، وضرَبَ اللّيل رَواقَه، فحال بينَ الجماعتَيْن، وبات أهلُ الزّاهرة ليلةَ الأربعاء بظاهرِ قصرٍ تحتَه غَدْر وفسادٌ شِرّير.

ولـمّا أنْ مَلَك محمَّدُ بن هشام قصرَ الخلافة أوَّلَ ليلة الأربعاءِ النَّحيسة، تقدَّم في طَرْد العامَّة عنهُ وعن دُورِ القصرِ وإهباطِهم عن سقفِه وكفِّهم عمّا نَقَبوهُ بجهاتِ سُورِه وحمايةِ ما استباحوا من حُرَمِه، وأرسَلَ ثقاتِه لأخْذِهم بذلك، فسارعت العامَّةُ إلى أمرِه، وأسْنَد حِفظَه إلى ابن عمِّه محمَّد بن الـمُغيرة، فأجلَسه بكُرسيِّ الشُّرطة على بابِه، فقام له بذلك وصَلَح أمرُه، ونصَبَ عبدَ الجبَّار ابنَ عمِّه الآخرَ مكانَ الحاجب له قَلَّدَه حُرَمَه، واستَدْنَى سُليمانَ بن هشام فسمّاه وليَّ العهد من يومِه، فاغترَّت العامَّةُ بدعاءِ هذَيْنِ الرجُلَيْن بهاتَيْن الـخُطَّتين، وأعجبَتْهما الاستجابةُ لهما فأعقبَتْهما أعظمَ بَليَّة.

وبعَثَ محمَّدُ بن هشام إلى مغلوبِه هشام بن الـحَكَم الخليفة فاتنًا الـخَصِيَّ مُبَكِّتًا له على حبِّه لآلِ عامر وإيثارِه لهم على أهل بيتِه وتصييرِه لسفيهِهم عبد الرحمن ما لم يجعَلْه اللهُ له وإخراجِه الأمرَ عن عِتْرةِ رسُول الله ﷺ، ويُعرِّفُه بما استبانهُ الناسُ من عَجْزِه عن القيام بأمرِهم، ويدعوهُ إلى خَلْع نفسِه، إذ ليس بأهلٍ له.

ذكْرُ خَلْع هشام بن الحَكَم وبَيْعةِ محمَّد بن هشام

لـمّا بلَغَ الخليفةَ هشامًا ما قالهُ محمَّدُ بن هشام، سارَعَ بجوابِه يعتذرُ له بالغَلَبَة عليه ويُقِرُّ بالعَجْز ويُبادرُ بالتخلِّي عن الخلافة، فسُرَّ بذلك محمَّدُ بن هشام، وأرسَل خلْفَ الناس يَستحضرُهم طَوْعًا وكُرْهًا، ولم يُطبِقْ جَفْنًا طُولَ ليلتِه، واستعان فيها على قضاياهُ بما أصاب في المسجدِ من الشّمع فاستعمله ليلتَه تلك في القصرِ وفي البلد لاستحضارِ من احتاج إليه من أكابرِ أهلِه، وأصابهُ في ليلتِه تلك جُوعٌ شديد، فأُحضِرَ له من مِطبخةِ المؤيَّد بالله طعامٌ فأكَل معَ خَواصِّ بني أُميَّة، وأُحضِرت له إثْرَ ذلك هديَّةٌ من المؤيَّد بالله منها خِلَعٌ فاخرة غَيَّر بها للوقت من أحوالِه وأحوال العصابةِ التي حفَّت به من خاصَّته، وقعَدَ للبيعة، فسارَعَ إليه الـمَشْيخةُ من أهل بيتِه وعمومتِه ومَدَّ إليهم يدَه فصفَّقوا عليها، وأرسَلَ في وجوه الناس من الوُزَراء وطبقاتِ أهلِ الـخِدمة ومَن يَليهم من الـحُكَّام والقضاةِ والفُقهاءِ والعُدول بقُرطُبَةَ إلى القصر باللّيل، يُنفِذُ إلى كلِّ رجلٍ منهم رجلًا من أصحابِه فيُقبِلونَ بهم على وَجْهي الكُره والطَّاعية فيُكلِّمُهم بوجهِ قيامِه واحتسابِه وتسرُّع هشام إلى خَلْع نفسِه واعترافِه بعجزِه، فلم يختلفْ عليه أحدٌ منهم.

وتقدَّم للدّخول إلى هشام أبو عُمر بنُ عبد الملك كبيرُ أهل قُرطُبَةَ معَ رجل من نُظَرائه ليسمَعا منه خَلْعَه لنفسِه ويأخُذا بيعةَ محمَّدٍ ابن عمِّه عليه، فأقرَّ لهما هشامٌ بالـخَلْع وأقرَّ لمحمَّد بالبَيْعة، وقرأ: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ الآية [آل عمران: ٢٦]، فدعا له أحمدُ وخرَجَ فعقَد الـخَلْع والتأمُّر لمحمَّدٍ بإشهادِه وإشهادِ صاحبِه، فتمَّ خَلْعُ هشام في هذه اللّيلة، وهو الأوَّلُ من خَلْعَيْه الواقعَيْن عليه في دولتَيْه معًا بعدَ أن استكمَلَ في خلافتِه الأولى ثلاثًا وثلاثين سنةً وأربعةَ أشهرٍ ونصفًا. وصحَّت الخلافةُ لمحمَّد بن هشام صَبيحةَ تلك اللّيلة، واستمرَّت بيعتُه، وسمَّى نفسَه الـمَهْديَّ اختيارًا من عندِه، وذلك اسمٌ لم يتلبَّسْ به أُمويٌّ قطُّ، فكان ذلك أوَّلَ مناكيرِه.

وفي كتابِ الرّقيق: كان محمَّدُ بن هشام هذا مِقْدامًا جَسُورًا على كلِّ بليّة، مُضطربَ الرأي، لم يجسُرْ أحدٌ على القيام على آلِ عامر من المروانيَّةِ سواه، للّذي كان من بَغْي عبد الرحمن عليهم من وِلايتِه العهدَ ولطلبِ محمَّد بثأرِ أبيه هشام بن عبد الجبَّار بن الناصِر، فأصابَ فُرصةً من ذلك الآنَ.

وفي كتابِه أيضًا، قال: يقال: إنّ عِدَّة من اتَّبع الـمَهْديَّ من سِفْلة قُرطُبة خمسونَ ألفًا عمَّهم بالعطاء، فمضَت بالناس أيَّامٌ لم يوجَدْ فيها حَجَّامٌ ولا كنَّافٌ ولا ذو مهنةٍ ذُلّيَّة، وانتَهبتِ العامَّةُ المستجاشةُ على حربِ الزاهرة ما كان فيها من الأموالِ والأسلحةِ والخزائنِ والأمتِعة والآلاتِ السُّلطانيَّة، حتَّى اقتُلعت الأبوابُ الوِثاق والـخَشَبُ الضّخم وغيرُ ذلك ممَّا حوَتْه القصور، وصار يُباعُ بكلِّ جهةٍ لا ينزِعُ عنه من يشارُ إليه بصلاح أو عفَّة، إلى أنْ نزَلَ رجالُ ابن أبي عامر وخَدَمتِه على الأمان، فرُفع النَّهبُ عن الزّاهرة وملَكَها عبدُ الجبَّار ابنُ عمِّ القائم محمَّد فرَفعَ الأيديَ عن النَّهب لِـما بقي بداخلِها، وتمكَّن من بيوتِ الأموال، فأخَذ في نقلِها إلى قصر الخلافة على سبيل من النَّهب، إلى أنِ استَصْفَى كلَّ ما وَجَد بها، فيقال: إنّ الذي وصَل إلى القائم محمَّدٍ من مال الزّاهرة في ثلاثةِ أيَّام: خمسةُ آلافِ ألفِ دينار وخمسُ مئة ألفِ دينار، ومن الذهب: ألفُ ألفِ دينار وخمسُ مئة ألفِ دينار، ثمَّ وَجَد فيها بعدَ ذلك خوابيَ مملوَّةً من الوَرِق مدفونةً في الأرض فيها مقدارُ مئتي ألفِ دينار. وتهافَتَ الناسُ على ابن عبد الجبَّار تهافُت الفَراش على النار، فلم يتوقَّفْ عن بيعتِه أحدٌ منهم ولا استَنْكَف عن قَبْض عطائه، وذلك بَطَرًا للنعمة ومِلالًا للعافية وجهلًا بالفتنة، لِـما سبَقَ لهم في علم الله من البلاءِ والمحنة التي طَمَّت على كلِّ بليَّة، فلم يتخلَّفْ عن أخْذِ مالِه واستحلال نَهْبِه والدّخول في فتنتِه فقيهٌ ولا عالم، ولا عَدْلٌ ولا إمام، ولا حاجٌّ ولا تاجرٌ، إلَّا قام في نُصرتِه بما قَوِي عليه من لسانِه ويدِه، وتكلَّف حمْلَ السّلاح وإن كان لا يُغني عن نفسِه فضلًا عن غيره.

خبرُ نزول أهل مدينة الزّاهرة

قال ابنُ عَوْن الله: وعزَم القائمُ ابنُ عبد الجبَّار على مُخاطبةِ أهل الزاهرة بُكرةَ يوم الأربعاءِ المؤرَّخ، فقلَّد حربَهم ابنَ عمِّه عبدَ الجبَّار بن الـمُغيرة المدعوَّ بالحاجب، وأمَرَ بإثباتِ الناس رجالًا وفُرسانًا في ملاحقِ ديوانِ الـجُند، ووُزِّعت عليهم الأسلحة السُّلطانيَّة وأُرسِلوا معَ عبد الجبَّار، والتفَّ بهم من العامَّةِ النَّهابةِ خلائقُ لا يُحصيهم إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ ومعَهم رأسُ عبد الله بن عَمرِو بن أبي عامرٍ[1] مُعْلًى على رُمح يُرهِبونَ به

(١) تنظر الحلة السيراء ١/ ٢٧٧.

الجماعة، فوقَعت بين الفريقَيْن مُناوشةٌ أقْصَروا فيها عن الاستطالة، وغَلَبت العامَّةُ عليهم فغَلَبوا على الحاجِبيَّةِ قصرِ المظفَّرِ الذي كان فيه وَلَدُه وأُمُّه الذَّلفاء، وكان إلى جانبِ الزّاهرة بخارج سُورِها، فنَهبوهُ وما اتَّصل به، وأزعَجوا عنه الذَّلفاءَ أُمَّ المظفَّر، وأخَذوا من أمتعتها ما لا يُضبَطُ بوَصْف ولا قيمة، وهي التي أعانت القائمَ بمالها وحرَّضَتْه على أمرِه، فلمّا رأى ذلك أهلُ الزاهرة استَسْلموا، وسألوهُ أن يُنفِذَ إليهم محمَّدَ بن هشام القائمَ أمانًا ينزِلونَ عليه، وذلك وقتَ الظُّهر من يوم الأربعاء، فأنفَذَ إليهم أمانًا مؤكَّدًا كتَبَ فيه بخطِّه، وأرسَله إليهم فنزَلوا بأجمعِهم، وملَكَ عبدُ الجبَّار بنُ الـمُغيرة قصرَ الزاهرة لوقتِه والعامَّةُ منتشرةٌ بأدانيهِ قد انتَهبوا منه ما لا يُدركُه الإحصاء، وهو يعذرُ في منعِهم من غير تحقيق كيما يصلُ هو إلى اصطفاءِ ما يريدُه لنفسِه واصطفاءِ من يَكرُمُ عليه من أهلِه وهم يومَئذٍ بحال إضاقة، فأخَذوا من المال والجواهر وفاخِرِ الأمتعة ما استأثَر عبدُ الجبَّار بأكثرِه، ودَمَّرت العامَّةُ على أكثرِ خزائن الكُسوة والفُرُش والأمتعة والطِّيب والحِلْية والذّخائر والسّلاح والعُدَّة، فنَـهَبت من ذلك كلِّه ما لا يعلمُه إلّا اللهُ تعالى، وما قَدَرَ على قَبْض إيديهم إلَّا مساءَ ليلةِ الخميس بعدَه، وكان قُصارى عبد الجبَّار أنْ ذَبَّ عن أسرتِها التي فيها الـحُرَم وبيوتُ الأموال وخاصُّ الأمتعة، فسارَعَ القائمُ في نَقْل ما خَلُص له من ذلك كلِّه إلى قصر الخلافة بقُرطُبة غَداةَ يوم الخميس بعدَه لاثَنْيْ عشَرَ يومًا بقينَ من جُمادى الآخِرة.

وميَّز القائمُ محمَّدُ بن هشام حُرَمَ آلِ عامر لـمّا صِرْنَ في يدِه فأطلقَ حرائرهَنَّ واصطفَى الإماءَ منهنّ لنفسِه، فوطئ أكثرَهنَّ ووَهبَ منهنَّ لوُزرائه وأصحابِه، جاء في ذلك بأدهى مـمّا أنكرَه على مَن قام عليه، ولم تزَلْ مَناكيرُه تزيدُ حتّى هانت أجرامُ آلِ عامرٍ عندَ الناس، وأقرُّوا بظُلمِهم لهم، وصان محمَّدٌ في خلال ذلك الذَّلفاءَ وابنَ ابنِها وأسبابَهم، وأذِنَ لها في نزول دارِها بجَوْفيِّ المدينة، فانتقلت إليها بما بقي لها، وأقامت بها محوَّطةً في أسبابِها مُطلَقةَ اليدِ على أملاكِها، وكانت قد تقدَّمت في إخراج الأموال والذّخائر وأودعَتْها قبلَ الكائنة، فمن ذلك اجتَنَى ابنُ ابنِها محمَّدُ بن عبد الملك بعدَ موتِها.

خبَرُ هَدْم مدينة الزّاهرة

وذلك أنه لـمّا فُرِغ للقائم محمَّد بن هشام من تحويل كلِّ ما كان بالزّاهرة أمَرَ بهدمِها وحطِّ أسوارِها وقَلْع أبوابِها وتشعيثِ قصورِها وطمس آثارِها، والاستعجالِ في ذلك، وجَمْع الأيدي عليه، وهو معَ ذلك شديدُ الخوف من عبد الرحمن والتوقُّع لسرعةِ انكفائه إذا هو سَمِع بخبرِه، فأباح أنصارَه من العامَّة تخريبَها وسَوَّغَهم ما اقتَلَعوهُ من مَرْمرِها وأنقاضِ قصورِها ودُورِها، فبَلَغوا من تدميرِها في أيّام قلائلَ ما لم يُقدَّرْ أنه يُبْلَغُ في مدَّة طويلة، وعفَا رسمُها فأصبحت بَلْقَعًا كأنْ لم تَغْنَ بالأمس، وأُبدِلت المدمَّرةُ من زاهرِ اسمِها وزايلَتْها سعودُها وقارَبَتْها نُحوسُها، وما علم الناسُ مدينةً بالأندَلُس بل ببلادِ الإسلام كلِّه كانت أعظمَ بركةً في الجهادِ والمال منها وأبهجَ غُرَّةً وأشدَّ مملكةً وأكثرَ جيوشًا وحاشيةً وأتمَّ سعادةً وأطيبَ بُقعةً من هذه المدينة الزاهرة، حتّى أذِنَ اللهُ في خرابِها في الوقت المحدود للأمرِ المعدود.

وممَّا قيل في خرابِ الزّاهرةِ قبلَ كونِه: ذُكِر أنّ المنصورَ بنَ أبي عامر كان يَرى في منامِه أنّ اللهَ تعالى اطَّلع على قصر الزّاهرة، فسأل عن ذلك ابنَ الـهَمْدانيّ، فأخبَره بخَرابِها، وتلا قولَ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فكان المنصورُ متى تذكَّر هذه الرؤيا ضاقت خُلُقُه أيّامًا حتّى لا يستطيعُ الطعام.

وذُكِر أيضًا أنّ أحدَ وُزراءِ المنصور كان يرى في منامِه يهوديًّا يمشي في أزِقَّة الزّاهرة بخَرْجِه على عنُقِه وهُو ينادي: خرُّوبش خرُّوبش، فسأل المعبِّرَ عن ذلك فأخبَرَهُ باقترابِ خَرابِها.

قال أحمدُ بن حَزْم: وكان المنصورُ يقول: وَيْهًا لكِ يا زاهرةَ الـحُسْن! لقد حَسُن مَرْآكِ وعَبِقَ ثَراك، وراقَ منظرُكِ وفاق مخبَرُك، وطاب تُربُكِ وعَذُب شِربُك، فيا ليتَ شعري، مَن الـمُريدُ الذي يهدِمُك ويوهنُ جسمَك ويعدِمُك؟ قال: فاستعظَمْنا ذلك منه، وسأله عن ذلك أبو عَمْرٍو ابنُ حُدَيْر واستنكَره عليه فقال له: كأنَّك لم تسمَعْ بهذا يا أبا عَمْرو؟ هو عندَكَ وعندَ سَلَفِك من صاحبِك الـحَكَم لكنَّك تتجاهل. نعم، سيظهرُ عليها عدوُّنا فيهدِمُها ويُلقي حجارتَها في هذا النهر.

قال ابنُ حُدَيْر: كنتُ قاعدًا يومًا معَ المنصورِ إذ طَلَعَ ابنُه عبدُ الرحمن، وهو يومئذٍ ابنُ سبع سنين، خارجًا إلى الكُتَّاب، فلمّا وقَعَت عينُه عليه قال لي: تأمَّلْ مَن طَلَع علينا، والذي يكونُ خَرابُ دولتِنا على يدَيْه هو عبدُ الرحمن بن محمَّد، وأنا أخشى أن يكونَ هذا لكنّه من النفْس بمنزلةٍ لا يلحقُه معَها مكروهٌ، وأُراه كأنَّه هو بعينِه، وإنْ قضَى اللهُ شيئًا كوَّنه.

وذُكر أنّ الفقيهَ القَبْريَّ، الـمُبتلى بالنَّفي على يدَي المنصور، اجتازَ يومًا معَ بعض أصحابِه بالزّاهرة وعبدُ الرحمن بن أبي عامرٍ في غَزاته، فنَظَر في الزّاهرة فقال: يا دار، فيكِ مِن كلِّ دار، جعَلَ اللهُ منكِ في كلِّ دار، فكان من قَدَر الله إجابةُ هذه الدَّعوة إلى أقلَّ من تمام الشّهر.

مقتلُ عبد الرحمن بن أبي عامر، وانقراضُ الدّولة العامِريَّة[1]

قال ابنُ عَوْن الله: قد ذكَرْنا ذهابَ هذا المفتون، في سَفَرِه الملعون، الذي عقَده على اللّعبِ والبِطالة، وحمَّل المسلمينَ من كُلفتِه ما بغَّضَه إليهم وعَفَوْا منه كلَّ خَصْلةٍ أجمَعَ أهلُ عسكرِه أنهم ما تجشَّموا قطُّ مثلَها في شيءٍ من شَواتي سَلَفِه. قال: وكان التِذاذُه على ذلك باسم ولايةِ العهد التي انتحَلَها أعظمَ لَذّاتِه، وإنَّ ذكْرَها كان أشهى إلى نفسِه من تسبيح خالقِه، حتّى بلَغَ إفراطُه في حبِّها أنْ تَسمَّى بالخلافة قبلَ وقتِها. وقد زَعَموا أنّ شُرْطيَّه المعروفَ بابن الرَّسَّان نادَى عليه باسمِها في بعض الليالي على بابِ مَضرِبه وقد اقتحَم أرضَ العدوّ. ثمَّ وافاهُ الخبرُ بقيام ابن عبد الجبَّار بقُرطُبَةَ ودخولِه الزّاهرةَ فسُقِط في يدِه واختُلِط لحينِه، فصارت حالُه في استيلاءِ الـجَزَع عليه كما كانت حالُه في شدَّة إقدامهِ على بوائقِه، ونزَلَ منزلَهُ الأشْأم بقلعةِ رَبَاح في يومِه حائرًا في أمرِه مغترًّا بجَمْعِه، ودَعَا أهلَ العسكرِ إلى مُبايعتِه على حربِ أهل قُرطُبَةَ ونَصْر الخليفة المظلوم هشام بن الـحَكَم، فلم يمتنعوا عليه وأقبلوا يحلِفونَ له أيّامًا متواليةً وهم يخبِطُونَه العَشْواء.

وفي كتاب الرَّقيق، قال: لـمّا قام عبدُ الرحمن على مِنبرِ قلعة رَبَاح يَستحلِفُ الـجُندَ على نُصرتِه، دَعَا باسم محمَّد[2] بن يَعْلَى الزَّناتيّ، فدَنا إليه، فقال له ابنُ الحداء: أتحلفُ

(١) ينظر نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٤ فما بعدها.

(٢) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٥.

لوليِّ العهدِ أيَّدَه اللهُ أنَّك تَنصُرُه ولا تخذُلُه؟ وعبدُ الرحمن ساكتٌ وثَمِلٌ من شرابِه ليس يقدِرُ على كلمة، فقال لابن الحداء: نحن تحتَ بيعةٍ تقدَّمت له في أعناقِنا، فما بالُ تكريرِها؟ فإنْ كانت لا تنفعُه إلَّا بتجديد أيمانٍ أُخَر، فليست بالأيمانِ الأُخَر تنفعُه إلَّا بتجديد مثلِها، هذا ما لا نهايةَ له، قال: لا بدَّ أن تحلِفَ ولا تفارقَ الجماعة، فحلَفَ له حَلْفَةَ كُرْهٍ وغَمُوسٍ وخرجَ، فلقيَ ابنَ عمّ له اسمُه نكساس بنُ سيّدِ الناس وجماعةً من وجوه زَناتة، قال ابن يَعْلَى المذكورُ: فعدَلْنا إلى خندق وتعاهَدْنا على إسلامِه وتَرْكِ القتال عنه، فكان ذلك سببَ نَفْر الأجنادِ عنه.

وتظاهَرَت الأخبارُ بمحلَّةِ شنجول بتظافُر جميع أهل قُرطُبَة معَ ابن عبد الجبَّار وقوَّةِ بصائرِهم في نُصرتِه وبَذْلِـهم نفوسَهم دونَه على ما بهم من قلَّة الدُّربةِ بالحرب والجهل بعواقبِها، فرأى البربرُ أمرًا لا يَدْرونَ تأويلَه وأيقَنوا ألَّا مَدْخَلَ لهم في قتالِ أهل قُرطُبَةَ لحصول أموالهم وأهليهم بأيدي أهل البلد، فاتَّفقوا على إسلام عبد الرحمن إليهم وطلبِ السلامة من بوادرِهم.

وفي كتاب إبراهيمَ بن القاسم: قال محمَّدُ بن يَعْلى: وقد كان بلَغَنا عن القاضي أبي العبَّاس بن ذَكْوانَ أنه يتبرَّأ من عبد الرحمن ويُفسِّقُه ويَكرَهُ أمرَه ويستعظمُ ما يدعو الناسَ إليه من قتال جماعة المسلمينَ بقُرطُبة، ويُشفقُ من إقحام الجيش عليها لاستباحةِ مَن فيها وفيهم الصالحونَ ومن لا ذنْبَ له من الذَّراري والعيال، ويَنبِسُ من ذلك بالكلمة بعدَ الكلمة وهُو معَ عبد الرحمن تحتَ القبَّة. قال محمَّدُ بن يَعْلى: فأردتُ أن أتعرَّفَ ما عندَه، فخلَوْتُ به، فبَدأني وقال لي: ما عندَكَ في هذا الأمر العظيم الذي دَهانا؟ فقلتُ له: لستُ أُجاوِبُك إلَّا أن تَطِيبَ نَفْسي بيمينِك وتُخبِرَني برأيِك فلا أكتُمَك ما عندي، فقد باح الخفاءُ وخَلا بي وحَلَف لي واستَنْجَزَني، فقلتُ له: لستُ والله أقاتلُ عنه أنا ولا أحدٌ من زَناتةَ البتَّة، فرأيتُه قد تهلَّل لهذا وقويَتْ نفسُه وقال لي: قد بَلَغَني ذلك، وهُو الرأي.

قال ابنُ عَوْن الله والرقيقُ وغيرُهما: وقد بَلَغَني عن عُكاشةَ بن ناصر أنه حَلَفَ بطلاقِ نسائه أنه لا يُقاتلُ معَ شنجول؛ لأنه زِنْديقٌ مُتلاعِب ليس من الإسلام في شيء وأفعالُه دالَّة على اعتقادِه، وقد صحَّ عندي أنه سمِع مؤذِّنًا يُنادي بِحَيَّ على الصَّلاة،

فقال: لو قلت: حيَّ على الكأس لكان خيرًا لك، وكثيرًا مثلَ هذا، فاتَّفقتْ كلمةُ الجماعة على إسلامِه.

قال ابنُ يَعْلى الزَّناتيُّ: ودَعاني عبدُ الرحمن في بعض مواقفِه هذه وقدِ اشتَدَّ الأمرُ عليه وبان خِذْلانُ الـجُند له، فدَنَوْتُ منه وقد يسَّرتُ سيفي بسَلِّ بعضِه، على أنه إن أرادني بسُوءٍ بَدأتُ به، فدَفَع إليَّ كتابًا فيه تقليدي خُطَّةَ الوِزارة معَ الـحَشَم، وقال لي: قد تَرى ما نحن فيه فاصدُقْني عن نفسِكَ وقومِك، فلا رأيَ لمكذوب، فقلتُ له: نعَمْ، إيَّاكَ أن تغترَّ، فليس والله يُقاتِلُ عنكَ أحدٌ من زَناتةَ والناسُ لهم تَبعَ، فشقَّ ذلك عليه وقال لي: ما الدليلُ عليه؟ فقلتُ له: أن تأمُرَ بتقديم مِطبختِك إلى طريق طُلَيْطُلَة وتُظهِرَ الرحيلَ إليها فتعلَمَ مَن يتبَعُك ويتخلَّفُ عنك، فقال: صدقتَ.

وسار عبدُ الرحمن ـ معَ ذلك كلِّه ـ سادرًا في غَلوائه وغَيِّه حتّى انتهى إلى منزلِ هاني أدنى محلَّاتِه إلى قُرطُبة، فلمّا نزَلَ وباتَ نزَعَ عنه عامَّةُ البربر ليلًا إلى قُرطُبة، وإنَّ منهم مَن تَرَك أثقالَه تخفُّفًا، وذلك يومَ الثلاثاء مُنسلَخَ جُمادى الآخِرة من سنة تسع وتسعينَ المذكورة، فلم يبقَ معَ عبد الرحمن إلَّا نُفَيْرٌ من غِلمانِه، وكان عبدُ الرحمن في ذلك الوقت يُنهِضُ جُندَه إلى أعلى الرُّتب والزِّيادة في الـمُرتَّب ويفتحُ لهم بابَ الإسعاف فلم يرُدَّ أحدًا عن المسألة، وضَمِن لهم على ذلك بَيْعةً مجدَّدةً أنّ مِنَح الله عليه، وأوهَمَهم أنَّ هناك أموالًا لأبيه خافيةً لم يُظهِرْ عليها عدوَّه، فأظهَروا له الجِدَّ في نُصرتِه والحرصَ على مالِ عدوِّه، يُبايعونَه بقولهم وتأبَى قلوبُهم، وقد علموا احتواءَ عدوِّه على مالِ الزّاهرة وبَذْلَه الأُعطِيَةَ فطمِعوا فيها ويئسوا من خيرِ صاحبِهم.

قال ابنُ عَوْن الله: فلقد حدَّثني بعضُ أكابرِ كُتَّابِ عسكرِه أنَّه انتهى تحصيلُه لِـما عقَدَ في تلك الأيَّام من الصُّكُك في الإنهاض والتقويم والزِّيادة والتسويغ إلى خمسةِ آلافِ صَكٍّ وزيادة، حتّى لقد عُدِمَ الرَّقُّ جُملةً واستُعملت أجناسُ الأُدُم بدلًا من الصُّحُف، فكانت قصَّةً فاحشةً خلَّفها مثلًا في الناس تعرَفُ إلى اليوم بالرَّباحيَّة.

وكان أوَّلُ شيءٍ صنَعَه شنجولُ حين نزَلَ بقلعةِ رَباح أنْ تبرَّأ من ولايةِ العهدِ واقتصَر على الحِجابة، وأحال في ادّعاءِ العهد على خليفتِه هشام، وأنفَذَ كتابَه في الرجوع عنهُ

إلى أهل مدينة طُلَيْطُلة، ومَن خلْفَه من أهل الثغور، يَستصلحُهم باعترافِه ويَنشُدُهم اللهَ في الخليفة المظلوم ويُمسِّكُهم بطاعتِه ويصِفُ لهم ما رَكِبَه محمَّدٌ القائمُ ودهماءُ أهل قُرطُبة، فلم يُصْغِ أحدٌ من الناس إلى كتابِه، ولا وفَى له إنسان. وكان أسبقَ الناس إلى الغَدْر به واضحٌ الكبيرُ مَوْلى أبيه، وكان ابن غُومس القُومِس قد صَحِبَه يريدُ قُرطُبَةَ معَه مُعاقِداً له مُستنظِراً به على من يناوئُه من القمامِسة، فلمّا رأى اضطرابَ حالِ شنجولَ وسَمِع صحَّةَ أخبارِ ابن عبد الجبَّار وظهورِه، خَلا بشنجولَ فقال له: أرى أحوالَك منتقِضة، وأمورَكَ مُدْبِرة، وجُندَك مخالفينَ لك، فأخبِرْني عن هذا الرجُل الذي بقُرطُبة، أأنت أشرفُ أم هو؟ قال: بل هو، قال: الناسُ أميَلُ إليك أم إليه؟ قال: ما أراهم إلّا إليه أميَل، فقال: هذا دليلُ ردًى، قال شنجول: فما الرأيُ عندَك؟ قال: الرأي عندي أنْ ترحَلَ وأرحَلَ معَك بأصحابي اللّيلة، فإن شئتَ قصَدْنا واضحًا فكنّا معَه يدًا واحدة، وإن شئت تركتَه وتوجّهتَ معي إلى بلدي فيمَن معَنا، فأظُن أن يَلحقَك من يَرجُوك ومَن لك عليه حقٌّ وتُريكَ الأمورُ وجوهَها، فقال له شنجول: أنا أرجو إن أطلتُ(١) على قُرطُبَةَ أن تختلفَ الكلمةُ عليه وأن يكونَ لي منهم أنصارٌ يميلونَ إلى سُلطاني ويحبُّونَ ظهوري، فقال له القُومِس: خُذْ باليقين وضع الظَّنَّ، فأمْرُك والله مختلٌّ وجُندُك عليك لا لك، فقال: لا بدَّ من الإشراف على قُرطُبة، فقال له: أنا معَك على كَراهةٍ لرأيِك وعلم بخَطائك، فإن عشْتَ عشْتُ معَك وإن مِتَّ مِتُّ معَك.

ورحَلَ عبدُ الرحمن عن قلعةِ رَبَاح إلى قُرطُبَةَ وقد زَيَّن له غُواتُه حربَها ودخولَـها عَنْوةً، فاغترَّ بهم وأقبلَ قابضاً على سَرابِ بِقِيعةٍ من موعدِ جُندِه، قال إبراهيمُ بن القاسم: فصار شنجولُ من قرية رَبَاح والأخبارُ تتواترُ بتظافُر أهل قُرطُبَةَ معَ ابن عبد الجبَّار، ورأى البربرُ أمورًا لا يَدْرونَ ما يقدِّمونَ فيها ولا ما يؤخِّرونَ من سُوءِ حال شنجولَ وقُبح أفعالِه وظهور العامَّة بقُرطُبة معَ ابن عبد الجبَّار على حالٍ غيرِ منتظِمة، وكان أغلبَ ظنونِهم أنّ ابنَ عبد الجبَّار لا يُقدِّم هشامًا في الخلافة ولا يصنعُ شيئًا ممَّا صنع به،

---

(١) لفظة لم يظهر منها إلا الألف والطاء، فاسترجمت قراءتها كذلك، وقرأها بروفنسال: «أكدت»، ولا معنى لها.

وأنه كالقائم دونَه والداعي له، فصاروا معَ شنجولَ حتّى أتوا منزلَ هاني، فلمّا نزَلَ به نزَعَ عنه عامَّةُ البربر كما ذكَرْنا في يوم الثلاثاء، ثمَّ وصَلَ يومَ الأربعاءِ التالي له، فسار إلى قُرطُبَةَ أبو زيدٍ بنُ دوناس اليَفْرنيُّ[1] في جماعتِه، وزِيري بن عُرابةَ المطماطيُّ[2]، وحُباسةُ بن ماكْسن بن زِيري الصُّنهاجيُّ في جماعةٍ من إخوانِه، وتَوالَى الناسُ يتبعُ بعضُهم بعضًا يومَ الخميس والـجُمُعة، ووصَلَ أبو العبَّاس بن ذَكْوانَ القاضي ووجوهُ الصَّقالبة العامِريّينَ ووجوهُ الأندَلُسيّين، وبقي شنجولُ في نفَرٍ يسيرٍ من حُرَمِه وحَشَمِه وابن غُومِس معَه في نفرٍ من النّصارى، وتفرَّقَ القومُ أياديَ سبأ، فقال له ابنُ غُومس: ارجِعْ بنا من هنا فيلحقَ بنا بعضُ أصحابِنا ونسيرَ في السَّحَر قبلَ أن يَدهَمَنا من يمنعُنا من ذلك، فأبَى له شنجولُ وقال: قد أرسلتُ القاضيَ يأخذُ لي أماناً من ابن عبد الجبَّار، وقد كان رَغِبَ إلى القاضي وإلى خَزْرُون بن مُحرِز ونَصْر بن أحمدَ أن يأخُذوا له أمانًا من عند ابن عبد الجبَّار، فضمِنوا إليه ذلك، فلمّا وصَلوا كان القاضي ابنُ ذَكْوان أشدَّ الناس عليه عندَ ابن عبد الجبَّار، وكذلك خَزْرُون، فلم يتم له أمان. وسار شنجولُ يَقدُمُ حُرَمَه دونَ احتجابٍ ولا رقبةٍ حتّى شارَفَ منزلَ أرملاطَ الأدنى إلى قُرطُبة، فلم يجدْ معَه بشرًا، فأبْلَسَ واستيأس، وبدا من جَزَعِه وبُكائه ما رثَى له مَن كان معَه، ودخَل إلى قصرِه بأرملاط فصيَّرَ فيه حُرَمَه وخرَجَ يودِّعُهنَّ والصُّراخُ يتبعُه، وقد غَلَبَ الـجَزَعُ صبرَه فلم يجدْ على البابِ كبيرَ أحد، فنكَصَ على عَقِبه هاربًا يخافُ أن يُقبَضَ عليه، فلم يتبَعْه إلَّا القُومِس شانْجُه بن غُومِس، إلى أن عدَلَ معَ العشيِّ إلى الدَّير الذي أُصيبَ فيه.

وبلغَ محمدَ بن عبد الجبار خبرُ هروبِه، فأرسَلَ إليه الحاجبَ ابنَ دُري[3] مولى الـحَكَم في الـخَيْل فسبقَه إلى هذا الدَّير فسأل عنه فأخبروهُ أنه وصَل إليه سكرانَ جائعًا[4]،

---

(١) له ذكر في تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٩٢.

(٢) في المطبوع من تاريخ ابن خلدون: «زيري بن غزانة المتيطي».

(٣) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤١٦.

(٤) في الأصل: «جائع».

فقال للراهب[1]: أطعِمْني ما عندَك، فأتاهُ بخُبزةٍ لم يتمَّ نصفُها ودجاجةٍ مشويَّة، فأكلَ أكْلَ مجهود، وصبَّحه القومُ غَداةَ يوم الـجُمُعة، فلمّا عايَنَهم قال: ما لكم عليَّ من سبيل، أنا في طاعة الـمَهْديّ، فاستُنْزِل من الدَّير هو وابنُ غُومِس ومن معَهما من الـخَيْل، وأُخِذ نساءُ شنجولَ، وهنَّ سبعونَ جاريةً، فبُعِث بهنَّ إلى قُرطُبة، ولحِقَ الحاجبُ ابنُ ذُري ومن معَه قَبْل العصر من يوم الـجُمُعة، فلمّا أشرفَ عليهم قيل لشنجول: ليس لكَ إلّا ما تحبُّ، وهذا الحاجبُ قريبٌ منك، فلمّا قَرُب منه نزَلَ شنجولُ فقبَّل الأرضَ بين يدَي الحاجبِ مرارًا، فقيل له: قبِّلْ حافرَ دابَّتِه، فقبَّل حافرَها، فقيل له: قبِّلْ يدَه ورِجلَه، ففعَلَ وابنُ غُومِس ساكتٌ لم ينطِقْ بحرف ولم يُظهِرْ جَزَعًا ولا استكانة، وأشار الحاجبُ ابنُ ذُرى إلى بعضِ خَدَمِه، فانتَـزَعَ قَلنسُوةَ شنجولَ عن رأسِه.

قال عُمر بنُ أحمدَ في كتاب الرقيق: وسِرْنا إلى أن غَربَتِ الشَّمس فقلتُ للحاجب: لو عدَلْنا إلى هذا الوادي وتوضأْنا وصَلَّينا؛ فقال: نعم، فنزَلْنا فيه وصَلّينا، وأشار الحاجبُ بكِتافِ شنجول فقلتُ له: أعطِ كِتافَك، فإنّ أميرَ المؤمنينَ المهديَّ أمَرَ ألّا تُحملَ إليه إلّا مكتوفًا، قال: فأين أمانُكم؟ قلت: لا بدَّ من تكتيفِك، فربَطْنا يدَيْه رَبْطًا شديدًا، فقال: نفِّسوا عنّي قليلًا، فنفَّسْنا عنه يسيرًا، ثمَّ قال: أطلقوا يدَيَّ استرِحْ ساعةً، وأخرَجَ من خُفِّه سِكينًا كأنَّه البرق فلَفَّ يدَه حينَئذٍ لفًّا شديدًا فسَقَطَ السِّكينُ من يدِه، ثمَّ أشار الحاجبُ بقتلِه.

قال عُمرُ بن أحمد: فضربتُهُ بالسيّفِ فلم يبرَ رأسُه، فضرَبَه الحاجبُ ضربةً أخرى فلم يصنَعْ شيئًا، فأضجعتُه وأنا أقول له: كذا قتَلَ أبوكَ لا رحمَه اللهُ أبي رضيَ اللهُ عنه، ثم ذبحْتُه ذبحًا. وقتَلْنا ابنَ غُومس بعدَه وإنه ما نطَقَ بلفظةٍ واحدة.

قال: وحمَلْنا رأسَ شنجولَ إلى محمَّدٍ في تلك اللّيلة، فرآه، ثمَّ ردَدْناهُ إلى موضعِ جسدِه وحمَلْنا جسدَه على بغل معروضًا عليه، وحمَلْنا رأسَه ورأسَ ابن غُومس ودخَلْنا بهما إلى القصر بقُرطُبة، فأمَرَ محمَّدُ بن عبد الجبَّار بشَقِّ بطنِه ونَزْع ما فيه وحشْوِه بعقاقيرَ تحفَظُه، ففُعِل ذلك، ورُكِّب رأسُه على جسدِه وكُسِي قميصًا وسَراويلَ، وأُخرج، فسُمِّر

---

(١) في الأصل: «الراهب» ولا تستقيم.

على خشَبةٍ طويلة على بابِ السُّدَّة، ونُصِب رأسُ ابن غُومس على خشَبةٍ دونَها إلى جانبِها. قال: وأمَرَ ابنُ عبد الجبَّار لابنِ الرَّسَّان صاحبِ شُرطةِ شنجولَ الذي كان يُنادي في عسكرِه: هذا أميرُ المؤمنينَ المأمون يأمُرُكم بكذا، أن يُناديَ عليه: هذا شنجولُ المأبون، ثمَّ يلعنُه ويلعنُ نفْسَه، وذلك يومَ السبت لأربع خَلَوْنَ لرجَبٍ من السنة.

وفي كتاب إبراهيمَ بن القاسم، قال: أخبرني بعضُ الأُدباء قال: إنّي لقائمٌ عندَ باب الحديد إذ أُتي بشنجولَ معروضًا على بَغْل... عاري الجثَّة[1] مصفَرَّ اليدَيْنِ والرِّجْلينِ بالحنَّاءِ نقيًّا من الشَّعر مبطوحًا على وجهِه باديًا شُوَارُه، ورأيتُ والله سِفْلَةً من أهل البادية تبصُقُ في دُبُرِه وإنّ العامَّةَ تتضاحكُ من فعلهم ولا أحدَ يُنكرُ ما يُرتكَبُ منه.

قال: ومن أعجبِ ما رأينا ما حَكَى لي مَن حضَر هذه الحادثةَ من الثِّقات، قال: ومن أعجبِ ما رأيتُ من غِيَرِ الدُّنيا أنه تمَّ من نصفِ نهارِ يوم الثلاثاء لأربعَ عشْرةَ ليلةً بقِيت من جُمادى الآخِرة المؤرّخ إلى نصفِ نهار يوم الأربعاء تتمَّة الشّهر، وفي مثل ساعته: فَتْحُ مدينة قُرطُبة وهَدْم مدينة الزّاهرة، وخَلْعُ خليفةٍ قديم الولاية وهو هشام بن الـحَكَم ونَصْبُ خليفةٍ لم يتقدَّمْ له عهدٌ ولا وقَعَ عليه اختيارٌ وهو محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبَّار، وزوالُ دولةِ آل عامر وكرورُ دولة بني أُميَّة، وإقامةُ جنودٍ من العامَّة المحشودة عورضَ بها أجنادُ السُّلطان أهلُ الدُّربة والتجرِبة، ونكوبُ وُزراءَ جِلَّة ونَصْبُ أضدادِهم تقتحمُهم العينُ هُجْنةً وقَماءة، وجَرى هذا كلُّه على يدَيْ بضعةَ عشَر رجلًا من أراذلِ العامَّة: حَجَّامينَ وخَرَّازينَ وكنَّافينَ وزبَّالينَ تَجاسَروا عليه وقد تكفَّلَ المقدورُ بوقوعه، فتمَّ منه ما لم يكنْ في حُسبان مخلوق تمامُه، فسبحانَ من هُو على كلِّ شيءٍ قدير.

وسُرَّ أهلُ قُرطُبَةَ بولاية محمَّد بن هشام سرورًا عظيمًا، وأحدَثوا برِحابِ قُرطُبَةَ وأرباضِها ولائمَ وأعراسًا، وداموا على ذلك أيّامًا تِباعًا يتنقلونَ من موضِع إلى موضِع بالمزامِر والملاهي راجينَ تمامَ أملِهم وانتظامَ أمرِهم، فأتاهُمُ القَدَرُ بخلافِ ذلك وهَلَكوا

(١) غير واضحة في الأصل.

عن آخرِهم، فكان محمَّدُ بن هشام هذا أشْأمَ خليفةٍ على وجهِ الدُّنيا، وما عَلِم أنّ رعيَّتَه أطبقت عليه جماعة أهل قُرطُبة في عبد الرحمن بن أبي عامر، وكان على... من حُجَّابِ المهديّ... وكانوا... [1] من نَوْكَى الـخَدَم وأراذلِ الـمُتجنِّدة من العامَّة ذوي المهنة، لم ينتَقِهم ولا تخيَّرهم، فأساءوا آدابَهم على مَن دخَل إليه من مُستأمِنة أهل العسكر ووجوهِهم عندَ جلوسِه لهم، واستخفُّوا بكثيرٍ من قُوَّادِهم ووجوهِهم في مَدخلِهم ومخرجِهم للجَهْل الغالِب عليهم وسَفَه أحلامِهم، فطالبوهم بوضَعْ السِّلاح عند الدّخول، وتلقَّوْهم بالمحنة، وأسمَعوهم الـخَنَى، ولم يُميّزوا بين أعلاهُم وأدناهم، وجعَلوا يُوبّخونَهم، حتّى انبعثوا منهم حقدًا وأكسبوهم غائلةً ومقتًا وأذكَروهم سريعًا حُسنَ ما كان يعاملُهم به الـحُجَّابُ أهلُ الدُّربة في الدول المنصرِمة، وكان من أعظم ما جَرى عليه بعضُ ذلك: زاوي بن زِيري بن مناد عظيمُ صُنْهاجةَ أصحابِ إفريقية وملِكُهم وقومُه ملوكُ إفريقيَّة، يملِكونَ من أطْرابُلُسَ إلى طَنْجة، فاحتُبِس بالبابِ للازدحام مدَّةً لا يُفرَّجُ له ولا يُعرَفُ مكانُه، وكلَّما همَّ بالاستقدام رَدُّوه وقَرَعوا رأسَ فرسِه، فلمّا أكثَروا عليه جعَل يقول: هذا الرأسُ فاضرِبوا فالدابَّةُ لا ذنبَ لها، فكانوا يَروْنَ أن ذلك كان مبتدأ حقدِه.

وفي يوم السّبتِ المذكور نُهبت دورُ بني ماكْسن بن زِيري ودورٌ لبني زاوي بن زِيري ودورٌ كثيرةٌ بالرُّصَافة لجماعةٍ من البربر.

قال إبراهيمُ بن القاسم: وكان سببُ ذلك أنّ محمَّدَ بن عبد الجبَّار ـ برداءتِه وسُوءِ تصرُّفِه ـ قال في ذلك اليوم: لا يركبَنَّ أحدٌ من الغُزاة ولا يحملْ سلاحًا ولا يأتِ القصر، واتَّفقَ أنْ ركِبَ زاوي بن زِيري في جماعةٍ معَه فرُدُّوا عن بابِ القصر وانصَرفوا على غاية الذُّلّ، وانثال حينَئذٍ جُندٌ من السفَّال على دورِ البربر، فكان منهم من النَّهب ما كان، وبلَغَ ذلك صاحبَ المدينة فضَرَبَ أرقابَ ثلاثةٍ من النَّهَّابة وطِيفَ برؤوسِهم. ودخَل زاوي بن زِيري وحَبُّوس وحُبَاسةُ ابنا ماكْسن وأبو الفتوح بنُ ناصر على محمَّدِ بن هشام فأخبَروه بما جَرى عليهم فاعتذَر لهم ووعَدَهم بخَلَفِ ما نُهبَ لهم، وقُتل بعضُ منِ اتُّهم بنَهْبِ البربر، فكان هذا من فعلِ السَّفيه ابن عبد الجبَّار ورأيِه، سببَ الفساد

---

(١) مواضع النقط مطموسة في الأصل.

والفتنة العظيمة الطويلة التي يُسمّيها أهلُ الأندَلُس بالفتنة البَرْبريَّة، ولو سَمَّوها بفتنة ابن عبد الجبَّار لكان الأحقَّ والأولى.

ومرِضَ الفتى فاتنٌ الكبير، فلمّا حضَرتْه الوفاةُ كتَبَ إلى محمَّدِ بن هشام يقول له: ما لي طاقةٌ بالنهوض إلى أميرِ المؤمنين، وأنا أريدُ إعلامَه بما لا تَسَعُه الـمُكاتبة، فأتاهُ ابنُ عبد الجبَّار بنفسِه، فدفَع إليه فاتنٌ كتابًا فيه جميعُ ما تَركه الخلفاءُ الأُمويُّونَ وذخائرُهم مـمَّا لم يقفْ عليه ابنُ عبد الجبَّارِ ولا اهتَدى إلى موضِعِه من بيوتِ الأموالِ وغيرِ ذلك من نَفيس الأعلاق والجواهر والأمتِعة العاليةِ والآنِيَة وما أشبَهَ ذلك، فاحتوى ابنُ عبد الجبَّار على الجميع.

وفي هذه السّنة: وصَلَ إلى قُرطُبَةَ كتابُ واضحٍ صاحبِ مدينة سالم والثَّغر الأوسط كلِّه بسَمْعِه وطاعتِه له وإظهارِ الاستبشار بقتل عبد الرحمن بن أبي عامر، فقَبِلَ محمَّدُ بن هشام رسولَه وردَّهُ إلى واضح بالشُّكرِ له، وبعَثَ له معَه مالًا وفُرُشًا وكُسًى وطرائفَ لها قَدْر وولَّاه الثَّغرَ كلَّه[1].

وفي ليلة الأحد لليلَتيْنِ بقِيَتا من رجبِ المذكور، نفَى محمَّدُ بن هشام جماعةً من الصَّقالبة العامريّينَ، فاستَوْلَوا على أطرافِ بلادِ الأندَلُس وملَكوها من ذلك الوقت[2].

وفي يوم الخميس للنّصف من شعبانَ أمَرَ محمَّدُ بن هشام بسَدِّ أبواب القصر على هشام بن الـحَكَم المؤيَّد بالله، وأخْرَج جواريَه وصَقالبتَه وأخَذ جميعَ ذلك ولم يترُكْ له غيرَ جاريتِه شعبَ وخادمتَيْنِ معَها، وأخرَج البقرَ البُلْق والحميرَ البيضَ القِصار والكِباشَ التي كانت في القصر... [3] عن كلِّ شيء.

ولـمّا استوسَقَ الـمُلكُ لابن عبد الجبَّار وتمَّ له مُرادُه ورأى الـمُلكَ في يدِه والخلافةَ قد انتَظَمت له والمؤيَّدَ بالله في قبضتِه، أخرَجَه من قصرِه وأسكَنَه في دار الـحَسَن بن حيّ، وشَخَّص بمثلِه رجُلًا نَصْرانيًّا وقيل: يهوديًّا ميّتًا كان يُشبِهُ المؤيَّد

(1) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤١٨.

(2) كذلك.

(3) طمس في الأصل.

وأدخَل الوُزراءَ والـخَدَمَةَ عليه فعايَنوهُ ميّتًا ولم يشكُّوا أنه المؤيَّد، فدُفن يومَ الاثنين لثلاثٍ بقينَ من شعبانَ من السنة، وهذه الـمِيتةُ الأولى الواقعةُ عليه من مِيتاتِه[1].

وقال الرقيقُ في كتابِه: توفّي رجلٌ يهوديٌّ، فأوقَفَ ابنُ عبد الجَبَّار عليه رجالًا من أصحابِه فشهِدوا عندَ العامَّة أنَهم رأوْا هشامًا ميّتًا لا فيه أثَرٌ من جُرْح ولا خَنْق، وأنه مات حَتْفَ أنْفِه، وأُحضِر ابنُ ذَكْوان القاضي والفقهاءُ والعدولُ وخَلْقٌ من العامَّة بالقصر، فصَلّوا على هشام المؤيَّدِ بالله بزَعْمِهم، وأحضَرَ ابنُ عبد الجَبَّار هشامَ بنَ عبد الله ابن الناصِر فعزَّاهُ عن هشام ابن عمِّه وأن يُعطيَه الـمُنْيَةَ عن ميراثِه من هشام ابنِ عمِّه على أن يُحلَّه من سائرِ تركتِه فلم يمتنعْ عليه في ذلك.

وفي رمضانَ من هذه السنة: سَجَن ابنُ عبد الجَبَّار سُليمانَ بنَ هشام بن الناصر، وكان قد جعَلَه وليَّ عهدِه، وسَجَن معَه جماعةً من قُرَيش.

وفي يوم الثلاثاء لسبعَ عشْرةَ ليلةً خَلَت من شوَّالٍ من هذه السنة: وصَل رسولانِ ذكَرا أن فُلفُلَ بن سعيد بن خَزْرُون الزَّناتيَّ أرسَلَهما إلى محمَّدٍ راغبًا في طاعتِه، ووَعَدَهُ الدعاءَ له، وسأله أن يضرِبَ الدّنانيرَ والدّراهمَ على اسمِه، فتلقَّى محمَّدٌ رسُلَ فُلفُلٍ بالقَبول، وخَلَع عليهم وكتَبَ له بذلك، وبعَث له بهديَّة، فوصَلوا إلى أطْرابُلُسَ وقد مات فُلْفُلٌ وهربَ منها وَرُّو بنُ سعيد أخو فُلفُل حين وصُول نَصِير الدولة إليها، فأمرَ بالقَبْض على رجال محمَّد بن هشام وضَرْبِ أعناقِهم.

وكان محمَّدُ بن هشام بن عبد الجَبَّار، لِـما أراد اللهُ من خِذْلانِه، مُظهِرًا لبُغْضِ البربر لا يقدِرُ أن يستُرَ ذلك، فكان يتكلَّمُ في مجالسِه بسُوءِ الثناء عليهم، وبَلَغَهمُ الخبرُ بذلك و... عزَم...[2] من وجوهِهم.

قال الرقيقُ أيضًا: وكان ابنُ عبد الجَبَّار لـمّا استوسَقَ له الأمر أسْقَطَ من جُندِه نحوًا من سبعةِ آلاف، ولـمّا رأى هشامُ بن سُليمانَ ابن الناصِر رَداءةَ ابن عبد الجَبَّار وإهانته رؤساءَ قبائل البربر وزُعماءهم جعَلَ يدُسُّ إليهم ويسعى في خَلْع محمَّد بن عبد الجَبَّار،

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤١٨.

(٢) مكان النقط مطموس في الأصل.

فصمَّم على ذلك إلى أنْ عدَلَ الناسُ والـجُندُ كافَّةً إلى فَحْص السُّرادق وقد دَبَّر القومُ الذين يريدونَ القيامَ على ابن عبد الجبَّار أمرَهم معَ هشام بن سُليمان، فلمّا احتَفل فحصُ السُّرداق بالناسِ الذين يريدونَ القيامَ على ابن عبد الجبَّار، شَغَبَ قومٌ من أولئك المخالفينَ لهم، فالتَحمَ الأمرُ بينَهم، فبادرَ قومٌ منهم إلى خالدِ بن طَرِيفٍ فقَتلوهُ وقَتلوا محمَّدَ بن ذُرَّى وهما وزيرانِ من وُزراءِ محمَّد بن هشام، ورفَعوا رأسَيْهما، وانحازَ الناسُ كلُّ فريق في ناحية، وكان هشامُ بنُ سُليمان معَ جماعة من العبيد العامِريّينَ ومَن تَبِعهم في ناحيةٍ أُخرى وقد انحازَ البربرُ عن سائر الجُند وتألَّب إلى مَن كان على رأي هشام بن سُليمانَ من العامَّةِ مـمَّن كان ابنُ عبد الجبَّار أسقَطَه، فزَحَفوا إلى القصر وحصَروا ابنَ عبد الجبَّار، فأرسَل القاضيَ أبا العبَّاس بنَ ذَكْوان وأبا عُمرَ بنَ حَزْم[1] إلى هشام بن سُليمان فعَتِباهُ على خروجِه وقبَّحا ما صنَع، فقال لهما هشام: ظُلِمْتُ وأُوذيتُ وسُجِن وَلَدي على غيرِ شيء، وأخافُ على نفسِه ولا أدري ما صنَعَ به، وكان وَلَدُه سليمانُ معتقَلًا عندَ ابن حيّ، فأرسَلَ إليه ابنُ عبد الجبَّار يأمرُه أن يُطلقَ سبيلَ سليمانَ ويُرسلَه إلى دارِه، ففعَل ابنُ حيٍّ ذلك، وحصَل سليمانُ في دارِه وكان مريضًا.

ووقَع بين هشام بن سُليمان وبين القاضي ابن ذَكْوانَ وابن حَزْم مُحاورةٌ عظَّما عليه فيها الفتنةَ وحَذَّراه سُوءَ العاقبة، فلَجَّ في أمرِه، فقال له ابنُ حَزْم: فمَن يقومُ بهذا الأمرِ الذي تريدُه؟ قال: أنا؛ لأنّي أحقُّ به منه وأوْلى، فانصَرف الرجُلانِ عنه وقد يئسا منه.

وكان محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبَّار قد أظهرَ من الـخَلاعة... والضَّعفِ ما لم...، واستُعمل له من الخمر مئةُ خابية، واستُعمل له مئةُ بُوقٍ للزَّمْر ومئةُ عُودٍ للضَّرب، واشتُرِيَ له صَقْلبيٌّ كان يتعشَّقُه عند ابن الزيَّاتِ العطَّار، وبعَثَ إلى نساءٍ كان يُصاحِبُهنَّ، منهنَّ جاريةُ أبي القاسم المصريِّ الخياليِّ التي يقال لها: بُستان، وامرأةِ ابن الشَّرْح التي اسمُها واجد، فظهرَ من فِسقِه واختلال دينِه وعقلِه أمرٌ لا يظهَرُ إلَّا من أهل الدَّعارةِ المتهتّكينَ فيها، فكان هذا من جُملةِ أسباب القيام عليه وإشعال الفتنة لدَيْه، ولم يزَلْ طُولَ

(١) هو والد الفقيه الشهير أبي محمد بن حزم، وترجمته مشهورة، فتنظر الجذوة (٢١٥) والصلة البشكوالية (٤٢) وتعليقنا عليهما.

مدَّتِه مشتهرًا بالفِسق مُظهرًا للخلاعة لا يُفيقُ من سُكر ولا يَرَعُ عن مُنكرٍ بالنساءِ والصَّقالبةِ والملاهي حتّى قال بعضُهم فيه [من الوافر]:

أمــيرُ النــاس ســخْنةُ كــلِّ عَــينِ ... يبيـــتِ اللّيـــل بَـــين مخنَّـــثَينِ

يُجَـــشِّمُ ذا ويلـــثُمُ خـــدَّ هـــذا ... ويَـــسكَرُ كـــلَّ يـــوم ســـكرتَيْنِ

لقـــد ولَّـــوا خلافـــتَهم ســـفيهًا ... ضـعيفَ العقـل شَـيْنًا غـيرَ زَيْـنِ

وقيل فيه أيضًا [من مخلّع البسيط]:

أشْـــأمُ خَلْـــقٍ عـــلى العبـــادِ ... والنـــاسُ مـــن حـــاضرٍ وبـــادِ

أبـــو الوليـــدِ الـــذي اقـــشعرَّت ... لنَحْـــسِه شـــعرةُ الـــبلادِ

كـــان عـــلى قومِـــه جميعًـــا ... قُـــدارَ عـــادٍ لقـــوم عـــادِ

وقيل فيه كثيرٌ من هذا يطولُ الكتابُ به.

ولـمّا انصرَفَ القاضي وابنُ حَزْم عن هشام بن سُليمان ويئسا منه، تحوَّلَ الـجُندُ معَه فأحرقوا سُوقَ السُّرادق وعَبَروا القَنْطرة، فلمّا توسَّطَها كبَا به فرسُه فانقطع رِكابُه وعبَرَ القَنْطرةَ فصار بينَها وبينَ بابِ الحديد، وقامت العامَّةُ أيضًا معَ خليفتِهم ابن عبد الجبَّار، فلمّا رأى جُندُ هشام بن سُليمان قيامَ العامَّة من أهل الرَّبَض الغربيِّ معَ ابن عبد الجبَّار وسَمِعوا قومًا ينادُونَ: يقولُ لكم أميرُ المؤمنين: ما أمَرَكم به زاوي بن زِيري، فرُّوا ولا صَبَروا، فأُخِذ هشامُ بنُ سُليمانَ أسيرًا، وأُخرِج ابنُه سليمانُ من دارِه، وأُخِذ أبو بكرٍ بنُ هشام فسلَّموهم بأيديهم إلى ابن عبد الجبَّار، فقَتَل هشامًا بينَ يدَيْه صبرًا ونُهِبت دورُ جماعة من خواصِّه بالمدينة ودورُ سائرِ البربر، فلم يسلَمْ منها إلّا ما أحال اللّيلُ دونَه[1].

وانحازَ البربرُ إلى أرملاطَ عشيَّةَ يوم الـجُمُعة بعدَ مُحاربةٍ كانت بينَهم وبينَ العامَّة، واشتعلتِ الفتنةُ بقُرطُبَةَ بين البربرِ والعامَّة، وأمَرَ ابنُ عبد الجبَّار أن يُنادى في الناس: مَن أتى برأس بَرْبريٍّ فله كذا، فتسارعَ أهلُ قُرطُبَةَ في قَتْل مَن قَدَروا عليه فلم يبقَ تاجرٌ ولا

(١) ينظر كامل ابن الأثير ٨/ ٦٨٠، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤١٩.

جُنديٌّ إلَّا عمِلَ مجهودَه في ذلك، ودخَلوا على وسنار البِرْزاليّ، وكان مـمَّن له آثارٌ جميلةٌ في الجهاد، فذُبِح على فراشِه في دارِه، ودخَلوا على رجُل صالح فذُبِح في دارِه، ونُهبت ديارُ البربر وهُتِك حريمُهم وسُبِي نساؤهم وباعوهنَّ في دارِ البنات، وقَتلوا النساءَ الحوامل وقَتلوا سبعةَ عشَرَ رجلًا من أهلِ تِلْمسانَ قَدِموا للغزوِ في ساعةٍ واحدة، واستُنزلَ مسلمُ بن عبد الله الـحُسَينيُّ من دارِه فقُتل ورُبِط في رجلِه حبلٌ وجُرَّ به إلى حُفرةٍ بجوارِ دارِه تُعرَفُ بحفرةِ طالوت، فأُلقي فيها، وانتُهِبت دارُه وفُضِح بناتُه وعيالُه، وقُتل قومٌ من أهل خُراسانَ وأهل الشام على أنَّهم بربر، وأمعَنَ أهلُ قُرطُبَةَ في هذه القبائح حتّى أخَذَهم اللهُ بذلك عمّا قريبٍ ومحَقَهم إلى الأبد.

واختفى محمَّدُ بن يَعْلى المغْراويُّ ومصلُ بن حُمَيد في نفَرٍ من بني عمِّهما وجماعةٍ من البربر، إلى أن أمَّنَهم محمَّدُ بن هشام، ثمَّ نادى مُناديهِ: مَن آذَى بَرْبريًّا أو تعرَّضَ له بعدُ كانت عقوبتُه السيّف، فكفَّ الناسُ عنهم، وأحضَرهم محمَّدٌ إلى نفسِه، فألبَسَهم القَلانسَ والأرْدِيَة، وأمَرَهم أن يُزيلوا زِيَّهم وأن يتزيَّوا بزِيٍّ جارٍ، ويخلَعوا العمائم، ففعَلوا ودخَلوا عليه في ذلك الزِّيّ، وذلك منه بحفاوةٍ وديانة وأمَرَ... ذلك اللِّباس ففعل.

ولما صار البربرُ إلى أرملاطَ رحَلوا متوجِّهينَ إلى الثَّغر، فأرسَلَ إليهم محمَّدٌ يؤمِّنُهم فلم يرُدُّوا عليه جوابًا وقالوا لرسُولِه: لولا أنَّك رسولٌ وتاجرٌ لقَتلناك، وسيُجازيه اللهُ بما فَعَل. ورَكِبَ البكريُّ، وهو أحدُ الوُزراء، فدار قُرطُبَةَ وأرباضَها يقولُ للناس: قد عَفا أميرُ المؤمنينَ الـمَهْديُّ عن البربرِ على أن يَرجِعوا إلى بلادِهم فيصيروا حرَّاثينَ كما كانوا، ووصَلَ البربرُ إلى قلعة رَبَاح في آخر شوَّال. وقد كان سُليمانُ بن هشام إذ قُتِل والدهُ خرَجَ من قُرطُبَةَ هاربًا بنفسِه يطلُبُ النّجاةَ بها، فصار في جملةِ البربر ودخَل في غِمارِهم، فرآهُ بعضُهم فسأله عن نفسِه فأخبرَهُ فاجتمعوا إليه ووَلَّوْه على أنفسِهم وعقَدوا له الخلافة، وتَسمَّى بالمستعين بالله على ما يأتي.

ومن كتاب الاقتضاب: كان محمَّدُ بن عبد الجبَّار قد جَنَّد جُندًا من العامَّة وأطرافِ الناس وقرَّبهم وآثَرهم على العَبيدِ العامريَّةِ وعلى الطائفة البربريَّة، وأساء إلى هاتينِ الطائفتين فاستَوْحَشوا منه، فأمَّا العبيدُ العامريَّةُ فخرَج منهم كثيرٌ إلى شرق الأندلُس، وأمَّا البربرُ

فتألَّبت منهم طائفةٌ وقاموا على محمَّد بن هشام المتلقِّب بالـمَهْديّ معَ هشام بن سُليمان ابن الناصر وسَمَّوهُ الرَّشيدَ وزَحفوا معَه إلى القصر بقُرطُبة وحَصَروا فيه الـمَهْديَّ يومًا وليلةً في أوائل شوَّال، ثمَّ كانت الكرَّةُ للمَهْديِّ عليهم فهَزَمهم وقَتل الرّشيدَ، وافترقَ ذلك الجمع، فأحال حينئذٍ الـمَهْديُّ على من كان بقُرطُبَةَ من البربرِ عامَّةَ قُرطبة فاستحالوا عليهم قتلًا وأسرًا وغارةً حتَّى استَرقّوا كثيرًا منهم، ففرَّ من قَدَر على الفِرار منهم والتأموا معَ غيرِهم من المنهزمينَ عن الرّشيد، وأقاموا سُليمانَ بنَ حَكَم، وكان بشقُنْدة، فكان سليمانُ بن حَكَم يومَئذٍ إمامًا للبربر، وذلك في عقِبِ شوَّال من سنة تسع وتسعين. ونهَضوا معَه إلى شانْجُه بن غَرْسيّة بن فرذلند، وعاهَدوهُ على أن يدخُلَ سليمانُ بن حَكَم قُرطُبة، فجاء معَهم شانْجُه في عسكرٍ عظيم من النّصارى واحتَلَّ قُرطُبة، فبَرَزَ إليهم الـمَهْديُّ فيمن كان معَه من عسكرِه، وجُلُّ من كان معَه العامَّةُ من فارس وراجل، فهَزَمهم سليمانُ، وقَتل النّصارى فيها يومَئذٍ من أهل قُرطُبة نيِّفًا على ثلاثينَ ألفًا من المسلمين، فكانت أوَّلَ ثاراتِ المشركينَ على المسلمين(١).

وقد كان لـمّا شعر بقُربُ سليمان معَ البربرِ والنّصارى، ورأى تغيُّرَ الناس عليه وكراهتَهم فيه، ردَّ هشامًا المؤيَّدَ بالله إلى القصر رجاءَ أن يتماسَكَ له الحال، ويأبى اللهُ إلَّا ما يريد، فكانت دولتُه الخسيسةُ هذه نحوًا من تسعة أشهر(٢).

وكان قيامُ الرّشيد معَ البربر، وهو هشامُ بن سليمان، في بروزٍ كان صنعَه المهديُّ لرُسُل بعض ملوكِ الروم في يوم الـمِهرَجان عقِبَ شوَّالٍ من السنة، وقُتل في ذلك اليوم وزيرانِ لابن عبد الجبَّار، وأتى البربرُ معَه إلى باب الشّكال فحرَقُوه، وقد تقدَّم ذلك.

قال ابنُ حيَّان: وجَرَت بينَ الرّشيد والـمَهْديِّ مُخاطبات، ومشَت الرسُلُ بينَهما في الصُّلح على أن ينخلعَ المهديُّ ويؤمِّنَه الرّشيدُ في نفسِه وأهلِه لـما رأى مَيْلَ أهل قُرطُبَةَ إليه. وباتا ليلتَهما على هذه النـيَّة إلى صَبيحة يوم الـجُمُعة بعدَه، فلمّا أصبح جهَّزَ المهديُّ جيشًا إلى خَلْف الوادي، وصار العسكرانِ بعُدوة الوادي القُصوى، وقام أهلُ الرَّبَض

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨٠-٦٨١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١.

الغربيِّ وأهلُ قُرطُبَةَ معَ المهديِّ ونادَوْا: لا طاعةَ الآنَ، ووقَعت الحربُ بينَهم، فظَفِر عسكرُ المهديِّ بهشام هذا وابنِه وجماعةٍ من بني عمِّه، وسيقوا إليه، فعَذَلَـهم وعاتَبَهم حينًا، ثمَّ أمَرَ بقتلِهم صَبْرًا، فلما قُتلوا سكَنت الأحوالُ بقُرطُبة. وجَدَّ البربرُ في الهزيمة يومًا وليلة، ثمَّ إنهم أقاموا ابنَ أخي الرّشيد، وهو سليمانُ بن حَكَم، بعدَ الهزيمةِ بيوم واحد، وذلك لليلتَيْنِ بقيتا لشوَّالٍ من السنةِ المذكورة، ونهَض معَهم إلى الثغر، وكانت مبايعتُهم له بموضع يُعرَفُ بصُلْبِ الكلب[1].

قال إبراهيمُ بن القاسم: لـمّا بايَعَ البربرُ سُليمانَ بن حَكَم حمَلوا له مالًا من عندِ كلِّ قَبيلٍ منهم، وصاروا معَه إلى قلعة رَبَاح في أوائل ذي قَعْدة، فبايَعَه أهلُها، وكان محمَّدُ بن هشام قد أرسَلَ عبَّاسًا البرْزاليَّ إليهم فلحِقَهم بقلعةِ رَبَاح وقال لهم: قد أمَّنكم أميرُ المؤمنينَ أمانًا تامًّا فارجِعوا إلى دُورِكم ومحالِّكم، فقالوا: ليس إلى رجوعِنا من سبيل؛ لأنَّه إن أمَّننا لم تُؤمِّنّا رعيَّتُه، وإن أمَّنْتنا عامَّتُهُ لم يُؤمِّنّا جُندُه، فلمّا قارَبوها كاتَبَ سليمانُ أهلَها يدعوهم إلى الطاعة، فأبَوْا عليه وأرسَلوا كتابَه إلى محمَّدٍ فشكَرَ لهم ذلك.

ولـمّا قرُبَ البربرُ من مدينة سالم، وكان بها واضحٌ الفتى ومعَه نحوُ أربع مئة فارس من البربر، فأراد واضحٌ غدرَهم فخرَّقوا صفوفَه، وضارَبوهم حتّى خرَجوا فلحِقوا بإخوانِهم ودخَلوا معَهم إلى وادي الحجارة عَنْوةً فانتَهبوها واستباحوا أهلَها[2].

وقرأ محمَّدُ بن هشام بقُرطُبَةَ كتابًا يُشنِّعُ فيه على البربرِ أنهم فعَلوا بوادي الحجارة وصنَعوا، فضجَّ الناسُ لذلك، وقال لهم: نغزو البربرَ بجماعتِنا، وابتَدأ ابنُ عبد الجبَّار ببناءِ أبوابٍ بقُرطُبة، وأخَذ في حمل الدّقيق والـحَطَب والملح وغيرِ ذلك إلى القصر، وظهَرَ منه جَزَعٌ وخوف، واجترَأتْ عليه العامَّةُ فاستخَفُّوا به. ووصَل البربرُ إلى مدينة سالم، فسألوا واضحًا أن يعملَ بينَهم وبينَ ابن عبد الجبَّار صُلحًا على أن يكونَ سليمانُ وليَّ عهدِه ويتَّفِقا على أمرٍ يكونُ فيه صلاحُ الناس، فأبَى واضحٌ ودَسَّ إلى طائفة من العَبيدِ العامريِّينَ كانوا معَهم

(١) ينظر الاستقصا للناصري ٢/ ٧٢، قال: «وكان في ظاهر وهران ربوة على البحر تسمى صلب الكلب».

(٢) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٠.

أن يحتالوا على سُليمان ويقبضوا عليه، وأمَرَ جُندَه أن يَخرُجوا لقتال البربر، فلمّا باشَروهم واشتغلوا بالحربِ معَهم عَدَلَ العبيدُ إلى سُليمان ليَبلُغوا البربرَ دونَه، فشَعَر بهم البربرُ فقَتلوهم، وبرَزَ إلى واضح مصالةُ بن حُمَيْد ووَلَدُه ورجالٌ من بني عمِّه فقَتلَهم الـجُندُ قبلَ أن يصِلوا إليه، وسار البربرُ عن مدينة سالم.

واتَّصل الخبرُ بمحمَّد بن عبد الجبَّار بقُرطُبة، فأمَرَ بقراءةِ كتابٍ مفتعَل على الناس يُخبِرُ بأنَّ البربرَ قُتِلوا قتلًا ذَريعًا، وأنه يصلُ من رؤوسِهم أكثرُ من ألفِ رأس، وكان الأمر بخلافِ ذلك، فاستبشَر أهلُ قُرطُبَةَ بالنَصر لمحمَّدٍ ودعَوْا له بدوامِه.

وكان عندَ محمَّد بقُرطُبَةَ بليق[1] غلامُ واضح، فاتَّـخَذ له محمَّدٌ جيشًا وسار به إلى واضح، ونادى منادي واضح في سائر الثغور: مَن حَمَلَ شيئًا من الطّعام إلى مـحَلّةِ البربر فقد حَلَّ مالُه ودمُه، فأقاموا خمسةَ عشَرَ يومًا يعيشونَ بحَشِيش الأرض، فلمّا اشتدَّ ذلك عليهم أرسَلوا إلى ابن مامةَ النَّصرانيِّ يقولونَ له: قد علِمتَ ما بينَنا وبينَ واضح وابنِ عبد الجبَّار، فإنْ أنت رغِبتَ في صُلحِنا ومسالمتِنا فنحن معَك عليهما، فمَضَت رُسُلهم إلى ابن مامةَ دونَه، فوجَدوا عندَه رسُلَ ابن عبد الجبَّار ورُسُلَ واضح يسألانِه الصُّلحَ معَهما على أن يُعطياهُ ما أحبَّ من مدائنِ الثَّغر، وحَمَلا إليه هديَّةً منها خيلٌ وبِغالٌ وكُسًى وما لا يُحصَى من الطرائفِ والتُّحف، فأجاب ابنُ مامةَ دونَه للبربر على أن يعطيَه البربرُ إذا ظَفِروا ما أحبَّ من مدائن الثَّغر فقَبِلوا ذلك منه، ورَدَّ رسُلَ واضح وابن عبد الجبَّار دونَ شيء. ثمَّ أرسَلَ إلى البربر ألفَ عَجَلةٍ من الدّقيق والعقاقيرِ وأنواع المآكل وألفَ ثورٍ وخمسةَ آلاف شاة، وجميعَ ما يُصلحُهم، حتّى الفحمَ والعسَل[2] والسُّروجَ والشقق للباسِهم وغيرَ ذلك إلى ما دونَه من الحبال والأوتاد، فعاش البربرُ بذلك وقَوِيت نفوسُهم.

ثمَّ سار ابنُ مامةَ دونَه بنفسِه إليهم في جَمْع كثيف من النّصارى، فلمّا وَصَلوا إلى مدينة سالم أرسَلوا إلى واضح يرغَبونَ إليه في الصُّلح كَراهيَةً في القتال وإقامة الـحُجَّة

(١) في الأصل: نقطة الباء واضحة وأما الياء فغير منقوطة، وفي نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١: «يلبق».
(٢) في الأصل: «حتى الفحم والعسل والفحم».

عليه وعلى [مَن أتى][1] به العَوْنُ لابن عبد الجبَّار، فأبَى وامتَنع، فساروا كلُّهم يومَئذٍ إلى شرنبةَ فحشَر لهم واضحٌ أهلَ الثّغور، وأرسَل إليه ابنُ عبد الجبَّار غُلامَه قَيْصرًا بالعسكر، فنزَلَ واضحٌ وقيصرٌ على البربرِ بشرنبةَ فاقتتلوا فانهزَم واضحٌ وأسَر البربُر من كان معَه فقَتلوا منهم من أحَبُّوا وعفَوْا عمَّن أحَبُّوا، وكانت الوقعةُ بقُرب قلعة عبدِ السلام، فنصَبَ البربرُ الرُّءوسَ عليها، وكان وصُولُ المنهزِمينَ من أصحابِ واضح وقيصر إلى قُرطُبَة يومَ الأحد في أواخِر ذي حِجَّةٍ من السنة.

ثمَّ دخَلَت سنةُ أربع مئة، فقيل: إنّ الوَقْعة كانت بينَ البربرِ وواضح وقَيْصر في محرَّم من سنة أربع مئة، ومَلَك البربرُ جميعَ ما كان في عسكر واضح من مالٍ وسلاح وغيرِ ذلك[2]، فدَعا محمَّدُ بن عبد الجبَّار القاضيَ ابنَ ذَكْوان وأمَرَه أن يسيرَ إلى البربر، فاعتذَر له، ثم دَعَا مصلَ بن حُمَيد فقال: هم أشدُّ الناس علي غضبًا لـمُفارقتي لهم فعذَره، وقَلِق لذلك وظهَر خوفُه، وحفَر حفائرَ حولَ قُرطُبَةَ على أفواه الأرباض، وهُو معَ ذلك لا يُفيقُ من سُكر، وبعضُ الناس يَهْجُونَه ويتكلَّمونَ بقبيح أفعالِه.

قال: وأمَرَ محمَّدٌ البربرَ الذين بأرباضِ قُرطُبَة أن يَخرُجوا إلى حيث شاءوا من العُدوة، فاشتدَّ الأمرُ عليهم وضاقَ، وخافوا إنْ خَرَجوا من قُرطُبَة أن يُقتَلوا بكلِّ طريق، فاستترَ كثيرٌ منهم. وحفَر محمَّدُ بن عبد الجبَّار خندقًا حولَ فَحْص السُّرادقِ خوفًا من البربر وتحزَّب أهلُ قُرطُبَة وتجمَّعوا من كلِّ رَبَض وخَرَجوا إلى القصر وهم يقولون: نَقتُل هؤلاءِ البرابرَ الذين معَنا ونساءهم وأولادَهم؛ لأنهم أضرُّ علينا من الذين يأتونَنا، والبربرُ معَ ذلك مستَتِرونَ عندَ من يأمَنُونَه من أهل قُرطُبة ومن القَرويّينَ السُّكان بها والمسافرينَ، وذلك على مُخاطرةٍ وخوف.

ثمَّ اشتغَل أهلُ قُرطُبَةَ بأنفُسِهم وخرَجوا إلى فَحْص السُّرادق، فخرَج أهلُ قُرطُبَةَ لقتال البربر على قلَّةِ غَنائهم وظهورِ عَجْزهم وكثرة اغترارِهم بأنفُسِهم.

---

(١) ما بين الحاصرتين مطموسة في الأصل.

(٢) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١.

ورتَّب ابنُ عبد الجبَّار الرّجالَ على أفواهِ الأرباضِ والأبوابِ والأسوار، وركِبَ إلى فَحْص السُّرادق، ورَتَّب قُوَّادَه وجُندَه ومَن معَه من العامَّة على الحفائر التي حُفِرت بالأرباض، وكان مِن قُوَّادِه: القصائريُّ الطّبيبُ وابنُ عامرٍ الوكيلُ وغيرُهما، ومعَهم قومٌ من الـحَوَّاتينَ والـجَزَّارين وأشباهِهم، قد لبِسوا الدّروعَ عليهم والبنودُ والطّبولُ بينَ أيديهم، فكانوا فضيحةً وضُحَكَةً لمن رآهم، والبلدُ قد غَصَّت أرباضُه ورِحابُه ومَقابرُه بأهل البوادي والمحشودينَ من مدائنِ الأندَلُس وأقاليمِها.

وأتَى واضحٌ في أربع مئة فارس من أهل مدينة سالم ناصرًا لمحمَّد بن عبد الجبَّار ناقضًا لعهدِ البربر طمعًا في استئصالِـهم، ووَصَلَ غُلامُه في متَي فارس(١).

ونزَلَ البربرُ يومَ الأربعاء لإحدى عشْرةَ ليلةً خَلَت من ربيع الأوّل أرملاط، فأحرَقوا فُندقَ ابن أبي الأصبَغ الوزير والـمُنْيَةَ وغيرَ وذلك والتقَت مقدِّمةُ الجيش بمقدّمة البربر في ذلك اليوم فلم تكنْ بينَهم حرب، وأصبح البربرُ يومَ الخميس بعدَه بأرملاط، ونادى مُنادي محمَّدِ بن عبد الجبَّار أن يَخرُجَ كلُّ من بلَغَ الـحُلْمَ من سائر الناس، فلم يتأخَّرْ أحد، فلا ترى إلَّا شيخًا ضعيفًا أو حدَثًا غِرًّا، فلمّا كان يومُ السبتِ برَزَ البربرُ في سَفْح الجبل وبينَهم وبينَ أهل قُرطُبَةَ وادٍ وَعِر، فعبَر بعضُ الـجُند إليهم الوادي، فحمَلَ عليهم نحوُ ثلاثينَ فارسًا من البربر فانهزَم الـجُند وانهزَمت العساكرُ التي كانت بعُدوةِ الوادي وسَقَطَ بعضُهم على بعض وانهزَم الناسُ أجمعون، وهرَب واضحٌ من فَوْرِه إلى الثَّغر لم يُعرِّجْ على شيء، ووضَع البربرُ السّيفَ على أهل قُرطُبَةَ فقَتلوا منهم خَلْقًا عظيمًا، وغرِقَ كثيرٌ منهم في الوادي وهَلَكوا وفَنِي الجميعُ بسقوط بعضِهم على بعض، ودخَل البربرُ إلى أرباضِ قُرطُبة، وبات الناسُ على سطوح دورِهم في وجَلٍ وخوف(٢).

ولـمّا رأى الخسيسُ ابنُ عبد الجبَّار ظهورَ البربرِ عليه وهزيمةَ أهل قُرطُبة، أظهرَ هشامَ بنَ الـحَكَم وأقْعَدَه حيث يراهُ الناس في منظرٍ يُشرِفُ على باب الشّكالِ والقَنْطرة، وأرسَل إلى القاضي ابن ذَكْوان فأتاهُ، فبعَثَه إلى البربرِ يقولُ لهم عنه: إنَّما أنا

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١.

(٢) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢١.

قائمٌ دونَ هشام بن الـحَكَم ونائبٌ عنه كالخليفة والحاجب، وهو أميرُ المؤمنين، فمضَى ابنُ ذَكْوان إلى البربر وأدَّى لهم رسالتَه، فقال له البربر: سبحانَ الله! يا قاضي، يموتُ هشامٌ بالأمس وتُصلِّي عليه أنت وغيرُك واليومَ يعيشُ وترجِعُ الخلافةُ إليه؟ وجعَلوا يتضاحكونَ منه، فاعتذَر ابنُ ذَكْوان لهم من ذلك.

ودخَل ابنُ عبد الجبَّار القصرَ يحتالُ للهَرَب، ثمَّ اختفى، ولما كان يومُ الاثنين خرَج أهلُ قُرطُبَةَ بأسْرِهم إلى سُليمان، فأحسَنَ لقاءهم والردَّ إليهم، ورجَعوا إلى قُرطُبة[1].

وحدَّث مَن سمِع ابنَ مامةَ النَّصرانيّ صاحبَ العسكرِ الذي كان معَ سُليمان والبربر يقولُ: كنَّا نظُنُّ أن الدِّينَ والشجاعةَ والحقَّ عندَ أهل قُرطُبة، فإذا القومُ لا دينَ لهم ولا شجاعةَ فيهم ولا عقولَ معهم، وإنَّما اتَّفقَ لهم ما اتَّفق من الظهورِ والنَّصر بفضل ملوكِهم، فلمّا ذَهبوا انكشَف أمرُهم، أمَّا العقولُ فإنَّ البربرَ قَتَلوهم يومَ السبتِ والبلاءُ والخوفُ قائمٌ بهم، ثمَّ أتَوا إليهم يومَ الاثنين على البِغال مقصِّصين، فما كان يؤمِّنُهم أن يَقتُلَهم سُفهاؤهم؟ وأمَّا الشجاعةُ فانهزَم جُندُهم وملوكُهم وجميعُهم من أقلَّ من مئتي فارسٍ ليس فيهم رئيسٌ ولا مذكور. وأمَّا الدِّينُ فإنّ أصحابي هؤلاء، يعني النّصارى، يُغيرونَ ويَسرِقونَ بغير أمرٍ، ثمَّ يأتي أهلُ قُرطُبَةَ فيشترونَ منهم نَهْبَهم وأموالَ أصحابِهم المسلمين، فلا يَرَعُ عنها أحدٌ منهم، فليس في القوم عقلٌ ولا شجاعةٌ ولا دين.

ودخَل زاوي بنُ زِيري القصرَ بقُرطُبَةَ يومَ الاثنين السادسَ عشَرَ لربيعٍ الأوّل، وركِبَ سليمانُ بعدَه فدخَل القصرَ أيضًا ثمَّ رجَع إلى عسكرِه بُكْرة، واختفى ابنُ عبد الجبَّار بقُرطُبَةَ فلم يُطْلَبْ، ووَكَّل سُليمانُ صقالبتَه بحفظِ هشام بن الـحَكَم في بعض حُجَر القصر، ونَهَبَ بعضُ عَبيد البربر دُورًا من أرباضِ قُرطُبة فضُربت رِقابُ أربعةٍ منهم فسَكَن الناسُ ولم يُجازوهم بفعلِهم معَهم، وأُنزل شنجولُ عن خشَبتِه فغُسل ودُفن في دار أبيه، ودَفَن الناسُ موتاهم، وأُحصِي مَن قُتل من أهل قُرطُبة فكانوا نحوًا من عشَرة آلاف.

ورَكِب القُومِس ابنُ مامةَ إلى القصر فأُكرِم وخُلع عليه وعلى أصحابِه، ثمَّ عاد إلى معسكرِه، وطلَبَ من البربر أن يعطوهُ الحصُونَ التي شَرَطَ عليهم فقالوا: ليست الآنَ

---

(١) نفسه ٢٣/ ٤٢١-٤٢٢.

بأيدينا، فإذا تمهَّد سُلطانُنا أنجَزْنا لك ما وافَقْناك عليه. ورحَل يومَ الاثنين لسبع بقينَ من ربيع الأوَّل، وبعَثَ سُليمانُ والبربرُ معَه من يُشيّعُه حتّى أخرَجوه من أرض الإسلام، وبقيَ من أصحابِه مئةٌ أُنزِلوا في مُنْيةِ العقاب.

وكان ابنُ عبد الجبَّار دفَعَ إلى واضح خمسينَ ألفَ دينار ليُفرِّقَها في جُند مدينة سالم، فانهزَم واضحٌ وبقي المالُ في دارِه، فنزَلَها زاوي بنُ زيري فاحتَوى على ما في الدار، ووجَد هشامُ بنُ الـحَكَم المؤيَّدُ بالله جاريَتَيْنِ من جواريه قد حَبِلتا من ابن عبد الجبَّار، فقال: ما جَرَى على أحدٍ مثلُ ما جَرى عليَّ من هذا الرجلُ في نفسي ومالي وأهلي، فاللهُ بيني وبينَه، ونودي في الناس بالحضور في المسجد الجامع ليبايعوا سُليمانَ بنَ حَكَم ففعَلوا، وشَرَطَ لهم شروطًا سرَّتهم، وذلك في ربيعٍ الأوَّل من سنة أربع مئة.

دولةُ سُليمانَ بن حَكَم المستعينِ بالله(١)

نسَبُه: هو سليمانُ بن حَكَم بن سليمانَ بن عبد الرحمن الناصِر.

كُنْيتُه: أبو أيوب.

لقَبُه: المستعينُ بالله.

أُمُّه: أُمُّ وَلَدٍ روميَّةٌ اسمُها ظَبْيةُ.

عُمُرُه: اثنتانِ وخمسونَ سنةً وسبعةُ أشهر وثلاثةُ أيَّام.

خلافتُه: وَلِي مرّتَيْن، الأولى: يومَ الثلاثاء السابعَ عشَرَ لربيعٍ الأوَّل المذكور من سنة أربع مئة ثانيَ يوم فِرار الـمَهْديّ، وانْخلع يومَ الأحد الثانيَ عشَرَ لشوَّال من السنة، فكانت دولتُه الأولى سبعةَ أشهر، والثانيةُ من يوم خَلَعِه هشامَ بن الـحَكَم إلى يوم قَتْلِه ثلاثَ سنينَ وثلاثةَ أشهرٍ ونصفًا.

مولدُه: كان يومَ وُلِد هشامُ بن الـحَكَم، وقُتل معَ أخيه عبد الرحمن وأبيهما بيد عليّ بن حَمُّود العلَويّ على حسَبِ ما يأتي ذكْرُه في موضعِه.

---

(١) ترجمته في جذوة المقتبس ٣٩، والمعجب ٩٠، والحلة السيراء ٢/ ٥، وتاريخ الإسلام ٩/ ١١٨، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٣٣.

صفتُه: أسمرُ أعْيَنُ تامُّ القامة أشمُّ الأنف عظيمُ الكَراديس جميلُ الوجه، حسَنُ الأدبِ والشِّعر.

قاضيه: ابنُ ذَكْوانَ في الدولة الأولى، وفي الثانية: عبدُ الله ابن الصَّفَّار[1].

نَقْشُ خاتِـمَه: سليمانُ ابن الـحَكَم.

قال إبراهيمُ بن القاسم: وفي ربيعِ الأوَّلِ هذا فرَّقَ سليمانُ العمّال وولّى الولايات، وأمَرَ ونَهى، وابنُ عبد الجبَّار يتنقلُ بقُرطُبَة من دارٍ إلى دار لا يَصْحو من سُكر ولا يَرَعُ عن فسِق، وعزَمَ سليمانُ على إرجال قوم من جُند ابن عبد الجبَّار عن خيلِهم فامتَنعوا وصاحوا: لا طاعةَ إلّا للمَهْديّ، فقُتل منهم كثيرٌ، وكان مقامُ البربر بالزّهراء، فكان أهلُ قُرطُبة ـ لرداءِتهم ـ لا يألُونَهم إلَّا شرًّا، وكلُّ من وجَدوه منهم في خَلْوة أو منفردًا قَتلوه غِيلةً، وكان البربرُ إذا دخَلوا أسواقَ قُرطُبَةَ تخوَّفوا من العامَّة، فإنْ صهَلَ فرسٌ على فرس قامت نَفْرةٌ لتعصُّبِ العامَّة عليهم وبُغضِهم فيهم، وهم معَ ذلك صابرونَ يَنْهَونَ سُفهاءهم وعبيدَهم أن يمُدَّ أحدٌ منهم يدَه إلى أندَلُسيّ.

وكان ابنُ عبد الجبّار قد حصَلَ عند رجُل من أصحابِه يقال له: سليمانُ بن عيسى، يشربُ معَه، فخرَجَ يومًا لحاجة ورجَع، فوجَده معَ زوجتِه، فخرَجَ إلى صاحبِ الشُّرطة فعرَّفه أنّ ابنَ عبد الجبَّار في دارِه، وفطِنَ ابنُ عبد الجبَّار فهرَبَ مع ثلاثَ عشْرةَ جاريةً كنَّ معَه، وبقيتْ له جاريةٌ لم تهربْ معَه فحُمِلَت الجاريةُ إلى سليمانَ بن الـحَكَم، وانتُهِبَ دار سليمان.

---

(١) هكذا في الأصل، وهو وهم لا ريب فيه، فإن عبد الله ابن الصفار هو عبد الله بن محمد بن مغيث أبا محمد لم يكن قاضيًا، وتوفي قبل تولي المستعين بنصف قرن سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة (تنظر الصلة البشكوالية، الترجمة ٥٤٦، وبغية الملتمس، الترجمة ٨٨٣، وتاريخ الإسلام ٨/ ٤٥، والوافي للصفدي ١٧/ ٤٨٤)، والمقصود هو ابنه أبو الوليد يونس بن عبد الله قاضي الجماعة بقرطبة والمتوفى سنة ٤٢٩هـ وترجمته معروفة في جذوة المقتبس (٩١١)، ومطمح الأنفس ٥٩، وصلة ابن بشكوال (١٥١٢)، وتاريخ الإسلام ٩/ ٤٦٦، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٦٩، والعبر ٣/ ١٦٩، ومرآة الجنان ٣/ ٥٢، والديباج المذهب ٢/ ٣٧٤ وغيرها، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والـمآب.

وخرَجَ ابن عبد الجبَّار من قُرطُبَةَ ووصَل إلى طُلَيْطُلَةَ في أوَّل جُمادى الأولى، فقَبله أهلُها أحسنَ قَبول، وبلَغَ ذلك سُليمانَ فأنفَذَ أحمدَ بن وَداعةَ في جيش إلى طُلَيْطُلة ليُعذِر إليهم ويزيلَ[1] الفتنةَ، فرجَع ابنُ وَداعةَ يُخبِر بخلافِهم وخلاف أهل الثَّغر كلِّه وخلافِ واضح، وتمسُّكِهم بطاعة ابن عبد الجبَّار، فأرسَل سليمانُ جماعةً من الفقهاءِ والوُزراء فأعذَروا إليهم فلم يجِدوا فيهم قَبولًا للطاعة، ورجَعوا إلى سليمانَ فأخبروهُ، فتأهَّب لقَصْد طُلَيْطُلَةَ وسائرِ الثغر، وعَقَد ألويتَه في الجامع ورحَل يومَ الاثنين لإحدى عشْرةَ ليلةً خَلَت من جُمادى الآخِرة على طريق الجبل، فلمّا قَرُب من طُلَيْطُلَةَ أرسَل الفقهاءَ إلى أهلِها ليُعذِروا إليهم، فرجَعوا إليه بخلافِهم، وتجاوَزَ سليمانُ طُلَيْطُلَةَ رجاءَ أن يرجِعوا إلى الطاعةِ بغير إساءةٍ إليهم، ورحَل إلى الثَّغر فنزَلَ على مدينة سالم في وقتٍ ضيّق من البردِ والثّلج وقلَّةِ الـمِيرة، فلم يمكُثْ بها ورجَع، فكان وصولُه قُرطُبَةَ لثلاثٍ بقينَ من شعبان[2].

ونزَعَ ابنُ وَداعةَ في جماعةٍ من العبيد إلى ابن عبد الجبَّار، ونزَع إليه أيضًا ابنُ مَسْلَمةَ صاحبُ الشُّرطة، وخرَجَ واضحٌ من مدينة سالم ومضَى إلى طَرْطُوشةَ، وكتَبَ إلى سُليمانَ يرغَبُ إليه في المعافاةِ من الـخِدمة وأن يأمُرَه بسُكْنى مَيُورقةَ لينقطعَ عن الناس ويتعبَّدَ بها، وذلك مكرٌ منه وخديعة، فكتَبَ إليه سليمانُ بالنّظرِ في سائرِ الثّغر وجهادِ العدوّ، وإنَّما كان ذلك من واضح تطمينًا لسليمانَ حتّى أحْكَم ما أرادَه من إخراج الإفْرَنج إليه لقتالِه، فتمَّ له ذلك، ووافق الرومَ على إدخالِـهم مدينةَ سالم وتسليمها لهم، فأخْلاها مـمَّن كان فيها من المسلمينَ وأنزَلَها للكافرينَ ليقاتِلوا معَه البربرَ حمايةً للفاجر ابن عبد الجبَّار.

فدخلَ الإفرَنجُ مدينةَ سالم قاعدةَ الثَّغر الأوسط ومَلَكوها، فأوَّلُ ما دخَلوا من المدينة جامعَها، فرشّوا حيطانَه بالخمر، وضَربوا فيه الناقوسَ وحوَّلوا قِبلتَه...، ثمَّ شَرَطوا على واضح أن يلتزمَ لكلِّ رجُل منهم دينارَيْنِ في كلِّ يوم وما يقومُ به من الشّرابِ واللَّحم وغير ذلك، ويُجريَ على القُومِس في كلِّ يوم مئةَ دينارٍ وما يقومُ به من الطّعام والشراب وغيرِ ذلك،

---

(١) هذه اللفظة مطموس أكثرها.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٢٢.

وعلى أنَّ لهم كلَّ ما حازوهُ من عسكرِ البربر من سلاح وكُراع ومال، وأنَّ نساءَ البربرِ ودماءهم وأموالَهم حلالٌ لهم لا يَحُولُ أحدٌ بينَهم وبينَهم، وشَرطوا عليه شروطًا كثيرةً غيرَ هذه، فالتزمَ ذلك كلَّه لهم[١].

وأتى الإفْرنجُ، فوصَلت مُقدّمتُهم إلى سَرَقُسْطة، فساموا أهلَها سُوءَ العذابِ في عبِيدهم وذَراريهم وتُجّارِهم والنّزولِ في ديارِهم، ثمَّ سار بهم واضحٌ إلى طُلَيْطُلة ليجتمعَ بها معَ ابن عبد الجبَّار، وبلَغَ ذلك سليمانَ المستعينَ بالله، فاستَنْفَر الناسَ بقُرطُبَةَ يومَ الاثنين لخمسٍ خَلَوْن من شوَّال لقتال الإفرنج، فأظهَرَ أهلُ قُرطُبَةَ العجزَ عن ذلك وجَبُنوا عنه وطلَبوا منه معافاتَهم فعافاهم.

وخرَجَ سليمانُ من قُرطُبَةَ لقتال الإفْرنج لأربعَ عشْرةَ ليلةً مضَت من شوَّال، والتقَى القومَ يومَ جُمُعة، وقد جعَلَ القومُ في ساقتِهم سليمان، وجعَلوا معَه خيلًا من الـمَغاربةِ وقالوا له: لا تبرَحْ من موضعِك ولو وَطِئتك الخيل، ثمَّ تقدَّموا، فحمَلَ الإفْرَنجُ عليهم حملةً مُنكَرة، فأخرَجَ البربرَ لهم ليتمكَّنوا منهم، فلمّا رأى سليمانُ خيلَ الإفْرَنج قد خَرَقت صفوفَ البربر قَدَّر أنّ البربرَ قدِ اصطُلِموا، فانهزَمَ لحينِه فيمَن معَه، وعطَف البربرُ على الإفْرَنج عَطْفةً وصَدَموهم صدمةً قَتلوا فيها ملكَهم أرمقند، وقَتلوا معَه خَلْقًا من وجوهِهم، وقُتل من رَجَّالة البربر نحوُ ثلاث مئة رجُل ولم يُقتَلْ لهم فارسٌ واحد.

ولـمّا رأى البربرُ هزيمةَ سُليمان انحازوا إلى الزّهراءِ فأخرَجوا عيالَهم وأموالَهم وأولادَهم وخرَجوا عنها عشيَّةَ يوم السّبت، فلم يبْقَ فيها منهم أحد، ومضَى سليمانُ فارًّا بنفسِه فيمَن معَه إلى شاطِبة، وخرَجَ عامَّةُ قُرطُبَةَ إلى الزّهراءِ فانتَـهَبوا ما وجَدوا فيها من آلاتِ البربر وقَتلوا مَن وجَدوا بها ودخَلوا الجامعَ ونَهَبوا حُصُرَه وقناديلَه ومصاحيفَه وسلاسلَ قناديلِه وصفائحَ أبوابِه، وبرَزَ محمَّدُ بن عبد الجبَّار وواضحٌ إلى قُرطُبَةَ فدخَلاها ورجع مُلكُه لها[٢].

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٣.

دولةُ محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار الثانية[1]

ولـمّا انهزَم سليمانُ في شوّالٍ المؤرَّخ، نزَلَ ابنُ عبد الجبَّار بفِناء قُرطُبَةَ بمحلَّتِه وحَلَف بأيْمانِه والـمُغلَّظة ألَّا يستقرَّ ولا يحُلَّ عن نفسِه أو يَفْرَغَ من أمرِ البربر، وقد كان البربرُ أخَذوا عيالَهم كما ذكَرْنا وعبَّوا عسكرَهم وتحرَّكوا إلى جهة الخضراء، فدخلَ الـمَهْديُّ قُرطُبَةَ وأخَذ البَيْعةَ لنفسِه، فكان أوّلَ مَن بايَعَه هشامٌ المؤيَّدُ ثمَّ سائرُ أهل قُرطُبة على اختلافِ طبقاتِهم، وطلَبَ من أهل قُرطُبَةَ تقويةً بمال، فجمَعوهُ له على وَجْه السَّلَف، ثمَّ خرَجَ في اتّباع البربر بمن معَه من النّصارى وجميعِ عساكر الثغور وغيرِهم بعدَ أن أعطى النصارى أُعطِيتَهم.

وذُكِر في كتابِ «الاقتضاب»، أنَّ الذي كان معَ ابن عبد الجبَّار يومَئذٍ من المسلمينَ نحوٌ من ثلاثينَ ألفَ فارس دونَ النّصارى، وكانوا في تسعة آلاف، فتوجَّه بهم في اتّباع البربرِ، فهزَمَهُم البربرُ الهزيمةَ المشهورة بوادي آرُه[2]، وانصَرف ابنُ عبد الجبَّار إلى قُرطُبَةَ مُنهزِمًا، وامتلأتْ أيدي البربر كُراعًا ومتاعًا، وانحَلَّ النّصارى عن ابن عبد الجبَّار وانصَرفوا عنه، وسار البربرُ إلى ناحية رَيُّه، وأقبَلَ سليمانُ بنُ الـحَكَم المستعينُ بالله من الشّرق بمنِ اجتمَع له، والتقى معَ البربر، واتَّصل الخبرُ بابن عبد الجبَّار فبَنَى معَ أهل قُرطُبَةَ على الحصار وأخَذوا له أُهبتَه.

وفي تاريخ هذه الهزيمة بوادي آرُه على ابن عبد الجبَّار والنّصارى كان جَوازُ عليّ بن حُمُّود إلى سَبْتة، وانتَزَى فيها باسم سُليمان، وقال لهم: إنه ابن عبد الجبَّار، وإنَّ أميرَ المؤمنينَ هو سليمان، فمَلَكَ سَبْتَةَ من يومئِذ.

وكانت تلك الهزيمةُ عقِبَ شوَّال من سنة أربع مئة، ولم يكنِ البربرُ في هذه الهزيمة جُزءًا من أحدَ عشَرَ مـمَّن كان معَ ابن عبد الجبَّار، وقد كان وصَل إلى قُرطُبَةَ جملةٌ من العبِيد العامِريَّة من شاطِبَةَ وغيرِها، فيهم عَنْبرٌ[3] وخَيْران[4]، ووصَل معَهم

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٤، وتاريخ ابن خلدونم ٤/ ١٩٣ فما بعدها.

(٢) مراصد الاطلاع ١/ ٣.

(٣) له ذكر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٥.

(٤) له ذكر في الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٦٩، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨ وغيرها.

مُنذرُ[1] بن يحيى صاحبُ سَرَقُسطةَ بجُملتِه، فسُرَّ ابن عبد الجبَّار بهم، والعبيدُ المذكورونَ إنَّما كانوا يُسِرُّونَ على ابن عبد الجبَّار لِـما عمِلَه بهشام المؤيَّد أوَّلًا وبابن أبي عامر ثمَّ أخْذِه البيعةَ لنفسِه آخِرًا، فكلَّما قَرُب سليمانُ معَ البربرِ إلى قُرطُبة جمَحَ العبيدُ بما في أنفُسِهم من ذلك إلى أن قاموا عليه بعدَ ذلك على ما يأتي.

قال إبراهيمُ بن القاسم في كتابِه: لـمّا أتَى ابنُ عبد الجبَّار وواضحٌ إلى قُرطُبَةَ قتَلوا كلَّ متشبِّهٍ بالبربر وكلَّ عُدوي ومَن لم يَرَ العُدوةَ ولا سمِع بها إسرافًا وتحاملًا وجُرأةً على الله سبحانَه وطُغيانًا، حتّى أنَّ كلَّ مَن بينَه وبينَ أحد عَداوةٌ قال: هذا بَرْبريٌّ فقُتل ولم يُسأل عنه! وقَتلوا الأطفالَ وشَقُّوا بطونَ الحوامل وأخَذوا ابنةَ رجلٍ من البادية، وكانت جميلةً حسَنة، وعرَفَ أبوها العِلجَ الذي أخَذَها فوقَفَ إلى واضح وقال له: إنّ فلانًا العِلجَ أخَذ ابنتي وليست بَرْبريَّة، فقال له: لا تتكلَّمْ في شيءٍ من هذا فما إلى ردِّها من سبيل، وعلى ذلك عاهَدْناهم، فمضَى الرجلُ باكيًا إلى العِلج ورغِبَ إليه في ردِّها عليه وبذَلَ لهُ أربع مئة دينار، فأخَذَها منه العِلجُ وقَتله، وهذا من أنكى الأمورِ وأقبحِها، أنّ هذا الرجُلَ المظلومَ سار ليفتديَ ابنتَه فأُخِذ مالُه وقتل، ذهبت نفسُه ومالُه وابنتُه ولم يُغيِّرْ ذلك أحدٌ من أهل قُرطُبَةَ ولا أنكَرَه.

وبلَغَ منَ استخفافِ أهل قُرطُبَةَ بالإسلام في هذه الفتنة: أنَّ رجلًا نَصْرانيًّا وقَفَ في أعظم شوارع قُرطُبَةَ فقال: أين محمد لا ينفعُكم؟ ـ ونال منه صلّى اللهُ عليه وسلّم وشرَّف وكرَّم ـ فلم يُكلِّمْه أحدٌ منهم بكلمة، فقال رجلٌ من المسلمينَ غَيْرةً للنبيّ: ألا تُنكرونَ ما تسمعون، أمَا أنتم مسلمون؟ فقال له جماعةٌ من أهل قُرطُبة: امْضِ لشُغلِك، وكان الإفْرَنجُ إذا سمِعوا الأذانَ للصلاة يقولونَ قولًا لا يُذكَر فلا يَعترِضُ عليهم أحدٌ بشيء.

وجمَعَ أهلُ قُرطُبَةَ مالًا كثيرًا للإفرَنج وسألوا القاضيَ ابنَ ذَكْوان أن يدفعَ إليهم مالَ الأحباس المودَعَ في مقصورةِ الجامع فامتَنع عليهم، فكَسَروا بابَ المقصورة وأخَذوه، فدفَعوهُ إلى الإفْرَنج.

(١) ينظر المغرب ٢/ ٤٣٥، والإحاطة ٣/ ٢٨١.

وسأل ابنُ عبد الجبَّار وواضحٌ الإفْرَنجَ الرحيلَ إلى البربر، فتثاقَلوا، فلم يزالا يرفُقانِ بهم ويتَذلَّلانِ لهم حتّى أجابوا، فسارت مُقدّمةُ القوم وفيها واضحٌ وسار ابنُ عبد الجبَّار ومعَه كلُّ مَن قَدَر على حَمْل السلاح من أهل قُرطُبَةَ والبوادي، وهم يَروْنَ أنه الجهادُ الأكبر، فساروا حتّى نزَلوا على البربر بوادي آرُه يومَ الخميس لستٍّ خَلَوْن من ذي قَعْدةٍ من السنة من سنةِ أربع مئة، فاقتَتلوا قتالًا شديدًا، فانهزَمَ واضحٌ وابنُ عبد الجبَّار والإفْرَنجُ أعظمَ هزيمة، وقُتل من الإفْرَنج أكثرُ من ثلاثةِ آلاف، وغرِقَ منهم خَلْق، واحتَوى البربرُ على ما في عسكرِهم وعسكرِ واضح وابن عبد الجبَّارِ من مضَارِبَ ومالٍ وسلاح ودوابَّ وغيرِ ذلك، وكان ممَّن قُتل في المعركة اليهوديُّ وزيرُ ملِك الإفْرَنج فوجَد البربرُ في مَضرِبه ثلاثينَ ألفَ مِثقال، ووَجَدوا على بطونِ الإفْرَنج مناطقَ مملوءةً دنانيرَ ودراهمَ ممَّا يتجاوزُ الوَصْف. وقُتل من البربر يومَئذٍ أبو يَدّاس بن دُوناس اليَفْرنيُّ، وكان أقومَهم وأشجَعَهم، وقُتل من بني يَفْرنَ وبني برْزَال سبعةَ عشَرَ فارسًا، ومن سائرِ البربر خمسةَ عشَرَ فارسًا خاصَّة.

ووصَل المنهزِمونَ إلى قُرطُبَةَ في اليوم الثاني من الوَقْعة، فزاد حنَقُهم على البربر، وسأل ابنُ عبد الجبَّار وواضحٌ من الإفْرَنج الرُّجوع معهما إلى البربر، وكانوا قد قَتلوا من البربر وجوهاً، فأَبَوْا عليهما وقالوا: قَتَلوا خِيارَنا ووجوهَنا، ثمَّ رحَلوا عن قُرطُبَةَ يومَ الـجُمُعة لسبع بقيتْ من ذي القَعْدة، فكان لأهل قُرطُبَةَ لِفراقهم أكبرُ همّ، حتّى كان بعضُهم يلقَى بعضاً فيُعزِّيه كما يُعزِّي من فقَدَ أهلَه ومالَه أسَفاً على رحيلِهم وجَزَعاً من وصول البربرِ إليهم.

ثمَّ فَرَض ابنُ عبد الجبَّارِ على أهل قُرطُبَةَ مالًا، وتَـهيَّأَ للخروج للبربر، وأمَرَ واضحاً بمثل ذلك، فخَرَجا في الثَّغْريّينَ والعبيدِ وأهلِ قُرطُبَةَ جميعًا ليقصِدوا البربر، وأظهرا شجاعةً وتجلُّدًا، فلمّا سارا ثلاثينَ ميلًا عن قُرطُبَة كرّا راجعَيْنِ إليها تهيُّبًا لقتال البربر ومخافةً منهم، فلمّا رجَع ابنُ عبد الجبَّار وحصَل بقُرطُبة أمَرَ بحفر خَنْدق على قُرطُبة، وأُقيم وراءَ هذا الخندق سُورٌ ممَّا يلي قُرطُبة، والبربرُ في كلِّ يوم يُغيرونَ على نواحي قُرطُبَةَ فلا يَخرُجُ إليهم أحد، وأخَذوا الجبلَ المعروفَ بِبُشْتَر، الذي كان يَأوي إليه ابنُ حَفْصُون،

وهو كثيرُ الماءِ والـمَرْعى والمزارع، فزاد ذلك في قُوَّتهم، وأخَذ ابنُ عبد الجبَّار ما كان بقصر قُرطُبَةَ وبالناعورةِ والرُّصافة فأمْحَقَه اللهُ على يدِه ويدِ جُندِه، وهو معَ هذا كلِّه في انهماكٍ وانهتاك، مُظاهِراً بالفِسق وشُرب الخمر ومُضيِّقًا على أهل قُرطُبَةَ ومُفترسًا للتُّجّار، وكان واضحٌ يحقِدُ عليه ما فعَلَه بابن أبي عامر وآل عامر معَ ما يَراهُ في انهماكِه في الزِّناء والخمرِ والـجَوْر، فكان يُدبِّرُ في قتلِه معَ طائفة من العبيد إلى أنْ أمْكَنَه ذلك.

مقتلُ محمَّدِ بن هشام بن عبد الجبَّار[١]

وذلك أنَّ طائفةً من العبيد العامريِّينَ تواعَدوا معَ واضح فدخَلوا عليه يومَ الأحد الثامن لذي حِجَّة من سنة أربع مئة، وكان واضحٌ الفتى استَحْجَبَه ابنُ عبد الجبَّار، فثاروا بأجمعِهم معَه، ودخَلوا القصيرَ ومَلَكوه، ودخَلوا عليه، ثمَّ أخرَجوا هشامًا المؤيَّدَ وأقعَدوا ابنَ عبد الجبَّار بينَ يدَيْه، فجعَلَ المؤيَّدُ يعدِّدُ عليه ما أتاه في نفسِه وحُرَمه، ثم نُحِّي من بينِ يدَيْه فقُتل، وتولَّى قَتْلَه المعروفُ بالشَّفَق: عبدٌ من عَبِيد الـحَكَم، وعبيدُ العامريّينَ ذَبَحوه وحَزُّوا رأسَه ورمَوْا بجُثَّتِه إلى الرَّصيف فسَقَط في الموضع الذي كانت فيه جثَّةُ ابن عسقلاجَةَ من اليوم الذي قَتَلَه ابنُ عبد الجبَّار، وبعَثَ واضحٌ برأسِه إلى البربر، ونصَبَ جُثَّتَه أيَّامًا، ثمَّ دُفن في مِرحاض تحتَ خشَب المصلوبين، وأراح اللهُ من شرِّه وفِسْقِه.

وكان وَلَدُه بقُرطُبة فتًى حَدَثَ السِّنَ سِنُّه يومَ قَتْل أبيه ستُّ عشْرةَ سنة، فاحتال له شِيعةُ أبيه حتى وصَلوا به إلى طُلَيْطُلَةَ فقَبِلَه أهلُها وأمَّروهُ على أنفُسِهم، فلم يزَلْ بها إلى أنْ دعَتْه نفسُه إلى الغارة على ما كان لمحمَّدٍ من البلد، فلقيَه مُحارِبٌ التُّجِيبيُّ فهَزَمه وأخَذه أسيرًا، وأرسَل به إلى واضح فقتَلَه.

خلافةُ هشام المؤيَّد بالله الثانية[٢]

وذلك أنه لـمّا قُتل ابنُ عبد الجبَّار يومَ مِنًى من ذي حِجَّةِ سنة أربع مئة، رجَعت الخلافةُ إلى هشام بن الـحَكَم، فجلسَ للناس مجلسَ الخلافةِ وجَدَّدوا لهُ البيعة، وقدَّم لِحِجابتِه واضحًا الفتى الكبيرَ، وبعَثَ برأس ابن عبد الجبَّار إلى سُليمانَ المستعين بالله،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٨/ ٦٨١-٦٨٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٥.

(٢) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢١٦، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٦.

وكتَبَ إلى البربر يدعوهم إلى الدّخول في طاعته، فلما عيَّد الناسُ ركِبَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله ومشَى على الـحَفِير ورَتَّب الناسَ على مراتبِ الـحَزْم والضّبط لأمورِهم، ووَطَّنَهم على الدّفاع لعدوِّهم.

وكان هشامٌ في ذلك الوقت يَظهَرُ للناس رجاءَ أن يتّصلَ ذلك بالبربر فينتشرَ أمرُهم ويُنيبوا إليه ويَنتبِذوا من سليمان، وكان البربرُ لا يزيدونَ إلَّا نِفارًا من أهل قُرطُبَةَ لِـما فَعلوا معَهم من القبائح، وكان سليمانُ يؤنِّبُ واضحًا على قَتْل ابن عبد الجبَّار وغَدْرِه له وقلَّةِ وفائه معَه.

ونزَلَ البربرُ بشقُنْدة وفجِّ المائدة يُغيرونَ ويَقتلونَ، وهشامٌ ورعيَّتُه وواضحٌ وجُندُه خلْفَ السُّورِ لا يتَجاوزونَه شبرًا واحدًا، فلم يزَلِ الأمرُ إلى أشدِّ اضطراب والطريقُ خالٍ، وأهلُ قُرطُبَةَ في أضيقِ حال من الإغرام والمبيتِ على الخندق، والحربُ كلَّ يوم قائمة والقتلُ ذَريع، فكانوا في نَقْص الأموال والأنفُس، وانضمَّ معَ ذلك الوباءُ والمرضُ وهم في حِرص على قتال البربر معَ العَجْز عنه والتقصير فيه، وواضحٌ في كلِّ ساعة يحدِّثُ الناسَ بالكذب والإرجافِ بالبربر بما لا نهايةَ له، ويُخرِجُ أهلَ قُرطُبَةَ كلَّ يوم للقتالِ فلا يتَجاوزونَ خَندقَهم ويُصابُ منهم فيرجِعونَ ويقولون: قُتل فلانٌ من البربر وانهزَموا نحوَ جهةِ كذا، ويُكثِرونَ الـمَيْنَ والكذب.

وفي سنة إحدى وأربع مئة: نزَلَ البربرُ قُرطُبة، ودخَلوا الزّهراءَ يومَ السّبت لستٍّ بقِينَ من ربيع الأوَّلِ منها، وكان بالزّهراءِ طائفةٌ من الجُند يحفظونَها، فحُكِم عليهم بقتل بعضِهم وإبقاءِ بعضِهم فأقاموا بها وليس أحدٌ من الجُند يتجاوزُ الخندق، وأطلَقَ واضحٌ بسُوءِ رأيِه وخِذلانِه يدَ السُّفهاء على مُنْية الرُّصافةِ فخَرَّبها وحَرَّقها وقطَّع ثمارَها بعدَ حُسنِها وجَمالِـها خوفًا أن يدخُلَ البربرُ عليه من جِهاتها، ثمَّ نَدِم بعدَ ذلك عليها وعَلِم أنَّها كانت حِصنًا عليه.

ورحَلَ البربرُ من الزّهراءِ لخمسٍ بقينَ من شعبان، وجَعلوا يُغيرونَ على أدنى البلدِ وأقصاه يَنْهَبونَ ويُخرّبونَ، يُحرّقونَ ويَقتُلون، وإنْ جَرَّدَ إليهم واضحٌ خيلًا لم يقصِدوهم خوفًا منهم ويَنْهبونَ ما أَفْضَلَه البربرُ في القُرى والأقاليم ويرجِعون، وانضمَّ أهلُ البوادي

من كلِّ ناحية خوفًا من البربر، فصاروا أكثرَ من أهلِها، ومات أكثرُهم جُوعًا بها ومقتولًا بخارجِها وفَنِيت مَواشيهم. وانتهَى البربرُ إلى مالَقةَ فعاثوا في نَواحيها وقَتَلوا من أهلِها، ثمَّ مالوا إلى إلْبيرةَ فنهَبوا وخَرَّبوا وسَبَوا النّساء، ومَن عَلِموا أنَّ عندَها منهنَّ مالًا علَّقوهنَّ من ثُدِيِّهِنَّ، وعلَّقوا... ثمَّ عادوا إلى مالَقةَ بجَمْعِهم، فطلَبَ أهلُها الأمانَ من سُليمان فصادُّوهم عنهم على سبعينَ ألفَ دينارٍ دفَعوها إليه، ودخَلوا الجزيرةَ فقتلوا مَن وجَدوا بها وهَدَموا دورَها وسبَوا ذَراريَّها وأخَذوا الأموالَ، ثمَّ أمَرَ سليمانُ بضمّ السَّبي إلى دارِ الصِّناعة وخلَّى سبيلَهم، فلحِقَ بعضُهم بمالَقةَ وتزوَّجَ بعضَهنَّ من رجال العسكر وماتَ أكثرُهنَّ، وقطَع البربرُ الـمِيرةَ عن قُرطُبة، فاشتدَّ بها الجوعُ وعُدِمت المآكل[1].

قال إبراهيمُ بن القاسم: وكان أهلُ قُرطُبَةَ ـ على حالِ شدَّتهم وعظيم محنتِهم ـ لاجّينَ في الفتنةِ والتعصُّبِ على البربر، ومَن ذَكَر الصُّلحَ قُتل، حتَّى أنَّ رجُلًا من وجوهِ أهل العلم قال في الجامع: اللَّهمَّ أصلِحْ علينا، فقُتل في مكانِه، وقال آخَرُ في الجامع: إنَّ اللهَ أحبَّ الصُّلحَ وأمرَ به، فقُتِل في الحين، وجاءتِ امرأةٌ من الفُرن فأوقَعت قِدْرًا فانكَسَرت، فكانت سوداءَ، فقالوا: بربريَّةٌ سوداء، فقُتلت، وصَعِدت أُخرى من الوادي بجرَّة فوقَعَت عن كتِفِها فانكَسَرت فقُتلت، ومثلُ هذا كثيرٌ لا يُحصَى. قال: وظهرَ من الجُند الاستهانةُ بواضح والاستخفافُ به، فصرَّحوا بشَتْمِه وسبِّه.

وأتَى رسُلُ ابن مامةَ القُومِس زعيمَ نَصْرانيَّتِه يَستنجِزونَ تسليمَ الـحُصون إليه على ألَّا يغزوَهم ولا يتعرَّضَ لشيءٍ من ثغورِهم، فرَضُوا بهذا، وحضَر الفقهاءُ والعدولُ والقاضي، وكتَبوا كتابًا بذلك.

ذكْرُ تسليم الـحُصونِ للنّصارى وما جرَى على المسلمينَ في ذلك وما اتَّصل به من خَبَر الفتنة وغيرِ ذلك

قال: ولـمّا وصَلَ الرسُلُ إلى قُرطُبَةَ حضَر الفقهاءُ والقاضي والعدولُ وكتَبوا كتابًا بالشّروط وتسليم الحصُونِ للنّصارى، وقُرئ على الناس بحضرة هشام وواضح، وشَهِد فيه جميعُ مَن حضَر، وخرَجَ القومُ من القصر مُستبشِرينَ بما كان، فكان الذي

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٧.

صار لابن مامةَ جميعُ الحصُون التي كان أخَذها الـحَكَمُ بنُ عبد الرحمن ومحمَّدُ بن أبي عامر وابنُه المظفَّرُ، كلُّ ذلك استخفافًا من هشام، هكذا ذَكَر الرّقيقُ في كتابِه، وكان البربرُ أيضًا لـمّا طُرِدوا من قُرطُبَةَ وقُتلوا بها قد خَرَّبوا مُدُنًا كثيرةً وقَتلوا أكثرَ أهلِها ولم يَسلَمْ منها إلَّا طُلَيْطُلَةُ ومدينةُ سالم، وبلَغَت خيلُهم أقطارَهما وما وراءهما، حتى أنَّ الراكبَ يمشي شهورًا لا يرى أحدًا في طريق ولا قرية.

وسمِع اللَّعينُ ابن شانْجُه أيضًا بما سُلِّم إلى اللّعين ابن مامةَ دونَه من الحصُون، فكاتَبَ يَطلُبُ حصُونًا أُخَر، وتوعَّد وتهدَّد، فأُجيبَ إلى ما سَأل من ذلك، وكُتب بتسليمِها إليه، وهذا كلُّه لَجاجًا في ألَّا يُصالحَ البربر(١).

ثمَّ عزَم واضحٌ على مُراسلةِ البربر لـمّا رأى اضطرابَ الـجُندِ عليه وطمعَهم فيه، وأظهَرَ أنّ ذلك عن رأي هشام لِـما فيه من الصّلاح للخاصَّةِ والعامَّة، فبعَثَ واضحٌ إلى البربر رجُلًا يُعرَفُ بابن بكر، فاجتَمع بسُليمانَ وعاد بجوابِه، فوقَعَ الـجُندُ عليه فقَتلوه، ولم يقدِرْ هشامٌ ولا واضحٌ على مَنْعِه، واحتزُّوا رأسَه وطافوا به البلدَ على رُمح.

وعزَم الـجُندُ والرعيَّةُ على قتال البربر، وجَرَّد القاضي عنايتَه في ذلك، ووعَدَ بخمس مئة فرس من مالِ الأحباس يُحمَلُ عليها مُرتجِلةُ العبيد وهو يعلمُ أنّ القاتلَ والمقتولَ في النار، فلم يعبَأ به، فاضْطَرَمَ البلدُ نارا لقلَّةِ المال والعُدَّة وجَبُن القومُ وتخاذَلوا، فجمَعَ السُّلطانُ أهلَ الأسواق إلى القصر وشَكا إليهم قلَّةَ المال وسَألهم أن يُقوُّوه بشيءٍ من المال، فقالوا: قد غَرِمْنا مرارًا جُهدَنا وطاقتَنا، والموتُ خيرٌ لنا فاخْرُج بنا إلى عدوِّنا، وهم البربر، فإنَّا لا نُقيم، فتحيَّر واضحٌ وعَزَمَ على الهروب(٢).

مقتلُ واضح

لـمّا أراد واضحٌ الهروبَ وعَزَمَ عليه أُخبِر به الـجُند فزحَفَ إليه ابنُ وَداعةَ في عددٍ من الـجُند فأخرَجوهُ من دارِه وعاتَبَه على ما تكلَّف من الأموال وما عزَمَ عليه من مُصالحةِ البربر، ثمَّ قام إليه ابنُ وَداعةَ فضَرَبَه بالسيّف، وحمَلَ عليه القومُ فقَتلوهُ واحتَزُّوا رأسَه وطافوا به

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٢٧.

(٢) نهاية الأرب اللنويري ٢٣/ ٤٢٧-٤٠٨.

البلد، وألقَوْا جسَدَه في الرّصيفِ بالموضع الذي أُلقي فيه ابنُ عسقلاجةَ وابنُ عبد الجبَّار، ونُهِبت دورُ أصحابِه وكُتَّابِه، ووُجِد له مالٌ كثيرٌ مشدودٌ كان عزَم على الهروبِ به[1].

وأظهرَ هشامٌ المؤيَّدُ تجلُّدًا، وقال: أنا ما أريدُ حاجبًا، أنا أُباشرُ أموري بنفسي، وجلسَ أيَّامًا للناس ثمَّ إلى طبعِه، وصار الوُزراءُ يُدبِّرونَ أمرَ البلد.

ووَلَّى هشامٌ ابنَ وَداعةَ شُرطةَ المدينة، فاشتدَّ على أهل الرِّيَب وهابَهُ الـجُندُ وغيرُهم[2].

وسار قومٌ من البربر من جَيَّانَ إلى بَلَنْسِيَة فأغاروا عليها وحازوا منها خمسَ مئة فرسٍ كانت للسُّلطان وثلاث مئة رجُل من وجوهِ الجُندِ والكُتَّابِ والعمَّالِ الذين كانوا بها، وذلك في سنة إحدى وأربع مئة، وكان واضحٌ قد بَنَى على الخندق مجلسًا عاليًا يُشرفُ منه على البربر، وسمَّاه الدَّيْدَبَان، فكان الوُزراءُ يجلسونَ فيه معَ الفقهاء في كلِّ يوم يستشيرونَ في الأمر، فكلُّ ما دبَّروه في اليوم فَسَخوه في غد.

وفي هذه السنة: كان بنهرِ قُرطُبَةَ سَيْلٌ عظيم هَدَم في أرباضِ قُرطُبة نحوَ ألفَيْ دار وما لا يُحصَى من المساجدِ والقَناطير، ومات فيه نحوٌ من خمسة آلافِ نَفْس رَدْمًا وغَرَقًا، وذهبت فيه أمتِعةُ الناس وأموالُـهم، وهَدَم أكثَر السُّور ورَدَم كثيرًا من الخندق، وأقام هذا السَّيلُ ثلاثةَ أيَّام، هكذا ذكَرَ الرقيقُ في كتابِه.

واجتمع أهلُ البلد والعبيدُ بقُرطُبَةَ، فتحالَفوا بأيْمانِ البيعة أن تكونَ أيديهم متَّفِقةً وكلمتُهم في حربِ البربر واحدة، وأكَّدوا الأيْمانَ بينَهم في ذلك وكتبوا عَقْدًا بذلك على أنفُسِهم وأشهَدوا فيه الوُزراءَ والكُبراء، والسِّعرُ كلَّ يوم يزدادُ غلاءً، والأمرُ يتفاقمُ شدَّة، والناسُ يتوجّهونَ إلى السّواحل والبوادي، واشتدَّ حالُ أهل قُرطُبَةَ، حتّى أكَلَ الناسُ الدمَ من مَذابح البقرِ والغنم وأكَلوا الـمَيْتَةَ و... [3] الباليَة، وكان قومٌ في السِّجن، فمات منهم رجُلٌ فأكَلوهُ، ومعَ هذه الـمِحَن فشُربُ الخمرِ ظاهرٌ والزِّنا مُباحٌ واللِّواطُ غيرُ مستور، ولا ترى إلَّا مُجاهرًا بمعصية.

---

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) لفظة مطموسة.

وخَرجَ البربرُ من جَيَّانَ إلى أرملاطَ في جُمادى الآخِرة وقد ملأوا أيديَهم من البقرِ والغنَم حتّى عَجَزوا عن ضبطِه، فكان جِياعُ أهل قُرطُبَةَ يَسْرُونَ ليلًا على رُعاةٍ متفرِّقة فيأخذونَ منها ما قَدَروا عليه، فلا يتورَّعُ عن شرائها كبيرٌ ولا صغير، ثمَّ نَذَروا لهم البربر، فقَعَدوا لهم، فكانوا يقتُلونَ في كلِّ ليلة العشَرةَ والعشرينَ والثلاثين، وقَتَلوا منهم في ليلةٍ واحدة أكثرَ من مئة، فانقطَعوا عن غَنم البربرِ جُملةً، ورجَعوا إلى ما بقيَ من مَواشي أهل البلد يسرِقونَها ويذبَحونَها فيأكُلُها الناسُ كالحلالِ الذي لا شكَّ فيه.

وكتَبَ سليمانُ إلى أهل قُرطُبَةَ يُحذِّرُهم الفتنة ويُعدِّدُ عليهم ما كان البربرُ يُوالونَهم من الجهل ويحتملونَ منهم من الأذى والقبيح، وأنه عافاهم من غُرور الإفْرَنج حين خرَجَ هو معَ البربرِ إليهم شفَقةً عليهم وغيرَ ذلك من الـحُجَج البالغة عليهم، فمالت طائفةٌ منهم إلى الصُّلح وأنكرَتْه طائفة، ونزَلَ البربرُ على كلِّ زَرْع حولَ قُرطُبة يحصُدونَ ويأكلونَ، ويقفونَ بقُرب الـخَنْدق فيقولون: أخْرِجوا إلينا الحصَّادينَ فإنّا نضمَنُ لكم ألّا نَدَع حبَّةً واحدة يستهزئون بهم ويضحَكونَ منهم، وليس أحدٌ يقدِرُ أن يخرجَ من الخندقِ إليهم من الـجُند وغيرِهم.

وجاء عيدُ الفطر، فلم يقدر أحدٌ منهم [أن](١) يخرُجَ إلى الـمُصلَّى وصَلَّوْا في الجامع جَزَعًا وخوفًا.

وعَظُم البلاءُ على أهل قُرطُبة، ووقَعت نارٌ في سُوق الخشَّابينَ فأحرَقَت أسواقًا كثيرة، ونهَبَ العبيدُ ما لم تحرِقْه النار، فكان حريقًا عظيمًا، وأحرَقَ قومٌ من أهل قُرطُبَةَ جامعَ الزّهراءِ وأخَذوا ما بقي من قناديلِه وصفائح أبوابِه ومِنبَرِه وحُصُرِه.

ووصَل قومٌ من البربر إلى شفيرِ الوادي، فدعَوْا إلى الصُّلح، فَركَنَ ابنُ مُناوٍ إلى ذلك وقال: نُصالـحُكم على ما يَرضاه السّلطانُ صوابًا، وكان ابنُ مُناوٍ قد تسمَّى ذا الوِزارتَيْن فأنكرَ الفقهاءُ ذلك وقالوا: إنْ تمَّ هذا كان فيه هلاكُنا، فاجتمعوا إلى ابن مُناوٍ وقالوا: حربُ البربرِ أسلمُ لنا من صُلحِكم، فأعرَضُوا عن ذكرِ الصُّلح فرجَعت الفتنةُ على ما كانت عليه.

---

(١) ما بين الحاصرتين منا.

وكان المعروفُ بابن فَرُّوخ منقطعًا إلى هشام المؤيَّد في هذا الوقت يأنَسُ به ويُصغي إلى حديثِه، فبلَغَ ابنَ مُناوٍ أنه تكهَّن له وقال: إنّ دولتَك لا تقومُ على يدِ أحدٍ من العامريّينَ ولا تقومُ إلَّا على يدِ أحدِ عبيدِك، فقدَّمه ابنُ مُناوٍ فضَرَبَ عُنقَه ولم يلتفتْ إلى قُربه من هشام، وكان ابنُ مناوٍ من العامريّين، وقَبَضَ ابنُ مُناوٍ على عِدَّة رجال نُسِب إليهم الميلُ إلى سُليمانَ والبربر فضرَبَ أعناقَهم وصَلَبَهم، وأمَرَ بإطلاق الأبوابِ للناس، فلمّا حصَلوا خارجَ المدينة ومشَوْا قليلا أمَرَ بهم فأُخِذت أموالُهم وقُتل أكثرُهم معَ نساءٍ كُنَّ معَهم، وأمَرَ ببعضِهنَّ أن يُبَعْنَ كما تُباعُ السَّبْي، فكان هذا من جُملةِ محنةِ أهل قُرطُبة.

ووصَل إلى قُرطُبة كتُبٌ من أهلِ الثُّغور يقولونَ لأهل قُرطُبة: إمَّا أن تُصالحوا البربرَ وإمَّا أن تجِدُّوا في حربِهم، فإنه لا طاقةَ لنا ولا لكم بهم، وعسى أن تكتُبوا إلى ابن مامةَ دونَه يجِدُّ في النّهوض بجيوشِه ليكونَ معَنا عليهم. فحضَر الوُزراءُ والفقهاءُ وأربابُ الدّولة لدى القصرِ وتَشاوَروا وكتَبوا عن هشام إلى زاوي بن زِيري يعِدُه بإتمام كلِّ ما شَرَطَه لنفسِه ويَبذُلُ له كل ما يريدُ من مالٍ وولايةٍ وغيرِ ذلك، فعاد جوابُه يقول: أمَّا نقْضُ عهدِ سُلطاني ومخالفةُ أصحابي فلا سبيلَ إليه، وأمَّا السّعيُ في الإصلاح فإنّي مُتَمادٍ في تأليفِ كلمة المسلمين، فوالله لا قَصَّرتُ فيه حَزْمًا منّي على ما يُقرّبُني إلى الله من قَطْع الفتنة وحَقْن الدّماء وإصلاح ذات البَيْن، فاضطَربَ الأمرُ، وخافَ ابنُ مُناوٍ أن يُصيبَه مثلُ ما أصاب واضحًا، فكلّم الوُزراء والفقهاء يَحضُّهم على الصُّلح، وأظهَرَ هو أنّه لا يجيبُ إليه إلَّا عن موافقةِ هشام بن الـحَكَم وجماعةِ العبيد، فشَكَره الفقهاءُ على ما أرادَه من قَطْع الفتنة.

فلمّا كان يومُ الثلاثاء غُرَّةِ ذي حجَّةٍ من سنة اثنتينِ وأربع مئة دخَل ابنُ مُناوٍ على هشام المؤيَّد ومعَه وجوهُ العبيد والجُند فكشَفوا له حالَ البلد وقالوا له: قد بلَغَ الأمرُ مُنتهاه ولا طاقةَ لنا بهؤلاء القوم، والناسُ مختلفونَ: منهم من يريدُ الصُّلحَ ومنهم من لا يريدُه، وليس عندَنا مال، وقد أجحَفْنا برعيّتنا في الـمَغارِم وسعرُنا في غايةِ الغلاء والـجُندُ فقراءُ والثّغرُ مضطرِبٌ والنّصارى يريدونَ الوصُولَ إلينا ومُؤْنتُهم عظيمةٌ علينا وما عندَنا ما يقومُ بهم. فبكى هشامٌ ـ فيما زَعَموا ـ بكاءً شديدًا وقال: اصنَعوا ما أردتُم ودَعوني بمعزِل، فلستُ أقدِرُ لكم ولا لنفسي على شيء، فانظُروا ما فيه صَلاحُكم فافعلوه وأنا تَبَعٌ لكم،

فدخَل ابنُ مُناوٍ القصرَ وأخَذ كلَّ متاع رفيع وتحمَّله ليلًا هاربًا إلى بَطَلْيَوْسَ: من قُرطُبة، وبقيتْ قُرطُبةُ يُدبِّرُ أمرَها العبيدُ وسُفَّالُ الناس.

وفي سنةِ اثنتينِ وأربع مئة: كتَبَ أهلُ قُرطُبة كتابًا عن هشام وابن مُناوٍ إلى البربرِ باستعطافٍ وترغيب في قَطْع الفتنة وتسليم الأمرِ إلى هشام المؤيَّد، فهو أَوْلى به لبيعتِه التي في رقابِ الناس قبلَ بيعةِ غيرِه، وعلى أنّ سُليمانَ وليُّ عهدِه ومُدبِّرُ أمرِه والقائمُ بأعباء الخلافة عنه، وبَعثُوه معَ نفرٍ من أشياخ البلد، فمضَوْا حتّى دخَلوا على سُليمان ودفَعوا إليه كتابَ هشام وكتابًا من الوُزراء إلى جماعة وُزراء البربر، فلمّا رأى سُليمانُ عُنوانَ كتابِه: من عبدِ الله هشام بن الـحَكَم أميرِ المؤمنينَ إلى سُليمانَ بن هشام، رَمَى به وتَنمَّر وقال: أنا هو أميرُ المؤمنين وأمَّا هشامٌ فلا يستحقُّ ذلك، وقال جماعةُ البربر: هذا أميرُ المؤمنينَ ليس سواه ولا يكونُ غيرُ هذا ولا كَرَامة، فلم يُقرَأ من الكتابَيْنِ حرفٌ، وحمَلَ سليمانُ السِّكّينَ على كتابِه وقطَّعه، ومزَّقَ البربرُ الآخَر، وقال سليمان: والله ما بايَعْتُ هشامًا قطُّ، ولقد بويعَ له وسِنّي ثماني سنين، وقد بايَعَني هو طائعًا غيرَ مُكرَه، فهو أحقُّ بأن ينصَحَ نفسَه ويلزَمَ الواجبَ عليه.

قالوا: ثمَّ ودَّعناهُ وخرَجْنا، وشيَّعَنا وُزراءُ البربرِ حتّى أتيْنا قُرطُبة، فدخَلنا على هشام، فوالله ما سألَنا عن حالِنا ولا عن حال سليمان، ولا شكَرَنا ولا ذَمَّنا ولا أحار كلامًا، وخرَجْنا من عندِه، فلمّا خرَجْنا أمَرَ هشامٌ بتجديد بيعتِه على سائر الناس.

ووصَلَ كتابٌ من أميرِ الثّغر حينَئذٍ بأنه سائرٌ إلى قُرطُبة معَ ابن مامةَ دونَه بجيوشِ النّصارى لنَصْر قُرطُبَةَ على البربر، فأظهرَ أهلُ قُرطُبَةَ السّرورَ بذلك وليس له أصلٌ ولا منه شيء، لما أراد اللهُ من محنتِهم وبليَّتِهم.

قال بعضُ شُعرائهم يَبكي قُرطُبَةَ [من السريع]:

بَــكِّ عــلى قُرطُبــةِ الــزَّينِ ... فقــد دَهَتْهــا نظــرةُ العــيْنِ
أنظَرَهــا الــدهرُ بأســلافِهِ ... ثــمَّ تَقــاضَى جُملــةَ الــدَّيْنِ
كانــت عــلى الغايــةِ مــن حُــسنِها ... وعيــشِها المــستعذَبِ اللَّــيْنِ

فـــانعكَس الأمـــرُ فـــما أن تَـــرى   بهـــا سرورًا بـــــينَ إثنـــــيْنِ
فاغْـــــدُ وودِّعْهـــا وسِرْ سالـــــمًا   إن كنـــتَ أزمعْـــتَ عـــلى البَـــيْنِ

وقال آخَرُ من قصيدةً في المعنى [من البسيط]:

أضـعتُمُ الـــحَزْمَ في تـدبيرِ أمـرِكُمُ   سـتعلمونَ معًـا عُقْبَـى البـوارِ غَـدَا
فلــو رأيـتُمْ بعـينِ الفِكـر حـالَكُمُ   بَكيـــتُمُ بـــدمٍ أنْ دُمْـــتُمُ بـــدَدَا
لكنّ سُبْلَ العَمَى أعْمَـتْ بـصائرَكمْ   فألْبَـــسْتكم ثيابًـــا للـــبِلَى جُـــدُدَا
يـــا أُمَّـــةً هتكَـــتْ مـــستورَ سَـــوْءتِها   ما كلُّ مَن ذلَّ أعطـى بالـصَّغَارِ يـدَا
في سُـــورةِ الحَـــشْر آيـــاتٌ مُفـــصَّلةٌ   في شـأنِكُم أُنزلـتْ لم تَعْـدُكمْ أحـدا
نَعَمْ وفي الكَهْف في العـشرينَ خَاتمـةٌ   تَقْضي علـيكمْ بـأنْ لا تُفْلِحـوا أبَـدَا
فاستشعِروا سُوء عُقْبَاكم فقـد شَـمِلَتْ   جمـــيعَكَمْ محنـــةٌ لا تنقـــضي أبَـــدَا

ووجَدتُ في بعض تاريخ الأندَلس، قال: كانت قُرطُبَةُ في زمان الفَلّ الداخِل إلى الأندَلُس قد نُسِيَ بها بغدادُ في زمانِ الرّشيد وعَظُم بها مُلكُهم، فاشتدَّ أمرُهم وضَخُم حالُهم، وأعظمُ ما كانت في زمانِ الناصر ثمَّ في زمان الـحَكَم، واتَّصل ذلك لها إلى آخِر ابن أبي عامر، فتناهَى بها كلُّ فَضْل وكمُلَ، وذلك للإدبارِ الذي يكونُ بعَقِب الإقبال، والنّقص الذي يُوافي بعدَ الكمال، فما من شيءٍ كمُل إلَّا ودَنَا نقصُه لا مَحالة. وبعَثَ اللهُ محمَّدَ بن هشام ليكونَ استئصالُ شَأفِتهم وإبادةُ خَضْرائهم على يدِه لِـما أراد اللهُ سبحانه بهم، فأبادهم كما أباد طَسْمَ وجَدِيس ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]؟

ولـمّا كان في آخِر ذي حجَّةِ سنة اثنتين وأربع مئة نزَلَ البربرُ بغَرْبيّ الوادي، وتقدَّم من وُزراءِ البربر خَزْرُونُ بن محمَّد، وحُبَاسةُ بن ماكْسِن، وكان يحقِرُ أهلَ قُرطُبَةَ ولا يعبَأُ بهم لشجاعتِه وبَسالتِه، وكان على فرس أصفر، فقاتَلَ قتالًا شديدًا، ثمَّ صار إلى مكانٍ ليس فيه قتال، فنزَلَ عن فرسِه ومعَه خيلٌ قليلةٌ نزَلوا معَه وسَرَّحوا دوابَّهم، فإذا جمْعٌ عظيمٌ من أهل قُرطُبَة عايَنُوهم من وراء الخندق وهم آمِنونَ قد نَزَعوا لُـجُمَ دوابِّهم،

فانقَضُّوا عليهم، فما استوى على فرسِه وركِبَ أصحابُه إلَّا والقومُ قد غَشُوهم ـ وكانوا سبعينَ فارسًا والبربرُ خمسة ـ فقاتَلُوهم وقَتلوا من أهل قُرطُبَةَ عددًا كثيرًا، ثمّ طعَنَه أحدُهم طعنةً تَجدَّلَ منها صريعًا عن فرسِه، وهرَبَ عنه أصحابُه فأُخِذ أسيرًا، فلمّا عَرفوهُ قَتلوه وقطَّعوه قطعًا وتهادَوْا لحمَه فأكَلوهُ، لـمّا كان أكثَرَ من قتلِهم وما جَرَّبوهُ من شجاعتِه وشدَّةِ نِكايتِه، ولو أنَّهم عرَفوه قبلَ أخْذِه ما تَجاسَرَ أحدٌ عليه.

ولـمّا بلَغَ خبرُه أخاه حَبُّوسَ بن ماكْسِن وعمَّه زاويَ بنَ زِيري وأهلَ بيتِهِ جَزِعوا عليه جزَعًا شديدًا وباتوا مستعدّينَ للقتال، فلمّا أصبح قاتَلوا أهلَ قُرطُبَةَ قتالًا شديدًا لم يُسمَعْ قطُّ بمثلِه. ولـمّا كان اليومُ الذي يَليه كَمَنَ لهم البربرُ كمائنَ، فخرَجَ إليهم جُندُ قُرطُبة فناوشُوهم القتالَ وأطمَعوهم حتّى خَرجوا عن خندقِهم وأعطَوْهم الهزيمةَ، فأسرَعوا في اتّباعِهم، فقامت الكمائنُ من ورائهم فقُتلوا، حتّى لو قال قائلٌ: إنَّه لم يُفلتْ منهم فارسٌ لَصَدَق.

وفي سنة ثلاثٍ وأربع مئة: لـمّا كان يومُ السبت لأربع بقينَ من شوَّال، وقَعت الهزيمةُ على أهل قُرطُبة كما ذكَرْنا، اجتمَع أهلُ قُرطُبَةَ وعمِلوا جُموعًا وخرَجوا يومَ الأحد ثانيَ يوم الوَقْعة لقتال البربرِ وسُليمان، فهُزِموا أيضًا وقُتلوا ذَريعًا. وتَصايَح الناسُ من كلِّ جانب وفُتحت قُرطُبة، فخرَجَ القاضي ابنُ ذَكْوان معَ بعض الفقهاء إلى سُليمان ورؤساء القبائل البربريَّةِ، وطَلَبوا منهمُ الأمان فأمَّنوهم وطَلَبوا منهم أموالًا عظيمةً أُغرِم منها ابنُ الشَّرح وحدَه مئة ألفِ دينار، وأُغرِم كلُّ واحدٍ من الناس فوقَ طاقتِه، ومَلَكوا البلد.

دولةُ سُليمانَ المستعينِ بالله ثانيةً[1]

ودخَل سُليمانُ القصرَ بقُرطُبَةَ يومَ الاثنين لثلاثٍ بقينَ من شوَّال من سنة ثلاثٍ وأربع مئة، فلمّا استقرَّ به أحضرَ هشامًا المؤيَّدَ بالله ووَبخَّه وقال له: أما كنت تبرَّأتَ لي من الخلافة وأعطيتَني صفقةَ يمينِك، فما حمَلَكَ على أن نقَضْتَّ عهدَك وحلَلْتَ عَقْدَك؟ فاعتذَر له بأنَّه مغلوبٌ عليه.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٤١-٤٤٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٢٩.

خَلْعُ هشام بن الـحَكَم المؤيَّدِ بالله ثانيةً

وذلك أنه لـمّا عاتَـبَه سُليمانُ اعتذَر له وتبرَّأ من الخلافة وسَلَّم الأمرَ إليه وخَلَع له نفسَه.

قال ابنُ حيَّان: وتَسمَّى سُليمانُ لوقتِه من الألقابِ السُّلطانيَّة بالمستعينِ بالله، وانتقلَ إلى مدينة الزّهراء بجُملة بَرابرِهِ وجيشِه، فضاقت الزّهراءُ عنهم، فنزَلوا بما اتَّصل بها، ونزَلَ ابنا حَمُّود: عليٌّ والقاسمُ قائدا فِرقة العَلَويَّة بشقُنْدة، وغابَ عن الناس خبرُ هشام المؤيَّد فاختُلف في أمرِه، فقيل: إنه قضَى عليه عندَ دخولِه القصر، وقيل: إنه فرَّ بين يدَيْه.

وفي هذه السنة: قدَّم سُليمانُ المستعينُ بالله عليَّ بنَ حمُّود على سَبْتة، وقَسَم بعضَ بلادِ الأندَلُس على رؤساء قبائل البربر.

قال ابنُ حَمادُه: وكانوا ستَّةَ قبائل، فأعطى صُنْهاجةَ إلبيرة، فبقيت بيد حَبُّوسٍ وذرّيَّتِه نحو المئة سنة، وأعطى مغراوةَ الجوفَ، وأعطى منذرَ بن يحيى سَرَقُسْطة، وأعطى بني برْزال وبني يفرَن جَيَّان وذَواتِها، وأعطى بني دَمَّر وأزداجةَ شَذُونةَ ومَوْرُورَ وغيرَ ذلك من الحصُون، وذُكر أنه وَلَّى القاسمَ بنَ حَمُّود طَنْجةَ وآصيلا، وأمَّا عليُّ بن حَمُّود فولَّاه سَبْتَةَ كما ذكَرْنا.

فلـمّا بَلغَ عبدَ الله البرْزاليَّ تقديمُ ابنَيْ حمُّود دخَل على سُليمانَ فقال: يا أميرَ المؤمنين، بلَغَني أنك وَلَّيت بني حَمُّودٍ العَلَويّينَ على المغرب؟ قال: نعم، قال له: أليس العَلَويُّون طالبيِّين؟ قال: نعم، قال: تأتي إلى أحْناش[1] تُردُّهم ثعابين؟ قال: نَفَذَ الأمرُ في ذلك.

قال ابنُ حيَّان: ومن الاتّفاق الغريبِ العجيبِ على سُليمان أنه لـمّا استَوْسَق له الأمرُ بعدَ فَراغِه من أمرِ هشام بن الـحَكَم أنفَذَ عَزْمَه من بين قوَّادِ جيوشِه في اختيارِه لعليّ بن حَمُّود على تقديمِه بمدينة سَبْتة رأيًا ذَهِل عنه، ونَبَذَها إلى ضدٍّ له مُكاشِح، ولم يكُ في الدعوى والقَرابةِ أبعدَ منه عليّ، وهَجَم عليه وسَلَبَه مُلكَه وقتَلَه وحوَّل دولتَه ومزَّق عشيرتَه، وإذا أراد اللهُ شيئًا أمضاه والـحُكم لله وحدَه لا شريكَ له.

---

(١) الاحناش: الحيات.

وكان هشامُ بن الـحَكَم، عندَما رآهُ من اضطرابِ أمرِه، وتيقَّنَه من انصرام دولتِه، صيَّر إلى عليّ بن حَمُّود ولايةَ عهدِه وأوصَى إليه بالخلافةِ من بعدِه، وراسَلَه إلى سَبْتَةَ بذلك سرًّا، ووَلاَّه طلبَ دمِه، واستكْتَمه السرَّ فيه إلى أوانِه وبلوغ زمانِه.

ولـمّا استولَى سُليمانُ والبربرُ على قُرطُبَةَ في هذه الدّولةِ الثانية، كان منهم الحاجبُ والوزير، فكان سُليمانُ هذا أوّلَ دولةِ البرابر بقُرطُبة وقد خُتمت دولةُ بني أُميَّةَ بالأندَلس، فكان مبلَغُها مئتي سنة وثمانيةً وستّين سنةً وثلاثةً وأربعينَ يومًا.

وعندَ دخولِه قُرطُبَةَ أتَى إلى حَبُّوس بن ماكْسِن رجُلٌ من أهل قُرطُبة، فعرَّفه بقاتل أخيه، فركِبَ في بعض أصحابِه ودخَل المدينةَ وأهلُها ينظُرونَ إليه نَظَر الـمَغْشيِّ عليه منَ الموت، حتّى أتَى إلى دارِ قاتل أخيه فاستخرَجَه وقتلَه وأضرَم دارَه نارًا وحرَّقَها، ووجَد له مالًا فأخَذه، ومن جُملة ما وَجَدَ له أربعَ عشْرةَ جاريةً وفرُشٌ كثيرةً وسلاحٌ وافرة، واستخْرَجَ أخاه فما وجَد إلَّا عظامَه وقد أُكِل لحمُه، فقال: والله لا كان عندي أمانٌ لعبدٍ من عبيد بني أُميَّةَ أبدًا، فخافَه الناسُ وهرَبَ كثيرٌ منهم وأسلَموا ديارَهم وأموالَهم فاحتَوى البربرُ عليها واقتسموا البلدَ بينَ أنفُسِهم ومَلكَوه لا يُنازعُهم فيه أحدٌ إلّا قَتَلوه، ولا يمتنعُ عليهم موضعٌ إلّا حرَّقوه وخرَّبوه.

قال ابنُ حَمادُه: ولـمّا استَوْلى البربرُ معَ سُليمانَ على قُرطُبة خاف العبيدُ العامريُّونَ على أنفُسِهم فهَرَبوا إلى شرقِ الأندَلُس فاستولوا على بَلَنْسِيَة وشاطِبَةَ ودانيةَ وغيرهم[1] على ما سيأتي مفسَّرًا في موضعِه.

وفي سنة أربع وأربع مئة: قَتَل عليُّ بن حَمُّود قاضيَ سَبْتَةَ محمَّدَ بنَ عيسى والفقيهَ ابنَ يَرْبُوع كبيرَها، وكان سببُ قَتْلِهما أنه لـمّا همَّ بالقيام على سُليمانَ المستعينِ وخَلْع طاعتِه وَجَّه المستعينُ مَن يتطلَّعُ على أخبارِه فاتُّهم أنَّ القاضيَ خاطَبه بذلك فأمَرَ بقتلِه، ولـمّا عزَم عليُّ بن حَمُّود على الخروج من طاعة المستعين خاطَب أخاه فهرَب عن قُرطُبَةَ واحتَلَّ الخضراء.

---

(١) هكذا في الأصل.

وفي هذه السنة: كَفَّ البربرُ عن أهل قُرطُبة.

وفي سنة خمس وأربع مئة: قام ثائرٌ بشرق الأندَلس من بني أُميَّةَ اسمُه عبدُ الله ويُعرَفُ بالـمُعَيْطيّ، وكان بقُرطُبَة، فخرَجَ في الفتنة التي ذكَرْناها فقصَدَ إلى مجاهدٍ العامريِّ وقد كان استَحوَذَ على مدينة دانِيَة ومَعه خلقٌ كثير، وكان لا يدعو لأحد، فاجتمع مجاهدٌ ومَن معَه على أنْ أقاموا الـمُعَيْطيَّ هذا خليفةً يُصدِرون عن رأيه، فبايعوهُ وسمَّوهُ أميرَ المؤمنين في جُمادى الآخِرة من السنة[1]؛ حكاه الرقيقُ في كتابِه، قال: فأقام هذا الـمُعَيْطيُّ بدانِيَةَ مَع مجاهدٍ ومن انضَمَّ إليه نحوَ خمسة أشهر ثمَّ أقْلع مجاهدٌ معَه إلى مَيُورْقَة، ثمَّ بعَثَ الـمُعَيْطيُّ مجاهدًا إلى سَرْدانِيَةَ في مئة وعشرينَ قطعةً كبارٍ وصغار، ففتح مجاهدٌ سَرْدانِيَة.

وفي هذه السنة: خرَج عليُّ بن حَمُّود من سَبْتَةَ إلى مالَقة.

قال الـمُظفَّريُّ في كتابِه: لـمّا خرَج عليٌّ عن طاعة المستعين أخرَج كتابًا نَسَبَه إلى هشام بن الـحَكَم يقولُ فيه: انقِذْني من أسرِ البرابرِ والمستعين وأنت وليُّ عهدي، ووَجَّه به إلى حَبُّوس الصُّنهاجيِّ وإلى خَيْرانَ العامريّ، فقال له: انهَضْ إلى مالَقة وبها يتمُّ أمرُنا، فأقبَلَ إليها بالقطائع والعساكر فقَتل قائدَها واستولَى عليها[2].

وفي سنة ستٍّ وأربع مئة: فتحَ مجاهدٌ سَرْدانِيَةَ معَ شِيعة الـمُعَيْطيِّ القائم معَه، وأسَر فيها خَلْقًا كثيرًا من الرُّوم.

وبلَغَ المستعينَ أنَّ مجاهدًا أقام عليه خليفةً، فاستَعظَم ذلك، إلى أنْ بلَغَه قيامُ عليّ بن حَمُّود عليه فسُقِط في يدِه، وجاءه عليُّ بن حَمُّود في جموعِه معَ خَيْرانَ وغيرِه فخرَج عليهم سُليمانُ فهزَموه وقَتلوا بعضَ أصحابِه وقَبَضوا عليه وعلى أخيه وسِيقوا أُسارى إلى عليِّ بن حَمُّودٍ فدخَل بهم قُرطُبة[3].

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩٠.

(٢) بعض هذا الخبر في نهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٠.

(٣) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩٠.

مقتلُ سُليمانَ المستعينِ بالله

وذلك أنه لـمّا دخَلَ عليُّ بن حَمُّود قصرَ قُرطُبة طمِعَ أن يجدَ هشامًا المؤيَّدَ بالله حيًّا فلم يوجَدْ، وذُكر أنه قُتل، وعُرِض عليه قبرُه، فأخرَجَه ثمَّ دفَنَه، ثمَّ أخرَجَ سليمانَ فضرَبَ عنُقَه بيدِه صبرًا فظهَرَ منه جزَعٌ شديدٌ عندَ ملاحظة السّيف خارَتْ منه طِبَاعُه، ثمَّ ضُرِبت عُنُقُ أخيه عبد الرحمن ثمَّ عُنُقُ أبيهما الشّيخ، ثمَّ جُعلت رؤوسُهم في طَسْت وأُخرِجت يُنادَى عليها: هذا جزاءُ من قَتَل هشامًا المؤيَّدَ، ثمَّ رُدَّت الرّؤوس الثلاثةُ ونُظِّفت وطُيِّبت، وقد كانت جُمِعت رؤوسُ البرابرةِ المقتولينَ في الوقعة في قُفَّة، وجُعل رأسُ أحمدَ بن الدّبِّ في أعلاها وعُلِّقت في آذانِهم رقاعٌ بأسمائهم، وكانت تُحمَلُ في المحلَّة من مضرِبٍ إلى مضرب، وعَجِب الناسُ منَ اجتماع رؤوس ضاقت عنها أرضُ الأندَلس - برَحْبِها وشَمِلَها شَرُّها وأذاها طُرًّا - في قُفَّة ضيّقة، والأمرُ لله العليِّ الكبير[١].

وحُكِي أنَّ والدَ سُليمانَ المستعين حين عايَنَ قتْلَ ابنَيْه بينَ يدَيْه قال له عليُّ بن حَمُّود: أهكذا يا شيخُ قتلتُم هشامًا؟ قال: لا والله ما قتلناه، ولا هو إلَّا حيٌّ يُرْزَق، فحينَئذٍ عجَّل علي بقتلِه وكان لم يتلبَّسْ بشيءٍ من أمور ابنِه[٢].

وحَكَى الرّقيقُ في كتابِه أنَّ عليًّا حين دخَل القصرَ بعَثَ عن سليمانَ بأن يُحْضِرَ هشامًا، فقال له: إنَّ هشامًا قتَلَه ابني محمَّدٌ معَ الوزير أحمدَ بن يوسُف بن الدّبّ، ثمَّ قتَلَه بمحضَرِ البربرِ والأندَلس، وقتَلَ أباه وأخاه.

بعضُ أخبارِ المستعينِ بالله وسيره

قال ابنُ حيَّان: كان مُلكُه بقُرطُبَةَ وغيرِها أوَّلًا وآخِرًا ستَّ سنينَ وعشَرةَ أيَّام كلُّها شِدَادٌ نِكراتٌ كريهاتُ المبدأ والفاتحة لم يُعدَمْ فيها حَيْف ولا أُمِنَ فيها خوف لتغيُّرِ السِّيرة واشتعال الفتنة، دولةٌ كفاها ذمًّا أنْ أنشَأها شانئُه ووِزرُها دبٌّ فتمخَّضت عن الفاقرةِ الكبرى.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٠-٢٧١.

(٢) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧١.

وكان سليمانُ أديبًا شاعرًا ماهرًا، في ذلك قال ابنُ بسَّام رحمه الله[1]: كان المستعينُ بالله ممّن مُدَّت له في الأدبِ غايةٌ وقفَ دونَها أهلُ الآداب، ورُفعت له في الشعرِ رايةٌ مشَى تحتَها كثيرٌ من الشُّعراءِ والكُتَّاب، وهو أحدُ مَن شَرُف الشعرُ باسمِه، تَصرَّف على حُكمِه، غيرَ أنَّ أيَّام تلك الفتن ألْوَتْ بذِكرِه، وأيدي تلك الحربِ الزَّبُون طوَتْ جُملةَ أدبِه وشعرِه، معَ قعود أهل الأندَلس يومَئذٍ عن البحث عن مناقبِ عظمائهم، وزُهدِهم في الإشادة لـمرَاتبِ زعمائهم، قال: ولم أظفَرْ له إلَّا بقطعةٍ عارَضَ بها هارونَ الرّشيد، فتعشَّقَتْ بها الكؤوس، وتهادَتْها الأنفاسُ والنفوس، وقد أثبتُّ لك القطعتَيْنِ لترى الحقَّ وتعرِفَ الفرق، قال الرّشيد [من الكامل]:

مَلَكَ الثلاثُ الآنِسَاتُ عِنانِي ... وحلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ
ما لي تُطاوعُني البريَّةُ كلُّها ... وأُطيعُهنَّ وهُنَّ في عِصْيانِ
ما ذاك إلَّا أنَّ سُلطانَ الهوى ... وبهِ قَوَيْنَ أعزُّ من سُلطاني

وقال المستعين [من الكامل]:

عجبًا يهابُ الليثُ حدَّ سِنانِ ... وأهابُ لحْظَ فواترِ الأجفانِ
وأُقارع الأهوالَ لا متهيِّبًا ... منها سوى الإعراضِ والهجرانِ
وتملَّكتْ نفسي ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوجوهِ نواعمُ الأبدانِ
ككواكبِ الظَّلماءِ لحنَ لناظرٍ ... من فوقِ أغصانٍ على كُثْبانِ
هذي الهلالُ وتلك بنتُ المشتري ... حُسْنًا وهذي أُختُ غُصْن البانِ
حاكمتُ فيهنَّ السُّلوَّ إلى الصِّبَا ... فقضَى بسُلطانٍ على سلطانِ
فأبَحْنَ من قلبي الحِمَى وترَكْنَني ... في عزِّ مُلكي كالأسيرِ العاني
لا تعذِلوا مَلِكًا تذلَّلَ للهوى ... ذلُّ الهوى عزٌّ ومُلْكٌ ثانِ

(١) الذخيرة ١/ ٤٦-٤٧.

مـــا ضرَّ أنّي عبـــدُهُنَّ صـــبابةً　　وبنـــو الزمـــانِ وهـــنَّ مـــن عُبْـــداني
إن لم أُطِـعْ فـيهنَّ سـلطانَ الهـوى　　كَلَفًـا بهـنَّ فلـستُ مـن مـروانِ

ذكْرُ الدّولةِ الـحَسَنيَّة الـحَمُّوديَّة(١)

خلافةُ عليٍّ بن حَمُّودٍ الـحَسَنيِّ رحمه الله

نسبَهُ: عليُّ بن حَمُّود بن مَيْمونِ بن حمُّود(٢) بن عليّ بن عُبَيد الله(٣) بن [عُمر بن](٤) إدريسَ بن إدريسَ بن عبد الله بن حَسَن بن الحَسَن بن عليّ بن أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه، وهُو أوَّلُ ملوكِ بني هاشم بالأندَلس.

لقَبُه: الناصرُ لدين الله.

كُنْيتُه: أبو الـحَسَن.

أُمُّه: البيضاءُ بنتُ عمِّ أبيه.

عُمُرُه: أربعٌ وخمسونَ سنة.

خِلافتُه: سنةٌ واحدة وتسعةُ أشهرٍ وتسعةُ أيّام، بُويعَ له بقُرطُبة يومَ الأحد لثمانٍ بقينَ من المحرَّم سنةَ سبع وأربع مئة، وقُتل لليلتَيْن خَلَتا من ذي القَعْدة سنةَ ثمانٍ وأربع مئة وكان أصغرَ من أخيه بأربعة أعوام.

صفتُه: أسمرُ أعيَنُ تنسَدُّ عيْنُه الواحدةُ المرَّةَ بعدَ المرَّة، وكان أنجلَ نحيفَ الجسم طويلَ القامة، حادَّ الذِّهن عازمًا حازمًا.

قاضيه: أبو المطرِّف الحصَّارُ، رحمه الله.

---

(١) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٢٦٩، والمعجب ٩٨، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣١.

(٢) في نهاية الأرب: «أحمد» وهو صحيح أيضًا لأن حَمّودًا اسمه أحمد، كما في جمهرة ابن حزم ٥٠.

(٣) في نهاية الأرب: «عبد الله» وما هنا هو الصواب، وهو الموافق لما في جمهرة ابن حزم ٥٠.

(٤) زيادة متعينة من جمهرة ابن حزم ٥٠، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٠، ولا يستقيم النسب من غير هذا الاسم.

ولـمّا دخَل القصرَ أخرجَ هشامًا من قبرِه وشُهِد أنه هشامٌ بعينِه واسمِه وسليمانُ يتبرَّأُ له من دمِه ولم يكنْ في جسَدِه شيءٌ من أثرٍ... عليه فدُفن بجانبِ أبيه، وكان هشامٌ يقول برموزِ الملاحم وكُتُب الـحِدْثان، وخامر نفسه قائمٌ بسَبْتَةَ يملِكُ الأندَلس أوّلُ اسمِه عين، فلم يزَلْ مرتقِبًا لظهورِه إلى أن وَلِي عليٌّ بن حَمُّودٍ سَبْتة، فكتَبَ إليه بعهدِه لرِفعة بيتِه وبُعدِ صِيتِه، فكان منه بالأخْذِ بثأرِه ما تقدَّم ذكرُه، فإن يكنْ ذلك كذلك فهشامٌ على مشهورِ عجْزِهِ بَذَّ من كايَدَ الأعداء بغيرِه من منكوبي الملوك بها لا شيءَ فوقَه ممَّا أدرَكَ به ثأرَه بعدَ هلاكِه.

ولـمّا وصَل عليٌّ بن حَمُّود من سَبْتَةَ إلى مالَقة أظهرَ أنه ما وصَل إلّا لنُصرة هشام، فانحاشَ إليه جماعةٌ من الناس وأتاه خيرانُ الصَّقْلبيُّ وزاوي بن زِيري وحَبُّوسُ بن ماكْسِن بن زيري وإخوتُه وبنو عمِّه الصُّنهاجيُّونَ، فعَظُم شأنُه وقوِيَ أمرُه، وحاربَ بهم سليمانَ الذي كان البربرُ أقاموه خليفةً، فهزَمه وقَفَا أثرَه، وخرجَ إليه مَن كان بقُرطُبة، وحصَل سليمانُ في ثِقافِه، ثمَّ دخَل القصرَ وتسمَّى بأمير المؤمنين.

واستمرَّ عليُّ بن حَمُّود معَ أهل قُرطُبَةَ مدَّةً من ولايتِه، ثمَّ آنَسَ منهم الكراهيَةَ لدولته، ولـمّا صارتِ الخلافةُ له قَهَرَ البَرابرةَ، حتَّى صار أقلُّ الرعيَّة يرفَعُ أعيانَهم إلى الـحُكّام بما شاء من وجوهِ الدَّعاوى، فتَجري عليهمُ الأحكام، فبَرِقَت يومَئذٍ للعدل بارقةُ خُلَّب لم تكَدْ تقِدُ حتَّى خَبيت. ومن بعضِ ما جرى في مجلسِه من مباشرتِه إقامةَ الحدودِ بنفسِه: أنه قُدِّم إليه عصابةٌ من البربر الأكابر في خبرٍ أيِّم تجاوزَت حدَّ النَّكال، فأمَرَ بضربِ أعناقِهم وجماعةٌ من وجوه قبائلِهم وعشائرِهم ينظرونَ إليهم ولا يَجسُرونَ عليه في شَفاعة، وبهذا المجلس وغيرِه ما فُتِن أهلُ قُرطُبَةَ بعليّ بن حَمُّود أشدَّ فتنة، وضَرَبَ عنُقَ أحد البرابرة على حِمْل عنبٍ قال: أخذتُه كما يأخُذُ الناس، فأمَرَ به فقُتل وطيف برأسِه بسائر البلد. وكان... السخاء والشجاعة... أخبراه في بَدْءِ أمره.

وفي سنة سبع وأربع مئة: قام المرتضَى بشَرْق الأندَلس، وهو: عبدُ الرحمن[1] بن محمَّد بن عبد الله ابن الناصِر، فخاف منه وانقلَبَ عن التجمُّل الذي كان يُظهِرُه لأهل

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧١.

قُرطُبة وأغْرَمَهم ضروبًا من المغارم وعزَم على إخلائها وإبادة أهلِها، ولا يكونُ فيها خليفةٌ أبدًا من الـمَرْوانيّين. وكان سببُ قيام المرتضى أنَّ خيرانَ الفتى لـمّا دخَل قُرطُبة معَ عليّ بن حَمُّود كان طامعًا أن يجدَ مَوْلاه هشامًا حيًّا، فلمّا لم يجدْه أظهَرَ خلافَه، وفهِمَ عليٌّ ذلك منه، فأراد قتلَه، ففرَّ بنفسِه إلى شرقِ الأندَلس واجتمَع عليه خَلْقٌ وقدَّم المرتضى[1].

وفي سنة ثمانٍ وأربع مئة: كان مقتلُ عليّ بن حَمُّود رحمه الله، وذلك أنَّ صَقالبتَه قتَلوه بموضع أمْنِهِ في حمَّام قصرِه، وكانوا ثلاثةَ صِبيانٍ أغمار، منهم: مُنَجحٌ وصاحباه[2]، وسدُّوا بابَ الحَمّام عليه وتسلَّلوا، فلم يُـحِسَّ أحدٌ بهم، واستطال نساؤه بقاءه فدخَلوا عليه ودمُه يسيل، فصَحَّ خبرُ مقتلِه. وبعَثَ زَناتةُ إلى أخيه القاسم من إشبيليَةَ فخافَ أن تكونَ حِيلةً عليه، فبعَثَ مَن كشَف عنه وتحقَّقه، ثمَّ انكفَأ إليه وأعلَمه، فلحِقَ القاسمُ بقُرطُبة وأخرجَ إليه جسَدَه فصلَّى عليه وأنفَذَه إلى مدينة سَبْتة فدُفن بها، وفرَّ القاتلونَ ولم يوجَدْ منهم غير صبيَّيْنِ عُذِّبا بأنواع العذاب ثمَّ قُتلا وصُلِبا على جَسْر قُرطبةَ[3].

بعضُ أخبارِ عليِّ بن حَـمُّود وسِيَرِه

بويع عليُّ بن حَمُّود ببابِ السُّدَّة من قصرِ قُرطُبة ثانيَ اليوم الذي أُخِذ بثأرِ هشام المؤيَّد، ولم يتخلَّفْ عن بيعتِه إلى الغد، وتسمَّى من الألقابِ السُّلطانيَّة بالناصِر لدين الله، لقبٌ تقدَّمه به غيرُه. وتقَدَّم من القهر للناس والغَلَبة لهم بما خامَرَ عقولَهم من هَوْل سَطْوتِه، لا سيَّما برابرةُ العسكر، حتَّى تبيَّن أنَّهم أطوعُ الناس لمن أخافهم.

وجلسَ عليٌّ بنفسِه لمظالم الناس وهو مفتوحُ الباب مرفوعُ الـحِجاب يُقيمُ الحدودَ بنفسِه لا يُحاشي أحدًا من أكابرِ قومِه، فانتشَر أهلُ قُرطُبة في الأرض ذاتِ الطُّول والعرض فخانَهم الأملُ عمَّا قليل وارتُكِسوا في المحنة ووقعوا في عظيم بليَّة.

وكان عليُّ بن حَمُّود تلقَّاعةً[4] لا يكادُ يفتحُ عينَه على شيء يَستحسنُه إلَّا أسرعتِ

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧١-٢٧٢، والمعجب ٩٨، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٠.

(٢) في الأصل: «وصاحبيه» ولا تستقيم نحوًا.

(٣) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٤) التلقاعة: الذي يلقع الناس بعينه، أي: يصيبهم بها، كما في معجمات اللغة.

الآفةُ إليه، له في ذلك نوادرُ غريبة، [وذُكر أنه][1] قال للنفيسةِ عندَه من نسائه: واري محاسنَكِ عنّي ما استطعتِ، فإنّي شاجٍ من عيني عليك، وأنا أُحبُّ الاستمتاعَ بك، وانقَلبَ سريعًا عن التجمُّل الذي كان يُظهِرُه لأهل قُرطُبة وانصرَف إلى حزبِه البربريّ، فآثَره عليهم لـمّا أحسَّ منهم الميلَ إلى الخليفةِ المرتضى الذي أقام خيرانَ عليه فوقعَ أهلُ قُرطُبَةَ في حالِهم في مدَّةِ سليمانَ منَ استطالتِهم عليهم، وصَبَّ على أهل قُرطُبة ضروبًا من المغارِم وانتزَعَ السلاحَ منهم وقبَض دورَهم وقبَض أيديَ الحكَّام عن إنصافِهم وأغْرم عامَّتَهم وتوصَّل إلى أعيانِهم بقوم من شِرارِهم، ففتَحوا لهم أبوابًا من البلايا أهلكوا بها الأُمَّةَ، وتقرَّبوا إليه بالسِّعاية فيهم، وصار شطرُ الناس أشراطًا على سائرِهم قلَّما تلقَى أحدًا إلّا بوكيلَيْنِ عليه، حتّى كان... [2] بدَوْا للأبصار، وأُخِذت على الناس الأقطار، وأظلَمت الدّنيا وأبْلَسَ أهلُها وغَشِيَهم من الله ما غَشِيَهم، فلزِموا البيوتَ وانطَمروا في بطونِ الأرض، حتّى قلَّ بالنهار ظهورُهم وخَلت أسواقُهم، فإذا دَنا المساءُ وكفَّ الطلبُ عنهمُ انكشَفوا إلى وقتِ الظلام لقضاء[3] حاجتِهم.

وكان معَه جماعةٌ من الكُتَّاب[4]، منهم: أبو الـحَزْم بنُ جَهْوَر وأحمدُ بن بُرْدٍ وغيرُهما، فهذه جملةٌ من أخبارِه في حالَتَيْ صَلاحِه وفسادِه.

وقد مدَحَه جماعةٌ من الشّعراء، فمن قولِ القَسْطَلّي فيه من قصيدة [من المتقارب]:

لعلَّـكِ يـا شـمسُ عنـدَ الأصـيلْ — شـجيتِ بـشَجْو الغريـبِ الـذليلْ
فكـوني شـفيعي إلى ابـن الـشّفيع — وكـوني رسُـولي إلى ابـن الرسُـولْ
لعـلَّ عواقبَـهُ أن تَـنِمْ — فتُهْـدِي الغريـبَ سـواءَ الـسبيلْ
إلى الهاشـميِّ إلى الطـالبيِّ — إلى الفـاطميِّ العَطـوفِ الوَصـولْ

---

(١) ما بين الحاصرتين فراغ في الأصل، وما بينهما منا.

(٢) فراغ في الأصل قدر ثلاث كلمات.

(٣) مطموسة في الأصل.

(٤) كذلك.

خلافةُ القاسم بن حَمُّود الـحَسَنيِّ رحمه الله[1]

نسَبُه: قد تقدَّم في خلافة أخيه.

لقَبُه: المأمونُ.

كُنْيتُه: أبو محمَّد.

أُمُّه: أمُّ أخيه وهي البيضاءُ القُرَشيَّة.

عُمُرُه: نيِّفٌ وسبعونَ سنة.

خلافتُه: وَلِي مرَّتين، الأولى: وَلِيَ يومَ الثلاثاء لأربع خَلَوْنَ من ذي القَعدة، وهو الثالثُ من موتِ أخيه، فبويعَ ليلةَ السبت لثمانٍ بقِينَ من شهر ربيعٍ الآخِر سنةَ اثنتي عشْرةَ وأربع مئة.

دولتُه: كانت إلى أنْ فرَّ وخَلَفَه ابنُ أخيه يحيى ثلاثَ سنين وخمسةَ أشهرٍ وعشرينَ يومًا، والدولةُ الثانية سبعةُ أشهر وثلاثةُ أيَّام بعدَ ابن أخيه يحيى، الجميعُ أربعُ سنينَ وثلاثةٌ وعشرونَ يومًا، وعندَ ذلك انقَرضت دولةُ بني حَمُّود المتَّصلةُ بقُرطُبة، وكانت سبعَ سنين وخمسةَ أشهرٍ غيرَ يومَيْن.

وتوفِّي محبوسًا عندَ ابن أخيه إدريسَ بن عليّ في شعبانَ سنةَ سبع وعشرينَ وأربع مئة.

صفتُه: أسمرُ أعيَنُ مُصفرُّ اللون طويلٌ أكحلُ خفيفُ العارِضَيْن.

قاضيه: ابنُ الحصَّار قاضي أخيه عليّ.

وفي سنة تسع وأربع مئة: رحَل[2] الـمُرتضَى، القائمُ خليفةً على شرق الأندَلس، وهو: عبدُ الرحمن بن محمَّد المتقدَّمُ ذكْرُه، بمَن تألَّب معَه من الموالي العامريِّينَ وغيرِهم إلى قُرطُبة وأميرُها يومَئذٍ القاسمُ بن حَمُّود، فعرَّجوا به إلى غَرْناطةَ ليبدأوا بحربِ ذلك الفريق من صُنْهاجةَ لِـما عزَموا عليه من الغدر بسُلطانِهم الـمُرتضى المذكور، فأوبَقُوا الجماعةَ وأحلُّوا بها الفاقِرةَ ورَسَا بتلك الوقعة ملكُ الحمُّوديَّة[3].

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٤، والمعجب ١٠٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٤.

(٢) مطموسة في الأصل.

(٣) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٢.

مقتَلُ المرتضَى المذكور

قال ابنُ حيَّان: ولـمّا احتلُّوا غَرناطةَ وأميرُها يومَئِذٍ زاوي بنُ زِيري الصُّنهاجيُّ، ارتاعتَ صُنهاجة فاحتَوَشوا بأميرِهم زاوي بن زِيري كبشِ الحروب، ومهوِّنِ الكُروب، فأحكَم لهُم التدبيرَ والدولةُ تُسعِدُه، والمقدارُ يُنجِدُه، وحُمِلت عنه في تلك الحروبِ حكاياتٌ بديعة، فذُكر أنَّ الـمُرتضَى لـمّا نازَلَهُ خاطبَه بكتابٍ يَدعوهُ فيه إلى طاعتِه، وأجْمَلَ فيه موعدَه، فلـمّا قُرِئ على زاوي قال لكاتبِه: اكتُبْ على ظهرِ رُقعتِه ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورةَ [الكافرون: ١-٢] لا تزِدْ، فلـمّا بلَغَت المرتضَى أعاد عليه كتابَ وَعِيد، فلـمّا قُرِئ على زاوي قال: ردُّوا عليه ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ١-٣] لا تزِدْه حَرْفًا، فازدادَ المرتضَى غَيْظًا ويئسَ منه وناوَشَه القتالَ، فاقتَتلوا أيّامًا إلى أنِ انهزَم أهلُ الأندَلس وطاروا على وجوهِهم مُسْلِموهم وإفْرَنجُهم الرّومُ لا يَلْوي أحدٌ على أحد، والخيلُ تَطرُدُهم في تلك المضائق، وصُرع الـمُرتضى في ضَنَكِ ذلك المأزق ووقَع صُنهاجةُ من نَهْب محلَّتِه على ما لا كِفاءَ له اتّساعًا وكثرةً ظلَّ الفارسُ يجيءُ منَ اتّباعِه المنهزمينَ ومعَه العشَرةُ الأبغُل فما دونَ ذلك مُوقَرةً بفاخِرِ النَّهب، وحِيزت فَساطيطُ الأمراءِ ومَضاربُ الرؤساء الذين كانوا في جَمْع ذلك العسكر المخذول، وسَبَق سُلطانُهم زاوي إلى سُرادِق الخائن الـمُرتضى فحازَه بما حَواه مـمّا كان الأمراءُ جَمَعوا له وحَمَلوه به، وكان أُمراؤه والوجوهُ من أهل بيتِه قد تَناغوا وجاءوا مجيءَ من لا يشُكُّ في الظَّفَر، فساقوا معَ أنفسِهم رفيعَ الحِلْية كي يتباهَوْا بذلك في قُرطُبَةَ إذا دخَلوها فخابوا وخَسِروا أموالَهم.

وأوَّلُ من انهزَم من ذلك العسكر منذرُ بن يحيى وخَيْرانُ الصَّقْلَبيُّ، وكان مُنذرٌ قد أوقَع في نفوسِ مَدَدِه رجال الإفْرَنجة الرعبَ من غَدْر الموالي العامريِّين، فشَغَلَ بذلك بالَهم، فلـمّا انهزَم لم يَعرِفوا السرَّ، وأجْفَل منذرٌ في أصحابِه الثَّغريِّين، فمرَّ بسُليمانَ بن هُودٍ وهو مُثبتٌ للإفْرَنجة لا يَريمُ موقفَه، فصاحَ به: النجاةَ يا ابنَ الفاعلة فلستُ أقِفُ عليك، فقال له سليمانُ: جئتَ بها والله صَلْعاءَ وفضَحتَ أهلَ الأندَلس، ثمَّ انقَلع وراءه ببقيَّةِ عسكرِه، وانقَلع أيضًا خَيْرانُ برجالِه، وصَبَر العامريُّونَ قليلًا حولَ صاحبِهم المرتضَى

على أحرَّ من الجمر، وهو ـ مع جُبْنِه ـ حسَنُ الثّبات، حتى استَحرَّ القتلُ في أصحابِه وصُرِع منهم كثيرٌ حولَه فانكشَفوا عنه، وخافَ أن يُقبَضَ عليه فوَلَّى فوضَعَ عليه خَيْرانُ عيونًا لئلَّا يَخفَى أثرُه، فلحِقُوه بقُرب وادي آشٍ وقد أمِنَ على نفسِه فهجَموا عليه فقتَلوه وجاءوا برأسِه إلى خَيْرانَ ومُنذرٍ وقد لِحقا بالمرِيَّة، فتحدَّث الناسُ أنّهما اصطَبَحا على رأسِه سُرورًا بمهلِكِه وتناولاهُ من قبيح الذِّكر عَبَثًا بما لم يكنْ أهلًا له، وجعَلا يقولان: يا حسَن فاعرِضْ جُندَك، كلمةً تُحُدِّثَ بها عنهما.

فمضَى الـمُرتضَى على هذه السّبيل ونَجا من تلك المحلَّة أخوه أبو بكرٍ هشامٌ ولِحقَ بالـمَوالي العامريِّينَ فزَهِدوا فيه، فاستقرَّ عندَ ابن قاسم صاحبِ حِصن ألبُنْت، وكان شيعةَ المروانيَّةِ على سوءِ ما أسلَفوه معَ سَلَفِه، فأجارَهُ وضيَّفَه، ولم يزَلْ ضيفًا عندَه إلى أن كان وقتُ تقديمِه للخلافة، فذكْرُ ذلك يأتي في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

قال ابنُ حيَّان: فحلَّ بهذه الوَقِيعة على جماعةِ الأندلس مصيبةٌ أنْسَتْ ما قبلَها، ولم يجتمعْ لهم جَمْعٌ بعدُ، وأقرُّوا بالإدبار وباءوا بالصَّغار.

قال: وورَدَ على القاسم بقُرطُبَةَ كتابُ زاوي بشَرْحِها معَ نصيبِه من الغنيمة وفي جُملتِها سُرادقُ المرتضَى، فضَرَبه القاسمُ على نهرِ قُرطُبة، وغشِيَه من النظَّارة جُملةٌ من عِلْيَة الناس وقلوبُهم تتقطَّعُ حسرةً منه، فركَدَت ريحُ المروانيَّةِ في ذلك الوقت وقُتل مَن نَجَم منهم بأطرافِ الأرض، وأيِس الناسُ من دولتِهم، وألْوى الـخُمولُ بجُملتِهم فتقطَّعوا في البلاد ودخَلوا في غِمارِ الناس وامتُهنوا واستُهينوا، ولـهَوْلِ ما عايَنَه زاوي منَ اقتدارِ أهل الأندَلس في أيَّام تلك الحروب وجَعاجِعِهم به وإشرافِهم على التغلُّبِ عليه هان سُلطانُه عندَه بالأندَلس، فخرَجَ عنها نظرًا في عاقبةِ أمرِه ودَعا جماعةَ قومِه لذلك فعصَوْه، وركِبَ هُو البحرَ بمالِه وأهلِه فلحِقَ بإفريقيَّةَ وطنِه.

وكان من أغربِ الأخبار في تلك الدوْلة الحمُّوديَّة انزعاجُ ذلك الشّيخ زاوي بن زِيري عن سُلطانِه بإثْرِ الفتح العظيم الذي كان لهُ على المرتضَى وعُبورُه البحرَ، فصَمَّم في الرحيل بعدَ أن استَأْذنَ ابنَ عمِّه صاحبَ إفريقيَّةَ الـمُعزَّ بنَ باديسَ في ذلك، فأذِنَ له، وحرَّض جميعَ بني عمِّه بالقَيْروان على رجوعِه إليهم بحالِ سنِّه وتقريبِهم يومَئذٍ من مثلِه

من مَشْيختِهم، لمهلكِ جميع إخوتِه وحصُولِه هو على قُعْدد بني مُنادٍ الغريبِ شأنُه في ألّا يُحجَبَ عنه من نسائهم زُهاءُ ألفِ امرأةٍ في ذلك الوقت من بناتِ إخوتِه وبناتِهنَّ وبني بَنيهنَّ، فرحَل عن الأندَلس سنةَ ستَّ عشْرةَ وأربع مئة فاستقلَّت به سفُنُه من مَرْسَى الـمُنكَّب وفي شُحنتِها من ذخائرِ الأموال[1] ما يفوتُ الإحصاءَ كثرةً لعظيم ما حازَه أيّامَ الفتنة، فارتفَع شأنُه بالقَيْروان وأقرَّه المعزُّ في دولتِه وكنَفِه.

قال ابنُ حيَّان: وحُدِّثتُ في السببِ الـمُزعج للذي كان لزاوي يومَئذٍ في ارتحالِه، وذلك أنه لـمّا انهزَم المرتضَى قال زاوي لقومِه: كيف رأيتُم ما قد خَلَصنا منه؟ فقالوا: عظيم، قال: فلا تتناسَوْه وتُغالِطوا أنفُسَكم، إنَّ انهزامَ مَن رأيتُموهُ لم يكنْ عن قوَّةٍ منَّا، إنَّما حدَّه معَ القضاء غدرُ ملوكِهم لسُلطانِهم ليُهلِكوهُ كما فَعلوا، فإنّي رأيتُ ذلك من يوم نزولِهم، ولذلك كنتُ أُقوّي أنفُسَكم، وقد نجَّانا اللهُ منهم ومضَى القومُ ولم يقدِّموا إلّا رئيسَهم، واستخلافُه هيّنٌ عندَهم، ولستُ آمَنُ عَوْدَهم جُملةً إليكم فيما بعد، فلا يكونَ لنا قِوامٌ بهم، فالرأيُ الخروجُ عن أرضِهم واغتنامُ السّلامة معَ إحراز الغنيمة والرّجوع إلى الجُملة التي انفصَلْنا عنها كانفينَ للعيال والذُّرّيَّة مُباعِدينَ لِـما وراءنا من زَناتةَ أعدائنا الذين لا يغفُلونَ عنَّا، لا سيَّما وقد قرَفْنا قومَهم ونبَشْنا أحقادَهم المدفونةَ بينَنا، فإنْ فَرَغوا لنا على قلَّة عددِنا أو ظاهَروا علينا الأندَلس، وقَعْنا منهم بينَ لحيَيْ أسد فاصطَلَموننا، وها أنا قد أدَّيتُ لكمُ النّصيحة، وأنا راحلٌ عن الأندَلس، فمن أطاعَني فلْيرحَلْ معي، فلم يساعدْهُ أحدٌ من أهل بيتِه، فرحَل من الـمُنكَّب واستوطَن ابنُ أخيه غَرناطةَ بعدَه وأورَثَها عِقبَه.

قال ابنُ حيَّان: وبلَغَني أنَّ زاويَ استوهَبَ من عليّ بن حَمُّود يومَ قَتْل سليمانَ بن الـحَكَم رأسَه حنَقًا على بني مروانَ الـمُهْدَى إليهم رأسُ زيري والدِه، وأنه أسعَفَه بذلك، فصار عندَه، ونقَلَه من الأندَلس معَه في ذلك الوقت مفتخرًا به على أهل بيتِه، فإنْ يَكُ ذلك حقًّا فزاوي أحدُ مَن أخَذ بالثأر الـمُنيم ودَحَّض العارَ المقيم، وأخبارُ هذا الداهية زاوي بن زِيري كثيرة، ونوادرُ أفعالِه مأثورة.

---

(١) مطموسة في الأصل.

ومـمَّا قيل في القاسم بن حَمُّودٍ حين قُتل الـمُرتضَى[1] [من الطويل]:

لـك الخـيرُ خـيرانٌ مـضَى لـسبيلِه ... وأصـبح مُلـكُ الله في ابـنِ رسُـولِهِ
وقـام لـواءُ الـدَّفع فـوقَ ممنَّـعٍ ... مـن النّـصر جِبريـلٌ أمـام وعيلِـهِ
وأشرَقـت الـدّنيا بنُـور خليفـةٍ ... بـه لاحَ بـدرُ الحـقِّ بعـدَ أُفولـهِ
ولـمّا دعا الـشّيطانُ في الخيـل حِزبَهُ ... وأقبَـلَ حـزبُ الله فـوقَ خيولِـهِ
كتائـبُ مـن صُـنهاجةٍ وزَناتـةٍ ... تضايَقْنَ في عَـرْض الفـضاءِ وطولِـهِ
تقـدَّم خـيرانٌ إليهـا بزَعْمِـهِ ... ليُـدرِكَ مـا قـد فاتَـه مـن ذُحولِـهِ
فأجحَم تحتَ النَّقْع والخيـلُ تـدَّعي ... كـما ازدَلَـف اللّيـثُ الـهِزَبْرُ لغِيلِـهِ
وولَّى وأبقـى منـذرًا مـن ورائـهِ ... يُقـيمُ لأهـل الغـدر عُـذْرَ نكولِـهِ

قال حيَّانُ بن خَلَف: لـمّا بويعَ القاسمُ بن حَمُّود بعدَ ستٍّ ليال من مقتَل أخيه أحسَنَ تلقّيَ الناس وأجمَلَ مواعيدَهم، وأخرَجَ النداءَ في أقطارِ البلد بأمانِ الأحمرِ والأسود وبراءةِ الذمَّة ممَّن تسَوَّر على أحد، وأقرَّ الثلاثةَ الذين فتكوا بأخيه بجريمتِهم ونفَوْا عن جميع الناس الـمُواطأةَ والتدليس، فقتَلَهم القاسمُ لوقتِه وأطفَى النائرةَ بدولتِه، وتنسَّم الناسُ رَوْح الرِّفق، وباشَروا ظِلَّ الأمن، واطمأنَّت بهم الدار، وأمَرَ بإسقاطِ التقوية وأظهرَ البراءةَ منها، وأقرَّ القاضي والحكَّامَ والـخَدَمةَ على منازلِهم.

وزاد كَلَفُ القاسم باتِّخاذِ السُّودان وقَوَّدهم على أعمالِه إلى أن ضعُفَ أمرُه وتسلَّطَت البرابرةُ عليه حتَّى احتَقَروه، فكاتَبَ مُنذرَ بن يحيى في السرِّ يَبثُّه شأنَهم ويَستنهضُه لتقويمِهم، فلم يكنْ فيه فَضْلٌ لذلك، وكان يحيى ابنُ أخيه عليٍّ بالعدوة وأخوه إدريسُ بمالَقة، فلما قُتل أبوهما اتَّفقا لأوَّل وقتِهما على ضَبْط مالَقة، وجعَلَ يحيى أخاه بالعُدوة

---

(١) هذه القصيدة للشاعر عبادة ابن ماء السماء على ما ذكره المقري في نفح الطيب ١/ ٤٨٦. وفي الذخيرة ١/ ١/ ٣٩٦ أن القصيدة لابن الحناط قالها في أبي القاسم بن حمود يصف خيرانًا الصقلبي وقتل المرتضى المرواني.

ليقرُبَ هو من أذى عمِّه القاسم، وكانا يُظهِران مبايعةَ عمِّهما إلى حين انتقال يحيى بن عليّ إلى مالَقة، فاستخَفَّ بعمِّه وسَعَى في... وشَكا القاسمُ أمرَه إلى البرابرة فتثاقلوا عنه وأحبُّوا التضريبَ بينَهما، ولم يَزْل أمرُ يحيى يَقْوى وأمرُ القاسم يضعُف إلى أن فرَّ من قُرطُبة إلى إشبيلَية، وذلك لثمان بقين من ربيع الآخرِ سنة اثنتَيْ عشْرةَ وأربع مئة، فضَبَط البربرُ قصرَ قُرطُبة إلى أن لـحِقَ يحيى ابن أخيه بعد خطوب كثيرة.

خلافةُ يحيى بن عليّ بن حَـمُّود رحمه الله

نسَبُه: تقدَّم في خلافة أبيه.

كُنْيته: أبو زكريَّا، وقيل: أبو محمَّد.

أمُّه: بنتُ عمّ أبيه، اسمُها لبُّونةُ بنت محمَّد بن الـحَسَن بن قَنُّون.

عُمرُه: اثنتان وأربعونَ سنةً ونيّف.

لقَبُه: الـمُعتلي بالله.

دولتُه: الأولى بُويع بقُرطُبة يومَ الاثنين مستهلَّ جُمادى الأولى سنة اثنتي عشْرةَ وأربع مئة بعد عمِّه بتسعة أيَّام، وفرَّ ليلةَ السبت منتصَفَ ذي قَعدة سنة ثلاثَ عشْرة، فكانت ولايتُه الأولى بقُرطُبة سنةً واحدةً وستَّة أشهر ونصفاً غيرَ يوم واحد.

قال حيَّانُ بن خَلَف: فبويع يحيى في التاريخ، واجتَمع عليه الفريقانِ: الأندَلس والبربر من أهل قُرطُبَةَ وأعمالِها خاصَّة، وكانت أمُّ يحيى بنتَ محمَّد ابن الأمير حَسَن بن القاسم المعروفِ بقَنُّون فعُرِف بكَرَم الولادة هاشميَّ الأبوَيْن رابعَ أربعةٍ من أبناءِ القُرَشيَّات من خَلائفِ الإسلام، أوَّلُـهم جدُّه الآخِرُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه وابنُه الـحَسَن بنُ عليّ ثمَّ الأمينُ محمَّدُ بن هارون.

فعرَفَ يحيى هذه الفضيلةَ، وسلَكَ سبيلَ والدِه في التحقُّق بالفروسيَّةِ والـحُبِّ لركض الـخَيْل والخروج للقَنَص، فجانَبَ العصبيَّةَ وآثَر النَّصَفة وطلَبَ السلامة، فطاب خبرُه، إلَّا أنَّ العُجْبَ والكِبْرَ شانا خِصالَه إلى أن خلَّطَ وتبلَّد، وتمرَّست عفاريتُ زَناتة فضيَّقت عليه في التكاليفِ حتَّى اقتصَر بعدما قصَّر، وأخَذ الإعجابُ منه، فكان عاقبةُ أمرِه خُسْرًا.

وكتَبَ له أبو العبَّاس[1] أحمدُ بن بُرْد، واستَوْزَر محمَّدَ ابن الفَرَضيِّ الكاتبَ، فكان أضرَّ شيءٍ على دولتِه، وارتقَب بأهل البيت حلولَ الجنَّة، فقديمًا استَعاذوا بالله من وِزارة السِّفْلة، ووصَل جعفرُ بن فَتْح صاحبُه الأقدمُ وإبراهيمُ ابنُ الإفليليّ كبيرُ الأدباء بقُرطُبَةَ إلى هذا الخليفة يحيى، وسَما في أيّامِه أبو بكرٍ بنُ ذَكْوانَ وغيرُه.

وكان عمُّه القاسمُ بن حَمُّود لـمّا رأى جَوْر البربر وقلَّةَ طاعتِهم خرَجَ من قُرطُبة إلى إشبيلِيَةَ فارًّا منهم وخائفًا، فاستقرَّ بإشبيلِيَة وهُو يُدعَى له بالخلافة ويتسمَّى بأميرِ المؤمنين، فخاطَبَ البربرَ من قُرطُبَةَ إلى ابن أخيه هذا يحيى بن عليّ[2]، وأدخَلوه قُرطُبَةَ وبويعَ بها كما ذكَرْنا وتسمَّى بالخلافة وإمْرةِ المؤمنين وتلقَّب بالـمُستعلي. قال ابنُ حزم: خليفتانِ تَصالحَا، وهو أمرٌ لم يُسمَعْ بأذلَّ منه ولا أدلَّ على إدبارِ الأمور: يحيى بن عليّ بن حَمود بقُرطُبة والقاسمُ بن حَمود بإشبيلِيَة.

وفي سنة اثنتَيْ عشْرةَ وأربع مئة: قام بَجيّانَ على بني يَفْرن محمَّدُ بن عبد الملك الـمُظفَّر بن أبي عامر، خرَجَ إليها بمالٍ كثير كان معَه، وكانت أُمُّه خيالُ يومَئذٍ تحتَ القاسم بن حَمُّود، فأقام فيها مُدَّةً إلى أن مات سنةَ تسعَ عشْرةَ وأربع مئة، وكان يحيى بنُ عليّ هذا الأميرُ بقُرطُبة يتحبَّبَ إلى الناس ويُقرِّبُ منازلَـهم ويرفَعُ مكانَهم ويُجزِلُ العطاءَ لهم ولمن وفَدَ عليه مِن غيرِهم أو مدَحَه بشعر.

وفي سنة ثلاثَ عشْرةَ وأربع مئة: خَلَع البربرُ بقُرطُبة يحيى بنَ عليّ بن حَمُّود بعمِّه القاسم، وفرَّ يحيى بنفسِه لاثنتي عشْرةَ ليلةً خَلَت من ذي القَعْدة، وقُتل بعدَ أن عاد إلى قُرطُبَةَ كما سيأتي خبرُه في دولتِه الثانية إن شاء اللهُ عزَّ وجَلَّ.

دولةُ القاسم بن حَـمُّود ثانيةً بقُرطُبة

دخَل قُرطُبَةَ في دولتِه الثانية يومَ الثلاثاء لاثنتي عشْرةَ ليلةً بقيَتْ من ذي القَعْدة سنةَ ثلاثَ عشْرةَ المذكورة، وسببُ ذلك أنَّ يحيى ابنَ أخيه خرَجَ منها إلى مالَقة، فطَرَقَ

---

(1) هكذا في الأصل، وتقدم أنه يُكنَى أبا حفص (ص٣٢٧)، وكما سيأتي (ص٤٣٥) وهو الصواب، فتنظر الصلة البشكوالية ١/ ٧٦ وتعليقنا عليها.

(2) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٢٧٤، والمعجب ١٠٢، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٤.

عمُّه القاسمُ من إشبيلِيَةَ إلى قُرطُبة وجُدِّدت له البيعةُ بها فبقيَ بها يتسمَّى بأميرِ المؤمنين، ولم يزَل القاسمُ مالكًا قُرطُبَةَ سبعةَ أشهرٍ وأيّامًا إلى أنْ خَلَعَه أهلُ قُرطُبَةَ بإجماع منهم وحصَروه في القصرِ أيّامًا، فخرجَ عنهم إلى الرَّبَض الغَرْبيّ معَ البربر، فحارَبَه أهلُ قُرطُبَةَ نحوَ شهرَيْن حتَّى هزَموه، فخرَج من الرَّبَض بمَن معَه من البربر منهزمًا إلى إشبيلِيَة. نقلتُ هذا من كتابِ الاقتضاب.

وفي سنة أربعَ عشْرةَ وأربع مئة؛ قال ابنُ القطّان: خُلِعَ القاسمُ بن حَمُّود بقُرطُبَةَ يومَ الثلاثاء لتسع بقِينَ من جُمادى الآخِرة منها، وذلك أنَّ البربرَ تسَلَّطوا على أهل قُرطُبَةَ في الأسواق وبرَزوا لقتالِهِم ونَصَبوا الحربَ عليهم، فتقاتَلوا قتالًا شديدًا يومَ السّبت عاشرَ جُمادى الأُولى، ثمَّ سكَنَت الحربُ إلى يوم الخميس بعدَه، وجَرى بينَهمُ الصُّلح في هذه المدَّة، والقاسمُ في القصر يُظهِرُ لأهل قُرطُبة أنَّه معَهم، ثمَّ انتشَرت الحربُ يومَ الـجُمُعة بعدَ الصّلاة إلى عَشِيِّ النهار، فتغلَّب أهلُ قُرطُبَةَ على القصرِ ودخَلوا فيه وخرَجَ القاسمُ عنه وانْحاشَ إليه البربرُ وقاتَلوا أهلَ قُرطُبة، وغُلِّقت أبوابُ المدينة كلُّها فلم يُفتَحْ لها بابٌ مدَّةً من خمسينَ يومًا والقتالُ في كلِّ يوم يتَّصل، وكان البربرُ آلافًا، فطلَبَ أهلُ قُرطُبَةَ أن يفتَحوا لهم الطريقَ وأن يرفَعوا عنهم الاعتراضَ في أنفُسِهم وأهليهم، فأبَوْا من ذلك إلَّا أن يقتُلوهم، وصبرَ أهلُ قُرطُبَةَ على قتالِـهم، ثمَّ إنهم فتَحوا الأبوابَ وصدَموا البربرَ صدمةَ مَن عوَّل على الموت، ففُتح لهم فيهم ومَرَّ البربرُ من قُرطُبة بهزيمةٍ عظيمة. ومرَّ القاسمُ معَهم إلى إشبيلِيَة، وكان بها ابناه: محمَّدٌ والـحَسَن، فغلَّق أهلُ إشبيلِيَة أبوابَها دونَه لكراهتِهم في البربر، وأخرَجوا له ابنَيْه من قصرِها ومَن كان معَهما من البربر، وضَبَطوا بلدَهم.

ونـهَضَ القاسمُ إلى جهة الغَرْب، ثمَّ رحَل منها إلى شَرِيش، وملَكَ إشبيلِيَة القاضي بها محمَّدُ بن إسماعيلَ بن عبَّاد، فحارَبَ يحيى عمَّه القاسمَ بنَ حَمُّود بشَرِيشَ وحاصَرَه بها إلى أنْ حمَلَه معَ بنيهِ مُقيَّدًا إلى مالَقة، فأقام أهلُ قُرطُبَةَ بعدَه إمامًا من بني أُميَّةَ رجاءً أن يُحيِيَ لهم دولةً أُمويَّة، ويأبى اللهُ إلَّا ما يريد، فاختاروا سُليمانَ بن عبد الرحمن ولقَّبوه الـمُرتضَى، فبينَما هم يريدونَ تقديمَه إذ هجَمَ عليهم في المسجد الجامع عبدُ الرحمن بن هشام بن عبد الجبَّار في شِرْذمةٍ من الناس يَدعو إلى نفسِه، فرجَعوا إليه بينَ مُكرِه وراضٍ، وهو أخو المهديِّ محمَّد بن هشام بن عبد الجبَّار.

دولةُ عبد الرحمن بن هشام الـمُستظهِرِ بالله[1]

نسَبُه: عبدُ الرحمن بن هشام بن عبد الجبَّار ابن الناصِر لدين الله.

كُنْيتُه: أبو الـمُطرِّف.

أُمُّه: رُوميَّةٌ اسمُها غاية.

عُمُرُه: ثلاثٌ وعشرونَ سنةً.

لقَبُه: الـمُستظهِرُ بالله.

خِلافتُه: بويعَ يومَ خروج القاسم والبربرِ من قُرطُبة يومَ الثلاثاء السادسَ[2] عشَرَ من رمضانَ المعظَّم سنةَ أربعَ عشْرةَ وأربع مئة، وقُتِل يومَ السّبت لثلاثٍ خَلَوْن من ذي القَعدة من السنة، فكانت خلافتُه سبعةً وأربعينَ يومًا خالصًا.

صفتُه: أبيضُ أشقرُ أعيَنُ أقْنَى، طويلٌ نحيفُ البدَن حسَنُ القدِّ والجسم، وكان أديبًا شاعرًا لبِقًا لَوْذَعيًّا، لم يكنْ في أهل بيتِه أبرعُ منه، وكان قد نقَلَتْه المخاوفُ وتقاذفَتْ به الأسفار، فتحنَّك وتخرَّج فيها.

قاضيه: أبو المطرِّف ابنُ الحصّار قاضي بني هاشم.

مولدُه: عامَ أحدٍ[3] وتسعينَ وثلاث مئة في شهر ذي قَعْدة.

قال ابنُ القطَّان: وقد كان همَّ بالوثوبِ على الخِلافة عندَ انقراض سُلطان القاسم بن حَمُّودٍ بقُرطُبة، وبثَّ دعوتَه فلم يَصحَّ له شيءٌ ممَّا أراد، وتجرَّد الوُزراءُ لطلبِ دُعاتِه وسُجِنوا ولم يَخرُجوا من السِّجن إلَّا يومَ جُلوس صاحبِهم عبد الرحمن هذا للإمارة، وبقيَ هو مُستخفِيًا إلى أنْ أعلَقُوه بالشُّورى عندَ إيقاعها في ذلك الوقت لظهورِ بَراعتِه، فأجمَعوا عليه وعلى سُليمانَ المرتضَى وعلى محمَّدِ ابن العِراقيّ، وتقدَّموا في إحضار الخاصَّةِ والعامَّة في

---

(١) الذخيرة لابن بسام ١/ ٤٨ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٦، والمعجب ١٠٥، والحلة السيراء ٢/ ١٢-١٧، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٥.

(٢) في الكامل والمعجب ونهاية الأرب: الثالث عشر.

(٣) في المعجب ونهاية الأرب: اثنين.

المسجد الجامع لمشاهدةِ مَن يختارونَه من هؤلاءِ الثلاثة للخلافة، فغَدا الناسُ لذلك على طبقاتِهم، وكان أوَّلَ مَن وافَى منهم سليمانُ الـمُرتضَى في أُبَّهةٍ دلَّت على المرادِ فيه، فدخَل والسّرورُ بادٍ عليه، فقدَّمه أصحابُه إلى البَهْو، فأُجلِسَ على مَرْتَبةٍ لا تَصلُح لِسواه، وهُو جَذْلانُ لا يُشكُّ في تتمَّةِ الأمرِ له، ثمَّ غَشِيت القومَ صَيْحةٌ وزَعْقةٌ هائلة ارتَجَّ لها الجامعُ واضطَرَبَ مَن بالمقصورة، وإذا عبدُ الرحمن بنُ هشام بن عبد الجبَّار قد وافَى في خَلْق عظيم من الـجُندِ والعامَّةِ وقد تكنَّفَه أميرا الدائرة: محمودٌ وعَنْبرٌ في رجالِهما شاهرَيْنِ سيوفَهما، فراعَ الوُزراءَ ذلك وألقَوْا للوقتِ بأيديهم، ودخَل عبدُ الرحمن عليهم وقَعَد في المقصورةِ فبويعَ من وقتِه، واستُدعي سليمانُ المرتضَى فجيءَ به مبهوتًا، فقبَّلَ يده وهنَّأه وبايَعَه، وانعقَدت له البيعةُ في الرابع لرمضانَ منَ السنة، وكان أحمدُ بن بُرد الكاتبُ قد تقدَّم في عَقْدِها باسم سُليمان، فبَشَرَ اسمَه وكتَبَ اسمَ عبدِ الرحمن مكانَه، وذلك من أعجبِ العجب، ثمَّ ركِبَ وحمَل معَه ابني عمِّه [سليمانَ وابنَ العراقيّ فاحتبَسهما عندَه وآنَسهما، وظهَرت][(١)] منه لوقتِه عَرامةٌ[(٢)]، [كان فتًى وأيَّ][(٣)] فتًى لو أخطأتْه الـمَتالف.

وكان شيوخُ قُرطُبَةَ الذين كانوا أرادوا تقديمَ سُليمان لـمّا كمُلَ الأمرُ لعبد الرحمن الـمُستظهِر بالله أخَذوا منه أمانًا، ثمَّ لـمّا تمَّ الأمرُ له أخَذَهم وأطبَقَهم وأغْرَمَهم أموالًا، فسَعَوْا عليه من الـمُطْبَق وكاتَبوا صاحبَ المدينة فأجابَهم، واستجابَتْ لهم جماعةٌ من الناس على مذهبِهم، فصاروا إلى الـمُطْبَق وكسَّروا أقفالَه وأخرَجوا منه الشّيوخَ وتغَلَّبوا على القصرِ وأدخَلوا فيه المستكفيَ بالله، وكان قَدَّم على جميع أشغالِه وأعمالِه جماعةً من بقايا بني مروانَ وجماعةً من الأغمار، وكانوا يَذهبُ بهم العُجْبُ، قَدَّمهم على سائر رجالِه فأحقَدَهم أهلُ السياسة فانتقَضَت دولتُه سريعًا.

---

(١) ما بين الحاصرتين من الذخيرة ١/ ٤٩.

(٢) في م: «عزامة»، والعرامة: الشدة، وهي كذلك في الذخيرة.

(٣) ما بين الحاصرتين من الذخيرة ١/ ٤٩

وقد ذكَر ابنُ حَيَّانَ ذلك في كتابِه ثمَّ قال: وهذا زُخرُفٌ من التسطيرِ وُضع على غيرِ حاصل، ومَراتبُ وُضِعتْ على غيرِ طائل، تنافَسها طالِبوها يومَئذٍ بالأمل لم يحلوا منها بطائل ولا قَبَضوا منها مُرتَّبًا ولا نالوا بها مُرتفَقًا، وغرَّهم بارقُ الطّمع وَسَطَ بلدٍ محصور وعملٍ مغصوب وخرابٍ مستوْلٍ، ومعَ سُلطان فقير لا يقَعُ بيدِه درهمٌ إلّا من صَبابةِ مستغلٍّ جَوْف المدينة أو نَهْبِ غُلولٍ ممَّن تغلغَل فيها يقيمُ منه رَمَقَه ويفرِّق جُملتَه على من تكنَّفَه من جُندِه ودائرتِه ويتطرَّقُ إلى ما يَقبُحُ من ظُلم رعيَّتِه، فلم يلبَثِ الأمرُ أن تَعدَّى عليه فسُفِك دمُه وانحسَم الأملُ من دولتِه.

مقتَلُ المُستظهِر بالله أبي المطرِّف عبدِ الرحمن[1]

قال حيَّانُ بن خَلَف: وكان سببُ ذلك أنْ حَسُنَ رأيُه في ابن عِمرانَ أحدِ الرَّهط الذين كان سَجَنَهم فأخرَجَه، فقال له بعضُ أصحابِه: إنْ مشَى ابنُ عِمران في غير سجنِك باعًا نَتَر[2] من عُمرِك عامًا، فعصاهُ المُستظهِر لغالِب هواه فحاقَ به في الثالث[3] رَدَاه. وكان ورَدَ عليه قبلَ إطلاقِه بيومَيْنِ فَوارسُ من البربر، فكرَّم جانبَهم وأنزَلَهم معَه في القصر، فهاجت لذلك الدائرةُ وقالوا للعامَّة: نحن الذين قَهَرْنا البرابرةَ وطَرَدْناهم عن قُرطُبة، وهذا الرجُلُ يسعى في ردِّهم إلينا وتمكينِهم من نَواصينا؟ فهاجَتِ العامَّةُ فوَثَبوا عليه بالقصر وقُتل البرابرةُ حيث وُجِدوا، ولم يشعُرْ عبدُ الرحمن إلّا والرَّجّالةُ قدِ انتَشَروا على سقفِ القصر، وسمِع المسجونونَ عندَه هُتافَ الناس فاستغاثوهم، فدَقُّوا الأغلاقَ دونَهم واختُلِطَ بالحُرَم فعَلم عبدُ الرحمن أنه مقتول، وأحيط به من كلِّ جهة، فجاء إلى بابِ الحمّام يطمَعُ في الخروج منه، فقام في وجهِه الدائرةُ السَّوء يَسُبُّونَه، فارتدَّ على عقبِه وترجَّلَ عن فرسِه وتجرَّد عن ثيابِه حتَّى بقيَ في قميصِه،

---

(١) خبر مقتله في الذخيرة ١/ ٥١، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٦-٢٧٧، والمعجب ١٠٥، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٥.

(٢) في م: «نثر»، ولا معنى لها، وهي كما أثبتنا في نسخة من مخطوطات الذخيرة لابن بسام، وفضّل عليها محقق الذخيرة: «بَتَر»، وما أثبتنا أجود (الذخيرة ١/ ٥١).

(٣) هكذا في النسخة الخطية والذخيرة، وغيرها ناشر م إلى «المثالب».

واستَخْفَى في أتُون[١] الحَمّام ففُقِد شخصُه، واستَخْفَى البرابرةُ في الحَمّام وفي أكنافِ القصر فبُحِث عليهم وقُتلوا، وفُضِح حُرَمُ عبد الرحمن وسَبَى أكثرَهنَّ الدائرةُ وحملوهُنَّ إلى منازلِهم علانيةً، وجَرى عليهنَّ ما لم يَجْرِ على حُرَم سُلطانٍ في مدَّة تلك الفتنة.

فلـمّا فُقد شخصُ عبد الرحمن ظَهَر ابنُ عمِّه محمَّدُ بن عبد الرحمن في المكان الذي كان مختفيًا فيه، فهتَفَ الدائرةُ باسمِه وانتهَوْا به إلى دار الـمُلك، فإذا هي بَلاقع، فأجلَسوهُ في مجلسِها القِبْليِّ مبهوتًا، وقام الدائرانِ الفاسقانِ محمودٌ وعَنْبر[٢] على رأسِه بالسّيوفِ مقامَهما بالأمس على رأسِ عبد الرحمن ابن عمِّه، وتكاثَرت الدائرةُ والعامَّةُ عليه، وافتُقِد عبدُ الرحمن الـمُستظهِرُ فُوجِد في أتُون الحَمّام قدِ انطَوى انطواءَ الحيَّة في مكانٍ حَرِجٍ في قميصٍ مسوَدٍّ بحالٍ قبيحة، وجيءَ به إلى محمَّد بن عبد الرحمن وقد بويعَ فبَطَش به بعضُ الرَّجّالة القائمينَ على رأسِه فقَتلوه رحمه الله.

بعضُ أخبارِ الـمُستظهِر بالله وسِيَرِه رحمه الله

قال ابنُ بسَّام[٣]: كان على حدوثِ سِنِّه فَطِنًا لَوْذَعيًا ذكيًّا يَقِظًا، لبيبًا أديبًا حَسَن الكلام جيِّدَ القَريحة مليحَ البلاغة، يتصرَّفُ فيما شاءه من الـخَطابة بديهةً ورَوِيَّة ويَصُوغُ قطعًا من الشِّعر مستجادة، وقد اقتَضَب بحضرةِ الوُزراءِ في أيّامِه عدَّةَ رسائلَ وتوقيعاتٍ لم يُقصِّرْ فيها عن الإجادة في الغاية، يَزِينُ ذلك بطهارةِ أثوابٍ وعفَّةٍ وبراءةٍ من شربِ النَّبيذ سرًّا وعلانيَة. وكان في وقتِه نسيجَ وَحْدِه خُتِم به فُضَلاءُ أهل بيتِه الناصريِّين، فلم يأتِ بعدَه مثلُه.

وقد أثبَتَ ابنُ بسام في كتابِه جُملةً من شعرِه. ورفَع إليه شاعرٌ مـمّن هنَّأه يومَ بيعتِه شعرًا له كتبَه في رَقّ مبشور، واعتذَر بهذَيْنِ البيتَيْن[٤] [من الكامل]:

---

(١) في الذخيرة: «أبزن» حيثما وردت، وهو الحوض.

(٢) في الذخيرة: «عمير».

(٣) الذخيرة ١/ ٥٣.

(٤) الذخيرة ١/ ٥٥، وهما في الحلة السيراء ٢/ ١٦، ونفح الطيب ١/ ٤٩٠.

الـــرَّقُّ مبـــشورٌ وفيـــه بِـــشارةٌ　　ببقَـا الإمـام الفاضـل الـمُـستظهِرِ
مَلِكٌ أعاد الـمُلْك[1] غضًّا شخصُهُ　　وكـذا يكـونُ بـه طَـوالَ الأدْهُـرِ

فأجزَلَ الـمُستظهِرُ بالله صِلتَه ووقَّع له على ظهرِ رُقعتِه بهذه الأبيات [من الوافر]:

قبِلْنـا العُـذرَ في بَـشْرِ الكتـابِ　　لِـمَا أحكَمْـتَ مـن فَـصْل الخطـابِ
وجُـدْنا بـالجزاءِ بـما لـدينا　　عـلى قَـدْرِ الوجـودِ بـلا حـسابِ
فـنحن الـمُنعِمونَ إذا قَـدَرْنا　　ونحـن الغـافرونَ لـذي الرِّئـابِ[2]
ونحـن الـمُطلِعونَ بـلا امـتراءٍ　　شـموسَ المجـدِ في فَلَـكِ الثَّـوابِ

دولةُ محمَّدُ بن عبد الرحمن الـمُستكفي بالله[3]

نسَبُه: هُو محمَّدُ بن عبد الرحمن بن عُبَيد الله[4] ابن الناصِر لدين الله.

لقَبُه: الـمُستكفي بالله.

كُنْيتُه: أبو عبدِ الرحمن.

أُمُّه: أُمُّ وَلَد اسمُها حَوْراء.

عُمُرُه: اثنتان وخمسونَ سنةً.

خِلافتُه: ولِـيَ مرَّتين، الأولى منهما: بويعَ يومَ قُتل ابنُ عمِّه الـمُستظهِرُ بالله وذلك يومَ السبت لثلاثٍ خَلَونَ من ذي القَعدة سنةَ أربعَ عشْرةَ وأربع مئة، وفرَّ يومَ خَلْعِه يومَ الثلاثاء لخمسٍ بقينَ من ربيع الأوَّل سنةَ ستَّ عشْرةَ وأربع مئة.

مولدُه: كان سنةَ ستٍّ وستّينَ وثلاث مئة.

---

(١) في الذخيرة: «العيش».

(٢) في الذخيرة: «أذى الذئاب».

(٣) الذخيرة لابن بسام ١/ ٣٣٥، وأعمال الأعلام ١٣٥، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٧، والمعجب ١٠٧، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٥.

(٤) في نهاية الأرب: «عبد الله» خطأ.

لقَبُه: ذُكِر أنه سُمَّى نفسَه الـمُستكفيَ، اختاره لنفسِه وحَكَم له به سُوءُ الاتفاق عليه لـمُشاكلتِه لعبد الله المستكفي العبَّاسيّ أوَّلِ مَن تسمَّى به في لينِه ووَهْنِه وتخلُّفِه وضَعْفِه، بل كان هذا مقتصرًا عنه لخلالٍ ملوكيّة كانت في المستكفي العبَّاسيّ لم يُحسِنْها هذا لفَرْط تخلُّفِه على اشتباهِهما في سائرِ ذلك من توثُّبهما في الفتنة واستظهارِهما بالفَسَقة واعتداءِ كلِّ واحدٍ منهما على ابن عمِّه وتوسُّطِ كلِّ واحد منهما في شأنِه امرأةً خبيثة، فلذلك: حسناءُ الشِّيرازيَّة، ولهذا: بنتُ المورورية[1]، فأصبحا لذلك على فَرْط التبايُن عِبرة، ومن[2] العجَبِ أنهما اتَّفقا في الأخلاق والعُهر واللّعب، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما عاشَ اثنتَيْنِ وخمسينَ سنةً، وكلَّ واحد منهما ملَكَ سنةً ونحوَ خمسةِ أشهر، وكلَّ واحدٍ منهما ترَكَه أبوهُ صغيرًا، وتوافَقا في اللَّقب، وبالـجُملة فهما رَذْلي قومِهما.

ولم[3] يكنْ محمَّدٌ هذا من الأمرِ في وِرْد ولا صَدَر، وإنَّما أرسَلَه اللهُ تعالى على أهل قُرطُبَةَ الخاسرينَ بليَّةً، وكان مُنذُ عُرِف عَطِلًا مُنقطعًا إلى البِطالة، محمولًا على الـجَهالة، عاطلًا من كلِّ خَلَّةٍ تدُلُّ على فضيلةٍ وتكملة.

قال ابنُ القطَّان: إنه لم يجلِسْ للإمارةِ مدَّةَ الفتنة أنقصُ منه، إذ لم يزَلْ معروفًا بالتخلُّفِ والبِطالة أسيرَ الشّهوة عاهرَ الـخَلْوة، ضدًّا لقتيلِه الـمُستظهِر بالله في الطهارةِ والمعرفة والذكاء، ثمَّ خَلَعه أهلُ قُرطُبة بأنْ دخَلوا عليه وقالوا له: قد اضطُرِرْنا إلى مُكافحة عدوِّنا، ونحن خارجونَ إليه، ولا ندري ما يحدُثُ عليك بعدَنا، فأجمَلَ الردَّ عليهم وانقادَ للدَّنيَّة واستشعَرَ الذُّلَّ، ثمَّ صَدَّهم عنه حادثٌ من حوادِث الدّهر، وكانوا قد رَشَّحوا ابنَ عمِّه العراقيَّ للخلافة، فأبقَوْهُ على حالِه، فهي الخلافةُ الثانية التي ذُكِرت له، واللهُ أعلم.

ثمَّ إنه عزَم على الـهروبِ، فخرَجَ على وجهِه ولبِسَ ثيابَ الغانياتِ مُتنقِّبًا بين امرأتين لم يُميَّزْ منهنَّ، وخرَج من قُرطُبة ومات بأُقْليجَ من الثّغر بعدَ سبعةٍ وعشرينَ يومًا

---

(١) في م: «المروزية»، وهو تصحيف بيّن، والنص لابن حيان، ذكره ابن بسام في الذخيرة ١/ ٣٣٦.

(٢) هذه العبارة الآتية لأبي محمد بن حزم ذكرها في كتاب «نقط العروس» ونقلها ابن بسام في الذخيرة ١/ ٣٣٦.

(٣) من هنا عودة إلى ابن حيان، كما ذكر ابن بسام.

من خَلْعِه مقتولًا وقيل: مسمومًا، وكان قد عاجَلَ بخَنْق ابن عمِّه العراقيّ وأمسَى ميتًا، ونعَاهُ إلى الناس، وكان يُلقَّب بالخويفيَّة، ولُقِّب أيضًا بأبي زكيرة.

وصفتُه: رَبْعةٌ أشقرُ أزرقُ أشمُّ مدوَّرُ الوَجْه واللِّحية، ضَخْمُ الوجهِ والجسم، كبيرُ البطن صاحبُ أكلٍ وشُربٍ وجِماع وتخلُّف، وقد ذُكر في مقتلِه أنه لـمّا فرَّ من قُرطُبَةَ نـهَضَ معَه بعضُ رجالِه إلى الثّغر، فاتَّهموه بمالٍ فاغتالوهُ وقَتلوه(١).

وفي سنة خمسَ عشْرةَ وأربع مئة: عاجَلَ الـمُستكفي بخَنْق ابن عمِّه العراقيّ ونَعاه للناس ووَلَّى عهدَه سُليمانَ بن هشام بن عُبَيد الله ابن الناصِر، وهو ابنُ عمِّه، وكان مؤنَّثَ اللّسان، وفي أيّامِه استؤصلت قصورُ جَدِّه الناصر بالـخَراب وطُمست أعلامُ قصرِ الزاهرة فطُوِيَ بخرابِها بِساطُ الدّنيا وبتغيُّرِها تغيَّر حسنُها.

وفي سنة ستَّ عشْرةَ وأربع مئة: كان خَلْعُ الـمُستكفي بالله، وذلك أنه لـمّا اتَّصل بأهل قُرطُبة تحرُّكُ يحيى بن عليِّ بن حَمُّود نحوَهم من مالَقِة دخَلوا على المستكفي فأغْلظَوا عليه في الكلام، فأجمَلَ الردَّ عليهم وخرَج على الحالة التي تقدَّم ذكْرُها يومَ الثلاثاء لخمسٍ بقينَ من ربيع الأوَّل من السنة، وقُتل بعدَ خَلْعِه بسبعةَ عشَر يوماً.

دولةُ يحيى بن عليّ الـمُعتلي بالله ثانيةً(٢)

وأُعيدَت دولةُ يحيى بن عليّ بقُرطُبة بعدَ خَلْع الـمُستكفي بالله، وكان بمالَقة، فسار إلى قُرطُبَةَ ودخَل يومَ الخميس لأربعَ عشْرةَ بقيَتْ من شهر رمضانَ المعظَّم من سنة ستَّ عشْرةَ المذكورة، وبقيَ بها إلى تمام هذه السنة المؤرَّخة.

وفي سنة سبعَ عشْرةَ وأربع مئة: خرَج يحيى بن عليّ من قُرطُبَةَ إلى مالَقة يومَ الثلاثاء لثمانٍ خَلَوْن من المحرَّم، وبقيَ بها وزيرُه وكاتبُه أبو جعفرٍ أحمدُ بن موسى إلى أن أتَى الـمُوفَّقُ مجاهدٌ وخَيْرانُ العامريَّانِ من قِبَل حَبُّوس بن ماكْسِن، فلمّا أحسَّ

---

(١) الخبر في الذخيرة ١/ ٣٣٨، والكامل ٩/ ٢٣٧ والمعجب ١٠٨، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٦ مع اختلاف في طريقة قتله.

(٢) الذخيرة ١/ ٤٤٥ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٧٨.

أهلُ قُرطُبَةَ بقُربِهما رجَعوا إلى من كان عندَهم من البربرِ بقُرطُبة فقَتلوهم يومَ الثلاثاء لعشرٍ بقينَ من ربيعٍ الأوَّل من السنة المؤرَّخة، فقيل: إنّهم قَتلوا يومَئذٍ من البربر ألفَ رجل.

قال حَيَّان بنُ خَلَف: وفي ذلك اليوم الذي قُتل فيه البربرُ بقُرطُبة دخَلَها خَيْرانُ ومجاهدٌ الـمُوفَّقُ بعدَ أن فرَّ أحمدُ بن موسى معَ أخَويْنِ له من قُرطُبة، فلحِقَ أحمدُ بن موسى بمالَقَةَ ولحِقَ دوناسُ بحَبُّوسٍ بغَرناطة، وبقي يحيى بنُ عليّ بمالَقة إلى أن قُتِل بعدَ ذلك بمُدَّة بمدينة قَرَمُونةَ على ما أذكُرُه بعدُ إن شاء اللهُ تعالى.

ومِن أخبارِ يحيى بن عليّ بن حَـمُّود الـمُعتلي بالله

قال حيَّانُ بن خَلَف: كان رؤساءُ البربر وثُوّارُهم قَدَّموه أميرًا عليهم لـمّا خرَجَ من قُرطُبَةَ في خلافتِه الأولى التي كانت في سنة أربعَ عشْرةَ، فاستَوْطَن مالَقَةَ، وكان عمُّه القاسمُ قد خرَج أيضاً فارًّا بنفسِه منها إلى إشبيلِيَةَ، فغلَّق أهلُ إشبيلِيَةَ أبوابَها في وجهِهِ فاستقرَّ بشَريش، فزحَفَ إليه ابنُ أخيه يحيى هذا إلى شَريش فحاصَرَه بها حتَّى أخَذه أسيرًا عندَه معَ بَنيه وسَجَنَهم بمالَقة، وصارت شَريشُ ومالَقةُ والمريَّةُ وسَبْتةُ في طاعتِه، وخَطَبوا له بالخلافة وسمَّوه الـمُعتليَ بالله وبقي عمُّه القاسمُ أسيرًا عندَه إلى أنْ قتَلَه خَنقًا فيما ذَكروا وبقيَ يحيى بنُ عليّ بمالَقةَ إلى أن قُتِل بقَرَمُونةَ في محرَّم من سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة.

ولـمّا وصَلَ الخبرُ إلى أخيه إدريسَ بقَتْلِه دخَل في مركَبٍ ووصَلَ إلى مالَقة ودَعا إلى نفسِه، فنهَضَ إليه حَبُّوسُ بن ماكْسِن معَ صُنهاجةَ إلى مالَقة وبايَعوهُ، وبقي الموفَّقُ وخَيْرانُ بقُرطُبة نحوَ شهر، ثمَّ اختَلفا وخَشِي كلُّ واحدٍ منهما الغدرَ بصاحبِه، فخرَج خَيْرانُ ومَن كان معَه من قُرطُبة يومَ الأحد في أواخِر ربيع الآخِر سنةَ سبعَ عشْرةَ، وبقي الموفَّقُ بقُرطُبَةَ مدَّة ثمَّ انصَرف إلى دانِيَةَ، وبقيَ أهلُ قُرطُبَةَ في هَرْج واختلاط ومَرْج وخوفٍ عظيم من توقُّع رجوع البرابرة إليهم، فكفاهُم اللهُ ضُرَّهم، فكانت دولةُ الـمُعتلي بالله بقُرطُبَةَ هذه الثانيةُ ثلاثةَ أشهرٍ واثنينِ وعشرينَ يومًا.

دولةُ هشام بن محمَّد الـمُعتدِّ بالله الأُمويّ(١)

نسبَهُ: هشامُ بن محمَّد بن عبد الملِك بن عبد الرحمن الناصِر، وهو أخو المرتضَى المتقدِّم الذِّكر.

كُنْيتُه: أبو بكر.

أُمُّه: أُمُّ وَلَد اسمُها عاتبُ.

لقَبُه: المعتدُّ بالله.

عُمُرُه: أربعٌ وستون(٢) سنةً.

خِلافتُه: بالثّغر وبقُرطُبة أربعُ سنينَ وسبعةُ أشهر وسبعةَ عشَرَ يومًا، بويعَ أوّلًا في الثّغر بحِصن البُنْت عندَ عبد الله بن قاسم الفِهْريِّ في يوم الأحد لخمسٍ بقينَ من ربيع الآخِر سنةَ ثمانِ عشْرةَ وأربع مئة، فبقيَ عندَه مدَّةً من سنتَيْنِ وسبعة أشهرٍ وثمانية أيّام وهُو يُخطَبُ له بقُرطُبة، ثمّ أتَى إليها في سنة عشرينَ في ذي الحجَّة وخُلعَ منها يومَ الثلاثاء الثانيَ عشَرَ لذي حجَّةٍ من سنةِ اثنتينِ وعشرينَ، وتوفِّي بعدَ ذلك بمدَّة بعدَ شدائدَ دارت عليه، ودُفن بجهة لارِدَةَ في صَفَر سنةَ ثمان وعشرينَ وأربع مئة.

وكان سببُ قيامِه بالخلافة أنه كان بشَرْق الأندَلُس عندَ ابن قاسم المذكور بعدَ قَتْل أخيه المرتضَى وهزيمة جيشِه بغَرناطة، فأجمَعَ أهلُ قُرطُبة على خلع الفاطميّينَ بعدَ المقتَلة الكائنة بقُرطبةَ بسبب موفَّقٍ وخَيْرانَ المتقدّمةِ الذِّكر، فبقيَتْ قُرطبةُ دونَ خليفة، فخاطَبَ أهلُها أهلَ الثّغر والثّوارَ في إقامة خليفةٍ من بني مروان، فاجتمَع رأيُهم على هشام هذا لكوْنِ البربرِ قَتلوا أخاه وأنه قد وقَع بينَهم وبينَه ما وقَع بينَ أهل قُرطبةَ

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٣/ ٣٨٦ فما بعدها، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٢، والمعجب ١٠٩، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٦، وأعمال الأعلام ١٣٨.

(٢) هكذا في الأصل وغيّرها ناشر م إلى: «وخمسين» مع أن المؤلف ذكر بعد ذلك أنه ولد سنة ٣٦٤ وتوفي سنة ٤٢٨!

وبينَهم، فبايَعوهُ وهو بحِصن البُنْت وخَطَبوا له، ثمَّ أتى قُرطبةَ فبايَعوهُ بيعةً تامَّة ثم خَلعَه أهلُ قُرطُبة في التاريخ المتقدِّم الذِّكر.

وكان سببُ خَلْعِه أنَّ المتولّيَ لأمرِه والقائمَ بسُلطانِه والـمُنفردَ بمَشُورتِه وزيرٌ له لم تكنْ له سالفةٌ بشرفٍ ولا جاهٍ متقدِّم يُعرَفُ بحَكَم بن سعيد القزَّاز ويُكْنَى بأبي العاصي، وكان يُخالفُ الوُزراءَ المتقدِّمينَ بقُرطبة ويأخُذ أموالَ التّجار فيتكرَّمُ بها على البربر ويُجزِلُ لهمُ العطاء، فبَغَضَه أهلُ قُرطبة لذلك فدَسُّوا إليه من مَثُل بينَ يدَيْه وقال له: عندي نصيحةٌ أُريدُ أن أُسِرَّها إليك، وكان أبو العاصي المذكورُ أطرشَ لا يسمعُ إلّا يسيرًا، فلمّا أعطاهُ أُذُنَه رمَى به عن فرسِه في بعض أزِقَّة المدينة فقتَلَه، وكان الذي قتَلَه يُعرَفُ بابن الـحَصَّار، وخُلع المعتدُّ بالله بسببِه، إذ كان مائلًا إليه وقائلًا بقولِه.

صفةُ المعتدِّ بالله: أبيضُ أصهَبُ إلى الأُدْمة، سَبْطُ الشَّعر أخنَسُ خفيفُ العارضَيْنِ واللِّحية، حسَنُ الجسم إلى القِصَر.

مولدُه: سنةَ أربع وستّينَ وثلاث مئة، وتوفّي في صَفَر سنةَ ثمان وعشرينَ فكان عُمُرُه نحوًا من أربع وستّينَ سنة، وهو آخرُ ملوكِ بني أُميَّةَ بالأندَلس، وبه انقَرضت الدّولةُ الأُمويَّة.

بعضُ أخبارِه وأخبارِ وزيرِه

قال حَيَّان بن خَلَف(1): قُلِّد هذا الأمرَ في سنّ الشّيخوخة، وكان معروفًا بالشّطارةِ في شبابِه فأقْلَع معَ شَيْبِه فرُجِيَ فلاحُه، فافتُتِحت بيعتُه بإجماع وخُتِمت بفُرقة، وعُقِدت برضًى وحُلَّت بكُرْه. وكان الوُزراءُ قد دَبَّروا في سَجِيَّة أُمورِه وكيفيَّة ورودِه، فبادَرَ هو ووَفَد على البلد فسُرَّ الناسُ به وركِبَ جيشُ قُرطبةَ لاستقبالِه، فدخَل في زِيّ تقتحمُه العينُ وَهْنًا وقلَّـةً وعدَمَ رُواءٍ وبهجةٍ وعددٍ وعُدَّة، فوقَ فرس دونَ مراكبِ الملوك بحِلْية مختصَرةً سادلًا سملَ غِفارة إلى ما تحتَها من كُسوةٍ رثَّة،

---

(1) النص عن ابن حيان في الذخيرة ١/ ٣٨٦ فما بعدها.

قُدَّامَه سبعُ جنائبَ من خَيْل الـمَوالي العامريِّينَ صَيَّروها معَه للزِّينة دونَ عَلَم ولا مطرد يسيرُ هَوْنًا والناسُ يُهنُّونَه ويصيحونَ بالدُّعاءِ في وجهِه ولا يعلمونَ ما سِيق لهم من المكروهِ به، فدخَل القصرَ، وجاء معَه في جُملة الموالي حائكٌ من أبناء الزَّعانف بقُرطبةَ يُسمَّى حَكَمَ بنَ سعيد الحائكَ الذي قال فيه أبو الرَّبيع [من مخلَّع البسيط].

هَبْـكَ كـما تـدَّعي وزيـرا وزيـرَ مَـنْ أنـت يـا وزيـرُ

والله مـا للأمـيرِ معنًـى فكيـف مـن وَزَّر الأمـيرُ

فقلَّد هشامٌ حكمًا القزَّازَ جُملةَ تلك الأعمال، وأطلَقَ يدَه في المال، وأناطَ به الرِّجال، فجرى مجرَى أعاظم الوُزراءِ المستمرّينَ على فِتيةِ الملوك في سالف الأزمِنة، فحَجَرهم على هذا الخليفة في سنِّ الشيخوخة بطبَق ومائدة كانا طِبَاقَ همَّتِه الكاسدة عَكَف عليها راضيًا بأدنى العيشة، وقد بقيَ في قصرِه ينظُرُ بعينِه ويسمَعُ بأُذُنِه، ويُدني مَن أدناه ويُقصي من أقصاه، وخلَّاهُ ومعاظمَ الأُمورِ يُدبِّرُها بجهلِه وخَرَقِه واعتسافِه وتهوُّرِه، فلم يلبَثْ أنِ انتقَضَت به، واحتاجَ حَكَمٌ إلى رجالٍ يستعينُ بهم في تدبيرِه، فلم يهتَد منهم إلَّا إلى نَغِل دَغِل أو ماجِن سَفيه أو سُوقيٍّ رَذْل سَقَطت به عليهم الـمُشاكلة، واتَّخذهم بطانةً، فمَدُّوا له في الغِواية وجَرَوْا في هَواه طَلَقِ الـجُموح ما فيهم حازمٌ ولا نَصيح، فهَوي سريعًا وأصبح موعِظة، وحالُ هشام في ذلك كلِّه تزدادُ ضعفًا إلى أن انكشَف وطلَبَ الأُمناءَ والأوصياءَ على الأوقاف ومال الغَيْبة وشبهِ ذلك، فانفتحَ على الأُمَّة مَكارهُ جملة، وكان القيِّمَ بها ماردٌ من خَدَمةِ الدّولة الحمُّوديَّة.

مقتَلُ الوزير الحائكِ وخَلْع هشام

قال: وضعُفَ أمرُ هشام، وأَسَرَّ الناسُ الوثوبَ على وزيرِه، فسَقَطَ له خبرٌ من ذلك فانزَعجَ، وخافَ على نفسِه، ورحَل إلى قصرِ السُّلطان بأهلِه وسكَنَه مُختلِطًا به، وأخذ في مداراةِ الناس، وكفَّ عن الكُلَف واعتذَر عنها، والتزَمَ جِلَّةُ الوُزراءِ طاعتَه.

وهُو رجلٌ من دُخَلاء الـجُند لا خَصْلةَ فيه، منتقِلٌ من الـحِياكة إلى الوِزارة، فبَدَر لأوَّل وقتِه بعَداوةِ الأحرارِ وتنقُّص الفُضَلاء، والـمَيْل على ذَوي البُيوتات[1] بالأذى والمطالب، وصَيَّر صنائعَه في أضدادِهم، فكانوا وُزراءه وأنصارَه، ونالوا منه المنازلَ الرفيعةَ النّبيلة، أكثرُهم صِبْية أغمارٌ من نَمَطِه مـمَّن دَيْدَنُه حثُّ الكأسِ وتنضيدُ الآسِ وطَبْخُ الترفاس والتفكُّه بأعراض الناس، إنْ ضجَّ مظلومٌ سَخِروا منه وحاكَوْهُ، فكان الناسُ منهم ومِن صاحبِهم في بلاءٍ عظيم وجُهدٍ مُقعدٍ مُقيم.

وعندما سوَّلت بحَكَم نفسُه الاستيلاءَ على البلد بما زَيَّن له القَدَرُ وسُوءُ النَّظر، مقَتَ جُندَه البَلَديّين، لعلمِه أنّهم صنائعُ الوُزراء، فأخَّر أُعطِياتِهم واضْطَربوا، ولـمّا لاحَ له حركةُ الهمسِ والقول فيه بنَى قصَبةً منيعةً على ساحة المدينة استظهارًا على ما خافَه من تحرُّكِ العامَّة، فهتَكَ بها عندَهم سِرَّه ودَبَّروا القيامَ عليه، وهُو في ذلك مُصِرٌّ في غَيِّه عَهِرُ الخَلَوات، صريعُ الشَّهَوات، لَـهِجٌ بالفُكاهات، كثيرُ الكذبِ والعُدوان، شنيعُ الفجورِ والعصيان، وصاحبُه أميرُ المؤمنينَ القائمُ بأمرِ الأُمَّة عالـمٌ بذلك، راضٍ من وزيره الحائك، بإقامةِ وظائفِه ليومِه وشهرِه، من نَقْلِه وحَنِيذِه، ومن مائه ونَبيذِه، وملأ عينَه وقلبَه بالمطعم الذي كان آثَرَ الأشياءِ عندَه، وأكثَرَ له منَ الشَّهوات، وأعدَّ له من القَيْناتِ والـمُلهِيات، فَركَسَه في الصِّبا بعدَ الـمَشِيب، وعرَفَ شَغَفَه بالبِطالة فقصَدَها وأصابَ الغُرَّة، وفرَّق عنه الأصحاب، وسَدَّ دونَه الحِجاب، وخلَّاه وراءَ السَّتْر قد شَغَل بكأسٍ يُمناه وبحِرٍّ أُخْراه، وأعرَضَ عمّا كان أحاطَ به حتَّى أتاهُ من الله ما أتاه.

وأرسَلَ اللهُ على وزيره ودولتِه طائفةً من فُتَّاكِ الجُند عرَفَت مُرادَ الوُزراءِ ووجوهِ الناس في إزالة أمرِ وزيرِه فدَبَّروا قتلَه، وكان الناظمُ لهذه الجماعة ابنَ عمٍّ لهشام، وهو أُميَّةُ بنُ عبد الرحمن العراقيُّ من أبناءِ الناصِر، فتًى شديدُ التهوُّرِ والـجَهالة، فسوَّلَت له نفسُه نَيْلَ الخلافة، وأطمَعَه في ذلك بعضُ من نظمَ التدبيرَ من الـمَشْيخة،

---

(١) هكذا في الأصل ولذخيرة ٣/ ٣٩٢ وغيرها ناشر م إلى «البيتوتات»، ولم يفصح عن دليله!

علمًا بأنَّه لا ينفُذُ في الوثوبِ على هشام المعتدِّ إلَّا مَن يُنازعُه لَبُوسَه، فتهيَّأ أمرُ القوم في سَتْر، فرصَدوا حَكَمًا الوزيرَ الحائك في طريقِه، وقاموا عليه فقَتلوه وصَرَعوه في الوَحْل والقذَر، فكان من تمام محنتِه، وطافوا برأسِه ونَصَبوه تحتَ العِلِّيَّةِ التي كان أعدَّها لدفاعِه، فصار عِظةً للمتأمّلين، وأخَذ القومُ سَلْبَه وغادَروه عُرْيانًا مكبوبًا لوجهِه.

وقام أُميَّةُ بنُ عبد الرحمن بقُرطُبة، وهو أُميَّةُ بن عبد الرحمن بن هشام بن سُليمانَ بن عبد الرحمن الناصِر، واجتَمع عليه العامَّةُ وطُلَّابُ الفتن إلى جُندِ البلدِ للوقت، وتقدَّم بهم أميَّةُ للقصرِ وهشامٌ في بِطالتِه معَ نسائه، فبادَر الصُّعودَ إلى العلِّيَّة، فكانت سببَ حياتِه، ونَهَبَ العامَّةُ القصر، واجتَمع الوُزراءُ إلى أبي الـحَزْم بن جَهْوَر فهتَفَ على الناس بكفِّ الأيدي، وسمِع هشامٌ الـهَتْفَ باسم الوُزراء وقد أُلقِيَ... عندَ ذلك من نفسِه... وأُميَّةُ في كلِّ ذلك مقيمٌ بالقصر وَسَطَ النهَّابة قد تَبوَّأ مجلسَ البائس هشام واستوى على فراشِه، ورتَّبَ وجوهَ النهَّابة مَراتبَهم في الحفوفِ به والنفوذِ في أمورِ الإمارة لا يشُكُّ في حصولِها له مُحرِّضًا على هشام مُجتهدًا في إتلافِه.

ثمَّ اجتَمع الملأُ على خَلْعِه، وهَتفوا بإبطالِ الخلافة جُملةً لعَدَم الشاكلة ونَفْي المروانيَّة، ورَجَعت قُرطُبةُ إلى تقديم الوُزراء.

وذُكر أنَّ أهلَ قُرطُبة قالوا لأُميَّة: إنَّا نخافُ عليك في هذا اليوم القَتْلَ لِـما نَرى منَ انقلابِ الناس عليكم، فقال لهم أُميَّة: بايعوني أنتمُ اليومَ واقتُلوني غدًا، حِرصًا منه على الخلافة، فأنفَذَ أهلُ قُرطُبة إلى المعتدِّ وإلى أُميَّةَ ألَّا يبقَى واحدٌ منهما بالقصرِ ولا بقُرطبة، وأجمَعوا أمرَهم على خَلْع بني أُميَّةَ أجمعين.

ونَزَلَ هشامٌ إلى ساباطِ الجامع الـمُفْضي إلى المقصورة فيمَن تألَّف إليه من وَلَدِه ونسائه طارحًا نفسَه على الجماعة يَنشُدُهم اللهَ في مُهجتِه، فأُعلِم بكُرْهِ الناس له، فقال: ليتَني قُربَ البحر تَرْمونَ بي في لُـجَّته فيكونَ أخفَّ لشأني فافعَلوا ما شئتُم واحفَظوني في وَلَدي وأهلي، وبَدا لهم من ضعفِ نفسِه وغَثاثةِ قولِه وإلقائه بيدِه ما كان مكتومًا عن الناس، وبَقي بمكانِه بقيَّةَ يومِه وليلتِه أسيرًا ذليلًا حقيرًا خائفًا شاخصَ البصرِ إلى حيثُ

تهجُم عليه الـمَنيَّة، وحدَّث بعضُ سَدَنةِ الجامع أنَّ أوَّلَ ما سأل الشّيوخَ الداخلينَ عليه إحضارُ كُسَيْرة من خُبز يسُدُّ بها جُوعَ طُفَيْلةٍ له كان قد احتَضَنها ساترًا لها بكُمِّه من قُرِّ ليلتِه تلك كانت تشكو الجوعَ ذاهلةً عمَّا أحاط بها فتزيدُ في همِّه، وسأل سِراجًا يأنَسُ بضَوْئه معَ نسائه، فأبكَى مَن كلَّمه اعتبارًا بعاديةِ الدّهر.

وبات الوُزراءُ والناسُ في الجامع ودبَّروا على هشام الفراغَ من شأنِه، فأُخرِج إلى حِصن ابن الشّرف دونَ أن يأخُذوا خطَّه بالـخَلْع ولا شُهِد عليه بعجزِه عن تدبير الخلافة وتحليلِه الأُمَّة مـمَّا لهُ في أعناقِهم من البَيْعة على السَّبيل المعهودة، وأنساهُمُ اللهُ ذلك إمَّا تهاونًا وإمَّا نسيانًا، وأُميَّةُ ابنُ العراقيِّ معَ ذلك لم يبرَحْ من القصر، قد سَوَّلت له نفسُه نَيْلَ الخلافة، واستَدعَى وجوهَ الـجُندِ للبيعة فوُبِّخوا على الاجتماع إليه وأُزعجوا عن القصرِ وأُزعِجَ هو، فانطلقَ لسانُه على الوُزراء فخرَج عن البلد وقيل: اختفَى بقُرطُبة[1].

ونُوديَ في الأسواق والأرباض: لا يبقَى بقُرطبةَ أحدٌ من بني أُميَّة، ولا يَكنُفُهم أحدٌ، وكان القائمُ بالحال في إخراج المعتدِّ بالله أبا الـحَزْم بنَ جَهْوَر، فمِن هذا التاريخ كثُرت الفتنةُ وتمادت، وانتزَى كلُّ أحدٍ في موضعِه واستبَدَّ رؤساءُ الأندَلس وثُوّارُها بما في أيديهم من البلادِ والمعاقل، وبغَى بعضُهم على بعض، ولله الـحَوْلُ والقوَّة.

(١) إلى هنا انتهى ما في الذخيرة.

القسم الثاني

ذِكْرُ الثُّوّار المتغلبين على بلاد الأندلس عقب هذه الفتنة وهم المسمَّونَ بملوكِ الطوائف

قد ذكَرْنا ما كان من تداوُل الوُلاة والأُمراء والثُّوار من حينِ الفتح إلى خلافة عبدِ الرحمن الداخل، ثمَّ تداولِ الأُمراء الأُمويِّينَ من بعدِه إلى دولة ابن أبي عامر وابنَيْه، وقيام الفتنة بسببِ عبد الرحمن بن أبي عامر، وذكَرْنا مَن وَلِي الخلافةَ بقُرطبةَ في زمان الفتنة إلى سنةِ اثنتينِ وعشرينَ وأربع مئة، وهو حينَ خَلَع أهلُ قُرطبةَ بني أُميَّةَ أجمعين. فلْنذكُر الآنَ ما كان من أخبارِ المتغلِّبينَ على بلادِ الأندَلس عَقِبَ هذه الفتنة الـمُبيرة، فنبدأ بذكْرِ الشّرق وتغلُّبِ العبيدِ العامريّينَ وغيرِهم عليه بحَوْل الله سبحانَه وتعالى، فنقول:

بعضُ أخبارِ مجاهدٍ العامِريِّ الـمُنتَزي على مدينة دانِيَةَ والجزائرِ الشرقيَّة(١)

انتزَى هذا الرجُلُ مجاهدٌ على مدينة دانِيَةَ في أوَّل هذه الفتنة، وكان من فحولِ فِتيانِ بني عامر، قَدَّمه المنصورُ بنُ أبي عامرٍ عليها، وكان عندَ وقوع هذه الفتنة مُقدَّمًا على هذه الجزائرِ الثلاثة، فلمّا صحَّ عندَه وقوعُها خرَجَ إلى دانِيَـةَ وضَبَطَها وجميعَ أعمالِها المنضافةِ إليها، وتسمَّى بالموفَّق بالله، وكتَبَ بهذا اللَّقب عن نفسِه، وكُتب له به. وكان ذا نَباهةٍ ورِياسة، زاد على نُظَرائه من ملوكِ طوائفِ الأندَلس بالأنباء البديعة منها: العلمُ والمعرفةُ والأدب، وكان معَ ذلك من أهل الشّجاعةِ والتدبير والسياسة، قصَدَ هذه الجزائر: مَيُورْقَةَ ومَنُورْقةَ ويابِسةَ فانتزَى على جميعِها لنفسِه وتغلَّبَ عليها وحَماها من المشركينَ وغَزا منها جزيرةَ سَرْدانِيَةَ فغَلَب على كثيرٍ منها.

وكان مجاهدٌ هذا من أهل العفاف والعلم، فقصَدَه العلماءُ والفقهاءُ من المشرِق والمغرِب، وألَّفوا له تَواليفَ مفيدةً في سائر العلوم، فأجْزَل صِلاتِهم على ذلك بآلافِ

(١) الذخيرة لابن بسام ٣/ ٢١-٢٢، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩٠.

الدنانير، ومضَى على ذلك طُولَ عُمرِه إلى أن حانت وفاتُه بمدينة دانِيَةَ بعدَ أن مَلَكها، وكانت حضرةُ مُدُنِه وأملاكِه ستًّا وثلاثينَ سنةً جرَّها في أمرٍ ونَهْي، وجَرت فيها أمورٌ وخطوبٌ يطُولُ ذكرُها.

قال حيَّانُ بن خَلَف[١]: كان مجاهدٌ فتَى أُمراء دهرِه، وأديبَ ملوكِ عصرِه، لـمُشاركتِه في علوم اللِّسان، ونفوذِه في علوم القرآن، عُنِيَ بذلك مِن صِباه وابتداء حالِه، إلى حينِ اكتهالِه، ولم يشغَلْه عن ذلك عظيمُ ما مارَسَه من الحروبِ بَرًّا وبحرًا، حتَّى صار في المعرفة نسيجَ وَحْدِه وجَمَعَ من دفاتِر العلوم خزائنَ جَمَّةً، فكانت دولتُه أكثرَ الدُّول خاصّةً وأسراها صحابةً، على أنه كان معَ علمِه وحبِّه لـمَن طلَبَه أزهدَ الناس في الشِّعر وأحرَمَهم لأهلِه وأذكرَهم على نشيدِه[٢] لا يزالُ يتعقَّبُه عليه كلمةً كلمةً كاشفًا لِـما زاغ فيه من لفظةٍ أو سرِقة، فلا تسلَمُ على نَقْدِه قافية، ثمَّ لا يفوزُ المتخلّصُ من مِضمارِه على الجهدِ لدَيْه بطائل، ولا يحظى له بنائل، فأقصَرَ الشعراءُ عن مَدْحِه وخَلَى الشعرُ من ذكرِه[٣]، ولم يكنْ في الـجُودِ والكرم ينهمكُ فيُعزى إليه، ولا قصَّر عنه فيوصَفَ بضدِّه، أعطَى وحَرَم، وجاد وبخُل، فكأنَّه نَجا من عُهدة الذَمّ، ثمَّ أكثَرَ التخليطَ في أمرِه، فطَوْرًا كان ناسكًا وتارَةً يعودُ خليعًا فاتكًا لا يُساترُ بلَهْو ولا لَذَّة ولا يَستفيقُ من شرابٍ وبِطالة، ولا يأنَسُ بشيءٍ من الحقيقة، له ولغيرِه من سائرِ ملوكِ الطوائف في ذلك أخبارٌ مأثورة.

دولةُ عليّ بن مجاهدٍ المسمَّى إقبالَ الدّولة[٤]

كان عليٌّ هذا أَسَرَهُ الرّومُ في صِباه حينَ وقعتِهم على أبيه بجزيرة سَرْدانِيَة، ومكَثَ عندَهم سنينَ كثيرةً ومدَّةً طويلة، وقصَّتُه مذكورةٌ مشهورةٌ عندَ الرُّوم الذين نشَأ بينَهم.

---

(١) النص في الذخيرة.

(٢) في الذخيرة: «وأنكرهم على منشده».

(٣) في م: «وخَلَّى الشاكرون ذكره»، خطأ.

(٤) المغرب لابن سعيد ٢/ ٤٠١، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢١١.

وقد كان أبوهُ قبلَ فِدائه من الأسر رَشَّح للإمارة بعدَه وَلَدَه الأصغرَ حَسَنًا الملقَّبَ بَسْعد الدَّولة، وصَرَّف الأمرَ بعدَه لعليٍّ هذا الطَّليق، فأورَثَهما العَداوةَ بينَهما، فلمّا فداهُ أبوه قلَّدَه الأمرَ بعدَه، فمضَى أبو الجيش والدُهما لسبيلِه وقد وَطَّد الأمرَ لعليٍّ هذا دونَ أخيه، فخيَّر عليٌّ هذا أخاه أن يَصرِفَ له الأمرَ ويتَخلَّى له عن الـمُلك فلم يَجسُرْ على إظهارِ ما في نفسِه، ولم ينصرِم الـحَوْلُ حتَّى أحدَثَ على أخيه ما نَذكُره.

وذلك أنه صار إلى الـمُعتضِد ابن عبَّاد، وكان زوجَ أُختِه، فشَكا إليه بثَّه ودبَّر معَه أمرَه، وقد وقَع في نفسِه الفَتْكُ بأخيه عليّ، فوجَّه الـمُعتضِدُ معَه إلى مدينة دانِيَةَ غلامًا من غِلمانِه شجاعًا، وجاء حسَنٌ معَه على وجهِ الزِّيارة لأخيه، فدَبَّر معَه الرأيَ في غَدْر أخيه وزيرِ أبيه في أيِّ وقتٍ ويوم يكونُ، فكان اتّفاقُهم على حين خروجِه من صَلاة الـجُمُعة، وكانت عادتُه إذا خرَج سار إلى ساحل البحر فيقفُ عليه ساعةً ثمَّ ينصرفُ، وكان إذا ركِبَ يكونُ حسَنٌ أخوهُ وراءه، فلمّا انصَرف أخَذ في زِقاق ضيّق، فعندَما دخَل فيه غَمَزَ غلامَ ابن عبَّاد لـحَسَن بن مُجاهد أن يُجرِّدَ السِّكّينَ ويضرِبَ به أخاه، فجرَّده وضَرَبه ضربةَ دَهَش، فلم يصنَعْ بها شيئًا، ثمَّ ثَنَّى عليه بضربة أُخرى فلقيَه أخوه بيدِه اليُسرى، وأراد الغلامُ أن يطعنَه بالرُّمح الذي كان بيدِه فحاوَلَ تقليبَه إليه فنَشِب في الحائط لضيق الزِّقاق، ونذر بعضُ فتيانِ عليِّ بن مجاهد فقَتلوا الغلامَ، وفرَّ حسَنٌ هذا على وجهِه راكضًا فرسُه.

ووقَعت هوشةٌ في الناس ودهشة، ولم يعرِفوا خبرَ الكائنة، وخرَجَ حسَنٌ فارًّا من بابِ المدينة يقول: غُدِرْنا يا مسلمين، إلى أن وصَل بَلَنسِيَةَ وبها زوجُ أُختِه عبدُ الملك بن عبدِ العزيز بن أبي عامر وقد خابَ أملُه.

وحُمِل عليُّ بن مجاهدٍ إلى قصرِه على حالِه، فأقام بقيَّةَ يومِه مُطَّرَحًا لا يتكلَّمُ إلى غدِ ذلك اليوم، ثمَّ عانَى نفسَه حتَّى رجَعت قوَّتُه.

وخرَجَ هذا الغادرُ من مدينة بَلَنْسِيَةَ إلى صِهرِه المعتضدِ ابن عبَّاد فلم يُمكِّنْه من أُمنيَّتِه، وشاعت قصَّتُه في بلاد الأندَلس فلم تكنْ له منزلةٌ عندَ الناس، ثمَّ رجَع إلى بَلَنْسِية، فكان في كنَفِ أُختِه إلى أن فارَقَ الدّنيا. وبقيَ أخوهُ في بلادِه وتقدَّم في مُعاقدةِ قُوّادِه، واستَوى على سريرِ مُلكِه فلم يختلفْ عليه أحدٌ من أهل عسكرِه، وتصرَّفت في إمارتِه أمورٌ كثيرةٌ يطولُ شرحُها إلى أن أخرَجَه ابنُ هُودٍ منها على ما يأتي ذكرُه.

بعضُ أخبارِ مبارَكٍ ومُظفَّرٍ العامِرِيَّيْنِ
وانتزائهما على مدينتَيْ بَلَنْسِيَةَ وشاطِبة

قال حَيَّانُ بن خَلَف[1]: ومِن غرائبِ اللّيالي والأيَّام، اللاعبةِ بالأنام، أنَّ مُباركًا ومُظفَّرًا المذكورَيْن كانا وَلِيا أوَّلًا وِكالةَ السّاقية ببلنْسِيَة، واتَّفقا أنْ صُرِفا عنها فدخَلا على الوزيرِ عبد الرحمن بن يَسَار أيَّامَ خِدمتِه بها سنةَ إحدى وأربع مئة وقد دُعيا للحساب، فكَلَّماهُ ومَسَحا أعطافَه ولثما[2] أطرافَه فكتَبَ لهما بما ينفَعُهما، وكان سببًا لردِّهما إلى عملِهما، وعندَ خروجِهما بالكتاب تعلَّق خادمٌ لابن يَسَار بهما كان مُدِلًّا عليه فسألهما بِرَّه وجزاءه على ما تهيَّأ لهما عندَ مولاه، فخَلَع لجِامَ مباركٍ عن رأسِ فرسِه وقد كان ركَّبه، فخلَّاهُ فضيحةً لا يَقدِرُ على حركتِه، ثمَّ بعدَ لأي ما رَدَّه، فلم تَمضِ إلَّا مُدَيْدةٌ وضرَبَ الدّهرُ ضَرَبانَه، فقضَى لمباركٍ بالإمارة هنالك ونالت ابنَ يَسَار المذكورَ محنةُ قُرطُبَةَ بعدَ ذلك، فجال النواحيَ وأمَّ مبارَكًا هذا لا يشُكُّ في معرفتِه بمنزلتِه وحِرصِه على مبرَّتِه، فحلَّ بَلَنْسِيةَ فما أنصَفَه في اللقاء فضلًا عن القِرى.

ثمَّ ظهَر من سياسةِ هذَيْن العبدَيْن الفدْمَيْن: مباركٍ ومُظفَّر في مدَّة إمارتِهما، إلى أن تعامَلا من صحَّة الأُلفة بينَهما فيها طُولَ حياتِهما بما فاتا في معناهُما أشقّاءَ الإخوة وعُشّاقَ الأحبَّة، نَزلا يومَئذٍ معًا في سُلطانِهما بقصر الإمارة مُختلطَيْنِ تجمُعهما في أكثرِ أوقاتِهما مائدةٌ واحدة ولا يتميَّزُ أحدُهما عن الآخَر في عظيم ما يستعملانِه من كُسوة وحِلْية وفُرُشٍ ومركوبٍ وآلة، لا ينفردانِ إلَّا في الـحُرَم خاصَّةً، على أنَّ جماعةَ حُرَمِهما كُنَّ مُختلطاتٍ في منازِل القصر ومُستوِياتٍ في سائرِ الأمر، غيرَ أنَّ لمباركٍ كان التقدُّمُ في المخاطبة هنالك في حقيقة رسُوم الإمارة لفَضْل صَرامةٍ ونَكْراء كانتا فيه يُقصِّرُ عنها مظفَّرٌ لدَماثةِ خُلُقِه وانحطاطِه لصاحبِه في سائرِ أمرِه ورِضاهُ بكلّ فعلِه على رِيادةِ مظفَّر -زعَموا- عليه ببعضِ كتابةٍ ساذَجة وفروسيَّة.

---

(١) النص في الذخيرة لابن بسام ٣/ ١٥ فما بعدها.

(٢) خمس أكثرها في الأصل واستفدناها من الذخيرة.

وبلَغَت جبايتُهما لأوَّل ولايتهما إلى مئة وعشرينَ ألفَ دينار في الشهر: سبعونَ بَلَنْسِيَة وخمسونَ شاطِبة، يستخرجانِها بأشدِّ العُنف من كلِّ صنف، حتَّى تساقَطتِ الرّعيَّةُ وجَلَّت أوَّلًا فأوَّلًا وخرِبت أقاليمُهم آخِرًا، فأقبَلَت الدّنيا يومَئذٍ عليهما بكثرةِ الـخَراج وتبوُّؤ البَحْبوحة بحيث لا يُغاورونَ عدوًّا ولا تَطرُقُهم نائبةٌ تضمُّهم إلى نفقةٍ حادثة، فانتبشوا وكثّروا.

ولحِق بهم لأوَّل أمرِهم من مَوالي المسلمينَ ومن أجناسِ الصَّقْلَب والإفْرَنج والبَشْكُنَش عشيرتِهم، ودَرِبوا على الركوبِ حتَّى تلاحَقَ ببَلَنْسِيَةَ ونواحيها من هؤلاء الأصناف فوارسُ برّزوا في البَسالة والثِّقاف، وانفتَحَ على المسلمينَ ببلاد الأندَلُس أمرٌ شديدٌ في إباقة العبيد، إذ نزَعَ إليهم كلُّ شَرِيد طَرِيد وكلُّ عاقٍّ مُشاقّ، وزَهِدوا في الأحرارِ وأبنائهم مـمَّن طرأ منهم عليهم، فلم يُواسُوهم، وانتمَتْ جماعةُ هذه الأخلاط الـمُمتَهنة الأصاغرِ معَهم إلى ولاء بني أبي عامر، وانتفَتْ عن نَسَبِها ابتغاء عَرَض الدّنيا فكثُروا.

وطلَبَ هذانِ العبدان لـمّا اتَّسعت لهم الدّنيا فاخِرَ الأسلحة والآلات والخَيْلَ الـمُغرفات ونفائسَ الـحُليِّ والحُلَل، فصارت دولتُهم أسرى الدّول، ولحِقَ بهم عَريفُ كلِّ صناعة ورئيس، فنفَقَ سُوقُ المتاع لديهم، وجُلِبت كلُّ ذخيرةٍ إليهم، وكانا بَنَيا بَلَنْسِيَة وسدّا عورتَها بسُورٍ أحاطَ بمدينتِها تحتَ أبوابٍ حَصِينة، فارتفَع الطّمعُ عنها، ورحَل الناسُ من كلِّ قُطر بالأموالِ إليها، وطَمِحت بسُكّانِها الآمال، واستوطَنَها طائفةٌ من جاليةِ قُرطُبة القَلِقةِ الاستقرار، فألقَوْا بها عَصا التَّسيار، وأجمَلَ عشرتَهم فتبوَّءوا بها المنازلَ والقَصور، واتّخَذوا البساتينَ الزّاهرةَ والرِّياضاتِ الناضرة، وأجْرَوْا بها المياهَ المتدفِّقة.

وسلَكَ مباركٌ ومُظفَّرٌ سبيلَ الملوكِ الجبَّارينَ في إشادة البناء والقصور والتباهي في عَليّاتِ الأمور، إلى أبعدِ الغايات، ومنتهَى النهايات، بما أبقَيا شأنَهما حديثًا لمن بعدَهما، واشتَمل هذا الرأيُ على جميع أصحابِهما ومَن تعلَّقَ بهما من وُزرائهما وكتّابِهما، فاحتَذَوْا فعلَهما في تفخيم البناء، فهاموا منه في تُرَّهاتٍ مُضِلَّة، وتسكّعوا في أشغالٍ متَّصلة، لاهينَ عمَّا كان فيه الأُمَّةُ يومَئذٍ، كأنَّهم من الله على عهدٍ لا يُخلِفُه.

واتَّسع الـخَرْقُ في عظيم ذلك الإنفاق، فمنهم من قُدّرت نفقتُه على منزلِه مئة ألفِ دينار وأقلّ منها وفوقَها حسَبَ تناهيهم في سَرْوِها، وبُعْثِرَ عن ذخائرِ الأملاك لقَصْدِهم، وضَرَبَ تُجّارُها وجوهَ الركابِ نحوَهم حتّى بلَغوا من ذلك البُغْية، فما شئْتَ من طِرْفٍ رائق، وملبَس رفيع جَليل، وخادم عجيبٍ نبيل، وآلاتٍ مُشاكلة، وأمورٍ متقابِلة تَرُوقُ الناظرينَ وتَغيظُ الحاسدين، جرَّها لهمُ المقدارُ إلى مدَّة.

وكان لـمُبارَكٍ ومظفَّرٍ جَنَّةُ ذلك النّعيم، وفازا بعُنصر الخَراج، ولم يَعرِضْ لهما عارِضُ اتّفاقٍ بتلك الآفاق فانغَمسا في النّعيم إلى قِمَم رءوسِهما، وأخْلَدا إلى الدَّعة، وسارعا في قضاء اللّذَّةِ حتّى أرْبَيا على مَن تقدَّم وتأخَّر.

حدَّث مَن رأى مركوبَ هذَيْن العَبْدينِ الزلمتَيْنِ في بعضِ أيّام الجُمَع للمسجد الجامع ببَلَنْسِية بما أنْسَى مركَبَ المظفَّرِ عبدِ الملك بن أبي عامرٍ مَوْلاهما الـمُثير كان للنِّعمة الوارِث لِحجابةِ الخلافة في فُخورِ لباسِهما ووفورِ عددِ أصحابِهما وحُسن خِدمتِهم لهما، وأنَّ كلًّا منهما كان يُظاهرُ الوَشْيَ على الـخَزّ ويَستشعرُ الدَّيبقيَّ ويتقلَّسُ الموشيَّ ويتعطَّفُ القَسِّيَّ.

قال حيَّانُ بن خَلَف: قال لي المحدِّث: وكنتُ أعرِفُهما عبدَيْ مهنة[1] لـمَوْلاهما مُفرِّج العامريّ، فكان حظّي منَ الاعتبار في الدّنيا ذلك، إذ كانا على استخدامِهما له من الـجَهْل والأفن واللّكنة من حُجَج الله تعالى في القسَم البالغة الدالَّة على هَوانِ الدّنيا عندَه، إذ أنالَهما منها بَحْبوحةً أضحَتْ أبصارُ أُولي النُّهى نحوَها شاخصة، وقلوبُهم فيها مسلِّمةٌ لـمَن له الـحَوْلُ والقوَّة، وهما عن الاعتبار عنها بمَنْحاةٍ من مندوحةِ الجهالة يحسَبانِ أنَّهما نالا ذلك بالاستحقاق، وأنَّ لهما على الأيّام دَرْكًا، يحُثّانِ بسَوْق الرعيَّة الـمُضطهَدة بسُلطانِهما ولا يعبآنِ بما آذاها من كَلَفِهما، يُقلِّدانِها شِرارَ العمّال، ويَستزيدانِ عليها في الوظائفِ الثِّقال، معَ الأيّام واللّيال، حتّى لغَدَا كثيرٌ منهم يلبَسونَ الجلودَ والـحُصُر، ويأكُلونَ البَقْلَ والحشيش، وفرَّ أكثرُهم عن قُراهم، فلا يأسَفُ هذانِ

(١) في الذخيرة: «عبدي غيّة».

العِلْجان ومَن تلاهما، ولا يخافانِ من مُواقعة مثلِه لمن أقام بعدَهم، بل يتَّخذانِ ما جَلا عنه أهلُه من تلك القُرى ضِيَاعًا مُستخلَصة، فإذا وقَع عليها اسمُ كبيرٍ منهم راجَع أهلَها راضينَ عنه بالاعتمال بالسَّهم راجِينَ في دفاعِه من الحِدْثان، وعلى هذا السبيل سلَكَ أكثرُ الثُّوار الـمُنتَزِينَ على أكنافِها الثائرينَ بأطرافِها بعدَ افتراقِ سُلطانِ الجماعة بقُرطُبَة آخِرَ دولةِ بني عامر.

قال ابنُ بسَّام[1]: كانا عبدَيْ مهنة، وأميرَيْ فتنة، قلَّ الناسُ فكثُروا، وخَلا لهم الجوُّ فباضوا وصَفَروا، وغاظُوا الجماعةَ بقُرطُبة مدَّةَ أيَّامِهم، وداسُوا أحسابَ الأحرارِ بأقدامِهم، مستمتعينَ بدُنياهم، غافلينَ عن عادةِ الله فيمَن جَرى مجراهم، سقَطتِ الفتنةُ عليهم برَغْم الأيَّام، وزُفَّت إليهم عقائلُ الكلام، فيَعكُفونَ منهنّ[2] على أصنام دِبار[3]، وأصداءٍ قِفار، سواءٌ عندَهم سَجْعُ البُلبل ورُغاءُ الإبل، وسيمُرُّ في عَرْض الخبر جملةٌ من غرائبِ ضياع الأدبِ في مدَّةِ أولئك الـمَجَابيب الصَّقْلَب، ممَّا فيه عِظةٌ لمن اعتبَر، وكان له بصرٌ فنظَر وادَّكَر.

رجَعْنا للخبر: وكان سببُ موتِ مباركٍ أحدِهما أنَّه ركِبَ يومًا من قصرِ بَلَنْسِيَة يَبْغي الخروجَ للنُّزهة خارجَ البلد على فرس وَرْد مُطهَّم قاني الرِّكاب، وأهلُ بَلَنْسِية يستغيثونَه في أن يرفُقَ لهم في مالٍ كان افتَرَضه عليهم، فقال لهم يومَئذٍ: اللَّهمَّ إن كنتُ لا أريدُ إنفاقَه فيما يعُمُّ المسلمينَ نفعُه فلا تؤخِّرْ عقوبتي الساعة، ثمَّ ركِبَ إثْرَ ذلك، فلمَّا أتَى القَنْطرةَ وكانت من خشَب خرَجت رِجلُ فرسِه فرَمَى به أسفلَها واعترضَتْه خشَبةٌ ناتئةٌ من القنطرة شدَخَت وجهَه وسَقَط لِفيه ويدَيْه، وسقَطَ الفرسُ عليه وكسَرَ عظامَه وفتَقَ بطنَه، ففاضَتْ نفسُه لوقتِه، وأمِنَ أهلُ البلد من مَقْتِه وكَفاهم اللهُ أمرَه، فثاروا يومَهم ذلك وانتهَبوا قصرَه.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٤-١٩، وهو ملخص من كلام ابن حيان.

(٢) في الذخيرة: «منهم».

(٣) في الذخيرة: «رسوم ديار».

ولايةُ لبيبٍ الصَّقْلَبيِّ مدينةَ بَلَنْسِيَةَ[1]

وذلك أنّ أهلَ بَلَنْسِيَةَ لـمّا مات مباركٌ اتّفقوا على تقديم لبيبِ الصَّقْلَبيّ هذا، فأحدَثَ فيهم أحداثًا مقَتُوهُ بها، فلاذَ بالطاغية أميرِ الإفْرَنج يومَئذٍ واستبلَغَ في ألطافِه، حتَّى صيَّر نفسَه كبعض عُمّالِه، فغاظَ المسلمينَ ذلك، إذ عرَّضَهم لـمُلكِ النَّصرانيَّة، فوثَبوا عليه واستَصْرَخوا ابنَ هُود فلحِقَ بهم، وأظلَمَ الأُفقُ بينَه وبينَ مجاهدٍ المتقدِّم الذِّكر لِـما فاتَه من أمرِ طَرْطُوشَة، وجَرت بينَهما حروبٌ خافَ الناسُ وَبالَ عاقبتِها على ثغورٍ مثغورة خلالَ كلمة مختلفة وقُوًى مُنتكَثة، ثُمَّ آلَت تلك الناحيةُ إلى تأميرِ عبد العزيز بن أبي عامر.

ولايةُ عبد العزيز بن أبي عامرٍ وابنِه بَلَنْسِيةَ[2]

قال حيَّانُ بن خَلَف[3]: هو عبدُ العزيز بنُ عبد الرحمن ابن المنصور محمَّد بن أبي عامر، وكان لقَبُه المنصورَ، وكان الـمَوالي العامريُّونَ عند ذهابِ مُجاهدٍ عنهم قد أسنَدوا أمرَهم إلى نفَر من مشيختِهم فتشاوَروا في ارتيادِ أميرٍ من أنفسِهم يعترفونَ له، فاتَّفقوا على عبدِ العزيز ابن مَوْلاهم إيثارًا له على ابن عمِّه محمَّد بن عبد الملك، وكان مقيمًا بقُرطُبَةَ وعبدُ العزيز بسَرَقُسْطةَ في كنَفِ منذرِ بن يحيى، فأحكَمَ له التدبيرَ وخرَجَ سرًّا فلحِقَ ببَلَنْسِية، فاستقبَلَه الـمَوالي أفواجًا وقلَّدوه رياستَهم، وكان عبدُ العزيز هذا من أوصلِهم لرحِمِه وأحفظِهم لقرابتِه ابتعَثَه اللهُ رحمةً للممتحَنِينَ من أهل بيتِه فآواهم وجبَرَ الكِسَير ونعَش العثيرَ طُولَ مدَّتِه حتَّى بلَغَ من ذلك مبلغًا أعيا ملوكُ زمانِه وخاطَب لأوَّل حينِه الخليفةَ بقُرطُبة القاسمَ بن حمُّود معَ هديَّة حسَنة وذكَّره بذِمام سَلَفِه، فسماه المؤتمنَ ذا السابقتَيْن، فتوطَّد سُلطانُه واشتمل على خدمتِه أربعةٌ من الكُتَّاب حتَّى سمَّاهم الناسُ الطبائعَ الأربع، وهم: ابنُ طالوتَ وابنُ عبَّاس وابنُ عبد العزيز وابنُ التَّاكُرُنّي كاتبُ رسائلِه، ولم تزَلْ حالُه تسمو حتَّى اتَّصل بوزارته فنال جسيمًا من دُنياه، وطالت إمارة عبدُ العزيز إلى سنةِ اثنتين وخمسينَ فتوفِّي في ذي الحجَّة منها.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٩.

(٢) الذخيرة لابن بسام ٣/ ١٨٦، والمغرب ٢/ ٣٠٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦١.

(٣) النص في الذخيرة ٣/ ١٨٦.

ولايةُ عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر(١)

ثمَّ تقدَّم عبدُ الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، اجتمَع أصحابُ أبيه عبدِ العزيز على تأميرِه، وقام له بأمرِه كاتبُ والدِه والمدبِّر لدولته الوزيرُ ابن عبد العزيز المشهورُ معَ معرفته بابن رَوْبَش القرطبيُّ، وكان مشهورًا بالرّجَاحة فأحسَن هذا الكاتبُ معونتَه على شأنِه وتولَّى تمهيدَ سُلطانِه واستقرَّ أمرُه على ضَعْف رُكنِه لعَدَم المال وقلَّة الرّجال وفساد أكثرِ الأعمال، وراعى هذا الكاتبُ الشّهم مدبِّرُ تلك الدولة في هذا المؤمّر عبد الملك مكان صِهرِه الأمير المأمون يحيى بن ذي النّون، إذ كان صِهرَ عبد الملك أبا امرأتِه المساهمَ له في مُصابِ أبيه الـمُعينَ له على سدِّ ثَلْمِه الذائدَ عنه كلَّ مَنْ طمِع فيه، فانزعج عندَ نزول الحادثة من حضرته طُلَيْطُلَةَ إلى قلعة كونْكة من طرف أعمالِه للدنوِّ من صهرِه عبد الملك، وبادر بإنفاذ قائد من خاصَّته وبالكاتبِ ابن مُثَنًّى إلى بَلَنْسِيَة في جيش كثيف أمرَهم بالمقام معَ عبد الملك وشدِّ رُكنِه، فسكَنَت الدَّهماءُ عليه، ومضَى عبدُ العزيز أبوه غيرَ فقيدِ المكان ولا عديم الشأن ولا مُبْكٍ لسمائه وأرضِه ما فُجع به إلَّا ذَوو رحمة من آل أبي عامر لتناهيه في صِلتهم حتَّى صار إسرافُه في ذلك من أضرِّ الأشياء لـجُنده وأجلبِها لذمِّه، له في ذلك أخبارٌ مأثورة، وتوفِّي وهُو أطولُ أُمراء الأندلس مدَّةَ إمارة وتملُّكها أربعينَ حجَّة، فسبحان المنفردِ بالبقاء الأوَّلِ قبل الأشياء.

بعضُ أخبار خَيْرانَ الفتى الـمُنْتَزي على مدينة الـمَرِيَّة أوَّلَ هذه الفتنة(٢)

هو خَيْرانُ الصَّقْلَبيُّ العامريُّ، وكان من جِلَّة فتيان ابن أبي عامر، فلمّا تخرَّبت الخلافةُ وانشقَّت عَصا الأُمَّة انتزَى خَيْرانُ هذا على مدينة الـمَرِيَّة وأعمالِـها وانضَوى إليه جميعُ فتيان محمَّد بن أبي عامر فُحولِـهم وخِصيانِـهم، ولهم في هذه الأمور حروبٌ أعرَضْنا عن ذكرِها لِـما شرَطْناه من الاختصار، فدبَّر أمرَ مدينة المريَّة إلى أنْ هلَك سنةَ تسعَ عشْرةَ وأربع مئة.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٨٧.

(٢) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩١.

وصار الأمرُ فيها إلى صاحبِه زُهيرٍ الفتى العامِريّ، فوَلِيَها من بعدِه نحوَ عشَرة أعوام وتحرَّكَ إلى مدينة غَرْناطةَ في جيشٍ كثيف حتَّى وصَل إلى بابِها، فخرَجَ إليه جَمْع من صُنْهاجة معَ أميرهم باديسَ بن حَبُّوس، فوقَعَت بينَهم حربٌ كان الظَّفَرُ فيها لصُنْهاجة وانهزَم جيشُ الصّقالبة وقُتل زُهيرٌ أميرُهم وكثيرٌ منهم، واتَّصل خبرُ هذه الوقعة بأهل المريَّة فضَبَطوا بلدَهم وأسندوا أمرَهم إلى شيخِهم أبي بكرٍ الرُّمَيْميّ فضَبَطَ المريَّةَ أحسنَ ضبط إلى أن كاتَبوا عبدَ العزيز بنَ أبي عامر المتقدّمَ الذِّكر إلى بَلَنْسِية فجاءهم وأقام الدّعوةَ على مِنبرها لهشام المؤيَّد على أنَّه الرجلُ المنصوبُ بإشبيلِيَة على ما يأتي ذكرُه في دولة ابن عبّاد.

وحصَلَ ابنُ أبي عامر هذا من تركة هؤلاء الـخِصْيان على أموال جليلة، وانصَرف إلى بَلَنسيَةَ بعدَ أن ولَّى على مدينة المريَّة صِهرَه أبا يحيى معنَ بن صُمادِح التُّجِيبيَّ.

بعضُ أخبار مَعْن بن صُمَادِح التُّجِيبي(١)

لـمّا ترَكه عبدُ العزيز بن أبي عامر واليًا عليها من قِبَلِه، غَدَره وخَلَع طاعتَه ونقَض عهدَه وانتَزى عليه فيها ودَعا لنفسه، وذلك في سنة ثلاث وثلاثينَ وأربع مئة، فمَلَكَ مدينةَ المريَّة وأعمالَـها، وكان من كُبراء العرب، وكان أبوه من قُوَّادِ محمَّد بن أبي عامر ولَّاه الولاياتِ وقاد له الجيوشَ، وتوفّي بمدينة وَشْقة.

وحاربَ معنٌ هذا مَن جاوَرَه من سائر ملوك الطوائف إلى أن هلَكَ في شهر رمضانَ من سنة ثلاث وأربعينَ وأربع مئة.

ثمَّ وَلِي ابنُه أبو يحيى بن مَعْن بن صُمادِح، أجلَسَه بنو عمِّه التُّجِيبيُّونَ مكانَ أبيه، وكان أبوه أخَذ له بيعتَهم فتمَّت الإمارةُ له. وسمَّى نفسَه معزَّ الدولة، فلمّا تلقَّبت ملوكُ الأندَلس بالألقاب السلطانيَّة تلقَّب هو أيضًا باسَميْنِ من ألقابِها، فسمَّى نفسَه المعتصمَ بالله الواثقَ بفَضْل الله، ضاهَى في ذلك عَبَّادًا، فجرى هذا الفتى أبو يحيى معَ رجالِه مجراهُ على أحسنِ سيرةٍ في جُنده ورعيَّتِه، فحسُنَت أيَّامُه واطَّردت دولتُه، وكان من أهل

---

(١) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩١-٢٩٢.

الأدبِ والمعارف، فاضلًا عاقلًا، كان لأهل الشِّعر عندَه سُوقٌ نافقة، فقَصَده جَمْع منهم، وأقام ملكًا بمدينة المرِيَّة وأعمالِها مدَّةً طويلةً قَطَعها في حروبِه ولَذّاتِه، فكانت مدَّتُهُ إحدى وأربعينَ سنة، وصَدَمتْه عساكرُ لِـمَتُوْنَة آخِرَ مدَّتِه وهو يُعالِجُ الموت، فجعل يقول: نُغِّص علينا حتَّى الموت! وهلَكَ على إثْرِ رحيل عساكرِ لَـمْتُونَةَ عنه حسبَما يأتي ذكرُه في دولتهم إن شاء اللهُ تعالى.

وترَكَ ابنًا له كان قد رشّحه للأمر من بعدِه، وأوصاه بوصيّتِه فامتثَلها بعدَ موتِه، وكان قال له: إذا بلَغَك أنَّ ابنَ عبّاد جَرى عليه شيءٌ من قِبَل هؤلاء أصحابِ اللثام فاركَبْ هذا البحرَ إلى بلاد بني حمّاد، فما بقي بعدَه إلَّا ستَّةَ أشهر، وبلَغَه خَلْعُ المعتمد فصنَع ما أمره به أبوه على ما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى، فكاتَبَ المنصورَ ابنَ الناصر صاحبَ قلعة حمّاد: من عمل بِجَا يَةَ، واستأذَنَه في الوصول إلى بلاده فأذِنَ له وقال له: اقصِدْ إلى مدينة تنس فلم يزَلْ بها إلى آخرِ عهدِه.

وأمَّا زُهيرٌ الفتى المتقدِّمُ الذكر فكان قد امتدَّت أطنابُ مملكته من المريَّة إلى شاطِبَةَ وما يليها إلى بَيَّاسةَ وما وراءها إلى الفَجّ من أوَّلِ عمل طُلَيْطُلَة(1).

قال حيَّانُ بن خَلَف: وكان سببَ فساد باديسَ بن حَبُّوس على جارِه القديم الـحِلْف زُهير الفتى فتى المنصور بن أبي عامر مُوالاتُه لكاشِحِه محمَّد بن عبد الله الزَّناتيّ، ومضَى على ذلك حَبُّوسٌ من عداوتِه وخَلَّفها كلمةً باقية في عَقِبه ضَرَّم زُهيرٌ نارَها بعدُ فتمادى تمسُّكه بالمذكور، فأرسَلَ إليه باديسُ رسولَه مُعاتبًا مستدعيًا تجديدَ المحالفة، فسارع زُهيرٌ مقبِلًا نحوَ باديس وضَيَّع الحَزْم واغترَّ بالعُجْب ووثِق بالكثرة وصار أشبَه شيءٍ بمجيء الأمير الضّخم إلى العامل من عُمَّالِه قد تَرك رسومَ الالتقاء بالنُّظَراء وغيرِ ذلك من وجوه الحزم، وأعرَضَ زهيرٌ عن ذلك كلِّه وأقبَلَ ضاربًا سوطَه حتَّى تجاوَزَ الحدَّ الذي جَرت عادتُه بالوقوف عندَه من عمل باديسَ دونَ إذْنِه، وصيَّر المضائقَ والأوْعارَ خلْفَ ظهرِه ولا يُفكِّر فيها، واقتَحم البلدَ حتَّى صار إلى باب غَرْناطة.

(1) الإحاطة ١/ ٥١٨.

هزيمةُ زهير الفتى ومقتلُه هو وكاتبُه أحمدُ بن عبَّاس[1]

لـمّا وصَل زُهيرٌ إلى غَرناطة خرَجَ إليه باديسُ بن حَبُّوس في جَمْعِه، وقد أنكر اقتحامَه عليه وعدَّه حاصلًا في قبضتِه، فبدَأه بالجميل والتكريم، وأوسَع عليه وعلى رجالِه في القرى والقَضيم بما مَكَّن اغترارَهم، وثبَّت طُمأنينتَهم، فوقَعت الـمُناظرةُ بينَ زُهير وباديسَ ومَن حضَرهما من رجال دولتِهما، فنشأ بينَهما عارِضُ اختلاف لأوَّلِ وَهْلة وحَمَل زُهيرٌ أمرَه على التشطّط ووزيرُه أحمدُ بن عبَّاس يَفْري الفَرْيَ في تصريح ما يُعرِّض به زُهير، فعزَم باديس عندَ ذلك على القتال، ووافَقه قومُه صُنهاجةُ، فأقام مَراتبَه ونصَب كتائبَه وقطَع قنطرةً لا مَحِيدَ لزُهير عنها والحائنُ زهيرٌ لا يشعرُ، وبات تتمخَّضُ له ليلتُه عن راغيةِ البِكْر، وغاداهُ باديسُ صَبيحتَها عن تَعْبِيَة مُحكَمة فلم يَرُعْه إلَّا رَجَّةُ القوم زاحفينَ إليه بخَفْق طبولهم، فدُهِش زُهير وأصحابُه، فيا لكَ من أمرٍ شتيت وهَوْل مفاجِئ قَسَم بالَ المرء بين نفسِه ومالِه ووَزَع همَّه بينَ رُوحِه ورَحْلِه، إلَّا أنَّ أميرَهم زُهيرًا أحسَن تدبيرَ الثّبات لو استتَمَّه، وقام ينتصبُ للحرب، فثبَتَ في قلبِ معسكرِه وقدَّم خليفتَه هُذَيلًا الصَّقْلَبي في وجوه أصحابِه من الـمَوالي العامريِّينَ الفحول وعشيرتِه الصَّقْلَب وغيرِهم لاستقبال صُنهاجة، فلمّا رأوْه علِموا أنَّهم حُماتُه وشوكتُه، وأنَّهم متى حصَدوها لم يثبُتْ لهم مَنْ وراءهم، فاختَلطَ الفريقان واشتدَّ بينَهم القتالُ مَلِيًّا، فلم يكنْ إلَّا كلا حتَّى حَكَم اللهُ بالظّهور لأقلِّ الطائفتَيْن عددًا ليُرِيَ اللهُ قدرتَه، ويجدِّدَ في قلوبِ عباده عِبرتَه، فنكَص في الصّدمة قائدُهم هُذَيل وانهزَم أصحابُه، وسيقَ هُذَيل لوقتِه إلى باديسَ أسيرًا فعجَّلَ بضرب عنُقِه، فما هُو إلَّا أنْ نظَرَ زُهيرٌ لمصرعِه ففرَّ على وجهِه فلم يستصحبْ ثقةً ولا انحازَ إلى فئة، ولجَّ به الفِرارُ، وانهزَم أصحابُه خلفَه لا يَلْوونَ على شيء، وركبت صُنهاجةُ ولَفُّها مِن زَناتَة أكتافَ القوم باذِلِينَ السّيفَ فيهم بصِدق العصبيَّة وإيثار الإفناء فلم يُبقوا على أحدٍ قَدَروا عليه فأساءوا الاعتداء وأبادوا أُمَّةً أخَذوا في شِعابٍ وَعِرة وأجْبُل شامخة ألجأهم إليها السيف، فكانت حَتْفَ مَن فرَّ وتقطَّعوا،

---

(١) الإحاطة ١/ ٥١٩-٥٢٠.

وعلى هذه السبيل أودَى أميرُهم زُهير وجُهِل مصرعُه، وكان سُودانُه غدَروه أوَّلَ وهلة وانقلبوا معَ صُنهاجة، وكانوا يُقاربونَ خمسَ مئة.

وغنِم رجالُ باديسَ من المال والخزائن والأسلحة والحِلْية والعُدَّة والغِلمان والخِيام وسائرِ أنواع الأموال ما لا يُحيطُ به الوصف.

وظفِرَ باديسُ على قوم من وجوهِ رجال زُهير فعجَّل على الفُرسانِ والقُوَّاد بالقتل، وشَمِلَ الإسارُ حَمَلةَ الأقلام وفيهم وزيرُه الكبيرُ أحمدُ بن عبَّاس الجارُّ لحرِّ هذه النائرة، فأمَرَ بحبسِه وشفاؤه الولوغُ في دمِه، وعفَّ باديسُ عن دماء حَمَلة الأقلام دونَه إلَّا مَن أُصيب منهم في الحرب، وأطلَقَ ابنَ حَزْم والباجيَّ وغيرَهما.

وكان باديسُ قد أرجأ قتْلَ ابن عبَّاس معَ جماعة من الأسْرى إلى أنْ وجَّه إليه أبو الحزم بنُ جَهْوَر رسُولًا شافعًا في جماعتهم، مؤكّدًا في شأنِ ابن عبَّاس، فكان أبعدَهم من الـخَلاص، وآثَرَ الشّفاء في قتلِه على عظيم ما كان يُعطَى في فِديتِه، فانصَرف يومًا من بعض ركَباتِه معَ أخيه بُلُقِّين، فلمّا مرَّ على الدارِ التي كان فيها ابنُ عبَّاس أمَرَ بإخراجِه إليه، فأقبَلَ يرسُفُ في قيودِه حتَّى أُقيم بين يدَيْه، فأقبَلَ على سبِّه وتبكيتِه بذنوبِه وأحمدُ يتلطَّفُ ويسألُه راحتَه مـمَّا هو فيه، فقال له: اليومَ تستريحُ من هذا الأمر وتنتقلُ إلى ما هو أشدُّ منه، فبان لأحمدَ منه وجْهُ الموت فجعلَ يُكثر الضّراعةَ لباديسَ ويُضعِفُ له عددَ المال، فآثَرَ غضبَه وهزَّ مِزْراقَهُ[1] فركزَه فيه، وأمَرَ بحزِّ رأسِه فعُلِّق ووريَ جسدُه خارجَ القصر، فمضَى زُهيرٌ وابنُ عبَّاس على هذه السبيل.

وكان ابنُ عبَّاس حسَنَ الكتابة مليحَ الخطّ غزيرَ الأدب قويَّ المعرفة مشاركًا في العلوم، حاضرَ الجواب ذكيَّ الخاطر، جامعًا للأدوات، وبلَغَني أنَّ عبدَ العزيز بنَ أبي عامر سعَى على دمِه لـمّا حصَلَ على المريَّة، وخاف أن يتخلّص فيُكدِّرها عليه، وكذلك أكَّد ابنُ صُمادِح صاحبُ المريَّة يومَئذ في قتلِه، فقتَلَه انصرافَ ابن صُمادِح عنه.

(١) المزراق: الرمح القصير.

لُـمَعٌ من أخبار ابن صُمادِح المذكور[1]

هو: أبو يحيى محمَّدُ بن مَعْن بن صُمادِح التُّجِيبيُّ، وقد ذكَر ابنُ حَيَّان بيتَه في تُجِيبَ وألـمَعَ بلُمَع من أسبابِ مُلكِه المغصوب وكيف تَبَلَّجَ نهارُه ومِن أين تصبَّب تيّارُه، فقال: كان جدُّه يحيى بنُ أحمد بن صُمادِح الـمُكَنَّى أيضًا بأبي يحيى، صاحبُ مدينة وشَقْةَ وعَملِها، طلَعت نباهتُه في أيَّام المؤيَّد هشام، ثمَّ كان له بسُليمانَ اتّصال، فثنّى له الوِزارةَ وأمضاهُ على عملِه، وكان أوَّلَ أمرِه مُجاملًا لابن عمِّه مُنذر بن يحيى يُظهرُ مُوافقَته ويُكاتمُه مِن حسدِه إيَّاه ما لا شيء فوقَه، ثمَّ خذَلَه جُملة[2] فلم يلبَثْ أن تقبَّحت[3] الحالُ بينَهما بعدَ مُضيِّ سليمانَ، وتحارَبا على مُلْك وَشْقة، فعَجَز ابنُ صُمادِح عن منذر لكثرة جموعِه وأسلَم له البلدَ وفرَّ بنفسِه، فلم يبْقَ له بالثّغر مَعْلق، وكان أوَّلَ ساقط من الثّوار لم يتملأ سلطانَه ولا أورَثَه مَن بعدَه، وكان أبو يحيى هذا ذا رأي ولسان وعارِضة، لم يَكُ في أصحابِ السيوف من يَعدِلُه في خِلالِه هذه من رجُل محروم، يقارنُه الشُّؤم، ويقعُدُ به النَّكدُ واللُّؤم، وكان يحمِلُ قطعةً صالحة من الأدب ينالُ بها حاجتَه مخاطبًا ومذكِّرًا لا يزالُ يسمو إلى طلبِ الدنيا يَعرَضُ في حركاتِه[4] فيقعُدُ به جِدُّه ويُنكسُه زمانُه إلى أنْ جَرى عليه الدهرُ بضَرَبانِه.

وأمَّا أبوه[5] ذو الغَدْرةِ الصّلعاء فإنّه لـمّا قُتل زُهيرٌ وصارت المريَّةُ لعبد العزيز بن أبي عامر صاحبِ بَلَنسِية حسَده على ذلك مجاهدٌ صاحبُ دانِيَة، فأظلم الأُفُق بينَهما، فخرَجَ مجاهدٌ غازيًا بلادَ عبد العزيز وهو بالـمَرِيَّة مشتغلًا في تِركة زُهير، فخرَجَ مُبادرًا

---

(١) الذخيرة لابن بسام ١/ ٥٥٦ فما بعدها، ومنه ينقل المؤلف وأخباره في المعجب ١٩٦، والمغرب ٢/ ١٩٥، والمطرب ٣٤، والحلة السيراء ٢/ ٧٨-٨٨، ووفيات الأعيان ٥/ ٣٩ وغيرها.

(٢) في الذخيرة: تجمله.

(٣) في الذخيرة: تفرّجت.

(٤) في الذخيرة: «والحرص عليها في أكثر حركاته»، ويعرص: يضطرب.

(٥) في الأصل والمطبوع من الذخيرة: «ابنه» ولا يصح، على أنه ورد في نسختين من الذخيرة على الصواب «أبوه» فعدل به المحقق إلى «ابنه» وسياق الحديث واضح بيّن أن المذكور هو والد محمد بن معن.

عنها لاستصلاح مجاهد، وترَكَ واليًا عليها من قِبَلِه صِهرَه مَعْنَ بن صُمادِح المتقدِّم ذكرُه، فكان شرَّ خليفةٍ استُخلِف، لم يكد يُواري عبدُ العزيز وجهَه عنه حتَّى خانَه الأمانةَ وطَرَده عن الإمارة ونصَبَ له الحرب، فغرَّب في اللُّؤم ما شاء، وتنكَّب ابنُ أبي عامر التوفيقَ لاسترعائه الذئبَ الأزلَّ على ثُلَّته، ومسترعي الذّئب ظالم[1]. وكان من العُجب أنْ تملَّكها ابنُ صُمادِح مُدَّتَه وأورَثَها عِقِبَه.

ثمَّ أفضَى الأمرُ بعدَه إلى ابنه أبي يحيى محمَّد بن مَعْن المتقدّم الذكر، فارتقَى ذِروةَ الإمارة وتلقَّب من الألقاب السُّلطانيَّة بالمعتصم والرَّشيد وهو يعلمُ أنَّ من الـجَوْر والباطل أُسَّ مُلكِه الموروث عن أبٍ لم يكرُمْ فيه فعلُه ولا طال فيه تعبُه، ثمَّ لم يَكْفِه تَغَطِّيهِ عن أجنحة النوائبِ بساحلِه الذي حال الحزْنُ[2] أمامَه والثَّبَجُ[3] وراءه، فرعى خُضرتَه ولبِسَ فُروتَه، وآثَر شَهَواتِه مستبدًّا بها ألفاه لا يتجاوزُ به شَهَواتِه ولَذَّاتِه دونَ قضاء حقّ في جهاد عدوّ أو سدّ ثَغْر أو مَعونةٍ على صِهرِه، حتَّى ملَّ العافيةَ وقصَر[4] الدَّعةَ وطلَبَ الزيادة، وفاتَنَ ابنَ خالِه عبدَ الملك ابنَ أبي عامر، ولم يَرْعَ فيه حقَّ صِهرِه يحيى بن ذي النُّون كبير ثُوّار[5] الأندلس يومئذٍ، فصَمَدَ له على حصنٍ من عمل تُدْمِير وَثَبَ فيه بعامل عبد المَلِك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وجَرت بينَهما خُطوبٌ، واستعان بحليفِه باديسَ واستمدَّه على ما ذَهب إليه من الفتنة، فوجَده مُسارعًا إلى ذلك لِـمَا كان يعتقدُه من العصَبيَّة البربريَّة ويذهبُ إليه من إرداء فرقة الأندَلسيّين، ومعَ ذلك كلِّه فانقلب ابنُ مَعْن خائبَ السعي قبيحَ الـخَجَل ضائعَ النفقة.

قال ابنُ بسَّام[6]: لم يكنْ أبو يحيى هذا من ملوك الفتنة، أخْلَد إلى الدَّعة، واكتفَى عن الضِّيق بالسَّعة، واقتصَر على قَصْر يبنيه، وعِلْق يقتنيه، ومَيْدان من اللَّذَّة يستولي عليه

---

(١) في الذخيرة: «أظلم».

(٢) في المطبوع من الذخيرة: «الحوز»، وجاء في نسختين منها كما أثبتنا.

(٣) في الذخيرة: «اللج».

(٤) في الذخيرة: «وبطر».

(٥) في الذخيرة: «أمراء».

(٦) الذخيرة ١/ ٥٥٨.

ويُبرِّزُ فيه، غيرَ أنَّه كان رَحْبَ الفِناء، جزيلَ العَطاء، حليمًا عن الدّماء والدَّهْماء، طافَتْ به الآمال، واتَّسع في وصفِه[١] المقال، وأُعملت إلى حضرتِه الرحال، ولزِمَه فُحولٌ من شعراء الوقت كأبي عبد الله ابن الحدَّاد وابن عُبادةَ وابن الشَّهيد وغيرِهم، وقد كانت بينَه وبينَ خُلفائه بالجزيرة مِن ملوك الطوائف فُتونٌ مُبيرة غَلَبوه عليها وأخرَجوه من سَجِيَّتِه مُكْرَهًا إليها، لم يكن مكانُه منها بمَكِين، ولا فتْحُه[٢] فيها بِمُبين.

بعضُ أخبار مُنذرِ بن يحيى صاحبِ سَرَقُسْطَة وذَواتِها[٣]

كان[٤] منذرُ بن يحيى رجلًا من عُرْض[٥] الـجُند وترقَّى إلى القيادة آخِرَ دولة ابن أبي عامر، وتَناهى أمرُه في الفتنة إلى الإمارة. وكان أبوه يحيى منَ الفرسان غير النُّبَهاء، فأمَّا ابنُه منذرٌ هذا فكان فارسًا لبِقَ الفروسيَّة، خارجًا عن حدِّ الجهل يتمسَّكُ بطَرَف من الكتابة الساذَجة. وأمَّا غَدْرُه فالنارُ برأس اليَفَاع، من أفحشِه: صُنْعُه بهشام المخلوع مولى نعمتِه ومُعلي رُتبتِه وباعثِه إلى الثّغر لنُصرتِه، فانقلب ناصرًا لعدوِّه وغَزاهُ في عُقْرِ دارِه وأنزَلَه عن سريرِه وأسلَمه لـحَتْفِه وباعَ دماء عشيرتِه أهل قُرطُبة من البرابرة، وعاد بمثلِها لمحمَّد بن سُليمانَ أثيرِه عندَما استجارَ به وهُو في نكبتِه، فقتَلَه وهو ضيفُه، فجاء بها صَلْعاء مشهورةً لم تغسِلْها معذرة، إلَّا أنَّه كان كريمًا وهَبَ لقُصَّادِه مالًا عظيمًا فوفَدوا عليه وعَمَرت لذلك حضرتُه سَرَقُسْطة فحسُنت أيّامُه وهتَفَ الـمُدَّاحُ بذكرِه.

وكان لأوَّل ولايتِه قد ساسَ عُظماءَ الإفْرَنج فحُفِظت أطرافُه إلى أنْ مضى بسبيلِه والثّغرُ مسدودٌ لا ثغرةَ فيه، وبلَغَ منَ استمالتِه طوائفَ النَّصرانيَّة أنْ جَرى بينَ يدَيْه

(١) في الذخيرة: «في مدحه».

(٢) في الذخيرة: «صبحه».

(٣) الذخيرة لابن بسام ١/ ٤٧ فما بعدها ومنه ينقل المؤلف. وينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٩، والمغرب ٢/ ٤٣٥، والإحاطة ٣/ ٢٨١، وأعمال الأعلام ١٩٦-٢٠١.

(٤) هذا كلام المؤرخ ابن حيان.

(٥) أي: عامتهم.

وبحضرتِه عَقْدُ مُصاهرةٍ بعضِهم، فقذفَتْه الألسِنةُ لسَعْيه في نَظْم سلكِ النّصارى وقد قيل: إنَّ رأيَ منذرٍ كان في ذلك أحصَفَ مـمَّن قَدَح فيه لنظَرِه في صلاح وقتِه وعلمِه بانصداع عصا أهل كلمتِه، فآثَرَ منَ الـمُوادعة ما سَتَر به العورةَ وسدَّها بيسير الكُلفة. واختُدِع به عظيمُ الـجَلالقة: ريمنده وشانْجُه المحدِّثانِ أنفُسَهما يومَئذٍ بمناهضة أهل الأندَلس، فألهاهُما عن الحرب وحَبَّب إليهما الدَّعَةَ وأغْنَم أهلَ الثّغر في ذلك الوقت عاجلَ السّلامة واستَظْهَروا به على العِمارة فحَيُوا وعاشوا في نعمةٍ ضافية وعيشة راضية إلى أنْ ألْوَتْ بمُنذرٍ المنيَّة وقد اعتَرف الناسُ برأيه وأقرُّوا بسياسته، ولم يأتِ بعدَه من يَسُدّ مسَدَّه ولم ينفع اللهُ الطاغيتَيْنِ بعدَه بالذي كانا عقَداه بحضرة منذر، إذ أعجَلَ عنه شانْجُه وأثيرَه ريمنده وابنَه بعدَه، فشتَّت اللهُ شملَ الطاغية يومئذ وكفَى المسلمينَ شرَّهم برحمتِه. واشتمَل منذرٌ على قُوَّادِ تلك الثغور، واستَوْسَقَت له الأمور، واستكتَبَ عِدَّةَ كتَّابٍ جِلّة: ابنَ مروس وابنَ أرزق وابنَ واجب وغيرَهم رحمهم اللهُ تعالى.

مقتلُ منذرِ بن يحيى رحمه الله[1]

قال ابنُ حيَّان: كان ذلك على يد رجُل مارِد من بني عمِّه يقال له: عبدُ الله بن حَكيم[2]، وكان مقدَّمًا في قُوَّاد منذر، أضْمَر الفتك به دهرًا، فدخَل عليه غُرَّة ذي الحجَّة سنةَ ثلاثينَ وأربع مئة وهو غافلٌ في غُلالة وليس عندَه إلَّا نفرٌ يسير من خواصِّ خَدَمِه الصَّقْلَب وهو كابٌّ على كتابٍ يقرؤه، فعَلاهُ بسِكّين قد أعدَّه فقَطَع[3] به أوْداجَه ولا مانعَ منه وهرَبَ خَدَمُ السّوء[4] الغِلمانُ الخِصْيانُ الذين كانوا على رأسِه وخَلَّوْهُ في يدِه إلَّا خادمًا شهمًا دفَعَ عنه وهو حاسِر فضَربَه عبدُ الله بخِنجر فقضَى عليه معَ مولاه. وأخرجَ رأسَ مُنذر في الوقت من قصرِه فوقَ عصاةٍ[5] ينادي عليه: هذا جزاءُ مَن عصَى

(١) الذخيرة ١/ ١٥٠ فما بعدها باختلاف لفظي.

(٢) في الذخيرة: «حكم».

(٣) في الذخيرة: «ففرى».

(٤) في الذخيرة: «خدام السر».

(٥) في الذخيرة: «قناة».

أميرَ المؤمنين هشامًا ودفَع حقَّه، يريد بذلك الرجلَ الذي كان منصوبًا بإشبيلِيَة يُدْعى له يومَئِذٍ بها تعلُّقًا من هذا المارِد بولايتِه وتوطيدًا لقيامه، إذ كان هذا القتيلُ مـمَّن ردَّ طاعةَ هذا الدَّعيِّ هشام تأسِّيًا بوالدِه يحيى وبخالِه إسماعيلَ بن ذي النّون، فنزَلَت بسَرَقُسْطَة يومئذٍ حادثةٌ عظيمة، وأشرَف أهلُها على فتنة شديدة، وطمِع فيهم أكثرُ من كان يُجاورُهم، وأذعَنوا لهذا العربيِّ[1] المتوثِّب عليهم ورَهَبوه حتَّى مَلَكهم.

فملَكَ سَرَقُسْطَةَ عبدُ الله بن حَكيم، فسارع إليه سُليمانُ بن هُود الـجُذَاميُّ صاحبُ لارِدة، إذ كان مقيمًا بتُطِيلة، في جَمْعِه، حين مجيئه الخبرُ، رجاءً في دخولها، فمنَعَه هذا القاتلُ لمنذرٍ المذكور، وجاءه إسماعيلُ بن ذي النُّون خالُ منذر المذكور مُتعِضًا لِـما جَرى على ابن أُختِه، فامتَنع ابنُ حَكيم[2] بالقَصَبة، واتَّصلت الفتنة.

وكان ابنُ حَكيم رِكبَ من خُطَّة التغرير ما لم يجسُرْ عليه فاتكٌ قبلَه، لوثوبِه على منذرٍ جوفَ قصرِه في قَرارِ مجلسِه بينَ فِتيانِه وأهلِه وتحتَ أغلاقِه وبينَه وبينَ الباب الأقصى من قصرِه ما لا يُحصَى من حُجَّابِه وقَهارمتِه، فلم يفكِّرْ في شيءٍ من ذلك، وحمَلَ نفسَه على التصميم فيه، وهوَّن على نفسِه الموتَ دونَه، فتمَّ له ذلك، ولم يكنْ في الخِصيان الذين حضَروا فضلٌ للدّفاع عنه وإنَّهم لم يزيدوا على الهربِ أمامَه، فجاء بفَتْكةٍ أسقطَت كلَّ فتكةٍ في الإسلام قبلَه، ثمَّ أعلَق طمَعَه بالـمُلك فنالَه ولم يفكِّرْ في ابن ذي النُّون خال منذر لـمّا دَنا إليه، وفعَلَ مثلَ ذلك بابن هود وقد جاء ناشرًا أُذُنَيْه، فحارَبَه ودافَعه. وكان بقصرِ منذرٍ وقتَ فَتْكِه من حاشيتِه وغِلمانِه أزيَدُ من مئة رجل سوى نسائه، فطار الرجُل على وجوهِهم فَزِعًا ولم يكنْ منهم مَن يأخُذُ على يدِه، وقام فيهم كالأسدِ الوَرْد.

ولـمّا أُخرج رأسُ منذر للناس بُهتوا وأبلَسوا ولم ينطِقْ أحدٌ منهم بكلمة. وأرسَل من حينِه عن قاضي البلد والمشيخة، فدخَلوا عليه وهو قاعدٌ على فراشِ قتيلِه ومنذرٌ على جانبِ الفراش مُزَمَّلٌ في دمائه مُغطًّى بثيابِه، فوصَفَ أنَّه جَرى في سبيل الإصلاح عليهم والشدِّ لسُلطانِهم، وأظهَرَ الدّعاء أوَّلًا لابن هُود، فأرَوْهُ قَبولَ ما وصَفَه وتفرَّقوا

(١) في الذخيرة: «الغوي».

(٢) في الذخيرة: «حكم» أينما وردت.

عنه وكلمتُهم متألِّفةٌ عليه إلى أن ثاروا به وقاتَلوه فخرَجَ من بابٍ بظَهْر القصر ونَجا بفاخِرِ ما اشتمل عليه من ذخائرِ مال منذر، ولَحِقَ بحصنِ روطةَ أحدِ معاقل سَرَقُسْطةَ الـمَنيعة وقد كان أعدَّه لنفسِه، فأقام به يَرصُدُ الفتنةَ جُهدَه، وقد كان حمَلَ معَ نفسِه أخوَيْنِ لمنذرٍ قتيلِه وأبا الـمُغيرةَ بنَ حَزْم وزيرَه وغيرَهم من رجال منذر مقيَّدينَ، فحبَسَهم عندَه يُطالبُهم بالأموال، ونَهبت العامَّةُ قصرَ سَرَقُسْطة إثْرَ خروجِه حتَّى قَلَعوا مرمرَهُ وطمَسوا أثَره. وعجَّل ابنُ هودٍ بالإتيان، فمَلَكَ البلدَ في محرَّم سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة على ما يأتي ذكرُه في دولة ابن هُود إن شاء اللهُ تعالى.

ومن أخبار أبي مروانَ ابن رَزِين الملقَّب بحُسام الدّولة

قال ابنُ حيَّان[1]: كان جَدُّه هُذَيلُ بنُ خَلَف بن لُبّ بن رَزِين المعروفُ بابن الأصلع صاحبَ السَّهلة موسَّطةً ما بينَ الثَّغر الأقصى والأدنى من قُرطُبة، فإنَّه كان من أكابرِ برابرِ الثَّغر، ورِثَ ذلك عن سَلَفِه ثمَّ سَما لأوَّل الفتنة إلى اقتطاع عملِه والإمارة لجماعتِه والتقيُّل لجارِه إسماعيلَ بن ذي النُّون في الشُّرود عن سُلطان قُرطُبة، فاستوى له من ذلك ما أراد هو وغيرُه من جميع من انتَزَى في الأطراف شرقًا وغربًا وقِبْلةً وجَوْفًا، إلَّا أنَّ هُذَيْلًا هذا معَ تعزُّزِه[2] على المخلوع هشام لم يَخْرُجْ عن طاعتِه ولا وافَقَ الحاجبَ منذرًا ولا جماعةَ الـمُتمالئينَ على هشام في شأن سليمانَ عدوِّه إلى أنْ ظفِرَ بهشام فسَلَكَ هُذَيْلٌ مسلكَهم فرضِيَ منه سُليمانُ بذلك وعَقَد له على ما في يدِه هنالك لعجزِه عنه، فزادَه ذلك بِعادًا منه، وتمرَّس به الحاجبُ منذرُ بن يحيى مُدرِجًا له في طيٍّ من استعمله واشتمل عليه من أصاغر[3] أُمراء الثَّغر النازلينَ في ضَبْنه[4] فأبَتْ له نفسُه البخُوعَ[5] له والانضمامَ إليه، فردَّ أمرَه وحادَّه وصار ضدَّه، وأجاره منَعةُ

---

(١) ينقل المؤلف من الذخيرة لابن بسام ٣/ ٨٤ فما بعدها بتصرف.

(٢) في الذخيرة: «تعززه».

(٣) هكذا في الذخيرة، وهو الصواب.

(٤) الضبن: الناحية والكنف، وصوّبها ناشر م إلى: «ضمنه».

(٥) البخوع: المناصحة في الطاعة.

مَعْقلِه، وظاهَرَ أعداء منذر، حتَّى حالَفَ المواليَ العامريّينَ واستمرَّ معَهم على دعوة هشام المخلوع وقَطْع دعوةِ سُليمان، وكانت واقيةَ الله عليه كونُه بِسِطةِ[1] الثَّغر، فصار ذلك أردَّ الأشياء إلى البرابرة عنه، فسلِمَ من مَعرَّة الفتنة أكثرَ وقتِه وتخطَّته الحوادثُ لقوَّة سَعْدِه، واقتصَر معَ ذلك على ضَبْط بلدِه المرسوم بولاية عهدِه وتَرْك التجاوزِ لحدِّه والامتدادِ إلى شيءٍ من ولاية غيره، فاستقام أمرُه وعَمَر بلدُه وأُنظِر بعدَ جُمهورِ الثوَّار بالأندَلُس شأوَ الحياة.

وليس في بلد الثغر أخصبُ بقعةً من سَهْلتِه المنسوبة إلى بني رَزِين سَلَفِه في اتّصال عِمارتِها، فكثُر مالُه، إذ ناغَى جارَه وشبيهَهُ في جَمْع المال إسماعيلَ بن ذي النُّونِ ونافَسَه في خِلال البُخل وفَرْطِ القسوة. وكان مع ذلك شابًّا جميلَ الوجه حاميَ الأنف غليظَ العقاب، صار إليه أمرُ والدِه منبَعَثَ الفتنة وهُو فتًى لـمَّا يجتمعْ ولم يبلُغِ العشرينَ من سنِّه، فأنجَده الصّباءُ على الجهالة، وقوَّاه الشبابُ على البِطالة، فبعُد في الشرود شأوه، فلم يُخالفْ أحدًا من الأُمراء على أداء الإتاوة، ولا حَظِي أُمراءُ الفتنة منه بسوى إقامة الدّعوة فقط دونَ مَعونةٍ بدرهم ولا إمداد بفارس، ولا شارَكَ الجماعةَ في حُلْوٍ ولا مُرّ على كثرةِ ما طَرَقَ الحضرةَ من خُطوب دُهْم استخَفَّت البِطاء وقرَّبت البُعَداء فضلًا عن الأولياء، إلَّا ما كان من هذه الحيَّة الصَّمّاء، فإنَّه لم يزَلْ على تَصامِّهِ عن كلِّ نداء إلى أن مضَى لسبيله، والأخبارُ متتابعةٌ عن جهلِه وفَظاظتِه حتَّى زَعَموا أنَّه سَطا بوالدتِه وتولَّى قتلَها بيدِه.

وكان هُذَيلٌ هذا بارعَ الجمال، حسَنَ الخُلق، جميلَ العشرة، ظاهرَ المروءة، لم يُرَ في الأُمراء أبهى منه منظرًا، معَ طلاقة لسانِه وحُسن توصُّلِه بالكلام إلى حاجتِه دونَ معرفة، وكان معَ ذلك أرفعَ الملوك همَّةً في اكتسابِ الآلات، وهو أوَّلُ مَن بالَغ الثمنَ بالأندَلُس في شراء القَيْنات، اشترى جاريةَ ابن[2] عبد الله المتطبِّب بعدَ أن أحجَمَت الملوكُ عنها لغلاء سَوْمِها بثلاثةِ آلاف دينار فمَلكَها، وكانت واحدةَ القِيان في وقتِها لا نَظيرَ لها في معناها، لم يُرَ أخفُّ روحًا منها ولا أملحُ حركةً في جميع أمورِها كلِّها

(١) السطة: الوسط.

(٢) في الذخيرة: «أبي».

من الأمورِ المستحسَنات، وابتاع معَها كثيرًا من القَيْنات المشهورات، فكانت سِتارتُه أرفعَ سِتارات الملوك بالأندلس.

قال ابنُ بسَّام[1]: وأمَّا حسامُ الدّولة أبو مروانَ المذكورُ، فكان له طبعٌ يدعوهُ فيُجيب، ويَرمي بغُرَّة[2] الصواب عن قوسِه فيصيب، على ازدراءٍ كان منه بالأُمَّة، وقلَّة استجداءٍ[3] لمن عُني بالأخْذ عنه من الأئمة، وربَّما جالَسَهم[4] مُباحثًا بينَ مُغالطةٍ وأَنَفة. وبالجُملة، فلو جَرى ذو الرِّياستَيْن على عفوِه وعرفَ منتهَى شأوِه، وكان شاعرًا مُجيدًا، ومن شعره [من البسيط]:

يــا ربَّ ليــلٌ أطــال الهجــرُ مدَّتَــهُ ... فايْـأسَ القلـبَ عـن إدراكِ منتـصَفِهْ

ليـــلٌ تطــاوَلَ حتَّــى قــد تبــيَّنَ لي ... عند التأمُّلِ أنَّ الـدهرَ مـن سَـدَفِهْ[5]

رَجْعُ الخبرِ لذكرِ ملوك قُرطُبَةَ وإشبيلِيَةَ وما يُصاقِبُهما من بلادٍ موسَّطةِ الأندَلس وغَرْبِها

قد تقدَّم القولُ في دولة هشام المعتدِّ بالله بقُرطُبَةَ، وأنَّ بيعتَه بها كانت في سنة عشرينَ وأربع مئة في ذي الحجَّة منها وافتُتحت بيعتُه بإجماع وخُتِمت بفُرقة وعُقِدت برِضًى وحُلَّت بكُرْه، وخُلِعَ منها يومَ الثلاثاء الثانيَ عشَر لشهرِ ذي حجَّة من سنة اثنتين وعشرينَ وأربع مئة، واجتَمع الناسُ بقُرطُبَةَ على تقديم الوزير أبي الـحَزْم بن جَهْوَر[6].

---

(١) الذخيرة ٣/ ٨٧.

(٢) في الذخيرة: «ثغرة».

(٣) في الذخيرة: «استخذاء».

(٤) في الذخيرة: «خالسهم».

(٥) السَّدَف: الظلام.

(٦) الجمهرة لابن حزم ١٠٢، وجذوة المقتبس (٣٥٩)، والمطمح ٢١٦، والذخيرة ١/ ٤٦١، والمعجب ١١١-١١٢، والحلة السيراء ٢/ ٣٠، والمغرب ١/ ٥٦، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٣٩، وتاريخ الإسلام ٩/ ٥٤٧ وغيرها.

دولةُ الـجَهاورةِ بقُرطُبة

ثمَّ قام بقُرطُبة ابنُ جَهْوَر، وهو: جَهْورُ بن محمد بن جَهْوَر بن عبد الملك بن جَهْوَر بن عبد الله بن أحمَدَ بن محمد بن الغَمْر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسُفَ بن بخْتَ بن أبي عَبْدةَ(١)، وكان بمدخَل جدِّهم أبي عَبْدةَ إلى الأندلس أثرٌ عظيم ظهَرَ له فيها من جميل الذِّراع وسَعة الباع وحُسن الامتناع ما لم يظهَرْ لأحدٍ من النُّظَراء من حين الفتح إلى وفاة أبي الحَزْم هذا، وذُكر أنَّ جَدَّه بخْتَ بن أبي عَبْدة كان من الفُرْس مولًى لعبد الملك بن مروان، ودخَل يوسُف بن بخْت إلى الأندَلس قبلَ دخول عبد الرحمن بمدَّة، وكان أحدَ كبار الموالي بقُرطُبة.

قال ابنُ حيَّان(٢): واجتمَع الملأُ من أهل قُرطُبَةَ على تفويض أمرِهم لأبي الحَزْم جَهْور، وعدَّدوا من خِصالِه ما لم يختلفوا فيه فأعطَوْا منه قوسَ السياسة باريَها، وولَّوا أمرَ الجماعة أمينَها، فاختَرَع لهم لأوَّل وقتِه نوعًا من التدبير حَمَلهم عليه وأجادوا السياسةَ فيه، فانسدَل السِّترُ على أهل قرطُبة مدّتَه، وحصَّل كلَّ ما يرتفعُ من البلد بعدَ إعطاء مُقاتلتِه، وصيَّر ذلك في أيدي ثقاتٍ من الـخَدَمة مُشارفًا لهم بضَبْطه، فإنْ فَضَل شيءٌ تَركَه بأيديهم مثقَّفًا مشهودًا عليه لا يتلبَّسُ لهم بشيءٍ منه، ومتى سُئِل قال: ليس لي عطاءٌ ولا منع هو للجماعة وأنا أمينُهم، وإذا رابَهُ أمرٌ أو عَزَم على تدبيرٍ أحضَرهم وشاوَرَهم، وإذا خُوطبَ بكتابٍ لا ينظُرُ فيه إلَّا أن يكونَ باسم الوُزراء، فأعطى السّلطانَ حظَّه من النّظر، ولم يَخْلُ معَ ذلك من نظرِه لمعيشتِه حتَّى تضاعف ثراؤه وصار لا تقعُ عينُه على أغنى منه، حاطَ ذلك كلَّه بالبخل الشديد والمنع الخالص اللذَيْنِ لولاهما ما وجَد عائبُه فيه مَطْعَنًا ولكَمُلَ لو أنَّ بشرًا يَكمُل.

وكان معَ براعتِه ورِفعة قَدْرِه من أشدِّ الناس تواضعًا وعفَّة، وأشْبهِهم ظاهرًا بباطن وأوَّلًا بآخِر، لم يختلفْ له حالٌ من الفَتاء إلى الكُهولة.

واستمرَّ في تدبيره بقُرطبة فأنْجَح سعيُه بصلاحِها ولـمِّ شَعَثِها في المدَّة القريبة، وأثمر الثمرةَ الزكيَّة، ودبَّ دَبيبُ الشّفاء في السَّقام فنعَشَ منها الرُّفات، وألحَفَها رداء

---

(١) في هذا النسب اختلاف بين المصادر.

(٢) النص في الذخيرة ١/ ٤٦١-٤٦٣ باختلاف لفظي، والمؤلف ينقل من الذخيرة.

الأمن ومانَعَ عنها مَن كان يَطلُبُها من البرابرةِ الـمُتوزِّعين أسلابَها بخفض الجناح والرِّفق في المسائل، حتَّى حصَلَ على سِلمِهم واستدرارِ مرافقِ بلادِهم ودارَأ القاسطينَ من ملوكِ الفتنة حتَّى حَفِظوا حضرتَه وأوجَبوا لها حُرمةً بمُكابدةِ الشدائد حتَّى ألانَها بضروب احتيالِه فرَخَت الأسعار وصاح الرَّخاءُ بالناس أنْ يعلَموا فلبَّوه من كلِّ صُقْع، فظهَر تزيُّدُ الناس بقُرطُبة من أوَّل تدبيرِه لها وغَلت الدُّور وتحرَّكت الأسواق، وتعجَّب ذو التحصيل للذي أرأى الله في صلاح الناس من القوَّة ولـمّا تعتدلْ حالٌ أو يهلِكْ عدوٌّ أو تَقْوَ جِباية وأمرُ الله بين الكاف والنّون.

وتوفِّي أبو الحزم ليلةَ الـجُمُعة السادس لمحرَّم سنةَ خمس وثلاثينَ وأربع مئة. انتهى كلامُ ابن حَيَّان.

وفي سنة خمس وعشرينَ وأربع مئة: قُتل أُميَّةُ بنُ عبد الرحمن في جُمادى الآخِرة، أخرجَ إليه شيوخُ قُرطُبة مَن قتَله قبلَ أن يدخُل قُرطبة وكان منصرِفًا إليها من الثّغر طامعًا في سُكْناها فقُتل بموضع يُعرَف بقرية راشد، وخَفِي قتْلُه وسُتِر شخصُه ورأسُه.

وفيها: توفِّي أبو عمرٍو بنُ شُهَيْد القُرطبيُّ شيخُ قرطُبة وفتاها، ومبدأُ الغاية القُصوى ومُنتهاها.

وفي سنة ستٍّ وعشرين وأربع مئة: قُتل يحيى بن عليّ بن حَمُّود[1] رحمه الله، وأنا أشرح في هذا الموضع كيفيَّةَ مقتلِه، إذ كان خاتمةَ آثارِه ومميِّزًا في عيون أخبارِه، وقد تقدَّم في أخبار عمِّه القاسم لُـمعٌ من أخباره وكيف نَجَم مُلكُه وعلى يدَيْ مَن نُظم سِلكُه.

مقتَلُ يحيى بن عليِّ بن حَمُّود الـحَسَنيِّ رحمه الله

قال حيَّانُ بن خَلَف[2]: حكى لي أبو الفتح البِرْزاليُّ قال: لـمّا كان عيدُ أضحى سنةِ ستٍّ وعشرين وأربع مئة، وانغَمس يحيى في شُربِه ولهوِه، سِرتُ ومعي أحدٌ من بني عمّي إلى اللَّحاق بإشبيلِيَةَ للاجتماع بابن عمِّنا محمَّد بن عبد الله البِرْزاليّ والقاضي

(١) ذكر الحميدي في الجذوة (ص: ٤٥) أنَّ مقتله كان يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة سبع وعشرين وأربع مئة، وسيأتي بعد قليل أنّ ما ذكره الحميدي هو الصواب.

(٢) النص في الذخيرة لابن بسام ١/ ٢٤٥.

ابن عبَّاد، فوصَلْنا وأنبأناهُما من خبرِ يحيى بن حمود ولهوِه، فرَأيا أنْ يوجِّها إليه بجيش لقتاله، فخرَجَ إسماعيلُ بن عبَّاد معَ ابن عمِّنا في المحرَّم من سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة وهما في بيعة هشام بن الحَكَم المنصوبِ عندَهما بإشبيلِيَةَ تلك الأيَّام، فجئنا إلى باب قَرْمُونَةَ بالجيش كي نَغِيظَ يحيى فيخرُجَ أو يُخرجَ أحدَ مَن قِبَلَه[1]، وقدَّمنا سريّة وكمَنَ الجيشُ بناحيةٍ أخرى، وقد كنَّا وجَّهنا فوارسَ ليلًا للسامرة بسُور قَرمُونة، فطار الخبرُ إلى يحيى وهو تلك الليلةَ على شرابٍ وقد أخَذ منه، فنعَرَه نَعْرةً ووَثَب قائمًا يقول: وابياضَ بَخْتي[2] الليلةَ وابنُ عبَّاد زائرُه! وأمَرَ بالإسراج وتقدَّم إلى أصحابِه وغِلمانِه، وبادَرَ الخروجَ ليلًا على بابِ قَرْمُونة وأصحابُه يتَلاحقونَ فالتأمت عُدَّتُه في نحوٍ من ثلاث مئة فارس، فمضَى على وجهِه مغترًّا يضربُ إبطَيْ أَهْجَنِ خيلِه فألقَى نفسَه علينا في أوائل خيلِه وأنشَبَ الحربَ بينَنا وبينَه، ووَالى علينا الشدَّاتِ الصِّعابَ بنفسِه، فعلمنا أنَّه لا يُنجينا منه إلَّا الصِّدق، واستقبلناهُ بوجوهِنا ثمَّ ردَدْنا عليه الكرَّةَ، وطاوَلْناه بالكثرة[3] فحمَلَ علينا حملةً ثالثةً مع أصحابٍ له، وكنَّا في جبل منيعِ الصُّعود إلينا نَذودُ منه وننالُ من أصحابِه، فإذا ردَدْنا عليهم استعنَّا بفضل الانحدار من عَلٍ فنخطَفُهم خَطْفَةَ الأجادل فصدَقْنا هذه الحملةَ، فساقَنا حتَّى رَمانا على إسماعيلَ بن عبَّادٍ ومَن معَه من الأندَلسيّين، فثاروا في وجهِه، فتوقَّف الفريقان، وظهرَ كمينُ ابن عبَّاد وجاد صبرُه وحرَّض غِلمانَه العجَم فشَدَّت الجماعةُ على يحيى شدَّةً مُنكرة وانحَدروا من ذلك التلِّ الذي تسنَّموه فانكَسروا، وصُرع في ذلك قومٌ، وتمادَى الطَّلبُ وراءهم بعدَ مُواقفةٍ عظيمة فصرع يحيى وحُزَّ رأسُه وطُيِّر به إلى ابن عبَّادٍ بإشبيلِيَةَ، فخرَّ ساجدًا، وعجِبَ[4] مَن حضَر لسجودِهِ وانطَبق البلدُ فرحًا، واستمرَّت على أصحاب يحيى حتَّى ساء ذلك ابنَ عبد الله البِرْزاليَّ وبدَت عصبيَّتُه لقومِه وكلَّم ابنَ عبَّاد في رَفْع السيّف عنهم فأطاعه

---

(١) في الذخيرة: «أو يَخرج أحدٌ مِن قِبَلِه»، وما هنا أجود أي: يُخْرِجَ أحدًا من الذين هم قبله، فتكون «مَن» بمعنى «الذين».

(٢) في م: «يحيى»، وما أثبتناه يعضده ما في الذخيرة.

(٣) في الذخيرة: «بالقوة».

(٤) في الذخيرة: «وسجد».

في ذلك، وتَمّ لابن عبد الله ما أراد من حَقْن الدّماء، إذ لم يأتِ الذي أتاه إلّا عن ضرورة، ولم يتلعثَمْ أن أسرَع إلى قَرْمُونةَ دونَ إسماعيلَ بن عبَّاد، فجاءها لوقتِه وقد ملَكَ سُودانُ يحيى أبوابَها على أهلِها، فدَنا إلى مكانٍ عَرَفَه في سُورِها فدخَل منه إلى دار يحيى فحاز جميعَ ما ألفاهُ[1] بها من مال أو متاع، واشتمل على نسائه وأباح حُرَمَه لبَنيه، واستحَلَّ خُدّامَهنَّ[2]، واستوى على مجلسِه، ونُصر نصرًا لاكفاء له، وسَقَط الخبرُ على أهل قُرطُبة فما صدَّقوه من الفرح.

وفي سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة: أظهرَ القاضي محمدُ[3] بن إسماعيلَ بن عبَّاد المؤيَّدَ هشامَ بنَ الـحَكَم واستَجْلَبَه من قرية كان بها، وقام به وبايَعَ له ودَعا الناسَ إلى الدّخولِ في طاعته، واستَحْجَبَه ابنَه إسماعيلَ[4] بن محمد، ولـهَجَ بعضُ رُؤَساء الأندلسَ بذلك منهم: عبدُ العزيز بنُ أبي عامر صاحبُ بَلَنْسِيةَ وأعمالِـها والموفَّقُ صاحبُ دانِيَةَ والجزائرِ الشرقيَّة وصاحبُ طَرْطُوشةَ والوزيرُ أبو الحزم بنُ جَهْوَر بالإقرار بخلافته، وسارعوا إلى الدخول في طاعته، ووردَت كتبُهم بذلك عليه وانعقد تجديدُ البيعة له بقُرطُبة، وذلك في أوائل المحرَّم من السنة، وكانت البيعةُ من إنشاء الوزير الكاتبِ أبي حفص أحمدَ بن بُرْد، وكتَبَ أيضًا عن نفسِه مهنئًا بالظهور والعودة إلى الخلافة[5].

واختُلِف في هذا المؤيَّد اختلافًا كثيرًا وهل هو أم لا؟ والأكثرونَ اتَّفقوا أنَّه مُشبَّهٌ له، وأنَّ ابنَ عبَّاد أوقَفه لينالَ به مُرادَه، وآخَرونَ ذكَروا أنَّه المؤيَّدُ بعينِه واسمِه، فذُكر ـ والله أعلم ـ أنَّه كان مختفيًا بمالَقةَ حين تَوثَّب عليُّ بنُ حمُّودٍ على الخلافة بقُرطُبة وخفَى أمرَه، ثمَّ مرَّ من مالَقةَ إلى المريَّة رغبةً في الاختفاء إلى أن أنهى خبرَه إلى صاحبِها زُهير الفتى فأمَرَ بإخراجِه من الـمَرِيَّة فخرَجَ منها، وأوى إلى قلعة رَبَاح من طاعة

---

(١) في م: «ألقاه».

(٢) في الذخيرة: «حرامهن».

(٣) ترجمته في جذوة المقتبس (١٢٦)، والذخيرة ٢/ ١٤، والمطمح ١٠، وصلة ابن بشكوال (١١٤٥)، والحلة السيراء ٢/ ٣٤ وغيرها.

(٤) ترجمته في صلة ابن بشكوال (٢٣٥)، وتاريخ الإسلام ٩/ ١٤٩.

(٥) الخبر في الذخيرة ٢/ ١٧-١٨.

ابن ذي النّون ثمَّ استَجْلَبَه القاضي حسبَما يأتي ذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى عندَ ذكْرِ دولة ابن عبَّاد.

وفي هذه السّنة في شعبانَ: توفّي القاسمُ بنُ حمُّود وحُمِل إلى ابنَيْهِ وكانا بالجزيرة فدُفن بها، وذلك لخمس خَلَوْنَ من شعبانَ المذكور(١).

وفيها اجتمَع زُهيرٌ وحَبُّوسٌ معَ محمد بن عبد الله زعيم زَناتةَ بجهة إسْتِجَةَ في يوم الأربعاء لخمس خَلَوْن من ذي القَعدة من السنة واحتلُّوا يومَ السبت بعدَه بقَرَمُونةَ، ونهَضوا إلى جهة إشبيلِيَةَ واحتلُّوا قريةَ طشتانةَ وقاتَلوا حِصنَ زَعْبُوقةَ يومَ الأحد، واحتلُّوا بالقلعة يومَ الاثنين، وقَرُبوا من إشبيلِيَةَ يومَ الثلاثاء، وأحرَقوا طريانةَ(٢) يومَ الأربعاء بعدَه، ثمَّ احتلُّوا بحصِن القصر، وفيه انعَقدت البيعةُ بينَهم لإدريسَ بن عليّ بن حمُّود وانصَرفوا إلى قَرَمُونةَ وقد تحالَفوا وتعاقَدوا على القيام بدعوتِه، وانصَرف زُهيرٌ إلى المرِيَّة وأخْطَبَ لإدريسَ فيها في منتصَف شهر ذي حجَّةٍ من السنة.

وفي سنة ثمانٍ وعشرينَ وأربع مئة: توفّي حَبُّوس بغَرناطةَ، وصارت رياستُه إلى ابنِه باديسَ فذهبَ هو وأخوه بُلُقّينُ إلى مُخالفة زُهير على ما كان أبوهما معَه، فاجتمع زُهيرٌ معَهما بقرية البُونْت بمقرُبة من غَرناطة، فعزَّاهما في أبيهما وتشطَّط في مرغوبهما، ثمَّ حملَتْها الحَمِيَّةُ إلى الغدر به والمكاشَفة له، فلمّا أخَذ في الانصراف ووَجَّه محلَّتَه للذهاب قَطَعوا له الطريقَ وأرصَدوا له الخيلَ بكلِّ مضيق، فكان هو وجَمْعُه كأمسِ الذاهب، ولم يوقَعْ لزُهير على أثر، وقُتل صاحبُه هُذَيْلٌ بعدَ كرَّاتٍ كرَّها وأُخِذ كاتبُه ابنُ عبَّاس وسيق إلى غَرْناطة ثمَّ قَتَلاه برماحِهما في سنة تسع وعشرينَ.

وفي سنة تسع وعشرينَ وأربع مئة: كانت ولايةُ عبد العزيز بن أبي عامر المتلقِّب بالمنصور صاحبِ كورتَي تُدْمِير وبَلَنْسِيةَ على المريَّة إثْرَ مقتل زُهير في هذه السنة، وولايتُه أيضًا مُرْسِيَة، فبقيَ ذلك في يد المنصور المذكور إلى أن مات إلَّا المريَّةَ فغَدَره فيها ابنُ صُمادِح إذ ولَّاه عليها وانتزى فيها عليها كما تقدَّم(٣).

---

(١) ذكر المراكشي أن وفاته كانت في سنة ٤٣١ (المعجب ١٠٠).

(٢) ينظر عنها معجم البلدان ٤/ ٣٤.

(٣) ذكر ابن بسام خبر إمارته في الذخيرة ٣/ ١٨٦ فما بعدها.

وفي هذه السنة: كان مولدُ المعتصم أبي يحيى محمَّد بن مَعْن أبي الأحوَص بن صُمادِح رئيس المريَّة، وتوفّي بها في شهر ربيعٍ الأوَّل من سنة أربع وثمانينَ وأربع مئة.

وفي سنة ثلاثينَ وأربع مئة: وَجَّه المنصورُ عبدُ العزيز بنُ أبي عامر عن ابنِه عبد الله وقدَّمَه على المريَّة وتسمَّى بالناصر وخُطِب في طاعتِه كلِّها للمؤيَّد هشام المنصوبِ بإشبيلِيَةَ، فبقي هذا الناصرُ فيها مُدَيْدةً ثمَّ مات، فقدَّم إليها المنصورُ عاملًا صِهرَه ابنَ صُمادِح فانتَزى عليه فيها حسبَما تقدَّم.

وفيها: قَتل الحاجبُ منذرُ بن يحيى بسَرَقُسْطةَ عبدَ الله بنَ حَكيم التُّجيبيَّ وملَكَ سَرَقُسْطَةَ بعدَه ثلاثينَ يومًا ثمَّ تصيَّر مُلكُ سَرَقُسْطةَ ولاردة إلى المستعين بالله ابن هُود[1].

وفي سنة إحدى وثلاثينَ وأربع مئة: كان ابتداءُ الدّولة الـهُوديَّة غُرَّةَ المحرَّم منها.

وفيها: توفّي إدريسُ[2] بن عليّ بن حمُّود صاحبُ سَبْتَةَ ومالَقَةَ وغيرِهما، فبويع أخوه حسَنُ بن عليّ بسَبْتة وتسمَّى بالـمُستنصرِ بالله.

وفي سنة اثنتين وثلاثينَ وأربع مئة: توفّي الحاجبُ عيسى بنُ محمَّد صاحبُ مدينة شِلْب وذَواتِها، ووَلي بعدَه محمَّدُ بن عيسى الملقَّبُ عميدَ الدولة، فلم يزَلْ مالكًا ما كان بيد أبيه إلَّا أنَّه تخلَّى عن مدينة باجَةَ لابن عبَّاد وضَبَطَ مدينةَ شِلْب إلى أن مات في ربيع الآخِر سنةَ أربعينَ وأربع مئة.

وفي سنة ثلاثٍ وثلاثينَ وأربع مئة: كان انتزاءُ أبي الأحوَص ابن صُمادِح على الـمَرِيَّة، وكانت زمنَ الفتنة في يدِ خَيْرانَ العامريِّ إلى أن مات فانتقلت إلى يد زُهير العامريِّ إلى أن مات، فضَبَطَها شيخُهم أبو بكرٍ الرميميُّ إلى أن أرسَلوا إلى عبد العزيز بن أبي عامر، فوصَل إليها وقدَّم عاملَه ابنَ صُمادِح عليها فانتَزى عليه في هذه السنة[3].

---

(١) ينظر المغرب لابن سعيد ٢/ ٤٣٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٤١.

(٣) ينظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٩١.

وفيها: قام بمدينة لَبْلَةَ يحيى بنُ أحمدَ اليَحْصُبيُّ إثْرَ هلاكِ أبيه بعدَما كان تقلَّدها أبوه منذُ عشرينَ سنة، فلم تزَلْ في يد يحيى هذا إلى سنة ثلاث وأربعينَ وأربع مئة.

ذكْرُ ابتداء الدّولة العَبَّاديَّة على الـجُملة إلى آخِر أيّام محمد بن إسماعيلَ بن عبَّاد(١)

قال ابنُ حَيَّان: جاز إلى الأندَلس بعدَ افتتاحِها رهطٌ من لَـخْم تَفرَّقوا في أقطار الأندَلس، فانحازَ منهم إلى غربِها أَخَوانِ اسماهما: نُعَيْم وعَطَّاف، فنزَلَ أحدُهما بقريةٍ يقال لها: يَوْمين تَناسَل ولَدُه بها مدَّةً من الزّمان، ثمَّ انتقل بعضُهم منها إلى مدينة حِمص وهي إشبيلِيَة، فتناسَل بها ولدُه وتصَدَّوْا لخدمة الملوك من بني أُميَّةَ فصرَّفوهم في الأمورِ العَلِيَّة فكثُرت فيهم الوَجاهةُ والنَّباهةُ إلى دولة الـحَكَم الـمُستنصرِ بالله ودولة ابنِه هشام المؤيَّد بالله وحاجبِه المنصور محمَّد بن أبي عامر.

وكان قد نشأ فيهم إسماعيلُ بن عبَّاد، فقدَّمه ابنُ أبي عامر على خُطَّة القضاء بإشبيليَةَ، فدام له ذلك إلى أن انقرَضَت دولةُ الإمامة من قُرطُبة ونزولِ الفتنة الـمُبيرة، فأقام على خُطَّة القضاء والأمانة بإشبيلِيَةَ معَ مَن نَجَم في هذه الفتنة مـمَّن يَدَّعي خُطَّةَ الأمانة وتحمَّل رسْمَ الخلافة فنظَر في صَلاح أمورِها وتصريفِها على السَّداد إلى أن نزَلَ الماءُ في عينَيْه سنةَ أربعَ عشْرةَ، فقَدَحَه ورجَع شيءٌ من بصرِه، فلم يستَجِز الـحُكمَ بينَ الناس به، فولَّى ولدَه أبا القاسم القضاء واقتَصر هو على شاخَة البلد وتدبيرِ الرأي. وكان آيةً من آياتِ الله علمًا ومعرفةً وأدبًا وحِكمة، فحمَى مدينةَ إشبيلِيَةَ من سَطْوة البرابر النازِلينَ حولَها بالتدبير الصّحيح والرأي الرّجيح والنّظر في الأمورِ السُّلطانيَّة إلى أن أتاه أجَلُه سنةَ أربعَ عشْرةَ وأربع مئة.

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/ ١٤ فما بعدها، وهي معتمد المؤلف الرئيس. وترجمة أبي القاسم محمد بن عباد مشهورة مذكورة في العديد من المصادر التاريخية والأدبية منها: جذوة المقتبس (١٢٦)، والمطمح ١٠، وصلة ابن بشكوال (١١٤٥)، والحلة السيراء ٢/ ٣٤، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٢، وتاريخ الإسلام ٩/ ٥٣١، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٢٧، والوافي بالوفيات ٢/ ٢١٢، ونفح الطيب ٤/ ٢٢٦ وغيرها.

ذِكْرُ مدَّة القاضي أبي القاسم محمَّد بن عبَّاد
ونُبَذ من أخبارِه وسِيَرِه وتغلُّبِه على مدينة إشبيلِيَةَ

هو: أبو القاسم محمَّدُ ابن ذي الوِزارتَيْن أبي الوليد إسماعيلَ بن محمَّد بن إسماعيلَ بن قُرَيْش بن عبَّادِ بن عَمْرِو بن أسلَمَ بن عَمْرِو بن عَطَّاف بن نُعَيْم، وعطَّافٌ هو الداخلُ منهم للأندَلس في طالعة بَلْج بن بِشْر القُشَيْريِّ، وكان عطَّافٌ من أهل حمص من عربِ الشام لَخْميَّ النّسب صريحًا، وموضعُه من حمصَ: العريشُ، والعريشُ في آخرِ الجفار بينَ مصرَ والشام، وكان نزولُ جَدِّه عطَّافٍ بقرية يَوْمينَ من عمِل إشبيلِيَةَ كما ذكرنا.

فأمَّا ذو الوِزارتَيْن أبو القاسم هذا فأدرَك مُتمهِّلًا وسَما بعدُ إلى بلوغ الغاية، وكان القاسمُ بن حمُّود قد اصطنَعه بعدَ مهلِك أبيه إسماعيلَ ورَدَّ عليه قضاء بلدِه وحصَّل منه بمنزلةِ الثِّقة الأمين عندَه، فخانَه بخَوْن الأيَّام عندَ إدبارِها عنه إيثارًا للحَزْم واعتلاقًا بالولاية التي كان مضَى لهُ ولأبيه فيها أثرٌ رَقارِق، فصَدَّه عن إشبيليَةَ بلدِه لـمّا قصَدَه من قُرطُبةَ مفلولًا، وكان الذي وَطَّد له ذلك نفرٌ من أكابرِها الـمُرتسِمينَ بالوِزارة مُناغِينَ في ذلك لوُزراء قُرطُبة على تحميلِهم لابن عبَّاد كِبْرَ ذلك لإنافتِه عليهم في الحال وسَعة الهمَّة وإحصائهم عليه مُلكَ ثُلُث إشبيليَة ضَيْعةً وغَلَّة يُخادعونَه بذلك عن نَشَبِه، إبقاءً منهم على نعيمِهم، وهو يشتري بذلك أنفسَهم وهم لا يشعرون إلى أنْ وقَعوا في الهُوَّة، وكانوا جماعةً منهم: بنو أبي بكرٍ الزَّبيديِّ النَّحْويِّ وبنو يريم وبنو العربيّ وغيرُهم من نُظَرائهم، راضَ بهم الأمورَ واستمال العامَّةَ حتَّى حصَّلَ على مُلك البلد وأورَثَها عِقبَه.

فلمَّا خاطَبَهم القاسمُ بن حمود بأنْ تُـخْلى له الدّيارُ لمن يرِدُ معَه من البرابرة إليها للهَيْج الذي كان بقُرطُبة وقَتْل من قُتِل من أصحابِه فيها، وكانت وقعةً ظهرَ فيها أهلُ قُرطبةَ على شِيعة القاسم، فاغتلَّت أيديهم وفَرَّ القاسمُ أمامَهم من قُرطبةَ إلى إشبيلِيَة، فوقَع الاتّفاقُ من شيوخ البلد والقاضي ابن عبَّاد على إغلاق أبوابِ البلد في وَجْه القاسم بن حمُّود الـحَسَنيّ، وأن يُخْرَجَ إليه ولدُه وأهلُه، ففعَلوا ذلك. وضَبَطَ الناسَ على كثرة الشيوخ فيه إلى أن انفردَ بالأمرِ دونَهم، وسَما بنفسِه فأسقَط جماعتَهم، وجَرت له في تدبيرِهم أمورٌ يشُقُّ إحصاؤها ركِبَ فيها أحزمَ طُرُقِ طُلَّابِ الدُّول، حتَّى انفرد

بسابقتِه ومهَّد لدولتِه وأجمَعَ أهلُ عملِه على طاعتِه، فدانُوا له، وسلَكَ سَيْرَه أصحابُ الممالك بالأندَلس لأوّل وقتِه، وقام بأيقظِ جِدّ وأصحّ عَزْم، واختَرع في الرياسة وجوهًا تقدَّم فيها كثيرٌ منهم، وامتَثل رسمَ ابن يَعيشَ صاحبِ طُلَيْطُلة من بينِهم في تمسُّكِه بخُطَّة القضاء، وارتسامِه ـ باسمِه وأفعالِه في ذلك ـ أفعالَ الجبابرة، وأقبَلَ لأوَّل وقتِه على ضمِّ الرِّجال الأحرار من كلِّ صنف، وشراء العبيد، والجِدُّ يُساعدُه والأمورُ تنقادُ له، إلى أن ساوَى ملوكَ الطّوائف وزاد على أكثرِهم بكثافةِ سُلطانه وكثرة غِلمانِه، وتدرَّج في تدبير ذلك شيئًا فشيئًا ومارَسَه شأنًا شأنًا إلى أن استَوْلى على أمَدِه ومهَّد سلطانَه واستقلَّ به.

خبرُ هشام المؤيَّد بالله بإشبيلِيَة

قال ابنُ حيَّان(١): ومِن أشهر أخبارِ ابن عبَّاد: أنَّه نظَر في شأن مَن بقي يومَئذٍ من فِتيان بني مروان، فسقَطَ إليه خبرُ الدَّعِيِّ الـمُشبَّه بهشام بن الـحَكَم، وكان قد تُحُدِّثَ أنَّه أفْلَت من يدَيْ سُليمانَ قاهِرِه، وأنَّه غاب ببلاد المشرِق مدَّته الطّويلةَ ثمَّ عاد إلى الأندَلس، فأثّر ذلك في قلوب الناس لمقدِّماتٍ سَلَفت في الشكّ في موته، إذ كان سليمانُ قاتِلُه قد تَركَ إبداءه للناس حسبَما فعلَتْه حَزَمةُ الملوك قبلُ فيمَن خَلَعوه إمَّا استخفافًا من سليمانَ يومئذٍ بمن ملَكَ نواصيَهم بالقهر، أو ما شاء اللهُ من غَلَطٍ أصاب المقدارُ قصَدَه لقضاءٍ سَبق في أُمّ الكتاب، فلم تزَلْ طائفةٌ من شِيعتِه تنفي موتَه وتَروي في ذلك رواياتٍ تبعُدُ عن الحقيقة وتَصدُر عن نِسوان وخِصْيان من أهل القصر بقُرطُبَةَ إلى أن عَلِقَ ذلك بمَن فوقَهم من شِيعَ المروانيَّة فشَدُّوا أواخيَ خَلاصِه وقَطَعوا على حياتِه ووصَفوا أنَّه اضطَرب بقُرطبةَ في دولة البرابرة ممهنًا نفسَه في طلبِ المعيشة، ثمَّ زَعَموا بعدَ حين أنَّه عبَرَ إلى أرض المشرق وساحَ في ذلك الأُفق وقضَى كل المناسك هنالك ثمَّ كرَّ راجعًا إلى ديارِه لأمدٍ محدود ولكرَّة الدّولة المروانيَّة، ولو تحدُثُ على يدَيْه الأنباءُ البديعة، فدانوا كما تسمَّع بالرَّجعة دَيْنُونَةَ الشِّيعة، وتاهوا في ذلك بتضليل، سَخِر منهم أهلُ التحصيل، إلى أن ظَهَر ـ على زعمِهم ـ بالمريَّة سنةَ ستٍّ وعشرينَ في أيَّام زُهير الصَّقْلَبيّ.

---

(١) الخبر في الذخيرة ٢/ ١٧ ومنه نقل المؤلف.

ولم تزَلْ قصَّةُ هذا الـمُشبَّه بهشام تَدِبُّ على قلوب الناس دبيبَ النار في الفحم، فدبَّر ابنُ عبَّاد أمرَه واهتَبلَ الغِرَّةَ في ذلك، وأنَّه أقلُّ ما يجيءُ له منه دَفْعُ مكروهِ ابن حمُّود ونَظْم الناس على حربِه، فأخبرَ أنَّه حصَلَ هشامٌ عندَه وجَمعَ له مَن بقي بإشبيليَةَ من نساء القصر والـخَدَم، فاعترفَ به أكثرُهم ووقَفوا على عينِه، وأومَأ إلى ثقاتِهم عندَه بما يريدُ فيه فاجتَنَبوا خلافَه واتَّبعوا موافقتَه، فوجَد ابنُ عبَّاد بذلك سبيلًا إلى ما دبَّره من حرب ابن حمُّود وحَجْبِه عن أعيُن الناس، وبَثَّ كتبُه بذلك إلى سائر الرؤساء واستَنْهضَهم للاجتماع على دعوة هذا الخليفة المخبوِّ بفكِّ الرقاب وكَرّة الأيَّام والجهاد دونَه، فكثُر الخوضُ بالأندَلس في ذلك ومالت نفوسُ أهل قُرطبةَ في نَصْبِه إمامًا للجماعة، وأشخَصوا الرسُلَ للوقوف على عينِه وتثبيت الشهادة فيه، وزوَّر ابنُ جَهْوَر وغيرُه في ذلك شهاداتٍ على علم منهم ابتغاء عَرَض الدّنيا وإذعانًا منَ ابن جَهْوَر أيضًا لِـما رَآه من دَفْع ابن حمُّود الفاغِر فاهُ على قُرطُبة، فرجَع منه سريعًا إلى الاعتراف بالخطإ بقيَّةَ عمُرِه بعدَ عظيم ما انبعثَت في ذلك من الفتن وجَرت من الـمِحن، وصُرِع من الجبابرة، ونُقِل من الدّول. انتهى كلامُ ابن حيَّان.

وقال ابنُ القطَّان: كان لأبي القاسم بن عبّاد هذا ولَدٌ اسمُه إسماعيلُ[1] نشَأ في مُعرَّس مُلكٍ شامل إلى أن طلَبَ الـمُلكَ، فخاضَ هذا الفتى في بحور الحروب وقَوْد العساكر والانغماس في الفتنة العمياء إلى أن وقَعت له وقعةٌ معَ يحيى بن عليّ بن حمُّود صاحبِ قَرْمُونة، فهزَم يحيى وحزَّ رأسَه وحمَلَه إلى أبيه بإشبيليَة في سنة سبع وعشرينَ وأربع مئة، وصار محمَّدُ بن عبد الله البِرْزاليُّ من جيش ابن عبَّاد إلى قَرْمُونةَ فدخَلها ومَلكَها على ما كان عليه بها يحيى قبلُ وقُتل إسماعيلُ هذا في المحرَّم من سنة إحدى وثلاثينَ في حربٍ كانت بينَه وبينَ باديسَ بن حَبُّوس والقاضي أبوه حي[2].

ووُجد رأسُ يحيى بن عليّ بن حمُّود في خزائن المعتمدِ بن عبَّاد بعدَ مدَّةٍ طويلة، فطلبَتْه حفيدتُه سُبَيْعةُ من الأمير سير، وكان بَعْلَها، فدفنَتْه في المسجد الذي قُتل فيه عبدُ العزيز بن موسى بن نُصَيْر، وكان في أُذُن الرأس براءةٌ فيها اسمُ يحيى بن عليّ.

---

(١) ترجمته في صلة ابن بشكوال (٢٣٥)، وتاريخ الإسلام ٩/ ١٤٩.

(٢) ينظر كامل ابن الأثير ٩/ ٢٨٦.

قال ابنُ القطَّان: وكان قد ذُكر أنَّ هشامًا فرَّ من الفتنة ورَفَض الـمُلْك وكَتَم أمرَه وأخفَى نفسَه في مدَّةٍ طويلة، واستقرَّ في قرية من قُرى إشبيلِيَةَ يؤذِّنُ في مسجدِها ويَعمُرُه ويتقوَّتُ من العمل في الـحَلْفاء، فخرَجَ إليه القاضي أبو القاسم محمَّدُ بن إسماعيلَ بن عبَّادٍ هذا ووَلَدُه إسماعيلُ وجميعُ خاصَّتِه وعبيدِه ومعَه أثوابُ الـخُلفاء وملابسُهم وزِيُّهم ومَراكبُهم، فلم يشعُر الرجُلُ وهو خارجَ المسجد يعملُ في حَلْفائه أنْ غَشِيَه القومُ وأحاطوا به، فترجَّل القاضي وابنُه وجميعُ من جاء معَه وقبَّلوا الأرضَ بينَ يدَيْه، وتَرامى القاضي وابنُه إلى رجلَيْه يُقبِّلانِها، فبُهِت الرجلُ ممَّا عايَنَ من ذلك وجعَل يقولُ: لستُ بالذي تعنُون ولا بالذي تطلُبون، وهم لا يَردُّونَ عليه شيئًا سوى التضرُّع والرغبة إلى أن أقاموهُ من مكانِه وجَرَّدوه من خلقانِه، وألبسوه الكُسوةَ الخلافيّة ووَضَعوا القَلانسَ على رأسِه وأركَبوه، ومشَى القاضي وجميعُ من جاء معَه أمامَه، وكان هذا الرجُلُ يقال له: خَلَفٌ الـحُصْريّ، وكان يُشبِهُ هشامًا إلى أنْ أتَوْا به إلى إشبيلِيَة وصائحٌ يصيح: يا أهل إشبيلِيَة، اشكروا اللهَ على ما أنعمَ به عليكم، فهذا مَوْلاكم أميرُ المؤمنينَ هشامٌ قد صرَّفَه اللهُ عليكم وجعَلَ الخلافةَ ببلدِكم لمكانِه فيكم، ونقَلَها من قُرطُبة إليكم، فاشكروا اللهَ على ذلك(١).

ودخَل البلدَ على هذه الصَّورة واستقرَّ بالقصر بقيَّةَ يومِه، فلمّا كان من الغدِ بُرِّح في الناس وحُشِروا للدخول على المؤيَّد هشام بزَعْمِهم، فبادَرَ الناسُ وتسابقوا لذلك، فدخلَ عليه الخاصُّ والعامُّ لبيعتِه، وقَعَدَ لهم هذا الرجُلُ وبينَهم وبينَه سَتْرٌ مسدولٌ يتكلَّمُ لهم من ورائه ويقول: إنَّه قد صيَّر حِجابتَه إلى إسماعيلَ بن محمَّد بن عبَّاد، وشَهِد عليه بذلك الشهودُ والخاصَّةُ وأربابُ الدّولة، ومَن أَبَى أن يشهَدَ حاطَ به البلاءُ، فمنهم مَن يصبحُ مقتولًا في دارِه ومنهم من يُفرقُ من بلدِه.

وكتَبَ إسماعيلُ بن محمَّد بن عبَّادٍ الحاجبُ إلى أبي الـحَزْم بن جَهْوَر يدعوهُ إلى طاعتِه وأن يُبقيَه على ما هُو عليه من النَّظر في أمرِ قُرطُبة، فلمَّا وصَل كتابُه إلى ابن جَهْوَر تبرَّأ من ذلك الرجُل وسبَّه وسَبَّ من سبَّبه، وأنشأ ابنُ عبَّاد كُتبًا كثيرةً وجَّهها إلى سائر

---

(١) نهاية الأرب ٢٣/ ٤٤٥.

ملوكَ الأندَلس بهذا الاسم يُرغِّبُهم في طاعة هذا الرجُل والدّخول في دعوتِه، فأنْكَره جميعُهم وضَعَّفوا ذلك من دعوى ابن عبَّاد، ووجَّه بعضُهم أرسالًا من عندِه ليقفوا على حقيقة أمرِه، فأُدخِلوا على هذا الرجُل في بيتٍ مُظلم زَعَموا أنَّه يشكو مرَضَ عينَيْه، فكلَّمهم وكلَّموه، غيرَ أنَّهم لم يتبيَّنوا صفتَه وانصَرفوا على هذا الوَجْه، فمنهم مَن أنكَر إنكارًا شديدًا، ومنهم من استَرابَ، غيرَ أنَّه لم يُظهِرْ أحدٌ منهم لهذا الرجل طاعةً ولا خاطَبَه ولا وقَفَ له عندَ أمرٍ ولا نهي.

فخرَجَ ابنُ عبَّاد بجيشِه معَ هذا الرجُل إلى قُرطُبة، فوقفَ على بابِها هادرًا طبولَه ناشرًا أعلامَه، فأمَرَ أبو الـحَزْم بنُ جَهْوَر صاحبَها بسدِّ أبوابِها وألَّا يصعَدَ أحدٌ على سورِها ولا يُخاطبَه أحدٌ ولا يرُدَّ عليه جوابًا، وسب هذا الرجُلَ وأنكَره وسبَّ مَن سبَّبه، فأقام ابنُ عبَّاد على قُرطبةَ بقيَّةَ يومِه وانصَرف في غدِه إلى إشبيليَةَ وجعَل يُسبِّبُ لأهل قُرطبةَ بعدَ ذلك أسبابًا بالأذى والفساد ويُظهِرُ لهم العداوةَ والشَّنَآنَ لردِّهم دعوةَ هذا الرجُل، حتَّى ضاقت قُرطبةُ بقاطنِها، ونازَلَ حصونَها حتَّى أطاعه بعضُها فضاقت قُرطبةُ، وارتفَع بها السعرُ، ووقَفَ على بابِها ابنُ عبَّاد وظَنَّ ألَّا غالبَ له، فأدركَتْ باديسَ بن حَبُّوس الـحَمِيَّة وخرَجَ إليه في جَمْع من بني عمِّه ومنِ انضافَ إليهم من فِرَق البرابرة، فوقَعت بينَهم حربٌ عظيمة، وكان معَ ابن عبَّادٍ جَمْع من البربر فَرُّوا عنه وأسلَموه، فاستولت عليه الهزيمةُ بسببِهم، إذ لم ينصَحوه في قتال البربر مثلَهم ولم يبْقَ معَه إلَّا طائفةٌ يسيرةٌ من فِتيانِه وعبيدِه، فكرُم صبرُه والحمَلاتُ تَتوالَى عليه والسّيوفُ تأخُذ مآخِذَها، وهو يحمِلُ عليهم يَمْنةً ويَسْرة إلى أن أثخنتْه الجِراحاتُ وأكلَت السّيوفُ جميعَ عسكرِه إلَّا مَن فرَّ من البرابر قبلَ ذلك، فلمّا رأى ما لا طاقةَ له به أراد أن ينحازَ إلى موضع يتمنَّعُ فيه، فركضَ الفرسُ ركضًا ولم ينظُرْ إلى أمامِه فسقَطَ في هُوَّة وسقَط الفرسُ عليه والظّلامُ قد انسَدَل، فلمّا رأى صُنهاجةُ ذلك نزَلَ إليه بعضُهم وهو عقيرٌ فحزَّ رأسَه وأخرَجَ خاتمَه من أُصبعِه وسار بذلك نحوَ أميرِه باديس، وبلَغ ذلك ابنَ عبَّادٍ أباه فقامت قيامتُه وعظُمت هَيْعتُه، وكان عُمرُه يومَ قُتل نحوَ ثلاثينَ سنة.

وقال ابنُ مُزَيّن: إنَّ هزيمةَ باديسَ لابن عبَّاد كانت في صَدْر سنة إحدى وثلاثينَ وأربع مئة، فسدَّ مكانَه بابنِه الثاني عبَّاد، فانفرد بالتدبير دونَه واستَولَى على الأمر

واستَظْهَر على ذلك بهَدْم البُيُوتات وتشتيت ذوي الهيئات، وأوَّلُ ما بَدأ به من ذلك نَكْبةُ الزَّبِيديِّ وابن مريمَ وغيرِهما من نُظرائهما.

وقد كان لإسماعيلَ ابن ذي الوِزارتَيْن أبي القاسم القاضي معَ ابن الأفطس وقائعُ وحروبٌ استعان فيها بابن عبد الله البِرْزاليِّ صاحبِ قَرَمُونة قُطب رَحى الفتنة، فحاصَر ابنَ الأفطس بِباجَةَ وقَتل أكثرَ رجالِه وبعَث بالأسرى إلى أبيه، وأسرَ وَلَدَ ابن الأفطس وحبَسَه ابنُ عبد الله بقَرَمُونةَ، وبلَغَت هذه الغزوةُ منَ ابن الأفطس الغايةَ... لطلاق وَلَد ابن الأفطس مِن يدِ ابن عبد الله البِرْزاليّ سنةَ إحدى وعشرينَ، وذلك في خبر طويل، وعرَضَ عليه ابنُ عبد الله أن يجتازَ على القاضي ابن عبَّاد ليُشرِكَه في المنِّ عليه بفكِّه فأبَى من ذلك وقال: مقامي في أَسْرِك أشرفُ عندي من تحمُّلِ مِنَّته عليَّ، فأكرَمَ تشييعَه إليه وهو يومَئذٍ ببَطَلْيَوْس وقد هذَّبتْه محِنتُه وتمّت أدواتُه، فرجعَ إلى مقاومة ابن عبَّاد، وكان عندَ ابن الأفطس طائفةٌ من قبائل البربر يستعينُ بهم على ابن عبَّاد، وكان في كلِّ بلدٍ جُملةٌ منهم اقتَسموا قواعدَ الأرض مُضرِّبينَ بين ملوكِها فلا يقاتِلُ الأعداء إلَّا بهم ولا تسكُنُ الأرضُ إلَّا بجِوارِهم، فسبحان الذي أظهرَهم ومكَّن في الأرض لهم إلى وقتٍ وميعاد[1].

فلمَّا كان في سنة خمس وعشرينَ وأربع مئة خرَج إسماعيلُ بالعسكر إلى أرض العدوِّ تحت مُعاقدةٍ بينَه وبينَ ابن الأفطس، فلمَّا أوْغَلَ ابنُ عبَّاد ببلد ابن الأفطس في طريق قُفولِه خرَجَ عليه ابنُ الأفطس، ففرَّ إسماعيلُ يطلُب النّجاةَ بنفسِه وأسلَم جميعَ عسكرِه، وجَرت عليه في مهرَبه معَ جُملة من أصحابه شدَّةٌ لجأ فيها إلى ذبح خيلِه والاغتذاء بلحومِها، ونَجا إلى مدينة الأشبُونةَ آخِرَ عملِه من ساحل البحر المحيط فاصْطَلَم ابنُ الأفطس عسكرَه اصطلامًا لم يُسمَعْ بمثلِه ووقَعَ سُرْعانُ العدوِّ من النّصارى على كثيرٍ منهم فاقتنَصوهم اقتناصًا وقَتلوا منهم أُمَّةً، وكانت حادثةً شنيعةً بقيت بها عداوتُهما إلى آخِر وقتِهما[2].

---

(١) الخبر في الذخيرة ٢/ ٢٠-٢١.

(٢) الذخيرة ٢/ ٢١.

ولما كان في سنة إحدى وثلاثينَ كانت هزيمةُ باديسَ عليه وقَتْلُه، ثمَّ توفّي والدُه القاضي محمَّدُ بن إسماعيلَ بن عبَّاد سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة[١].

دولةُ أبي عَمْرٍو عبَّادِ بن إسماعيلَ بن عبَّاد اللَّخْميّ[٢]

نسَبُه: تقدَّم عند ذكرِ أبيه.

كُنْيتُه: أبو عَمْرٍو كما ذكرنا.

لقَبُه: الـمُعتضِدُ بالله.

ولايتُه: وَلي الأمرَ بعدَ وفاة أبيه القاضي في مُنسلَخ جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وثلاثينَ واستَوْلى على غرب الأندَلس مثل: شِلْب وشَنْتَ بِرية ولَبْلة وشَلْطيش وجبل العُيون وغيرِها وصارت تلك الجهاتُ بكلِّها في طاعتِه وقَدَّم عليها عُمَّالَه سنةَ ثلاثٍ وأربعين وأربع مئة، وتوفّي سنةَ إحدى وستّينَ وأربع مئة من علّة الذَّبحة شبيهًا بالفُجاءة.

قال ابنُ حيَّان[٣]: وعَشِيَّ الأربعاء لستٍّ خَلَوْن من جُمادى الآخِرة سنةَ إحدى وستّين طَرَق قُرطبةَ نَعْيُ الـمُعتضِد عبَّاد زعيمِ ثُوَّار الأندَلس في وقتِه أسَدِ الملوك وشهابِ الفتنة، ذي الأنباء البديعة، والحوادث الشّنيعة، والوقائع الـمُبيرة، والهمم العَليَّة، والسَّطوة الأبيَّة، فرماه اللهُ بسهم من مَراميه الـمُصْمِيَة، أجَدَّ[٤] ما كان في اعتلائه، وأرقَى ما كان إلى سمائه، وأطمعَ ما كان في الاحتواء على الجزيرة الأندَلسيَّة محتقرًا لها عند تشميرِه الذّيل بفتنة لا كَفاء لها، فتوفَّاه اللهُ على فراشِه من علَّة ذَبْحة قصيرةِ الأمد.

---

(١) هكذا في النسخة، وسيأتي أنه سنة ثلاث وثلاثين، وكذلك هو في الذخيرة ٢/ ٢٢ وتاريخ ابن الأثير ٩/ ٢٨٦ وغيرهما.

(٢) الذخيرة لابن بسام ٢/ ٢٢، والمعجب ١٥١، والحلة السيراء ٢/ ٣٩، والوافي بالوفيات ١٦/ ٦١٥، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٤٨.

(٣) النص في الذخيرة ٢/ ٢٢-٢٤ ومنه ينقل المؤلف.

(٤) في الذخيرة «أجل»، وفي الحلة السيراء: «أمد».

وكان يحاكي سيرةَ أحمدَ بن أبي أحمدَ ابن المتوكّل[1] أحدِ أشدَّاء خُلفاء العبَّاسيّينَ، الذي ضمَّ نَشْزَ[2] المملكة بالمشرق وسَطا بالـمُنتزِينَ عليها، وبفَقْدِه انهدَنت[3] الدّولة، فتحمَّل عبَّادُ سِمتَه الـمُعتضِديَّةَ، وطالَعَ بفضل نظَرِه أخبارَه السياسيَّة التي أضحَتْ عندَ أهل النّظر أمثلةً هاديةً للاحتواء على أمدِ الرّياسة في صَلابة العصا وشَناعة السَّطا، فجاء منها بمُهوَّلاتٍ تذعَّر مَن سمع بها فضلًا عمَّن عايَنَها، ولم يُقصِّرْ معَ ذلك عن الهمم العليَّة والرُّتب الـمُلوكيَّة فابتَنَى القصورَ السامية واعتَمر العماراتِ الـمُغِلَّة، واقتنَى الأعلاقَ النفيسة، وارتَبطَ الـخُيول واقتنَى الغِلمانَ واتَّخذ الرّجالَ وانتقاهم من كلِّ فرقة، فساس طبقاتِهم ما بينَ إدرار الأُعْطِية وضَمان الزّيادة، على صِدق الصِّيالِ والوفاء بالوعيد على النُّكول من العدوِّ، سياسةً أعيَتْ أندادَهُ من أُمراء الأندَلُس فخرَّجَ منهم رجالًا مساعيرَ حروبٍ أباد بهم أقتالَه.

ومن نوادِر أخبارِه أنْ نال بُغيتَه وأهلَكَ تلك الأُممَ العاتية، وإنَّه لغائبٌ عن مشاهدتِها مُترَفّهٌ عن مُكابدتِها مُدِّبرٌ فوقَ أريكتِه منفِّذٌ لِـحيَلِها من جَوْف قصرِه، يُدبِّرُ داخلًا أمورَه، جرَّد نهارَه لإبرام التدبير وأخلص ليلَه لتملِّي السرور، فلا يزالُ تُدار عليه كؤوسُ الراح، ويُحيًّا عليها بقبض الأرواح، التي لأناسِيِّها عن أعدائه، ببابِ قصرِه حديقةٌ تُطلع كلَّ وقت ثمرًا من رؤوسِهم الـمُهداة إليه مُقرَّطةَ الآذان برِقاع الأسماء المنوِّهة لحاملِها، ترتاحُ نفسُه لـمُعاينتها والـخَلْق يُذعَرونَ منَ التماحِها، وهو واصلٌ نعيمَ ليلِه بإجالةِ فكرِه، ومُستدعٍ نشاطَ لـهْوِه بقوَّة أيديه.

وقد كانت لعبَّادٍ وراء هذه الحديقة المالئة قلوبَ البشَر ذعرًا مباهاةً بخِزانة بَلْوى أكرمَ لديه من خِزانة جَوْهر مكنونة جوفَ قصرِه أودَعَها هامَ الـمُلوك الذين أبادهم بسيفِهِ منها: رأسُ محمَّد بن عبد الله البِرْزاليِّ شِهاب الفتنة، ورؤوسُ الـحُجَّاب: ابن خَزْرُون وابن نُوح وغيرِهم، الذين قَرَن رأسَهم برأس إمامِهم الخليفة يحيى بن عليّ بن

(١) هو المعروف بالمعتضد.

(٢) في الذخيرة: «نشر».

(٣) في الذخيرة: «انهدمت».

حمُّود الـحَسَنيّ سابقِهم إلى تلك الوقعة، فخَصَّ رؤوسَهم بالصَّون وبالَغَ في تطييبها وتنظيفها للثَّواء لا للكرامة، وأودَعَها الـمَصاوِنَ الحافظةَ لها، فبقيت عندَه ثاوية تُجيبُ سائلَها اعتبارًا، ولـمّا خُلع ابنُه المعتمِدُ وُجِد في جَوالقَ له تلك الرؤوس.

قال ابنُ بسَّام[1]: لـمّا افتَتح الـمُرابطونَ إشبيلِيةَ وخُلع الـمُعتمِد حُدِّثت أنَّه وُجد له جوالقُ مطبوعٌ عليها، فظُنَّ أنَّ ذلك مالٌ وذَخِيرة، فإذا هو مملوءٌ رؤوسًا، فأُعظِم ذلك وهال أمرُه، ودُفع كلُّ رأس منها إلى مَن كان بقي من عَقِبهم بالحضرة، أخبَرني مَن رأى رأسَ يحيى بن عليّ بن حمُّود يومَئذٍ ثابتَ الرَّسم مُتغيِّرَ الشّكل فدُفع إلى بعض وَلَدِه فدَفَنَه.

قال ابنُ حيَّان[2]: وكان عبَّادٌ قد أُوتيَ من جمَال الصُّورة وتمام الخِلْقة وفخامة الهيئة وسَباطة البَنَان وثقوب الذِّهن وحضور الخاطِر وصِدق الـحِسّ ما فاق به أيضًا نُظَراءه. ونَظَرَ في الأدب معَ ذلك قبلَ مَيْل الهوى به إلى طلبِ السُّلطان أدنَى نظَر بأذكى طبع حصَلَ منه لثقوبِ ذِهنه على قطعةٍ وافرة علَّقها من غير تعهُّدٍ لها ولا إمعان في غِمارِها ولا إكثار من مُطالعتها، أعطَتْه نتيجتُها على ذلك ما شاء من تحبيرِ الكلام وقَرْض قِطَعٍ من الشّعر ذاتِ طَلاوة في معانٍ أمدَّتْه فيها الطبيعةُ وبلَغَ فيها الإرادة واكتَتَبها الأدباءُ للإفادة، فجمَعَ هذه الخلالَ الظاهرةَ والباطنة إلى جُود كفٍّ بارَى بها السَّحاب. وأخبارُ عبَّاد في جميع أفعالِه وضروبِ أنحائه عالياتِه وسافلاتِه[3] غريبةٌ بعيدة.

وكان على جُرأته[4] في إحكام التدبير لسُلطانِه ذا كَلَف بالنّساء، فاستوسَعَ في اتّخاذِهنّ وخَلَّط في أجناسِهنَّ، فانتهى في ذلك إلى مدًى لم يبلُغْه أحدٌ من نُظَرائه، فقيل: إنَّه خلَّف من صنوف السَّريَّات[5] منهنَّ خاصَّةً نحوًا من سبعينَ جاريةً إلى حُرَّتِه

---

(١) الذخيرة ٢/ ٢٥.

(٢) النص في الذخيرة ٢/ ٢٥-٢٦.

(٣) في الذخيرة: «عالناته وخافياته».

(٤) في الذخيرة: «تجرده».

(٥) في الذخيرة: «السريريات».

الـحَظيَّة لدَيْه الفَذَّة في حلائلِه بنت مجاهدٍ العامريِّ أُخت عليّ بن مجاهد صاحبِ دانِيَةَ والـجُزُر الشرقيَّة، ففَشا نَسْلُ عبَّاد لتوسُّعِه في النِّكاح وقوَّتِه عليه، فذُكر أنَّه كان له من ذكورِ الوَلَد نحوٌ من عشرين، ومن الإناث مثلُ ذلك.

ومن شعرِه[1] [من الطويل]:

شرِبْنـا وجفـنُ اللّيـل يغـسلُ كُحْلَـه ... بـماء صـباح والنّـسيمُ رقيـقُ

مُعتَّقـةً كـالتِّبرِ أمَّـا نِجارُهـا ... فـضخمٌ وأمَّـا جـسمُها فـدقيقُ

ومن شعرِه أيضًا يخاطبُ صِهرَه عليَّ بنَ مجاهد صاحبَ دانِيَةَ وذَواتِها [من البسيط]:

خِلّي أبا الجيش هـل يُقـضَى اللِّقـاءُ لنـا ... فيَـشْتَفي منـك طَـرْفٌ أنـت نـاظرُهُ

شـطَّ المـزارُ بنـا والـدارُ دانيـةٌ ... يـا حبَّـذا الفـألُ لم صـحَّتْ زوَاجـرُهُ

وكان كثيرًا ما يرتاحُ في شعرِه إلى ذكر الطائفة التي كانت يومَئذٍ تُحاربُه، فمن ذلك قولُه فيهم، وذكَر فتحَ رُنْدةَ [من مجزوء الوافر]:

لقد حُـصِّلْتِ يـا رُنـدَهْ ... فصِرت لـمُلكِنا عِقـدَهْ

إلى قولِه فيه:

فكـم مـن عِـدَّة قتَّلْـتُ مـنهم بعـدَها عِـدَّهْ

نظمتُ رؤوسَهمْ عِقْدًا ... فحلَّـت لبَّـةُ الـسُّدَّهْ

وأُعْجِب الـمُعتضِدُ يومَئذٍ بهذه القصيدة الرُّنْديَّة، وأخَذ الناسُ بحفظِها، وحمَلَهم على ضبطِها.

وعلى ذكرِه وذكرِهم، فلنُلمِعْ[2] بشيءٍ من أمرِهم على الجُملة، ثمَّ نذكُرْ بعدَ ذلك لُـمَعًا منه على تَوالي السنينَ إن شاء اللهُ تعالى.

---

(١) الذخيرة ٢/ ٢٧-٢٩.

(٢) الكلام لابن بسام في الذخيرة ٢/ ٢٩.

فنبدأُ الآنَ برؤساء غَرْب إشبيلِيَة، إذ كانوا دُخَانَ نارِه، وجِرْيةَ تيّارِه، إلَّا ما كان من ثبوت قِرّيعِه الـمُظفَّر بن الأفطس، فإنَّه نازَعَه لَبُوسَها، وعاطاه إلى آخِر أيَّامِه كؤوسَها، لهما في ذلك غيرُ ما مجالٍ وميدان، وقد سَرَدَ قصصَهما أبو مروان بنُ حيَّان، وسأُلمعُ بعيونِها، وأقلّبُ ظهورَها لبطونها، حسبَما ذكَرَه ابنُ بسَّام رحمه الله.

بعضُ حروبِ الـمُعتضِد بن عبَّاد معَ الـمُظفَّر بن الأفطس وغيرِه

قال ابنُ حيَّان(١): أوَّلُ ما ظهرَ من تفاسُد عبَّاد والمظفَّر بن الأفطس أنَّ ابنَ يحيى صاحبَ لَبْلَةَ عندَ هجوم عبَّادٍ عليه استجارَ بالـمُظفَّر فأجارَه وانزعَج له ووصَل يدَه وجمَعَ جيشَه وأقبلَ إلى لَبْلَةَ ناصرًا لابن يحيى مُضيّعًا لـمَن خلَّفه يوقدُ نارَ فتنة كان في غِنًى عنها، حتَّى نزَلَ بنفسِه على ابن يحيى ودافَع ابنَ عبَّادٍ عنه، وحرَّكَ في ذلك من حُلفائه البرابرة جماعةً فسارعوا إليه غيرَ ناظرينَ في عاقبةِ أمرِهم، وتقدَّم بهم إلى إشبيلِيَةَ ورحاهم تدورُ على قِرّيعِهم باديسَ بن حَبُّوس يُسْلِمونَ لرأيه ويزحمونَ برُكنِه، فأشفَق الوزيرُ ابنُ جَهْوَر من حركتِهم تلك على عادته في التغلغل لأمثالِها، وجَهِد جُهدَه في صرفِهم، وأرسَل ثقاتِ رُسلِه إلى عامَّتهم إلَّا ما كان من الدائلينَ، منهم: عبَّادٌ داعيةُ المروانيَّة ومحمَّدُ بن إدريسَ صاحبُ مالَقة دائلُ الـحمُّوديَّة، فإنَّه تنكَّبها بِعادًا من الظِّنَّة، إذ كان هو وجماعةُ قُرطبةَ يومَئذٍ مترفِّعينَ عن كلِّ دعوة، فلمَّا وصَلت رسُلُه إليهم ما زادهم لذلك إلَّا لَجاجًا، ولم يزَل ابنُ جَهْوَر يضربُ لهم الأمثالَ ويُخوِّفُهم من سوء العاقبةِ والمآل حتَّى صار فيهم كموسى آلِ فرعونَ وعظًا وتذكِرة، واستنَّ القومُ في ميدان الغيّ.

فلمَّا صحَّ عندَ ابن عبَّاد خروجُه للَبْلَةَ بجيشِه دفْعًا عن ابن يحيى، جرَّد خيلًا فضربَتْ على بلاد ابن الأفطس، فغارت وأنجَدَت وفعَلت فِعلاتٍ نكأَت القلوب، وقرَّبت النُّدوب، ثمَّ نهَض ابنُ عبَّادٍ بنفسِه إلى لَبْلَة للقائه، فجرت بينَهما وقعةٌ صعبةٌ على بابِها اسْتَهما فيها النَّصْرَ، وكانت الدائرةُ أوَّلًا على ابن الأفطس فولَّى الدُّبُر وخاضَ واديَها دونَ مخاضة، فقُتل من رجاله عددٌ كثير، ثمَّ رجَعت له على ابن عبَّاد فكشَفَ رجالَه

(١) النص في الذخيرة ٢/ ٢٩ فما بعدها.

وأصابَ منهم نفرًا، ثمَّ افترقوا ولِحَق بعدُ باديسُ بجمعِه وخاضَ واديَ قُرطبةَ وجاز إلى الشّرق، وتجمَّع بحُلفائه وعاثوا في نَظَر إشبيلِيَة، وانقَطعت السُّبلُ جُملةً وكثُر القتلُ والـهَرْج والسَّلب، وأمسى الناسُ في مثل عصرِ الجاهليَّة، ثمَّ والى ابنُ يحيى بعدَ ذلك المعتضِدَ لضرورةٍ دعَتْه إلى ذلك، فكاشَفَه الـمُظفَّرُ وخانَه فيما كان ائتمنَه من مالِه وأودَعه عندَه أيَّامَ تورُّطِه في حرب الـمُعتضِد فانبتّت بينَهم العصمة، وضَرَبت خيلُ المظفَّر على صاحبِ لَبْلَةَ فاستغاث المعتضدَ، فلحِقَت به خيلُه واقتتلت معَ خيل الـمُظفَّر، وكان ابنُ جَهْوَر كثيرًا ما يُوالي رسُلَه إلى الإصلاح بينَهما.

ومن النّوادِر المحفوظة بينَهما: أنَّ المعتضدَ والى حربَ ابن الأفطس في شهورِ سنة اثنتَين وأربعينَ وأربع مئة، فغيرَّ بلدَه وفتحَ عِدَّةَ حصونٍ ضمَّها إلى عملِه وشدَّها برجالِه، ودمَّر عِماراتٍ واسعةً وأفسد غلَّاتِها، وأوقَع رعيَّتَه في المجاعةِ الطويلة، وعجَزَ الـمُظفَّرُ ابنُ الأفطس عن دفاعِه شبرًا واحدًا فما دونَه لاستكانة الحادثة التي هدَّت رُكنَه وأفنَتْ حُماةَ رجالِه، فاعتَصم ببلدِه بَطَلْيَوْس ولم يُخرِجْ منها فارسًا واحدًا، وجعَل يشكو به إلى حُلفائه فلا يجدُ ظهيرًا ولا نصيرًا.

فلمَّا قضَى الـمُعتضِدُ من تدويخ بلادِه وطرِّه وكرَّ راجعًا إلى إشبيلِيَةَ في شوَّال العام، وردَتْ علينا بقُرطبةَ غريبة يومئذٍ، وذلك أنَّ رسُولَ المظفَّر ابن الأفطس ورَدَ قُرطبةَ إثْرَ هذه الوقائع عليه يلتمسُ شراء وصائفَ مُلهِيات يأنَسُ بهنَّ، نافيًا بذلك الشَّماتةَ عن نفسِه، ولم تكن له عادةٌ بمثلِه، فنقَّب له رسولُه عن ذلك، وكنَّ قد عُدِمْنَ بقُرطبةَ يومئذ، فوجَد له صبيَّتَين مُلهِيتَيْنِ عندَ بعض التجَّار لا طائلَ فيهما، فاشتراهما له، وأقام رسولُه يلتمسُ الخروجَ بهما فلم يستطع لقَطْع خيل المعتضِد جميعَ الطُّرق، فأقام مدَّةً بقُرطبةَ إلى أن أُرسِل بخيل كثيفة ومضَى بهما وأولو النهى يعجَبونَ ممَّا شَهَر به نفسَه من البِطالة أيَّامَ الحروبِ المحرِّمة لأطهارِ النساء على فحول الرجال العاقدة الآزِرة على ما كان يَدَّعيه لنفسِه من الأدب والمعرفة.

قال: وبحثتُ على هذه الأُعجوبة، فإذا هو مُعانِدٌ في ذلك لكاشِحِه المعتضِد المرتاح بعدَ الظَّفر لاجتلابِ قَيْنَةِ ابن الرميميّ الوزير من قُرطبة بعدَ وفاتِه حينَئذ، وقد استدعاها

لِـما وُصِفت له بالـحَذْق في صنعتِها، فوجِّهت نحوَه، فتقيَّلَه المظفَّرُ في إظهارِ الفراغ وطلبِ الـمُلهِيات وقد علم العالـمُ إنَّه لفي شُغل عنهنَّ[1].

فامتدَّ شأوُ هذينِ الأميرَيْنِ يومَئذٍ في الغيِّ، وتبارَيا في القطيعة حتَّى أفنيا العالَـمِين، إلى أن سنى اللهُ الصُّلحَ بينَهما في ربيع الأوَّل سنةَ ثلاث وأربعينَ بسعي ابن جَهْوَر أميرِ قُرطبة.

فلمَّا سكَنَتَ الحربُ بينَهما فَرَغ الـمُعتضِدُ إلى حرب الأُمراء الأصاغر بالغرب كابن يحيى وابن هارونَ وابن مُزَيَّن والبكريّ، فأُتيح له من الظَّفر عليهم ما حاز به أملاكَهم وضمَّها جُملةً إلى عملِه، ثمَّ مَدَّ يدَه بعدُ إلى القاسم بن حمُّود صاحب الجزيرةِ الخضراء، وذلك أنَّه لـمَّا وجَد هذا الفتى على نَباهتِه وجلالةِ عملِه أضعَفَ أُمراء البرابرِ شوكةً وأقلَّهم رجالًا، صمَدَ له وحصَرَه، فاستغاث حُلفاءه بالأندَلس وصاحبَ سَبْتَة سقُّوتًا البرغواطيَّ مولى ابن حمُّود، فأبطَأ عليه حتَّى سُقِط في يدِه وعَجَز عن تلافي أمرِه، فنزَلَ على أمانٍ وآلَ أمرُه إلى أن لَحِق بقُرطبة وسكنَها تحتَ كنَف ابن جَهْوَر معَ نُظرائه من المخلوعين، فلمَّا أُتيح له من الظَّفر بالخضراء وأعمالِـها ما أُتيحَ اتَّصلت الأنباءُ بالأندلس بصُموتِ منابرِه في جميع أعمالِه عن ذكرِ إمامِه هشام بن الـحَكَم صاحبِ الرَّجْعة، الذي اتَّصل الدعاءُ له على منابرِه من عهدِ قيام والدِه إلى آخِر هذه السنة، وهي سنةُ إحدى وخمسينَ، يُومَأُ إليه بالحياة في غياهبِ الـحُجُب من غير ظهورٍ لخاصَّة ولا عامَّة، عاقَهُ يومَئذٍ عن البوح بوفاةِ هذا الإمام والشّهرة لدفنِه إعطاء الـحَزْم بقِسطِه، فلمَّا سكَنَت الحالُ وجَبَ التصريحُ بالحقّ[2].

وذكر ابنُ بسَّام[3]، رحمه الله، ابنَ عبَّاد المعتضِدَ فقال: ثمَّ غَمَس المعتضدُ يدَه بعدُ فيمن كان يَليه من أُمراء البربر، فصَدَم شَرَّهم بشرّهم، وضرَب زيدَهم بعَمْرِهم، وكان عندَما تسعرت نارُ الحرب، بينَه وبينَ رؤساء الغرب، هادَنَهم على دَخَن، ومنَح لهم حتَّى ضَربوا حولَه بعَطَن، ليقتُلَهم بسيوفِهم، ويستدرِجَهم إلى حتوفِهم، فلمَّا استقرَّت قدَمُه

---

(١) الذخيرة ٢/ ٣١.

(٢) الذخيرة ٢/ ٣١-٣٢.

(٣) الذخيرة ٢/ ٣٣ فما بعد.

بشِلْبَ، قاصيةِ قواعدِ الغرب، كان أوَّلَ ما بدأ من حربهم هجومُه على الحاجب محمَّد بن نُوح الدَّمريّ الـمُنتَزي منهم بكُورةِ مَوْرُورَ في غير كتيبةٍ نَظَمها، ولا مقدّمة إليه قدَّمها، فخَلَص إلى ابن نُوح هذا من رجُل لا يُبالي دمَ من تَجرَّع، ولا يحفلُ بأيِّ شيءٍ يصنع، فبالَغَ ابنُ نوح في بِرِّه، وتضاءل لأمرِه، وحَمَلَ ذلك مِن فعلِه على آكَدِ أسبابِ السَّلامة، وأتمِّ وجوهِ الاستقامة.

وفَضَّ الـمُعتضِدُ يومًا من صميم مالِه، في أوجُهِ حُماةِ ابن نُوح ورؤوس رجالِه، ما استمال به قلوبَهم، واستَنْصَح به جُنوبَهم، ثمَّ سار إلى ابن أبي قرَّةَ برُنْدةَ فسامَهُ مثلَها، وحَذَا له نعلَها، فتلك اعتَدّ عليهم يدًا، وجعَلَها لِـما أراد من مكروهِهم أمدًا، وقد كان أحدُ أجنادِهم أشار بالرأي في أمرِه، وأراد أن يَطْلُعَ عليه من ثَنِيّة مكرِه، ففهِمَها الـمُعتضِد، وجعَل تلك الكلمةَ دُبرَ أُذُنِه، وأثبتَها في ديوانِ إحَنِه، وجاجأ بالحاجبَيْنِ المذكورَيْنِ لأوَّل تمكُّنِه من الغِرَّة، وسَعة صدرِه إلى مركزِه من الحضرة، فتهافتا تهافُتَ الفَراش على الجمرة، وجاءا مجيء الخائن إلى الشعرة[1]، وتطفَّل عليهما الخائنُ ابنُ خَزْرون الـمُنتَزي كان وقتَه بأركُش، فللَّه أبوهُ من وافدٍ لم تُجزِه الوِفادة، وواهًا له من قتيل لم يَحْلَ بطائل الشهادة، فجرَّع الكل الحتوف، وحكَّم في عامَّتِهم السّيوف، واستمرَ بعدَ ذلك على حربِ بقاياهم، وتتبُّع أُخْراهم، حتَّى تغلَّب على بلادِهم، وألوى بِطارِفِهم وتِلادِهم.

وفي سنة أربع وثلاثينَ وأربع مئة: توفِّي يُمنُ الدّولة صاحبُ مدينة البنْت من كورةِ شنْتَ بِرية، وهو: محمَّدُ بن عبد الله بن قاسم الفِهريُّ[2]، ولم تزَلْ بأيدي بني قاسم من أوَّل الفتنة، وأوَّلُ من مَلَكها منهم نظامُ الدّولة عبدُ الله بنُ قاسم إلى أنْ هلَك سنةَ إحدى وعشرينَ وأربع مئة، ثمَّ وليها محمَّدٌ هذا يُمنُ الدّولة إلى أنْ هلَكَ في هذا العام، فلم يزالوا يتعاقبونَ فيها إلى سنة خمس مئة.

(١) في الذخيرة: «الشفرة».

(٢) ترجمته في التكملة لابن الأبار (١١٠١)، وابن عبد الملك في الذيل ٦/ ٢٦١، والذهبي في المستملح (٢٠)، والمقري في نفح الطيب ٣/ ١٦٠، وانفرد المؤلف بذكر وفاته.

وفيها: توفِّي سعيدُ بن هارونَ صاحبُ مدينة أُكشُونبة[1]، فأورَثَ مُلكَه وَلَدَه المتلقَّبَ بالمعتصم، فلم يزَلْ فيها إلى أن أخرَجَه منها عبَّادُ بن محمَّد سنة تسع وأربعينَ وأربع مئة، وكان بشِلبَ أحمدُ بن جَرّاح فعظُم فيها طُغْيانُه وانتشَرت في الرعيَّة أعباثُه، وكان يُدْعَى الحاجبَ مؤيَّدَ الدّولة، فلمّا طغا وتجبَّر وبغَى ذَكَروا أنّه تسمَّى بملِك الملوك، قاطع الشُّكوك، تعالى اللهُ عن قول الظالمينَ عُلوًّا كبيرًا، فأنزَلَ عليه أهلُ بلدِه فقَتلوه وأراح اللهُ منه.

بقيَّةُ أخبار الحمُّوديّينَ ووِلاياتِهم إلى انقضاء مُدَّتِهم

قد تقدَّم القولُ في سنة إحدى وثلاثينَ بمبايعة الـمُستنصِر بسَبْتة، ولـمّا توفِّي المستنصرُ المذكور، وهو: حسَنُ بن عليّ، قام بعدَه وَلَدُه يحيى، فبويعَ وملَكَ سنتَيْن، ثمَّ قام عليه ابنُ عمِّه حسَنُ بن يحيى بن عليّ فخلَعه وقتَلَه بسَبْتة، وقيل: إنَّ والدَه يحيى بنَ عليّ كان ولّاه عهدَهُ، فسبقَه عمُّه إدريسُ بن عليّ وجاز حسَنُ بن يحيى بن عليّ إلى مالَقةَ، وكان معَه أخوهُ إدريسُ بن يحيى، فوَشَى لديه وأمَرَ بثِقافِه في القصر.

ثمَّ توفِّي حسَنٌ بمالَقةَ مسمومًا، وترَكَ وَلدًا صغيرًا بسَبْتَةَ، فقام به أبو الفَوْز نَجاءٌ العَلَويُّ قائدُ حسَن على سَبْتة، وجاز البحرَ لِثقافِ البلاد، فأتَى الجزيرةَ الخضراءَ وفيها ابنا القاسم بن حمُّود، فأراد إخراجَهما منها، فخرَجَت إليه سَبيعةُ أُمُّهما وقالت له: يا أبا الفوز، أتقطَعُ أيتامَ مَواليك وتكشِفُهم عن البلاد؟ ما هذا بحسن، فاستَحْيا منها وانصَرف إلى مالَقةَ، فلمّا كان ببعضِ الطريق اجتَمعت برغواطةُ الذين كانوا معَه على قتلِه، وكانوا أخوالَ حسَن بن يحيى ومَواليَه، فقالوا: أنترُكُ موالِيَنا ونتبعُ عبدًا مملوكًا خَصِيًّا؟ فتعرَّض إليه أحدُهم فقال له: الراتب، فقال له: بمالَقةَ إن شاء الله، فقال له: كبرت، فقال: أنا؟ ورفَعَ يدَه بالرُّمح فإذا هو حاسرٌ ليس بذي درع، فرجَع خلفَه حتَّى أمكنَتْه طعنتُه فطعنَه بين كتِفَيْه طعنةً خرَجَت من صدرِه فهلَكَ أبو الفَوْز نَجاءٌ وقطَعوا رأسَه وعلَّقوه من شجرة.

---

(١) ينظر عنها معجم البلدان ١/ ٢٤٠.

ثمَّ نهَضَ قومٌ منهم إلى مالَقةَ، ونهَضوا إلى الوزير أبي جعفرٍ بن موسى فقَتلوه، وأخرَجوا إدريسَ بنَ يحيى من سِجنِه وبايَعُوه، وتسمَّى بالعالي، وبايَعَه أُمراءُ البربر وخَطَبوا باسمِه، وذلك سنة أربع وثلاثينَ وأربع مئة.

وقدِمَ على العالي ابنُ عمّه محمَّدُ بن إدريسَ بن عليّ بن حمُّود وخَلَعه في شعبانَ من عام ثمانيةٍ وثلاثينَ وأربع مئة، فخرَجَ إدريسُ بن يحيى من مالَقةَ إلى حِصنِ بُبُشْتَرَ معَ عبيدِه ومَن تبِعه من الجُند فغَزا مالَقةَ معَ باديسَ بن حَبُّوس فلم يقدِرْ على شيء، فرجَع إلى حصنِ بُبُشْتَر وأخرَج عيالَه وجاز إلى سَبْتة فبقيَ عندَ سواجّاتَ البرغُواطيّ. هكذا ذكَر ابنُ القطَّان.

قال ابنُ حيَّان: وفي شعبانَ من سنة ثمانٍ وثلاثينَ خرَجَ إدريسُ بنُ يحيى بن عليّ بن حمُّود من مالَقةَ مُتنزِّهًا للصَّيد، فغلَّق البابَ في وجهِه أهلُ البلد ووَجَّهوا إلى ابن عمِّه محمَّد بن إدريسَ وبايَعوهُ بالخلافة، وتلقَّب بالـمَهْديّ، وتوطَّد أمرُه بمالَقةَ مُدَّةَ حياتِه، وانصرَف إدريسُ بن عليّ العالي إلى العُدْوة، ثمَّ رجَع بعدَ ذلك إلى الأندَلُس واستقرَّ عندَ أبي نُور بن أبي قُرَّةَ اليَفْرَنيّ صاحبِ رُنْدةَ شهورًا ودَعَا له بالخلافة.

رَجْعُ الكلام: وبويع محمَّدُ بن إدريسَ، وخَطَبَ له الـحُجَّابُ على اختلافٍ بينَهم وبينَه وبينَ ابن عمِّه إدريسَ العالي وبينَه وبينَ محمَّد بن القاسم بن حَمُّود، وكان بالجزيرةِ الخضراء.

قال: وكان هذا محمَّدُ بن إدريسَ سَفَّاكًا للدّماء، فامتدَّت يدُه إلى قَتْل البرابر، ولـمّا رأى الـحُجَّابُ ذلك، وهم أُمراءُ القبائل، عمِلوا الحِيلةَ في قتلِه، فوجَّه له باديسُ بنُ حَبُّوس بكأس عراقيّ مسموم معَ رجُل من الكُتَاميّينَ، فلـمّا وصَل إليه قال له: هذا كأسٌ جُلِب للحاجِب الـمُظفَّر باديس، فلم يَرَهُ يَصلُحُ إلَّا للخلافة، فاختصَّك به، فأُعجِب به محمَّدُ بن إدريس وملأه خمرًا وضمَّه إلى فمِه، فأحسَّ في نفسِه رِيبةً منه فأمَرَ الكُتاميّ فشَرِبَه فتهّرأ جلدُه عن عظمِه من حينِه، وبقي هو ثلاثةَ أيَّام ومات من رائحتِه في أواخِر سنة أربع وأربعينَ وأربع مئة.

ثمَّ قام بالأمر وَلَدُ أخيه، وهو إدريسُ بن يحيى بن إدريسَ بن عليّ بن حَمُّود، وتسمَّى بالسامي، ثمَّ أخْمَلَ نفسَه وخرَجَ كأنَّه تاجر، وخرَجَ في رِيف غُمارةَ فقُبِض

عليه وسيقَ إلى سَبْتَةَ فقتَلَه سواجاتُ البرغُواطيُّ، وبقي عندَه العالي إلى أنْ مات سنةَ أربع وأربعينَ وأربع مئة.

ووَلِي وَلَدُه محمَّد، وتسمَّى بالـمُستعلي، فاتَّفق أُمراءُ البربر على مُبايعة محمَّد بن القاسم بن حَمُّود وخَلْع الـمُستعلي، وذلك في سنة تسع وأربعينَ على ما يأتي ذكرُه إن شاء الله.

ومات محمَّدُ بن القاسم، فبايَعوا ابنَه القاسمَ، وتغلَّب باديسُ على مالَقَةَ وأخرَجَ الـمُستعليَ منها، فكان خروجُ المستعلي من مالَقَةَ سنةَ خمسٍ وستّين. وتغلَّب ابنُ عبَّاد على الجزيرة الخضراء، وأخرَجَ منها القاسمَ بن محمَّد بن القاسم بن حَمُّود، وفَنِيت ذُرّيَّتُهم من بلادِ الأندَلس، فكانت مُدَّتُهم بها ثماني وخمسينَ سنة.

رجْعُ الخبر إلى نسق التاريخ.

وفي سنة خمس وثلاثينَ وأربع مئة: تميَّزَ أُمراءُ الأندَلس ومُلوكُهم من قبائلِ البربرِ وغيرِهم، وصاروا فريقَيْنِ ما منهم مَن يحذَرُ الدارَ الآخرة. قال ابنُ حيَّان: أحدُ الفريقَيْن فيه عظيمُهم سليمانُ بن هُود الجُذاميُّ صاحبُ الثّغر الأعلى، وكان معَه مقاتِلٌ الصَّقْلَبيُّ صاحبُ طَرْطُوشة وعبدُ العزيز بنُ أبي عامر صاحبُ بَلَنْسِية ومَن تَـحتَهما من أصحابِ الأعمال بالـمُوسَّطة، وكان ابنُ مَعْن صاحبُ المرِيَّة وسعيدُ بن رفيل صاحبُ شَقُورةَ وغيرُهما من الرّؤساء إلى الوزير محمَّد بن جَهْوَر صاحبِ قُرطُبة، كان هؤلاء الأندَلسيُّون نمَطًا واحدًا، متظاهرينَ على عظيم البرابرة يومَئذٍ باديَس بن حَبُّوس الصُّنهاجيّ صاحبِ غَرْناطةَ ومَن تميَّزَ معَه من البربر ومَن يدعو إليه من إدريسَ بن يحيى صاحبِ مالَقةَ، وكانوا مُتعاضدينَ متناصِرينَ على مَن يُباينُهم من الأُمراء سواهم على اختلافِهم في الرأي والدّعوة، وكان هؤلاء التَّغريُّونَ المذكورونَ يَدْعونَ لهشام المنصوبِ بإشبيلِيَةَ، وكان باديسُ ومن والاهُ من أُمراء البرابرة يَدْعونَ لإمامِهم بمالَقةَ، وهو إدريسُ بن يحيى بن عليّ بن حَمُّود الـحَسَنيُّ، وكان أبو نُور بنُ أبي قُرَّةَ صاحبُ رُنْدةَ وكُورة تاكُرُنَّا يدعو بابن عبَّاد ورَضِيَ ابنُ عبَّاد منه بذلك.

وفريقٌ آخَرُ من أملاك الأندَلس الـمُسارِعينَ في التمايز، كمجاهدٍ العامريِّ صاحبِ دانِيَةَ، وكابن الأفطس صاحبِ بَطَلْيَوْسَ أيضًا ومَن يتَّصلُ به من الرؤساءِ بالغَرْب، ويحيى بن

ذي النُّون صاحبِ طُلَيْطُلة، وإسحاقَ بن محمَّد البِرْزاليّ صاحبِ قَرَمُونةَ ومَن والاهُ من الأُمراء الأصاغرِ مثلَ: ابن نُوح وابن خَزْرُونَ وغيرِهما، يلتفتُ جميعُ هؤلاءِ النَّمطِ لعبَّادٍ الـمُعتضِد صاحب إشبيلِيَةَ، وكلُّهم على دعوتِه الـهِشاميَّة ما خلا يحيى بنَ ذي النّون فإنَّه كان في هذا الوقت ساكتًا عن الدّعاء لأحدٍ على رَسْم والدِه ورَسْم أهل قُرطُبَةَ إلى أنْ دخَل في دعوة ابن عبَّاد سنةَ ستٍّ وثلاثينَ لـمّا التحَم ما بينَهما.

وتظاهَر كلٌّ من هؤلاء الأُمراء على ضدِّه في الظاهر أتمَّ مُظاهرة، يتداخَلونَ ويتعاونونَ على دَفْع الحوادثِ الطارِقة لهم ولا يثربُ بعضُهم على بعض بخلافِ رأي أو دعوة.

وفي سنة ستٍّ وثلاثينَ: دخَلَ أهلُ طُلَيْطُلَةَ وصاحبُها يحيى بنُ ذي النّون في دعوة الـمُشبَّه بهشام المؤيَّد المنصوبِ خليفةً بإشبيلِيَةَ، والتحَم يحيى بنُ ذي النّون معَ ابن عبَّاد.

قال ابنُ حيَّان: إنَّ أصلَ الفتنة في هذه السنة والتي قبلَها من أحمدَ بن سُليمانَ بن هُود ويحيى بن ذي النّون ومَن تميَّزَ في حربِ كلِّ واحدٍ منهما من أُمراء الأندَلس، وإنَّ رعيَّتَهما كانت معَهما في أمرٍ عظيم.

وفي سنة سبع وثلاثينَ: كان عَيْثُ النّصارى بالثَّغر الأعلى والأدنى بأشلاءِ ابن هُود وابن ذي النّون لهم عليهما.

وفيها: مَلَكَ محمَّدُ بن نُوح الدَّمَّريُّ كُورةَ مَوْرُور لهلاكِ أبيه المالك بعدَ قسمة المستعين الأُمويِّ البلادَ على رؤساء القبائل.

وفيها: صار مُلكُ بَطَلْيَوْس لمحمَّد بن عبد الله بن مَسْلَمة المعروف بابن الأفطس، وله التأليفُ الكبير العجيبُ الشهيرُ بالـمُظفَّريّ يكونُ في خمسينَ مجلّدًا.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثينَ: كان مهلِكُ سُليمانَ بن هُودٍ الـجُذَاميّ.

ذكرُ ابتداء الدّولة الـهُوديَّة[1]

قد تقدَّم القولُ: إنَّ ابتداءها كان سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة، ونحن الآن نذكرُه قولًا جُمْليًّا مختصَرًا فنقول: إنَّ أوّلَ ملوكِهم هو سُليمانُ بنُ هود الـجُذَاميُّ.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٢٠٩، وصبح الأعشى ٥/ ٢٤٦.

بعضُ أخبارِ سُليمانَ بن هُود الـمُستعينِ بالله[1]

كان هذا الرجُل، سليمانُ بن محمد بن هود، في مدَّة الجماعة بالأندَلس، من كبار الـجُند بالثَّغر الأعلى إلى حين وقوع الفتنة الشاملة، فغَلَب على مدينة لارِدةَ وسائر أنظارِها وقَتَل القائمَ بها يومَئذٍ وهو أبو الـمُطرِّف التُّجِيبيُّ، وكان معروفًا بالنَّجدة والرياسة، فاستَغْلب عليه ابنُ هودٍ هذا وقَتَلَه في خبرٍ طويل، واستولى على لارِدةَ ومنتشونَ وأنظارِهما، إلى أن جَرت قصَّةُ سَرَقُسْطة، وذلك أنَّ أمرَ سَرَقُسْطَة وذَواتِها كان إلى رجُل من التُّجِيبيِّينَ يقال له: منذرُ بن يحيى، وقد تقدَّم ذكرُه، وكان من قُوَّادِ الدولة العامريَّة، ومات في أمدِ الفتنة فورِثَ مُلكَه ابنُه يحيى بنُ منذرٍ وسنُّه فيما ذُكر تسعَ عشْرةَ سنة، فتسمَّى بالحاجبِ معزِّ الدّولة، وكانت أُمُّه بنتُ عبد الرحمن بن ذي النُّون أختَ المأمون يحيى بن ذي النُّون، فاحتَقَره بنو عمِّه وتواطأوا على قتلِه معَ كبير منهم خرَج يومًا للسلام عليه، فترامى إليه كأنَّه يُقبِّلُ يدَيْه، فضربه بسِكِّين في صدرِه كان في ذلك مَنِيَّتُه، وخرَج هذا القاتلُ منَ القصر، فاجتمَع عليه بنو عمِّه وولَّوْه لأمرِهم، وكان عاهرَ الفَرْج، ذُكر أنَّه كان يدخُل على النِّساء الحمّام، فعَظُم ذلك وأنكروا فعلَه ولم يحمِلوا مثلَ هذا منه، واسمُه: عبدُ الله بنُ حَكيم، فقام أهلُ سَرَقُسْطةَ وهمُّوا بقتلِه، فخرَج فارًّا بنفسه، فبقي أهلُ سَرَقُسْطةَ دونَ أمير يُدبِّرُ أمرَهم، فبعثوا إلى سليمانَ بن هُود وهو بمدينة لارِدة، واجتمَع الملأُ منهم على تقديمه، فوصَل إليهم فولَّوْه على أنفسِهم، ونزَل دارَ الإمارة بسَرَقُسْطة، وبقي عليهم أميرًا إلى أن مات في هذه السنة، وهي سنةُ ثمانٍ وثلاثينَ وأربع مئة، وكان استيلاؤه على لارِدةَ سنةَ إحدى وثلاثينَ وأربع مئة.

ولما مات ابنُ هود ترَك خمسةَ أولاد ذُكور، كان قد قَسّم عليهم في حياتِه بلادَه التي كانت تحتَ نظرِه، فوَلِي أحمدُ بن سُليمانَ مدينةَ سَرَقُسطةَ بعدَ أبيه، ووَلِّي يوسُفَ مدينةَ لارِدة، ووَلِّي محمَّدًا قلعةَ أيوب، ووَلِّي لُبًّا ابنَه مدينةَ وَشْقة، وكانت تحت نظرِ أخيه، ووَلِّي المنذرَ بنَ سُليمان مدينةَ تُطِيلة. واستبدَّ هؤلاء الإخوةُ كلُّهم بأعمالِهم بعدَ أبيهم، ودَعَا كلُّ

---

(١) تراجع المصادر المذكورة في الهامش السابق.

واحد منهم إلى حَوْزتِه، فلم يزَلْ أحمدُ بن سليمانَ يحتالُ على إخوتِه حتَّى أخرج بعضهم من مَواضعِهم، واحتال عليهم وسَجَنَهم وكحَلَ بالنار بعضَهم، غيرَ أنَّ الواليَ على مدينة لارِدة يوسُفَ كان أكبرَهم، وهو المسمَّى بحسام الدّولة، حَمَى حَوْزتَه منه. ولـمّا رأى أهلُ الثّغر ما صنَعه أحمدُ بن سليمانَ بإخوتِه كرِهوهُ لذلك وخَلَعوا طاعتَه وصيَّروا أمرَهم إلى أخيه يوسُفَ وقاموا بدعوتِه، ولم يبقَ لأحمدَ إلَّا سَرَقُسْطة.

وكان يوسُفُ بن سُليمانَ بن هود بطلًا شَهْمًا، وتلقَّب بالـمُظفَّر لكنّه كان غيرَ مُبخَّت، وكان أخوهُ أحمدُ أسعدَ منه في أمورِه.

ولـمّا رأى أحمدُ تألُّفَ الناس على أخيه وَجَّه رسولَه في السّرِّ إلى الطاغية ابن رُذْمير صاحبِ بلاد النَّصرانيَّة المجاورِة له يَستعطفُه ويقولُ له: اعلِمْني بما أعطاك أخي من المال على أن يشقَّ بلادَك بالـمِيرَ إلى تُطِيلة وأنا أُعطيك أضعافَه واترُكْني وإيَّاهم، فأعلَمَه بذلك وأضعَفَ له المالَ وتَركَهم عندَ ذلك، فلمَّا بعَث أخوه إلى بلادِ ابن رُذْمير برَسْم الـمِيرة لبلادِه خيلًا ورجالًا بدوابَّ كثيرة سَرى إليهم مِن سَرَقُسطة فأخَذهم وقتَلَهم، وكانوا قد توسَّطوا بلادَ الرّوم، فامتلأت أيدي الرّوم من أسلابِهم، وكان بينَهم وبين بلاد المسلمينَ مسافةُ أيّام، فلم ينْجُ منهم إلَّا اليسير، وكانوا آلافًا، فأخَذ النّصارى أكثرَهم أَسْرى وافتكَّ بعضَهم فلم يتمَّ للمظفَّرِ مُرادُه، وكان ضدَّ لقَبِه، واستُطير به أهلُ طاعتِه ورجَعوا إلى أخيه، ولم يبقَ ليوسُفَ بن سليمانَ سوى عملِه المتقدِّم له قبلَ ذلك.

وسببُ تلك الوقعة التي فَنِي فيها المسلمونَ على أيدي أحمدَ بن سُليمان بن هود: أنَّه وافَقَ أنْ كان بتُطِيلةَ وذَواتِها في ذلك الوقت غلاءٌ شديد، فاستغاثَ أهلُها بالـمُظفَّر الذين هم تحت طاعتِه، فنَدَب جميعَ أهل تلك الثُّغور بمير يحمِلونَه إلى تُطِيلة، فاجتمع في ذلك طعامٌ كثير، فنَظر في توصيلِه وليس لذلك سبيلٌ إلَّا على سَرَقُسطةَ أو على وَسَط بلاد ابن رُذْمير، فجعَل له الـمُظفَّرُ مالًا على نفسِه ويترُكُ هذا الميرَ يشُقُّ على بلادِه، فأنْعَم له ابنُ رُذميرَ بذلك. ولم يَخْفَ هذا التدبيرُ على الفاجرِ أحمدَ بن سُليمان، فوَجَّه بأضعافِ المال إلى ابن رُذْمير، فلمَّا توسَّطوا بلادَ النّصارى بالـمِيرة خرَج عليهم فأهلَكَهم أجمعينَ قتلًا وأسرًا، فكانت تلك الوقعةُ الشّنعاءُ بالثّغر الأعلى على يدَيْه.

ومن أخبارِ أحمدَ بن سُليمان بن هُود الـجُذَاميِّ(١)

لـمَّا فعَل هذه الوقعةَ ضعُفَ أمرُ أخيه وخافته الرعيَّةُ فانصرفت طاعتُهم إلى أحمد، فعَظُمت مملكتُه واشتدَّت شوكتُه وتسمَّى بالـمُقتدِر بالله، وكان على طَرْطُوشةَ أميرٌ فتًى من فتيان ابن أبي عامر اسمه لبيب، وكان قد ضَبَطها لنفسِه وساسَ أمورَه بها معَ رعيّتِه ومعَ مَن يجاورُه من الأمراء، وهي مدينة ساميةُ الذُّرى متَّسعةُ الساحة مشرقةُ البهجة كثيرةُ المرافق والنعمة، فأقام بها لبيبٌ مَلِكًا على قلَّة نظرِه إلى أن حانت مَنيَّتُه، فوَلِي أمرَها من بعدِه فتًى آخَرُ من فتيان ابن أبي عامر اسمُه مُقاتِل، وكانت له همَّةٌ ورياسة، وتسمَّى أيضًا بسيف الـمِلَّة، لقبٌ اختَرعه لنفسه، فكان يُكتَبُ به إليه وعنه، وكان عندَه من العمَّالِ والكتَّاب ما لم يكنْ عندَ غيره في وقتِه مـمَّن هو أكبرُ مُلكًا منه، إلى أن هلَكَ هذا الـخَصِيُّ.

واستحوذَ أحمدُ بن سُليمانَ على طَرْطُوشةَ وذَواتِها، وكانت له حروبٌ كثيرةٌ معَ الرُّوم الـمُجاورينَ لها. وخرَجت طائفةٌ من الرّوم في مدَّتِه في نحو عشَرةِ آلاف فارسٍ من الروم إلى بِلاد المسلمين، فنازَلوا مدينةَ وَشْقةَ من هذا الثّغر الأعلى وأقاموا عليها أيَّامًا ثمَّ رحَلوا عنها وساروا في بلاد المسلمينَ بالثّغر إلى أن نَزَلوا على مدينة بربُشْتر.

ذكْرُ أخْذِ النّصارى مدينةَ بربُشْتر، من عملِ ابن هُود واسترجاعِها من أيديهم بعدَ أسرِ جميع أهلِها وقَتْلِهم رحمهم الله(٢)

وذلك أنَّ جيشَ الأردامانيّينَ نَزلوا عليها وجَدُّوا في قتالِـها وحصارِها جِدًّا عظيمًا، فكان أهلُها يُقاتلونَهم خارجَ مدينتهم، وذلك في سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة، وكان الماءُ يأتيها في سِرْب تحت الأرض من النّهر حتّى يدخُلَ إليها فيخترقُها، فخرَج رجلٌ من القَصَبة إلى الرّوم ودلَّـهم عليه، فساروا إليه وهدموهُ وحالوا بينَه وبينَ الاتّصال بفم السِّرب، فعَدِمَ أهلُها الماء، ولم يكن لهم صبرٌ على العطش، فراسَلوا الرّومَ في أن يُسلِموهم في أنفسِهم وذَراريهم ويُسلِموا إليهم البلد، فأبَى الرّومُ من ذلك، فجالَدَهم المسلمونَ إلى

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٣/ ٣١٧، والكامل لابن الأثير ٩/ ٢٨٩، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٦٧.

(٢) الذخيرة لابن بسام ٣/ ١٣٧ فما بعدها، ونفح الطيب ٤/ ٤٤٩.

أن دخَل الرّومُ عليهم عَنْوةً فقَتلوا الـمُقاتِلةَ وسبَوا الـحَريمَ والذُّرّيَّةَ وحصَلوا منها على أموالٍ جليلة، فكان أشدَّ الرّزايا بهذه الجزيرة، وحصَل بأيدي الروم من نساء أهل بربُشْتر وذُرّيَّتهم قُربَ المئة ألف، حصَل من ذلك في سهم رئيسِهم اللّعين أربعةُ آلافٍ قسمةً اختارَهم أبكارًا من الثمانيةِ أعوام إلى العشَرة، فأهدَى منهم لملِكِه ما شاء، وكان هذا اللّعينُ يسمَّى بالبيطين، وذُكر أنّه حصَل في سهمِه أخْزاهُ الله من أوقارِ الأطعمة والـحُليِّ والكُسوة خمسُ مئة حِمْل، وكان الخطبُ في هذه المدينة أعظمَ من أن يوصَف؛ لأنَّ الحالَ كان آلَ بهم إلى أنْ ألقَوْا بأيديهم بسبب الظَّماء وخرَجوا من المدينة وانتشروا في بسيطٍ من الأرض، فلمّا رأى الطاغيةُ ضاعَفَ اللهُ عذابَه كثرتَهم وانتشارَهم خاف أن تُدركَهم حَمِيَّةٌ في استنقاذِ أنفُسِهم، فأمر ببَذْل السّيفِ فيهم وبعضُهم ينظُر إلى بعض من رجالٍ ونساء، فقيل: إنَّه قُتل منهم يومَئذٍ نحوُ ستّةِ آلاف، ثمَّ نادى برَفْع السّيف عنهم وأمَرَ بخروجِهم عن المدينة بالأهل والذُّرّيَّة، فبادَروا الخروجَ منها مُزدحِمينَ على أبوابها، فمات في ازدحامِهم خلقٌ كثير.

ولـمّا عُرِضَ جميعُ مَن خرَج عن المدينة بفِناء بابِها بعدَ قَتْل مَن قُتِل منهم ضمُّوا قيامًا ذاهلينَ منتظرينَ نزولَ القضاء فيهم، ثمَّ نوديَ فيهم بأنْ يرجِعَ كلُّ ذي دار إلى دارِه بأهلِه ووَلَده، وأُزعِجوا لذلك، ولـمّا استقرُّوا بالدورِ معَ عيالاتِهم وذُرّيّاتهم اقتَسَمهم المشركونَ، فكلُّ من صارت في حِصَّتِه دارٌ حازها وما فيها من أهل ووَلَدٍ ومال، فحَكَم كلُّ عِلج منهم فيمن سُلِّط عليه من أربابِ الدّور بحسَب ما يبتليه اللهُ به منه يأخُذ كلَّما أظهَرَ له ويُعذِّبُه فيما أخفَى عنه، وربَّما زَهِقت نفْسُ المسلم دونَ ذلك فاستراح، وربَّما أخَّره أجَلُه إلى أسوإِ مِن مقامِه ذلك؛ لأنَّ عُداةَ الله كانوا يتولَّعون حينَئذٍ بهتْكِ حُرَم أسْراهم وبناتِهم بحضرتِهم إبلاغًا في نِكايتهم ويعبَثونَ في الثيِّب وَيفتَضُّونَ البِكر وزوجُ تلك وأبو هذه موثَّقٌ في الحديد، ومن لم يرضَ منهم أن يفعلَ ذلك أعطاهنَّ لغِلمانِه يعبَثونَ فيهنَّ، فبلَغ الكفَرةُ يومَئذٍ منهم ما لا تلحَقُه الصِّفة والحولُ والقوَّةُ لله العظيم.

فلمَّا استَولى الرّومُ على هذه المدينة الـمَشُومة تَركَ فيها اللّعينُ ألفَ فارس وأربعةَ آلاف راجِل ورحَل منها إلى بلادِه، ولم يكن للنصارى قبلَ هذه الفعلة مثلُها في بلاد المسلمين.

فلمّا رأى ابنُ هود هذا الأمرَ نادَى بالنَّفْر للجهاد في سائر بلاد المسلمين، فحمِيَت نفوسُ أهل الإسلام وجاءه منهم خلقٌ عظيم لا يُحصى عددُه ذُكر أنَّه وصَل من سائر بلاد الأندلس ستَّةُ آلاف من الرُّماة العَقَّارة، فنازَلوا مدينةَ بربُشْتر وتأهَّبوا لقتال مَن ورَدَ عليهم من الكفَّار، فلمّا عايَنَ الكفَّارُ قوَّةَ المسلمين وكثرةَ حُماتِهم ورُماتِهم أغْلقوا أبوابَهم وتركوا حربَهم، وعظُم عليهم أمرُهم، فأمَرَ ابنُ هود المقتدرُ بالله بالنَّقْب لسُورِها، وأمَرَ الرَماةَ أن يَقْتفُوا السُّورَ لئلَّا يمنَعَ الكفَرةُ النقَّابَةَ من النَّقْب، فكان الرّومُ لا يُخرِجونَ أيديَهم من فوق السُّور، فنَقَبوا شُقَّةً كبيرةً ودعَّموا السُّور وأطلقوا النارَ في الدعائم فوقعت تلك الشُّقّةُ بهم واقتحم المسلمونَ عليهم البلد، ولـمّا عايَنَ الرّومُ ذلك خرَجوا من ناحيةٍ أخرى على بابٍ آخَرَ وحَمَلوا حملةَ رجُلٍ أحَدٍ في محلَّة المسلمين فأَتْبَعهم المسلمونَ يقتلونَهم كيف شاؤوا ولم يَنْجُ منهم إلَّا أهلُ اليسير مـمَّن تأخَّر أجلُه، وسَبَوْا كلَّ من كان فيها من عيالِهم وأبنائهم وقُتل من أعداء الله نحوُ ألفِ فارس وخمسة آلاف راجِل، ولم يُصَبْ من جماعة المسلمينَ إلَّا نحوُ الخمسينَ، فاستولَى المسلمونَ على المدينة وغَسَلوها من رِجسْ الشرك، وجَلَوْها من صداء الإفك.

قال البَكْريُّ: أدخَلَ منها سَرَقُسطة نحوَ ألف سبيَّة ونحوَ ألف فرس ونحوَ ألف درع وأموالًا وأثاثًا، وكان أخذَها في جُمادى الأولى من سنة سبع وخمسين وأربع مئة، فكان بينَ دخول الرّوم إليها وعَوْدِها للمسلمينَ سنةٌ كاملة، وشاع لابن هود صَنيعٌ في بلاد المسلمينَ لهذا الفتح الذي اتَّفق على يديه.

واتَّفق أيضًا معَ ابن مجاهدٍ إقبالِ الدّولة أخبارٌ يطولُ شرحُها حتَّى أخرجَه من بلادِه واستَولى عليها ثمَّ حاصَرَه بمدينة دانِيَة وضيَّقَ عليه فيها حتَّى بادَرَ إليه بإرسالِه في أن يُسلِمَه في نفسِه وأهلِه ووَلَدِه ويُسلِمَ إليه مُلكَه وينزلَ عن قصرِه ويترُكَه له بفرشِه، فخرَجَت الرسُلُ إلى المقتدرِ بذلك فقَبل منه وأمَرَ برَفْع القتال عنه، فكان خروجُ ابن مُجاهدٍ من دانِيَة في سنة ثمان وستّينَ، فحمَلَه إلى سَرَقُسْطة وأقطَعَ له فيها أقطاعًا لـمُؤْنة عيشِه، فكان آخرَ العهد به.

قال الورَّاقُ: وقد كان عليُّ بن مجاهدٍ هذا وَجَّه بمركَبٍ كبير مملوٍّ طعامًا إلى بلاد مصرَ سنةَ الجُوع العظيم الذي كان بها، وذلك في عام سبعة وأربعينَ وأربع مئة، فرجَع

إليه المركَبُ مملوًّا ياقوتًا وجوهرًا وذهبًا وذخائرَ، فكان ذلك كلُّه عندَ ابن مجاهدٍ المذكور في خَزائنه ظَفِر بذلك ابنُ هود. ونوديَ في الناس بدانِيَةَ بالوصُول إلى ابن هود والدّخول عليه والبَيْعة له، فبايَعه الخاصَّةُ ثمَّ العامَّة، ودانت له مدينةُ دانِيَة وأنظارُها، فاتَّسع عمَلُه وارتفعت همَّتُه وزادت مملكتُه، وأقام ابنُ هود بمدينة دانِيَة رَيْثما نظَر في أمرِهما وأتقَن ما رأى إتقانَه منها، ورحَل منها إلى حضرته سَرَقُسْطة وفي عسكرِه ابنُ مجاهد في زِيٍّ خشِن إلى أنْ دخَلها.

ثمَّ إنَّ الرّومَ دمَّرهم اللهُ استطالت أيديهم في مدَّة ابن هود على بلاد المسلمينَ بالثَّغر الأعلى، فأخَذ معَهم ابنُ هود في إعطاء الجِزية وصالَحَهم، فأخَذ الطاغيةُ ما الذي رتَّبه عليه وقسَمَه على رعيَّتِه وعلى أهل عسكرِه، وكان رجلٌ... من العابدينَ بقرية من نَظَر ابن هود معروفًا بالخير والصّلاح قصَدَه أهلُ القرية وأعلَموه بما يجبُ عليهم من مال الجِزية، فقال لهم: معاذَ الله، هذا لا يكونُ وأنا حيٌّ في الدّنيا أبدًا، ثمَّ ركِبَ ومعَه جماعةٌ من أهل القرية حتَّى وصَل سَرَقُسْطةَ، فدخَل على المقتدرِ ووَعَظَه بما جاء في الشَّرع، فاغتاظ ابنُ هود لقولِه وقال في نفسِه: احتقَرنا هذا حتَّى خاطَبَنا بمثل هذه المخاطبة، فإن تركناه ولم نُعاقبْه تَجاسَرَ علينا غيرُه، فأمَرَ بقتلِه فقُتل هذا الرجلُ الصّالح رحمه الله، واستمرَّت الجِزيةُ على سائرِ مُدن الثَّغر وأعمالِه، ولم يزَل المقتدرُ بالله ابنُ هود يَضعُفُ والرّومُ يتقوَّوْنَ عليه إلى أن رماهُ اللهُ بعلَّة في جسَده أذهبت حِسَّه وعقلَه فيقال: إنَّه ما مات حتَّى كان ينبَحُ كما تنبحُ الكلابُ لدعوة ذلك الرجُل الصالح عليه، نعوذُ بالله من سُوء العاقبة، وتوفِّي في سنة خمس وسبعينَ وأربع مئة، وأذكرُ بقيَّةَ الدّولة الـهُوديَّة في مدَّة الـمُرابطينَ إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة تسع وثلاثينَ وأربع مئة، قال ابنُ حَيَّان: فيها تجمَّع رؤساءُ القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمّد بن القاسم بن حَمُّود الـحَسَنيّ وقدَّموه للخلافة بالجزيرة الخضراء، وهم أربعةُ أُمراء: إسحاقُ بن محمَّد بن عبد الله البِرْزاليُّ صاحبُ قَرَمُونة، ومحمَّدُ بن نُوح الدُّمَّريُّ صاحبُ مَوْرُور، وعبدونُ بن خَزْرُون صاحبُ أركُش، وكبيرُهم باديسُ بن حَبُّوس صاحبُ غَرْناطةَ وأعمالِها وإسْتِجةَ وغيرِها، فبايَعَ جميعُهم له بالخلافة وتسمَّى من الألقاب الخلافيَّة بالـمَهْديّ، وخَطَب له جميعُ هؤلاء الأمراء في بلادِهم على

المنابر، ثمَّ نَهضوا معَ إمامِهم وساروا إلى المعتضِد عبَّاد بن محمَّد صاحب إشبيلِيَة ونزَلوا عليها، ودخَل معَهم ابنُ الأفطس صاحبُ بَطَلْيَوْس، وكانت عِدَّةُ هؤلاء الرؤساء معَ إمامِهم محمَّد بن القاسم على عبَّاد بن محمَّد سبعةَ ملوك، ثمَّ انصَرفوا معَ خليفتهم ولم يَقْضِ اللهُ لهم أربًا، فلم يكنْ لهم بعدَ ذلك اجتماعٌ ولا اتّفاق، وأخَذ اللهُ أكثرَ هؤلاءِ الرؤساء الذين حاصَروا ابنَ عبَّاد بسُوء فعلهم في هذه الحركة من ظُلم المسلمين وأخْذِ أموالِهم بغير حقّ وتغييرِهم لنعمِهم وقَطْعِهم لثمارِهم ونكْثِهم لِـما كانوا تعاقَدوا عليه معَ ابن عبَّاد، فخلَّصه اللهُ منهم.

وأمَّا باديسُ بن حَبُّوس فأخَذه اللهُ بأصعبِ الخليقة عندَه وهم السُّودان، وذلك بحصن قُمارش على يدِ إمامِه محمَّد بن إدريسَ صاحب مالَقة على ما أذكرُه بعدَ هذا في بعض أخبارِه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة أربعينَ وأربع مئة: توفّي محمَّدُ بن القاسم بن حَمُّود رحمه الله، فكانت مدَّتُه منذُ بايَعَه هؤلاء الأُمراء الأربعةُ سنةً واحدة وثمانيةَ أشهر، وكان له جُملةٌ من الأولاد، فتقدَّم منهم بعدَه القاسمُ بن محمَّد، اجتمع عليه أصحابُ والدِه ولم يختلفوا في بَيْعتِه، فضَبَطَ أمرَه واتَّصلت ولايتُه إلى ستَّة أعوام بعدَما طلَبَ السلامةَ مـمَّن حولَه واقتصر على حالِه.

قال ابنُ حيان... وأمَّا عبَّادُ بن محمَّد بن عبَّاد الـمُعتضدُ بالله أميرُ إشبيلِيَةَ عندَما أتيح له من الظّفَر ما أُتيح على من كان يُجاورُه من أُمراء الأندَلس الذين غلَبَهم على مملكتِهم وجَلاهم عن أوطانِهم وحازَها مُلكًا لنفسِه، وما كان من غَدْرِه لأخلّائه ابن أبي قُرَّةَ أمير بني يَفرن وابن نُوح وابن خَزْرُون أمير زَناتةَ لـمَّا أتَوْه بحضرته إشبيلِيَةَ على تدبيرِ أسرُّوه معَه، فأمَرَ بالقبض عليهم وعلى كلِّ من وافَى معَهم، ودَعَتْه طماعيتُه فيهم والاحتراسُ بحَوْزتِهم فبدَأهم بالأقربِ منه، وهو القاسمُ بن محمَّد المذكورُ أميرُ الجزيرة الخضراء... على عملِه وجملةِ أحواله، وإنَّه أضعفُ شوكةً منَ ابن عبَّاد، فلم يكنْ إلَّا في نحوِ مئتي فارس من خيلِه، فبدَأ ابنُ عبَّاد يتطلب العلَّاتِ عليه حتَّى كاشَفَه بمعاملتِه وتَبدَّى إليه بحربِه، وأطمَعَه في الجزيرة قوَّتُه على ركوب البحر بما اجتمَع عندَه من الأساطيل، واكتمل إليه من العُدَّة بتلك البلاد التي افتتحها، فأرسَلَ

عندَ ذلك جيشَه نحوَ الجزيرة الخضراء برًّا وبحرًا، وأخرج على الجيش وزيرَه عبدَ الله بنَ سلَّام فحاصَرَها، ورحَل القاسمُ في سفينة معَ أهل بيتِه إلى سَبْتَة، وكان صاحبَها سواجَّاتُ البرغواطيُّ، وقيل: اسمُه سُقُّوت، فاستولى ابنُ عبَّاد على الخضراء في سنة ستٍّ وأربعينَ وأربع مئة.

وفي هذه السّنة: كان القيامُ على اليهود بغَرْناطةَ، وقُتل منهم نحوُ ثلاثة آلاف، واستؤصلت أموالُهم، وقُتل ابنُ نغرالةَ معَهم.

وفيها: كان مهلِكُ الطاغية فرذلندَ صاحبِ قَشْتِيلةَ، وترَكَ ولدَيْه: شانشه وأذفونْش فبعَثَ شانشه لأذفونْش وأسَرَه عندَه ثمَّ أطلَقه فلحِقَ بابن ذي النُّون بطُلَيْطُلة، ثمَّ قام قائمٌ باسم أذفونْش بسمُّورةَ وضَبَطَها ووَجَّه إليه، فأتى إليها، واجتَمعت النّصارى بها عليه، وكان قد عايَنَ أمرَ طُلَيْطُلَةَ وعملِها، وتكشَّف عليها، فكان ذلك سببَ طمَعِه فيها إلى أنْ دخَلها على المسلمينَ ومَلكَها وأميرُها يومَئذٍ حفيدُ ابن ذي النُّون.

وفي هذه السنة: استعمل أبو الوليد بنُ جَهْور على قُرطُبَةَ ابنَ السقَّاء، فاستمرَّ نظَرُه إلى أن قَتَله ولدُه في رمضانَ سنةَ خمس وخمسينَ على ما يأتي ذكرُه إن شاء اللهُ تعالى.

وفي سنة إحدى وأربعين وأربع مئة: عزَلَ أبو الوليد بنُ جَهْور أميرُ قُرطبةَ يومَئذٍ القاضيَ ابنَ ذَكْوان، رحمه اللهُ تعالى.

نُبَذٌ من أخبارِ بني جَهْوَر أُمراء قُرطُبة[1]

كان تقديمُ أهل قُرطبَةَ لأبي الوليد محمَّد بن جَهْوَر وبيعتُهم له فيها بعدَ وفاة أبيه كما تقدَّم ذكرُ ذلك في سنة خمس وثلاثين، وسمَّوه الرّشيد، فلم يقُمْ بالأمر بمثل ما قام به أبوه، بل قدَّم ولَدَه عبدَ الملك على الناس وأخَذ عليهم العهدَ والبَيْعةَ لابنِه المذكور، فكان ابنُه قد اعتَدى وصَحِبَ الأرْذالَ واستباح أموالَ المسلمين وسلَّط عليهم أهلَ الفساد وأهمَلَ الأمورَ الشرعيَّةَ وأخاف الطُّرُقَ، وشَرعَ في المعاصي والفسوق، وأظهرَ الـخَنَا،

---

(١) الذخيرة لابن بسام ١/ ٤٦١. أما أبو الوليد محمد بن جهور فترجمته في بغية الملتمس (٧٦)، وصلة ابن بشكوال (١١٩٥)، وكامل ابن الأثير ٩/ ٢٥٨، والمغرب ١/ ٥٦، وتاريخ الإسلام ١٠/ ١٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ١٤٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥٩.

فكثُر الدّعاءُ عليه من أهل قُرطبة، وكان هذا السَّفيهُ الغَوِيُّ قد تَعاظَم وتعاطى حتَّى سمَّى نفسَه ذا السِّيادتَيْن المنصورَ بالله الظافرَ بفضل الله، وخُطب له على المِنبر بذلك، ولم يكنْ أبوه ولا جَدُّه أطلقا في إمارتِها اسمَ رياسة ولا انتقلا عن رسم الوِزارة ولا قَعدا بالمقصورة مُصلَّى الخلفاء، فتنكَّب هذا الغَوِيُّ ذلك كلَّه وخالَف فيه سَلَفَه، فسلَّط اللهُ عليه نِكايةَ ابنِ ذي النون له وتضييقَه عليه حتَّى ملَكَ حصنَ المُدوَّر وبعَثَ إليه بمحلَّاتِه فحاصَره بقُرطبة فاستغاثَ بابن عبَّاد، فكان من أمرِهم ما أذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ تعالى.

وقال ابنُ زَيْدون في بني جَهْوَر[1] [من البسيط]:

لولا بنو جَهْورٍ ما أشرقَتْ بهِمُ ... غِيدُ السّوالف في أجيادِها تَلَعُ
قومٌ متى تحتفلْ في وصف سؤدُدِهمْ ... لا يأخُذ الوصفُ إلَّا بعضَ ما يدَعُ
أبو الوليد قدِ استَوفَى مناقبَهمْ ... فللتفاريق منها فيه مجتمعُ
مهذَّبٌ أخلصَتْه أوّليَّتُهُ ... كالسّيف بالَغَ في إخلاصه الصَّنَعُ
إنَّ السّيوفَ إذا ما طاب جوهرُها ... في أوَّل الطّبع لم يَعْلَقْ بها الطَّبَعُ

قال ابنُ بسَّام[2]: كان ابنُ حيَّانَ بقُرطبةَ خاتمةَ المتكلِّمين، ونُخبةَ المحسنين، على ما تراه رَكِب من إثم، واحتَقَب من ظُلم، لكنّه سَلِم من لسانِه، أميرُ بلدِه وأكبرُ زمانِه، أبو الحَزْم بن جَهْور وابنُه بعدَه أبو الوليد، فجرى لهما بأيمَن طَيْر ولم يُعرِّضْ لذكرهما إلا بخير، وقد أثبت من ذلك ما دلّ على الإحسان، وفى بشرط الديوان وقد تقدَّم في هذا وما تعرَّض من... بني جَهْوَر... فقال[3]: ووَلِي بعدَه ابنُه أبو الوليد محمَّدُ بن جَهْوَر بن محمَّد بن جَهْوَر من آل عُبيدة[4] غايةِ[5] بيوت الشّرف الأثيل بقُرطبةَ على ممَرِّ الدّهر

---

(١) ينظر ديوانه ٣٦.

(٢) الذخيرة ١/ ٤٦١.

(٣) الذخيرة ١/ ٤٦٣.

(٤) في الذخيرة: «عبدة».

(٥) في الذخيرة: «نهاية».

تَناقلوا الرياسةَ إلى أنْ وَرِثها تِرْبُها، هذا الوليُّ[1] الفاضلُ أبو الوليد ولـمَّا يعرِف البؤسَ يومًا، فأعانَهُ ذلك على الحسَب والمروءة، وأقرَّ لوقتِه الحكَّام وذوي الـمَراتب على ما كانوا عليه أيَّامَ أبيه.

ثمَّ اقتفَى أبو الوليد آثارَ أبيه في السياسة من ذَرْء الحدِّ بالشُّبهة ما وجَد إلى ذلك سبيلًا، والتأوُّل في تعطيل الإقادة بالحديد البتَّةَ لعدم الإمام المجتمَع عليه في الوقت، والتربُّص لإدبارِ الفتنة، فأصبح من العَجَب العُجاب يُكافئُ الناسَ في الأعمّ من المظالم والتسافُه بخلافِ ما كانوا عليه تحتَ الضّبط الشّديد من تجاوُز الحدِّ بأيدي جَبابرةِ أصحاب الشّرطة أيَّامَ الجماعة، فلا تكادُ تسمعُ لِشرارِهم من معهود ذلك إلَّا النادرةَ الفذَّة.

وفي سنة اثنتين وأربعينَ وأربع مئة: أوقَع ابنُ عبَّاد بابن الأفطس على جهة يابُرةَ، وكان سببُ تلك الحرب أنَّ ابنَ يحيى صاحبَ لَبْلَةَ يوَمئذٍ حليفَ ابن الأفطس وألَّ عبَّادًا للضرورة، فقابَحَه ابنُ الأفطس وخانَه فيما كان ائتمنَه عليه من مالِه الصامت عندَ حملِه إليه وديعةً أيَّامَ تورُّطِه في حرب ابن عبَّاد قبلُ، فانبتَّت بينَهما الصحبة، وضَربت عليه خيلُ ابن الأفطس فاستغاثَ عبَّادًا، فبادر بنفسِه، فلم تشعُرْ تلك الخيلُ الأفطسيَّةُ حتَّى خَرج في وجهِها فكَسَرهم وحِيزَت رؤوسُهم وكانت نحوَ مئة وخمسينَ رأسًا، فقصَّ وأفنى حُماةَ رجالِه[2].

ثمَّ إنّ عَبَّادًا إثْرَ ذلك جمَعَ خيلَ حُلفائه وقوَّدَ عليها ابنَه إسماعيلَ معَ وزيرةِ ابن سلَّام، وخَرج إلى يابُرة، واستَدعى أيضًا ابنُ الأفطس حليفَه إسحاقَ بنَ عبد الله البِرْزاليَّ، فلحِقت به خيلُه عليها العزُّ ابنُه بعدَ أن جمَعَ ابنُ الأفطس بقايا جيشِه من كلِّ بلد، وبادَرَ إلى ابن عبَّاد بجَمْعِه المنخوب فالتقَى الفريقانِ من غير أُهبة ولا تعبية، فانهزَمت خيلُ ابن الأفطس واستأصَلَهم القتلُ، وقُتل العزُّ بنُ إسحاق وحُزَّ رأسُه وبُعث به إلى إشبيلِيَةَ معَ رأسِ لعمٍّ لابن الأفطس، وكان صاحبَ يابرة يُدعى عُبيدَ الله الخزَّاز، ولجأ ابنُ الأفطس في قطعة من خيلِه إلى يابُرة. وأقلُّ ما سمعتُ في مثل تلك الوقعة من ثلاثةِ آلاف إلى أزيَدَ،

(١) في الذخيرة: «الوالي».

(٢) الذخيرة ١/ ٢٩٨.

وجَزِع إسحاقُ بن عبد الله البِرْزاليُّ المصابُ ابنُه ولم يخضَعْ لضدِّه عبَّاد في طلب رأسِه، فإنَّ عبَّادًا أضافه إلى رأس جَدِّه محمَّد بن عبد الله الـمُختزَنِ عندَه(١).

ابتداءُ دولة بني الأفطس، وهم بنو مَسْلَمة(٢)

كان جَدُّهم أبو محمَّد عبدُ الله بن محمَّد بن مَسْلمةَ المعروفُ بابن الأفطس أصلُه من فَحْص البَلُّوط(٣)، من قوم لا يدَّعونَ نباهةً غيرَ أنَّ هذا الرجل عبدُ الله كان من أهل المعرفة التامَّة والدّهاء والسياسة، وكان بهذا الصُّقْع: بَطَلْيَوْس وشَنْتَرينَ والأُشْبونة وجميع الثّغر الـجَوْفيّ في أمدِ الجماعة، رجلٌ من عَبيد الـحَكَم الـمُستنصِر بالله يسمَّى سابُور، فلمّا وقَعت الفتنةُ وتفرَّقت الجماعة وانشقَّت عصا الأُمَّة انتزى سابورُ المذكور على ما كان بيدِه كما فعَلَ غيرُه من الثوَّار، وكان سابورُ غُفْلًا عَطِلًا من سائر أنواع المعارف، وكان هذا الرجلُ عبدُ الله بن محمَّد بن مَسْلمةَ يُدبِّرُ له أمرَه ويخدُمُ دولتَه خدمةَ سياسة إلى أن هلَكَ سابورُ وتَرك ولدَيْنِ لم يبلُغا الـحُلُم، فاشتمل هذا الوزيرُ ابنُ مَسْلمةَ على أمر سابور كلِّه واستأثر به على ولدَيْه، وحصَل على مُلك بلاد غرب الأندَلس، واستقام له أمرُه بعدَ اعتساف وظُلم إلى أن مضَى لسبيلِه، وكان مَهلِكُه لإحدى عشْرةَ ليلَةً بقيت لـجُمادى الأولى من سنة سبع وثلاثينَ وأربع مئة وأعقَبَه ابنُه محمَّد.

دولةُ المظفَّرِ محمَّد بن عبد الله بن مَسْلَمةَ ابن الأفطس(٤)

وَلِـي بعدَ أبيه واستَولى على ما كان بيده فاستقامت أمورُه، وكان شاعرًا أديبًا وعالمًا لبيبًا، وبطلًا شُجاعًا، وله التأليفُ الأكبرُ المسمَّى بالـمُظفَّريّ، ألَّفه بخاصَّة نفسِه ولم يستعِنْ فيه بأحد من العلماء إلَّا بكاتبِه أبي عثمان سعيد بن خِيَرةَ، واحتوى هذا الكتابُ

---

(١) الذخيرة ١/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) المغرب ١/ ٣٦٤.

(٣) معجم البلدان ١/ ٤٩٢.

(٤) الذخيرة ٢/ ٤٧٨، والمعجب ١٢٧، والتكملة لابن الأبار ١/ ٥٨، والحلة السيراء ٢/ ٩٧ في ترجمة ولده، والمستملح للذهبي (٢٦)، وتاريخ الإسلام ١٠/ ١٢٢، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٩٤، والوافي ٣/ ٣٢٣.

على الأخبار والسِّيَر والآداب الـمُتخيَّرة والطُّرَف الـمُستملَحة والنُّكَت البديعة والغرائب الـمُلوكيَّة واللُّغات الغريبة، قيل: إنَّه اختصر فيه خزانته الفائقةَ لا يكاد يوجَدُ له نظير، يكونُ في نحو خمسينَ مجلَّدًا، فتصرَّف فيه تصرُّفًا بديعًا، ولكِبَرِه لا يتمكَّنُ كلُّ الناس منَ اكتسابِه، فإنَّه لا يَصلحُ إلَّا لخزائن الملوك.

وأقام هذا الرجلُ مُلكًا عظيًما بهذا الثّغرِ الـجَوْفيّ ضاهَى فيه مُصاقبَيْه: ابنَ عبَّاد وابنَ ذي النُّون، وكانت بينَهم حروبٌ وغاراتٌ ومُهادَناتٌ وغيرُ ذلك من الأخبار تَركْنا ذكرَها للاختصارِ الذي شرَطْناه. وقد كان والدُه عبدُ الله الهالكُ الذي ذكرنا مخدومَه سابورَ غَلَب على ولدَيْه: عبد الملك وعبد العزيز واهتضَمهما فهَبَطا إلى مدينة الأشبُونة، وانتزَى فيها أحدُهما على ابن الأفطس ولم تطُلْ مدَّتُه إلى أنْ هلَكَ وقام أخوه بمُلكِ الأشبُونة مكانَه، ولم يكنْ يَصلُح للمُلكِ لضعف نفسِه وقلَّة قيامِه بالأمور، فكتَبَ أهلُ الأشبُونة إلى عبد الله بن مَسْلمةَ في السرِّ أنْ يُرسلَ إليهم واليًا من عنده يكونُ أميرًا عليهم، فوجَّه إليهم بولده، ولم يشعُرْ عبدُ الملك بن سابورَ حتَّى امتلأ البلدُ من العسكريَّة، فلم يكنْ له بدٌّ من طلبِ السلامة لنفسِه وأهلِه ومالِه، فأُعطي ما سَأل وسَلِم على ما شَرَطَه، وكان هذا الداخلُ زوجَ أُخته، فأجمَلَ معَه إجمالًا كثيرًا، وخَرَّج هذا الفتى عبدَ الملك بنَ سابورَ من مدينة الأشبُونة وترَكَه يسيرُ حيث شاء، فاختار القصْدَ إلى مدينة قُرطُبة، فلمّا قَرُب منها استأْذن الوزيرَ ابنَ جَهْوَر في الدخول، فأذِنَ له في ذلك، فدخَل قُرطبةَ ونزَلَ بدار أبيه سابور، فكانت قُرطبةُ مستقرَّة إلى آخرِ عُمُرِه.

ولم يزَلْ أمرُ العدوِّ يقوَى ويظهَرُ على ملوك ثغور الأندَلس إلى أن خَرج الطاغيةُ فرذلند بن شانْجُه مِلكُ الـجَلالقة بأرض الأندَلس بجيوشِه النّصرانيَّة إلى ثغرِ المسلمين بأرض الـجَوْفِ قاصدًا، وضمَّ محمَّدَ بنَ مَسْلمةَ بن الأفطس لـمّا منعَه الإتاوةَ من بين جميع أُمراء الثغور، فعاث في بلاد المسلمينَ وفتح حصُونًا كثيرةً، وكانت خيلُه تزيدُ على عشَرة آلاف فارس معَهم من الرجال أكثرُ من مثلَيْهم، واتَّصل خلالَ ذلك بالأمير ابن الأفطس أنَّ عدوَّ الله جرَّد من خيلِه سريَّةً ثقيلة أمَرَهم بقَصْد مدينة شَنْتَرين، إذ كانت مدينةُ شَنْتَرينَ أفضلَ ذلك الثغر، فقضَى اللهُ أنْ لحِقَ بشَنْتَرينَ أميرُهم الـمُظفَّر بن الأفطس

قبلَ أن يأتيَهم عدوُّ الله، وقد كان خامَرَهم الـجَزَعُ فقالوا لأميرهم: لقد همَمنا أن نستسلمَ للعدوّ، ولو لم تأتِنا لضعُفْنا عن دفاعِه.

وقصَدَ هذا القُومِسُ لعنَه الله إلى شَنْتَرين للوِجهة التي وَجَّهه لها أميرُه فرذلند أميرُ الـجَلالقة، فأرسَل ابنُ الأفطس إليه ليجتمعَ معَه فيُكلّمَه في أمرِه، فالتقيا في الماء بنهر شَنْتَرين: ابنُ الأفطس في زَوْرق والعِلجُ راكبٌ فرسَه في الماء إلى صدرِ فرسِه، وتكلَّما طويلًا فيما عرَضَه من السِّلم والإتاوة فامتنع المظفَّرُ من ذلك إلى أن وافَقَه بعدَ جُهد ومشقة على خمسةِ آلاف دينار يؤدِّيها إليه في كلِّ عام من أوَّل هذه الهدنة.

ولم يزَلْ عدوُّ الله فرذلند يَقْوَى والمسلمونَ يضعُفون بغُرم الجِزية للنّصارى إلى أنْ نزَلَ اللّعينُ على مدينة قامريَّة[1]، وكان الذي فتَحها المنصورُ ابن أبي عامر سنةَ خمس وسبعينَ وثلاث مئة، فحاصرَها الآنَ اللّعينُ فرذلند حتَّى فتحها، وذلك أنَّ قائدَها في هذا الوقت كان عبدًا من عبيدِ ابن الأفطس يسمَّى رانْدُه، فخاطَبَ فرذلندَ في السرّ أن يؤمِّنه في نفسِه وأهلِه ويخرُجَ إليه من البلد ليلًا، فأعطاه اللّعينُ الأمان، فخرَج اللّعينُ سرًّا إلى عسكر النّصارى، وأصبح أهلُ البلد وقد أخذوا أُهْبةَ القتال، فقال لهم النصارى: كيف تقاتلونَنا وأميرُكم عندَنا؟ ولم يكنْ لأهل المدينة عِلمٌ بذلك، فلمَّا لم يجدوه وعَلِموا صحَّةَ خبرِه طلَبوا من العِلج الأمانَ فلم يُجِبْهم إليه، ونَفِدَت أقْواتُهم، وعَلِم عدوُّ الله ذلك منهم، فجدَّ في حربِهم حتَّى دخَلها عَنْوة، فقُتل الرجُل وسُبِي الحريمُ والذُّرّيَّة، وذلك في سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة، وانصَرف راندُه غلامُ ابن الأفطس إلى مَوْلاه فوبَّخه على فعله الذّميم ثمَّ أمَرَ بضربِ عُنقِه، فكانت مدَّةُ بقاء هذه المدينة للمسلمينَ بضعًا وسبعينَ سنة.

ولم يزَلْ ثَغْرُ الأندَلس يضعُفُ والعدوُّ يقوَى والفتنةُ بينَ أمراء الأندَلس قبَّحهم الله تستعِرُ إلى أن كلبَ العدوُّ على جميعهم وملَّ من أخذِ الجِزية ولم يقنَعْ إلَّا بأخْذِ البلاد وانتزاعِها عن أيدي المسلمين.

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٣٩١، والروض المعطار ٤٧١.

وهلَكَ هذا اللّعينُ فرذلند سنةَ ثمانٍ وخمسينَ وأربع مئة، ووَلِي بعدَه أذفونْش ولدُه، فجرت له معَ ابن عبَّاد خطوبٌ عظيمة اضطرَّتْه للجَواز إلى أمير المسلمينَ يوسُف بن تاشْفين فجاز إليه وهزَم اللّعين وارتفَعت الجِزيةُ وأصلح اللهُ الجزيرةَ على يدَيْه رحمه الله.

وفي هذه السنة: مات عبدُ العزيز بن أبي عامر الملقَّبُ بالمنصور صاحبُ بَلَنْسِيَة ومُرْسِيَة وشاطِبة وجزيرةِ شُقر وأعمالِـهم، وضعُف أمرُ ولدِه المظفَّرِ ببَلَنْسِية، فملَكَ ابنُ طاهر مُرْسِية، واستبدَّ بها إلى أن مات فورِثَ مُلكَه بها ابنُه محمَّد بن طاهر.

رَجْعُ الخبر إلى نسق السِّنين.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعينَ وأربع مئة: توفِّي صاحبُ المرِيَّة مَعْنُ بن صُمادِح بقصَبتِها، وقد تقدَّمت أخبارُه وأخبارُ ولدِه وبَدْءُ أمرِهم إلى انقضاء مدَّتِهم.

بعضُ أخبارِ البكريّيَن من أُمراء غَرْبِ الأندَلس[1]

قال حيَّانُ بن خَلَف[2]: لـمّا تولّى الوزيرُ ابن جَهْوَر الإصلاحَ بين ابن الأفطس والمعتضِد بن عبَّاد بعدَ امتداد شأوِهما في الفتنة وسنى اللهُ السِّلَم بينَهما في ربيع الأوَّل من سنة ثلاثٍ وأربعين، اعتَدى المعتضِدُ بعدَ ذلك على جارَيْه: ابن يحيى أميرِ لَبْلة وأبي زيد البَكْريّ أمير شَلْطيش[3] ووَلْبة[4] فأخرَجهما عن سُلطانِهما الموروث لهما، وحصَل له عملُهما بلا كبيرِ مُؤْنة، وضمَّه إلى سائر عملِه العريض، فازداد بذلك سُلطانًا وقوَّةً، وذلك أنَّه لـمّا خَلّى وجهَه من المظفَّر بن الأفطس فَرَغَ لابن يحيى بلَبْلَةَ وصمَّم في قَصْدِه بنفسِه، فنزَلَ ابنُ يحيى له وخرَج عن البلد وانزَعج إلى قُرطُبة ووَرَدَها مسلوبَ الإمارة لائذًا بكنَفِ ابن جَهْوَر سادِّ الـخُلَّة ومُؤْوي الطّريد، وكان من الغريب النادِر أنْ شارَكه الـمُعتضِد بقطعة من خيله أوصلَتْه إلى مَأْمنِه بقُرطُبة.

---

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/ ١٨٣ فما بعدها.

(٢) النص في الذخيرة.

(٣) معجم البلدان ٣/ ٣٥٩، والروض المعطار ٣٤٣.

(٤) نزهة المشتاق ٢/ ٥٤١.

ثمَّ مدَّ يدَه بعدُ إلى البكريِّ بوَلْبَة وشَلْطيش، وكان هذا الفتى أبو زيد البكريُّ وارثَ ذلك العمل لأبيه، وكان أبوه من بيت السّروِّ والحسَبِ والجاه والنِّعمة والاتّصال القديم بسُلطان الجماعة، وكان له ولسَلَفِه قبلَ إسماعيلَ بن عبَّاد جَدِّ المعتضِد وسائلُ وأذمَّةٌ خلفا ما في الأعقاب اغترَّ بها عبدُ العزيز البكريُّ، فبادر بالبعثة إلى المعتضِد عندَ دخوله لَبْلَةَ يُهنِّئُه بما تهيَّأ له منها وذكّره بالذِّمام الموصول بينَهما واعتَرف بطاعته وعرَضَ عليه التخلّيَ عن وَلْبة وإقرارَه بشَلْطيشَ إن شاء، فوقَعَ له ذلك من المعتضِد موقعَ إرادة، ووَرَدَ له الأمرُ فيما يعزمُ عليه، وأظهَرَ الرغبةَ في لقائه، وخرَج نحوَه يبغي ذلك، فلم يطمئنّ عبدُ العزيز إلى لقائه وتحمَّل بسُفنِه بجميعِ مالِه إلى جزيرةِ شَلْطيش، وتخلَّى للمُعتضِد عبَّاد عن وَلْبة فحازَها حوزَهُ للبْلة وبَسَطَ الأمانَ لأهلها، واستعمل عليها ثقةً من رجاله، ورسَم له القَطْعَ بالبكريّ ومَنَعَ الناسَ طُرًّا من الدخول إليه، فترَكَه محصورًا في وَسَط الماء إلى أن ألقَى بيدِه من قُرب ولم يغرُبْ عنه الحزم، فسأل المعتضدَ أن ينطلقَ انطلاقَ صاحبِه ابن يحيى إلى مأمَنِه، فكان ذلك، ولحِقَ بقُرطبةَ فبوشرَ منه رجلًا سَرِيًّا عاقلًا عفيفًا أديبًا يفُوتُ صاحبَه ابنَ يحيى جلالًا وخصالًا إلى زيادة عليه ببيت السروِّ والشّرف وبابن له من الفتيان بَذَّ الأقرانَ جمالًا وبهاءً وسُرْورًا وأدبًا ومعرفةً يُكْنَى أبا عُبَيد.

وتحدَّث الناسُ من حَزْم عبد العزيز يومئذٍ أنَّه لـمّا احتَلَّ بشَلْطيشَ عَلِم أنَّه لا يقاومُ عبَّادًا، فأخَذ بالحزم وتخلَّى له عنها بشروطٍ وَفَى له بها فباع منه سفُنَه وأثقالَه بعشَرة آلاف مثقال، واحتلَّ قُرطبةَ في كنَف ابن جَهْوَر المأمون على الأموال والأنفُس، وصَفَتْ لعبَّاد تلك البلادُ لو أنَّ شيئًا يدومُ صفاؤه.

وفي سنة أربع وأربعينَ وأربع مئة: كانت الـمُهادنةُ بين المعتضِد عبَّاد والـمُظفَّر ابن الأفطس.

وفيها: حجَّ يحيى بنُ إبراهيمَ أميرُ جدالة، واجتَمع في منصرَفِه من حجِّه معَ الفقيه أبي عمرانَ الفاسيّ، فدلَّه على عبد الله بن ياسين الداعي بدعوة الـمُرابطينَ حسبَما أذكرُه في موضعِه إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ مبيَّنًا.

وفي سنة خمس وأربعينَ وأربع مئة: كان افتتاحُ أُمراء اللَّمْتُونيّينَ في صحرائهم لـمّا وصَل يحيى بنُ إبراهيم الجداليُّ إليهم على ما يأتي ذكرُه.

وفي سنة ستٍّ وأربعينَ وأربع مئة: نظَر المعتضدُ عبَّادٌ في حُسن الجزيرة الخضراء وأميرُها القاسم بنُ محمَّد العَلَويُّ، فضيَّق عليه إلى أنْ نزَلَ عن بلده بأمان على نفسِه وخرج، فكان الذي حصَرَها له قائدُه عبدُ الله بن سلَّام، فأعدَّ عبدُ الله للقاسم مركبًا يسيرُ فيه حيث شاء، وكان أميرَ سَبْتَةَ يومَئذٍ سوَّاجّاتُ البرغوطيُّ، وكان القاسمُ هذا استَنْصَره فلم يَنصُرْه، فنكَب عن سَبْتَةَ إلى المرِيَّة وبقي بها إلى أن توفِّي، واحتَوى قائدُ ابن عبَّاد على الخضراء، ثمَّ خرَج منها بالعسكر تَهْفو بهم ريحُ النّصر وقد قَدَّروا ألَّا غالبَ لهم فلقُوا جماعةً من قبائل بني يرنيَّان، فوقَعت بينَهم حربٌ انهزَم لها خيلُ ابن عبَّاد وقُتل قائدُهم عبد الله بنُ سلَّام وانصَرف الجيشُ لابن عبَّاد مهزومًا.

وفي سنة سبع وأربعينَ وأربع مئة: ظهرَ أمرُ اللَّمْتونيّين، وهم الـمُسَمَّونَ بالـمُرابِطين، وخَرجوا من الصّحراء إلى سِجِلْماسةَ وأميرُها مسعودُ بن وانودين المغراويُّ، فخاطَبوهُ وأهلَها فلم يُجيبوهم فغزَوْهم وقَتلوا كثيرًا منهم ومَلَكوا سِجِلْماسةَ على ما يأتي في دولتهم[1].

وفي سنة ثمانٍ وأربعينَ وأربع مئة: حارب يوسُفُ بن تاشْفينَ في الغَرْب ملوكَ زَناتة والـمَصامدة، وكانت قبائلُ بني يَفْرَن أقوى قبائل الغَرْب وأكثَرهم وأشدَّهم بأسًا، وبلادُهم من آخِر هَسْكُورةَ إلى قُرب تِلِمْسان، فجرت لهم معَهم وقائعُ وحروبٌ يطولُ ذكرُها، وكان يوسُف من تقديم عمِّه أبي بكر بن عُمر.

وفيها: كان دخولُ العرب بلادَ إفريقيَّةَ وغَلَبتُهم على أكثرِها.

قال أبو محمَّد بنُ حزم[2]: واجتمع عندَنا في صُقْع الأندَلس أربعةُ خُلفاء، كلُّ واحد منهم يخطَبُ له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه، وذلك فضيحةٌ لم يُرَ مثلُها دلَّت على الإدبار المؤبَّد، أربعةُ خُلفاءَ في مسافة ثلاثة أيَّام في مثلِها كلُّهم يُدعى بأمير المؤمنين وهم: خَلَفٌ الـحُصْريُّ بإشبيلية على أنَّه هشامٌ المؤيَّد وذلك أُخلوقةٌ لم يُسمَعْ بمثلها،

(١) المسالك والمالك للبكري ٢/ ٨٦١، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٣.

(٢) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٤٧ نقلًا عن ابن حزم في كتابه «نقط العروس».

ظهَرَ رجلٌ... بعدَ اثنين وعشرينَ عامًا من موت هشام فادَّعى أنَّه هشام، وشَهِد له أنَّه هو قومٌ خِسَاسٌ من خِصيانٍ ونساء فبويعَ وخُطبَ له على أكثرِ منابر الأندَلس وسُفِكت الدِّماءُ به وتصادَمت الجيوشُ في أمرِه، وكانَ محمَّدُ بن القاسم الـحَسَنيُّ خليفةً بالجزيرة، ومحمَّدُ بن إدريسَ بمالَقة، وإدريسُ بن يحيى بِبُبَشْتُر.

وفي سنة تسع وأربعينَ وأربع مئة: قَتَل عبَّادٌ المعتضِدُ بالله ابنَه إسماعيل، وكان خليفَتَه المرشَّحَ لمكانه، بعدَ أن كان همَّ بغَدْرِه، فأخَذه أبوه وثقَّفه في قصرِه، فذهبَ إلى التدبير عليه ثانيةً من مكان اعتقاله، فقال ابنُ عبَّاد: «لا يُلدَغُ المؤمنُ من جُحْر مرَّتَيْن»، فقتَلَه بيده وقَتل الوزيرَ الذي واطأه على ذلك، وأهلَكَ جميعَ خاصَّتِه وعبيدِه وتجاوَزَ الحدَّ في العقوبة، ثمَّ استدعى ولَدَه محمَّدًا من مدينة شِلْب، وكان واليًا عليها، فنصَّبه لحجابتِه مكانَ ابنِه الهالك، فلمَّا انقضَى قَتْلُه كتَبَ بذلك كتابًا إلى رؤساء الأندَلس، فمِن ذلك فصولٌ من كتابٍ كتبَه إلى المقتدِر بالله أحمدَ بن سُليمان بن هُود أنشَأه ابنُ عبد البرّ رحمه اللهُ ارتجالًا بين يدَي المعتضِد بمحضَر الجلساء من الرؤساء والكُتَّاب وغيرِهم.

قال ابنُ بسَّام(١)، رحمه الله: أخبَرني مَن لا أرُدُّ خبرَه من وُزراء إشبيلِيَةَ قالوا: إنَّهم دخَلوا على المعتضِد بعدَ ثلاثةٍ من قتلِه لابنِه، فرأَوْا وجهَه قد اربَدّ، ووَدَّ كلٌّ واحد أنَّه لم يَشهَدْ، فلم يقدِروا على بَدئه بالسلام، وأُرْتِجَ عليهم الكلام، فصوَّبَ فيهم وصعَّد، وزأرَ كالأسد، وقال: يا شامتين، ما لي أراكم ساكتين؟ اخرُجوا عنّي، فلمَّا صاروا بالباب أمَرَ برجوعِهم إليه، ثمَّ أمرَ بإحضار الكاتب ابن عبد البرّ فدخَل، والمجلسُ قد احتفل، فقال له: اكتُبْ إلى ابن أبي عامر، وحلِّل دمَ الخائن الغادر، فجاءه الغلامُ بالدَّواةِ والكاغد وشَرع في الكَتْب في المجلس، فقال الحاضرون في أنفسِهم: ما عسى أن يتَّجهَ لابن عبد البِّر من كلام على هذه الحال، لا سيَّما على الارتجال؟ فجعل يستمدُّ ويكتب، وعينُ المعتضِد فيه تُصعِّدُ وتُصوِّب، فلمَّا فَرَغَ منه قرأه عليه إلى آخرِه، فخرَج الناسُ عنه معتمِدينَ أنَّ ابنَ عبد البرّ آيةٌ من آيات فاطِره.

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٠٦ فما بعدها.

يقول في فصل منه[1]: وذلك، أيّدك الله، أنَّ الغَوِيَّ اللّعينَ العاقَّ الشاقَّ[2] إسماعيلَ ابني بالوِلاد لا بالوِداد، ونَجْلي بالمكاسب لا بالمذاهب، كنتُ قد مِلْتُ بهوايَ إليه وقدّمتُه على مَن هو أسنُّ منه، وحبُّك الشيءَ يُعمي ويُصِمّ، والهوى يطمِسُ عينَ الرّائي[3] إذ[4] يُلمّ، فآثرتُه بأرفع الأسماء والأحوال، وخصَّصتُه بما بيدي من القواعدِ والأعمال[5]، ووسَّعتُ عليه في خَطيرات الذّخائر والأموال، وأخضَعتُ له رِقابَ أكابر الـجُند ووجوهِ الرجال[6]، وما كنتُ خصَّصتُه بالإيثار، واستعملتُه في المكافحة والغوار، إلَّا لجَزالةٍ كنتُ أتوسَّمُها فيه كانت عيني بها قريرة، وشهامة كنتُ أتوهَّمُها له[7] كانت نَفْسي بها مسرورة، فإذا الـجَزالةُ جهالة، والشّهامةُ شِرَّةٌ وكَهامة، وقد يُفتَنُ الآباءُ بالأبناء، وينطوي عليهم[8] ما ينطوونَ عليه من الأسواء، معَ أنَّ الآراءَ قد تنشأُ وتحدُث، والنفوسُ قد تَطيبُ وتخبُث[9]، لقرينٍ يُصْلِحُ أو يُفْسِد، وخَليط يُغْوي أو يُرشد، ومن اتَّخذ الغاويَ خَدينًا، عاد غاويًا ظَنينًا، ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

ولـمّا[10] وثَبَ هذا اللّعينُ من المهد، إلى سرير الـمَجْد[11]، ودرَجَ من الأذرع إلى المحلِّ الأرفع، استغنى وأثرى، وتَـمَلَّى من النِّعم الكبرى[12]، فأشَرَه ذلك وأبطَرَه،

---

(١) الذخيرة ٣/ ١٠٧.

(٢) في الذخيرة: «المشاق».

(٣) في الذخيرة: «الرأي».

(٤) في الذخيرة: «أو».

(٥) قوله: «وخصصته بما بيدي من القواعد والأعمال» ليس في الذخيرة.

(٦) بعد هذا في الذخيرة قدر سطرين تركهما المؤلف.

(٧) في الذخيرة: «منه».

(٨) في الذخيرة: «عنهم».

(٩) في الذخيرة: «ثم تخبث».

(١٠) لو قال: «ومنها» لكان أحسن لأنه ترك جملةً منها وقفز إلى هذا الموضع.

(١١) في م: «الجد»، وما أثبتناه من الذخيرة وهو الأولى.

(١٢) قوله: «وتملى من النعم الكبرى» ليس في الذخيرة.

وأطغاه وأكفَره، وطلَبَ الازدياد، وأحبَّ الانفرادَ والاستبداد، وقُيِّضَ له قُرناءُ سُوء أعْدَوْه وأرْدَوْه، وأُتيحَ له جلساءُ مكرٍ أغرَوْهُ وأغْوَوْه، وأشعروه الاستيحاشَ والنِّفار، وزيَّنوا له العقوقَ والفِرار، لينفردوا معَه في بلد، ولا تكونَ عليهم يدُ أحد، فخرَج ليلًا بأهلِه ووَلَدِه خروجًا شنيعًا فتَقَ به قَصْري، وخَرقَ حجابَ سَتري، يؤمُّ الجزيرةَ الخضراءَ وما يليها، ليتمكَّنَ منها ويَعيثَ فيها، وكنتُ غائبًا على مقرُبة، فأرسلتُ في الحين إلى تلك الجهة من يصُدُّه عنها، ويمنَعُه عمَّا أراد منها، فسبَقَه الخبر، وفاتَه نَيْلُ الوطَر، وأوى إلى قلعة القائد أبي أيُّوب، فوجَّهْتُ إلى اللّعين أعرِضُ عليه قَبولَ غَدْرِه، وسرَّبتُ الخيلَ معَ ذلك للإحاطة به وحَصْرِه، حتَّى ألجأَهُ ذلك من[1] التنصُّل والاعتذار، وأجاءه إلى الاستغاثة والاستغفار، فأقَلْتُه[2] وعفَوْتُ عنه، وأغفَوْت[3] عمَّا كان منه، وصرفْتُه إلى جميع حالِه، وردَدْتُّ عليه جميعَ مالِه[4]، ولم أؤدِّبْه إلَّا بالإعراضِ والـهِجْران، وإن كنتُ قد أنَّستُه معَ ذلك بمزيد الإنعام والإحسان، فإذا به كالحيَّة لا تُغني مُدارتُها، والعقربِ لا تُسالمُ شباتُــها، وكأنَّه قد استَصغَر ما جَنى، واستَحقَر ما ألَـمَّ به واقتنَى، فزَرى وَسَرى[5]، ما صارت به الصُّغرى، التي كانت الكبرى، فلم أشعرْ به إلَّا وقد ألَّف أوباشًا[6] وسَقاهم الخمر، ليستوليَ معَهم بزَعْمِه على الأمر، وطَرَقَ القصرَ ليلًا في بضعةَ عشَرَ منهم، فشعرت[7] بالحركة وخرجتُ إليهم، فلمَّا وقَعَتْ عليَّ أعينُهم تَساقَطوا هاربين، وتَطارَحوا خائفينَ خائبين، فالتقطتُّهم لَقْطَ حَبِّ السِّمسم وقتلتُهم، وعجَّل اللهُ حَيْنَهم وحتفَهم، وإنَّما كان رجاؤهم أن يجدوني في غَمْرةِ الكَرى، وعلى غَفْلةٍ من أن أسمعَ وأرى، ففالت بحمد الله أراجِيهم، وضلَّت أعمالُهم ومساعِيهم، وأعقبَتْهم عواقبَ كفرِهم وتعدِّيهم.

---

(١) في الذخيرة: «إلى».

(٢) في الذخيرة: «فأقبله» وهو تحريف.

(٣) في الذخيرة: «وأغضيتُ».

(٤) في الذخيرة: «وصرفته إلى جميع حاله وماله»، وما هنا أتم وأحسن.

(٥) في الذخيرة: «فردى وسَدّى».

(٦) ترك المؤلف بعد هذا قدر سطرين من النص تصرفًا منه.

(٧) قبل هذا كلام مختلف عند ابن بسام في الذخيرة.

ومنها: فاعتبر في ورودِ الـمَساءة من طريق المسرَّة، وطلوع المحنة من أُفُق المنحة، وانعكاس[1] بعض الهبات[2] خَبالًا، والأعطيات وبَالًا. وقد استجلَبْتُ ابني محمَّدًا ملتزمَ شُكرِك، ومعظِّمَ قَدْرِك، لأُقعِدَه مقعدَه، وأَسُدَّ به مسدَّه، واللهَ أسألُه الـخِيرَة.

قال ابنُ بسَّام[3]: وخاطَبَ المعتضِدَ يومًا جماعةٌ من حُلفائه وقصَّ عليهم نبأه معَ ابنِه، فكلًّا جاوَبَه على ذلك.

وفي سنة خمسينَ وأربع مئة: تَواتَر الإرجافُ بقُرطبةَ أنَّ عبَّادًا المعتضِدَ حاول النّزولَ بزَهرائها الـمُعطَّلة التي منها أبدًا كان يصابُ مقتَلُها، وسبَقَ الخبرُ أنَّه قد أنهَضَ نحوَها ابنَه إسماعيل وهو كالنار في أحجارِها مُستكِنّة، ولا يُشَكُّ أنَّه أُرسِل منه على قُرطبةَ شُوَاظَ نار ولا يَذَرُ منها باقية، فنفّس اللهُ مُخَنَّقَ أهلِها بما نقَضَ تدبيرَه وثَنى عَزْمَه فأقْصَرَ صاغرًا، وكان من قُدرةِ الله أنْ كرِهَ هذا الفتى ما حَمَّله أبوه من ذلك، وهاجَ منه حقودًا كانت له بنفسِه كامنةٌ جَسَّرتْه على معصية أبيه، وانصرَف من طريقِه إذ صَعُب عليه أمرُ الهجوم على مثل قُرطبةَ معَ قُرب حليفِهم باديسَ بن حَبُّوس الذي لا يُشَكُّ في إسراعِه إليهم، فعرَضَ ذلك على أبيه فاستَجْبَنَه وأغْلظَ وعيدَه، فدبَّر الفِرارَ عنه، فكان منه إليهم من تقدَّم ذكرُه من قتلِه، طمسُ أثرِ وَلَدِه وقَطْعُ دابِرِه، فكأنه قطُّ لم يكنْ أميرًا ولا أنفَذ حكمًا ولا قاد جيشًا، وقد ذكَر جماعةٌ من المؤرِّخينَ أنَّ مقتَلَ إسماعيلَ كان سنة تسع وأربعينَ، وقال ابنُ حيَّان: إنَّه في سنة خمسينَ، فاللهُ أعلم.

وفي سنة إحدى وخمسينَ وأربع مئة: قَطَعَ المعتضِدُ عبَّادٌ الدعوةَ الهشاميَّةَ وأظهرَ موتَ هشام بزَعْمِه[4].

قال الورَّاقُ في «مِقْباسِه»، وابنُ القطَّان في كتابِه «نَظْم الـجُمان»، وابنُ حيَّانَ، وغيرُهم من المؤرِّخين: صارت هذه الـمِيتةُ لحامل هذا الاسم الـمِيتةَ الثالثة، وعساها

---

(١) ما بين الحاصرتين مطموس في الأصل استفدناه من الذخيرة.

(٢) في م: «أهبات»، ولا معنى لها.

(٣) الذخيرة ٣/ ١١٤.

(٤) ذكر المراكشي هذا الخبر في سنة ٤٥٥ (المعجب ١٥٢).

تكونُ إن شاء اللهُ الصادقة، وكم قُتل وكم مات ثمَّ انتفَضَ عنه التراب، قال بعضُهم فيه [من الرجز]:

ذا الـــذي مـــات مِـــرارًا ودُفِـــنْ فـــانتفَضَ الـــتُّربُ ومُـــزِّق الكفَـــنْ

فقد مات في يد أوَّل خالعيهِ، وهو: محمَّدُ بن هشام بن عبد الجبَّار، ودُفنَ علانيَةً، ثمَّ نُشِر بيد واضح الفتى مولى محمَّد بن أبي عامر ومَلَكَ مُدَّة، ثُمَّ مات مرَّةً ثانيةً بيد خالعِه الثاني سُليمانَ بن حَكَم صاحب البرابرة ودفَنَه خُفْية، ثمَّ أبرَزَ صداهُ عليُّ بنُ حمُّود الـحَسَنيُّ الـمُنتَزي بذكرِه الطالبُ بثأرِه على الدّولة، ودفَنَه الدَّفنةَ التي خِلناها حقيقةً إلى أن وقعَتْ عليه هذه الـمِيتةُ الثالثة، وقد كانت هذه المدَّةُ التي عكفت عليه آخرًا خمسًا وعشرينَ سنةً ذاكرةً له وداعيةً بمدينة إشبيلِيَة من وقتِ أنْ سِيقَ من القرية التي وُجد فيها يفتُلُ الـحَلْفاءَ سنةَ ستٍّ وعشرينَ وأربع مئة.

وفي سنة اثنتين وخمسينَ وأربع مئة: خرَجَ الفتى نبيلٌ من طَرْطُوشة، وكان قد تولَّاها بعدَ صاحبِها الفتى مُقاتِل سَيْفِ الملك فأصاب نبيلًا فيها فتنةٌ فخرَجَ عنها وأسلَمَها للمقتدِر بن هُود.

وفي سنة ثلاث وخمسينَ وأربع مئة: هجَمَ سوَّاجَّاتُ البرغُواطيُّ على رِزق الله مستخلَفِ الحمُّوديِّينَ معَه على سَبْتَةَ فقتَلَه، وتسمَّى بالمنصور واستبدَّ بالأمرِ بعدَه، وهو والدُ الحاجب، واسمُ الحاجب: العزُّ بن سوَّاجَّات، ويقالُ له أيضًا: سَقُّوت، وعلى العزّ بن سقوتَ دخَلها الـمُرابِطون، وكان سوَّاجَّاتُ مولًى ليحيى بن عليّ بن حَمُّود، اشتراه من رجل حدَّاد من سَبْي بَرْغُواطةَ وهُو دونَ البُلوغ، فحظِيَ عندَه، فلمَّا سار يحيى إلى الأندَلُس وخلَّف سوَّاجَّات مَوْلاه بسَبْتة وجعَلَ معَه ناصرًا عليه مَوْلاه رزق الله، فكان منه معه ما تقدم قتلُه، واستبدّ بملك سبتةَ ثائرًا دون مولاه، وأورَثَها ابنَه الحاجبَ بعدَه.

وذُكِر عن أبي الوليد بن جَهْوَر صاحبِ قُرطُبَةَ أنَّه قال: وردَتْ عليَّ من الكتُب في يوم واحد كتابٌ من ابنَ صُمادِح صاحب المرِيَّة يطلُبُ جاريةً عوَّادة، وكتابٌ من ابن عبَّاد يطلُبُ جاريةً زامِرة، وكتابٌ من سوَّاجَّاتَ صاحبِ سَبْتَةَ يطلُبُ قارئًا يقرأُ القرآن، فوجَّه

إليه من طلبة قُرطُبَةَ رجلًا يُعرَف بعَوْن الله بن نُوح، وعجِبَ أبو الوليد من ذلك وقال: جاهلٌ يطلُبُ قارئًا وعلماءُ يطلُبونَ الأباطيل!

وفي سنة أربع وخمسينَ وأربع مئة: كان مهلِكُ ابن السقَّاء بقُرطُبة مُدبِّرالدولة الـجَهْوَرِيَّة، وقيل: بل كان ذلك في سنة خمسٍ بعدَه.

وفي سنة خمس وخمسينَ وأربع مئة؛ قال ابنُ القطَّان: في هذه السنة كان مهلِكُ ابن السقَّاء إبراهيم، وكان أبو الوليد بن جَهْوَر قدَّمه على أمورِه كلِّها فضَبَطَها أحسنَ ضَبْط وساسَها أحسنَ سياسة، فغُصَّ به عبَّادٌ صاحبُ إشبيلِيَةَ وضَعُفَ طمعُه ـ بسببِه ـ في قُرطُبة، فحرَّض عليه عبدَ الملك بنَ أبي الوليد بن جَهْوَر وأغراهُ بقتلِه لينفردَ بالحال مكانَه، وكان عبدُ الملك ضعيفَ العقل سيِّئ الرأي، فعَلِم ابنُ عبَّاد أنَّه إن قُتل ابنُ السقَّاء واستولى عبدُ الملك كانت قُرطُبةُ في يدِه، فسعَى عليه عند عبد الملك وحرَّضه على قتلِه، فضمَّ عبدُ الملك رجالَه وأدخَلَهم في بعض الغرف من دار أبيه وأعطاهم السّلاحَ، وأخَذ هو سِكّينًا بيدِه وبقي ينتظرُ ابنَ السقَّاء؛ لأنَّه كان يأتي أباه في كلِّ يوم ويُفاوضُه بالأمور، فلمَّا صار في بعض الفُصْلان استقبله المذكور وضربه بالسِّكّين وصاح بالرَّجّالة فخَرجوا مُسرعينَ فقطَعوا رأسَه وجُعل في رُمح وخُرج به إلى الأسواق، ففرَّ كلُّ من كان من حاشيتِه وقُتل مَن وُجد منهم، ودخَل الناسُ إلى ابن جَهْوَر يُهنُّونَه وقد كان له علمٌ عندَه، ونَسَبَ إلى المقتول أنَّه كان يريدُ القيامَ عليهم والغدرَ بهم، ورَأَسَ عبدُ الملك بن جَهْوَر بعدَه وسمَّى نفسَه بالظافر و ضمَّ الـجُندَ إليه ورام أن يَسلُكَ مسلَكَ غيرِه فلم يقدِرْ عليه، فكان ذلك سببَ فساد مُلكِ بني جَهْوَر على ما يأتي.

وَقْعةُ بَطَرْنَة(١)

وفي هذه السنة: كانت وقعةُ بَطَرْنَةَ؛ من نظرِ بَلَنْسِية، وذلك أنَّ قطعةً منَ الرُّوم دَلَفَت إلى بَلَنْسِيَة فأناخَت عليها وأهلُها يومئذ جاهلٌ غِرّ أو مُترَفٌ مغترّ، قد خلَوْا بشَهَواتِهم، وانخَدعوا بإغفاءِ الدّهر عن عثَراتِهم، مُغْفلينَ للتدبير، غافلينَ عمَّا يتعاوَرُ أطرافَهم من التغيير، فطار بهم الذُّعرُ كلَّ مطار، وسارت من زعمائهم في استقبالِ محنتِهم تلك أعجبُ

(١) الذخيرة ٣/ ٦٤٤، ونفح الطيب ٤/ ٤٤٨-٤٤٩.

أخبار، ثمَّ كايَدَهم العدوُّ بإظهار الاضطراب، والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الـهِضَاب، استدراجًا لهم واستطرادًا، وجَدًّا في طلبِ مكروهِهم واجتهادًا، فهاجَ رعاعُهم، وتنادى بالنفير مَهَنَتُهم وصُنَّاعُهم، حتَّى قيل: إنَّ مخنَّثَيْنِ تَنادَيا إلى الخروج وقد أيقَنا بسَبْي العلوج، فهما يتنازعانِ الـمُنى، ويقولانِ: نحن أعلمُ بفعلاتِ القَنا، وهيهاتِ! تلك أقصفُ للظهور، وهذه أشفى لبُغْضِ الصدُّور، وخرَجا ولا سلاحَ إلَّا رشَأٌ يتجاذبانِه، ثمَّ اصطلَحا بعدُ فاقتَسماه، لا يستهيبانِ ضِيقَ المنهاج، ولا يُشكَّانِ في اقتيادِ الأعلاج، وساعَدَ أولئك الرعاعَ الحائنينَ أميرُهم يومَئذٍ الـمُترَفُ عبدُ العزيز بن أبي عامر، فخرَجَ بالعير والنّفير، والـجَمّ الغفير، يحسَبُ الطَّعنَ كالقُبَل، ويظُنُّ السّيوفَ كالـمُقَل، ويتخيَّلُ صَليلَ الحسام، بين القصرتَيْنِ والهام، ما كان اتَّسع له ذَرْعُه، ومَرَنَ عليه سمعُه، من نغَم الأوتار، وترنُّم الأطيار، فلم يَرُع العدوَّ يومَئذٍ إلَّا خروجُ أهل بَلَنْسِيَة الأغمارِ والأغفال، إلى تلك الـمَصارع والأجبال، [من الكامل]:

يمشينَ مشيَ قَطا البِطاح تأوُّدًا ... هِيفَ الخُصورِ رواجحَ الأكفالِ

فظفِر العدوُّ يومَئذٍ بهم، أتاهم من ظُهورِهم، فحكَّم السيفَ في جُمهورِهم، ولم يَبْقَ إلَّا من أحرَزَه أجلُه، وخفِيَ على سهم المنيَّة مقتلُه.

أخبر ابنُ بسَّام، قال(١): أخبرَني مَن رأى ابنَ أبي عامر يومَئذٍ متحصِّنًا برَبْوة بين لـمَّة من فُرسانِه، يُنشدُ وقد عقَدَ الذّعرُ عذَبَةَ لسانِه [من الطويل]:

خليليَّ ليس الرأيُ في صَدْرِ واحدٍ ... أشيرا عليَّ اليومَ ما تَرَيانِ

فنَجا منها مَنْجَى أبي نَصْر، بعدَ أن أعطى على قَسْر، ولم يحفَظْ ما أحاط بأصحابه من قتل وأسر.

قال ابنُ بسَّام(٢): لم يقَعْ إليَّ خبرُ وقعة بَطَرْنَةَ في كتاب ابن حيَّان، فكنْتُ أُولّيه حُكمَه، واعتمدُ فيه وَصْفَه الرائقَ ونظمَه.

---

(١) الذخيرة ٣/ ٦٤٦.

(٢) الذخيرة ٣/ ٦٤٤.

وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة: نازَلَ العدوُّ مدينةَ قَلْمَرِيَّةَ وتغلَّبَ عليها وانتزَعها من يدِ ابن الأفطس، وكانت من فتوحاتِ المنصور، فتَحَها في سنة خمس وسبعينَ وثلاثِ مئة، وكانت للمسلمينَ سبعينَ سنةً كما تقدم.

وفيها: تغلَّبَ العدوُّ أيضًا على مدينة بَرْبُشْتَر، وهي من أُمَّهات مدُنِ الثَّغر الفائتة في الـحَصانةِ والامتناع، فحاصَرَها الرّومُ نحوَ أربعينَ يومًا حتَّى افتتحوها عَنْوة كما تقدَّم.

قال البكريُّ: وكان عددُ الرّوم المحاصِرينَ لها نحوَ أربعينَ ألفًا بين فارس وراجِل، فقَتلوا عامَّةَ أهلها وسبَوْا ما فيها من حُرَم المسلمين وذَراريهم ممَّا لا يُحصَى كثرة، وذَكَروا أنَّهم اختاروا من أبكارِ سَبْيِها وأهل الـحُسن فيهنَّ خمسةَ آلافِ جارية أهدُوهُنَّ إلى صاحبِ القسطنطينة، وهُو ملِكُهم الأكبر، ووجَدوا فيها من الأموال والأمتعة ما يُعجَزُ عن وَصْفِه كثرة، والأمرُ لله من قبلُ ومن بعد.

قال ابنُ حيَّان: وطَرق الناعي بها قُرطُبَةَ في شهر رمضانَ، فصكَّ الأسماعَ وأطار الأفئدة وزَلْزلَ أرضَ الأندَلس قاطبةً وصار للناس شُغلًا، وتسكّع الناسُ في التحدُّث به والسؤال عنه والتصوُّرِ والحلولِ لوقوع مثلِه أيَّامًا لم يفارقْ فيها عادتَهم من استعباد الوَجَل، والاغترارِ بالأمل، والاستنادِ إلى أُمراءِ الفُرقة الهمَّل، الذين هم منهم ما بينَ فَشِل ووَكل، يَصدُّونَهم عن سَواء السبيل، ويُلبِسُونَ عليهم واضحَ الدّليل، ولم تزلْ آفةُ الناس منذُ خُلقوا في صِنْفينِ منهم هم كالملِح فيهم: الأمراءُ والفقهاء، قَلَّما تتنافرُ أشكالُهم، بصلاحِهم يَصلُحون وبفسادِهم يَرْدَوْن، فقد خَصَّ اللهُ سبحانه هذا القرنَ الذي نحن فيه منَ اعوجاج هذَيْن الصِّنفين لدينا بما لا كَفاء له ولا مَخْلَصَ منه، فالأمراءُ القاسطونَ قد نَكَبوا بهم عن نهج الطريق ذِيادًا عن الجماعة وجَرْيًا إلى الفُرقة، والفقهاء أئمَّتُهم صُموتٌ عنهم صُدُفٌ عمَّا أكَّده اللهُ عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آكِلٍ من حَلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مُستشعر مخافتَهم آخِذٍ بالتَّقيَّة في صِدقهم، فما القولُ في أرضٍ فَسَد مِلحُها الذي هو الـمُصلِحُ لجميع أغذيتها وقد أصبحت في مدَدٍ من خَبالِها، هل هي إلَّا مُشفيةٌ على بَوارِها واستئصالها؟

ولقد طمَّ العجبُ لهؤلاء الأمراء أنْ لم يكنْ عندَهم لهذه الحادثة الشّنعاءِ في بَرْبُشْترَ إلَّا الفَزَعُ إلى حَفْر الخنادق وتعلية الأسوار وسدِّ الأركان وتوثيق البُنيان، كاشفينَ لعدوِّهم عن السَّوأةِ السوداء من إلقائهم يومَئذ بأيديهم إليهم، أمورٌ قبيحاتُ الصور، مؤذناتُ الصُّدور، بأعجازٍ تُحِلُّ الغِيَر، [من الوافر].

أمـــورٌ لـــو تـــدبَّرها حكـــيمٌ إذًا لَنهـــى وسَـــبَّ بـــها اســـتطاعَهْ

فدهرُنا هذا قد غَربَلَ أهليهِ أشدَّ غَرْبلة، وسَفْسفَ أخلاقَهم، وأخْبَثَ أعراقَهم، وسَفَّه أحلامَهم، وخَبَّث ضمائرَهم، واحتَوى عليهم الجهل، فلَبِثوا في غير سبيل الرُّشد يُعلّلونَ أنفُسَهم بالباطل، وذلك من أدلِّ الدّلائل على فَرْط جهلِهم، واغترارِهم بزمانِهم، وبِعادهم عن طاعة خالقِهم، وغَفْلتهم عن سدِّ ثغرِهم، حتَّى ظَلَّ عدوُّهم الساعي لإطفاءِ نورِهم، يتبحبَحُ عِراصَ دُورِهم، ويَستقري بسائطَ بقاعِهم، يقطَعُ كلَّ يوم منهم طرفًا ويبيدُ أُمَّة، ومن لدينا وحواليْنا صُموتٌ عن ذكرِهم، لُهاةٌ عن بثِّهم، ما أنْ يُسمعَ بمسجد من مساجدِنا أو محفِل من محافلِنا مذكِّر لهم أو داعٍ لهم فضلًا عن نافرٍ إليهم أو مُواسٍ لهم، حتَّى كأنَّهم ليسوا منَّا أو كأنَّ فَتْقَهم ليس بمُفضٍ إلينا، قد بخلِنا عليهم بالدّعاء فبُؤْنا بالعناء، عجائبُ مفرجةٌ، فاتت التقدير، وعرَّضت للتغيير، ولله عاقبةُ الأمور، وإليه المصير.

بقيَّةُ أخبارِ بني جَهْوَر وخَلْعُهم[(١)]

قال ابنُ حيّان: وفي سنة ستٍّ وخمسينَ وأربع مئة: كثُر خوضُ أهل قُرطُبَةَ في الذي رأَوْه من تنافُس ولدَيْ أبي الوليد بن جَهْوَر في الانتصاف بالإمارة[(٢)]: ابنُه عبدُ الرحمن كبيرُ جماعتهم وأخوه عبدُ الملك أشهمُهم فؤادًا وأصلبُهم عُودًا الذي كشَف عن وجوهِهم غُمّةَ مُركِسِهم ابنِ السقَّاء، فاستَدركَ لهم ما كان تولَّى من سلطانِهم بفتكتِه به الفتكةَ التي أثبتَت أوتادَ مُلكِهم، ثمَّ نازَعَ أخاه كبيرَه عبدَ الرحمن فيما ذهبَ إليه من التفرُّد به، وقد كان أشار على أبيهما بعضُ خُلفائه بإيثار عبد الرحمن منهما فتمسَّك الشَّيخُ بحظِّه

(١) الذخيرة ١/ ٤٦٥.

(٢) في المطبوع من الذخيرة: «الانتصاب لخلافته»، وما هنا ورد أيضًا في نسخة من الذخيرة.

من إرضاء ولَدِه الصّغير عبد الملك، فمال إلى قسمة الرِّياسة بينَهما مُدَّةَ حياتِه غيرَ ناصبٍ أحدَهما للأمر، يقضي اللهُ أمرَه لمن يشاء، وأنشَد قولَ الـجَزِيريّ[1] [من الكامل].

وإذا امـرُؤٌ فَقَـدَ الـشبابَ سَـمالَـهُ ... حُـبُّ البنـينَ ولا كحـبِّ الأصـغرِ

ثمَّ نظَر لعبد الرحمن فقدَّمه في الإشراف والجباية، وجعَلَ إلى عبدِ الملك النظَرَ في الـجُند والتولِّيَ لِعرضِهم والإشرافَ على أُعطِيتهم، فرَضِيا منه هذا التقسيم، وأقامهما به على الصّراط المستقيم.

قال ابن بسَّام[2]: إلى هنا انتهى ما وجدتُّه في كتابِ ابن حيَّان من أخبار الدولة الجَهْوَرِيَّة.

قال المؤلِّف: وها أنا أذكرُ من كلام ابن بسَّام وغيره ما أمكَنَ من بقيَّة أخبارِهم إن شاء الله، فأقولُ أوَّلًا[3]: كان عبَّادٌ الـمُعتضدُ خامَرَ قلبَه من شأنِ ابن السقَّاء مدبِّر دولة بني جَهْوَر ما لا يسَعُه بَوْحٌ ولا كَتْم، وما لا يُودِعُهُ سَفَهٌ ولا حِلم، شَرَقًا بحُسن سِيرتِه، وفَرَقًا من استمرارِ مَرِيرتِه، وحسدًا لآل جَهْوَر، فقد كان ابنُ السقَّاء هذا من الاستقلال بمكانِه، والضّبط لسُلطانِه، بحيث يُخيفُ الأنداد، ويَغِيظُ الـحُسَّاد، فدسَّ عبَّادٌ إلى عبد الملك بن جَهْوَر مَن جَسَّره على الفتك، وإلى ابن السقَّاء مَن ألقَى في روعِه حب الـمُلك، راشَ وبَرى، حتَّى جَرى القدرُ بينَهما بما جرى، وقد شرح ابنُ بسّام خبرَ ابنِ السقّاء في القسم الرابع من كتابِه.

ولـمَّا خلا لعبد الملك الجوُّ بعدَ ابن السقَّاء أعرَضَ وأطال، وطلبَ الطَّعنَ والنِّزال، ووجَد عبَّادٌ السبيلَ إلى شيء طالما كان شَرَّدَ[4] كَرَاه، ونغَّص عليه كثيرًا من دُنياه[5]، من

(١) في م: «الحريري» مصحفة، وهو عبد الملك بن إدريس الجزيري والبيت من قصيدة له في الآداب والسنة كتب بها إلى بنيه وتنظر جذوة المقتبس (٦٢٥)، وإعتاب الكتاب ١٩٣، وتعليقنا على الجذوة.

(٢) الذخيرة ١/ ٤٦٦.

(٣) تنظر الذخيرة أيضًا ١/ ٤٦٦ فما بعدها.

(٤) في م: «شر ذكراه» ثم أصلحها محققه في المستدرك إلى «جَرّد كراره» والصواب ما أثبتنا، وهو الذي في الذخيرة.

(٥) في الذخيرة: «من لذة دنياه»، وهو أحسن.

أشعارِ بني جَهْوَر إلى نصرِه، وتصرُّفِهم بين يدي[1] نَهْيِه وأمرِه، وانقبضَ عن عبد الملك لأوّل استبدادِه بالأمر حُماتُه الذين كان ابنُ السقَّاء يُرفِّهُهم برِفْقِه[2]، ويَصطنعُهم بحَذْقِه، وخامَرَ نفسَ ابن ذي النُّون من الشَّغَف بقُرطُبَةَ ما هوَّنَ عليه إنفاقَ المال، واحتمالَ الأثقال، وتكلُّف الحِلِّ والتَّرحال.

ومضَت السِّنُون، وغالت عبَّادًا المَنُون، وصار الأمرُ إلى ابنِه المعتمِد سنةَ إحدى وستّين، فلمّا كان سنةُ اثنتين بعدَها دَلَفَ ابنُ ذي النّون إلى قُرطبة، وكان لا يُغبُّها شرُّه، ولا ينامُ عنها مكْرُه، فاحتاج عبدُ الملك بنُ جَهْوَر إلى استمداد المعتمِد لانفضاضِ مَنْ لديه، وعَجْزِه عمّا كان أسندَ من تدبيرِ قُرطبةَ إليه، فأمدَّه المعتمِدُ بجُمهورِ أجنادِه، على أكابرِ قُوَّادِه، وقد تقدَّم إليهم بمرادِه، ونهَجَ لهم سبيلَ إصدارِه وإيراده، فوافَوْا قُرطبةَ ونَزلوا برَبَضِها الشرقيّ، وأقاموا بها أيّامًا يَحمُونَ حِماها وأعيُنُهم تزدحمُ عليه ويَذُبُّونَ عن جَناها، وأفواهُهم تنجذبُ إليه، فلمّا كمَّل ابنُ ذي النُّون سفَرَه، واحتواه، وقضَى من غزوِ قُرطبةَ وَطَرَه وما قضاه، أخَذ في الرحيل عنها، فما انقشَعت سَدَفةُ ليلِه، ولا تمزَّق غُبار سنابكِ خيلِه، حتَّى هتَكَ العبَّاديُّونَ الحريم، ورَكِبوا الأمرَ العظيم، باتوا متحدِّثينَ بالقفول، ثمّ غَلَّسوا مُظهِرينَ للرحيل، وعبدُ الملك متأهِّبٌ لتشييعِهم، عازمٌ على البكرةِ إلى توديعِهم، وشُكرِهم على حُسن صنيعهم، فلم يَرُعْه إلَّا إحداقُهم بقصرِه، وارتفاعُ أصواتهم بالبراءة من أمرِه، وقد تمخَّضت له ليلتُه عن يوم عقيم، وافترَّ ناجِذُ صُبحِها عن ليل له بهيم، ومشَى من أنصارِه هنالك بين أسودَ مسموم وأسدٍ شتيم، [من الطويل]:

ومَـنْ يجعـلِ الـضِّرغامَ للـصَّيدِ بـازَهُ ... تــصيَّدَه الــضِّرغامُ فــيمن تــصيَّدا

فقُبِض للحين على عبد الملك وإخوته[3]، وجميع أهل بيتِه، وبالَغوا لوقتهم في الانتهاك لـحُرَمِه، وإزالة نِعمِه وإخفارِ ذِممِه، وأُخرج الشّيخُ أبو الوليد بقيَّةُ أشراف الأندَلس، وكان إذ ذاك مائلَ الشِّقّ، مفلوجَ الشِّدق، مغلوبَ الباطل والحقّ، لم تُحفَظْ له

(١) هذه اللفظة ليست في الذخيرة.

(٢) في الذخيرة: «يرفعهم برفعه»، وما في الأصل أصوب.

(٣) في م: «وإخواته»، ولا معنى لها.

حُرمة، ولا رُعي فيه إلٌّ ولا ذمَّة، بلَغني أنَّه لـمَّا وُسِّط به قنطرةُ قُرطبةَ خارجًا منها على مركَبٍ هجين، وحالُه تُقرُّ عيونَ الحاسدين، رفَعَ يديه إلى السماء وأخَذ يبتهلُ في الدعاء، فكان مـمَّا حُفِظ عنه قولُه: اللَّهمَّ كما أجَبْتَ فينا الدّعاءَ علينا فأجِبْه لنا، ثمَّ مات بعد أربعينَ يومًا من نكبتِه بجزيرة شلطيش مُزالَ النِّعمة، مُدالَ الـحُرمة، وأُمرَّت ساقتُه بها أقاموا هنالك بقيَّةَ أيّام المعتمِد يأخُذُهم الـحِدْثانُ ويدَعُهم، ويَخفِضُهم الزمانُ أكثرَ مـمَّا يرفَعُهم. انتهى كلامُ ابن بسَّام رحمه الله.

وقال الورَّاقُ: **وفي سنة ستٍّ وخمسينَ**: نَوَّه أبو الوليد بنُ جَهْوَر بابنَيْه: عبدِ الرحمن وعبدِ الملك، واستعان بهما دونَ تفويض منه إليهما، فلم يلبَثْ عبدُ الملِك أن أثَّلَ مجدَه لأوَّل ظهورِه بالاقتراب إلى المعتضِد عبَّاد، فكاتَبَه بما كان من أمرِه، وبعدَ ذلك زارَه بإشبيلِيَةَ، فأكرَمَه المعتضِد إكرامًا كثيرًا، وانصرَف إلى قُرطبةَ وقد زادت همَّته وبعُدت آمالُه حتَّى فاق أخاه وغلَبَه على الأمر واستبدَّ بالأمر دونَه إلى أن جعَلَ سجنَه منزلَه، وكان له بِطانةُ سُوء من السُّفَّال وسُقَّاط الناس ومَن لا خَلاقَ له، فكان لهم تسلُّطٌ على الناس بالأذى، يَهيمُ بهم في كلِّ وادٍ من الدَّناءة، إلى أنْ غزا قُرطُبَةَ البائسةَ المأمونُ يحيى بنُ ذي النّون صاحبُ طُلَيْطُلة، فاستَجاشَ عند ذلك عبدُ الملك بن جَهْوَر حليفَه المعتمدَ بنَ عبَّاد، فأمدَّه بجنودِه وحُشودِه حتَّى امتلأت منهم قُرطبة، فوقَع القتالُ بينَ أهل قُرطبة وابن ذي النون أيَّامًا إلى أنْ أقلعَ عنهم.

خَلْعُ ابن جَهْوَر وتغلُّبُ ابن عبَّاد على قُرطُبة

لـمَّا أقلَعَ ابنُ ذي النّون عن قُرطُبة اجتمع أهلُها في السِّرِّ على أنْ يخلعوا ابنَ جَهْوَر ويُولّوا ابنَ عبَّاد، فأبرَموا أمرَهم وأحكموه، وقاموا بأجمعِهم لـمّا ضجِروا من جَوْر ابن جَهْوَر وتعدّيه هو وحاشيتِه السِّفلة على الناس، وثاروا في صَبيحة اليوم الذي اتَّفقوا فيه معَ قُوَّاد ابن عبَّاد، وقام أصحابُ ابن جَهْوَر دونَه، وكانوا طائفةً قليلة، فغَلَب عليهم أهلُ قُرطبة، واستوى الحائنُ عبدُ الملِك بن جَهْوَر في يد ابن مرتينَ قائد ابن عبَّاد، وانقَرضَ مُلكُ بني جَهْوَر، فكانت دولةُ أبي الوليد بن جَهْوَر بقرطبة ستًّا وعشرينَ سنةً وستَّة أشهر ونصفًا.

ومن كتاب «الأنباء في سياسة الرؤساء»، قال: لـمَّا أخذ أبو الوليد بن جَهْوَر العهدَ على أهل قُرطُبَة لوليِّ عهدِه ابنه عبد الملك ووَلَّاه على قُرطبة، جار واعتَدى، وتعاظَمَ، حتَّى سمَّى نفسَه ذا السيادتَيْن المنصورَ بالله الظافرَ بفضل الله، وخُطب له في مِنبر قُرطُبَةَ بهذا كلِّه، فسَلَّط اللهُ عليه نكايةَ ابن ذي النُّون له وتضييقَه عليه حتَّى مَلَك حصنَ الـمُدوَّر[1] وحاصَره بقُرطُبة، فاستغاث بالمعتمِد محمَّد بن عبَّاد، فوَجَّه إليه مقدّمةً في ثلاث مئة فارس، ثمَّ جدَّد في أثَرِهم ألفَ فارس معَ قائدَيْه: خَلَف بن نَجاح ومحمَّد بن مرتين[2]، فدخَلوا قُرطبةَ فانصَرفَ ابنُ ذي النّون منحوبًا مُغتاظًا، واستبان رجالُ ابن عبَّاد حالَ عبد الملك وضَعْفَ عقلِه وقلَّةَ رجالِه وشَنَآن رعيَّتِه تُلحِقُهم الطّمعَ فيه، فكان زوالُ مُلكِه أسرعَ من لحسة الكلبِ أنفَه.

وثَوى العسكرُ العبَّاديُّ بقُرطبة بعدَ رَحْل ابن ذي النُّون عنها أكرمَ ثَواءً وأهلُها يبثُّونَهم شَجْوَهم ويُطالعونَهم على ما هم فيه ويُناشدونَهم اللهَ ألَّا يبرَحوا حتَّى يقبِضوا على الغَويِّ الظالم أميرهم عبد الملِك بن جَهْوَر ويحبِسوا البلدَ على سُلطانِهم ابنِ عبَّاد، فأصبحوا عشيَّ يومَ الأحد المؤرَّخ على تعبئة سَفَرِهم، ثمَّ قدَّم القائدانِ على الباب مَنْ ضَبَطَه وأسرعا التقدُّمَ في الـجُند والعامَّة إلى دار عبد الملِك بن جَهْوَر فاستَوى هو وخُوَيصَّتُه فوقَ غرفةِ دارِه، وتكاثَرَ الـجُندُ عليهم فأتَوْه من كلِّ جهة وتوصَّلوا إلى دارِه من السّقف المتَّصل به، ونزَلوا منه إلى قعرِها، وغَشِيَها جموعٌ من الناس أعلاها وأسفلَها كالـجَراد المنتشِر، فتقدَّمت العامَّةُ على النَّهب، فصيَّروا جميعَ ما احتوى عليه قصرُه كحريق سريع، وفَضُّوا أقاصيَ مخازنِه على نفيس أعلاقِها.

وأمَّا الشّيخُ أبو الوليد والدُه رَبُّ القصر فأوى إلى المقصورة ببناتِه وكرائمِه، فاقتحَمها عليه قومٌ من النّصارى فجرَّدوهم ونَهبوا ما عندَهم، فأصبح أميرًا وأضحى أسيرًا، وآلَ الحالُ بالغَوِيّ ابنِه إلى أن صَعِد إلى علّيَّة أغلَقَها على نفسِه وعلى نسائه، فارتقَى الـجُندُ إليه ليقبِضوا فيها عليه فطلَب الأمانَ ونزَلَ طائعًا للقائدَيْن، وبادَر ابنُ مرتينَ بالمنع عن

---

(١) معجم البلدان ٥/ ٧٧.

(٢) المغرب ١/ ٢٤٨.

أن يُخطَّى إلى أحد من الناس، وأعلنَ بالنّداء بالسّيف في ذلك، فكفَّ الفَسَقةُ وارتفَع النّهب، وأسرعَ ابنُ مرتينَ الرجوعَ إلى دارِ المخلوع وقد حاصَرَه ابنُ نَجاح، وقدَّما النظرَ في إخراج الغَوِيّ ليومِهما إلى حضرة إشبيلِيَةَ فوكلّا به مَن أخرَجَه على أعيُن الناس معَ أخيه وطائفتِه، ثمَّ عَطَفا على النظرِ في شأن الشّيخ الضِّلّيل والدِهم ومن معَه من بناتِه ونسائه، فصُيِّر جميعُهم في دار صُغرى، والتزَم القائدانِ الجلوسَ للنظر في الأمور إلى أن وَصَل ابنُ عبَّاد قُرطبةَ فملَكَها، وسأذكرُ بقيَّةَ خبرِه في موضعِه، وأمَرَ ابنُ عبَّاد بإخراج الشّيخ أبي الوليد وبناتِه عن قُرطبة، فخرَج بهم رجالُه، واستقرَّ جُملةُ بني جَهْوَر بجزيرة شَلْطِيشَ فأقاموا هنالك أكثرَ أيّام المعتمِد.

وفي سنة سبع وخمسينَ وأربع مئة: افتتح المسلمونَ مدينةَ بَرْبُشْتَر معَ أحمدَ بن سُليمان بن هُود، وقد تقدَّم ذكرُ ذلك.

وفيها: مات سيفُ الدّولة ابنُ باديسَ بن حَبُّوس الصُّنْهاجيُّ[1] أميرُ غَرناطة بسُمِّ ابن نغرالةَ اليهوديّ، واسمُ سيف الدّولة ابن باديسَ: بُلُقِّين، وسأذكرُ طرفًا مختصَرًا من دولتِهم.

بعضُ أخبارِ باديسَ بن حَبُّوس وقومِه صُنْهاجةَ وانتزائهم على غَرناطةَ، ومهلِك اليهوديِّ وزيرِه[2]

نسَبُه: هو باديسُ بن حَبُّوس بن ماكْسِن بن زِيري بن مناد الصُّنهاجيُّ التلكاتيُّ. وكان زِيري بن مناد ممَّن ظَهَر في حرب أبي يزيدَ مخلد بن كيداد المتقدّم ذكرُه، وكانت صُنهاجةُ في ذلك الوقت تتقلَّد مذهبَ الشِّيعة العُبَيْدِيَّة، وكانت زَناتةُ بنو مغراو ضدًّا لهم في انحياشِهم إلى ملوك الأندَلس بني مروان لتحقُّق جَدِّ ملوكهم خزر وذرِّيَّته بولاية أمير المؤمنينَ عثمانَ بن عفّانَ رضي اللهُ عنه، فكانت زَناتةُ تُوالي بني مروان لقَرابتِهم من عثمان، وتَفِدُ عليهم ملوكُهم إلى الأندَلس فيُجهّزونَهم بالأموال والكُسى ويعودونَ إلى مَواطِنهم

---

(١) الإحاطة ١/ ٤٣١.

(٢) المغرب ٢/ ١٠٧، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٩٠، والإحاطة ١/ ٤٣٥، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٣٩.

بالغرب، وكانت بينَهم مخاطباتٌ ومراسَلاتٌ في قديم الزّمان أوجَبَت تنقُّلَهم من بلادِهم إلى الأندَلس على ما يأتي ذكرُه.

فلمّا دخَلت صُنهاجةُ في الدعوة العُبَيْديَّة وتقلَّدتها وأبَتْ من ذلك زَناتة، صارت صُنهاجةُ حربًا لزَناتة، فكانت زَناتةُ تُغِيرُ على ثَغْر الشِّيعة العُبَيْديَّة وتُفسدُ فيه بأشدِّ ما يكونُ من العَيْثِ والفساد، حتَّى بَنى معَدُّ بنُ إسماعيل العُبَيْديُّ مِلكُ الشِّيعة بآخِر إفريقيَّةَ من جهة الغرب مدينةَ آشير ليُغاورَ منها بلادَ زَناتة، ورام أن يُبيدَهم لإبايتهم من الدّخول في دولته العُبَيْديَّة وانحياشِهم إلى الدولة المروانيَّة.

وكان معدُّ بنُ إسماعيل لـمَّا استَخلَفَ بُلُقِّينَ بنَ زِيري بن مناد الصُّنهاجيَّ على إفريقيَّةَ ورحَل إلى مُلك مصر، خَلا به ووصّاه بما يفعلُه بعدَه من أمور المملكة، فمن ذلك: ألَّا يرفَعَ السّيفَ عن قبائل البربر، ولا الـحَزْمَ عن الرعيَّة، ولا تُوَلِّ أحدًا من بني عمِّك، فإنَّهم يَرَوْنَ أنَّهم أحقُّ بالأمر منك، فامتَثَلَ بُلُقِّينُ وصيَّتَه، وأوصَى بذلك وَلَدَه منصورَ بن بُلُقِّين.

ثمَّ وَلِي بعدَ منصور ابنُه باديسُ بن منصور، فأراد أعمامُه وأعمامُ أبيه أن يَستهضموهُ فلم يُعْطِهم ذلك من نفسِه، وقعَت بينَهم حربٌ قُتل في أثنائها عمُّ أبيه ماكْسِن بن زيري بن مناد، فرهِبَ الباقونَ صَوْلَةَ باديس وخافوا عاديتَه، فكتَبَ شيخُهم زاوي بنُ زيري إلى الـمُظفَّر بن أبي عامر ليجوزوا له إلى الأندَلس رغبةً في الجهاد، فأذِنَ لهم في ذلك، فدخَل منهم إلى الأندَلس جماعةٌ معَ شيخِهم وأميرهم زاوي بن زيري بن مناد ومعَه ابنا أخيه ماكْسِن: حُباسةُ وحَبُّوس، فأكرَمَهم ابنُ أبي عامر المظفَّرُ وأنزَلَهم، وكانوا من ذلك في أمرٍ عظيم، إذ أصارهُم الدّهرُ يَخدُمونَ تحت يدِ أعدائهم وأضدادِهم، فكانوا يتكلَّمونَ بأشياءَ في جانب المظفَّر فيُغضي لهم عنها ولا يُغضي لهم على شيء مـمَّا يلزَمُهم من أمور الشريعة، فإنَّهم كانوا في بلاد إفريقيَّةَ لا تأخُذُهم أحكامُ الشّرع، وكانوا بها يَستطيلونَ على الناس بما شاءوا من الشَّتم والعَيْث، فلم يُطيقوا ذلك بالأندَلس، بل أخَذَتْهم فيها أحكامُ الشّرع فأسرُّوا لذلك الحقدَ، وأقاموا على ذلك مدَّةً يَخدُمونَ معَ العساكر كسائر القبائل من البرابر إلى آخِر الدولة الفاضلة الـمَرْوانيَّة، فلمّا انهدَمت الإمامةُ وانشقَّت عصَا الجماعة

سَعَوْا في الفتنة كفعل غيرِهم من سائرِ قبائل البرابرة، وكان الأصلُ في هذه الفتنة ابنَ عبد الجبَّار، فإنَّه استَفْسَد إلى البربر وكان يُصرِّحُ نكبتَهم ولا يقدِرُ على كَتْم ذلك وإذا جاء أكابرُهم إلى بابِه مُنعوا ووُبِّخوا وضُربَ رأسُ خيلِهم، حتَّى كان زاوي بن زيري يقول: رأسي فاضرِبوا وأمَّا الدابَّةُ فلا ذنبَ لها، إلى غير ذلك من استفساد أهل قُرطُبَةَ إليهم، حتَّى هَلَكوا بأيديهم ونُصروا عليهم.

وانحاز صُنهاجةُ هؤلاء معَ شيخِهم ورئيسِهم حَبَّوس بن ماكْسِن، وقد كان أخوه حُبَاسةُ هلَكَ في هذه الفتنة، وانصرَف زاوي بنُ زيري إلى إفريقيَّةَ في دولة الـمُعزِّ بن باديس، وقد تقدَّم سببُ انصرافِه عندَ مقتل الـمُرتضَى المروانيِّ القائم بشرق الأندَلس.

وبقي منهم معَ حَبُّوس بن ماكْسِن جماعةٌ عظيمة، فانحازوا إلى مدينة غَرناطة، وأقام حَبُّوسٌ بها ملكًا وغلَبَ على نظَرِها من مدينة قبرة ومدينة جَيَّان واتَّسع نظَرُه وحمَى رعيَّتَه مـمَّن جاوَرَه من سائر الأمراءِ الـمُتَزِينَ حولَه، فدامت رياسةُ حبُّوس إلى أنْ هَلَك سنةَ ثمانٍ وعشرينَ وأربع مئة.

فولِيَ بعدَه ابنُه باديسُ بنُ حَبُّوس، وسلَّم له أخوهُ شقيقُه بُلُقِّينُ بن حَبُّوس، فأمضَى باديسُ وزيرًا له وكاتبًا وزيرَ أبيه إسماعيلَ بن نغرالَة اليهوديَّ(١) على وِزارته وكتابته وسائر أعماله، ورفَعَه فوقَ كلِّ منزلة، فاتَّخذ هذا اليهوديُّ عُمَّالا ومتصرِّفينَ في الأشغال واكتَسَبوا الجاهَ والمالَ في أيَّامِه واستطالوا على المسلمين، وكان هذا اليهوديُّ من أهل الأدبِ والشِّعر، فدام أمرُه كذلك إلى أنْ هلَكَ وترَكَ ابنًا له اسمُه يوسُف لم يَعرِفْ ذِلَّةَ الذمَّة ولا قَذَر اليهوديَّة، وكان جميلَ الوجه حادَّ الذِّهن، فأخَذ نفسَه بالاجتهاد في الأحوال واستخراج الأموال، واستعمل اليهودَ إخوانَه على الأعمال، فزادت منزلتُه عند أميرِه باديس، وكانت له عيونٌ عليه في قصرِه من نساءٍ وفتيان شغَلَهم الملعونُ بالإحسان إليهم والإنعام عليهم، فكان لا يَخفَى عليه شيءٌ من أمورِ باديسَ من كلِّ ما يجري في منزلِه من شرابٍ أو لهو أو جَدّ أو هَزْلٍ إلَّا ويعلَمه ويُعلمُ اليهودَ به، فلا يكادُ باديسُ يتنفَّسُ إلَّا ويعلَمُ اليهوديُّ ذلك.

---

(١) تنظر الإحاطة ١/ ٤٣٩-٤٤٠.

وكان لباديسَ ولَدٌ اسمُهُ بُلُقِّين، وكان عاقلًا نبيلًا، فرشَّحه للأمر من بعدِه ولقَّبه سيفَ الدّولة، وكان له خاصَّةٌ من المسلمينَ يَخدُمونَه، وكان مُبغِضًا في هذا اليهوديّ، فبلَغَه أنَّه تكلَّم فيه عندَ أبيه فبلَغَ ذلك من اليهوديِّ كلَّ مبلغ، ودبَّر الحيلةَ عليه، فدخَل اللّعين يومًا على الفتى وقبَّلَ الأرضَ بين يدَيْه، فقال له: ما تريد؟ فقال له: يرغبُ عبدُك منك أن تدخُلَ دارَه معَ من أحببتَ من رجالِك يَستشرفُ العبدُ بذلك، فدخَل إليه، فقدَّم له ولرجالِه طعامًا وشرابًا وجعَلَ السُّمَّ في الكأس لابن باديس، فرام القيءَ فلم يقدِرْ عليه، فحُمل إلى قصرِه فقَضَى نحبَه في غدِ يومِه، ولم يعلَمْ أبوه سببَ موتِه، فقرَّر اللّعينُ عندَه أنَّ أصحابَه وبعضَ جَواريه سَمُّوه وتفرَّق أمرُه، فقَتَلَ باديسُ من جواري ولَدِه ومن فتيانِه وبني عمِّه جماعةً كبيرة وخافَهُ سائرُهم ففرُّوا عنه، وأقبلَ باديسُ على شرابِه ليتسلَّى به عن مصابِه.

وصارت لليهود صَوْلةٌ على المسلمينَ في دولتِه، إلى أن حدَّثته نفسُه الفاجرةُ بأشياءَ أخرجَتْه لضربِ رقَبتِه وقَتْل جُملة عظيمة من أهل ملَّتِه. وذلك أنَّ هذا اللّعينَ طلَبَ أن يُقيمَ لليهود دولة، فدَسَّ إلى ابن صُمادِح صاحبِ المريَّة في السِّرّ أن يُدخلَه غَرناطةَ ويكونَ اليهوديُّ في الـمَرِيَّة، فنَمَى هذا التدبيرُ إلى صُنهاجة، فدَخَلوا إلى دار اليهوديِّ معَ جُملة من العامَّة فاختفَى في بيتِ فحم وسَوَّدَ وجهَه وتنكَّر، فعَرَفوه وقَتلوه وصَلَبوه على باب المدينة، وقُتل في هذا اليوم من اليهود جُملةٌ عظيمة ونُهبت دورُهم، وذلك سنةَ تسع وخمسينَ وأربع مئة.

واتَّصلت الحروبُ والوقائعُ بينَ ابن عبَّاد وباديسَ إلى أنْ قَوِي ابنُ عبَّاد عليه وضَعُف أمرُ الأدارسةِ بمالَقة وانهدَّت دولتُهم وتمَّت أيَّامُهم، وكان آخرَهم غلامٌ منهم اسمُه يحيى بنُ إدريسَ بن عليّ، ترَكَه أبوه صغيرًا فقام بأمرِه وزيرُ أبيه، وتسمَّى هذا الفتى بأميرِ المؤمنينَ وتلقَّب بالـمَهْديّ وخُطِب له على المنابر، فدَسَّ باديسُ إلى وزيرِه وبعضِ رجالِه واستمالَـهم بالعطاء إلى أنْ غَزا مالَقةَ بجُندِه فدَخَلَها وخَلَعَ هذا الغلامَ وخيَّره في المسير والبقاء بمالَقة، فاختار المسيرَ إلى الـمَرِيَّة، ثمَّ سار منها إلى قُرطُبةَ فاستوطَـنَها، وملَكَ باديسُ مالَقةَ ووَلَّى عليها ابنَه المعزَّ، وجَرت له حروبٌ وخطوبٌ إلى أن هَلَك.

وفي سنة ثمانٍ وخمسينَ وأربع مئة: نهضَ صاحبُ طُلَيْطُلة يحيى بنُ ذي النُّون إلى صاحبِ بَلَنْسِيةَ عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وكان صهرَه تزوَّج بنتَه بعدَ وفاة أخيه عليها، فأساء عِشرتَها وأهانَها، فاتَّصل ذلك بأبيها فحقَد عليه وعمِلَ معَ وزيرِه ابن عبد العزيز على الغَدْر به وصَرْف البلد إليه، وكان ابنُ أبي عامر هذا خليعًا مائلًا إلى الفتيان والغِلْمة معَ خَدَر كان به، فقدِم عليه من طُلَيْطُلَةَ على سبيل الزيارة، وكانت بنتُه قد تُوفِّيت عنه قبلَ ذلك فنزَلَ خارجَ البلد بعسكرِه، فخرَج إليه المذكورُ وأدخَله قصرَه ليُبالغَ في إكرامِه وترفيعِه ولا عِلمَ عندَه بما ينطوي عليه، وكان أدخَلَ معَه فتيانَه وعبيدَه، فأقام عندَه أيّامًا ثمَّ قَبَضَ عليه وعلى ابنِه وأُخْرِجا معًا ليلًا إلى مدينة شَنْت برية من بلدِ ابن ذي النّون، فأقام بها يسيرًا ثمَّ هَلَك، ولحِقَ ابنُه بسَرَقُسْطةَ فمات بها، وانقطع بموته اسمُ آل عامر من الأنْدَلس، وحصَل شرقُ الأندلس لابن ذي النّون على هذا الوجه دونَ كُلفةٍ ولا مشقَّةٍ ولا نَفَقةِ دينارٍ ولا درهم، فحسَدَه على ذلك أُمراءُ الأندَلس وعابوا عليه غدرَه به.

وفي هذه السنة: وَفَد على المعتضِد عبَّادِ بن محمَّد أشياخُ بني يرنيَّان[1] ووجوهُهم وخاصَّتُهم بعدَما احتال في ذلك عليهم بضروب من الحِيَل، حتّى وصَلوا إليه ووَفَدوا عليه بإشبيلِيَةَ، فبالَغَ في إكرامِهم ثمَّ غَدَر بهم فأدخَلهم حمَّامًا وبناه عليهم حتَّى هَلَكوا فيه على ما يأتي ذكرُه.

ومن أخبارِ بني بِرْزال الزَّناتيّينَ المُنتَزينَ على قَرمُونةَ وما حولَها وسببِ جَوازِهم للأندَلس[2]

هؤلاءِ - بني بِرْزال - رهطٌ من زَناتةَ كانوا قاطنينَ بأرض المَسِيلة والزّاب الأسفل مدينة سطيف وطُبنة وميلةَ، والمَسِيلةُ هي التي بناها عُبيدُ الله الشيعيُّ وجعَلَها سَدًّا بينَه وبينَ زَناتة ليكُفَّ عاديتَهم عن هذه الجهة، وكانوا بني مغراو الزَّناتيّينَ بجهة مدينة تاهَرْت، وكان الذي تولَّى بناءَ المَسِيلة لعُبيد الله الشِّيعيّ عليُّ بنُ حَمْدون، وكان قائدًا من قُوَّاده، وكان أبوه حَمْدونُ من أهل الأندَلس، وكان بنو بِرْزال ساكنينَ حولَ هذا البلد يخدُمونَ

---

(١) عن بني يرنيّان، ينظر تاريخ ابن خلدون ٧/ ٦٦.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٧٢ فما بعدها.

عليَّ بنَ حمدون إلى أن مات عليٌّ هذا وترَكَ ولدَيْن: جعفرًا ويحيى، فوَلِي جعفرٌ مكانَ أبيه وكان زِيري بن مناد مناوئَه في أمورِ المملكة والتنافس في الرياسة.

فلمَّا جرى مِن قَتْل زيري ما جَرى، قتلَتْه زَناتةُ، خَلَع جعفرٌ هذا طاعةَ المشارقة وسار إلى الأندَلس، فاستطالت أيدي صُنهاجةَ على مَن كان من حاشية جعفر بن عليّ الأندَلسيّ ولم تكنْ لبني بُرْزال طاقةٌ بصُنْهاجة، فكتَبوا إلى جعفرٍ بما نالَـهم من صُنْهاجة، فاستأذَنَ جعفرٌ لهم أميرَ المؤمنين الـحَكَم ووصَفَهم له بالشّجاعة والانقياد إلى الطاعة، فأذِن له في جَوازِهم فجازوا إلى الأندَلس ورجَعوا تحتَ يد جعفر بن عليّ، فأقام بنو برْزالَ جُندًا على عادتِهم إلى حين وقوع الفتنة الـمُبيرة، فكشَفوا وجوهَهم في الحروب كفعل سائرِ البربر إلى أن استقرَّ قرارُهم بمدينة قَرمُونةَ وإسْتِجة وحصن الـمُدوَّر وذَواتِها وغَلَبوا على هذه البلاد، وجاوَرَهم محمَّدُ بنُ إسماعيلَ بن عبَّاد من ناحية إشبيلِيَة، وجاوَرَهم بَنو يَفْرَن من ناحية تَاكُرُنَّا، وجاوَرَهم ابنُ جَهْوَر من ناحية قُرطُبة، وجاوَرَهم باديسُ بنُ حَبُّوس من ناحية غَرناطةَ، وجاوَرَهم بنو دَمَّر الـمُنتَزونَ على مَوْرورَ وذَواتِها وأميرُهم محمَّدُ بن نُوح.

وقال أبو مروان بنُ حيَّان: إنَّ هذه القبائلَ تحالَفت وتعاضَدت على غزوِ بلاد بني دُمَّر، ودخَل معَهم في ذلك ابنُ جَهْوَر ولم يدخُلْ بينَهم ابنُ عبَّاد؛ لأنَّه كانت بينَه وبينَهم الحرب. وقصَدت هذه القبائلُ بعدَما حشَدت رعيَّتَها معَ زعيمِهم باديسَ ومعَ أبي نُور ومعَهم جمْعٌ من عسكر ابن جَهْوَر حصنًا من حصُونِ بني دُمر، ونازَلَتْه منازلَةَ بلاد الروم، وأقام هذا العسكرُ على هذا الحصن أيَّامًا يقاتلونَهم مقاتلةَ الكفَّار حتَّى دخَلوه عَنْوةً فقَتلوا رجالَه عن آخِرهم وهتكوا الأستارَ وفتَكوا بالأبكار حتَّى كانت دماؤهنَّ تسيلُ على أقدامِهنَّ عارياتٍ باكيات، واستَحْوذَ السُّودانُ وسُفّالُ العسكر على النّساء، فكانت أخبيتُهم مملوَّةً منهنَّ، إلى أن برَّحَ باديسُ بعدَ ثلاثة أيَّام عليهنَّ فطردوهنَّ عارياتٍ حافيات، وخرَجَ نساءُ هذا الحصن إلى سائر القرى والحصُون على ما ذكَرْنا، وانصَرف بنو برْزالَ يضربونَ على إشبيلِيَةَ من قَرمُونةَ وخيلُ ابن عبَّاد تضربُ عليهم، ولم تزل الحربُ تأكلُ فُرسانَهم وأبطالَهم إلى أنْ كتَبَ رئيسُهم العزُّ بن إسحاقَ بن محمَّد بن عبد الله البِرْزاليُّ إلى ابن ذي النّون أن يُعطيَه قَرمُونةَ وما حولَـها ويُعطيَه ابنُ ذي النّون من بلادِه حصنًا يكونُ فيه ويستريحُ من حربِ ابن عبَّاد، فأنعَمَ له بذلك على ما يأتي ذكرُه.

ومن أخبارِ بني يَفْرَن الزَّناتيِّينَ وأميرِهم أبي نُور بن أبي قُرَّة وانتزائهم على بلادِ تاكُرُنَّا(١)

وسببُ جَوازِهم أنَّه لـمَّا هلَكَ أميرُهم بالغرب يَدَّرُ بن عليّ بن محمَّد اليَفْرَنيُّ اجتمع رأيُهم على تأمير ابنِه محمَّد بن يدَّر، فحسَدَه على ذلك ابنُ عمّه أبو يدّاس فغَدَره وقتَلَه وتأمَّر مكانَه، فاختلفت عليه بَنو يَفْرَن وصاروا طريقَين، فكان هذا سببَ جَوازِهم إلى ابن أبي عامر، فكانوا يَخدُمونَه كسائِرهم، فلمّا وقَعَت الفتنةُ وتفرَّقت الجماعة تَسكَّعوا في الحروب كغيرهم، إلى أنْ ظَهَروا على صُقْع تاكُرُنّا وقلعتِهم رُندة.

وكان أبو نورٍ هذا مُحالفًا لابن عبَّاد لم تقَعْ بينَهم قط حرب، وكانوا تَحالَفوا على التناصُر والصّداقةِ والتعاضُد، وكان ابنُ عبَّاد يَصِلُهم بالصِّلات الـجَزِلة سياسةً لهم وطمعًا في استئصالهم إلى أنْ وجَّه إليهم في الزيارة له ليتجمَّل بهم زَعَمَ في إعذار أولادِه، وذلك منه مكرٌ بهم وخديعةٌ لهم، فأتَوْه في أحسن زِيّ وأبهى ملبَس وأفخَم عُدَّة، وقد كانت زيارتُهم له قبلَ ذلك متردّدة، فجاءوا إليه يُباهُونَ عليه في نحو مئتي فارس من رؤساءِ قبائلِهم، فلمّا وصَلوهُ أنزَلَ أُمراءهم في قصرٍ من قصوره، وبقي يُدبِّرُ فيهم أمرَه فأذِنَ لهم في اليوم الثالث من وصُولهم في الدّخول عليه فدخَلوا إليه وأخَذوا مجالسَهم عندَه فأفضَى به الحديثُ إلى عتابِهم في قلّة جَدِّهم معَه في حرب أعدائه، فخاطَبَهم في ذلك بكلام خَشِن فبجهلِهم أرادوا الـمُناصفةَ لأنفسِهم، فردَّ عليه محمَّدُ بن نوح الدُّمَّريُّ صاحبُ مَوْرُور، فوكَزَه المعتضِدُ عبَّادٌ بيدِه وصاحَ بعبيدِه، وقد كان قدَّم ذلك إليهم، فدخَل العبيدُ إليهم فأقاموهم أسوأ قيام من الشَّتم والـهَوان يَنتُفونَ لِحاهم لانخداعِهم حتَّى حصَلوا في يدِ عدوِّهم، فأمَرَ عبَّادٌ في الحين بتكبيلِهم وتنكيلِهم وسجنِهم في مواضعَ شتَّى لا يَلتقي أحدٌ منهم بغيره.

وكان أُمراءَ هذه القبائل التي غَدَر بهم عبَّادٌ: أبو نور بن أبي قُرَّةَ صاحبُ رُندةَ حليفُه وصديقُه، ومحمَّدُ بن نُوح الدُّمَّريُّ صاحبُ مَوْرُور، وعبدون بن خَزْرون أميرُ بني يرنيَّان صاحبُ أركُش وذواتِها، وأمَرَ بأخْذ جميع خيلِهم وسلاحِهم وأخبِيتِهم وجميع ما

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٤ فما بعدها.

احتوَوْا عليه، وقد كان أكثرُهم تَدايَنوا واستعاروا للأُبَّهة والفخامة على ابن عبَّادٍ وأصحابِه، فحصَلَ من ذلك على مالٍ كثير، وأقاموا أسْرى في يدِه مُدَّةً كبيرة، ثمَّ أمَرَ بهم فأُخرجوا من محابسِهم وصَرَفَ عليهم جميعَ ما أَخَذه لهم، ثمَّ صَنَع لأُمرائهم طعامًا وأُدخِلوا عليه فأكرَمَهم، وأمَرَ بتطييبِ الحمَّام لهم، وسار عَبيدُه إليه معَهم، وكانوا ثلاثةَ أُمراء: أبو نور وابنُ نُوح وابنُ خَزْرون، فلمَّا دخَلوا الحمَّامَ وجلَسوا بإزاءِ الحوض خرَجَ العبيدُ عنهم وقد أعدُّوا الـجَيَّارَ والآجُرَّ فبُني عليهم على دفَّة بيت الحمَّام، وأمَرَ السخَّانَ أن يُكثرَ الوَقْدَ، فالتَهفَ الحمَّامُ فقاموا من موضعِهم يرومونَ الخروج فلم يجدوا مخرجًا، فكان آخرَ العهد بهم، وأقام ذلك الحمَّامُ عاطلًا إلى آخرِ أيَّام العبَّاديّينَ ودخول الـمُرابطين.

فرهِبَ البربرُ صَوْلَةَ عبَّاد وكيدَه بكلِّ ناحية، ووَجَّه العساكرَ إلى بلادِهم فاحتَوى عليها، ونزَلَ باقيهم إلى إشبيلِيَةَ وصاروا من رجالِه، ولم يبقَ له مُعاندٌ منهم سوى بني يرنيَّان أصحاب شَذُونة وأركُش، فإنَّ أميرَهم محمَّدَ بنَ خَزْرون الـمُتخلِّفَ عن الوصُول إلى ابن عبَّاد قام فيهم مقامَ أخيه عبدونَ بن خَزْرون الهالِك في الحمَّام.

واتَّصل نظَرُ ابن عبَّادٍ بكل ناحية، وزاد همُّه في استئصال البرابرة، فجدَّ في طلبِ بني يرنيَّانَ وبَنَى حصنًا قريبًا منهم وشدَّهُ بالخيل والرّجال حتَّى منَعهم التصرُّفَ فلم يَقدِروا على مقاومة ابن عبَّاد، وضاق عليهم أمرُهم، فقصَدَ جماعةٌ منهم معَ أميرهم إلى باديسَ بن حَبُّوس صاحبِ غَرْناطةَ ومالَقةَ وأعمالِها، واتَّفقوا معَه على أن يُعطوه الحصنَ متخلِّينَ له عن تمام الـمُختزَن فيه بثمن معلوم ويُعطيَهم باديسُ بلدًا يسكُنونَه فيكونوا تحت كنَفِه، وبعَثَ معَهم عسكرًا ضخمًا فخرَجوا من غَرناطةَ قاصدينَ قلعةَ أركُش، ثمَّ خَرجوا منها بمتاعهم وأموالهم وعيالهم. ولم يَخْفَ هذا التدبيرُ على عبَّاد، فانزعَج لهم وجلَس على طريقهم بعسكرِه حتَّى وصَلوا إلى الحصن وسلَّموه إلى قائدِ باديسَ وأخرَجوا أموالَهم وعيالَهم.

قال أبو مروانَ الورَّاق: فخرَج بنو يرنيَّانَ بأموالهم وحَريمهم وما جمعوه من أوَّل الفتنة، فكانت جملةُ دوابِّهم التي عليها أحمالُهم وأثقالُهم نحوَ الخمس مئة دابَّة بغالٌ كلُّها، وكان معَهم قطعةٌ كبيرةٌ من بني بُرْزَال أعداءِ المعتضِد، فلمَّا أبعَدوا عن

القلعة بنحو عشرينَ ميلًا تعرَّض لهمُ ابنُ عبَّاد بفَحْص شِلْب فوقَعت الحربُ بينَهم، ولجأَ البربرُ إلى ربوةٍ كانت قريبًا منهم وحَطُّوا أثقالَهم إلى الصباح، ثمَّ وقَعت الحربُ بينَهم، وكان عبَّادٌ قد كَمَنَ لهم كمينًا، فلمَّا حَمِيت الحربُ خَرج عليهم الكمينُ وطُبولُه هادرةٌ وأعلامُه خافقةٌ وخيلُه متناسقة، فلمَّا رأوْا ذلك سُقِط في أيديهم وضَعُفت قلوبُهم، وثابَ الظَّفرُ إلى ابن عبَّاد فهزَمَهم ولم يُمعِنْ في اتِّباعِهم، ولاقَى بنو يرنيَّانَ في هذه الحربِ شدَّةً عظيمة؛ لأنَّهم قاتَلوا على حَريمهم وأموالهم حتَّى أُبيد أكثرُهم، وقُتل محمَّدُ بن خَزْرون أميرُهم في أوَّلهم بعدَ أنْ أمَرَ غلامَه بقَتْل امرأتِه لأنَّها كانت لطيفةَ المحلّ من قلبِه، فطَعنَها برُمح وهي راكبةٌ فسَقَطت، وأمَرَ أن يُفعلَ بأُختِه كذلك، وقُتل قائدُ باديسَ الذي كان معَهم، ورَكِب السّيفُ المنهزمينَ، وذلك آخِرَ يوم من سنة ثمانٍ وخمسينَ وأربع مئة.

وملَكَ ابنُ عبَّاد قلعةَ أركُش وسائرَ بلاد شَذُونةَ وخُطِب له فيها واتَّصل نظَرُه إلى أوَّل بلادِ شَرْق الأندَلس، ولم يزَلْ أمرُه يعلو ودولتُه تزدادُ نموًّا وظُهورًا إلى أن قُطِع دابرُ أُمراءِ البرابرة ولم يبْقَ منهم سوى باديسَ بن حَبُّوس، فجيَّش الجيوشَ وعَمَّر الأُسطولَ إلى مالَقةَ فحلَّ بَمْرساها وجَعْجعَ بأهلِها وأقام عليها أيَّامًا برًّا وبحرًا إلى أنِ انصرَف الجيشُ إلى غَرناطة، فبرَزَ عليها فلم يَخرجْ إليه أحدٌ من جُندِها، فانصَرف إلى حضرته إشبيليةَ يَرفُلُ في ثوبِ العزَّة.

ذكْرُ دخول الظافر محمَّد بن عبَّادٍ مالَقةَ وخروجِه مفلولًا منها بعدَ تقلُّص الظِّلال الحمُّوديَّة الـحَسَنيَّة عنها(١)

كان أهلُ مالَقةَ إذا جَرى ذكْرُ عبَّاد المعتضِد أُرتِجوا إليه، ورفَعوا أصواتَهم بالثناء عليه، هذا على ما كانت أعينُهم تَقْذَى من قُبح آثارِه، ويُصَكُّ سمعُهم من هولِ أخبارِه، ويَلْفَحُ وجوهَهم من شَرَر نارِه، تشيُّعًا لم يكنْ له أصلٌ إلَّا شومُ الحميَّة، ولومُ العصبيَّة، فاهتَبلوا غِرَّةً من باديسَ أميرِهم، وناجَوْا عبَّادًا بذواتِ صدورِهم، وألقَوْا إليه بأيدي تأميلهم وتأميرِهم، فجأْجأوا الظَّمآنَ لا يَرْوَى على طولِ الشِّرب، وهزُّوا سيفًا يكادُ يهتِكُ

(١) الذخيرة لابن بسام ٢/ ٤١ فما بعدها.

الضّريبةَ قبلَ الضَّرب، فجدَّ فيها وشمَّر، ونادى أهلَها وحَشَر، وكان المعتضِدُ إذا طَوَّل اختَصَر، وإذا تُحدِّث عنه على البعدِ حَضَر، فلبَّى دعاءَ أهل مالَقةَ وأنفَذَ إليهم شوكتَه، وأطلَعَ عليهم كتيبتَه، مُعصبَّةً بابنَيْه: جابر ومحمَّدٍ الظافر، فأوّلَ إطلالِه عليها، هبَّت له ريحُ فَتْحِها، وضَحِك في وجهِه بِشرُ صُبحِها، فخلا لأوّل وقتِه بحريمها، وتحكَّم في ظالِـمها ومظلومِها، إلَّا فرقةً من السُّودانِ الـمَغاربة لاذوا بذُروة قصَبتِها، وهي بحيث ينشأُ تحتَها الدَّجْن، ويعجِزُ دونَ مرامِها الظنّ، إنافةَ مكان، وإطالةَ بُنيان، وقد كان أهلُ مالَقةَ أشاروا على ابنَي المعتضِد حين خَلُّوا بينَها وبينَ البلد بإذكاء العيون، وإساءة الظّنون، وضَبْط ما حولَها من المعاقل والحصُون، فغَفَلا، واستَصرَخَ السُّودانُ الـمَغاربةُ أميرَهم باديسَ فلبَّاهم بزَخْرة من تيّارِه، وأقبَسَهم شرارةً من نارِه، فلم يَرُع ابنَيْ عبَّاد، إلَّا تداعي الجهاد، وصَليلُ الجِياد، فلم تَرَ من العبَّاديّينَ إلَّا أسيرًا وقتيلًا، أو فازعًا إلى الفِرار ما وجَد إليه سبيلًا، وامتلأت أيدي الباديسيّينَ من السِّلاح والكُراع، ورَفَلوا بين خِيار البزِّ وفاخِر المتاع، ولجأ ابنا عبَّاد إلى رُندةَ وقد انغمسا في عارِها، وصَلِيا بنارِها، ورأَيا وجهَ الموتِ في لَـمعان أسنَّتِها وشِفارِها.

ثمَّ خاطَبَ الظافرُ، وهو المتلقِّبُ بعدُ بالمعتمِد، أباه عبَّادًا بالشِّعر يستعطفُه ويُسلِّيه عن مُصابِه في هزيمته، فمنه [من البسيط]:

سَكِّنْ فؤادك لا تـذهبْ بـك الفِكَـرُ	مـاذا يُعيـد عَلَيـكَ البَـثُّ والحـذرُ
فإن يكن قَـدَرٌ قـد عـاق عـن وطـر	فــلا مَــرَدَّ لمــا يــأتي بــه القــدرُ
وإن تكــن خيبــةٌ في الـدهر واحــدة	فكم غزَوْتَ ومـن أشـياعك الظفـرُ

ومنها [من البسيط]:

قد أخلَقَتْنـي صُروفٌ أنـت تعلَمُهـا	وعــاد مــوردُ آمــالي بهــا كَــدَرُ
وحُلْتُ لونًا وما بالجسم مـن سَـقَمٍ	وشِــبْتُ رأسًــا ولم يبلُغْنــيَ الكِــبَرُ
لم يـأتِ عبـدُك ذنبًـا يـستحقُّ بـهِ	عَتْبًـا وهـا هُـو قـد وافـاك يعتـذرُ
ما الـذّنبُ إلَّا عـلى قـوم ذوي دَغَـلٍ	وَفَى لهـم عهـدُك المعهـودُ إذ غـدَرُوا

لم أُوتَ مـن زَمنـي شـيئًا ألَـذُّ بـهِ ... فلـستُ أعـرفُ لا كـاسٌ ولا وتَـرُ
ولا تملَّكنـــــي دَلٌّ ولا خَفَــــرٌ ... ولا سَبَى خَلَـدي غَـنْجٌ ولا حَـوَرُ
رضـاكَ راحـةُ نَفْسي لا فُجِعْتُ بـهِ ... فهْـو العِتـادُ الـذي للـدهرِ يُـدَّخَرُ
وهْو الـمُدامُ التـي أسـلو بهـا فـإذا ... عَـدِمتُها عَبَثَـتْ في قلبـيَ الفِكَـرُ

فلمَّا بلَغت الأبياتُ والدَه عَفَا عنهما واستدعاهما إلى حضرته وأيِسَ من مُلكِ مالَقة.

وفي سنة تسع وخمسينَ وأربع مئة: كان القيامُ على اليهود بغَرناطة ومقتَلُ ابن نغرالةَ، وقُتل من اليهود أكثرُ من ثلاثة آلاف، واستؤصلت أموالُهم، ووُجِدت لابن نغرالةَ فيما وُجد له خِزانةٌ جليلةٌ من كُتبِ أشتاتِ العلوم الإسلاميَّة، وكان له ورَّاقونَ ينسخونَ له الكتُبَ بالنَفقاتِ والـمُرتَّبات(١).

ذكرُ ابتداءِ الدّولة الذَّنُّونيَّةِ بالأندَلس واحتوائهم على مدينة طُلَيْطُلة

ذكَرَ أصحابُ التاريخ أنَّ بني ذي النُّون هم من قَبيل من البربر الذين كانوا يخدُمونَ الدّولةَ العامريَّة، وأنَّ اسمَ جَدِّهم، وهو الحاملُ لهذا الاسم، إنَّما هو زَنُّون فتصحَّف بطُول المدَّة فصار ذا النون، وهو اسمٌ شائعٌ في قبائل البربر.

ولم يكنْ لهؤلاءِ القوم نَباهةٌ قديمًا ولا ذكرٌ إلَّا في دولة ابن أبي عامر، فإنَّهم تقدَّموا في دولته واشتُهروا، فكان منهم مَن يقودُ الجيوشَ ويَلي الأعمالَ والبلاد، وكان منهم في آخِرِ أمَدِ الجماعة والٍ بكُورة شَنْت بِرْية، فلمَّا وقَعت الفتنةُ بالأندَلس كان الواليَ بمدينة طُلَيْطُلة وذَواتِها عبدُ الرحمن بن منيوه، وأدركَتْه مَنيَّتُه في خلال ذلك فورِث نَظَره عبدُ الملِك بن عبد الرحمن بن منيوه، فأساء السيرةَ في الرعيَّة.

وكان أهلُ طُلَيْطُلةَ على قديم الدّهر أهلَ فتنةٍ وقيام على الملوك، فلم يرضَوْا سيرةَ هذا الفتى، فخَلَعوه ووَلَّوا على أنفُسِهم من يَنظُر في أمرِهم، ثمَّ إنَّهم نَقَموا عليه شيئًا

(١) خبر مقتل ابن نغرالة في الإحاطة ١/ ٤٣٩، كما تقدم.

فعزَلوه ووَلَّوا غيرَه، ثمَّ خَلَعوهُ، ثمَّ رأَوْا أن يُرسِلوا إلى ابن ذي النُّون لشَنْت بِرْيةَ، فوجَّه إليهم ابنَه إسماعيلَ[1] بن عبد الرحمن بن ذي النُّون، فاستَولَى هذا الفتى على مُلك طُلَيْطُلَةَ وبلادِها، فساس أهلَ مملكتِه السياسةَ الـحَسَنة ورضُوا عليها.

وكان أكبرُ أهل طُلَيْطُلَةَ رجلًا يسمَّى أبا بكر ابنَ الحديديّ، وكان شيخَها والمنظورَ إليه بها من أهل العلم والعقل والدّهاءِ وحُسن النّظرِ في صَلاح البلد، وكانت العامَّةُ تعضُدُه وتقومُ دونَه، فكان هذا الفتى إسماعيلُ بنُ ذي النّون لا يقطَعُ أمرًا دونَه، ويشاورُه في مُهمَّات أمورِه، فحسَدَه قومٌ من أهل طُلَيْطُلَةَ على منزلتِه عندَ أميرِهم فناقشوه وعادَوهْ، وحضَرت منيَّةُ إسماعيلَ بن ذي النّون فوَلِي بعدَه ابنُه يحيى بنُ إسماعيل.

دولةُ يحيى بن إسماعيلَ بن ذي النُّون الملقَّبِ بالمأمون بمدينة طُلَيْطُلَةَ وذَواتِها[2]

لـمَّا ملَكَ يحيى بنُ ذي النُّون طُلَيْطُلَةَ جَرى على سيرةِ أبيه في استعمال قانون العدل، وجَرى معَ ابن الحديديِّ على سَنَن أبيه، فاستقامت طاعتُه وضَخُم مُلكُه، وكان يَلي نظَرَه من ناحية سُليمانَ بن محمَّد بن هود مدينةَ وادي الحجارة، فعارَضَه ابنُ هود فيها، وكان بعضُ أهلِها يَميلونَ إلى ابن هود وبعضُهم إلى ابن ذي النّون، فبعَثَ سُليمانُ بن هود جيشًا إليها أمَّر عليه ابنَه أحمدَ وليَّ عهدِه، فنازَلـها وقاتَلَها، واستجاب له بعضُ أهلِها فأدخَلوه البلد.

وبلَغَ ذلك يحيى بنَ ذي النّون، فقامت قيامتُه وأسرعَ نحوَ وادي الحجارة ليُباشرَ ما جَرى من أمرِها، فجَرت بينَه وبينَ ابن هُود حروبٌ ووقائعُ كان الغَلَبُ فيها لابن هود، إلى أنْ فرَّ ابنُ ذي النّون أمامَه وانحصَر في مدينة طَلَبيرةَ بجيشِه، فنازَلَه أحمدُ بن هود وضيَّق عليه وكتَبَ إلى أبيه يُعلمُه بما تهيَّأ له عليه، فجاوَبَه أبوهُ بالرّجوع عنه، فرجَع ابنُ هود إلى سَرَقُسْطةَ، فلَجَّ ابنُ ذي النُّون في الفتنة ومُطالبةِ سُليمانَ بن هود، فأدّاه اللَّجَجُ

---

(١) المغرب ٢/ ١١.

(٢) المغرب ٢/ ١٢، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٠، ونهاية الأرب ٢٣/ ٤٤١.

والـجُنوحُ إلى الغَلَبة والإباية من الاهتضام إلى مُظاهرةِ النّصارى والتناصُر بهم، فاستمال القومسينِ الأشبينِ من وَلَد الطاغية شانْجُه بن غَرْسيّه، وبذَل لهما مالًا وذخائر وأخرجهما إلى نظرِ سليمانَ بن هودٍ ورعيّتِه من المسلمين بالثَّغر الأعلى قاصدينَ مكروهَ ابن هودٍ لإرضاء ابن ذي النّون، فانبَسطوا هنالك آمنينَ وجرَت خيولُهم كيف شاءت في بلاد المسلمينَ مطمئنِّين، ولاذَ منهم ابنُ هود ووَلَدُه بحصُونِهم وتَركَهم يَجُولونَ في الأرض، فلا أحدَ يصُدُّهم عن ذلك، وكان أوانُ الحصاد، فنزَلَ الـمُشركونَ بساحتِها نزولَ إقامة وحشَروا لها عُلوجَهم للحصاد والنُّـقلان مدَّةً من شهرَيْنِ كاملَيْن، حتَّى استوعَبوا جميعَ ما فيها حصادًا ودَرْسًا ونُقلانًا إلى بلادِهم، والمسلمونَ ينظُرونَ إليهم لا يملِكونَ دفاعًا، ثمَّ انصرَف العدوُّ عنهم إلى أرضِه بعدَما قَتل وأسَر ودَمَّر، فقَوِي طمعُه فيهم وامتدَّت آمالُه إلى التغلُّب على بلاد المسلمين، إذ لم يقفْ أحدٌ في وجهه، وتمكَّن خلال ذلك يحيى بنُ ذي النُّون من العَبَث فيما يَليه من بلاد ابن هُود ولم يقصِّرْ في إفساد ما وَطِئ من أرض المسلمين.

ثمَّ دعَت الضرورةُ لابن ذي النُّون إلى محالفة الـمُعتضِد بن عبَّاد والدّخول في دعوتِه الهشاميَّة التي أنكَرها أبوه قديمًا من الدّخول في دعوة الـمُشبَّه بهشام، فاستحالت نيَّتُه عن ذلك، واستجابَ الآنَ لها ودَعا رعيَّتَه إلى الدّخول فيها، كلُّ ذلك طمعًا في نُصرتِه على مُعاداةِ سُليمانَ بن هُود، فوعَدَه ابنُ عبَّاد بالتناصُر والتظافُر، وأظهَرَ يحيى بنُ ذي النّون الدّخولَ في هذه الدّعوة الهشاميَّة وعَقَدَ البيعةَ على نفسِه وأجنادِه وأهل عملِه وأعلَنَ بالدعاءِ على منابرِه لهذا الموضوع بإشبيلِيَةَ، فذهب به الطمعُ الخائبُ كلَّ مذهب، وغرَّه الأملُ واتّبَعَ الباطلَ. واشتَغل ابنُ عبَّاد عنه بما فُتح عليه من حربِ جارِه ابن الأفطَس من التعرُّض لبلادِه والطلب لثَغْرِه، وزلَّت قَدمُ يحيى بن ذي النُّون في ذلك ولم يبلُغْ أملَه، وقد كان قرَّر عندَه مشيخةُ طُلَيْطُلة كابن مُغيث وابن الحديديّ بما هم في ذلك من الصّلاح لبلادِهم، فصرَّفوا رأيَه في ذلك ورَدُّوا الأمرَ إليه فيه، وكان المتمِّمَ لذلك من قِبَل ابن عبَّاد وزيرُه أبو عَمْرٍو ابنُ الدّبّ الإشبيلي، ومن قبل يحيى بن ذي النون أبو عَمْرو ابن الحذَى، فعَقَد ابنُ الدُّبّ وابنُ الـحِذَى هذا الأمر، ورجَع الدعاءُ لهشام بطُلَيْطُلة

بحضرة ابن الدُّبّ، وسار ابنُ الدُّبَ إثْرَ ذلك إلى إشبيلِيَةَ ومعَه وفدُ طُلَيْطُلة، فجاءوا ابنَ عبَّاد بمجدِ الدّهر فيها ظنَّه، واستطار بذلك فرحًا وقدَّر أنَّه لم يبْقَ عليه بعدَ طُلَيْطُلَةَ أحد.

وظاهَرَ سليمانُ بن هود النّصارى أيضًا: فرذلندَ بن غَرْسِيّة ورُدْمير بن شانْجُه بن غَرْسِيّة، وكان بين هؤلاء الإخوة من التنافس والتباعد والعداوة والحرب أشدَّ ما بين اثنيْنِ فراسَلَ ابنُ هودٍ فرذلندَ الطاغيةَ وبعَثَ إليه بأموالٍ جمَّةٍ وهدايا جليلة، وسألَه الخروجَ إلى بلدِ ابن ذي النُّون بجيشه، فخَرجَ بعددٍ عظيم إلى ثغرِ طُلَيْطُلة فأفْنَى حُماتَه ورجالَه وعاث في بلادِهم، وصبَّ اللهُ تعالى على أهل الثّغور من الجُبْن عن العدوِّ ما لا كَفاءَ له، فلا يكادُ أحدٌ منهم يَلقَى نَصرانيًّا في قرار من الأرض إلَّا ويُولّيه الدُّبُر غيرَ مستحيي من الله سبحانه من الفِرار أمامَه، حتَّى تعوَّد أعداءُ الله ذلك منهم فلا يَعُدُّونَ حَبْلَهم شيئًا، فذهبت أكثرُ أموال أهل طُلَيْطُلة بتكرُّر الغاراتِ عليهم وفشَت جَوائحُهم وجَلا كثيرٌ من أهل ضِياعهم وأطرافهم إلى قاعدتهم.

واضْطُرَّ أهلُ طُلَيْطُلة أن يبعَثوا إلى سليمانَ بن هود يطلُبونَ منه الـمُصالحةَ والـمُهادنة، ووَصَلوه إلى سَرَقُسْطة فدخَلوا عليه ووعَظُوه وذكَّروه اللهَ سبحانه، وعرَّفوه بما تهيَّأ للعدوِّ من النّصر والظّفَر على المسلمينَ وما أفسَدَ من بلادهم وما ظَفِرت به أيديهم من أموال المسلمين، وعزَموا عليه في الصُّلح الذي يُزيلُ طمعَ العدوِّ فيهم، فأظهرَ لهم قَبولَ ما دعوه إليه، ورجَعوا إلى أميرهم يحيى بن ذي النّون وهو مُتردِّدٌ في الـمَيْل إلى وِفاق النصارى، فنَهَوهُ عن ذلك، فلاقوا منه انقيادًا، ورَدَّ العدوَّ الذي كان معَه إلى بلادِه.

ثمَّ إنَّ ابنَ هود مكَرَ بابن ذي النّون واستَخرجَ طائفةً من النّصارى الـمُظاهرينَ له الذين يَستطيلُ بهم وركِبَ بجيشِه فيهم مُنتهزًا فُرصتَه، فأتى بابَ مدينة سالم المستضافة إلى ابن ذي النّون باسطًا الغارةَ مستطيلًا بجمعِه، فخرَجَت خيلُهم لدفاعِه فهزَم جميعَهم وقَتل منهم جُملة، ومال سُليمانُ إلى الحصون التي كان انتزَعَها ابنُ ذي النّون من يدَيْه فاستردَّها وأثَّر في أعمال ابن النُّون آثارًا قبيحة، وكان معَ سُليمانَ بن هود عبدُ الرحمن بنُ إسماعيل بن ذي النّون أخو يحيى الذي نازَعَه سُلطانَه، فدلَّه على عَوراتِه وبالَغَ في إذايتِه، ويحيى في هذا كلِّه قد ذهبَ به اللَّجَجُ كلَّ مذهب، فأبرزَ أموالَه وانحنَى على ذخائرِه،

فوجَّه بكثير منها إلى الطاغية غَرْسية، فخرج غَرْسِيَّةُ الـمُظاهرُ لابن ذي النّون في جُموع جمَّة من الكَفَرة إلى الثّغر الأعلى من عمل ابن هود، وجَرت خيلُه وسراياه بكلِّ سبيل وإلى كلِّ جهة مُناغيًا لأخيه فرذلندَ فيما فعَلَه في عمل ابن ذي النّون، فأخلَّ بأعمال ابن هود ما بين تُطيلَةَ ووَشْقةَ، وجَعْجَعَ بأهل الثّغر الأعلى فحشَى قلوبَهم رُعبًا وخوفًا، ثمَّ أتَى قلعةَ قَلَهُرّة ـ من ثغرِ تُطِيلة ـ بجَمْعِه، فلم يزُلْ عنها حتَّى فتَحَها، وذلك في صدر عام سبعةٍ وثلاثين، وابنُ هود في هذا كلِّه قد حاد عن لقائه على ما كان عندَه في ذلك الوقت من الجموع ووفورِ الأعداد، واقتصَر على ضَبْط الحصون والقلاع وشَحْنِها بالأطعمة والرّجال، وخَلّى بين عُداة الله والبسائط يُسعِّرونَها نارًا.

وخَرج فرذلندُ الطاغيةُ أيضًا الـمُظاهرُ لسُليمانَ بن هود، وهو فرذلندُ بن شانْجُه أميرُ جِلِّيقيَّة، إلى ثغرِ طُلَيْطُلة في خَلْق كثير، وجاءه ابنُ عمّ ابن ذي النون ليَدُلَّه على عَوَراتِ البلاد، وتَهارَبَ الناسُ أمامَه من كلّ جهةٍ إلى طُلَيْطُلَةَ حتَّى غُصَّت بهم واضْطَرَبت أحوالُ أهلِها، كلُّ ذلك وأميرُهم يحيى بنُ ذي النّون غائبٌ عنهم بجيشِه في مدينة سالم مُقيمٌ بها لئلَّا يدخُلَها ابنُ هود، فلمَّا تيقَّن بخروج هذا اللّعين إلى عمله وضجَّت رعيَّتُه إليه، جاء في جموعه، فلم يصنَعْ شيئًا ولا قَدَرَ على لقائه.

واضْطَربت أحوالُ الناس بطُلَيْطُلَةَ خلالَ ذلك وغَلَت، فلمَّا رأى ذلك أهلُ طُلَيْطُلة أرسَلوا إلى الطاغية فرذلندَ المظاهر(١) لابن هود ليعقِدوا معَه صُلحًا على بلدِهم طُلَيْطُلَةَ وما حولَها على مالٍ يؤدُّونَه إليه ويرحَلُ عنهم، فقال لهم: ما أُجيبُكم إلى سِلم ولا أُعفيكم من حرب حتَّى تفعلوا كذا وكذا، واشتَرطَ عليهم شروطًا لا يقدِرونَ عليها، فقالوا: لو كنَّا نقدِرُ على هذه الأشياء وهذه الأموال لَنفَقْناها على البرابرة واستَدعَيْناهم لكشْفِ هذه الـمُعضلة، فقال لهم فرذلند: أمَّا قولُكم: لا تَقْدِرونَ على هذه الأموال فذلك مُحال، فلو كُسِفَ سقوفُ بيوتكم لَبَرِقَ ذهبًا لكثرتِه، وأمَّا استدعاؤكم البرابرةَ فأمرٌ تكثُرونَ به علينا وتهدِّدونَنا به ولا تقدِرونَ عليه معَ عداوتِهم لكم، ونحن قد صَمَدْنا إليكم ما نُبالي مَن أتانا منكم، فإنَّما نطلُب بلادَنا التي غلبتُمونا عليها قديمًا في أوَّل أمرِكم، فقد سكنتُموها ما

---

(١) في م: «الظاهر»، ولا معنى لها.

قُضِيَ لكم وقد نُصِرنا الآنَ عليكم برداءتِكم فارحَلوا إلى عدوتِكم واترُكوا لنا بلادَنا فلا خيرَ لكم في سُكناكم معَنا بعدَ اليوم ولن نرجعَ عنكم أو يَحكُمَ اللهُ بينَنا وبينكم، فلم يجدْ رسُلُ أهل طُلَيْطُلة عندَ فرذلندَ وأصحابِه النّصارى قَبولًا لِـما عَرَضوه عليهم من الصُّلح.

وكان أخو هذا العِلج صاحبَ يحيى بن ذي النّون مُظاهرًا له، فخَرَجَ في هذه السنة إلى بلاد ابن هُود فوطئها وأغلَظَ في إهلاكِها وأخلَّ بالثّغر الأعلى وفعَلَ فعْلَ أخيه فرذلندَ في نظرَ ابن ذي النّون.

ودامت الفتنةُ ما بينَ هذَيْن الأميرَيْن: ابن هُود وابن ذي النُّون على هذه الحال من سنة خمسٍ وثلاثينَ إلى آخِر سنة ثمانٍ وثلاثين وأربع مئة، وانقطعت بموتِ سُليمان بن هود في السنة المذكورة.

ولـمّا تنفّس مخنَّقُ ابن ذي النُّونِ بموت سُليمانَ المذكور، جعَل يَطلُبُ جارَه ابنَ الأفْطس صاحبَ بَطَلْيَوْس، فجرت له معَه حروبٌ كثيرة.

ولـمّا اشتدَّت أمورُ بني بِرْزال أصحابِ قَرَمُونَةَ معَ عبَّادٍ المعتضِد وضاقت أحوالُهم، خاطَب رئيسُهم العزُّ بنُ إسحاق المأمون يحيى بنَ ذي النُّون يَستغيثُه منَ ابن عبَّادٍ وألَحَّ عليه ووَالَى كتبَه على أن يُعطيَه قَرَمُونةَ وسائرَ نظَرِها ويُعطيَه المأمونُ من بلادِه عِوضًا، فاتَّفقا على ذلك. وخرَجَ العزُّ بنُ إسحاق من قَرَمُونةَ إلى حِصن الـمُدوَّر، وكان من جُملة بلادِ ابن ذي النُّون فأخْلاهُ له وحصَّل بقَرَمُونةَ رجالَ ابن ذي النُّون.

ولـمّا بلَغَ ذلك ابنَ عبَّاد كتَبَ إلى ابن ذي النُّون في السّرّ يقولُ له: إنَّ قَرَمُونةَ قريبةٌ من بلدي، وهي أليَقُ بي لأنَّها بعيدةٌ من بلادِك، فاصرِفْها إليَّ وتكونُ يدي ويدُك واحدةً على مدينة قُرطُبَةَ حتَّى تكونَ لك، وكانت مدينةُ قُرطُبَةَ أُمنيَّةَ ابن ذي النُّون، فأجابَه ابنُ ذي النُّون إلى ذلك وتوثَّقَ منه بالأيمان، وأخْلى له قَرَمُونةَ فرجَعت لابن عبَّاد، فشَحَنَها بالأطعمة وقوَّاها بالرّجال.

وغدَر ابنُ عبَّاد بابن ذي النُّون ولم يفِ له بشيء، فاغتاظَ ابنُ ذي النُّون، ووَجَّه إلى قُرطُبَةَ عسكرًا عظيمًا، فجَرت لأهل قُرطُبة معَه حروبٌ عظيمة وضاقت قُرطُبَةُ بأهلِها وانقطعت عنهم الـمَرافق، فحينئذٍ استغاثوا بمحمَّدِ بن عبَّاد وهو المعتمِد، وكان لقَبُه الظافر، فأتاهم مُغيثًا لهم، فقاموا على أميرِهم عبد الملك بن جَهْوَر ومَلَكَها جيشُ المعتمدِ كما تقدَّم.

وفي سنة ستّينَ وأربع مئة: توفّي المعتضِدُ بالله عبّادُ بن محمَّد بن عبَّاد صاحبُ إشبيلِيَة في جُمادى الآخِرة وسنُّه إذ ذاك سبعٌ وخمسونَ سنة[1].

قال ابنُ القطّان: كان ذا سَطوةٍ كالمعتضِدِ العبَّاسيِّ ببغداد، وكان ذا سياسةٍ ورأي، يُدبِّرُ مُلكَه من دارِه، وكان يغلِبُ عليه الجُود، فلم يُعلَمْ في نُظرائه أبذلُ منه المالَ، وكان لأهل الأدب عندَه سوقٌ نافقة، وله في ذلك همَّةٌ عالية، ألّفَ له الأعْلَم أديبُ عصرِه ولُغَويُّ زمانِه شَرْح الأشعارِ الستَّة وشَرْح الـحَماسة، وألَّف له غيرُه دواوينَ وتصانيفَ لم تخرُجْ إلى الناس.

قال أبو نَصْر[2]: وهذه بقيّةٌ مُنتهاها في لَـخْم، ومُرتَماها إلى مَفْخَر ضَخْم، وجَدُّهم المنذرُ ابنُ ماءِ السّماء، ومطلعُهم من جوّ تلك السماء، وبنو عبَّادٍ ملوكٌ أنِسَ بهمُ الدّهر، ولِبسَ بقُربِهم الفخر، وعَمَروا رَبْعَ الـمُلك، وأمَروا بالحياةِ والـهُلك، ومعتضِدُهم هذا مَلِكٌ جرَّد سيفَه، وأورَدَ العِدى حتفَه، لم يبرَحْ من قصرٍ ولا رَوْضٍ نضير، ولم يُسرِعْ له غيرُ رأي وتدبير، وجيوشُه تفتِكُ فَتكاتِ الآساد، وتنتزِعُ الأرواحَ من الأجساد، وتُثمرُ بالجماجم ذوابلَه، وتقتنصُ العربُ والعجَمُ حبائلَه، والبلادُ باسمه تُفتحُ مغالقُها، والعِدى بحُكمِه تنثالُ بين يدَيْه مفارقُها، حتَّى استقرَّ مُلكُه أعظمَ استقرار، وأقرَّ معانِدُه بالرِّقِّ لذلك الحدِّ الـمرَهفِ المعار.

وقال الـحُمَيديُّ في كتابِه[3]: كان أبو عَمْرٍو عبَّادٌ صاحبُ إشبيلِيَةَ من أهل الأدبِ البارع والشِّعر الرائع، وقد رأيتُ له سِفْرًا صغيرًا في نحوَ ستّين ورقةً من شعرِ نفسِه، فمِن قولِه [من المنسرح]:

كــــأنَّما ياسَـــــمينُنا الغَــــضُّ ... كواكــــبٌ في الـــسماء تبـــيَضُّ
والطّــــرقُ الـــحُمرُ في جوانبِـــهِ ... كخـــدِّ عـــذراءَ مـــسَّه عـــضُّ[4]

(١) نهاية الأرب للنويري ٢٣/ ٤٥١.

(٢) هو الفتح بن خاقان، والنص في كتابه «مطمح الأنفس»، ص٧٠ باختلاف لفظي.

(٣) جذوة المقتبس (٦٧٢).

(٤) هذا آخر ما وجد من أخبار الأندلس، ولا شك أن نقصًا في النسخ الخطية قد وقع بعد هذا، فقد وعد المؤلف بإتمام ذلك إلى سنة ٤٧٨هـ كما ذكر في مقدمة كتابه.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
مقتَلُ يحيى بن عليٍّ بن حَمُّود الـحَسَنيِّ رحمه الله	٤٣٣
ذكْرُ ابتداء الدّولة العَبَّاديَّة على الـجُملة إلى آخِر أيَّام محمد بن إسماعيلَ بن عبَّاد	٤٣٨
ذكْرُ مدَّة القاضي أبي القاسم محمَّد بن عبَّاد ونُبَذ من أخبارِه وسِيَرِه	٤٣٩
خبرُ هشام المؤيَّد بالله بإشبيلِيَة	٤٤٠
دولةُ أبي عَمْرٍو عبَّادِ بن إسماعيلَ بن عبَّاد اللَّخْميّ	٤٤٥
بعضُ حروبِ الـمُعتضِد بن عبَّاد معَ الـمُظفَّر بن الأفطس وغيرِه	٤٤٩
بقيَّةُ أخبار الحمُّوديّينَ ووِلاياتِهم إلى انقضاء مُدَّتِهم	٤٥٣
ذكْرُ ابتداء الدّولة الـهُوديَّة	٤٥٦
بعضُ أخبارِ سُليمانَ بن هُود الـمُستعينِ بالله	٤٥٧
ومن أخبارِ أحمدَ بن سُليمان بن هُود الـجُذَاميّ	٤٥٩
ذكْرُ أخْذِ النّصارى مدينةَ بربُشْتر، من عملِ ابن هُود	٤٥٩
نُبَذٌ من أخبارِ بني جَهْوَر أُمراء قُرطُبة	٤٦٤
ابتداءُ دولة بني الأفطس، وهم بنو مَسْلَمة	٤٦٧
دولةُ المظفَّرِ محمَّد بن عبد الله بن مَسْلَمةَ ابن الأفطس	٤٦٧
بعضُ أخبارِ البكريّيَن من أُمراء غَرْبِ الأندَلس	٤٧٠
وَقْعةُ بَطَرْنَة	٤٧٨
بقيَّةُ أخبارِ بني جَهْوَر وخَلْعُهم	٤٨١
خَلْعُ ابن جَهْوَر وتغلُّبُ ابن عبَّاد على قُرطُبة	٤٨٤
بعضُ أخبارِ باديسَ بن حَبُّوس وقومِه صُنْهاجةَ وانتزائهم على غَرناطةَ	٤٨٦
ومن أخبارِ بني بِرْزال الزّناتيّينَ الـمُنتزينَ على قَرمُونةَ وما حولَـها	٤٩٠
ومن أخبارِ بني يَفْرَن الزّناتيِّينَ وأميرِهم أبي نُور بن أبي قُرَّةَ وانتزائهم على بلادِ تاكُرُنَّا	٤٩٢
ذكْرُ دخول الظافر محمَّد بن عبَّادٍ مالَقةَ وخروجِه مفلولًا منها	٤٩٤
ذكْرُ ابتداءِ الدّولة الذَّنُّونيَّةِ بالأندَلس واحتوائهم على مدينة طُلَيْطُلة	٤٩٦
دولةُ يحيى بن إسماعيلَ بن ذي النُّون الملقَّبِ بالمأمون بمدينة طُلَيْطُلةَ وذَواتِها	٤٩٧

دار الغرب الإسلامي
تونس
لصاحبها : الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية بالفي - تونس – فاكس : 0021671396545 – خلوي : 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم: 537/ 1000-10- 2013 تونس
التنضيد: المؤلف
الطباعة: برنت شوب - بيروت

AL-BAYAN AL-MUGHRIB

By

Abu Al-Abbas Ibn Athari

(Died after 712 AH)

Vol. 2

Edited with a Critical Introduction

By

Prof. Bashar A.Marouf & Mahmoud B.Awad

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS